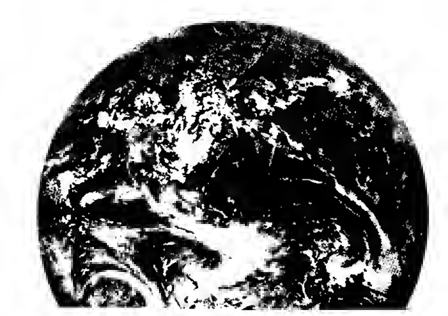
الدكتور حسين مؤنس

عالم الإسلام

الزهراء للإعلام العربي



مقدمـــة

دارت فى ذهنى ــ منذ سنوات طويلة ــ فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعى للأمة الإسلامية أنحو فيه نحْوَ جورج ماكولى تريفْليان فى كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعى الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يُكتب هذا التاريخ الاجتماعى بصورة تقرب من الشكل والمستوى اللذين طلبتهما .

ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره ، فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا نُتفات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تظفر منه إلا بشذور لا تتناسب مع الجهد المبذول فى القراءة وتسجيل الملاحظات وتحرير البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد المبرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعتبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع ــ ولم يتفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها ــ وغيرها كثير .


http://arabicivilization2.blogspot.com

مقدمة

دارت فى ذهنى ــ منذ سنوات طويلة ــ فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعى للأمة الإسلامية أنحو فيه نحو جورج ماكولى تريفيليان فى كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعى الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يُكتب هذا التاريخ الاجتماعى بصورة تقرب من الشكل والمستوى اللذين طلبتهما .

ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره ، فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا نحات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تظفر منه إلا بشذور لا تتناسب مع الجهد المبذول فى القراءة وتسجيل الملاحظات وتحرير البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد المبرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعتبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع ــ ولم يتفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها ــ وغيرها كثير .

واتسع بي المجال بعد ذلك ، فقرأت — في سعة — كتب الرحالين والجغرافيين ومؤلفات الحسبة وكتب الفقه والنوازل والفتاوي ، والمؤلفات المتخصصة في التجارة وأنواع الصناعات وشئون المعاش مثل : كتب النباتيين والعشابين ومؤلفات الطب والصيدلة والحيل والفلك وكتب الأحكام والنظم وما إلى ذلك كله ، ثم عكفت على الوثائق الأصلية من عقود زواج ووقفيات ووثائق بيع وشراء ورهن وإيجار وما إلى ذلك ، وهي — على قلتها عندنا — تعد ذخراً من ذخائر المكتبة العربية . وقرأت كثيراً في كتب التراجم ، وهي في الحقيقة من أهم المصادر لدينا عن الحياة الاجتماعية .

ووجدت — آخر الأمر — أنه من العسير إنشاء كتاب واحد عن التاريخ الاجتماعي الإسلامي العام ، لأن بلاد المسلمين قد تتشابه في مظاهر الحضارة العامة مثل هيئة المدن ونظامها وحكومتها وأنواع النسيج المستعملة ومستويات العلوم والآداب والصناعات والفنون ، ولكن لكل منها — إلى جانب ذلك — مجتمعه الخاص به الذى شكل وتكون وتطور في ظروفه الجغرافية والتاريخية والسياسية ؛ وإذا كان الدمشقي يشعر عندما ينتقل إلى القاهرة بأنه يعيش في نفس الجو الحضارى إلا أنه يشعر أيضاً — دون شك — بأنه في مجتمع غريب عليه ، فنظام البيوت وأنواع المطاعم والملابس والعادات والتقاليد تختلف ، بل إن اللهجة العربية التى يسمعها تبدو له أول الأمر غريبة على أذنه ، ولابد من وقت طويل حتى يندمج في مجتمعه الجديد ، ولن يتم له ذلك إلا إذا تخلى عن عاداته الأولى وأخذ بما يجرى الناس عليه في المجتمع الجديد .

وإذن فلا سبيل لكتابة هذا التاريخ الاجتماعي إلا إذا أفرد مؤلف خاص لكل بلد إسلامي على حدة .

وأحب أن أنبه هنا إلى أنني أتكلم عن التاريخ الاجتماعي لا الحضارى ، فإن حضارة الشعوب الإسلامية متقاربة وقد ألف فيها الكثيرون كتباً

جيدة ، ولكن النظم الاجتماعية وأساليب الحياة وأشكالها ومستوياتها تختلف من بلد لبلد بل من ناحية لناحية فى البلد الواحد .

ولكنى رأيت — بعد ذلك — أن هناك ظواهر اجتماعية مشتركة بين بلاد المسلمين جميعاً : مثل خلو هذه المجتمعات من الطبقات الاجتماعية وفكرتها ، والانفصال بين الدولة والجماعة ، ومتانة بناء الأسرة ، والولع بالحياة فى المدن وإهمال الأرياف ، والاهتمام بالعلم وتوقير العلماء واعتبارهم السادة الحقيقيين للجماهير ، وقلة المنشآت السياسية والإدارية والاجتماعية واتجاه الحكومات — على طول العصور الوسطى — إلى إضعافها ووضع يدها عليها .

والمنشأة السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية تقابل ما يعرف باسم Institution فى اللغات الأوروبية ، ولم نشأ أن نسميها مؤسسة — كما يقال أحياناً — لأن المؤسسة أخذت فى أيامنا هذه معانى لا صلة لها بمصطلح Institution الغربى — فالقضاء والحسبة والمظالم والإنشاء والجيش لا يمكن أن تسمى مؤسسات ، وإنما هى فى الحقيقة منشآت أو ركائز يقوم عليها البناء السياسى والاجتماعى للجماعة ، ولهذا أسميناها بهذا الاسم ثم وصفناها بعد ذلك ؛ فالقضاء منشأة تشريعية ، والحسبة منشأة إدارية وكذلك المظالم ، والجيش منشأة عسكرية ، والتعليم منشأة ثقافية ، وهكذا .

وبينما قام التنظيم الغربى كله منذ العصور الوسطى على المنشآت ، فإن مجتمعنا الإسلامى لم يقم فيه إلا القليل منها ، ولم يقم إلا القليل من المنشآت السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية وبخاصة فى المدن والأرياف والحرف والصناعات وما إلى ذلك ، وهذا القليل مع ذلك لم يكن مضبوطاً مقنناً فى أحكام .

ولهذا فقد اجتهدت حتى جمعت الظواهر الاجتماعية العامة التى تشترك فيها كل المجتمعات الإسلامية خلال العصور الوسطى ، ووجدت بعد ذلك

أنها تصلح لأن تجمع فى صعيد واحد وتعد مقدمة للتاريخ الاجتماعى لبلاد الإسلام .

* * *

وعندما انضممت إلى هيئة التدريس فى كلية الآداب بجامعة الكويت بدأت أرسم منهج الكتاب ، وإذا أنا فى ذلك طرأت فكرة تطوير مادة الثقافة الإسلامية التى تدرس لطلاب الجامعة ، وإضافة جانب من التاريخ الحضارى الإسلامى إلى ما كان يدرس من مواد الفقه والشريعة ، وكان صاحب هذه الفكرة هو السيد الأستاذ الدكتور عبد الفتاح إسماعيل مدير الجامعة إذ ذاك ، فعهد إلىّ وضع منهج مناسب لهذا الجانب الحضارى ، فوضعته وقمت بتدريسه ، ومضيت أدخل عليه التعديلات بعد ذلك سنة بعد سنة ، حتى انتهى إلى الصورة التى يراها القارئ بين دفتى هذا الكتاب .

ولابد أن أنبه إلى أن الخصائص الاجتماعية التى أتحدث عنها فى هذا الكتاب ليست كل ما يميز المجتمعات الإسلامية عن غيرها ، وإنما هى أهمها فى نظرى وأكثرها دلالة على الشخصية الخاصة للمجتمعات الإسلامية ، وهناك خصائص وملامح أخرى ولكنها لا ترتبط هذا الارتباط الوثيق بطبيعة الإسلام وجماعته ، ولهذا تركتها جانباً ، لا لأنى لا أقدر أهميتها ، بل لأنه كان لابد من مراعاة الاختصار فى مثل هذا الكتاب ، فهو — فى الحقيقة — مقدمة أو مدخل لتاريخ اجتماعى إسلامى ، وهو مؤلف رائد فى هذا الموضوع لابد أن يراعى فيه الاقتصار على الأهم دون المهم ، حتى إذا تداول الناس الكتاب وأبدوا آراءهم استطعنا أن نعيد كتابته على صورة أشمل وأكمل .

وقد رأيت — قبل أن أدخل فى تحليل بناء المجتمع الإسلامى وتبيان ملامحه المميزة — أن أعرِّف القارئ فى إيجاز بعالم الإسلام ، فبدأت الكتاب بفصل عن ذلك العالم ، درست فيه قيام الجماعة الإسلامية ، ثم أوجزت الكلام عن اتساع رقعتها ونموها حتى وصلت إلى الصورة التى هى عليها اليوم ، أى أننى درست فى ذلك الفصل الأول تكوين عالم

الإسلام رأسياً ثم أفقياً ، وكل ذلك على وجه من الإيجاز شديد .

ورأيت أن أقف بعد ذلك وقفة طويلة عند قيام الجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة المنورة على يد الرسول ، صلوات الله عليه ، واختصصت الصحيفة ــ أو الكتاب الذى كتبه الرسول بين أعضاء الجماعة من مهاجرين وأنصار ومن حالفهم وارتبط بهم من اليهود ، وأعتقد أن هذه هى أول مرة تدرس فيها هذه الوثيقة فى اللغة العربية على هذا النحو . وقد بينت بعد ذلك خصائص هذه الجماعة الإسلامية الأولى لأن هذه الخصائص تحدد فى رأيى الخصائص التى كان ينبغى أن تتوافر فى كل جماعة إسلامية بعدها .

وبعد ذلك تأتى بقية فصول الكتاب على النحو الذى يجده القارئ مبسوطاً فى صفحاته .

* * *

وبعدُ ، فهذه محاولة رائدة فى ميدان التاريخ الإسلامى ..

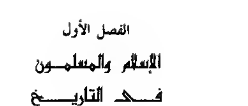
وهى ــ كمحاولة رائدة ــ تحتمل النقص ومواضع الخطأ أكثر مما يتعرض له مؤلف تقليدى فى التاريخ السياسى .

وقد أنفقت وقتاً طويلا وجهداً شاقاً فى تكييف الموضوع ولمّ أطرافه وجمع مادته ، فأرجو أن يكون ذلك الجهد شفيعاً لما عسى أن أكون قد سهوت عنه أو أخطأت فيه .

والعلم ــ فى حقيقته ــ تجديد أو بحث عن الجديد ، وأظن أننى قدمت فى هذا الكتاب جديداً عن عالم يحسب كثير من الناس ألا جديد فيه .

والحمد لله فى المبتدأ والخبر ، نسأله الهداية والتوفيق وصواب الرأى وسداد النظر .

القاهرة فى يناير ١٩٧٣ م — حسين مؤنس



الفصل الأول

الإسلام والمسلمون في التاريخ





عندما أنفكر فى حقائق الإسلام ــ عقيدة ــ وشريعة ومكارم أخلاق ــ وأنظر فى خريطة الدنيا يملكنى العجب لقلة نصيب الإسلام من أهل هذا الكوكب بالمقارنة إلى غيره من العقائد حتى تلك التى لايمكن النظر إليها إلا على أنها مجموعة نصائح وقواعد أخلاقية مثل البوذية ، وبخاصة الشامانية ، وهى أوسع مذاهب البوذية انتشاراً وكان ينبغى ــ إذا كانت أمور البشر تسير على المنطق ــ أن يكون أهل الأرض كافة مسلمين .

ذلك أن الله سبحانه جمع فى هذا الدين من الفضائل المؤدية إلى صلاح الإنسانية وسعادتها فى الدنيا والآخرة مالا نجد شيئا قريباً منه فى كل عقائد البشر ــ السماوية منها وغير السماوية ــ كما سنرى ذلك بالبرهان القاطع بعد قليل .

وقد بينا فى أحد فصول « أطلس تاريخ الإسلام » أن الله عندما نزل الإسلام على رسوله (صلوات الله عليه) أن الأرض لم يكن فيها من النصارى واليهود إلا نحو ثمانين مليونا من الأنفس منتشرين فى أوروبا وجزء ضئيل من شرق آسيا ومصر وشريط من الساحل الشمالى للمغرب وبعض نواح من النوبة ثم دواخل الحبشة لا سواحلها . وحتى هؤلاء كانوا منقسمين شيعا وأحزابا ومذاهب ، فاليهودية كانت قد تحولت إلى عقيدة سرية مقفلة على أصحابها مبعثرة فى نواحى المعمورة منذ هدم الإمبراطور تيتس معبدهم (معبد سليمان) فى القدس سنة ٧٠ بعد الميلاد . وحتى هؤلاء كانوا متفرقين بين القرّائية والصدوقية وكانت التوارة قد سبيت وضاعت ومضى أحبار اليهود يجمعون أشتاتها . وأما المسيحية فكانت مفرقة بين مذاهب الأريوسية والأثنوسية (التى ولدت فى مجمع أفسوس الثانى سنة ٣٢٥) وهذه كانت مبعثرة فى مذاهب اليعاقبة والنساطرة والملكانيين ، ثم الكاثوليكية التى ولدت فى مجمع خلقيدونية الذى انعقد سنة ٤٥١ م . وفى هذا المجمع المسكونى ــ نسبة إلى المسكونة

وهي الأرض (ومعناه العالمي) — طرد أقباط مصر وأصبحوا أصحاب مسيحية خاصة بهم . وفيه أيضاً وقع الخلاف الحاسم بين مذاهب المسيحية الشرقية التي عرفت في مجموعها بمذاهب الأرثوذكسية أي القديمة ، ومذهب المسيحية الغربية التي سميت بالكاثوليكية أي العالمية . وقد قامت هذه الكاثوليكية على ما رسمه « بولس » الرسول ونسمى في الإنجليزية بالمسيحية البولسية وبولس — ذلك الرجل العنيف النشيط الخارق الذكاء هو الذي صاغ المسيحية المنتشرة الآن في الأرض ، بما في ذلك البروتستنتية بمذاهبها المتعددة ، وهي في ذاتها كانت ثورة على بولس وآرائه وعودة إلى المسيحية كما هي في الأناجيل وبعض أسفار العهد القديم ، ولكنها لم تتخلص من أثر بولس وبعض آرائه مثل القول بالثالوث وتأليه السيدة العذراء مريم والقول بالمعجزات والكرامات والخضوع المطلق للبابوات والقول بأن المسيح قبل موته قال إن بطرس خليفته والإيمان بأن المسيح هو الذي أرسل الحواري بطرس إلى روما لينشىء فيها كنيسته وبطرس هو أول البابوات ، والبابوات يزعمون أنهم ورثة الأرض عن المسيح عيسى بن مريم ، وعلى هذا الأساس أصبح البابوات ملوكاً على الأرض يحيط بهم أمراء الكنيسة وهم الكرادلة (والاسم لاتيني معناه الأقطاب) وتحت الأقطاب يجيء أمراء النواحي وهم الأساقفة باللاتينية ثم القساوسة ثم الرعاة .

وعندما جاء الإسلام كانت المسيحية لا تزال في عصر التكوين ، وكل شيء فيها كان مبهماً وغامضاً ، ولكنها كانت أملا في السعادة والخلاص من الظلم في نظر أتباعها في عصور سادها الظلم والقلق والأخطار والأمراض والمجاعات ونجاحها في العصور التالية قام على جهود البابوات ورجالهم ونفر من كبار القساوسة الزهاد الذين رفعتهم الكنيسة الكاثوليكية إلى مراتب القديسين ، وما زالت البابوية إلى اليوم ترفع من ترى إلى مقام القدسية قائلة : « إن الله أعطاها هذا الحق » . وفي عصرنا هذا كتب كبير اللاهوتيين المسيحيين وهو كارل بارث البروتستنتي نحو عشرة مجلدات في حقيقة المسيحية قال في ختامها : « وبعد .. فإن السيد المسيح رمز للأمن والأمل في حياة أخرى بعد الموت وكتبنا المقدسة صاغها البشر على أساس ذلك الأمل ، فمن أسعده الحظ بالإيمان بذلك الأمل أمكن أن يكون مسيحياً ، وأنا شخصياً لا أومن بقداسة أحد ممن نسميهم آباء الكنيسة وبخاصة بولس وبطرس وأمبروزيوس وأوغسطين . والمسيحية — كما قلت مراراً في هذا الكتاب أمل في الخير وسعادة الآخرة

يبعثه الله فى القلوب ولا مكان هنا لقديسين أو بابوات . لأن البابا ملك فى ثياب ملك ويجلس على عرش ملك . وأما القديسون فملوك فى ثياب متسولين يجلسون على عروش من ذهب .

* * *

وقد استطردت هنا بعض الشيء فى كلامى عن المسيحية حتى أعرف إخوانى المسلمين بها وبمذاهبها وأصولها على وجه الإيجاز ، وأرجو ألا يكون قد صدر عنى فى هذا السياق ما يمس شعور يهودى أو مسيحى ، فنحن المسلمين مأمورون فى قرآننا وحديث نبينا ﷺ بألا نسيء إلى أحد ، وحتى إذا دعونا إلى ديننا كان ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس لنا فى ديننا إلا أن نعظ وندعو لأن الهدى لا يأتى إلا من الله لمن يشاء .

فإذا نحن جئنا إلى الإسلام وجدناه دينا حقا ولد تحت شمس التاريخ المحقق . فبينما نحن لا نعرف من حياة عيسى بن مريم — على التحقيق — إلا شهرين أو أسبوعين فإن حياة محمد (صلوات الله عليه) معروفة محققة يوما بعد يوم ، وقرآننا الذى أنزله الله على رسوله محقق آية بعد آية ، وعقيدة الإسلام وشريعته ومكارم أخلاقه واردة فى القرآن بوضوح ناصع مرة بعد أخرى « مطبقة فى حياة نبينا الذى تعتبر حياته كلها سنة » . والسنة — لغة — هى الطريق أو الطريقة ، وسنة رسول الله (صلوات الله عليه) هى طريق الإسلام ، وخلق رسول الله — الذى ينبغى أن يكون خلق كل مسلم هو القرآن كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها .

ومن ثم فقد كان ينبغى أن يعم الإسلام طباق الأرض ويشمل جميع أجناس البشر حتى يكون الدين كله لله ، لأنه فعلا دين حق لا شك فى صدوره عن الله ، وهو بالفعل دين قائم أى خالد ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه عنه فى القرآن :
﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ التوبة : ٣٦ .

فإذا كان الإسلام — وهو دين الله حقا — لم يعم طباق الأرض ولم يدخل فيه البشر كافة فإن المسئولية فى ذلك تقع علينا نحن المسلمين ، فقد بعثه الله فينا ونحن أمته ، وكان علينا أن نعمل فى جهد خالص لتعم بركاته الدنيا . ومن هنا فلا شك

فى أن أجيالنا السابقة قصرت فى حمل رسالة الإسلام ، لأن أجيال المسلمين الأولى عندما صدقت العزم فى ذلك دخل نصف أهل الأرض فى دين الله فى قرن واحد من الزمان ، ثم تراخينا وقصرنا بينما اجتهد الآخرون فى نشر أديانهم فكان ما ترى من انحسار المد الإسلامى ، والمثال البين على ذلك هو ما تراه الآن فى قارة أفريقيا ، فهى اليوم ميدان الصراع المفتوح بين الإسلام والنصرانية ، وها أنت ترى كيف يديرون معركتهم . والدول الجديدة المسيحية فى هذه القارة لا تكتفى بنشر دينها فى بلادها بل هى تحارب الإسلام وتعمل على الحد من انتشاره مستعينة فى ذلك بكل سلاح حتى بالشيوعية كما ترى ، تحاربه الحبشة التى نزعم أنها شيوعية وهى فى الصميم من المسيحية ، وقد ساعدتها أوروبا وأعطتها آريتريا العربية المسلمة ونصرتها على الصومال ، ونحن وأهل الصومال وآريتريا مقصرون فى حق الإسلام ، ولو صدقت عزيمتنا لارتد المد النصرانى وعاد الإسلام إلى الظهور على كل دين سواه فى وادى النيل وبلاد القرن الأفريقى .

وأنا أقول هذا الكلام عتباً على إخوانى المسلمين وسعيا وراء مافيه خير البشر ، ونحن نسمع بعضنا يؤلف كتبا فيمن يسميهم أعداء الإسلام . والحق أن الإسلام دين ليس له أعداء ولا يمكن ــ بداهة ــ أن يكون له أعداء . وإنما أعداء الإسلام حقا هم المسلمون الذين يقصرون فى حق الإسلام ، ولقد قرأت معظم ما كتب فى لغات الأرض حملة على الإسلام ، فما وجدت فى واحد منها حملة جدية على عقيدة الإسلام أو شريعته ، وإنما الحملة فى الغالب على المسلمين . وإذا أردت برهانا على ذلك فاقرأ فى ذلك الكتاب القيم الذى نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربى لدول الخليج بعنوان « مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية » (جزءان : الرياض ١٩٨٥) لترى بنفسك أن كل هجوم المستشرقين كان موجها إلى المسلمين لا إلى الإسلام ، فإذا كان هناك هجوم على الإسلام أو القرآن أو الرسول فإن مرد ذلك إلى الجهل بذلك كله . ونستثنى من ذلك بعض الكارهين للإسلام حقا الحاقدين على رسوله من أمثال الأب هنرى لامانس والمستشرق أجناس جولدزيهر واليهودى مرجوليوث .

ولا أقول ذلك توهيناً لحماس المسلمين فى نشر دينهم ، بل أقوله لأن الأمل فى عودة الإسلام إلى النصر والتدفق مازال باقيا معقوداً بنواصينا ، وكل ما مضى من

عمر الإسلام أربعة عشر قرناً ، وبقيت من عمر الزمان إلى أن يطوى الله الأرض ومن عليها ملايين السنين . فلو أننا فتحنا عيوننا ونفضنا عنّا تراب الكسل لعاد الإسلام إلى الظفر وبخاصة أن أديان البشر الأخرى كلها فى ضعف وتفكك . ولم يبق من الأديان ثابتا متماسكا إلا الإسلام والحمد لله رب العالمين .

* * *

ولكى أعطيك مثالا عن تميز الإسلام على غيره من الأديان فلننظر إلى قصة خلق الله لآدم وما تحمله به الله من الرحمة والنعمة فلنقارن بين القصة كما تروجها الكتب السماوية الأخرى وكما نراها فى القرآن .

وإذا كانت الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تعتبر البقية الباقية التى يعتمد عليها من نص التوراة فلننظر إلى الحكاية كما ترد فيها ، وهى هناك مروية فى السفر الأول وهو سفر التكوين بأجزائه الثلاثة .

هنا نجد القصة مبهمة جداً ومتناقضة وبخاصة فيما يرد فى الجزء الثانى من سفر التكوين ومايرد فى جزئه الثالث . وأنت عندما تقرأ هذا السفر تشعر دائماً بأنك تقرأ قصة أسطورية بلا مغزى أو معنى رفيع ، فليس هناك لفظ خاص للدلالة على الإنسان كجنس قائم بذاته ، بل إن آدم نفسه هو الإنسان ، والقصة تقول إن آدم كان يعيش فى ناحية من الجنة تسمى « عدن Eden » ، ونحن نشعر دائما بأن « عدن » هذه مكان على الأرض غير محدد . وفى سفر التكوين نجد علاقة بين خطيئة آدم وإخراجه من الجنة عقابا له على هذه الخطيئة وما تقوله تفاسير الأناجيل (وهى القسم الثانى من الكتاب المقدس المسيحى الذى يسمى بالبيبليا أى الكتاب باللاتينية) عن علاقة بين خطيئة آدم وخلق الله سبحانه لعيسى بن مريم .

بل إن الإشارة إلى أن موت عيسى على أيدى اليهود كان معناه أن الله قد خلص الإنسان من خطيئته بتحمل العذاب على الصليب وأن الله بذلك قد خلص البشر بنفسه . وهذا المعنى لانجده إلا فى سطرين من إنجيلى لوقا ومرقص ، ولكننا ، نجد الإشارة إلى ذلك فى رسائل بولس كثيرة .

وبولس هو الذى ربط فى رسائله إلى الجماعات المسيحية فى روما كورنثس بين خطيئة آدم وموت عيسى على الصليب كما يزعمون . وهذا الرجل هو الذى أنشأ

بالفعل عقيدة الخلاص وقال إن آدم نزل على الأرض ملعونا ، وإن اللعنة لزمته ولزمت أبناءه أجمعين حتى أراد الله أن يخلصه من اللعنة فقرر أن يعالج خطيئة آدم بأن يهبط إلى الأرض فى صورة عيسى بن مريم ويتخذ جسدا من لحم ودم ، ولما قبض عليه اليهود وحاكموه وصلبوه وسال دمه كان فى ذلك خلاص أبناء آدم من خطيئة أبيهم ، وإن كل إنسان يريد تخليص نفسه من خطيئته ولعنة الله إياه لابد أن يؤمن بالمسيح ، ودخول المسيحية يكون بالتعميد أو العماد ، والتعميد يكون على يد رجل من رجال الكنيسة ، فتحمله أمه عقب ميلاده إلى الكنيسة حيث ينثر عليه القس شيئا من ماء التعميد المقدس ، وبدون هذا يظل الإنسان ملعونا . فإذا بلغ الطفل التاسعة أو العاشرة من عمره كان عليه أن يعلن انضمامه إلى الجماعة المسيحية (وهى الكنيسة أو الأيكليزيا) ويكون ذلك على يد القس أيضاً فيذهب الصبى مع أبويه حيث يتم تثبيته فى المسيحية بأن يأكل قطعة من الخبز يضعها القس فى فمه ، وقطعة الخبز ترمز هنا إلى جسد المسيح القتيل ، وهو عندهم الله ذاته ، ويشرب شيئاً من النبيذ من كأس يناوله القس إياها ، وهى هنا رمز على دم السيد المسيح . فإذا فعل الصبى ذلك فقد أدى ما يسمى بالتثبيت وصار ذلك عضوا فى جماعة المسيحيين الذين خلصوا من خطيئة آدم عندما أكلوا لحمه وشربوا دمه الذى رمزوا إليه بالنبيذ ، ولا خلاص لأحد من البشر من اللعنة إلا بدخول الجماعة المسيحية على يد القس على الصورة التى ذكرناها .

وبولس كان رجلا ذا شخصية طاغية وعقلية جبارة ، وقد صنع ذلك كله لكى يفصل المسيحية عن اليهودية فصلاً تاما حاسما لأن المسيحيين قبل بولس كانوا يهوداً ينبعون نبيا من أنبياء بنى إسرائيل يسمى عيسى أو يسوع فقتله أحبار اليهود فى زعمهم لأنه كان مصلحا دينيا واجتماعيا . وقد هاجم أحبار اليهود وهدد سيادتهم ودعا الناس إلى اتباعه . وفى رأى بولس أن السيد المسيح عيسى بن مريم تبع فى ذلك نبيا آخر من أنبياء بنى إسرائيل هو يحيى أو يوحنا انشق على جماعة اليهود الفاسدة وخرج إلى أرض الجليل ، ودعا اليهود إلى التخلص من فسادهم ، فتبعه ناس كثيرون منهم عيسى نفسه ، وكان يوحنا يسير فى الأرض داعيا بنى إسرائيل إلى التخلص من فسادهم باتباعه ويرمز إلى ذلك بالمسح على رؤوسهم بالماء ، ومات يوحنا المعمِّد أو المعمدان هذا فى حادثة مشهورة بأمر من هيرودس الملك إرضاء لسالومى ابنة

زوجته فصار عيسى رأس الجماعة الجديدة وفر اقتحام بيت المقدس والوعظ فى معبد سليمان . وهناك قبض عليه اليهود وحاكموه وصلبوه فيما زعموا ، وهذا ما ذهب إليه بولس وقبل بولس لم يكن هناك شيء اسمه المسيحية .

وبعد بولس نشأت الأسطورة وانتشرت . وكان بولس رجلاً عنيفا قاسيا غضب على الحوارى مرقص فانفصل هذا عنه وذهب إلى مصر حيث كتب إنجيله باللاتينية ، وغضب بولس على الحوارى برنابا فتركه هذا ولزم البرية وكتب إنجيله الذى هاجم فيه بولس وبطرس هجوما عنيفا ، وكانت الأناجيل كثيرة ولكن المجامع الكنسية المسكونية استبعدتها فيما عدا أربعة هى أناجيل متى ويوحنا (وهو غير يوحنا المعمدان) ومرقص وبولس ، وكان من أول الأناجيل التى استبعدت واعتبرت زيوغا إنجيل برنابا ولفظ إنجيل لاتينى ومعناه البشارة أو البشرى .

* * *

وهذه هى حكاية آدم عند بنى إسرائيل وحكاية آدم وعيسى عند المسيحيين فلننظر الآن إلى تاريخ آدم وخلقه كما يرد فى القرآن الكريم لكى يتضح لك جانب من وجوه الحق فى القرآن والإسلام .

* * *

فإذا نحن انتقلنا إلى قصة خلق آدم وزوجه وعلاقتهما بالخالق سبحانه وما كان من إبليس كبير الشياطين وتحديه للإنسان — لا لله سبحانه — وجدنا القصة محكية فى القرآن الكريم ببلاغ ناصع وصدق باهر وتناسق جميل يدل بالفعل على صدورها عن الله سبحانه خالق الكون وخالق القرآن ، وإذا كانوا يقولون إن الأديب الألمانى ڤولفجانج جيته قد ارتفع إلى مراتب أعلام الأدباء بصياغته لهذه القصة على أبدع مثال وفلسفته إياها على نحو يصل إلى قمة الإبداع الفنى فى رواية فاوست ، فسترى أن جيته قد أخذ القصة كلها — كما حكاها — من القرآن لا من الأناجيل ، وسنرى براهين ذلك كله فيما يلى من الحديث :

والقصة محكية فى مواضع شتى من القرآن ، ولكن صلبها نجده فى سورة البقرة ، الآيات ٢٩ وما يليها ، وسنأتى بها على نواليها لكى ترى إبداعها وتناسقها ، ثم نعلق عليها فيما بعد :

٢٩ – ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم ﴾ .

٣٠ – ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون ﴾ .

٣١ – ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

٣٢ – ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

٣٣ – ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

٣٤ – ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

٣٥ – ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

٣٦ – ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

٣٧ – ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ .

٣٨ – ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منّى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

٣٩ – ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

فهنا نجد حكاية آدم وحواء فى الجنة : كيف خلقهما الله من صلصال ثم أسكنهما الجنة ، وكيف كانت حياتهما هناك رغدا ، فهما هناك خالدان ، وما داما خالدين فهما – وكل من فى الجنة – فى غير حاجة إلى إنجاب ، ومن ثم فهما لا يعرفان الجنس ، وهما لا يعرفان الحياء الذى نعرفه نحن من هذه الناحية ، وقد أطلق الله لهما الحرية لينالا من أى شىء أرادا إلا شجرة واحدة حرمها الله عليهما وحذرهما من أن يقرباها حتى لا يقعا فى المعصية ، وليس من المهم أن نبحث أى شجرة

كانت ، ويستوى أن تكون شجرة تفاح أو لا تكون ، ولا محل للقول بأنها شجرة المعرفة لأن الله سبحانه لا يحرم المعرفة على بنى آدم بحال . إن هذا التحريم إنما هو محض حدود وضعها الله ، والله سبحانه يجب أن تُرعى حدوده .

ثم إن آدم وحواء عندما خالفا أمر ربهما وأكلا من الشجرة فقدا طبيعة أهل الجنة ودخلا فى طبيعة أهل الأرض التى قدر الله فى سابق علمه أن يهبطهما إليها ليعيشا فيها بين حيوانها ونباتها ويكونا فى هذه الحالة خاضعين لطبيعة الحياة على سطح الأرض ، وهى الصراع على الرزق للحفاظ على الحياة ثم الجنس للمحافظة على النوع ، فإن الله سبحانه كتب على كل مخلوق حى على الأرض أن ينجب مثله حتى لا يبيد نوعه ، أما طبيعة الصراع على وجه الأرض فقد تبيناها عندما أمرهما الله أن يهبطا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو . والمراد بذلك ذريتهما ، والعداوة جزء من صراع البقاء على الأرض ، وقبل ذلك ــ عندما كان آدم وحواء فى الجنة لم يعرفا صراع الحياة ، ومن ثم فهما لم يعرفا العداوة ، وأما أن الجنس نبض فى كيان آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة فهذا واضح من قول الله سبحانه فى سورة الأعراف ، آية ١١ وما بعدها :

١١ - ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

١٢ - ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

١٣ - ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .

١٤ - ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ .

١٥ - ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ .

١٦ - ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

١٧ - ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

١٨ - ﴿ قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ .

١٩ - ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

٢٠ - ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

٢١ - ﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ .

٢٢ - ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

٢٣ - ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

٢٤ - ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

٢٥ - ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ .

٢٦ - ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشًا ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ .

٢٧ - ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ .

٢٨ - ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ .

٢٩ - ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ .

ففى هذه الآيات الكريمات من أبواب الحكمة الإلهية فى خلق آدم وما فعل آدم بنفسه ، وما يريد الله به وبأبنائه من كل خير ما يكشف بصر المؤمن المعاصر فى عصر العلم . واحد من قدماء الفقهاء الذين لا ينظرون إلا خلفا ، فكأنما أنزل الله الدين للماضى لا للحاضر ولا للمستقبل ، ومن ذلك :

ـــ أن إبليس عندما عصى لم يكفر بالله بل كفر بالإنسان ، وحاشا لله أن يكفر

به مخلوقاته .

– وكفر إبليس بالإنسان هو جزء من طبيعة خلقه ومصيره ، فإن الله سبحانه قدر فى علمه أن الإنسان خلق لكى يهبط إلى الأرض ، فهو لا يطيق الحياة فى الجنة ولن يستطيعها إلا بعد تمحيص على الأرض شديد وطويل . والمحنة الكبرى التى سيشقى بها آدم هى طبيعته البشرية الضعيفة ، وإبليس هو رمز هذا الضعف وهو يعرفه ، وهو عندما خدع كان يعرف أنه سيوفق فى صرفه عن الطريق القويم ويعرف أنه سيستطيع إخراجه من الجنة . وهو إذا خرج من الجنة أصبح فريسة لإبليس . وعلى وجه الأرض يكون التحدى العظيم بين الإنسان ونفسه الضعيفة التى يعرف إبليس كيف ينفذ فيها ليفسد على آدم حياته . والإنسان عندما هبط إلى الأرض لم يهبط ملعونا كما هو الحال فى النصرانية التى صاغها بولس ، بل تلقى آدم من ربه كلمات وتاب الله عليه لأول ما نزل الأرض حتى لا يحمل أبناؤه وزر خطيئة لم يرتكبوها ، والإسلام دين عدل وقسط ، ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ النجم ٣٨ ، ٣٩ .

– ثم إن آدم عندما استقر على الأرض نزع الله عنه الستر الذى خصفه على نفسه من ورق الجنة إذ لابقاء لشىء من الجنة فى الأرض . وفى الآية ٢٦ من سورة الأعراف ينزل الله على آدم وزوجه لباسا يوارى سوءاتهما . وقد يكون هذا كناية عما ألهم الله آدم من اختراع النسيج والثياب .

– ومعنى ذلك أن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض تغير طبعه فأصبح ذا طبيعة أرضية ، مثله فى ذلك مثل غيره من الحيوانات ، فكان عليه أن يصارع فى سبيل رزقه وفى سبيل بقاء جنسه . وكان عليه – إلى جانب ذلك – أن يواجه تحدى إبليس إياه ، وإبليس هو رمز الشر والفساد . والإنسان وحده من دون غيره من المخلوقات هو المعرض ، لأن الله سبحانه منحه العقل والعقل هو سلاحه الأكبر إنه يمكنه من النظر والتفكير والاختيار ، أما بقية المخلوقات فمسخرات لأمر ربها ، وكما خلقها الله نعيش ، فإذا كانت من آكلات اللحم فهى تفترس غيرها من الحيوان ولا تثريب عليها فى ذلك أما الإنسان فقد نفخ الله فيه من روحه ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ (الحجر آية ٢٩) ونفخة الله هذه هى العقل ، وهو نعمة الله الكبرى على الإنسان ، وعليه أن يعتمد عليها فى كل وجوه حياته كلها . والله سبحانه عندما قال للملائكة إنه جاعل فى الأرض خليفة . فليس

معنى ذلك أن الإنسان سيكون خليفة لله على الأرض ، فإن الله لا يخلفه أحد ، ولكن المراد أن الله باعث فى الأرض مخلوقا متميزاً على غيره بالعقل ، والعقل مفتاح كل خير ، ثم إن إبليس عندما أنظره الله إلى يوم يبعثون اشتد غيظه على الإنسان وقرر أن يستخدم كل ما يملك من الأساليب ليفسد على الإنسان حياته ليثبت لنفسه أنه كان على حق عندما رفض أن يسجد لآدم . جاء فى سورة الحجر :

٣٩ - ﴿ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾
٤٠ - ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .
٤١ - ﴿ قال هذا صراط علىّ مستقيم ﴾ .
٤٢ - ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .
٤٣ - ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾

بل إن الله سبحانه يريد أن يكون تحدى إبليس للإنسان بالغا مداه حتى يكون لهذه الحياة فى الأرض معنى ، جاء فى سورة الإسراء الآيات ٦٢ وما بعدها .

٦٢ - ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ .
٦٣ - ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴾ .
٦٤ - ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .
٦٥ - ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ .

وإذن فالشيطان برضا الله سبحانه وتعالى يتحدى الإنسان التحدى الكامل الذى ينبه الإنسان إلى ضرورة مسئوليته على الأرض ، وهو فى هذه الأرض فى رحلة طويلة أو قصيرة ، ولكن معاده فى النهاية إلى الله سبحانه الذى يحاسبه على ما فعل ، ويجزيه الجزاء العادل على ما فعل فى دنياه .

والإسلام أساسا لا يعرف الموت النهائى الكامل . إنما هى حياة واحدة طويلة مقسومة قسمين : قصير : هى هذه الحياة الدنيا ، وهى الصغيرة الخفيضة تنتهى بموت مؤقت ، ثم يبعث الإنسان عندما يشاء الله ليرى نصيبه فى الحياة الأخرى ، وهذه هى الخالدة .

والله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض جرده من طبيعته السماوية وأدخله في شكل أرضي ، ومنحه الأسلحة التي يستطيع — إذا هو استخدمها بعقله — أن ينحو من الهلاك على وجه الأرض ، لأنه يعيش على الأرض مع حيوانات وحشرات وطيور تعيش على غرائزها وحدها ، ولهذا فهي بالغة القوة واسعة الحيلة أو مسلحة بالسموم أو مهيأة للدخول في باطن الأرض طلبا للأمان ، هذا إلى جانب الطيور التي تملأ السماء وفيها كواسر آكلات لحم والأسماك الضارية التي تملأ البحار والأنهار وبعضها يعيش على بعض في قوة بالغة ، ولا سبيل لها إلا الافتراس وسيلة للحياة ، والإنسان لابد أن يتسلح إلى جانب العقل — بأسلحة تمكنه من مواجهة هذه الحيوانات أو الهرب منها ، وكل ذلك أعطاه هذا الشكل الحيواني الأرضي الذي يتميز به ، وهذا هو ما عناه الله سبحانه عندما قال في سورة التين :

١ – ﴿ والتين والزيتون ۞
٢ – وطور سينين ۞
٣ – وهذا البلد الأمين ۞
٤ – لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ۞
٥ – ثم رددناه أسفل سافلين ۞
٦ – إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون
٧ – فما يكذبك بعدُ بالدين ۞
٨ – أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ التين : الآيات ١ — ٨

* * *

وعبارة ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ التي ترد في هذه الآيات تلفت نظرنا إلى موضوعين رئيسيين من مواضيع العمل الإسلامي لم يفهمهما فقهاؤنا القدامى أي فهم وألحقوا بالإسلام والمسلمين — دون قصد — ضررًا بليغا . الأول هو العلم ، والثاني هو العمل .

ذلك أن علم أولئك الفقهاء كان يقوم أساسا على النظر نحو الماضي دون نظر إلى الحاضر والمستقبل ، مع أن الإسلام بطبعه دين حاضر ومستقبل ، ولا يكاد ينظر إلى الماضي ، وكان رسول الله ﷺ يعيش لحاضره ومستقبل أمته لا يكاد ينظر إلى الماضي إلا في مناسبات العبرة أما الحياة نفسها ، أما صميم الإسلام فهو الحاضر

والغد ، ولم يكن للإنسان من وجهة النظر الإسلامية أن يمضى حياته باكيا على ماضيه فى الجنة متحسراً على ما فاته منه ، بل كان عليه أن يعمل على هذه الأرض بما يسر الله له من وسائل ليستعيد مكانه فى الجنة عن طريق العمل لا عن طريق البكاء على الماضى والتحسر على ما فات .

ولقد كان رسول الله ﷺ من أكثر الناس إقبالا على العمل لإصلاح الحاضر وإعداد المستقبل ، ولو كان رسول الله قد أمضى حياته على مثال أنبياء بنى إسرائيل متحسراً على الماضى سائلا الله أن يعيده إليه ما كان أدرك هذا التوفيق وتلك الكرامة ولما كان خير الأنبياء ، كان نظره دائما متجها إلى الغد وإلى الأحسن . وكانت همته طوال الوقت متجهة إلى تقوية أمته وزيادة رقعتها وإدخال الناس فيها استعدادا للمستقبل الأحسن ، وإذا كان هو خير الرسل فلابد أن تكون أمته خير الأمم ، وإلا ما كانت جديرة به أصلا ، والذى عمله رسول الله فى المدينة خلال السنوات العشر لمقامه فى المدينة لا يعمله غيره فى سنين طويلة ، وذلك إيمانا منه بالعمل وثقة منه بأن التوفيق على الأرض وكسب رضا الله بالعمل .

وقد قصر الماضون تفسير عبارة « العمل الصالح » بأنها القيام بالعبادات ، مع أن عبادات الإسلام فى ذاتها قليلة ، وقد هوّنها الله علينا لكى نقوم بها فى استمتاع ولذة ، وأنا شخصيا أقوم بكل عبادات الإسلام كاملة بشروطها وكل ما ينبغى لها من إسباغ الوضوء وطهارة البدن والخشوع والقنوت والخلوص لله سبحانه وتعالى فلا يستلزم ذلك كله منى نصف ساعة فى اليوم . ثم أفرغ بعد ذلك للقيام بما أحب أن أقوم به من عمل لخدمة نفسى وأهلى أولا ثم لخدمة الإسلام والمسلمين عن طريق العلم والبحث ونشر النور .

وإننى لأعجب من مؤلفينا القدامى الذين كتبوا فى الصلاة مثلا مجلدا كاملا فيه مئات الصفحات ، وأسأل نفسى : ألم يكن أولى بأولئك الفقهاء أن ينفقوا هذا الجهد مثلا فى دراسة المياه ومصادرها ، وكيف نحصل عليها وكيف ننقيها ونسوقها فى الأنابيب حتى نستخدمها فى الوضوء والاغتسال والصلاة ونظافة البدن كما فعل أهل الغرب ؟ أليس هذا أفضل من كتابة المجلدات فى أنواع المياه ، وما يصلح منها للوضوء وما لا يصلح ، وكم مقدار الماء اللازم للوضوء ، ومتى تفسد المياه ومتى لا تفسد ، لقد فعل غيرنا هذا ـــ وهم غير مسلمين ـــ فدرسوا المياه ويسروها وساقوها على

النحو الذى نراه نحن اليوم فيسروا علينا صلاتنا وكل حاجتنا إلى الماء ، وجعلوا وضوءنا أيسر وأطهر وعلمونا كيف نسوق الماء على هذا النحو ، وجعلونا بهذا الجهد أقرب إلى الطهارة والنقاء .

* * *

وكل هذا الذى اخترعه أهل الغرب فى شأن المياه كنا نحن نستطيع أن نخترعه لو لم تكن نظرتنا إلى العلم سلفية على النحو الذى كان ، فإن أهل العلم عندنا بعد عصر الفقهاء والمشرعين الكبار الذى ينتهى فى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) جعلوا دأبهم فى العلم النظر إلى الوراء ، وفاتهم أن رسول الله ﷺ كان ينظر إلى الأمام دائما ، ورسالة الإسلام التى حملها إلى البشر كانت تفتح أمام البشر عصراً جديداً ، والقرآن نفسه يعلن ذلك ويقول إن من أكبر أسباب الكفر هو التمسك بآراء الأقدمين والسير على منهاجهم فى الحياة . ولقد صور الله سبحانه موقف المتمسكين بما كان عليه آباؤهم وكيف أنهم يقفون جامدين مكانهم لا يتقدمون فى قوله : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ الزخرف : ٢٢ .

وقد يتصور الناس أن هذا لا ينطبق إلا على الكفار بالله ، ويفوتهم أن الجمود — أياً كان — لابد أن يقود الإنسان إلى حالة لا يكون هناك فرق فيها بين من يؤمن بالله ومن لا يؤمن ، لأن العلم فى طبيعته تقدم ، والعالم الذى لا يتجه بعلمه إلى الأمام لابد أن يتأخر ويصبح جاهلا أقرب إلى الكافرين ، فهؤلاء الشيوخ الذين نظروا دائما إلى الوراء وتمسكوا بالمأثور وناموا عليه كادوا يخرجون فعلا على الإسلام ، فبعد القرن الرابع الهجرى أصبح الكثيرون جدا من الشيوخ على درجة من الجمود لا نصدق معها أنهم مسلمون ، وتجمد كل شيء أمامهم حتى صارت أية مخالفة للمأثور الموروث بدعة ، والبدعة هى كل شيء مبتكر أو مبتدع ، وهذه المخترعات التى نراها اليوم إنما هى مبتدعات أو بدع ، فكيف يريدوننا أن نصدق أن رسول الله ﷺ قال : كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ! لقد ألف فقيه أندلسى من أهل القرن الخامس الهجرى هو أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « البدع » وقال إنها كلها خروج على الإسلام . فأنت إذا لبست ثوبا لبنا خرجت على الإسلام ، وإذا فرشت مسجدا بسجاد طيب خرجت على الإسلام وإذا تاجرت مع غير مسلم

خرجت على الإسلام وهكذا . أفلا يصدق على مثل هذا الرجل قول الله سبحانه : **﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾** ! وهذا الشيخ ترك وطنه الأندلس وهاجر من بلدته طرطوشة وانتقل إلى المشرق ليعيش فى رغد وأمان ، وقد فاته أن هذه الهجرة التى قام بها هو وأمثاله من الشيوخ أضرت بالإسلام أسوأ من أى بدعة ذكرها ، لأن شيئاً من الأشياء لم يضر بمصير الأندلس أكثر من هجرة الشيوخ وأعيان الناس وأغنيائهم ، لأن أعلام الناس هؤلاء عندما هاجروا إلى بلاد الإسلام طالبين الأمان تركوا وراءهم الفلاحين والعوام وأهل الحرف والأسواق ، وهؤلاء مساكين يحتاجون إلى قيادات تثبت قلوبهم وتقوى عزمهم ، وإذا كان أهل السياسة قد خانوهم وتخلوا عنهم ، أفما كان من الواجب على أهل العلم أن يظلوا فى الأندلس فيجمعوا الناس حولهم وينظموا صفوفهم ويقووا عزمهم ويقودوهم فى الصراع فى سبيل الوطن الأندلسى ، وماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم إلا ناسا من الناس التفوا حول رسول الله وأخذوا عنه الإسلام وقبسوا منه روح الجهاد . لقد جمعهم الرسول حوله وعلمهم الجهاد فى سبيل الله ، وقادهم فى المعارك وأرسل بعضهم فى السرايا وانتصر بهم الإسلام . وأهل الأندلس أنفسهم كانوا دائما — وإلى آخر مراحل الصراع — قوما أولى عزم وبأس وبسالة وإقدام على القتال ، ولكن كانت تنقصهم القيادة والعقول المفكرة المدبرة . وما كانت جيوش النصارى التى انتزعت الأندلس من المسلمين إلا فلاحين وزراعا وأهل أسواق دعاهم القساوسة إلى القتال وجندوهم وحشدوهم فى جيوش القادة والأمراء والملوك وكسبوا بهم المعارك ، وعلى طول تاريخ الإسلام نجد أن بدايات الحركات الإسلامية والتحريرية الكبرى كانوا شيوخا مؤمنين ، ولكنهم ليسوا جامدين ، فدعوا الناس إلى النهوض وجمعوا صفوفهم وقادوهم فى المعارك ضد أعداء الإسلام — كما نجد على طول تاريخ المغرب — أو كسبوا إلى دعواتهم أمراء من أهل العزة والنخوة ، ومن اتحاد الجانبين قامت نهضات إسلامية كبرى كما نرى فى الحركة السلفية التى قادها محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود ، وهى مفخرة من مفاخر الإسلام فى العصر الحديث . وجدير بالقول هنا إن هذه الحركات الإسلامية الكبرى نظر إليها الفقهاء التقليديون الذين يرون كل دعوة جديدة بدعة ، وكل بدعة فى النار ، وبالفعل قال فقهاء مصر والدولة العثمانية إن الدعوة السلفية الوهابية ضلالة وكفر ، وأيدوا الدول فى حربها معها ، ولكن الله سبحانه نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

* * *

ومادمنا فى مجال البحث عن أسباب تدهور المسلمين ، فلنقل منذ البداية إننا أخطأنا فى فهم ثلاثة أشياء رئيسية ، فكان هذا الخطأ سبباً فى كل خطأ وشر جاء بعده .

فأما السياسة فإننا إذا نظرنا إلى تعرف رسول الله وقيادته للجماعة الإسلامية نجده لم يدخل السياسة أو يتبع أساليبها ، بل يخيل إلىَّ أحياناً أن أكبر الغايات من تكوينه على هذا النحو الأخلاقى الكامل ثم تكليفه بالرسالة وإنزال القرآن الكريم عليه وقيامه بإنشاء الجماعة الإسلامية على النحو الذى أنشأها عليه كان تخليص الإنسانية من السياسة وأساليبها وأخلاقياتها ، وعقيدة التوحيد فى ذاتها التى يقوم عليها الإسلام تتعارض مع السياسة ، فنحن إذا تأملنا عقيدة التوحيد فى ذاتها وسألنا : ماذا يفيد البشر من التوحيد ؟ لوجدنا أن الجواب هو إزالة الخلافات بين البشر حول المعبود وجمعهم نحو الإله الواحد ، فإذا هم اجتمعوا حول خالق الكون سبحانه لم يعد بينهم خلاف حول العقيدة ، ولذلك أمر المسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، لأن اجتماع المؤمنين حول الله سبحانه هو أساس قوة مجتمعهم ، ومازالت وحدة العقيدة عند المسلمين إلى يومنا هذا هى أساس قوة العالم الإسلامى ، وأنا هنا أنظر إلى التفاف المسلمين حول الإيمان بالله خالق الكون سبحانه وإيمانهم برسوله (صلوات الله عليه) وتصديقهم بكل ما جاء فى القرآن الكريم ، فللرسول ﷺ أحاديث كثيرة تقول إن الإنسان إذا آمن بالله ورسوله وكتابه فقد عصم نفسه من النار ، فأما ما عدا ذلك من الخلافات فى الرأى فلا تكفر ، وبين المسلمين خلافات كثيرة حول مسألة الخلافة ، وهى مسألة سياسية . ولا أرى ما يدعو أو يبيح أن نكفر مسلما لأنه يرى فى الخلافة رأيا يختلف عن رأى غيره ، وقد أضر المسلمون بأنفسهم أشد الضرر بسبب إعطاء مسألة شكل الخلافة هذه أكثر مما تستحق ، فما دام المسلم لم يتطرق إلى مذاهب غلاة الشيعة ممن يشركون بالله اشراكا واضحـا فإنهم فى حدود الإسلام ، وليس لنا عليهم سبيل ، وعلى الله سبحانه حسابهم .

ثم إن كل خلافات المذاهب لم تنته إلى نتيجة رغم الحروب والدماء ، ونحن اليوم نأسف على ما كان بين الصفويين الفرس والأتراك العثمانيين من الحروب المهلكة ، وما أدى إليه ذلك من مبالغة الصفويين فى التحمس لمذهبهم الشيعى ، ثم ما كان من ارتمائهم فى أحضان الإنجليز للاستعانة بهم على الأتراك العثمانيين . لقد انتهى الصدام الأول بين الجانبين برد الفرس إلى بلادهم وإخراج بلاد العراق من سلطانهم وإعادته

إلى المجموعة العربية التي ينتسب إليها ، وبعد ذلك كان ينبغي البدء في الصلح بين الجانبين ، وتصور ما كان يمكن أن تفيده الأمة الإسلامية لو أن الفرس تصالحوا مع الأتراك وتوقفت الحروب بين الجانبين ، فإلى ذلك الحين (منتصف القرن الخامس عشر الميلادى) لم يكن الشيعة في هضبة إيران إلا أقلية ضئيلة ، وكان من الممكن أن تزداد قلة مع الزمن ، فتصور ماذا نجم عن استمرار الأتراك العثمانيين في حرب الصفويين والتوسع في بلادهم طوال عصر سليمان القانوني ، فهذا في ذاته دفع الفرس الى الاستعانة بالروس ــ بعد الإنجليز ــ على الأتراك ، واضطر الأتراك إلى نقل جماعات كبرى من مقاتليهم من جبهة القتال في الغرب الأوروبي إلى الجبهة الإيرانية الشرقية ، فهذا أدى إلى تفوق الروس على الأتراك العثمانيين وتغلبهم على الأتراك في جبهتهم الشمالية ، وعداء الروس للأتراك العثمانيين كان آخر الأمر وبالا على تركيا بل كان أكبر أسباب تهدمها .

ذلك أن رسول الله ﷺ في تكوينه للأمة الإسلامية وقيادتها في مكة أولا ثم في المدينة المنورة وضع للرياسة والقيادة ــ والسياسة جملة ــ نهجا جديدا يختلف عن كل ما عرفته الإنسانية من قبل . ذلك أن الله سبحانه عندما أرسله بالإسلام أراد من الإسلام أن يكون حلا جديدا لم يسبق لكل مشاكل الإنسانية وأولاها المشكلة السياسية ، لأن الإنسان يعيش على الأرض جماعات ، وكل جماعة منها تحمل التكليف الذى وضعه الله على اكتاف البشر باختيارهم وهو عمران الأرض ، وهو الأمانة التي عرضها الله سبحانه في قوله ﴿ **إنَّ عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما** ﴾ الأحزاب : ٧٢ ــ ٧٣ .

وإنما أتيت بهاتين الآيتين لأنهما تكملان ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحياة على هذه الأرض إنما هي استجابة للتحدى الذى ألقاه إبليس في وجه الإنسان عندما رفض السجود لآدم ، لأنه اعتقد أنه خير منه لأن الله خلق إبليس من نار وخلق الإنسان من طين ، وقد نسى إبليس أن الله ميز الإنسان بميزة كبرى على سائر خلقه وهى النفخة الإلهية التي منحت الإنسان العقل وهو القوة التي يفهم الإنسان بها الأشياء ويفكر فيها ويختار من بينها الطريق الذى يعينه على النصر في معركة التحدى وهى

معركة اعمار الأرض وكل عمل يقوم به الإنسان فى طريق هذا العمران يعتبر عملا صالحا ، ولا معنى لأن نقصر الصالحات على العبادات ، لأن العبادات الإسلامية فى مجموعها سهلة يسيرة ، وهى فى مجموعها خير معين للإنسان على كسب معركة التعمير ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة حق معلوم للسائل والمحروم فى أموال الناس ، وإذا كانت الصلاة هى حق الله على الناس فإن الزكاة هى حق الناس على الناس ، أما الصيام فهو تزكية للنفوس وتطهير لها من أدرانها ومن ثم فهو معين على الجهد والعمل والفضائل ، والحج هو تجمع المسلمين بعضهم إلى بعض فى وقت معين من كل عام عند بيت الله ، حيث يخرجون من ميزاتهم الدنيوية ويلبسون لباسا واحدا بسيطا يذكرهم بجانبهم الإنسانى ، وهناك ينتقلون بين مواضع مقررة فى أوقات مقدرة . وكل حاج يقدم هدياً يأكل منه الفقراء والمساكين ، وبعد أن يقضى المسلمون مناسك الحج يكون بينهم تبادل منافع من تجارات وصناعات أو أفكار وآراء . لأن أمة الإسلام لا ينبغى أن تفقد أبدًا الشعور بأنها أمة الله سبحانه التى تجتمع على الخير وتتعاون على المعروف وما فيه تقدم الإنسانية .

كان لابد أن يضع الله لهذه الأمة الإسلامية نظاما جديدا شاملا تختفى به مساءات النظم السياسية التى قامت عليها دول الجاهلية ، وكل جماعة بشرية سابقة على الإسلام فى الزمان فهى جاهلية بالقياس إلى الإسلام الذى هو الهدى والنور . لهذا قاد رسول الله ﷺ أمة الإسلام بشىء غير السياسة علمه إياه ربه الذى وصفه بأنه مبشر ونذير وهاد وداع إلى الله بإذنه وسراج منير ، ولم يصفه قط بأنه سياسى أو قائد دولة .

ذلك النظام الجديد الذى سار عليه محمد ﷺ فى قيادة أمته يدخل فى مجموع ما يمكن أن نسميه بالهدى ، فالأمة الإسلامية متساو بعضها مع بعض ، لا طبقات فيها ولا مراتب ، ولا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى . والتقوى ليست هى الخوف من الله ، لأننا لا نخاف الله لكى نتقيه ولكننا نتقيه لأننا نحبه ، والذين يخافون الله هم الذين يخالفونه ويعصونه ويخشون عقابه ، أما الذين يعتصمون بحبل الله ويسيرون فى طريق هداه فهم الأتقياء أو أهل التقوى ، وهم مراتب المسلمين ، وهذا معنى إسلامى جديد للفظ ، ومن المعروف أن الإسلام أخذ ألفاظاً قديمة وأعطاها معانى جديدة ، وهذا هو المصطلح الخاص بالإسلام . وتلك هى الأخلاق الإسلامية .

والسياسة لا تدخل في التقوى ، لأن السياسة هي الحيل والأساليب التي يتبعها طلاب الحياة والسلطان أو المال ، وهي لا تعرف الأخلاق ، فكل ما يوصل إلى الغايات الشخصية أو السياسية مشروع ، وكبار السياسيين في التاريخ كانوا رجالا بلا أخلاق ، وانظر مثلاً رجالا من أمثال مبترينخ أو بسمارك أو تشرشل ، ومن مأثور كلمات هذا الأخير قوله : « إن السياسة يحرسها حارسان من الكذب » وفي أثناء التحقيقات مع رجل من رجال السياسة السرية الأمريكية في قضية الأسلحة التي بعث لإيران وزعموا أنهم أخذوا أثمان بيعها وأرباحها وأعطوها لأعداء الحكومة اليسارية في نيكاراجوا في أمريكا الوسطى ، وهي حكومة أتباع رجل شيوعي يسمى ساندينو قال ضابط كبير من كبار ضباط المخابرات وهو أوليفر نورث : « إننا نعمل في نصرة سياسة بلدنا ، ولا يحاسبنا أحد على الأساليب التي نتبعها . لأنكم تعلمون أن السياسة لها غايات ولكن ليس لها أخلاقيات ، أو على الأقل ليس لها الأخلاقيات التي تريدون أنتم محاسبتي عليها ، وأنتم أهل سياسة وتعرفون أن ما أقوله صحيح . وأنتم لا ترضون أن يحاسبكم الناس على أساس الأخلاقيات التي تتحدثون عنها اليوم » . وعندما كان أهل السياسة في أثينا يحاكمون سقراط ويتهمونه بافساد أخلاق الشبان قال في خطابه المشهور لهم : « إذا كنتم تحاكمونني على أساس أخلاقياتكم السياسية فلا شك في أنني أستحق الموت ، ولا يفزعني أن تحكموا عليّ بالموت » .

وهذا الطراز من السياسة الذي كان سائدا قبل الإسلام ثم عاد فاستشرى بعد الإسلام وأصبح قاعدة العمل السياسي اليوم هو الذي تحاشاه رسول الله ﷺ ولم يعرفه قط ، وعندما تجمع حوله المشركون القرشيون من السياسيين الذين كانوا يسودون المجتمع المكي ويستغلون الناس ويفسدونهم وأرادوا الاحتيال عليه واجتذابه إلى ناحيتهم وعرضوا عليه الخيرات والمراتب العالية رفض ، لأن ذلك كله يتنافى مع الإسلام .

أما الطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ سواء في تسيير أمور جماعته الداخلية أو قيادتها في صراعها مع الشرك وأهله فهو طريق الأخلاق الإسلامية وكلها مشتقة من الهدى ، فالمبادىء لا الأشخاص كانت تقود الناس في المجتمع الإسلامي أيام الرسول ، وما نسميه نحن بالسياسة كان أخلاقا فاضلة ، فالناس متساوون بعضهم مع بعض مساواة حقيقية لا يتفاضلون إلا بمكارم الأخلاق ، ورسول الله يقود جماعته قيادة جماعية ، ففيما عدا قواعد الدين والعبادات وما تتضمنه الآيات القرآنية من

أوامر ونواهٍ فكل شيء في أمة المدينة كان يدار جماعيا ، فقد انتخب أهل المدينة اثنى عشر نقيبا ليتعاونوا مع رسول الله ﷺ في إدارة الجماعة ، ورسول الله تبين مع العمل ملكات المهاجرين ومن انضم إلى أمة الإسلام من العرب من غير الأنصار وصار يعهد إلى كل رجل بما يستطيعه وما يتفق مع مواهبه ، وهكذا أحاطت برسول الله ﷺ جماعة ممن يحسنون قيادة الأمور ، وكان صفى رسول الله من بين هؤلاء هو أبو بكر الذى تلقى درس أخلاق القيادة الإسلامية من رسول الله وسار على دربه ، وبعد أبى بكر يجيء بقية المهاجرين والأنصار متساوين في المكانة الاجتماعية ولكن لكل منهم قدراته وملكاته ، حتى عمر بن الخطاب لم يكن له في المجتمع المدنى أيام الرسول تلك المكانة التى نتصورها ، إنما كان عمر صفى أبى بكر وتلميذه ، ولكننا لا نتبين له أيام الرسول مكانا أفضل من مكان على بن أبى طالب أو أبى عبيدة عامر بن الجراح أو سعد بن عبادة وكان الرسول يعرض كل أمر من أمور الجماعة للمناقشة وتبادل الرأى فلا يتخذ قراراً في موضوع يهم حياة الجماعة إلا بموافقتها كما رأينا رسول الله يعرض موضوع دخول معركة « بدر » على الجماعة التى خرجت معه في طلب العير ، لأن الموقف تغير وأصبح واضحا أن القتال واقع . ومن ثم فلابد أن توافق الجماعة على ذلك ! وفى ذلك المجلس التاريخى نرى رسول الله ﷺ يحرص على أن يسمع رأى المهاجرين ثم تحدث المقداد بن الأسود ولم يكن أوسيا أو خزرجيا ولكنه كان من تضاعة من حلفاء الأنصار الذين كانوا يعيشون في المدينة حلفاء لأهلها من الأوس والخزرج وكأنهم منهم ، وكانوا جماعة كبيرة من المسلمين ذوى المواهب ، من جهينة وبلى وجهراء وبلقين وغيرها من فروع قضاعة التى كانت تعيش في الحجاز شمالى المدينة المنورة وتمتد شمالا إلى بلاد الشام وجنوبا حتى ينبع على شاطىء البحر ، فلما تكلم المقداد باسم جماعته وأعلن استعداده الكامل لخوض المعركة ، ثم تكلم سعد بن معاذ الأشهلى الأوسى باسم الأنصار من الأوس والخزرج ، فلما اطمأن رسول الله إلى موافقة مجلس الشورى على القتال اتخذ قرار دخول المعركة ، ورسول الله فعل مثل ذلك عندما خرج بأصحابه لأداء العمرة واعترضه المشركون القرشيون عند الحديبية ، فهنا نرى أيضاً أن رسول الله عندما تبين غياب عثمان بن عفان في مكة وأرجف المسلمون بأن القرشيين قتلوه أحس أن الموقف قد تغير وأن الأمة تواجه الآن احتمالات الحرب ، فجمعها للمشاورة ، فأجمعوا على دخول الحرب إذا اقتضى الأمر ذلك وكانت بيعة الرضوان .

وكان هذا دأب رسول الله ﷺ في قيادة الجماعة : التشاور مع الأمة في كل أمر يهمها من أمور الدنيا ، والشورى منصوص عليها* ، في القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى أمر الرسول في القرآن بأن يشاور المؤمنين* ، بل إن رسول الله ﷺ عندما كان يريد أن يخرج في غزاة كان يستعد هو ، ولا يعلن عن خروجه إلا قبل الخروج بقليل ، لأنه كان ينفذ خطة كبيرة واسعة المدى ، ولابد له من السرية في أحيان كثيرة ، وبدلا من أن يجمع الناس في مجلس سرى كان يخرج بنفسه مع أبي بكر وبعض من نذروا أنفسهم للخروج مع رسول الله ﷺ في المغازي ، ثم ينتظر خارج المدينة ، ويشيع الأمر ويتلاحق بالرسول من يريد دون ضغط أو أمر ، ثم يسير بمن حضر . ولم يحدث أن لام رسول الله ﷺ أحدا على عدم الخروج معه في الغزاة إلا في تبوك ، وهي غزاة حاسمة تعين منعطفا في تطور أمة المدينة ، وهي آخر غزاة كبرى قادها الرسول ، وأعقبتها سورة التوبة أو براءة التي قررت مجموعة من المبادىء الأساسية في تنظيم أمة الإسلام وجماعتها ، وسورة براءة أو التوبة هي بإجماع معظم مؤرخي القرآن آخر سورة أنزلت على رسول الله من سور القرآن الكريم ، وفيها — فيما أرى — تقرر أن الجهاد « فرض عين » لا « فرض كفاية » بدليل أن الله سبحانه وتعالى لام الثلاثة المخلفين عن الخروج للجهاد بدون عذر وعاقبهم ، والإنفاق عن سعة في سبيل الله « فرض عين » أيضاً بمقتضى ما يرد في هذه السورة العظيمة . والله سبحانه وتعالى عندما قرر أن الجهاد والإنفاق فيه فرضان على المسلمين جميعا أراد أن تسير الأمة على ذلك فيما بعد وبخاصة بعد وفاة الرسول (صلوات الله عليه) . ولا أدرى كيف جاء الفقهاء ، بعد ذلك وأسقطوا عن المسلمين واجب الجهاد العيني ، لأن إسقاط ذلك الواجب ألحق بأمة الإسلام ومستقبلها ضررا بالغا ، ومن ثم فإن ذلك فقه سيىء غير مقبول .

وإهمال فرضية الجهاد على المسلم كان سببا في أضرار جسيمة لحقت بالأمة ، فإن إعفاء الناس من الخدمة العسكرية في سبيل الجماعة جعل الدولة الإسلامية في حاجة إلى مقاتلين ، وتلك هي الفرصة التي استغلها معاوية بن أبي سفيان لمصلحته ، فإن الخليفة الشرعي وهو علي بن أبي طالب وجد نفسه في الحجاز بلا جند ، لأن جند

(*) « وأمرهم شورى بينهم » (الشورى — آية ٣٨) .
(*) « وشاورهم في الأمر » (آل عمران — آية ١٥٩) .

الدولة كانوا متفرقين فى الأمصار ، وعمر بن الخطاب كان يجعل الجهاد « فرض عين » وكان لا يأذن لعربى مسلم فى أن يتخلف عن الجهاد ، وكان ينبغى أن يهتم بتقنين هذه المسألة ، ولكن الفتوح كانت ماضية على قدم وساق فى أيامه ، فلم يجد هو ضرورة تدعو إلى التفكير فى وضع نظام للجهاد ، فإن الناس يتدفقون على ميادين القتال من تلقاء أنفسهم لأن الإيمان كان يملأ القلوب فترك الأمور تسير فى مجراها فى تلك الناحية ، وهذا كان الخطأ فلا شيء من أمور الأمة ينبغى أن يترك ليسير حسبما اتفق . وكان رسول الله ﷺ لا يترك شيئاً من أمور المسلمين دون تنظيم ، وكان يناقش مع المسلمين بعد كل غزوة ما وقع فيها ويستخرج القواعد السليمة المقتبسة من التجربة والقائمة على روح الإسلام ، وسنرى فى الفصل الخاص بدستور المدينة كيف أنه كان دائم الاجتماع وقادة المسلمين الذين نستطيع اعتبارهم أهل شوراه لمناقشة الموضوعات والخروج بالقرارات التى يرتضيها الجميع . فإذا أقروا مبدأ أمر على بن إلى طالب بأن يسجله ، ومن هذه التسجيلات تكوّن ما عرف « بالكتاب » أو « الصحيفة » الذى سميناه دستور المدينة أو دستور أمة المدينة . وهذا الدستور يقرر الكثير من شئون الحرب والجهاد والنفقة عليه . ومن الأمور التى ناقشها واتخذ فيها قرارات حاسمة مسألة يهود المدينة الذين حالفوا الأمة الإسلامية أول الأمر ، وكان الرسول عظيم الأمل فى دخولهم أمة الإسلام فأذن لهم فى حلف الأمة ، وفى إحدى مواد الدستور الأولى سمح لهم بالقتال مع المسلمين والاشتراك فى النفقة . ولكنهم لم يقاتلوا مع المسلمين قط ، لأن حلفهم لم يكن صادقاً ، فلما كشف بنو قينقاع عن نفوسهم ، ووجد الرسول ألا مفر له من إخراجهم من المدينة تغير الموقف بين المسلمين واليهود ، ثم كان الخلاف بين المسلمين واليهود بعد « أحد » وقضى على بنى النضير ثم على بنى قريظة بعد الخندق ، وكان هؤلاء هم الجماعات اليهودية الكبرى فى المدينة ، وبقيت بعد تصفيتهم جماعات يهودية صغيرة محالفة للقبائل المسلمة ، فوجد الرسول أنه لابد من النظر فى أمر هذه الجماعات ، فنظر المسلمون فى ذلك الموضوع وناقشوه واتخذوا فيه قرارات نجدها فى جزء كامل من أجزاء دستور المدينة .

مثل هذا كان لابد أن يفعله عمر بعد الفتوح ودخول جماعات كبيرة من أهل الأمصار فى الإسلام ، وكان لابد أن تنظر جماعة الشورى فى ذلك وتتخذ فيه القرارات ، ولكن عمر فى الغالب أهمل الشورى أو هو قصرها على نفر من أصحابه ،

فكان يستشيرهم دون الآخرين ، وهذا مخالف لسنة الرسول ، وكان التزام السنة يقتضي المحافظة على الشورى وتنظيم أمرها وعرض كل مسائل الأمة عليها لتتخذ فيها القرارات المناسبة كما كان الحال في أيام الرسول . ولكننا اتبعنا السنة في أمور وتركناها في أمور أخرى ، وكان هذا مما أضر بالأمة ضررا بالغا فقد كان من الضرورى مثلا أن تنظر الشورى في أمر المسلمين من غير العرب وتضع القواعد السليمة لاستعرابهم وإسلام من يريد الإسلام منهم . أما أن تترك الأمور تجرى كيف تشاء في هذا الموضوع فكان شديد الضرر بأمة الإسلام وفتح الباب أمام الفوضى والارتجال والفوضى والارتجال ثم الاستبداد أصبحت قواعد العمل في دولة الإسلام .

* * *

ومن الأخطاء السياسية الكبرى التي وقعنا فيها مسألة الخلافة ، فالخلافة كان ينبغي أولا أن تكون نابعة من جماعة الشورى ، وكان من الأخطاء الجسيمة أن اعتبر الخليفة حاكما بأمره يتصرف كيف يشاء ، وإذا هو أراد أن يستشير استشار وإذا أراد أن يتخذ القرار اتخذه ، وأبو بكر وعمر كانا خليفتين صالحين لأنهما بطبعهما كانا صالحين ومسلمين صادقين ، لا لأن النظام في ذاته كان صالحا فقط فليس من المعقول ولا مما يتفق مع طبيعة الإسلام أن يحكم هذه الأمة كلها رجل واحد ، وأن يحكمها دون حدود لا من سلطان أو زمان . ونحن أنفسنا اليوم لا نرضى بذلك في دولنا فرئيس الدولة ليس مطلق السلطان يقرر ما يشاء ولا معقب على ما يقرر ثم إنه لا يحكم دون حد زمني ، فلابد من تحديد المدة ، ومن الممكن تجديدها ، في حدود أيضاً ، أما أن يتولى الخليفة الحكم إلى أجل غير مسمى فخطأ لأنك إذا أقمت حاكما مطلق السلطان غير محدد بزمان فقد أوجدت بذلك حاكما مستبدا ولا يغير من هذا الوضع أنك تسميه خليفة ، فهو ملك مطلق السلطان على أي حال ، وليس أضر على الأمم من الحاكم المطلق السلطان الذى لا تحده حدود أو قيود ولكننا نعرف أن ذلك كان من أكبر أسباب تدهور دول الإسلام .

ثم إن عمر عندما طعن وأيقن بالموت اختار ستة فحسب من المسلمين وترك لهم أمر اختيار خلفه ، وقال إن الأساس الذى اختار أولئك الستة على أساسه أنهم هم الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فهل هؤلاء الستة فحسب هم الذين توفى الرسول وهو عنهم راض ؟ ولماذا يكونون من قريش وحدها ، هل لدينا حديث صريح

مجمع عليه يقول إن الخلافة فى قريش وحدها ؟ وإذا كان هناك حديث للرسول فى هذا المعنى فلماذا أهمله الأنصار فى مناقشتهم لأبى بكر وعمر فى حديث السقيفة ؟ وهل توفى رسول الله وهو غير راض عن سعد بن عبادة مثلا . لقد كان هذا الرجل من أكثر المسلمين إخلاصا للدين وللرسول وللأمة ، فقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ، ومامن غزاة أو سرية إلا تبرع فيها بالمال الكثير ، ولو أننا أحصينا مكارمه لوجدناها تفوق أضعافا كل عطايا عثمان بن عفان ، ولكن مؤرخينا يضللوننا ويقولون مثلا إن عثمان قام بنصف نفقات جيش « العسرة » وهذا غير صحيح ، وفى هذه الغزاة وغيرها كان إنفاق سعد بن عبادة أضعاف إنفاق غيره ، ثم إنه كان حريصا يوما بعد يوم على أن يرسل إلى رسول الله ومن إلى جواره من أهل الصفة طعامهم ، هذا إلى جانب ما كان يقدمه ابنه قيس بن سعد بن عبادة . فكيف لا يكون هذا الرجل ممن توفى رسول الله وهو عنهم راض مع أنه هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ « خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام » .

ألم يكن أفضل لأمة الإسلام لو سارت الشورى كما كانت عليه أيام الرسول ! وأليست هذه هى السنة ؟ أم أننا نتبع السنة فيما نشاء ونخالفها فيما نشاء ؟ لقد كانت الشورى نحو ثلاثين رجلا منهم اثنا عشر من الأنصار ومثلهم تقريبا من المهاجرين والبقية من أهل المدينة ممن لم يكرنوا مهاجرين ولا أنصارًا . ومثل هذا العدد من فضلاء الصحابة كان لابد أن يحسنوا الرأى بأحسن مما جرى فى اجتماع السنة ، لأن عبد الرحمن بن عوف تصرف فى هذه الاجتماعات تصرفا يؤخذ عليه ، فقد بدأ فأخرج نفسه من احتمالات انتخابه خليفة ، ثم مضى يسأل أصحابه الباقين إن كانوا مستعدين للسير فى أعقاب رسول الله وأبى بكر وعمر ، فأما رسول الله فمفهوم وهو على العين والرأس ، ولكن لماذا يلزم الخليفة الجديد باتباع نهج أبى بكر وعمر مع أنهما كانا مختلفين فى كثير من المسائل وبخاصة مسألة قسم العطاء بين المسلمين ، فقد كان أبو بكر يرى التسوية بين المسلمين فى أنصبتهم من العطاء لأن هذا — كما قال — معاش والتسوية فيه أحسن ، أما عمر فقد فرق بين الناس وقال إنه لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه ، وفرق بين الناس بحسب القرابة فأعطى آل بيت رسول الله ﷺ أكثر مما أعطى غيرهم ، فرق بينهم فى ذلك أيضاً مع أن رسول الله لم يكن يأخذ من مال المسلمين شيئاً . وكان لا يعطى آله وأهل بيته

إلا النصيب الضئيل الذى قرره لهم الله فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد كان نادرا ما يعطى آله شيئاً ، فأى الرأيين يتبع الخليفة إذن : رأى أبى بكر أم رأى عمر ؟

ونحن عندما نعيد التفكير فى مثل هذه الأمور فإن دافعنا ليس النقد بل نحن نبحث هنا عن سبب الخلل فى نظام الأمة الإسلامية . لقد كانت الأمة تسير على خير نظام دستورى شورى أيام الرسول ، واستمرت الأمور تسير سيرا حسنا أيام أبى بكر وعمر بقوة الدفع أولا ثم بسبب تميز الرجلين ، ولكن حياة الأمم لا ينبغى أن توكل إلى الظروف . وكان لابد إذا أردنا أن نقول إننا سرنا على السنة أن نكون قد اتبعنا السنة حقا ، أما أن نتبعها حينا نشاء ونهملها فيما نشاء فقد كان هذا سبب الخلل . ولا يظنن أحد أن اتجاهنا هذا فى الكلام فيه قلة توقير لبعض الصحابة ، وما شاء الله أن يكون هذا موقفنا ، فنحن نجل الصحابة (رضوان الله عليهم) بأكثر مما يجلهم أى مسلم تقى مؤمن ، ولكننا نفرق — فى كل من الصحابة — بين جانبه كصحابى . فهذا عندنا فضل من الله وميزة كبرى وجانبه كإنسان . فإن الصحابة كانوا سواسية فى الصحبة الشريفة ، ولكنهم لم يكونوا سواسية فى المواهب والخصال . وقد آن أن نتخلص من بعض المفهومات القديمة التى ورثناها عن السلف دون تفكير مثل قولنا إن عشرة من الصحابة مبشرون بالجنة دون غيرهم . وهذا غير صحيح ، فنحن لانجد سعد بن معاذ فى أولئك العشرة مع أن رسول الله قال إن سعد بن معاذ فعلا فى الجنة .

ونحن لا اعتراض لنا على الخلافة ، فهى نظام رياسى كغيره . ولكن كان ينبغى أن تكون نابعة من الشورى ، لأن جماعة الشورى هى أساس السلطة كلها فى أمة الإسلام ، فهذه أمة شورية ، وأهل الشورى هم الذين يختارون رئيس الجماعة . ثم إن مدة الرياسة ينبغى أن تكون محددة والأمة هى التى تقرر مدتها وتقرر إن كانت تجدد أو لا تجدد .. والأمة الإسلامية نفسها — كما نراها فى دستور المدينة — ليس من الضرورى أن تكون وحدة سياسية واحدة . بل من الممكن أن تكون وحدات سياسية مختلفة ولكنها متآخية مترابطة تحت راية الإسلام وعقيدته وشريعته وميزانه الخلقى ، فقد أقر رسول الله ﷺ مملكة داخل أمة الإسلام وهى مملكة ابنى الجلندى فى عمان ، لأنهما دخلا فى الإسلام وآمنا بعقيدته وشريعته وأقاما الصلاة وآتيا الزكاة وأحسنا استقبال العامل على الزكاة المرسل من قبل رسول الله (صلوات الله عليه) .

وأقر رسول الله رئيس قبيلة كبيرة داخل أمة الإسلام هو المنذر بن ساوى في ناحية البحرين لأنه كان مؤمنا بالإسلام متبعا شريعته وكان أهل ناحيته راضين عنه . وفي دستور المدينة وفي كتب رسول الله نرى أن الأمة الإسلامية مرنة جدا ، فمن الممكن أن تتكون من إمارات وملكيات ورياسات ومن الممكن أن يكون فيها أكثر من خليفة ، كل منهم في ناحية على أن يكونوا متآخين متعاونين فيما بينهم ، وعلى ألا تقع الحرب بينهم أبدا ، فالإسلام لا يعرف الحرب إلا دفاعا عن دار الإسلام ، وفيما عدا ذلك فإن الحرب الوحيدة التي يعترف بها الإسلام هي الجهاد ، وهي الحرب في سبيل الإسلام . وهي ليست حربا يقصد منها إرغام الناس على الدخول في الإسلام ، فلا إكراه في الدين ، ونحن مهما فعلنا فإننا لا نهدي إنسانا ، لأن الهادي هو الله ، وإنما الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول بين الناس ودخول الإسلام ، لهذا حارب المسلمون الفرس والروم لا لإدخالهم في الإسلام بل لأنهم كانوا يحولون بين الناس ومعرفة الإسلام ، فأزالهما المسلمون وأوصلوا الإسلام للناس في إيران والشام والعراق ومصر ، وعرفوا الناس بالإسلام ثم تركوهم بعد ذلك يدخلون الإسلام إذا اقتنعوا به ورغبوا فيه ، وقد كان أهل المغرب وثنيين فحاربهم المسلمون لأن الإسلام لا يقر الوثنية ، وعندما عرف أهل المغرب الإسلام دخلوا فيه بل أصبحوا من جنوده البواسل ، وقد اشتركوا مع العرب في فتح الأندلس لأن حكومته (وهي من القوطيين) كانت تحول بين الناس ومعرفة الإسلام . فلما أزال المسلمون هذه الحكومة وعرف الناس الإسلام فأسلموا وهكذا . وكل ما فعلته دول الخلافة بعد العصر الراشدي من إرغام المسلمين جميعا على الطاعة لها كان خطأ ، ولم يكن الغرض منه إلا الحصول على الأموال ، وكل ما وقع بين دول المسلمين من حروب كان مخالفا للإسلام . فلا يجوز للمسلم أن يحارب المسلم . وقد وضع الإسلام قواعد الصلح بين المسلمين إذا هم اقتتلوا فيما بينهم ، ولكن دول المسلمين نسيت هذه القواعد وجعلت تاريخها حربا دائمة فيما بينها مما آل بها كلها إلى بوار .

* * *

أما عدم تحديد مدة رياسة الرئيس ، أيا كان لقبه : خليفة أو أميرًا أو سلطانا ، فقد كان من أكبر المصائب التي ابتليت بها أمة الإسلام . ولا يجوز أن نقول إن أمة الإسلام لم تعرف أن تحديد المدة ضروري ، لأن الرومان قرروا هذا المبدأ وشرحوه

فى قوانينهم ، ولا يعقل أن مشرعى المسلمين جهلوا ذلك ، فقد ترجمت لهم الكتب من اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وغيرها ، وكانت مسألة تحديد مدة الحاكم والموظف الكبير أساسية جدا فى القانون الرومانى حتى إن كبار مؤرخى الرومان من أمثال سالوس وجوزيفوس ومارسيلوس امبانوس قالوا إن فساد الدولة الرومانية كله جاء من محاولة يوليوس قيصر تخطى مدة الرياسة ، فقد كانت الرياسة عند الرومان سنتين ، وكان الذى يمنحها هو مجلس الشيوخ ، لأن الأمة عندهم كانت الأصل أما الرياسة فهى الفرع ، فلما تولى الرياسة يوليوس قيصر وأذن له مجلس الشيوخ فى حرب القبائل الجرمانية ومضى يحاربها أعجبته الرياسة وأحب أن يتخطى المدة ، فجعل رأيه كلما انتهت السنتان أن يقول إن خطر الجرمان لا يزال قائما ولابد له من الاستمرار فى حربهم وطلبوا أن يمدوا له سنتين ، فلما توالى المد وطالت المدة قلق الرومان ورفض مجلس الشيوخ أن يمد له فسار بجيشه نحو روما ، وعبر حدود بلاد الرومان الشمالية عند نهر يسمى الروبيكون ، فاعتبر مجلس الشيوخ يوليوس قيصر خارجا على الدولة ، ومن ذلك الحين أصبحت عبارة : « تخطى الروبيكون » تعنى كسر القانون وتخطيه .

فلما استقر يوليوس قيصر بجيوشه فى روما خاف الشيوخ وسكتوا على مضض ، ولكن بعضهم وعلى رأسهم صديقه بروتس قرروا قتله لتخليص بلادهم من الطاغية ، وقتلوه فى الخبر المعروف ، وكان من بين قاتليه مارك انطونيوس صاحب كليوباترا ، ولكن نفرًا من قادة يوليوس قيصر ، وعلى رأسهم اكتافيوس أغسطس غضبوا له ونهضوا يقاتلون قتلته حتى قضوا عليهم ، وأصبح اكتافيوس أغسطس رئيساً دائما أو صاحب الأمر (امبراطورا) ومن ذلك الحين تحولت دولة الرومان من جمهورية أو دولة عامة ، ملك أهلها أجمعين ، إلى امبراطورية ، أى أنها تحولت من دولة شورية إلى دولة استبدادية ، ومن ذلك الحين بدأ تدهور الدولة الرومانية ونزعها الطويل .

* * *

أما عندنا فقد بدأ التدهور بسبب عدم تحديد المدة من تاريخ مبكر جدًا .

فإن عثمان بن عفان عندما صارت إليه الخلافة على النحو الذى صنعه عبد الرحمن ابن عوف أسلم الأمر لآل بيته ، لأنه عندما تولى كان قد تخطى السبعين من عمره ، وكان مؤمنا صادقا حقا ولكنه فى حياته لم يشترك اشتراكا فعليا فى جهاد ولا هو

عرف شئون الأمة ، إنما هو كان فى ذلك كله مطيعا لرسول الله ولأبى بكر وعمر . ولكن الأذى الكبير أتى من أنه كان من بنى أمية ، وبنو أمية كانوا من عبد شمس ألدّ أعداء بنى هاشم ابن عبد المطلب ، و لم يكن العداء بين الجانبين قديما من أيام الجاهلية — كما يقول المؤرخون — ولكن العداء الحقيقى كان من أيام موقعة « بدر » .

فإن العداء بين بنى هاشم وبنى عبد شمس — فرعى قريش الكبيرين — لم يكن قديما أو عنيفا بالدرجة التى يصوره بها مؤرخونا القدامى وبخاصة المقريزى فى كتاب « النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » فقد كان أحدهما قريبا من الآخر حتى نادى محمد ﷺ بالقرآن والإسلام . بل حتى بعد ذلك كان كبار بنى أمية وعبد شمس معتدلين إلى حد كبير فى عدائهم لرسول الله والمسلمين ، بل كان عتبة ابن ربيعة كبير بنى عبد شمس يمثل المعتدلين الذين يبغضون الإسلام ولكنهم لا يرون مواجهته بالقوة ، إنما كان يرى أن يترك محمد ﷺ ليواجه العرب ، فإذا انتصر عليهم كان لبنى عبد شمس كسب من ورائه لأنهم من كبار القرشيين ، وعند الخروج لمعركة « بدر » كان عتبة معارضا لأبى جهل عدو الإسلام الأكبر ، وكان عتبة يرى رأى أبى سفيان صخر بن حرب الذى نجا بالعير ، وكان يرى لهذا أنه لم يعد هناك معنى لخروج قريش بجيش كبير والقيام بمظاهرة تظهر للعرب أن قريشا ما زالت سيدة العرب وأن محمدا وأصحابه لم ينالوا منها شيئاً ، وعتبة كان لا يرى معنى لذلك ، لأن المهم أن قريشا أنقذت عيرها ، وكان الرجل يخاف كذلك من نتائج الحرب إذا وقعت على قريش ، وأنه إذا قتل ناس كان ذلك قاضيا على وحدة القبيلة ، لأن الذين سيقتل منهم ناس لن ينسوهم أبداً ، ولن يستريحوا حتى ينتقموا لهم ، وتبدأ سلسلة من العداوات والثارات الخطرة داخل القبيلة ، و لم يتردد أبو جهل فى مهاجمة عتبة ، وقال إنه لا يريد حرب محمد والمسلمين لأن حنظلة بن عتبة مسلم مع محمد ﷺ وهو يخشى عليه أن يقتل .

ولكن رأى أبى جهل غلب ، وسار الكفار للحرب ووقع اللقاء فى سهل بدر فى ١٧ رمضان سنة ٢ هـ (١٥ مارس ٦٢٤ م) وهنا تغير كل شىء ، لأن المسلمين انقضوا على المشركين وحطموهم حطما ، وقتلوا سبعين من كبار القرشيين ، وكان بيت بنى عبد شمس من أحفل بيوت الكفار بالمصيبة ، فقد قتل منهم ومن حلفائهم اثنا عشر رجلا فيهم عتبة بن ربيعة سيد بنى عبد شمس وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه

الوليد بن العاص ، وهذه الخسارة أثرت فى بيت بنى عبد شمس أثرا بعيدا ، ولكن الأنكى من ذلك أن الجانب الأكبر من هؤلاء ماتوا إما بسيف على بن أبى طالب أو شارك فى قتلهم ، ويليه فى هذا البلاء العظيم عمه حمزة بن عبد المطلب ، فأما حمزة فقد أدركوا منه ثأرهم فى « أحد » وبقى على بن أبى طالب يحمل كراهة بنى عبد شمس كلها ، ثم إن عليا فعل مثل ذلك فى « أحد » فقد كان علىّ أسدا من أسود الإسلام ، وسيفه نصر الإسلام أعز نصر عرفه .

من ذلك الحين أصبح على بن أبى طالب عدو بنى عبد شمس الأكبر وهم إذا غفروا لغيره ما فعله بهم إلا أنهم لم يغفروا لعلى قط ، وظلت قلوبهم حافلة بكراهته توافة إلى الانتقام منه ومن بنيه .

* * *

لهذا كله نفهم كيف استقبل بنو أمية خلافة علىّ بن أبى طالب استقبالا سيئا ، وعلى كان قد قتل أخا من إخوة معاوية فى « بدر » هو حنظلة بن أبى سفيان ، وكان أولاد أبى سفيان بن حرب قد بلغوا مبلغا كبيرا من القوة والغنى طوال أيام أبى بكر وعمر ، وقد بدأ صعودهم أيام الرسول ﷺ فقد كان معاوية شابا ذكيا مجتهدا قارئا كاتبا ، وقد قربه رسول الله إليه عقب إسلامه مع أبيه وأخيه زيد وبقية آل بيتهم عام الفتح ، فهم من مسلمى الفتح وهم من المؤلفة قلوبهم . ولكن معاوية صح إسلامه وأحب الرسول واقترب منه وقربه الرسول وجعله من كُتّاب الوحى ، وإذا نحن نظرنا إلى أسماء كُتّاب كتب الرسول لوفود العرب سنة ثمان وتسع هجرية وجدنا أن معاوية كتب الكثير منها ، وقد تعلم معاوية هو وأخوه الأكبر زيد بن أبى سفيان من القرب من رسول الله الشيء الكثير ، فقد كان رسول الله مدرسة كبرى ، ومعاوية بطبعه كان مؤهلا للسياسة متطلعا إلى القوة السياسية ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من بنى عبد شمس ، وهم هنا يختلفون عن بنى هاشم ، فقد ورث بنو هاشم الجانب الروحى من هاشم بن عبد مناف كما طوره ابنه عبد المطلب بن هاشم الذى كان زعيما روحيا وهو بانى الركن الثالث من أركان قوة قريش وهو الدين الوثنى الجاهلى الذى يسمى أحياناً بدين عبد المطلب ، أما بنو عبد شمس فورثوا الجانب المالى التجارى من أخلاق هاشم بن عبد مناف ، وهو الذى بنى المجد التجارى المالى لقريش .

وفى أيام أبى بكر يظهر بنو عبد شمس فنرى زيد بن أبى سفيان ، الأخ الأكبر لمعاوية على رأس أحد الجيوش الفاتحة للشام ، ومع يزيد سار الكثيرون من بنى عبد شمس ، وكان لهم نصيب عظيم فى فتوح الشام حتى قال المقريزى : « إنك لو رفعت حجراً فى بلاد الشام لوجدت تحته شهيدا من بنى عبد شمس » . وعندما توفى يزيد أقام عمر بن الخطاب أخاه معاوية مكانه بل جعله على كل بلاد الشام وأطلق يده وتسامح له بالكثير مما لم يكن يأذن فيه لغيره من الظهور بمظهر الفخامة والقوة ، وقد استغل معاوية هذه الفرصة واستكثر من بنى أمية فى بلاد الشام وولاهم الولايات وأعطاهم الأموال ، وأتم هو فتح بلاد الشام إلى مداخل آسيا الصغرى وفتح قبرص وأسكنها المسلمين ، وتقرب معاوية من قبائل العرب النازلة فى الشام وبخاصة قضاعة وفرعها الأكبر كلب بن وبرة ، وكندة وفرعها الكبير من السكون وطيىء ولخم وغطفان وعذرة والنمر بن قاسط . ومعاوية هو الذى قسم بلاد الشام إلى أقسام عسكرية هى الأجناد وأقام عليها رجالاً من بنى أمية وحلفائهم ، ومعاوية كان رجلا موهوبا فى شئون الإدارة والمال . وعندما استشهد عمر بن الخطاب كان معاوية أقوى وأغنى رجل فى الدولة ، ولهذا فعندما صارت الخلافة إلى عثمان أصبح معاوية أقوى من الخليفة نفسه ، وخاصة أن عثمان عهد فى معظم الأمور إلى أهل بيته ومعظمهم من بنى أمية . وعندما استشهد عثمان لم يكن معاوية مستعداً للتنازل عن المركز الكبير الذى صار إليه ، وكان أهله وحلفاؤه يحيطون به فى بلاد الشام يؤيدهم الكثير من رؤساء القبائل العربية فى بلاد الشام ، وقد عرف معاوية بالسياسة والمال كيف يجعلهم جيشا خاصا لنفسه وأهل بيته . والكثيرون جدا من عرب الشام لم يكونوا يعرفون أنساب قريش ، ولدينا ما يدل على أن معاوية وآله نشروا بينهم فكرة أنهم ــ بنى أمية ــ أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ والكثيرون منهم لم يسمعوا بعلى بن أبى طالب . هذا إلى جانب ماله الكثير ويقظته الدائمة .

* * *

وتلك كانت الحقيقة التى غابت عن على بن أبى طالب عندما تولى الخلافة ، فقد كان لا يعلم أنه خليفة لا تؤيده فى الحجاز قوة عسكرية كافية ، وكان لا يعلم أنه من بين ولاة الدولة من هم أقوى منه وأعز نفراً وأكثر مالاً . وقد تولى علىّ فى ظروف عسيرة جداً ، فإن الكثيرين من الصحابة كانوا يفضلون خليفة سهلا لينا غير حازم بعد عمر بن الخطاب ، وقد خافوا أن يسير فيهم علىّ بسيرة قوية مثل

سيرة عمر أو سياسة تشبهها ، وكانت أموالهم كثيرة وكانوا تواقين إلى الاستمتاع بها راغبين في الخروج إلى الأمصار للاستمتاع بالحياة ، ولا ضير عليهم فى ذلك فإن ذلك من حقهم ، وقد غاب عن الكثيرين منهم أن مواقعهم كصحابة تجعلهم دائما قادة الناس ، وهذه القيادة تفرض عليهم التزام الخط العمرى أو مايشبهه ، فإن أمة الإسلام كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً ودخلت فيها أمم كثيرة فى حاجة إلى قدوة إسلامية وقيادة أخلاقية . وعلىّ كان يفهم ذلك ويحس به ولكن الكثيرين غيره من الصحابة كانوا لا يدركونه ، وبعضهم اعتزل الحياة والعمل عندما قامت الفتنة ، وبعضهم الآخر جرفته السياسة والقيادات الجديدة فلم يدر كيف يتصرف .

والشيء الذى غاب عن الكثيرين هو أن الكثيرين من العرب الذين قاموا بالفتنة وساروا إلى المدينة لمناقشة الخليفة لم يكونوا ثائرين على عثمان وحده بل على الصحابة أجمعين ، ومعظم أولئك الثائرين لم يكونوا يعرفون إلا أن الدولة دولة الصحابة والقوة قوتهم ، وقد كان هؤلاء العرب يستمتعون — إلى منتصف خلافة عثمان — بدخول كبيرة جداً من المغانم حتى قُدِّر دخل الجندى العربى — أيام عمر وإلى منتصف خلافة عثمان — بثلاثة آلاف دينار ذهبى فى العام ، وهذا دخل كبير جدا تعود العرب معه الإنفاق الكثير والعيش عن سعة إن لم نقل عن ترف ، وكلهم تزوجوا أو تسروا بنساء البلاد المفتوحة وأنجبوا الأولاد الكثيرين ، ومن المعروف أن العربى مسرف متلاف للمال لا يكاد يدخر شيئاً .

وفى منتصف خلافة عثمان انتهت فتوح البلاد الغنية التى تدر الغنائم الوافرة ، ففى الشرق دخلنا فى طخارستان وحرب الترك وهم قبائل بدوية لا يحصل المقاتل منهم على غنائم تذكر ، وفيما عدا الأسرى ورؤوس الماشية لم يكن هناك شيء ، وبعض هؤلاء الفاتحين كانوا قد تزوجوا مثنى وثلاث فى العراق وفارس وخراسان ، وكثر عيالهم واحتاجوا إلى المال الكثير . وفى ناحية الغرب انتهينا بالفتوح إلى المغرب الأوسط ، وهى أيضا بلاد قبائل من المقاتلين والرعاة ، ولم تكن للغانم منهم كثيرة ، وكان موسى ابن نصير مثلا لا يخرج من هؤلاء إلا برؤوس السبى والماشية ، أما المال من الذهب والفضة وما كان يمكن أن يباع ويؤتى المال فكان قليلا .

وتلك هى الأزمة التى واجهت الجند العرب فى منتصف خلافة عثمان ، وكان الجند قبل ذلك لا يكادون يحفلون بالعطاء ، لأن معظم الذين قاموا بالفتنة كانوا

من العرب الذين دخلوا الإسلام فى زمن متأخر ففلت أنصبتهم من الأعطيات على أساس القاعدة العمرية فى قسم العطاء ، ولو أن عمر نفذ القاعدة البكرية التى كانت تسوى بين الناس فى العطاء لأنه معاش فربما لم تكن الفتنة قد بلغت هذا المبلغ ، ويكون هذا الجند — معظمهم لم يكن يعرف الصحابة أو فضلهم — وجدوا أنفسهم صفر اليدين تقريبا ، لأن عطاء هذا الطراز من الجند كان ما بين عشرة إلى عشرين درهما ، وكانوا فى معسكراتهم يسمعون أن هناك فى المدينة ناسا ما بين رجال ونساء يبلغ عطاء الواحد منهم ستة آلاف درهم ، وكان أولئك الجنود هم الذين يأتون بهذه الأموال التى تقسم على الناس فسارت منهم وفود إلى المدينة لكى تناقش الخليفة فى أوضاعها ، والخليفة كان بعيدا جدا عن إدراك تلك الأوضاع فهو أولا رجل كبير السن شديد التقوى لا دخل له فى الأموال أو الأعطيات ، ومن ناحية أخرى كان القائمون بالأعمال والأموال أهل بيته وهؤلاء لم يكونوا مستعدين للتنازل عن شىء مما كان بأيديهم .

ولهذا فعندما وصل أولئك الناس إلى المدينة لم يجدوا أحداً من أهل الحل والعقد مستعدا للإصغاء لهم أو إدراك أزمتهم ، فالخليفة بعيد جدا عنهم ورجاله كانوا أبعد ، وبعد كلام قليل فى مسائل لا تهم أولئك الجنود فى الصميم مثل جمع القرآن وإحراق ما سوى المصحف العثمانى من المصاحف وتوسيع أرض الحمى وضرب عمار بن ياسر دخلوا فى صميم الموضوع وتكلموا فى الأعطيات وطلبوا إعادة النظر فيها وإن كانوا قد استثنوا كبار الصحابة وأهل بيت النبى ﷺ وأمهات المؤمنين .

وكان لابد أن تقف المناقشات بينهم وبين الخليفة عند نقطة ما ، فإن الخليفة لا يستطيع الاستجابة إلى ما يطلبون ، وهم من جانبهم لا يستطيعون العودة إلى مواطنهم دون مال .

* * *

وهنا ، وفى ذلك الظرف العصيب طلبوا منه الاستقالة ، وهنا فوجئوا بأن هذا الرجل غير مستعد للاستقالة . ولو أن عثمان كان وحده فربما كان قد ترك الخلافة ، فقد كان رجلا بالغ الورع والتقوى ثم إنه كان يقارب الثمانين من عمره ، ولكن المشكلة كانت فى أهله الذين كانوا يحيطون به ويحرضونه على البقاء فى منصبه ، وهنا يقول عثمان عبارته المشهورة : « لا أخلع قميصًا قمصنيه الله » ! ، فكأنه كان يرى

أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أقامه خليفة ، وهذا حق . ولكن بإرادة الناس ، فهذه أمة للمسلمين لا أمة الخليفة ، وكما اختارت الأمة خليفتها فلها أن تعزله إذا هى رأت ذلك ، ثم إن عثمان كان قد جاوز فى الخلافة ست سنوات وهى فترة كافية لدى حاكم منتخب ، ومن المعقول أن يستقيل وتنظر الأمة فيمن تنتخبه مكانه . وحاول علىّ بن أبى طالب وغيره من الصحابة التدخل ولكن بنى أمية رفضوا وحرضوه على أن يثبت فى موقعه ، ولا شك أنهم كانوا على صلة بمعاوية ومن معه من الأمويين فى الشام ومن معه من الجند والأموال .

وفى مثل هذه الظروف العصيبة من المعقول أن نضيق الدنيا فى وجوه بعض أولئك الجند الغاضبين فتمتد أيديهم إلى الخليفة وتصيبه ، فهؤلاء كانوا جندا أجلافا فيهم عنف وقسوة ، ثم إن أزمتهم كانت بغير حل . وهذه — فيما نرى — يمكن أن تكون حقيقة ما وقع : قتل الخليفة ولكن بيد مجهولة ، قتله الظروف التى أحاطت به والنظام القاسى الذى تولى فيه ، فقد كان لابد أن توضع القواعد لولاية الخلافة وكان لابد من تحديد سلطة الخليفة ومدة خلافته . أما أن يعين أى رجل ويوضع فى ثوب عمر بن الخطاب ويطالب باتباع سيرته فظلم دفع ثمنه عثمان ثم علىّ بن أبى طالب . أما القول بحكاية ابن السوداء اليهودى الذى تجرد للايقاع بين المسلمين ومضى يلقى الفتنة بين جماعاتهم فى العراق والشام ومصر والحجاز ومضى كأنه روح شريرة أفسدت ما بين العرب وجعلتهم يقتلون خليفتهم فحديث أساطير لا يقبله أحد ، بل فيه إهانة للعرب ، فأقل ما يخرج الإنسان به منه أنهم قوم أغبياء أو سذج يلعب بعقولهم رجل يهودى واحد .

وإذا كان ولابد أن نبحث عمن قتل عثمان فلنقل إنهم بنو أمية : صدروا هذا الرجل الجليل وتركوه يواجه الثائرين وحده ويدفع الثمن من دمه لكى يحتفظوا بما جمعوه ووصلوا إليه . وكانوا دون شك يعرفون أن وراءهم معاوية وبقية بنى أمية فى الشام ، ومعهم من الأموال والجند ما يستطيعون أن يحوزوا به الدولة كلها . أما مطالبة علىّ ابن أبى طالب بعد ذلك بقتلة عثمان فظلم واضح وجزء من المؤامرة الكبرى .

والسبب الأكبر فيها هو عدم ضبط مسائل الحكم والنظام السياسى للجماعة ، فليس فى الدنيا أخطر على الدولة من غموض نظام الحكم وقواعده وحدوده ، والرومان

— كما قلنا — عرفوا ذلك ومنعوا التشريعات الإدارية للدولة ، وعندما قامت أول جمهورية في العصر الحديث وهي الولايات المتحدة الأمريكية بذل رجالها — بعد الاستقلال — جهداً كبيرا جدا في ضبط نظام الدولة وتحديد السلطات ومدد الحكم وقواعد توليه لإدراكهم هذه المسئولية . وقد حددوا مدة الرياسة بأربع سنوات وضبطوا القواعد لتوليها بصورة شرعية سليمة . وقد كانوا أذكى وأسعد حالا منا فجعلوا دولتهم اتحادية ، أي تتكون من وحدات سياسية مستقلة داخليا ، ومتحدة في السياسة الخارجية والدفاع والقوانين التي تمس مصلحة الجماعة . وكل ولاية حرة في اختيار رئيسها وهو الذي يمثلها في مجلس الشيوخ الاتحادي ، وهو السلطة الكبرى في البلاد ، ورئيس الجمهورية ينتخب انتخابا حراً في كل الولايات لأنه رئيس الاتحاد ، وسلطاته واسعة جدا ولكن مجلس الشيوخ لابد أن يوافق على كل القرارات ، ومسئولية الرئيس كاملة وخطيرة ، فهو أكبر رئيس في الدنيا ولكنه يقف بين يدي مجلس الشيوخ موقف المرؤوس ، وهو قوي جدا ما دام يلتزم القانون والأخلاق . ولكن ياويله إذا هو خالف القانون أو كذب أو اقترف شيئا يمس الأخلاق . وكل ولاية تنتخب محافظا أو حاكما لها من بين أهلها ، وهو حاكم فعلي للولاية يرأس الجهاز الحكومي للولاية وبخاصة البوليس ، وللولاية أن تضع ما تشاء من القوانين وتنفذها ما لم تتعارض مع قوانين الاتحاد . وهناك مجلس نواب للدولة ولكن سلطته لا تصل إلى سلطة مجلس الشيوخ لأن مهمته الأساسية هي التنسيق بين الولايات وقوانينها ومالياتها وصناعاتها والقانون هناك مستويان ، فهناك قوانين محلية لكل ولاية ، ولكن القضايا الكبرى تحال على المحكمة الفيدرالية أي الاتحادية .

وقد أفادت فرنسا من ذلك النظام عندما قامت ثورتها ونشأت جمهوريتها وإن ظلت دولة واحدة لا اتحاد ولايات لأن الوحدة الفرنسية قديمة جدا ومنذ قيام الجمهورية الخامسة برياسة شارل ديغ جول سنة ١٩٥٢ زادوا سلطة رئيس الجمهورية فأصبح رئيسا فعليا قريبا في السلطة من رئيس الولايات المتحدة وزيدت مدة رياسته إلى سبع سنوات قابلة للإعادة مرة واحدة ، أما مدة الرياسة في الولايات المتحدة فأربع سنوات يمكن إعادتها . وفي وقت الحرب يمكن أن تمد مرتين أو ثلاثا وقد حدث هذا مرة واحدة أيام فرانكلين ديلانو روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية .

وحريات الناس في كلا البلدين مكفولة : حرية العمل والرأي والتعبير ،

والموظفون مقيدون فى تنفيذ قراراتهم بقوانين حاسمة ولا يمكن تخطى القانون ، لا للدولة ولا للأفراد . وأول من ضرب المثل فى تطبيق القانون فى الولايات المتحدة هو جورج واشنطون بطل التحرير ، ولكنه بعد مرتين رفض الثالثة ليضرب المثل : ترك الدولة وكل سلطان وعاد إلى مزارعه فى فرجينيا وأصبح مواطنا عاديا ، وكذلك الحال مع كل رؤساء الولايات المتحدة .

* * *

هذه القواعد كلها موجودة فى الإسلام وكان رسول الله ﷺ يطبقها ببساطة تدعو للإعجاب ، فحكومة الأمة جماعية ، وهناك هيئة من الرؤساء يختارها الناس أو الرسول تنظر معه فى مسائل كل يوم ، والأمة كلها جيش فهى أمة جيش ، وللأمة فى أيام الرسول وظيفتان رئيسيتان : إحكام تطبيق شريعة الإسلام داخلها والعمل على نشر الإسلام ، وأى جماعة تدخل الإسلام بحرب أو طواعية تصبح جزءا من الأمة ، ولمن يريد أن يحتفظ بدينه من رجالها أن يحتفظ به على أن يؤدى الجزية ، وهى ليست ضريبة ولا مهانة فيها ، لأن الإسلام نور وهدى من الله فلا يدخله إلا من هداه الله فهو نعمة كبرى ، والنعم لا تفرض بالقوة ولكن يحصل عليها من يستحقها بهدى من الله ، فإذا لم يدخل الإسلام إنسان فمعنى ذلك أن الله لم يمنحه هذه النعمة ، ومن ثم فمن الخطأ أن تحاول إدخال الناس فى الدين بالقوة ، والذين يكرهون المسيحيين لأنهم مسيحيون ويعملون على إدخالهم فى الإسلام مخطئون ومعتدون على إرادة الله ، فالإيمان منطقة لا سلطان فيها إلا لله : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ (المائدة آية ٤٨) ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ (البقرة آية ٢١٣) وهذه آية معجزة المعنى من الله سبحانه ، وما قرأت لها تفسيرا مقنعا من أحد المفسرين .

هذا ما كان ينبغى أن يحدث يوم اجتماع سقيفة بنى ساعدة : النظر فى كتاب الله وسنة رسوله والتناقش فى هدوء ثم اتخاذ القرار . أما الذى تم فكان مأساة ، ولا يشفع فيه أن الذى انتخب كان أبا بكر ، لأن أبا بكر كان نادرة وكذلك كان

عمر ، ولكننا لا نجد كل يوم أبا بكر أو عمر ، وفى أى مناسبة نختار رجلا من طراز أقل تكون الكارثة ، وهذا هو الذى حدث . لقد ذهب أبو بكر وعمر إلى هذا الاجتماع ومعهما أبو عبيدة ، وكانت المحافظة على الإسلام والسير به إلى الأمام تملأ نفس أبى بكر وعمر ، ولكنهما كذلك كانا حريصين على قريش ، وقريش كانت دائما قبيلة أنانية لا يعنيها إلا أمر نفسها ، وكان العرب لا يحبونها لهذا السبب ، والعرب لم يحبوا من قريش إلا رسول الله ﷺ ونفرًا قليلًا من أمثال على بن أبى طالب وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، أما البقية فقد كانت فيهم الأنانية القرشية التى لم يحبها الناس أصلا . ومن كل بطون قريش لم يحب الناس إلا فرع بنى هاشم إكراما لرسول الله . وحتى الشجرة النبوية كان فيها الكثيرون ممن لايستحقون شرف الانتساب إليها . ونحن المسلمين انتخبنا أبا بكر خليفة بغير حدود أو قيود وجعلناه رئيس الجماعة غير منازع ولا مساءل ولا محدود المدة فقد وضعنا على رأس الأمة ملكا مطلقا ، و لم تظهر عيوب ذلك فى أيام أبى بكر وعمر فقد كانا نادرتين ، ولكنه ظهر فى أيام عثمان . وظهر بشكل بشع جدا لأن عثمان كان رئيس بيت من قريش تتمثل فيه الأنانية القرشية بأسوأ معانيها وهو بيت بنى أمية وكان يتزعمهم معاوية ، ومعاوية كان بالغ الأنانية والخبث والقسوة ، ولا ضير علينا فى أن نقول ذلك ، بل ينبغى أن نقول مادام حقا ، لأننى كما قلت أفرق فى الصحابة بين جانب الصحبة ، وهو جانب جليل نحترمه وجانب الإنسان ، وهذا الجانب الإنسانى لنا الحق فى نقده ، وقد رأيت ما فعله عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك ما فعله الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله كان خطأ بالغا ، فما داما قد بايعا لعلىّ فى المدينة فكيف ينقضان البيعة بعد ذلك حسداً للرجل وبغيا عليه ؟

لو أننا نظرنا فى السنة نظرا سليما لرأينا أن ما صنعناه نحن المسلمين يوم السقيفة كان سبب كل المتاعب التى لقيتها أمة الإسلام . كانت السنة تقضى بأن تنتخب هيئة الشورى ، وهيئة الشورى كانت تنتخب أبا بكر (أو غيره) وما دامت هيئة شورى فلم يكن هناك خوف من خطأ كبير ، وكان لابد أن تختار هيئة الشورى هيئة التشريع التى تضع نظام الدولة وتقرر مدة الرياسة وحدودها ونظام انتخابها وسلطاتها وقيود تلك السلطات . وحقوقها وقيود هذه الحقوق ، وكان هذا هو القانون الأساسى أو الدستور الذى يقود أمور الأمة فيما بعد فى الطريق الصحيح ، ورسول الله ﷺ وضع للأمة دستوراً ، وضعه بالتشاور مع الجماعة وسير الأمة عليه

والتزم به ، فسارت الأمور عليه سيرا جميلا جدا خلال العصر النبوى .

أما أن يكرن الحديث يوم السقيفة عن أمراء ووزراء ، وإصرار قريش على أن تستبد بأمر الأمة كأنها ورثتها عن رسول الله فهذا خطأ ، ورسول الله لم يكن يحكم المسلمين حكم أمير أو رئيس بل كان لا يحكمنا أصلا وإنما كان يرقبنا ونحن نحكم أنفسنا بأنفسنا ويوجهنا إلى الطريق السليم ، وكان صادقا عفيفا متواضعا ، وقد فخر هو بأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وهو أدب أمته فأحسن تأديبها ، وجعل كل شئون الأمة أخلاقا وعلاقات الناس تراضيا ومحبة ، وقد أتته إمرأة وطلبت منه الطلاق من زوجها لأنه دميم ، وقد سألها إن كان لديها سبب آخر لطلب الطلاق غير الدمامة فقالت : لا والله يا رسول الله ماهى إلا الدمامة فإن قيس بن شماس رجل طيب الخلق كريم ، فسألها رسول الله إن كانت مستعدة لأن ترد عليه ما أمهرها إياه فأبدت استعدادها فناداه وسأله إن كان مستعدا أن يأخذ ما دفع ويطلق فاستجاب وتم الطلاق ، ولو عرضت قضية كهذه على فقيه من فقهائنا لأنكر الطلاق كل الإنكار ، لأنه يتبع قانونا وضعه فقهاء لا يعرفون أن السنة أخلاق فى سنة ١٩٢٩ ، وتسعون فى المائة من قضايانا الشرعية ناشئة من أن الفقهاء لا يتبعون السنة ومع ذلك فإن الواحد منهم لا يزال يفخر بأنه من رجال السنة . وحتى عقود الزواج التى نعقدها على كتاب الله وسنة رسوله بعيدة عن السنة ، فليس من السنة أن يدخل رجال ويأخذون موافقة الزوجة ويبلغونها للمأذون ليعقد العقد لأن السنة هى أنه مادامت المرأة موجودة فلابد أن يسمعها المأذون بنفسه ، بل التوكيل فى حالة وجود المرأة يعتبر شهادة أو إقرارا من الولى بعقد الزواج ، وهذا الإقرار غير ضرورى مادامت العروس بالغا عاقلة .

* * *

ومادمنا قد انتخبنا خليفة مطلق المدة والسلطات فقد وضعنا فوق رؤوسنا ملكا مستبدا غاشما ومن هنا جاء البلاء لأننا لا نضمن أن نجد دئما أبا بكر أو عمر . وعثمان عندما رفض الاستقالة بحجة أن الله سبحانه اختاره خليفة أى ملكا علينا وألبسه ثوب الملكية وسماه القميص خالف السنة والإسلام نفسه مخالفة بشعة ، لأن الإسلام إنما أتى ــ من الناحية السياسية ــ ليضع حداً لعصور الملوك الغاشمين . والذين يقولون إن معاوية هو الذى جعل الخلافة ملكا مخطئون ، لأنها كانت ملكا منذ اللحظة

الأولى ، ولكن أخلاق أبي بكر وعمر أخفت مساوئها ثم جاء عثمان فلم يستطع ، والخلافة فى أيامه أصبحت ملكا فى أيدى بنى أمية ، ومعاوية لم يفعل أكثر من أنه صارح الناس بهذه الحقيقة ، ولم يكن معاوية أول من أوصى بالخلافة لابنه يزيد وجعلها وراثية ، فإن أنصار علىّ بن أبى طالب هم الذين نادوا بابنه الحسن وريثا له فى الخلافة ، أما معاوية فكان ملكا وأوصى بالملك لابنه ووضع قوات الدولة وجنودها فى خدمة هذا الملك الوراثى ، ومن ذلك الحين تحول تاريخنا إلى صراع فى سبيل الملك والسلطان واستبدادا بأموال الدولة وقضاء على حريات الناس وعدوانا على نفوسهم واستبدادا بأحوالهم وهذا هو الذى أصاب تاريخ المسلمين بالشلل . فلا حرية ولا حقوق ولا كرامات وليس هناك أسوأ ولا أدعى للحزن من التاريخ السياسى لدول المسلمين ، فكلها حتى العصر الحديث غارقة فى الدماء ومن أسف أننا تعلمنا قواعد السياسة الإسلامية من غير المسلمين ، وهذا كلام سبقنى إليه الإمام محمد عبده .

وحتى الشيعة جاءت من إقرارنا من أول الأمر لهذا النظام الملكى المطلق ، لأن علىّ بن أبى طالب كان أصلح المسلمين لولاية الخلافة بعد أبى بكر وعمر ، وبعد مآسى خلافة عثمان ومطالبة آله وهم بنو أمية بوراثة الخليفة أصبح على علىّ بن أبى طالب أن يدافع عن سلطان نفسه ، وقد أخطأ خطأ بالغا عندما ترك قاعدة ملكه وذهب يطلب الجند والأنصار فى الكوفة ، لأن قاعدة السلطان جزء من السلطان وهى رمزه ، ولكن عليا لم يكن رجل سياسة ، ولو كان رجل سياسة لسارع — وفى سرية تامة — فأرسل رجلا من كبار قادته مثل الأشتر النخعى إلى الشام فغلب معاوية فى دمشق وانتزع السلطان منه كما فعل أوكتافيوس أغسطس فى استرداد السلطان من قتلة يوليوس قيصر ، إنما هو كان رجل دين وأخلاق ومبادئ ، وعندما صار فى العراق وجد نفسه بين أجلاف جهلة لم ينفعوه ومعاوية أسرع فضم مصر فأصبح أغنى وأقوى رجل فى دولة الإسلام ، والمال والجند هما عماد السياسة ومعاوية اشترى الجند بالمال ، فكان يعطى الجندى مائة دينار فى يده ، وجند الشام لم يكونوا يعرفون من صاحب الحق أو ما هو الحق فصاروا يحاربون للمال ، ثم قتل علىّ وصار الأمر لمعاوية ، وفى ذلك الحين نشأت جماعة الشيعة تطالب بالخلافة لأهل بيته ، ونشأت حركات هى أبعد ما تكون عن روح الإسلام كالدعوة الفاطمية والقرمطية والاسماعيلية بمذاهبها المختلفة وضاع أمر الإسلام جملة . وأمة الإسلام وقفت عاجزة

فلم يعد لها هم إلا المحافظة على دينها وشريعتها وما استطاعت من حقوقها ، ولكنها عجزت لأن الاستبداد بحر زاخر يطغى على كل شيء .

* * *

وننتقل إلى العلم ، وهو الأساس الأكبر لأمة الإسلام فنجد أن الأمة عندما رأت ذلك الاستبداد السياسي الطاغي اجتهدت في النجاة بالعلم والشريعة والقضاء من يد الحكام ، فالذين انشأوا العلم الإسلامي وجمعوا الحديث الشريف لم يكونوا من رجال الدولة ولاهم سمحوا للدولة بأن تسيطر عليهم وتلك فضيلتهم الكبرى فالبخاري ومسلم واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وهم كبار أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد لم يكونوا من رجال الدولة ولاهم قبلوا منها مالاً ولاهم أذنوا لها بأن تتدخل في كتبهم ، وأحمد بن حنبل خاصم يحيى بن معين وهو من كبار رجال الأحاديث لأنه خضع للدولة وقال بخلق القرآن . ومسألة خلق القرآن نفسها ليست بذات بال ، ولكنها مظهر من مظاهر الصراع بين رجال الدين والدولة ، والأمة كلها وقفت إلى جانب أحمد بن حنبل في صراعه مع المأمون والمعتصم لأنها كانت تكره الدولة وتحب أن تتحداها ، ورجال مثل يوسف البويطي وآل عبد الحكم (وكل هؤلاء مصريون) تحدوا الدولة ووقفوا مع ابن حوقل وفقدوا حياتهم وأموالهم ، وانتصرت الأمة في النهاية ونجت بدينها وشريعتها .

والدولة أرادت أن تسن تشريعا مقتبسا من القرآن والسنة ليكون التشريع في يدها فرفض الفقهاء ، والرجل الذي أشار بذلك التشريع (وهو عبد الله بن المقفع) دفع حياته ثمنا لذلك ، والفقهاء لم يحرضوا على قتله ولكنهم شككوا في عقيدته ، والدولة قتلته إرضاء لهم ، ولكنهم لم يرضوا عن ذلك ، واستقل الفقهاء بالتشريع فصاروا يشرعون مستقلين بعلمهم وهذا من مفاخرهم ، والدولة صارت تنفذ أحكام القضاة ، وكان الخلفاء والملوك والسلاطين يقترفون الجنايات حفاظاً على سلطانهم أو في صراعهم بعضهم مع بعض دون أن يتدخل في ذلك الفقهاء ، بل كان الفقيه إذا اقترب من السلطان وداخله وخدمه وأخذ أمواله يخرج من زمرة الفقهاء المتصاونين أهل الدين والعفاف ، بل كان محتقرا بين أهل العلم كما حدث لأبي الحسن على الماوردي ، فقد خدم أمراء البويهيين بكتاب « الأحكام السلطانية » وحلل للأمراء ما أرادوا وحرم ما أرادوا وجوز ولاية المجنون والمعتوه والفاسق ، وجعل الحكم مباشرا

وغير مباشر ، فتجوز ولاية غير الصالح على أن تكون ولاية توكيل فينيب عنه غيره من أهل العقل والقدرة فيجوز حكمه ، وقد أنكر الفقهاء ذلك فى عصر البويهيين وكان الماوردى لا يتمتع بأى احترام من فقهاء عصره .

بل حتى مكان ممارسة القضاء رفض الفقهاء أن يكون فى مبنى تبنيه الدولة ، ومن الواضح أن الحكومات كانت ترحب بأن تقيم دورا للقضاء (أى محاكم) ولكن ذلك كان لابد أن يؤثر فى القضاة ، وأقل ما فيه أن تكون وثائق القضايا فى مكان هو ملك الدولة ، ففضل القضاة أن يمارسوا القضاء فى المساجد ، لأن المساجد هى بيوت الله ، وهى كذلك بيوت الناس ، وحتى المساجد التى يبنيها الخلفاء والسلاطين كانت تصبح ملك الناس حال الفراغ من بنائها فجلس القضاة فى ركن من أركان الجامع ووضعوا فيه القمطر وهو دولاب سجلات القضايا ، وجلس القضاة وأمامهم الناس ، وفى مؤخرة الناس ، وقف أعوان القاضى ، وهم الذين ينفذون أحكام القضاة ، وكان الذى يعين القضاة واحد من كبار العلماء ممن اشتهروا بالعلم الغزير والصلاح والتعاون يعملون فى خدمة السلاطين دون أجر ، وكانوا يشترطون ذلك ، لأن أموال الحكام كانت فى نظرهم حراما ، وكانوا على حق فى هذه النظرة ، فإن أحداً لا يدرى من أين يأتى الحكام بأموالهم ففيها الكثير من أموال الظلم والقهر والمصادرات فهى أموال حرام .

وقد حدث انحراف عن هذه القاعدة النبيلة فى العصور المتأخرة وهى عصور حكومات المماليك والأتراك وسلاطين المغول ومعاصريهم ، لأن مستوى المجتمع كله هبط ، واختفى الفقهاء العلماء المبتكرون الذين كانوا يشرعون من أمثال الدارقطنى والسلفى . وقد ألف شمس الدين الذهبى كتابا سماه « المعين فى طبقات المحدثين »[1] جعلهم فيه أجيالا كل جيل يضم أهل ثلاثين سنة على وجه التقريب ، وقد تتبعت الأجيال فيه فوجدت أن الأجيال ذات القدر فيه تنتهى إلى جيل حدود سنة خمسمائة فأهل العلم تحولوا بعد ذلك — غالبيتهم العظمى أقصد — إلى حُفّاظ ، أى إلى رجال يحفظون الكتب عن ظهر قلب ويرددون ما فيها دون تفكير أو ابتكار ، وقد كثر

---

(١) حققه د. محمد زينهم محمد عزب ، دار الصحوة . القاهرة ١٩٨٧ .

هؤلاء حتى عز عليهم العيش ، فأصبحوا يتنافسون فى طلب الوظائف لكى يعيشوا ، وهبط مستوى معظمهم العام هبوطا بالغا ، وليس فى هذا ما يضير الإسلام ، ولكنه العصر وظروفه ومقتضياته .

وكانت سياسة الحكام فى الاعتماد على الجند المرتزقة قد أفقرت الدول كلها فقرا مدقعا ، لأن الجنود الذين تشتريهم الدولة وتربيهم لتستخدمهم فى الدفاع عنها ولترغم الناس بهم على أداء الضرائب لا يلبثون أن يشعروا بأنهم قوة الدولة ، فيتجهون إلى السيطرة على الحكام سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو سلاطين ، وأعدادهم تزداد مع الزمن وكذلك مطالبهم من المال ، فإن أولاد الجندى يدخلون خدمة الدولة ، وأعداد الجيش تتضاعف مع الزمن ، ويضطر الحكام إلى زيادة الضرائب ، وتمتد أيديهم إلى أموال الناس وتكثر المصادرات وتنهب أموال التجار ، وشيئاً فشيئاً تختفى الصناعة والصناعات ، وفى بداية العصر الفاطمى فى مصر فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كانت مصر مشهورة بصناعاتها ،وفى شمال شرق الدلتا فحسب فى مدن بحيرة المنزلة كانت هناك مراكز للنسيج تدر الذهب مثل تنيس ودبيق وشطا ، وكانت مصر تصدر بملايين الدنانير من النسيج الفاخر الذى كان يصنع من القطن أو الكتان مزينا بخيوط الذهب وكان الثوب منها يباع بألف دينار ، وكانت مدن الدلتا والصعيد عامرة بصناعات الخشب والجلود والحديد والنحاس والصابون ، فمازال الفاطميون يفرضون عليها الضرائب حتى أفلست ووزير واحد من وزراء العزيز بالله ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر يسمى ابن كلس ـــ كان أصله يهوديا ـــ كان يطلب من مصانع بحيرة المنزلة بما يعدل الألوف من قطع النسيج كل عام حتى أفلست وأغلقت أبوابها ، والإدريسى يقول فى « نزهة المشتاق » إن مصانع اللجم والمفارش والفرش (السجاجيد) فى أخميم وغيرها من مدن الصعيد كانت تفلس عندما مر بها فى أوائل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

وفيم كانت تلك الأموال تنفق ؟ ! .. فى مطالب الخلفاء وعلى جنودهم وحروب الدولة الفاطمية مع الدولة العباسية . وتلك كانت القاعدة : تحارب الدول الإسلامية بعضها بعضاً وعلى طول تاريخ الإسلام ما تجاورت دولتان إلا تحاربتا دون غاية أو هدف أو معنى غير إطفاء نار الحقد التى كانت تملأ قلوب أهل الدول لخوفها بعضها

من بعض ، فهى كلها دول غير شرعية ، وأصحابها فى خوف من رعاياهم ومن جندهم ومن جيرانهم ، وحتى أيامنا هذه مازالت معظم دول الإسلام تحارب بعضها بعضا ، لأن الحكام مستبدون غاصبون وصوت العقل مكتوم ، فلم يكن الحكام يقبلون رأياً أو نصيحة فكانت أموالهم تضيع ، وأموالهم هى أموال الناس ، وكذلك كانت حياتهم تضيع ، وكلنا نعرف المستوى الذى وصلت إليه الدولة العثمانية من الفقر والتدهور الأخلاقى والإدارى ، فهذا هو ما انتهت إليه كل دول الإسلام فى تلك العصور ، لأن هناك حقيقة كبرى تغيب عن أصحاب هذه الدول وهى أن الأمة مصدر القوة ، ولا قوة ولا بقاء لدولة إلا بتأييد من أمتها ، وفى أوروبا فى العصور الوسطى كانت الدول مستبدة وغاشمة ، ولكن الخيط كان ممدودا بينها وبين شعوبها و لم تكن تعتمد على الجند الأجنبى إلا فى النادر ، وفيما عدا ذلك فقد كان الجند من أهل البلد ، وكان الأشراف (وهم حكام الأقاليم) يعتمدون على جنود محليين ، وهؤلاء الجند كانوا فى نفس الوقت جند الملوك ، وكان بعضهم يعادى الملوك ويحاربهم ، ولكنهم فى الغالب كانوا يحرصون على أن يظلوا على علاقات طيبة معهم . وحتى فى صميم العصور الوسطى كان هناك شيء نستطيع أن نسميه بالحياة القومية ، وكان هناك شيء مشترك بين ملوك انجلترا من أسرة استيوارت أو بلا نتاجينيت أوهانوفر والشعب الانجليزى ، وكذلك كان الحال بين الأسر المالكة الفرنسية من آل هيوكابيه والبوربون والشعب الفرنسى وكان الملوك يعملون فى خدمة الشعب وفى خدمة أنفسهم فى نفس الوقت ، وقد تحالف الملوك فى كل من البلدين — وبقية بلاد أوروبا — مع أهل المدن والمدن كانت مراكز المال والصناعات ،و لم يكن الملوك ليعتدوا على أموال المدن ومصانعها ، بل كانوا يستلفون منها المال ويردونه ، فاحتفظت البلاد بثرواتها وعندما جاء عصر الاكتشافات الجغرافية كان الملوك ينفقون على الأساطيل والاكتشافات والفتوحات ، فارتقت البحريات وعظمت السفن وتضخمت الجيوش ، واستطاعت فرنسا وانجلترا والبرتغال وهولندا أن تستولى على الأراضى المكتشفة وتتملكها وتستعمرها ، بل إن البرتغال — وكانت من أصغر بلاد أوروبا — قد تغلبت على المسلمين فى المغرب ، وعندما طردوا منه استعمروا شواطىء الجزيرة العربية واحتلوا شواطىء عمان وبلاد الهند الإسلامية وأنزلوا بها دمارا بالغا ، ونحن عاجزون عن الصمود لهم ، و لم يستطع اليعربيون اصحاب عمان التخلص منهم إلا بعد خسائر واسعة ومهانات بالغة .

وسبب ذلك كله هو أننا تركنا سُنّة الإسلام فى الحكم الشعبى الجماعى وارتددنا إلى الملكيات الغاشمة فى الجاهلية وعادى الحكام أهل العلم واعتدوا عليهم وغرقنا فى عالم من الظلم والجهل والذل والفوضى ، وخرجنا — فى هذه النواحى — عن الإسلام ولم نحتفظ منه إلا بممارسة العبادات دون أن ننتبه إلى المعانى الرفيعة التى تتضمنها العبادات فى ذاتها ، وفى القرن الثامن الهجرى وما بعده كان عندنا علماء أجلاء ولكنهم حفاظ ، يحفظون العلم دون أن يتخلقوا بأخلاقه ، وباستثناء ابن خلدون ، والمقريزى وأبى المحاسن كان العلماء يقعون بعضهم فى بعض بصورة لا تتفق مع جلال العلم الذي يعمر قلوبهم ، وما رأيك فى الكلام الذى كان ابن حجر العسقلانى يقوله فى السيوطى والكتاب الذى ألفه السيوطى فى ذم استاذه السخاوى وسماه بـ « الكاوى فى ذم السخاوى » ؟ !

* * *

وقد كان الالتحام بين الملوك والشعوب فى الغرب سببا فى نهوض العلوم الدنيوية وهى لا تقل أهمية بالنسبة لحياة البشر من العلوم الدينية ، وقد خفف الله علينا أمر الإسلام ، فليس فيه أسرار ولا تعقيدات ، ولكننا نحن عقدناه ، وألفنا الكتب فى هذا التعقيد ، وكنا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين نؤلف الكتب فى الطب والطبيعة والكمياء والفلسفة والرياضيات والفلك ، فأهملنا ذلك كله بسبب الفقر العام وانخفاض المستوى ، فغلب الجهل وانحط المجتمع كله ، وعندما تلاقينا مع الصليبيين كنا أنداداً لهم فغلبناهم وأخرجناهم من بلادنا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . ولكن عندما تلاقينا معهم فى القرن التاسع عشر كانوا أقوى منا مرارا وغلبونا بل احتلوا بلادنا .

وجدير بالذكر أننا هبطنا فى العصر العثمانى إلى مستوى من الفقر لا يوصف ، حتى البلاد التى لم تخضع للدولة العثمانية مثل المملكة المغربية ودولة مغول الهند والدولة الصفوية الفارسية كانت فى غاية الفقر ، وكل هذه الدول كانت فى مستوى خفيض جدا من العلم ، وفى مستوى أشد انخفاضا فى المال فغلبونا فى كل ميدان ، والسبب هو ابتعادنا عن روح الإسلام فى سياسة الأمة والتصرف فى أموالها وفى إهمالنا للعلم أو علوم المعاش وهى أساسية ورئيسية وكل دولنا اقترضت الأموال من أوروبا ثم احتلتها أوروبا بحجة استعادة أموالها ، فاستعادوا أموالهم واستغلوا بلادنا وخيراتها ومازلنا إلى الآن لا نعى هذا الدرس وعيًا تاما .

وأهم ما فى هذا الدرس هو الحرية فإن المجتمع الإسلامى أيام الرسول ﷺ كان مجتمعا حراً يتساوى أفراده فيما بينهم مساواة تامة ، وهذه هى قاعدة النجاح ، فعلينا إذا أردنا النهوض الحق أن نتمسك بالحرية فهى قوة للحاكم والمحكوم ، وهى ضمان كل خير وسلامة وعزة ، وبدون حرية لا تقوم أمة ذات شأن .

ويلى ذلك العلوم ، وعلومنا سواء كانت دينية أو دنيوية ينبغى أن تكون علوما نافعة ، فالإسلام دين حرية ودين علم ، وهو ليس فى حاجة إلى من يدافع عنه ، فالذين يؤلفون الكتب دفاعا عن الإسلام ينفقون وقتهم سدى فالإسلام عزيز بنفسه وهو ليس فى حاجة إلى دفاعهم . والذين يقرأون القرآن ويجدون آية ويصيحون : هذه الآية تتحدث عن طبيعة خلق القرآن على آخر ما انتهى إليه أهل العلم فى أيامنا ، أولى بهم أن يكفوا عن هذه السطحية ، فمن المعروف أن القرآن يضم كل علوم الدنيا ، وأولى بنا أن نستخرج قواعد العلوم منه لا أن نأخذها من أهل الغرب ، ثم نقول إنها فى القرآن ، فمن المعروف أنها فيه ولكننا نحن لسنا من العلم والجدية فى شىء .

وجدير بنا أن نذكر أن الأمة الإسلامية كانت دائما أمة واحدة ، وكل الخلافات كانت بين الحكام ، فلم يحدث قط أن حارب أهل مصر أهل الشام ، ولكن حكام مصر حاربوا حكام الشام وأهلكونا معهم ، وأضاعوا أموالنا وخربوا بلادنا ، وأمة الإسلام لا تزال واحدة ، فلنجتهد فى إنهاء خلافات الحكام ،ولتتعاون أممنا بعضها مع بعض لكى ننهض ونسترجع ما فات ، وإذا كان بعضنا يخدمون الروس ويحاربون إخوانهم المسلمين خدمة للروس فى سبيل السلاح الذى يأخذونه منهم ، فلماذا لا يصنعون هم السلاح ؟ وهل صناعته معجزة ؟

أهم شىء — كما قلت — هو الحرية والعلوم ، وأضر شىء بنا هو الاستبداد والظلم والجهل ، ونحن نجرب اليوم الحرية فلنتمسك بها ، وعسانا لا نظن أن أهل السلف كانوا أصلح منا كما نزعم ، فإن هذا غير صحيح ، ونحن اليوم خير من أسلافنا ، فليكن فكرنا حاضرا ، وليكن نظرنا إلى الأمام ، فإن النظر إلى الوراء لا ينفع فى شىء .

* * *

إذن فالمشكلة عندنا أساسية . منذ البداية أخطأنا الطريق واتجهنا بالحكم اتجاها

غير إسلامى ، فالإسلام يعارض الاستبداد وينكر حكم الفرد المستبد ، ورسول الله كان يعرف أنانية قريش واستبدادها . وفى أكثر من مناسبة تصدى لحماية الأنصار ونصح عمر بالاعتدال وجدير بالذكر أن عمر لم يكن يتمتع بامتياز خاص أو مكانة خاصة فى الأمة الإسلامية أيام الرسول ، وتدخلاته فى شئون الجماعة كانت فى الغالب عن طريق أبى بكر . وتمر عليك صفحات بعد صفحات من المسيرة النبوية دون أن يمر بك ذكر لعمر . لقد حضر المشاهد كلها مع الرسول طبعا ، ولكنه لم يقد إلا سرية واحدة ، وكذلك أبو بكر لم يقد إلا سرية واحدة ، وكانت الاثنتان بعد ست سرايا قام بها زيد بن حارثة ، والغالب أن الرجلين احتجا على تلك الصدارة التى كانت لزيد ، ولم يكن قرشيا بل كان قضاعى الأصل وأسر واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة (رضى الله عنها) وأهدته هى إلى رسول الله فأحبه الرسول حبا شديدا ووثق به حتى صار يوصف بأنه حِبُّ رسول الله ، وقد أرسله الرسول أميراً لست سرايا متوالية ، فغار منه القرشيون وتحدثوا فى ذلك ، وقد صارحهم الرسول بذلك وهو على فراش الموت . وقال موجها الكلام لعمر : إنه عندما اختار زيداً للإمارة « ورمت أنوفهم » وقال إن ذلك حدث لهم أيضا عندما اختار الرسول ابنه أسامة لإمارة البعث إلى الشام ، وزيد كان أول أمير لمؤتة ، وقد استشهد فيها .

وقد وضعت أحاديث بعد ذلك تنسب للرسول أنه قال إن الإمامة فى قريش ، وهذا غير صحيح ، ولو كان الرسول قال ذلك فعلا لما نافس الأنصار القرشيين فى الرياسة يوم السقيفة ، بل إن الرسول لم يتحدث فى الإمارة أصلا لأنه كان يرى أن قيادة الجماعة ينبغى أن تكون جماعية ، والجماعة القائمة تختار رئيسها بالشروط التى تراها ، والإشارة الوحيدة الموثوق بها ويمكن تأويلها بأنها إشارة إلى القيادة الجماعية هى قول الله تعالى فى سورة (آل عمران : آية ١٠٤) **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾** فهى تأتى وسط مجموعة من الآيات يمكن أن نعتبرها أساسا للنظام السياسى للجماعة بعد الرسول ، وغريب جدا من فقهائنا الأول أن ذلك لم يستوقف انتباههم ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا جبناء ، فقد كان فقهاء القرون الأولى أهل شجاعة وإيمان ، ولكن يبدو أن الفتنة داهمتهم ولم يكونوا ينتظرونها ، ووقعت الحرب الأهلية فروعتهم وخافوا على وحدة الأمة ، ثم قامت خلافة معاوية فظنوا أنها نهاية الفتنة وبداية الاستقرار والحكم الإسلامى الصحيح ، ثم رأوا استبدادها والتفاف الجند العرب المرتزقة حول الدولة

الجديدة . وعندما بايع معاوية لابنه ، ونولى يزيد الخلافة يؤيده رجال جبابرة لا يعرفون رحمة ولا يراعون دينا ، أسقط فى يدهم وسلموا بأن هذه إرادة الله ، ويئسوا من الدنيا جملة وبخاصة عندما رأوا رجلا مثل الحسين بن على وآله يقتلون على تلك الصورة المخيفة ، ثم إن فتنة عثمان كانت ثورة على حكم الصحابة . وكان الصحابة رجالا أتقياء ولكن الملكات السياسية فيهم كانت قليلة . وجاء التابعون وهم قادة الأمة الجدد ، فوجهوا اهتمامهم كله إلى الدين ، وانهمك رجال الأمة فى الفتوح ونفرقوا فى البلاد وهاجر العرب إلى الأمصار وانصرفوا إلى التعريب ونشر الإسلام ، والأمة العربية كانت بطبعها قليلة العدد ، فذابت فى جماهير المسلمين الجدد فى عالم الإسلام تاركين الحكم لطلاب السياسة والطامعين وخاصة بعد أن قامت دولة بنى العباس واتضح أنهم ليسوا بأحسن من الأمويين ، والأمة الإسلامية فشلت فشلاً ذريعا فى قيادة الأمور بزعامة قريش ، لأن الفاطميين وهم بيت ثالث من قريش كانوا سواء مع الأمويين والعباسيين فى السوء .

وسآتيك الآن بالآية التى أشرت إليها وسط آيات تعزز فى مجموعها ما نذهب إليه . وهو محض فرض أو رأى أطرحه للمناقشة :

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (الآيات: ١٠٢ — ١٠٥) .

ولو أنك جمعت هذه الآيات بعضها إلى بعض . وفسرت بعضها ببعض ، لرأيت أنها تبصر الأمة بما يمكن أن يقع لها لو تفرق أمر أهلها ، وهى تذكرهم بنعمة الوحدة والإيمان والإسلام التى أنقذتهم من النار ، ولكننا تفرقنا وتحاربنا فوقعنا فى حفرة النار التى حذرنا الله منها ، ولا نجاة لنا إلا بأن نكون من بيننا جماعة تقيم القانون والعدل

وتجارب الفساد ، فأولئك هم المفلحون . ونحن نفلح معهم وبهم ، ومرة أخرى يحذرنا الله من التفرق والاختلاف بعد أن جاءتنا البينات ، وعقابنا على ذلك شديد .

* * *

وقد أطلت الكلام عن أسباب خيبتنا فى الطريق وإمكانات عودتنا إلى القوة إذا نحن اعتصمنا بحبل الله جميعا وتجنبنا الانحراف وسرنا على طريق العدل والحرية والمساواة كما كنا أيام رسول الله ﷺ وخليفته ، فالمأساة فى أساسها سياسية ، وعلاجها لا يكون بأن ننسب إلى رسول الله أحاديث تتحدث عن الإمارة ومن يستحقها ، ولا معنى للقول بأن رسول الله قال إن الأئمة من قريش ، فقد جعلنا الأمامة فعلا فى قريش فلم نر إلا شراً وفسادا ، ولا معنى للقول بأن رسول الله قال إن الإمامة ثلاثون عاما ثم يفترق أمر المسلمين إذ إنه لا معنى لأن يتنبىء رسول الله أمة قائمة على الإسلام العظيم والقرآن الجليل لكى تفسد وتنهار بعد ثلاثين سنة ، ولا معنى كذلك لأن ينسب جابر بن عبد الله إلى رسول الله حديثاً معناه أن المسلمين لا ينبغى أن يقبلوا من الناس إلا الإسلام ، فمن أبى فليس له إلا السيف ، لأن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك . والقرآن الكريم لم يقل إن المسلمين ينبغى أن يدعوا إلى الإسلام بالسيف بل بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتقى الدين بن تيمية لم يكن على صواب عندما أبد ما يقول إنه وارد فى الصحيحين : « أن قوما دخلوا على رسول الله فسألوا ولاية ، فقال : إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه وأنه ﷺ قال لعبد الرحمن ابن سمرة : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها » فإنه لم تكن فى أيام رسول الله ولايات أصلا ، إنما كان هناك أمراء الجنود فى السرايا ، وهؤلاء كان رسول الله يختارهم بنفسه ، ولم تكن لهم مكاسب ولا رواتب . وكانت الإمرة تنتهى بنهاية السرية ، فيعود الأمير مواطنا عاديا دون لقب . ومع ذلك فإن لقب أمير المؤمنين لم يستعمل أيام الرسول إلا مرة واحدة ، وأطلق على عبد الله بن جحش ، والمراد المؤمنون المشتركون معه فى السرية . وأما عمال الرسول فى النواحى فلم يكونوا حكاما لها . وإنما هم عمال الصدقات . ولا سلطان لهم خارجها . ولا كسب لهم إلا ما قرره القرآن لهم فى آية الصدقات .

وكلام ابن تيمية فى كتاب « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ليس



الفصل الثانى

عـالـم الإســلام





ميــلاد الجماعــة الإسلاميــة :

ولد الإسلام فى رمضان من السنة القمرية التى تقابل سنة ٦١٠ للميلاد ، عندما نزل الوحى على محمد ﷺ بأولى آيات القرآن الكريم ، واتصل نزول الوحى على طول حياة الرسول ﷺ ، حتى اكتملت عقائد الإسلام وشريعته وقانونه الخلقى . ثم مضى خلفاء الرسول والعلماء من بعدهم يستكملون تفاصيل المعرفة الدينية وشروط المعاملات ، حتى فُصِّلت أصول الدين والشريعة وشُرحت على نحو يحل مشاكل البشر الروحية ، ويبين لهم طريق التصرف فى مسائل الحياة اليومية ، ويصلح لكل زمان ومكان . وتُرك باب الاجتهاد مفتوحاً لمن قدر عليه من أهل العلم والفقه والرغبة فى التجويد والتجديد .

وولدت الجماعة الإسلامية الأولى فى ١٦ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة — ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م — يوم وصل الرسول ﷺ إلى قُباء ، الضاحية الجنوبية للمدينة . فقد خفّ للقائه المهاجرون والأنصار ، وبدأت اجتماعاته معهم فى دار سعد بن خَيْثَمة حيناً ودار كُلثوم بن الهِدْم حينا آخر ، وبدأ الرسول ينظّم أمورهم على أساس من مبادىء الإسلام التى تقوم على الأخوة والمساواة .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده الذى أصبح المركز الدينى والاجتماعى للجماعة ، وابتنى فى ركن من ساحة المسجد حجراته التى أقام فيها بقية عمره ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسى للجماعة ، إذ كان الرسول ﷺ يجتمع هناك وأصحابه ليصرِّف معهم شئون الجماعة الناشئة ، ثم وضع — بالتفاهم مع صحابته أيضاً — المواد الرئيسية الأولى لدستور الجماعة السياسى ، وهى التى نجدها فى الفقرات الأولى من « الصحيفة » التى كتبها بين المهاجرين والأنصار ومن معهم من اليهود . وتُرك الدستور بعد ذلك مفتوحًا ليضاف إليه من الفقرات ما تمس إليه الحاجة ، وما تدعو إليه ضرورات تطور الجماعة من تقنين وتنظيم .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦ يونيو ٦٣٢ م) ، كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، ودخل فيها جميع أهلها . وكان الرسول ﷺ يسوس أمور هذه الجماعة بتطبيق شريعة الإسلام تطبيقاً دفيقاً ، وبالسير على منهج واضح سليم يعتمد على تمثُّل الإسلام تمثُّلا تاماً ، وعلى العدالة والإخلاص المطلق وفهم الطبيعة البشرية والصبر على الناس والعمل الدءوب وقوة الشخصية مع هيبة النبوة فى القلوب ، ضارباً للناس بخلقه وسلوكه وتصرفه القدوة الصالحة فى كل شىء .

فلما جاء أبو بكر رضى الله عنه حاجتْهُ بعضُ هذه الصفات ، وبخاصة هيبة النبوة ، فشعر بأنه فى حاجة إلى قوة تؤيد السلطان الذى ورثه ، وظهر ذلك واضحاً فى أزمة الردة . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يملك قياد الناس ويجمعهم بالمحبة وسلطان النبوة ، فكانوا يُخرجون الزكاة طواعيةً وعن رضا . ونقول : يخرجونها ، ولا نقول : يؤدونها ، لأن الواقع أن الناس أيام الرسول ﷺ كانوا يخرجون من أموالهم الصدقات وينفقونها فى مصارفها التى حددها لهم القرآن الكريم ، فلا يصل إلى المصدِّقين ، وهم الرجال الذين كان الرسول ﷺ يندبهم لتوجيه الناس فى موضوع إخراج الصدقات والتصرف السليم فيها ، إلا نصيبُهم القليل الذى يحدده لهم الشرع . فكان لا يصل إلى المدينة إلا نسبة ضئيلة أخرى معادلة لهذه ، وهى قدر قليل . ولهذا لم يكن للرسول ﷺ بيت مال ولا خازن .

قيام دولة الجماعة الإسلامية أيام أبى بكر وعمر :

فلما جاء أبو بكر توقف الكثيرون من العرب عن إخراج هذه الصدقات القليلة ، لأنها لم تكن فى رأيهم إلا تعبيراً عن ولائهم لمحمد ﷺ . والأمر عند الكثيرين من الممتنعين ، لم يزد على ذلك ، فأما وقد مضى محمد ﷺ إلى ربه فلم يعد هناك ما يدعو إلى الاستمرار فى إخراج الزكاة . ورأى أبو بكر — بماله من بعد النظر وعمق الإيمان — أن يضع المسألة فى صورة حاسمة صريحة لا تدع مجالا للخلاف ، فعدَّ الامتناع عن إخراج الزكاة انفصالا عن الجماعة الإسلامية ، وعدَّ ذلك الانفصال خروجاً على نظام الجماعة وارتداداً عن الإسلام . وعلى هذه الصورة الخطيرة واجه المشكلة بحزم أذهل العربَ من حوله ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد باستخدام

القوة فى إعادة المرتدين إلى حظيرة الإسلام وجماعته . فصدع بالأمر وسار لحرب المرتدين ، وأنزل بهم هزائم قاصمة ، وأرغمهم بذلك على العودة إلى الجماعة . فانتظمت وحدتها من جديد ، وأفاق الغافلون والمستخفّون من غفوتهم ، وعرفوا أنهم ــ الآن ــ فى دولة ذات نظام لا مفر من اتباعه وسلطان لا سبيل إلى الخروج عليه .

وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الجماعة الإسلامية القوة داخل حدودها ، لأن هذه الجماعة كانت محاربة خارج حدودها فقط ، وكان جندها هم أفراد الجماعة أنفسهم ، إذ كانت وظيفتُها المحافظةَ على سلامتها ومد نطاقها بإدخال أقوام آخرين فى الإسلام . أما عندما تصدى أبو بكر للقضاء على الردة ، فقد استخدم القوة العسكرية داخل نطاق الجماعة نفسها ، لإعادة وحدتها ومعنى هذا أن سلطان الجماعة أصبح له أداة تحميه وتفرضه فى داخلها ، ممثّلةً فى صورة قوة عسكرية تأتمر بأمر رئيس الجماعة ، وبظهور أداة السلطان ظهرت ملامح الدولة وأصبح الخليفة رئيساً سياسياً له سلطان محسوس ، تؤيده قوة عسكرية لا يمكن تجاهلها ، وأصبح لهذه الدولة قواد وعمال وقضاة متخصصون يقوم كل منهم بوظيفة محددة داخل إطار الدولة ويتقاضى راتباً عن عمله ، ويحاسَب على عمله . ولنذكر هنا أن هذه الأعمال كانت تتم داخل الجماعة أيام الرسول ﷺ دون تخصيص إنسان لعمل ودون راتب يُعطَى . فقد يكلف الرسول ﷺ أحد أصحابه بقيادة بعث ، فإذا انتهى البعث عاد الصحابى إلى صفوف الصحابة وإلى عمله وإلى حياته الأولى . أما أيام أبى بكر فقد أصبحت هذه الأعمال تتم على أيدى موظفين منقطعين لهذه الأعمال .

وعندما استوثق أبو بكر من سلطانه واختبر قوةَ أداة هذا السلطان بالنصر الذى أحرزته فى حروب الردة ، اتجهت همته إلى استخدامها فى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بصورة نظامية ، فأرسل جيوشَ الإسلام لتحمل الرسالة إلى فارس وبلاد الدولة البيزنطية فى الشام ، فاختار القادة وأصدر إليهم تعليماته . وهذه هى قواعد النظام العسكرى والخلقى الذى ستسير عليه جيوشُ الدولة فيما يلى من الفتوح وظهر إلى جانب خالد بن الوليد قادة آخرون ، لهم صفات للقيادة وفهمٌ للنظام ، وقدرة على تطبيقه ، من أمثال أبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص وأمثالهم ممن تكونوا فى مدرسة المغازى والسرايا المحمدية .

وبعد وفاة أبى بكر وتولّى عمر رضى الله عنه فى سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) ازدادت صورة الدولة وضوحاً ، لأن عمر بن الخطاب كان قائداً للرجال ومنظماً موهوباً . ففرض احترام النظام بالهيبة والقوة معاً ، وعامل القوادَ والعمال والقضاة على أنهم موظفون خاضعون خضوعاً مطلقاً لرئيس الدولة ، وفرض النظام على الناس كافة . فلم يقتصر الأمر على إقرار السلام والنظام داخلّ الجماعة ونشرِ الإسلام خارجها ، بل أدخل عمر فى حسابه اعتبارات اجتماعية وتنظيمية عامة واجتهد فى تنفيذها ، من ذلك رفضهُ الإذن للصحابة فى الانتقال إلى الأمصار ، ومحاسبته العمال على ما يخرجون به من مال شخصى بعد أن يتركوا العمل ، ومطالبتهم بنصف ذلك على اعتبار أنهم لم يحصلوا عليه إلا بجاه الوظيفة ، وكذلك رفضه الإذن للجند العرب المستقرين فى البلاد المفتوحة فى العمل فى الزراعة ، لا احتقاراً للزراعة والزراع ، كما يظن البعض ، فإن عمر كان أدق فهماً من ذلك ، بل لأن هؤلاء الجند هم أداة السلطان للدولة ، فمن الخطأ التفريط فيهم . وقد جرى عمر فى ذلك على هدى من عمل الرسول ﷺ ، وهو أن يكون جند الإسلام مستعدين دائماً للذياد عن حياض العقيدة .

وعلى طول أيام عمر تكاملت أدوات الدولة ونظمها ، سواء أكانت تنظيمية إدارية كتدوين الدواوين ــ أى إنشاء الإدارات والسجلات ــ أو تنفيذية كإنشاء وظائف العمال وغيرها ، فى جزيرة العرب والبلاد المفتوحة ، للقيام بالحكم فى أنحاء الدولة وإنشاء وظائف عمال الخراج ، وهم المسئولون عن الشئون المالية فى الولايات ، أو مالية كقواعد توزيع العطاء .

وفرض عمرُ على كل عمل فى الدولة نظاماً إدارياً أخلاقياً ، ونشدّد فى أخذ الناس بهذا النظام ، فظهرت هيبة الحكومة وقوتها ، ورسخ فى القلوب احترامها .

وتجمعت للدولة أموال : من نصيبها الشرعى فى الغنائم والصدقات ، ومن مبالغ الجزية والخراج ، وأصبح بإمكانها أن نعطى من هذا المال أو لا تعطى ، وأصبح من واجبها الإنفاق على مصالح الرعية ، ومطالبة الناس بالقيام بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وإيقاع العقاب على المقصرين والمخالفين ، ومحاسبة العمال على أعمالهم وعلى ما بأيديهم من أموال ، فاتسع نطاق سلطان الدولة وأخذ يمتد فى نواحى حياة الأفراد والجماعات داخل حدودها .

وكان عمر شديد الرقابة على الناس فى ذلك ، لا يفرق بين كبير منهم وصغير ، إذا تعلق الأمر بمصلحة الإسلام والدولة ، وكان هذا مصدر بعض ما نسمع من الكلام عن شدة عمر . وما كان عمر مسرفاً فى الشدة ، وإنما كان رجل واجب وعدل وقانون ، وكان إيمانه بالإسلام عميقاً جدًّا ، وكذلك كان حبه للرسول ﷺ ؛ ولهذا لم يكن يتردد فى مطالبة الناس بالقيام بواجبهم وفاء بحق الإسلام ورسوله . ولنضيف إلى ذلك أن وطأة النظام والحكومة وأعباء الدولة كانت جديدة على الناس ، فنفر منها بعضهم ، ولكن الغالبية العظمى منهم ارتضت حكومة عمر وسعدت بها واستمتعت فى ظلها بالعدل المطلق والأمان الشامل ، والاطمئنان إلى أنهم يعيشون فى رعاية دولة قوية منظمة ، تحكم وفق شريعة سماوية سمحاء وقانون خلقى مستمد من هذه الشريعة ، ونظام سياسى مرسوم بإحكام وإخلاص .

وأجمل ما فى عمل عمر بن الخطاب أنه شاد بنيان الدولة ، دون أن يدخل تغييراً جوهريـًّا على الإطار العام للجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعى والخلقى الذى وضعه لها الرسول ﷺ ، واجتهد فى استخدام هذا النظام لتقوية الروابط الاجتماعية التى كانت تربط أعضاء الجماعة بعضهم ببعض .

وإلى عمل عمر يرجع الفضل فيما امتاز به عصر الخلفاء الراشدين من أن القوة الحقيقية لنظام الجماعة الإسلامية تكمن فى متانة الروابط الاجتماعية التى تربط بين أفراد الجماعة ، سواء فى ذلك العاملون منهم فى وظائف الدولة وغير العاملين . فكان عمر أباً للمؤمنين قبل أن يكون أميراً عليهم ، وكان الناس يلجئون إليه لجوء الابن إلى أبيه ، ويتحدثون إليه حديث الأخ إلى أخيه . وكذلك كان الحال بين كبار رجال عمر ومن قادوهم أو حكموهم ، فقد كانوا أفراد أسرة واحدة .

ويلاحظ أن بعض هذه الروابط كان شيئاً موروثاً ، قام على أساس من المروءة العربية القديمة ، وأن بعضها جاء من المروءة الإسلامية التى نبعت من الدين وأخلاقياته ، وبعضها نشأ عن الظروف التى استجدت بعد قيام جماعة الإسلام ودولتها ، كما نرى فى شعور الناس بوحدة الجماعة الإسلامية وضرورة المحافظة عليها .

وكانت هذه الروابط عصب حياة وأساس سلامة للمجتمع كله ، بما فى ذلك

الدولة التى هى أداة السلطان ، والحكومة التى هى مظهر هذا السلطان[1] .

الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية :

وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها ، ظلت الجماعة قائمة ، لها قوتها واختصاصاتها ومسئولياتها إلى جانب الدولة . فمعظم المشكلات والمنازعات كان الناس يحلونها فيما بينهم بالتراضى والتفاهم أو التنازل المتبادل ، ومن هنا نفهم كيف أن مدناً كبيرة كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة كان لها قاض واحد ولم يكن هذا القاضى — مع ذلك — مرهقاً بالقضايا ، لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا فى حالات الضرورة القصوى . وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائماً من اختصاص الجماعة يبنيها الأثرياء أو الناس العاديون ، وتوقف عليها الأموال ، لأن المساجد التى كانت تبنى بأموال الخلفاء والسلاطين كانت قليلة العدد ، إلى جانب أنها كانت فى كثير من الأحيان مساجد سلطانية لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار الغنى والقوة والرغبة الشخصية فى بقاء الذكر .

ومثل ذلك يقال عن التعليم ، فقد كان كله من شأن الجماعة ، وقلما أنفقت الدولة شيئاً عليه فى شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، باستثناء عطايا كان الخلفاء والسلاطين يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة .

وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر ، فإن الدول قلما أنفقت فى إنشاء الطرق ، بل كانت خدمات البريد التى نقرأ عنها خاصةً بأعمال الدولة ، وكانت

---

(١) الشريعة — مثلا — وضعت قواعد للميراث تضمن للرجل انتقال الجانب الأكبر من أمواله إلى أولاده من بعده ، حماية لهم من الفقر والحاجة ، فما الذى كان يحدث إذا مات الأب دون أن يخلف مالا يحمى أولاده ؟ هنا تقوم الجماعة الإسلامية بهذا الواجب ، فيشترك أفراد الأسرة فى القيام بشئون الأرملة والأيتام . ومن البديهيات فى المجتمع الإسلامى أن العم والخال والأخ مسئولون متضامنون عن مصير أبناء قريبهم المتوفى ، فإذا عجزوا اتسع نطاق المسئولية فقدمت الأسرة كلها العون . ومثل هذا يحدث فى حالات الطلاق ، فإن المطلقة الفقيرة فى المجتمع الإسلامى لا تقف وحدها فى الطريق أبدا ، بل تعود إلى أهلها أو هم يعينوها مع أولادها ، بل إنه فى بعض الأحيان لا يقر المجتمع الطلاق فى حالات العسر الفادح ، ويرغم الزوج على الاستمرار فى الحياة الزوجية حفاظاً على الأولاد ، لأن الجماعة الإسلامية أسرة واحدة كبيرة متكافلة متضامنة .

الدول لا تساهم فى إنشاء الأساطيل التجارية ورعاية الموانى ومصالح التجار إلا فى النادر .

والخلاصة أنه كان لدينا دائماً كيانان ، كل منهما قائم بذاته : الجماعة الإسلامية ، والدولة الإسلامية .

وكان لكل منهما ذاتيته واستقلاله واختصاصاته وميادين نشاطه .

وفى عهود الحكومات الصالحة نجد الهيئتين متطابقتين ، أى أن الجماعة والدولة تبدوان شيئاً واحداً ، وفى عهد الحكم السيىء أو حكومات القهر والاستغلاب نجد الجماعة فى طريق والحكومة فى طريق .

ومن هنا لا ندهش من الانفصال الواضح الذى نشاهده فى حالات كثيرة بين الدولة والجماعة ، أعنى بين السلطة الحاكمة والجماعة المحكومة . وينبغى هنا أن نذكر أن الجماعة الإسلامية قلما عولت فى الماضى على السلطة الحاكمة إلا فيما يتعلق بالحماية الخارجية . وقد بدأ هذا الانفصال يظهر منذ قيام الدولة الأموية التى لم يقم نظامها الحكومى على أساس الشورى أو التراضى وإنما فرض على الجماعة فرضاً ، فأنكره الناس جميعًا كنظام، وأنكروا طريقته فى الوصول إلى الحكم، ووصفوه بأنه «ملوكية» أو «كِسْرَوية» أو «مُلْك عضوض» ، وكلها تسميات تؤكد إحساس المسلمين بأن هذا الطراز من الحكومات غير إسلامى ، أما النظام الإسلامى عندهم فهو نظام الخلفاء الراشدين الذين انتُخبوا لولاية أمور الجماعة الإسلامية انتخاباً حرًّا ، أو اختارهم نفر من صلحاء الأمة وقادتها ممن يشهد الناس لهم بالإخلاص والديانة والنظر الخالص لمصلحة المسلمين .

والمهم هنا أن نذكر بالنسبة لامتداد الإسلام ما قلناه من وجود مفهومين يسيران جنباً إلى جنب : الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية ، « جماعة المسلمين » التى تنظم أمورَها فيما بينها على أساس الإسلام وأخلاقياته ، دون اهتمام كبير بالهيئة الحاكمة وشكلها ؛ ثم « الدولة » أو « النظام الحكومى » الذى يهيمن على أمور هذه الجماعة سياسياً ويتولى حمايةَ دار الإسلام من عدوان دار الحرب عليها . والعلاقة الواضحة المستمرة بين هذين الكيانين هى العلاقة المالية التى كانت تتمثل فى الضرائب التى كان الحكام يجبونها ليسيِّروا بها أمورهم ويحلوا مشكلاتهم .

وليس من الضرورى أن تكون مشكلات الجماعة واهتماماتها هى ذات مشكلات النظام الحاكم واهتماماته . ففى عهد الفاطميين — مثلا — كان الحكام شيعيين ، وكان الشعب سنيًّا يعد الشيعة لوناً من الكفر ، وكان همُّ خلفاء الفاطميين منصرفاً إلى حروب فى الشام مع الخلافة العباسية السُّنية ورجالها ، وكان من الواضح أن هوى المصريين ومعظم أهل الشام لم يكن مع الدولة القائمة وسياستها ، بل كان هواهم سنيًّا يتماشى مع سياسة العباسيين أعداء الفاطميين .

وكان رجال تلك الدولة يعرفون ذلك ، ولكنهم لم يكترثوا له ، لأن نظامهم كان يستند إلى جُنْد مرتزقة ، لا يعرفون أهلَ مصر والشام ولا يعرفهم أهلُ مصر والشام . ولم يكن فى ذلك ما يقلق بال الدولة ، مادام المصريون وأهل الشام يؤدون الضرائب التى يتقاضى الجند المرتزقة أعطياتهم منها ، وهنا بالذات نجد نموذجاً واضحاً جدًّا من انعدام التطابق بين الجماعة والدولة . ولكنْ عُمْرَ الدولة الفاطمية طال بالرغم من ذلك ، لأن الجماعة الإسلامية المصرية والشامية كانت كل منهما تسيِّر أمورَها بنفسها ، تاركة جانباً النظام السياسى القائم يسير فى الطريق الذى ارتآه لنفسه .

وترجع قوةُ الجماعة الإسلامية وقدرتها على التغلب على الأزمات والنكبات — وما كان أكثرها خلال العصور الوسطى ! — إلى قوة العقيدة الإسلامية وعمق جذورها فى النفوس . وهذا بدوره يرجع إلى قيام العقيدة على المنطق الذى يقبله العقل الإنسانى ، ويجد فيه حافزاً على العمل والإنتاج وفعل الخير وعزاء عن هموم الدنيا ومتاعبها ، ويجد فيه مصدراً للأمل عند المحن والآلام ، ويرجع أيضاً إلى شمول الشريعة الإسلامية ووفائها بحاجات البشر من التنظيم والعدل ، وكذلك إلى إنسانية القانون الخلقى الإسلامى الذى يتسم بالسماحة وإدراك النفس الإنسانية وفهم نواحى قوتها وضعفها ، وذلك كله يجعل المسلم يعيش فى الإسلام بالإسلام ومن الإسلام .

وحينما اتجه نظرنا فى عالم الإسلام إلى مطالع العصر الحديث وجدنا أن الجماعة هى الأساس وأن النظام السياسى — سواء أكان سلطنة أو مملكة أو نحوها — لم يكن سوى إطار لهذه الجماعة ، وقد يكون إطاراً صالحاً فيخدم الجماعة ، وقد يكون غير صالح فيؤذى مصالحها ، ولكنا نلاحظ أنه فى غالب الأمر كان إطاراً وسطاً ، لا هو بالجيد ولا هو بالسيئ ، وإنما هو نظام بين بين ، لا يمتاز بشيء يستلفت

النظر إلا فى النادر ، يعيش أصحابهُ — فى نطاقه — حياتَهم وتعيش الجماعةُ أو الأمةُ — فى نطاقه — حياتَها .

انتشــــــار الإســــــلام :

إذن فالتاريخ الحقيقى لشعوب الإسلام هو تاريخ جماعاته أو أممه فى كل مكان ، فهذه الجماعات قد عرفت كيف تنظم أمورها على نحو لا بأس به ، مكَّن لها — على الأقل — من المحافظة على كياناتها والنجاة من المهالك فى ظروف العصور الوسطى ، وقد كانت ظروفاً قاسية يسودها العنف والعصبية والأنانية والجهل ، ويحكمها ميزان خلقى سطحى يقوم على الألفاظ لا على الحقائق . ففى الشرق والغرب كان أصحاب الأمر ومن تعلّق بهم من رجال الدين والفكر يتحدثون عن العدالة والفضيلة والتقوى والبر والخير ، فى حين أن الكثير جدًّا من أفعالهم كان يتناقض مع هذه المبادئ ، فلا يكاد أصحاب النفوذ يقيمون وزناً لما يتحدثون به عن العدل إذا تعارض مع مصالحهم . وإنما الأمم نفسها هى التى كانت تتمسك بهذه المفهومات وتجتهد فى تطبيقها بين أفرادها على قدر الطاقة . وكان لسان الأمة المعبر عن وجدانها هم المخلصون من أهل العلم والفكر الذين لم يكفوا قطُّ عن المناداة بالعدالة والفضيلة والتزام حدود الدين .

والمتتبع للتاريخ العام لانتشار الإسلام ونشوء ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامى يجد أنه قد تكوّن : إما نتيجة لفتوح عسكرية مدت نطاق دولة إسلامية إلى مناطق غير إسلامية مما يليها ، أو عن طريق انتشار الإسلام نفسه فى بلاد غير إسلامية ، بفضل قوته الذاتية الدافعة وخصائصه نفسها . وعندما نتعمق الموضوع نجد أن الأعمال العسكرية لم تنشر الإسلام وإنما هى مهدت له الطريق أو فتحت الباب أمامه ، ثم انتشر الإسلام بقوته الذاتية فى البلد المفتوح . فالأمم الإسلامية التى قامت بالفتوح — وأهمها العرب والترك[1] والبربر المستعربون فى المغرب — لم تفرض الإسلام على

١) الترك (والجمع أتراك) تسمية عامة تطلق على شعوب مختلفة ترجع كلها إلى أصل طورانى ، ولكنها تعرفت فى ساحات شاسعة تمتد من شرق هضبة إيران إلى غرب الصين ، كما فى ذلك بلاد التركستان التى تتكون منها حالياً مجموعة الجمهوريات الإسلامية السوفييتية . وقد سمى العربُ أولَ من اتصلوا بهم من الترك الهياطلة ، وسموا بلادهم بلاد هيطل . ومع الزمن تبين العرب أن الترك شعوب مختلفة ظل معظمها يعيش على البداوة ، حتى بدأ الإسلام يدخل بلادهم خلال

الناس بقوة السلاح ، بل هي ضمت البلاد سياسياً وعرضت على الناس الإسلام وتركتهم أحراراً في أمر الدين ، فمن شاء اعتنق الإسلام ومن شاء بقى على دينه ودفع الجزية ، لأن النظرية الإسلامية العامة كانت — فيما يتعلق بأهل الديانات السابقة — تتبع نص الآية الكريمة : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ (البقرة ، الآية ٢٥٦) .

والفكرة الأساسية التي سيرت المسلمين في هذا الموضوع هي أن الإسلام نعمة من نعم الله على الإنسان ، فمن أراد الله خيره فتح للإسلام قلبه ففاز به ، ومن لم يفتح الله عليه فلا معنى لفرض الإسلام عليه ، لأن النعم لا تفرض على الإنسان بل ينالها عندما يستحقها ، ولهذا فسواء في مصر أو الشام أو المغرب أو إيران ، فتح العرب البلاد ودعوا الناس لدخول الإسلام وبينوا لهم فضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك يتمثلونه على مهل ، وقد كانت هذه السياسة أكثر فاعلية مما لو كان الفاتحون المسلمون قد أجبروا الناس على اعتناق الدين ، لأن الذي يسلم طواعية وبمحض اختياره يكون إسلامه صحيحاً شاملا . ومن هنا نرى كيف أن الإسلام لم يدخل بلداً ثم تلاشى منه ، إلا في حالة الأندلس وصقلية ، وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة[1] .

العصر الأموى ، وشيئاً فشيئاً دخلت أمم الترك كلها في الإسلام ، وانفتحت أمامها أبواب الرقى والتحضر ، فأخذت تنشئ الدول المنظمة ، وهاجرت جماعات منها غرباً إلى أراضى الدولة الإسلامية ودخلت في خدمتها في صورة جند مرتزقة ، كما نعرف في تاريخ الخلافة العباسية ، ومن الترك جماعات اتجهت إلى التوغل في أراضى الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، مثل جماعة الأتراك المعروفين بسلاجقة الروم ، وآخر جماعات الأتراك التي سارت في ذلك الطريق هم الأتراك العثمانيون ، وسنتحدث عنهم فيما بعد .

(١) كان شبه الجزيرة واسعاً جداً بالنسبة لجماعات المسلمين القليلة التي دخلته ، وكانت أعداد النصارى في شبه الجزيرة الأيبيرية أكثر دائماً من عدد المسلمين ، حتى خلال القرن العاشر الميلادى الذى بلغت فيه دولة الإسلام في الأندلس أوجها ، بل كان النصارى في الأندلس الإسلامى نفسه أغلبية إلى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولم يصبح المسلمون أكثرية في أراضى الخلافة القرطبية إلا خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر من الميلاد) وكان لابد من وقت طويل حتى يتم دخول هؤلاء النصارى في الإسلام ، وبينما كانت تلك العملية سائرة في طريقها انهار النظام السياسى الإسلامى في شبه الجزيرة أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وقامت في نواحيه المختلفة دويلات صغيرة متنافرة تسمى دول الطوائف أو « ممالك الطوائف » . وقد كان من الممكن أن يستمر انتشار الإسلام برغم ذلك ، ولكن الذى حدث هو أن النظام النصرانى ، الذى حل محل النظام الإسلامى في البلاد التي تغلب عليها نتيجة لتفرق المسلمين ، عمل على اقتلاع الإسلام بالقوة ، ولجأ في ذلك إلى أشد أنواع الاضطهاد والإبادة ، أى أن رجاله فرضوا سياسة استئصال للإسلام ، ولولا هذا لكان المسلمون يعيشون في إسبانيا والبرتغال كما يعيشون اليوم في روسيا ويوغسلافيا وبلغاريا وغيرها ، وكلها بلاد مسيحية ، أما صقلية فإن المسلمين لم يوفقوا أيام حكمهم لها إلى إقامة نظام قوى شامل يضمن انتشار الإسلام على نطاق واسع

وإذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي رأينا أن ثلثه فقط دخل في نطاقه نتيجة لفتوح ، والمتبقي انتشر فيه الإسلام انتشاراً سلميا دون أن يستخدم لذلك أي سلطان . ففي كل بلاد أفريقية المدارية والاستوائية ــ بما في ذلك السودان النيلي ــ وفي كل جزائر جنوبي آسيا وفي جانب كبير من شبه القارة الهندية وفي الملايو وفي كل جزر المحيط الهندي وإندونيسيا والفلبين وبعض بلاد أمريكا اللاتينية نشر الإسلام بقوته الذاتية دون أن يكون لأحد في ذلك كبير فضل .

الأمة أساس الوجود الإسلامي :

وباستثناء الفتوح الإسلامية الأولى ــ وهي التي تمت خلال القرن الهجري الأول ــ كانت العادة أن يمتد الإسلام من تلقاء نفسه فيما يجاور بلاده عن طريق السُّفّار أو التجار أو عن طريق من يفدون من أهل هذه النواحي إلى بلاد الإسلام ، فيسلمون ثم ينشئون بعد ذلك جماعات إسلامية في بلادهم ، لأن التوسع الإسلامي العسكري لم يتجدد على نطاق واسع إلا لأواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، كما سنرى .

وفي الغالب كانت الجماعات الإسلامية خارج عالم الإسلام تنظم نفسها طبقاً لقواعد الإسلام ، وكانت تعيش في سلام إلى جوار غيرها من الجماعات غير الإسلامية . وهي في العادة تمتد شيئاً فشيئاً حتى تشمل الإقليم كله ، إلا إذا جاء عامل غير عادي وأوقف اتساع مداها ، كالذي حدث عندما عملت بعض السلطات الاستعمارية على الحدّ من انتشار الإسلام فيما احتلته من البلاد الأفريقية والآسيوية ، وذلك عن طريق العمل المنظم لنشر المسيحية بواسطة هيئات التبشير المتخصصة ، تؤيدها السلطات الاستعمارية ، أو عن طريق الحد من حرية انتقال الناس بين إقليم وإقليم ، وحركة انتقال الناس هذه كان لها أثر بعيد جداً في انتشار الإسلام في أفريقية وآسيا .

وسنكتفي هنا بمثال واحد من أثر تدخل السلطات الاستعمارية لإيقاف انتشار الإسلام بالقوة . فقد دخل الإسلام جزر الفلبين مقبلا من شبه جزيرة الملايو ، ومن الجزائر التي تكونت منها فيما بعد جمهورية إندونيسيا المسلمة ، وكان ذلك خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، وانتشر في جنوب جزيرة مِنْدَناو ، وأخذ يمتد شمالا .

وفى أوائل النصف الثانى من القرن السادس عشر دخل الإسبان البلاد مستعمرين . ولم تكد أقدامهم تستقر فى الجزر حتى وضعوا خطة سياسية وعسكرية لإيقاف تقدم الإسلام بالقوة ، لكى تجد المسيحية مجالا للانتشار ، فأعلنوا على مسلمى الجنوب حرباً شعواء ، وضعوا فيها كل قوى الإمبراطورية الإسبانية أيام أوجها السياسى والعسكرى فى عصر فيليب الثانى (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨ م) ولم يستطع الإسبان ـ مع ذلك ـ القضاء على الإسلام فى جنوب الفلبين ، وإن كانوا أوقفوا تقدمه نحو الشمال .

وهذه الجماعات الإسلامية التى تنشأ خارج نطاق الإسلام وتنظم نفسها وتوسع حدودها تعطينا برهاناً ملموساً على أن الأساس فى الوجود الإسلامى كله هو الأمة الإسلامية أو الجماعة الإسلامية ، فهى التى تتمثل الإسلام فى كيانها وتنظم نفسها على أساسه ، وهى على هذا صورة الإسلام ومظهره البشرى الملموس ، وليس معنى ذلك أنها تمثله دائماً تمثيلا صادقاً ، لأن الإسلام ـ كعقيدة وشريعة وميزان خلقى ـ مثل أعلى يحاول البشر الاقتراب منه فيما ينشئون من نظم ، وهم قد يوفقون فى الاقتراب منه أو لا يوفقون . ولكن الإسلام يظل بعد ذلك المثَل الأعلى والأمل المرتجى والطريق الواسع للسعادة البشرية .

ومن الخطأ البيِّن ـ نتيجةً لهذا ـ أن يخلط الإنسان بين الإسلام والمسلمين . فالإسلام هو العقيدة والشريعة والقانون الخلقى ، والمسلمون هم مظهر تطبيق هذا كله على واقع حياة البشر ، والتطبيق قد يكون حسناً وقد يكون غير حسن ، قد يكون صادراً عن علم وقد يصدر عن جهل ، وقد يصدر عن نية حسنة وقد يقوم على نية غير سليمة ، أى أنه خاضع لكل احتمالات الواقع البشرى والطبيعة الإنسانية بخيرها وشرها . وهو فى كل حالة من هذه الحالات يعبر عن تصرف المسلمين أنفسهم لا عن الإسلام ، فإن جماعة المسلمين قد تتصرف تصرفاً بعيداً جدًّا عن الإسلام ، ومن ثم فإن تصرفها هذا لا يصح أن يوصف بأنه إسلامى بصورة عامة . ومن هنا فإن التاريخ الذى نقرؤه ـ وهو جماع تصرفات أجيال المسلمين ـ لا يصح أن يسمى بتاريخ الإسلام ، لأنه فى الحقيقة تاريخ المسلمين . وليس بصحيح كذلك أن نقول مثلا : الفن الإسلامى أو الموسيقى الإسلامية ، على أساس أن هذه من مبتكرات المسلمين ، والأصح أن يقال : الفنون عند الشعوب الإسلامية ، أو موسيقى الأمم الإسلامية ... وما إلى ذلك .

وقد درس بعض الباحثين الأوروبيين المعاصرين الجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعي على أنها « مدينة » بالمفهوم اليوناني (Polis) وبالمفهوم اللاتيني (Civitas) . وفي كلتا الحالتين نجد أن المدينة جماعة متجانسة من الناس ، تسكن مساحة أرضية معينة ، وتبسط سلطانها عليها ، وتنظم أمورها بنفسها وفق قانون أو عرف تبتكره ، فهي مدينة ودولة في آن واحد City - State . والباحثون الذين أشرنا إليهم يستعملون مصطلح المدينة الإسلامية La Cité Musulmane في دراستهم للجماعة الإسلامية ، ويدرسون طبيعتها وتنظيمها على أساس من هذا المفهوم . وقد كانت كل من المدن اليونانية والرومانية تحكم أول الأمر بمقتضى قانون عرفي غير مكتوب ، هو تقليد يراعى بكل دقة ، وأساس هذا التقليد أن نظام المدينة إنما هو تعاقد اختياري بين جماعة متجانسة من البشر الأحرار واتفاقهم على أن يعيشوا معاً متساوين في الحقوق والواجبات . وعلى هذا فإن تلك المدن ليست نظاماً فردياً أنشأه زعيم أو قائد وفرضه على أتباعه ، وإنما هي نظام أنشأه ناس أحرار لأنفسهم ، وهذا هو سر قوتها ، لأنها تعتمد على وعي أفراد الجماعة وإيمانهم بأنهم لابد أن يظلوا رجالا أحراراً لكي يعيشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم . ولابد لهم من المحافظة على قواعد العدل والمساواة والفضيلة لكي يستمر مجتمعهم زاهراً . وأهم فضائل تلك المدن الإيمان بالحرية والشهامة والاستعداد لبذل الروح في سبيل المحافظة على الجماعة .

الجماعة الإسلامية الأولى مجتمع من رجال أحرار :

والحق أن هذه هي الروح التي كانت تعمر نفوس أعضاء الجماعة الإسلامية الأولى ، في المدينة أولا ثم في جزيرة العرب بعد ذلك . وهذا هو سر الصحة التي ميزت المجتمع الإسلامي الأولى ، فقد كان الناس فيه أحراراً بالفعل ، متساوين حقاً ، وشاعرين بأنهم أعضاء في جماعة فاضلة تسير على هدى دين سماوي عظيم ، وهي مكلفة بالدفاع عن ذلك الدين ونشره في الآفاق . وفي سبيل ذلك هانت عليهم الأرواح ، فكان الرجل منهم يخرج للجهاد وكأنه خارج إلى سفر عادي يحدوه الأمل . وكبرت هممهم فصغرت في نظرهم مشاكل الدنيا وأمورها ، فكان الواحد منهم يتفاوض في مصير قطر كالشام أو مصر في بساطة وهدوء وثقة ، لأنه كان يحس في نفسه أنه أهل للتحدث في عظائم الأمور واتخاذ قرار فيها ، وكان يدخل بلداً واسعاً كمصر ، فلا يفقد توازنه ولا يطغى ولا يسلب أحداً حريته أو حقه ،

لأن الإنسان الحر لا يعتدى على حرية الآخرين ، ولا يُذلُّ الناسَ إلا ذليلُ النفس ، ولا يظلمهم إلا ساقطُ الهمة . بهذا كان يؤمن أحرار الجماعة الإسلامية الأولى .

ومهما كان الرأى فى فتنة عثمان — رضى الله عنه — فهى من بعض وجوهها مظهرٌ لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التى كانت أمورها تساس بها . وسواء وافق الإنسان الثائرين على اعتراضاتهم أو أنكر الطريقةَ التى تصرفوا بها حيال السلطة الحاكمة ، فإنه لابد أن يسلم بأنهم كانوا يؤمنون بأن من حقهم أن يسألوا عما لا يفهمونه من تصرفات إدارة الخليفة وأعمال رجاله . حقًّا لقد أدى الأمر فيما بعد إلى كارثة الحرب الأهلية ، ولكن الطريق الذى سارت فيه الأحداث شىء ، ومبدأ محاسبة السلطة الحاكمة على تصرفاتها شىء آخر . وهذا المبدأ فى ذاته لابد منه لكل مجتمع حر ، وهو ضرورى بل واجب ، ولهذا كان جزءاً من شخصية العربى الحر الذى زاده الإسلام شعوراً بالحرية والأهمية الشخصية .

وقد انتهت فتنة عثمان — كما هو معروف — بتربع معاوية بن أبى سفيان على عرش الخلافة ، وهو أمر لم يكن يتوقعه أحد . وعلى الرغم من أن جمهور المسلمين لم يرضوا عن الطريقة التى وصل بها بنو أمية إلى السلطان وأنهم أبغضو أساليبهم فى ممارسته ، فقد ظل هناك خيط موصول بين الحاكم والمحكوم ، لأن بنى أمية عرب من صميم الأرومة العربية ، وكان تُخلُّق الكبار منهم وتصرفاتهم عربية ، ثم إنهم اعتزوا بالعروبة والإسلام اعتزازاً صالح الناس معهم ، فتركوا أمر حسابهم على ما خالفوا من قواعد الإسلام إلى الله سبحانه وتعالى ، ومضوا يعملون معهم فى إعلاء شأن الإسلام وبسط سلطانه . فاستطاع الأمويون أن يبلغوا فى هذا الميدان شأوًا يقارب الشأو العُمَرى .

ولكن الأمر ساء على أيام العباسيين ، لأنهم — برغم هاشميتهم — لم ينظروا إلى الجانب الخلقى فى تصرفاتهم التى وصلت بهم إلى الخلافة وثبّتت أقدام أول خليفتين من خلفائهم ، وكان ذلك بعيد الأثر فى نفوس الناس ، لأنه خيَّب رجاءهم فى صلاح الحكومة . وإذا كان بنو العباس قد عابوا على بنى أمية أموراً فقد ارتكبوا هم ما يماثلها ، ونظروا — أولا وقبل كل شىء — فى أمر سلطانهم فشدّوه بمن أطاعهم طاعة عمياء من الرجال وأجناس المسلمين . ولقد كانت دولتهم عربية بخلفائها وكبار

رجالها واتجاهاتها ، ولكن ذلك لم يمنع الخلفاء من الاستعانة بطبقات من الجند المرتزقة ، كالفرس أولا ثم الترك بعدهم .

وكان العرب قد تفرقوا فى الأمصار وأكلتهم الحروب والبلاد المتباعدة ، كما يقول ابن خلدون . فكاثرهم غيرُ العرب فى شئون الدولة وصفوف الجند ، مما أدى إلى تراجع العرب إلى الصف الثانى ودخولهم فى جملة الرعية . وقد خسر العباسيون بذلك خسارة كبرى ، لأنهم لم يستطيعوا تعويض قوة العنصر العربى . وقد كان خروج العرب من القيادة السياسية والعسكرية بعد ثورة المأمون على أخيه الأمين هو النهاية الحقيقية للدولة العباسية ، وعلى الرغم من طول عمر دولتهم بعد ذلك ، وعلى رغم كثرة من اعتمدوا عليهم من الفرس والترك ، فإنهم لم يستعيدوا قطُّ تلك القوة التى كانت لهم عندما كان خيرة رجالهم عرباً ، وذلك صحيح حتى أواخر حكم الواثق على الأقل فيما بين سنتى ٢٢٧ و ٢٣٢ هـ (٨٤٢ — ٨٤٧ م) .

وبرغم تراجع العرب إلى الصف الثانى ودخولهم فى جملة الرعية ، ظلوا — لعروبتهم — قادةَ الناس ورءوس الجماعة فى كل أقطار الإسلام ، عدا إيران . فاشتد بهم ساعدُ الجماعات الإسلامية وتأيدت بهم العروبة فى صفوف الجماهير ، فأخذت هذه الجماهير تستعرب وتلبس الشخصية العربية فى حين أخذ الحكم يفقد طابعه العربى ، برغم عروبة الخلفاء .

وشيئاً فشيئاً أنشأ الفرس والترك الغالبون على الدولة كياناً سياسيًّا لأنفسهم فى إدارتها وجيشها ، وبذلك انتقل السلطان والنفوذ الفعليان إلى أيدٍ غير عربية وإن بقيت الخلافة عربية فى مظهرها .

وهنا ، وخلال العصر العباسى الثانى ، ظهر الانفصال بين السياسة وأهلها وبين جمهور الأمة ظهوراً واضحاً ، وسار كل منهما فى طريق .

فأما أهل السياسة فلم يوفَّقوا — برغم مرور العصور — إلى اكتشاف الخطأ وإلى العودة إلى حكم الشورى الذى هو لباب فلسفة الحكم فى الجماعة الإسلامية الأصيلة ، وجمدوا فى أمكنتهم فلم يتطوروا فى شىء برغم كثرة دولهم .

وأما الجماعة الإسلامية فقد جعلت دأبها المحافظة على كيانها سليماً والنجاة من

شرور الحكام ، وحرصت كذلك على الحفاظ على الإسلام ، وهو سر قوتها ، وصارت الجماعة هي مركز القوة برغم ما قاسى أفرادها من إعنات الحكام ، وانقضت على ذلك عصور بعد عصور حتى الأزمان الحديثة ، وكلها عصور ضاعت على أمم الإسلام لأنها لم تحقق خلالها ما كان يرجى لها من تقدم .

امتـداد العالـم الإسلامـي نحـو الشـرق :

على أساس من هذا التصور لحقيقة أحوال الجماعات أو الأمة الإسلامية ، ولسير تاريخها وتطور نظامها السياسي ، نستطيع أن نتتبع امتدادها واتساع رقعتها حتى صارت إلى الحدود التي هي عليها اليوم . وسندرس بصورة مجملة كيف دخلت الأقطار المختلفة في حوزة الإسلام ، وكيف كونت في مجموعها ما يعرف اليوم بأنه عالَم الإسلام .

تكونت نواة الجماعة الإسلامية في المدينة بعد وصول الرسول ﷺ إليها في ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة / يونيو ٦٢٢ م ، وبعد فتح مكة سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م شملت الجماعةُ الحجازَ وتهامة ، ثم امتدت خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول ﷺ حتى شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وتلك كانت حدودها عند وفاة الرسول في ربيع الأول سنة ١١هـ / يونيو ٦٣٢ م .

وفي أيام أبي بكر (١١ ــ ١٣ هـ / ٦٣٢ ــ ٦٣٤ م) فتحت الحيرة ، وهي جنوب العراق ، وفتح جزء من الأرض الواقعة إلى غرب العراق ، وفلسطين . وقد دارت واقعة أجنادين ، التي فتحت أبواب فلسطين للإسلام ، في أول جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م ، وتوفي أبو بكر بعد ذلك بيومين .

وتولى عمر بن الخطاب في اليوم نفسه ، وبقدومه يدخل عصر الفتوحات الكبرى في عنفوانه . فقد فتحت الشام بعد معركة اليرموك (رجب ١٥ هـ أغسطس ٦٣٦ م) ، وهي فخر انتصارات خالد بن الوليد سيف الإسلام . وأتم أبو عبيدة عامر بن الجراح فتح الشام وفلسطين ، فلم تحل سنة ٢٠ هجرية / ٦٤٠ م حتى كانت بلاد الشام كلها قد أصبحت جزءاً من دولة الإسلام . وكان آخر بلادها الكبيرة فتحاً مدينة بيت المقدس (١٧ هـ / ٦٣٧ م) وقيصرية

(١٩ هـ / ٦٤٠ م) . وقد عقد عمر بعد ذلك مباشرة مؤتمر الجابية التي تقع إلى الشمال من اليرموك بقليل ، واجتمع فيها ورجاله وقواده . وتشاور معهم في خطة العمل المقبل ، وبعد ذلك مباشرة اتجه إلى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه . وبذلك أكد الأهمية الدينية لذلك البلد عند المسلمين ، وأعطى مثلا للتسامح الإسلامي لا يقبل الجدل ، فقد أراد عمر أن يؤمّن المسيحيين في البلد المقدس على دينهم وحريتهم ومقدساتهم ، وأراد أن يؤمنهم كذلك من كل خطأ في التطبيق قد يقع فيه أي مسلم في عصره أو بعده[1] . وبينما كان عمر في طريق عودته إلى المدينة كان عمرو بن العاص يجدّ في السير بقطعة من القوة الإسلامية ليقتحم حدود مصر وليضيف إلى تاج الإسلام جوهرة جديدة .

ولم يكد عمر يستقر في المدينة حتى بلغه نبأ وفاة صاحبه أبي عبيدة عامر ابن الجراح ، عامله على الشام وقائد قواته فيه سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م . ولم يحزن عمر على أحد من رجاله كما حزن على أبي عبيدة ، ذلك الفهري الجليل الطويل النحيل الصموت الذي كسب للإسلام فتوحاً جليلة ، وظل بعد انتصاراته العظيمة يعيش في تواضع بالغ أذهل عمر نفسه عندما زاره في البيت الذي اختاره لنفسه في بيت المقدس ، فلم يجد عنده إلا زاداً قليلا وقُلّة فيها بعض الماء . وهو من غير شك نموذج بديع للإنسان العربي المسلم الجديد الذي سيفتح الدنيا ويدخل بها عصراً جديداً . وقد مات أبو عبيدة في طاعون عمواس الذي احتمل الألوف من أهل الشام ، ومن بينهم — فيما يقال — عشرون ألفاً من مقاتلة المسلمين ، كان من بينهم يزيد بن أبي سفيان . فأقام عمر على الشام أخاه الأصغر معاوية ، فبدأ نجم عميد بني أمية هذا في الصعود .

وفي خلافة عمر أيضاً مات خالدُ بن الوليد ، ذلك القائد العبقري من بني مخزوم الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية العربية في الجاهلية . وكان خالد قد دخل في الإسلام قبيل فتح مكة ، وتجلت عبقريته في غزوة مؤْتة . ثم ظهر كواحد من أكبر العسكريين في التاريخ عندما تولى الفتوح في فارس أولا ثم في الشام بعد ذلك أيام أبي بكر ، وكسب انتصارات كبرى في أجنادين وفِحْل ومرج الصفر ، ودخل دمشق ورفع

---

(١) وعندما صلى عمر خارج كنيسة القيامة حتى لا يجعله هذا مكاناً جامع القدس ، وتقرر من ذلك الحين أن يعيش المسلمون والنصارى إخوانا في بيت المقدس وفي كل مكان .

فيها راية الإسلام ، وأعقب ذلك بالاستيلاء على بعلبك وحمص وحماة ، وبلغ ذروة نصره فى معركة اليرموك ، ودخل أنطاكية مظفراً . ثم عزله عمر بن الخطاب لأول خلافته ، فلم تتغير نفسه ولا تأثر ، وإنما سمع وأطاع ، وتخلى عما بيده ، واعتزل فى صمت وجلال حتى توفى فى حمص .

وكان تقدم الجيوش العربية فى العراق قد توقف بعد الاستيلاء على الحيرة ، لأن الأعمال العسكرية فى الشام استغرقت جهد المسلمين كله ، وبخاصة بعد انتقال خالد ابن الوليد إلى الشام ، وقد انتهز الفرس الفرصة ، وأنزلوا بالمسلمين هزيمة الجسر سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م .

وقد أظهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمناسبة هذه الهزيمة حكمة كبرى لا يصل إليها إلا كبار الساسة الذين يعرفون الطبيعة البشرية ، ذلك أن المسلمين الناجين من الهزيمة ركبهم الخجل ، فاستحوا من دخول المدينة ، لأن المسلمين اعتبروهم فُراراً من المعركة ، فتفرقوا فى قبائلهم ، وأدرك عمر أن ذلك لم يكن عن خطأ منهم ، وإنما كاثرهم العدو ، فلم تكن بيدهم حيلة ، بعد أن بذلوا أقصى جهدهم ، فخاطبهم عمر قائلا إنهم لم يفروا من المعركة ، وإنما « انحازوا إلى فئة » ، أى تراجعوا لينضموا إلى كتلة الجيش الإسلامى ويعاودوا الهجوم ، وقال : « كل مسلم فى حِلّ مِنّى[1] ، أنا فئة كلِّ مسلم لقى العدوَّ فقُطِع بشىء من أمره فأنا له فئة » (الطبرى ٤/٦٩) . وقد قال عمر ذلك تطبيقاً لقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إذَا لقِيتُمُ الذينَ كفرُوا زَحْفًا فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِم يَومئذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أوْ مُتَحَيِّزًا إلى فِئةٍ فَقَد بَاءَ بِغَضَبٍ من الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ . (الأنفال : ١٥ – ١٦) .

وقال عمر لمعاذ القارئ ، الذى كان قد فر ثم استحيا : « لا تبك يا معاذ ! أنا فئتُك ، وإنما انحزت إلىّ » ، (الطبرى ٤/٧٠) .

وأهمية هذا القول من عمر أنه اعتبر الأمة الإسلامية كلها جيشاً واحداً : مَن أقام فى المدينة ومن صدر للغزو فى أى وجه فالأمة كلها فى ميدان القتال ، فإذا أصيبت

---

(١) أى أنى لا أؤاخذه .

حملةً من حملاتها فإن كتلة الجيش — وهي الأمة — باقية لم تنهزم ، ويستطيع أفراد هذه الحملة الرجوع إليها ليُصلحوا من شأنهم ثم يعودوا إلى القتال .

وهذا بدوره يفتح عيوننا على تصور عمر للجماعة الإسلامية على أنها جيش واحد ، وظيفته نشر الإسلام وتطبيق مبادئه في العالم أجمع .

وعاد النصر إلى المسلمين بعد ذلك ، خصوصا بعد أن تولى القيادة سعد بن أبي وقاص ، تلميذ عمر بن الخطاب الذي تربى في مدرسته ، حالًا محل القائد البدوي : المثنَّى بن حارثة الشيباني ، فكسب المسلمون نصر القادسية العظيم (جمادى الأولى سنة ١٦ هـ / آخر مايو أو أول يونيو ٦٣٧ م) ، حيث استخدم رستم خلاصةَ تجارب الفرس في طرق الحرب خلال مئات السنين ، فلم تثبت لقوة صغيرة من الجيش الإسلامي الذي كان يعمر قلوب أفراده إيمان عميق شامل بالإسلام . وعندما دخل سعد بن أبي وقاص على رأس جيش الإسلام مدينة طيشفون (كتزفُون ، التي يسميها العرب : المدائن) كان ذلك إيذاناً بموت العصور القديمة كلها بالنسبة لغربي آسيا ووسطها وعلامة انبلاج فجر جديد .

وبعد موقعة نهاوند انفتحت أبواب هضبة إيران للعرب فانساحوا فيها ، وهم دخلوها من ناحيتين : من ناحية الموصل بعد أن فتحوه سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م ، ومن ناحية الجنوب ، عندما دخلوا خوزستان ، وهي بلاد عيلام القديمة التي سماها اليونان القدماء سوزيانا ، وهي تقابل الأهواز أو عربستان اليوم ، صادرين إليها بعد انتصار نهاوند من البصرة والكوفة ، وكانتا قاعدتي الانطلاق الإسلامي في الشرق .

ومن البحرين فتح العرب إقليم فارس ، وهي البلاد المطلة على شمال شرق الخليج العربي وشرقه ، وعاصمته مدينة إصطخر (٢٩ — ٣٠ هـ ٦٤٩ — ٦٥٠ م) .

وأعقب ذلك فتحُ خراسان ، وهي الربع الشمالي الشرقي لهضبة إيران ، وأهم مراكزها نيسابور وطوس ومرو وهراة وبلخ .

ومن خراسان وقف العرب على أبواب ما يعرف اليوم بأفغانستان .

ومن إقليم فارس فتح العرب مكران ، وهي الساحل الشمالي لمدخل الخليج

العربي ، وتمتد شرقاً حتى تصل إلى حوض نهر السند في الباكستان الحالية . وكان العرب يسمون هذه الناحية : بلاد مُلْتان (٢٢ هـ/٦٤٣ م) .

وقد تمت فتوح فارس ، أو كل هضبة إيران ، حوالي سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ م ، عندما قُتل يزدجرد الثالث آخر أكاسرة آل ساسان الذين حكموا هضبة إيران والعراق خلال قرابة اثنى عشر قرناً .

وقد قام بهذا العمل الضخم ما يقرب من أربعين ألف عربي ، استقرت بقيتهم في الهضبة وعمروها ، وعلى أيديهم أسلمت إيران وبدأت تستعرب .

ومن إيران تفتحت الأبواب أمام العرب في كل وجه ، فمنها فُتح إقليم آذربيجان الواسع الذى يمثل اليوم شمالي غربي إيران وجمهورية كاملة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية ، هي آذربيجان .

ومن هناك فتح العرب ــ فيما بعد ــ بلادَ ما وراء النهر ، وهي مايلي بحر قزوين شرقاً .

أثر فتح إيران وبلاد الشرق في تكوين الجماعة الإسلامية :

بعد أن دخلت هذه البلاد الواسعةُ دولةَ الإسلام وانضمت إلى جماعته أخذت تلك الجماعة صورة جديدة ، فقد دخلت في نطاقها شعوب تفوقها أعدادًا وثروات . فمثلا ، إذا كان أهل الشام عربًا ، أو ساميين في الأصل ، فإن فتح الشام كان زيادة في أعضاء الجماعة من جنس العرب نفسه أو من أبناء عمومتهم ، أما الإيرانيون فهم آريُّون ، ومن يليهم من جهة الشرق تُرك ، وأهل أرمينيا أرمن ، وأهل آذربيجان ترك ، وأهل مكران هنود آريون .

ومعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية لم تعد عربية خالصة ، بل أصبحت أعداد غير العرب فيها أكثر من أعداد العرب . يضاف إلى ذلك أن هذه الشعوب الجديدة أقبلت على الإسلام إقبالا عظيماً ، فقد كان بالنسبة لهم نهايةً لمتاعب القرون وظلم الأجيال ، وبدايةً لعصور العدل والرخاء وتحقق الآمال . فاندفع رجالها في دخوله اندفاعًا شديدًا ، وزالت أمامه الزرادشتية والمانوية وغيرهما من عبادات إيران التقليدية ، واتخذ الإيرانيون والأكراد وغيرهم الإسلام ديناً قوميًّا ومحمداً ﷺ نبيًّا وهادياً ومخلّصاً للبشر أجمعين ، وتعلقوا به ــ ﷺ ــ وبآل بيته تعلقاً شديداً

ورأى العربُ منهم ذلك فاعتبروهم موالى ، والمولى ليس رقيقاً ولا تابعاً ، وإنما هو حليف ترتبط معه برابطة ولاء ، فهو مولاك وأنت مولاه ، والولاء فى العرف العربى الأصل وعرف الإسلام لُحمة كلُحْمة النسب ، ولكن كانت للعرب عليهم سابقة الدين وأصالة العروبة ، فهم العضو الأكبر فى أسرة الإسلام ، وهم رياسة أدبية ومعنوية ، ولكنهم ليسوا سادة لغيرهم ، لأن الإسلام لا يقر سيادة جنس على جنس .

امتداد العالم الإسلامى نحو الغرب :

ومثل هذه المكانة التى احتلتها إيران فى الشرق احتلتها مصر فى الغرب . وقد بدأ فتحها فى أول المحرم ١٩ هـ/ منتصف يناير ٦٤٠ م ، على يد عمرو بن العاص ، وانتهى فى ذى القعدة ٢١ هـ/ سبتمبر ٦٤٢ م ، ذلك أن مصر مفتاح المغرب وباب السودان ، ومنها يصل الإنسان إلى أى صقع من أصقاع أفريقية . وقد دخل الأقباط ، وهم أهل مصر إذ ذاك ، الجماعة الإسلامية أهلَ ذمة ، أى فى ذمة المسلمين وحمايتهم . وأخذ الإسلامُ يغزو قلوبهم ، فتحولوا — شيئاً فشيئاً — إلى شعب إسلامى عربى . ومن الفسطاط — وهى العاصمة الجديدة التى اختطها للبلاد عمرو ابن العاص بدلا من الإسكندرية — كان على عمرو أن يختار بين مواصلة الفتوح غرباً أو السير جنوباً ، فاتجه غرباً ليستكمل فتح مصر بالاستيلاء على إقليم برقة — وكان إذ ذاك جزءًا من مصر — وقد تم فتحه بعد فتح الإسكندرية بشهور قليلة .

وفى عهد عثمان ، وعلى يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فُتحت إفريقية ، وهى تقابل القطر التونسى الحالى — فتحت للمرة الأولى سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٨ م بعد انتصار سُبَيْطِلَة قرب القيروان الحالية .

ثم أُسست القيروان ، وهى أول قاعدة ينشئها المسلمون فيما سيصبح الجناح الغربى لدولتهم ، وقد أُنشئت على يد رجل دخل ميدان التاريخ والأسطورة من بابهما الواسع ، وهو عقبة بن نافع الفهرى ، وذلك بسبب الحملة الغريبة التى قام بها خلال المغرب كله فيما بين سنتى ٦١ و ٦٣ هـ/٦٨٠ — ٦٨٣ م ، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى — فى موضع قريب من مصب نهر تنسيفت الذى تقوم عليه اليوم مدينة مراكش — وأدخل فرسه فى ماء المحيط الأطلسى وأشهد الله على أنه وصل

براية الإسلام غرباً إلى حد لا يمكنه التقدم بعده . ثم عاد بمن معه من المجاهدين يشق المغرب شقاً . وعند تُهُودَة قرب بَسْكَرَة ـــ فى الجزائر الحالية ـــ استُشهد فى ميدان الشرف حاملا راية الإسلام ، سنة ٦٣ هـ/٦٨٣ م .

وقد طالت قصةُ فتح العرب للمغرب وتوالت فيها الانتصارات والهزائم ، حتى قال بعض مؤرخى المغرب إن بلادهم فُتحت وارتدت اثنتى عشرة مرة ، وقد اشتركت جيوش عربية فى ذلك الفتح الطويل الذى دام نحو سبعين عاماً لم يدرك المسلمين خلالها يأس ولا تردد ، وقد قادهم فيه قواد أجلاء تفخر بهم أية أمة على الأرض ، وهم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعقبة بن نافع ، ومعاوية بن حُدَيْج ، ودينار أبو المهاجر ، وزهير بن قيس البَلَوى ، وحسان بن النعمان الغسانى ، وموسى بن نصير ، ذلك المولى الطريف الذى نشأ فى جو عربى ودخل فى العرب حتى أصبح عربيًّا فى طباعه وتصرفاته وفروسيته وكرمه الذى فاق كل حد ، وفى احتماله لأشد المتاعب ، وعلى يديه تم فتح المغرب .

ومنه أخذ طارق بن زياد الإذن فى دخول الأندلس فاتحاً ، فدخلها فى صيف ٩١ هـ/٧١١ م ، واكتسح قواتِ القوط فى موقعة وادى لَكُّه (Lago) ، ثم اندفع بمن معه كالسهم المارق ، فدخل طليطلة عاصمة القوط ، وتمادى بعدها شمالا بغرب .

وهنا تخوَّف موسى بن نصير من أن يكون استرسال قائده طارق مغامرة بالمسلمين ، فاستوقفه حتى يلحق به ، وعبر بنفسه إلى الأندلس ، فافتتح إشبيلية وماردة وقورية ، والتقى وطارق قربَ طليطلة ، ثم سار الاثنان معاً حتى بلغا سرقسطة على نهر الإبرو . ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال البُرت ـــ أو الأبواب التى تسمى اليوم بالبَرَانِس ـــ ووقف على أبواب فرنسا ، فى حين اتجه موسى غرباً فدخل أشتوريس (Asturias) ـــ وهى الإقليم الذى يطل على خليج بسكاية ، وفتح لك وأبيط Oviedo ، ووصل ساحل بسكاية عند خيخون (Gigon) ، أى أنه أدرك البحر من هذه الناحية ، ثم عاد . وقد أتم هو وقائده فتح شبه الجزيرة فى أقل من سنتين .

واستدعاهما الخليفةُ الوليد بن عبد الملك إلى دمشق ، فترك موسى ابنه عبدَ العزيز والياً على الأندلس سنة ٩٥ هـ/٧١٥ م ، فقام هذا باستكمال فتح شرق الأندلس

وغربه ، وجعل عاصمته إشبيلية ، وبهذا يكون ثلاثة من رجال المسلمين قد فتحوا بلداً من أكبر بلاد أوروبا فتحاً كاملا فى أربع سنوات ، وهو أمر لا يكاد يصدّق حتى إن الكثيرين من مؤرخى الإسبان لا يزالون يبحثون عن سره إلى اليوم .

ويزيد فى غرابة هذا السر أن الذين قاموا بعبء الفتح الأول مع طارق بن زياد كانوا من البربر الذين أسلموا قبل سنوات قليلة فقط ، وربما كانت هذه من معجزات الإسلام ، إذ كيف يدخل أولئك الأقوام فى الإسلام بهذا الإيمان الضخم بعد أن قاوموه مقاومة عنيفة ؟ ! لكنه سر الإسلام وقوته الدافعة التى تنقل المؤمنين به عن صدق من حال إلى حال ، وتبدلهم خلقاً آخر ، وهل هناك أغرب من طارق ابن زياد ، ذلك المولى البربرى الذى حمل راية الإسلام والعروبة وغرزها فى قلب بلد من أكبر بلاد أوروبا ، فظلت هناك عالية ترفرف وتظلّ الدولَ والحضارات ثمانية قرون ؟ !

وهؤلاء البربر — سكان المغرب من برقة إلى طنجة كما يقول المؤرخون — جنس قوى سليم ، نشأ من مزاج عناصر متوسطية كهذه التى تسكن جنوبى أوروبا ، فهم أبناء عمومة الأيبريين الذين سكنوا شبه جزيرة أيبيريا منذ القدم ، واختلطت بهم عناصر أفريقية خالصة . فهم فى شمال بلادهم وجبالها بيض شقر وسكان جبال أصحاء ، وهم فى جنوبها بدوٌ رعاة سمر الوجوه ذوو صلابة وبسالة واحتمال للمشاق . وقد انقسموا بحسب مساكنهم إلى :

ـ حَضَر يزرعون الأرض ويعيشون مستقرين قرب الساحل وعلى سفوح الجبال الخصبة .

ـ وبدو يرعون قطعانهم من الماشية فى الصحارى والبسائط .

والأولون يسمون عادة بالبرانس ، والآخرون يسمون بالبُتْر .

وللوهلة الأولى أقبل البربر على الإسلام إقبال من كان يبحث عن سبيل للخلاص فوجده ، وأصبحوا فى زمن مبكر جدًّا مسلمين مخلصين .

وكان أسرعهم استعراباً واندماجاً فى جماعة الإسلام قبائل البدو منهم ، وهم المسمون بالبُتر ، وذلك بسبب التشابه الشديد بينهم وبين العرب فى النظام الاجتماعى

القبلى وفى أسلوب الحياة . وهم يسمون أحياناً فى نصوصنا باسم زناتة أو الزناتية ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم .

أما الحضر — أو البرانس — فقد تأخر إسلامهم بعض الشيء ، ولكنه عندما تم كان شاملا وعميقاً ، فأصبحوا من خيرة المسلمين ، وأولئك الحضر يسمون أحياناً بالصُّنهاجيين ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم ، وهى صنهاجة . وقد فتح الإسلام للبربر جميعاً الأبوابَ للصعود فى مدارج الرقى بعد أن استعربوا روحاً وفكراً ، فأنشأوا الدول الكبرى بادئين بدولة الأدارسة . وقد حمل عبئها قبائلُ غمارة وبرغواطة ، وهما من أكبر قبائل الزناتيين فى المغرب الأقصى ، ثم أنشأوا دولةَ الفاطميين ، إذ كان عمادُها قبيلةَ كتامة من الصنهاجيين ، ثم دولة بنى زيرى الصنهاجيين فى أفريقية ، وهى ما يعرف الآن بتونس وشرق الجزائر ، ثم دول المغرب الإسلامية الكبرى : دول المرابطين فالموحدين فالحفصيين فالمرينيين ، وهى دول إسلامية عربية لها فى التاريخ العالمى نصيب كبير .

هذه الدول المغربية الكبرى هى التى أتمت عملية تعريب المغرب كله وأكملت إسلامَ أهله ، وكان للمرابطين منهم النصيبُ الأوفر فى دفع الإسلام نحو أفريقية المدارية الغربية ، على ما سنرى .

أما الأندلس فبعد أن تم فتحها ظل الفاتحون العرب والبربر يتحسسون طريقهم نحو الاستقرار فى ذلك البلد القاصى الذى يبعد آلاف الكيلومترات عن مركز الدولة الإسلامية فى دمشق ، حتى دخل عليهم بعد إحدى وأربعين سنة من تمام الفتح فتى قرشى فى الثامنة والعشرين من عمره ، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، وكأنه شخصية من عالم الأساطير قفزت إلى عالم الواقع ، فأنشأ — بجدٍّ وبسالة وقدرة نادرة تدعو إلى الإعجاب — دولةً من أكبر دول الإسلام ، هى الدولة الأموية فى قرطبة سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦ م . وقد بلغ من تعجب العرب ، معاصريه ، مما عمله ، أن لقّبه معاصرهُ وخصمهُ أبو جعفر المنصور خليفة بنى العباس بـ « صقر قريش » .

وقد عمّرت دولة بنى أمية فى الأندلس ٢٧٤ سنة ، أى قدر ما عمرت دولة بنى أمية فى المشرق ثلاث مرات . ومن الطريف أن المؤرخين لا يذكرون من هذه

السنوات كلها إلا ٢٧ سنة من سنوات الخمول والاضمحلال . أما بقية تاريخ هذه الدولة من قيامها سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦ م إلى نهايتها سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م فكانت عصور قوة وتقدم وعمل حضارى مجيد .

وقد ضعف أمر الأندلس بعد ذلك بسبب اختلاف الرؤساء ، وضياع السياسة ، والحاجة إلى ذلك الطراز من الرجال الذين يوحدون الصفوف ويقودون الناس إلى عظائم الأمور ويسيرون بالشعوب إلى الرخاء والسلام . وقد زالت من الوجود خلافةُ بنى أمية فى قرطبة فى يوم شتاء حزين هو ٢٩ من المحرم سنة ٤٢٢ هـ/٣٠ ديسمبر ١٠٣١ م ، وما أسرع ما أقبل أعداؤها من الشمال ينتهزون فرصةَ الانقسام وضياع الحزم بين المسلمين ، فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، وبسقوطها ضاع قلب الأندلس ونحو ثلث مساحته . ثم توالى الضياع حتى سقطت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام فى الأندلس ، فى يوم شتاء حزين آخر من شهر ربيع الثانى سنة ٨١٧ هـ/يناير ١٤٩٢ م .

وبعد ذلك بخمسة أشهر — فى شهر رمضان ٨٩٧ هـ/مايو ١٤٩٢ م — خرجت من ميناء سان لوكر San Lucar قرب إشبيلية السفن الثلاث التى حملت كولومبس إلى الغرب لتعثر فى طريقها بأعظم مفاجأة عرفها البشر فى تاريخهم الطويل ، وهى العالم الجديد .

وقد كان ذلك الكشف — الذى وصل إليه كولومبس بفضل تجارب العرب وعلومهم التى درسها فى الأشبونة وإشبيلية — حدًّا فاصلا فى تاريخ البشر أجمعين .

أما صقلّية فكان أمرها أهون من أمر الأندلس ، إذ إن سلطان الإسلام لم يستقر فيها على صورة ثابتة منذ فتحها سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م على يد القاضى الفاتح أسد ابن الفرات الذى كان عندما تولى الفتح يناهز السبعين سنة ، إلى سقوطها فى يد النورمان سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م .

وهذان القطران — الأندلس وصقلية — هما الوحيدان اللذان فقدهما الإسلام فى تاريخه الطويل ، ومع ذلك فقد قام كل منهما بدور حضارى هائل . فعن طريق الأندلس وصقلية انتقل أكبر جانب من علوم العرب ومعالم حضارتهم إلى الغرب الأوروبى ليصب فى تيار الحضارة العالمية . ومن المسلم به أن حضارة العرب الراهنة

لم ينشئها أهل الغرب وحدهم ، وإنما هي شجرة الحضارة الإنسانية التي نشأت أول ما نشأت في مصر وبلاد الرافدين وعلى ضفاف أنهار الهند وسهول الصين ، وتجمعت حصيلتها بعد ذلك في أيدي اليونان والرومان . ثم انتقلت إلى أيدي العرب فحملوا مشعلها ستة قرون متوالية ، ومن أيديهم أخذها أهل الغرب ليضيفوا إليها بدورهم ، فهي — على هذا — حضارة إنسانية عامة ساهمنا نحن فيها بأكبر نصيب . والذين ينظرون اليوم إلى حضارة الغرب على أنها حضارة غريبة عنا إنما يغمطون أجدادنا — من مصريين قدماء وعراقيين قدماء وعرب جاهليين ثم عرب مسلمين — نصيبهم الكبير في بناء صرح حضارة اليوم والغد .

وكان انفصال الأندلس وصقلية عن جماعة الإسلام من أقوى أسباب ضياعهما ، فعندما اشتدت المعركة على مصير الأندلس من ناحية وصقلية من ناحية أخرى لم يهتم أحد في عواصم الإسلام المشرقية بما يجري في هذين البلدين الإسلاميين لانقطاع وسائل الاتصال . ولقد تحرك أهل المغرب الأقصى لنجدة الإسلام الأندلسي بعد أن كان الداء قد أعضل ، وكان أول من تقدم بذلك المرابطون ، وقد بذلوا — هم ومن جاء بعدهم من الموحدين وبني مرين — جهداً عظيماً في سبيل الحفاظ على الأندلس ، ولكن هذه الدول لم تستطع أكثر من تأخير النتيجة المحزنة ، وقد خسرت هذه الدول في ميدان الجهاد الأندلسي خيرة رجالها ، وكانت هي في ذاتها دولاً حديثة النشأة ضعيفة الكيان الداخلي فأبهظها الجهادُ في الأندلس ومجهود المحافظة على كيانها في بلادها ، واستنفد ذلك عصارةَ الحياة من كيانها فجفت كل منها وهي بعد في عصر الشباب من تاريخها .

امتداد الإسلام في أفريقية ؛ المدارية والاستوائية :

ومن المغرب الأقصى أخذ الإسلام طريقه إلى أفريقية المدارية ، وكان أصحاب الفضل الأول في ذلك المرابطين ، أصحاب الدولة المجاهدة المشهورة التي ذكرناها . فإن هذه الدولة قامت على حركة جهاد دينيّ قادها رجل فريد في بابه ذو طموح سياسي وديني ، يسمى عبد الله بن ياسين (توفي سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) وأقامها على أكتاف أفراد قبائل لمتونة وَمسُّوفة وجُدالة وما إليها من قبائل الصنهاجيين الذين كان يعمر قلوبهم الإيمان والرغبة في الجهاد في سبيل الله و « الرِّباط » على حدود

دار الإسلام لحمايتها من عدوان دار الحرب عليها ومد رواقها إذا وجدوا لذلك سبيلا . وقد تحولت حركتهم إلى دولة ، واستطاع رجالها إنشاء بلدة مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وبعد إنشاء هذا البلد ــ الذى يعد من أجمل مدائن الإسلام وأبعدها أثراً فى تاريخه ــ انقسمت دولة المرابطين قسمين :

قسم اتجه شمالا تحت لواء يوسف بن تاشفين ، وهو الذى وحد شمالى المغرب الأقصى ، وعبر إلى الاندلس وساهم فى الجهاد فيه وكسب انتصار الزلاقة المشهور سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٦ م .

وقسم قاده أبو بكر بن عمر واتجه جنوبًا بحذاء ساحل المحيط فوصل إلى أحواض أنهار السنغال وغمبيا وغينيا ، وبدأ بنشر الإسلام بين أهلها .

وقد كان هذا فتحاً لباب واسع من التوسع الإسلامى فى هذه النواحى من أفريقية ، إذ إن تلك الدفعة المرابطية فتحت أبواب أفريقية المدارية والاستوائية للإسلام ، فنهضت فى أثر المرابطين جماعات من المؤمنين المتحمسين لدينهم عمل أفرادها على نشر الإسلام بين الأفريقيين وتعريفهم بعقائده .

وكما كان المرابطون أعضاء جماعة دينية مجاهدة ، فكذلك كان معظم الذين عملوا على نشر الإسلام فى هذه النواحى من بعدهم أعضاء فى جماعات دينية من طراز آخر تعرف بالطرق الصوفية . وهى طرق صوفية تختلف فى نظامها وأهدافها وطريقة عملها عن الطرق الصوفية التقليدية التى نعرفها أو نقرأ عنها . فهى جماعات من المتحمسين الذين يوجهون همهم ونشاطهم إلى نشر الإسلام خارج حدوده وإلى تعميق الإيمان فى قلوب الجماهير داخل حدوده . ولا تقتصر جهودهم على الاجتماع مع الولى أو الشيخ أو الالتقاء فى مجالس ذكر يرددون فيها الأوراد والأذكار والرقائق والأحزاب على نغم الموسيقى أو بدونها ، بغيةَ الوصول إلى « الحال » أو « الوَجْد » ، أى نشوة الصفاء النفسى التى يحسها المريد ، إذا أشرقت نفسه بنور الألوهية فى رأيهم ، وإنما هم مجاهدون أيضاً يعملون على كسب الناس للإسلام وتنظيمهم على أسس الأخوة الإسلامية ، أى أنهم صوفية عاملون على نشر الإسلام وتوسيع نطاقه ، صوفية مناضلون .

وهذا الطراز من الصوفية الدعاة أو المجاهدين يكونون فى الغالب من أهل القرى

والمحلات النائية فى الصحارى ، ممن تتوقف حياتهم على التجارة والقوافل — فهم أهل بادية وشظف وصبر وإيمان ومال قليل ، وطبيعة حياتهم تستلزم وحدة تجمعهم ونظاماً يرتب أمورهم ، ورياسة روحية توحد صفوفهم وتمنحهم قوة معنوية تعينهم على حياة الصحراء والرحلة فى رمالها ، وسلطة زمنية — أياً كان مستواها وشكلها — تنظم أمورهم وتضمن سلامة أموالهم . وهذا كله بهيئه لهم انضمامهم إلى مريدى قطب صوفى مثل أبى مدين شعيب بن الحسين الأندلسى (٥٢٠ هـ/١١٢٦ م — ٥٩٣ هـ/١١٩٧ م) أو محمد بن عبد الرحمن الجزولى (توفى فيما بين سنتى ٨٦٩ هـ/١٤٦٥ م و ٨٧٥ هـ/١٤٧٠ م) أو أحمد بن محمد التيجانى (١١٥٠ هـ/١٧٣٧ م — ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م) .

فى كل جماعة من هذه الجماعات نجد المريدين أو الأتباع أعضاء فى نظام يقوم على رأسه رئيس دينى يسمى : الشيخ ، يساعده « خليفة » ويعاونه « مقدمون » يرأسون المريدين . وهذا التنظيم ينتشر أفقياً عن طريق الزوايا التى ينشئها رجاله فى الواحات والأرياف . ولكل زاوية رئيس هو المقدّم ، وقد يصبح بدوره شيخاً إذا اتسعت الزاوية وزادت أهميتها . و « البركة » التى يقول الصوفية إن الله سبحانه وهبها لمنشئ الطريقة تنتقل إلى الأتباع وفق نظام مقرر . وفى كل زاوية تعقد حلقات الذكر فى الليل ومجالس الدروس فى النهار .

ويهمنا فى موضوعنا هنا الصوفية الجوالون والمجاهدون من هؤلاء ، وهم فى الغالب تجار يخرجون بتجارتهم مع القوافل ، ويدعون الناس للإسلام فى أثناء ذلك ويكسبونهم إليه . وعندما يصلون إلى مركز من مراكز التجارة يجتمعون وإخوانهم من أتباع طريقتهم ، فإذا كثر العدد أنشأوا زاوية ، وهى مسجد صغير ومركز دينى فى الوقت نفسه . وعلى مر الأيام تتكون شبكة واسعة تنتظم الألوف من الأتباع أو المريدين ، وقد يسمون الأنصار .

وهؤلاء ينشئون فيما بينهم ما يشبه الرابطة التجارية والاجتماعية ، فيختص بعضهم بعضاً بالمعاملة والائتمان والثقة والمصاهرة أحياناً . ومن أراد مشاركتهم مزايا رابطتهم فليدخل فيهم ، وإذا لم يكن مسلماً فلابد أن يسلم أولاً . وعن هذا الطريق أسلم الألوف بعد الألوف وانتشر الإسلام فى كل بلاد أفريقية الغربية المدارية والاستوائية حتى حوض النيجر ، وقد ظهر من بينهم زعماء سياسيون وفاتحون كبار ، أنشأوا

دولا إسلامية كان لها هي الأخرى أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الأفريقية .

هنا في أفريقية المدارية نجد أمثلة كثيرة لانتشار الإسلام وتكوينه جماعات إسلامية خارج نطاق بلاد الإسلام ، وهذه الجماعات تكون أول الأمر كالجزر منعزلة في دار الحرب ، ثم تتسع رويداً رويداً حتى تشمل بلاداً بأسرها .

وهذه الجماعات — التي لا يؤيدها نظام سياسي — تنظم نفسها على قواعد الإسلام وأخلاقياته ، كما فعلت الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة ، والناس فيها يتعاملون على أساس قواعد المروءة الإسلامية . والدين هو الرباط الذي يجمعهم ، وهو الوطن الكبير الذي يلم شملهم ، وهو القانون الذي يحكمهم ، وهم يحسون أن الله سبحانه يرعاهم بفضله وعنايته ، ولهذا فقلما تحتاج هذه الجماعات إلى سلطان سياسي كبير أو بالغ القوة يؤيدهم ، لأن السلطان الديني والأخلاق أقوى وأبعد أثراً من أي سلطان سياسي بالنسبة لهم ، وإلى هذا تعزى القوة الكبيرة التي يمتاز بها المرابطون أو رجال الطرق هناك . وتحكي الحكايات الكثيرة عن عجائب ما كان يتم على أيديهم من إدخال الناس في الإسلام ، فإن بعضهم قام وحده بما لم تقم به بعثات تبشيرية ضخمة .

وعن طريق الطرق الصوفية أيضاً انتشر الإسلام فيما يعرف اليوم بجمهورية تشاد وغرب السودان النيلي ، قادماً من فزان أو من مصر . وإن الإنسان ليدهش عندما يتبين ضخامة الأثر الذي كان لبلدان إسلامية صغيرة مثل الأبيض والفاشر (في السودان) ، ومرزق في إقليم فزان في ليبيا ، وإسنا في صعيد مصر ، وملقا في شبه جزيرة الملايو ، فإن هذه المدن الصغيرة ومساجدها المتواضعة وشيوخها المجهولين وأتباعهم أضافوا لعالم الإسلام أقطاراً بأسرها . فكل ما يقع جنوب الصحراء الكبرى في أفريقية من بلاد الإسلام إنما هو من إنشاء أولئك المجاهدين الصامتين ، وكل مايلي الهند شرقاً إنما هو من عمل هذه الجماعات الإسلامية المتطوعة . هنا ، وعندما ننظر إلى الخريطة ، نرى أن هذه الجماعات قد أضافت إلى عالم الإسلام نحو نصفه ؛ مساحة وسكاناً .

في هذا النصف يدخل السودان ، ذلك البلد الإسلامي الفسيح الذي يمتد من حدود مصر الجنوبية إلى جنوبي خط الاستواء . لقد نشر الإسلام في ذلك القطر الشاسع عربٌ مهاجرون من جنوبي مصر ، هم قبائل الكنوز أو أبناء الكنز ، وساعدت في

هذه العملية جماعات أخرى من العرب كانت تعبر البحر الأحمر باستمرار إلى الشاطئ الأفريقي. وقد ظهر السودان بمظهره الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، ثم هاجرت إلى السودان جماعات عرب جهينة، وقد أتوا أصلاً من الحجاز، ودخلوا مصر مع الفتح وقد اشتركوا مع غيرهم من العرب في غزوة البجاة في حوالي منتصف القرن التاسع الميلادي وقد انتقلت غالبية جهينة إلى الصعيد، ثم اشتركوا في إسقاط مملكة النوبة المسيحية وزحفوا على أنقاضها إلى كردفان ودارفور، كما تحركوا جنوبا متتبعين مجرى النيل وروافده تجاه الحبشة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهاجرت إلى السودان كذلك بطون من كنانة وقريش وربيعة — قادمين من مصر، ومن مصر انتقلوا إلى السودان وانضموا إلى جهينة في حملاتهم على البجاة. وقد استقرت ربيعة على حدود النوبة شمال السودان، واختلطت بالنوبيين، وإليهم ينسب بنو كنز (الكنوز الذين ذكرناهم) وكانوا يسكنون وادي النيل فيما بين حلفا وأسوان. وانضمت إلى أولئك العرب جماعات من المهاجرين العرب عبر البحر الأحمر من الجزيرة مباشرة. ثم هاجرت حديثا نسبيا — قبائل عربية مثل الرشايدة، واستقرت في الشمال الشرقي للسودان، لأن تعريب السودان تم عن طريق مصر. فمن طريق النيل وصلت كبريات الهجرات العربية من الشمال إلى السودان، وهذا يؤيد الحقيقة القائلة بالوحدة السكانية والحضارية لوادي النيل، وليس من الضروري — نتيجة لذلك — أن تقوم وحدة سياسية، فإن الوحدة السياسية شكل من أشكال التعاون ليس إلا، أما الأهم فهو الوحدة الحضارية والسكانية.

ومن الممكن أن تكون بعض الهجرات العربية إلى غرب السودان قد جاءت من إفريقية أو المغرب عموماً، وقد يكون هذا هو أصل ما يقال من أن سلاطين دارفور ينحدرون من سلالة بني العباس، ممن هاجروا إلى المغرب بعد تدهور الدولة العباسية في العراق من إفريقية هاجروا إلى دارفور. ومن المؤكد أن بعض الهلالية الذين هاجروا إلى المغرب انتقلوا بعد ذلك إلى إقليم دارفور في غرب السودان ولكن هذه كلها كانت هجرات قليلة الأعداد، أما الهجرات الضخمة التي عرّبت السودان فقد جاءت عن طريق مصر.

ومن الصعب — على أي حال — أن نتحدث بصيغة التوكيد عن أصول الهجرات العربية

إلى السودان لكن من المؤكد أن معظمها أتت من مصر ، ووصلت إلى السودان بعد إقامة طويلة فى مصر ، أى بعد أن تمصرت إلى حد ما .

ومهاجرة العرب من جنوبى شبه الجزيرة وشرقها — وبخاصة اليمنيين والحضارمة والعمانيين — هم الذين نشروا الإسلام فى الصومال وما يعرف اليوم بتنزانيا وغيرها من بلاد شرق القارة الأفريقية . وهؤلاء العرب كانوا يفدون إلى هذه السواحل الشرقية فى غالب الأمر تجاراً ، وهم دون شك من أمهر تجار الأرض وأقدر رجال الأعمال . ولو وجدوا فى الأعصر الماضية حكومات رشيدة واعية لمصالحها ومصالح الناس لكان لهم فى تاريخ أفريقية وجنوب آسيا والمحيط الهندى عامة أثر أعظم مما لهم بالفعل ، ولاستطاعوا أن يتركوا فى التجارة العالمية أثراً لا يقل عن أثر الهولنديين مثلا .

ولكن فى العصور الوسطى كان الكثير من دول العالم الإسلامى عوائق للتقدم وعقبات فى طريق النشاط البشرى وحرباً على القيم الخلقية التى يقوم عليها صلاح المجتمعات الإنسانية ، ولولا هذا الطراز من الحكومات لكان للإسلام فى الدنيا شأن هو أضعاف شأنه اليوم . فإن الجماعات الإسلامية فى الغالب جماعات فاضلة ، وليس كذلك الكثير من الدول الإسلامية فى العصور الماضية .

ولقد أوغل أولئك العرب فى أفريقية الاستوائية من ناحية الشرق ، وكسروا نطاق الغابات الاستوائية واخترقوه ، والشائع أن ذلك النطاق يعد حاجزاً مانعاً لا يمكن للإنسان عبوره ، فاخترقه العرب وتحملوا مشقة ذلك دون كبير عناء ، ووصلوا إلى حوض الكونغو ، وعندما وصل الأوروبيون إلى هذه النواحى وظنوا أنهم اكتشفوها وجدوا أن العرب كانوا قد اكتشفوها قبلهم بأزمان متطاولة ، فأعلنوا على جماعات العرب هناك حرباً شعواء ، ودافع العرب عن تلك النواحى دفاعاً طويلا ، وخلال القرن الماضى كله تقريباً كان عرب أفريقية هم أبطال الدفاع عن الحرية الأفريقية ، ولهذا أعلن الأوروبيون عليهم حرباً دموية وأخرى غير خلقية ، فاتهموهم بأنهم تجار رقيق وأنهم مستعمرون ، وكل العالم يعرف اليوم أن تجارة الرقيق فى أفريقية كانت تجارة أوروبية وأن استعمار أفريقية كان أوروبيًّا . ولم يبدأ الاستعمار الشامل لأفريقية المدارية والاستوائية إلا بعد أن قضى المستعمرون بالحديد والنار على مقاومة العرب والمسلمين ومن انضم إليهم من أهل أفريقية . ولو فطن الأفريقيون جميعاً لعرفوا أن قومياتهم لا معنى لها ولا سند بدون الإسلام .

ومع العرب يسير الإسلام دائماً ، ففى نواحى أفريقية الاستوائية : فى جمهوريات تنزانيا وملاوى وكينيا وأوغندا وزامبيا وبوروندى والكونغو وغيرها ، وكذلك فى موزمبيق وأنجولا — فى كل هذه البلاد دخل الإسلام وأنشأ جماعات ذات كيان إسلامى مستقل داخل كيان الجماعة المحلية الكبيرة . وهذه الجماعات كانت مستقلة فى الغالب ، لأنها كانت أكثر الجماعات المحلية انتظاماً وتقدماً ، إذ كانت لها مساجدها ، وهى دائماً مراكز دين وثقافة وعلم ، ولها شريعتها السماوية وقضاتها ، وأفرادها متعلمون أو يقودهم متعلمون ، ولهذا فقد كانت تلك الجماعات فى ازدياد مستمر ، فلما استقلت تلك البلاد الأفريقية وقامت فيها الحكومات القومية وهى حكومات نصرانية فى الغالب أقامها المستعمرون وأعدوا رجالها قبل رحيلهم فكانوا — يا للغرابة — أعداء للإسلام بطبيعة ثقافتهم وأديانهم وما ملأ به المستعمرون قلوبهم من كراهية الإسلام . ولكن هذا العداء للإسلام يخف شيئا فشيئا عندما يتبين لحكومات هذه البلاد سخف العداء للإسلام دون مبرر . وكانت هذه الحكومات القومية المسيحية قد بدأت بالقضاء على استقلال الجماعات الإسلامية والحد من نشاطها ، ومن تراث عصور الاستعمار أنها تركت فى معظم هذه البلاد حكومات مسيحية برغم أن أكثرية السكان فى معظمها إسلامية .

وهكذا نرى كيف تكونت المجموعات الإسلامية الأفريقية بفضل متطوعين ، أغلبهم جند مجهولو الأسماء : بعضهم مرابطون وصوفيون مجاهدون فى سبيل الله ، وبعضهم تجار اجتذبوا الناس إلى الدين الحنيف بالمثل الطيب والقدوة الحسنة وإقامة رابطة تعاون وأخوة بين المسلم الوافد والمواطن المقيم . فإذا عرفنا أن عدد المسلمين فى أفريقية المدارية والاستوائية يعدل عدد المسلمين العرب الأفريقيين ، تبينا كيف أن للإسلام دائماً من القوة الذاتية ما يجعله ينشر نفسه بنفسه وينشئ جماعاته بما يقدم لها من عناصر البقاء والنظام والقوة .

والآن ، لننظر إلى الجناح الشرقى لدولة الإسلام لنرى كيف امتد الإسلام فيه .

امتداد الإسلام فى آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية :

وصلنا فيما سبق بالإسلام إلى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة الهندية المعروف ببلاد السند أو المُلْتان ، وهو اليوم جزء من جمهورية الباكستان . كان

ذلك خلال العقود الأخيرة من القرن الهجرى الأول / النصف الأول من القرن الثامن الميلادى .

هنا وقفت حدود دار الإسلام مائتى سنة ، لأنه بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م انتهى عصر الفتوح الإسلامية فيها ، فإن الدولة العباسية لم تكن دولةَ فتوح أو نشر للإسلام خارجَ حدوده وإنما كانت دولةً محافظة على الموجود عن طريق نظام من الحملات الدفاعية أو التأديبية عرفت باسم « الصوائف » و « الشواتى » ، أى حملات الصيف وحملات الشتاء ، وهو نظام عرفه الأمويون إلى جانب نشاطهم الواسع فى الفتوح . وهذه الحملات كانت محدودة المدى ، سواء من حيث الحجم أو الزمن الذى كانت تستغرقه .

وعلى أى حال فقد كان الفرق شاسعاً من كل وجه بين « جند بنى أمية » من العرب ، الذين كانوا يخرجون فى رحلة حرب طويلة يقطعون فيها آلاف الكيلومترات ويستشهد منهم خلالها مئات بعد مئات ، ويستمر الباقون فى السير دون خوف أو ملل أو ضجر ، و « جند العباسيين » مختلفى التكوين ، إذ كان معظم رجاله من المرتزقة من غير العرب ، فقد كان أقصى ما يصل إليه هؤلاء الجند العباسيون مائة كيلو متر فى آسيا الصغرى لا يعملون خلالها أكثر من تخريب مدن صغيرة ونهب ضياع أو إحراق مزارع والفوز بغنيمة كبيرة أو صغيرة والعودة مسرعين بالعطاء .

ولكى يتجدد حماس الفتوح كان لابد من شعب سليم الطبع ، على الفطرة ، كما كان العرب الأولون ، هؤلاء وجدهم الإسلام فى الأتراك الذين كانوا يسكنون الجزء الجنوبى الشرقى من التركستان وهضاب أفغانستان وجبالها . وقد سبق أن تكلمنا عن الأتراك[1] .

والأتراك الذين يعنينا أمرهم هنا كانوا رجالا أشداء يعيشون رعاة وصيادين فى هضابهم وجبالهم العالية عندما وصلهم الإسلام ، فآمنوا به إيمان العرب الأولين . وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، نبغ فيهم زعيم يسمى أَلْبْ ـــ تِكِين ، دخل فى خدمة السامانيين ، ثم علا أمره فأقاموه حاكماً على

(١) ص ٣١ مما تقدم.

خراسان ، ثم اختلف معهم فاتجه إلى غزنة ، فى أقصى بلاد الإسلام شرقاً ، وأنشأ لنفسه — مع إخوانه الأتراك — دولة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م طال عمرها حتى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، وامتد سلطانهم حتى شمل كل أفغانستان وإقليم البنجاب وهو حوض نهر السند .

وهذه هى الدولة الغزنوية التى تعد من دول الفتوح فى تاريخ الإسلام ، مثلها فى ذلك مثل الدولة المرابطية فى الجناح الغربى لدولة الإسلام . ومن ملوكها فاتحون عظماء مثل سُبُكْتِكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ /٩٧٦ — ٩٩٧ م) ثم ابنه محمود (٣٨٨ — ٤٢١ هـ/٩٩٩ — ١٠٣٠ م) ، وهو من أعاظم الفاتحين فى تاريخ الإسلام ، فقد أضاف بجهاده إلى عالم الإسلام قدر ما أضيف أيام عمر بن الخطاب فى المساحة تقريباً ، إذ إنه فتح شمال الهند كله بما فى ذلك نهر الكنج إلى مصبه ، ووصل بالإسلام إلى سفوح جبال الهيمالايا شمالا وتسلق هضبة الدكن جنوباً . فى كل هذه المساحة الشاسعة زالت الوثنية وحلت محلها عبادة الله الواحد الأحد ، وتلاشت الأصنام وقامت مكانها المساجد ، وكان محمود الغزنوى وفيًّا لوحدة الإسلام ، فاعترف بالتبعية للخليفة العباسى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ/٩٩١ — ١٠٣١ م) وتلقى منه التفويض وخِلَع السلطنة ، ولقّبه الخليفة فى خطاب التفويض بلقب : الأمير . وقد عرف محمود بن سبكتكين « بالغازى » ، وهو أول من حمل هذه التسمية ، وكان يقال إنه أول من تلقب بالسلطان فى تاريخ الإسلام ، ولكن الحقيقة أن أول من حمل لقب السلطان كانوا هم السلاجقة بعد ذلك .

وفى أيام الغازى محمود بن سبكتكين أصبحت غزنة من العواصم العظام فى بلاد الإسلام ، فازدانت بالمساجد السامقة والمبانى الرائقة . وفى بلاطه ظهر علماء كأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وهو العلامة الموسوعى الذى صحب الغازى فى حملاته إلى الهند ، وأبى القاسم الفردوسى المتوفى عام ٤١١ هـ وهو الشاعر الإيرانى الأكبر ومؤلف الشاهنامة — أى كتاب الملوك — وهو ملحمة شعرية تبلغ ستين ألفاً من الأبيات ، تحكى وقائع أبطال الإيرانيين وملوكهم فى عصر الساسانيين خاصة ، وهى تعد من عيون شعر الملاحم فى الأدب العالمى . ومن علماء عصره كذلك أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقى المحدث المشهور المتوفى عام ٤٥٨ هـ . وكان يكتب بالعربية والإيرانية ، وكتابه المشهور « السنن الكبرى » يعد من الكتب الرئيسية فى الحديث الشريف .

ولكن ضخامة الدولة الغزنوية كانت السبب فى تفككها ، فانقسمت إلى ممالك يحارب بعضها بعضاً . ويهمنا منها هنا ما كان فى الطرف الشرق لأفغانستان وشمال الهند ، فقد كانت عاصمة الغزنويين فى شمال الهند مدينة لاهور . وفى منطقة لاهور نشأت دولة الغوريين ، وهم منسوبون إلى الغور ، من أقاليم جنوبى أفغانستان ، ويرجع نسبهم البعيد إلى أصل إيرانى ، ولكن جندهم كانوا أتراكاً وإيرانيين ثم هنوداً فيما بعد . وقد تمكن أمراء الغوريين من إخضاع منافسيهم فى شمال شرق الهند ، ثم وسعوا حدود بلادهم وجعلوا عاصمتهم مدينة دهلى التى تسمى الآن دلهى . وعندما اتسعت دولتهم اتخذ أمراؤهم لقب السلاطين ، وأولهم بهاء الدين سام الذى حكم من ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وهو يعد مؤسس الدولة ، وجاء بعده من كبار سلاطين الغوريين علاء الدين سام الذى حكم ابتداء من سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م ، ثم غياث الدين بن سام وهو الذى نقل عاصمة الدولة إلى دهلى .

وهؤلاء السلاطين ثبّتوا الدعائم لدولة الإسلام فى شمال الهند . وغياث الدين هو الذى تمكن من إعادة توحيد كل ما كان خاضعاً للغزنويين ، سواء فى أفغانستان أو فى الهند ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دولة الإسلام فى الهند من الضياع . فقد كان سلطاناً عظيماً وحاكماً عادلا ومسلماً مخلصاً ، إلى جانب امتيازه كفاتح ومحارب قضى أحسن سنوات عمره فى ميادين الجهاد . وعندما توفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠٢ م كانت دولة الغوريين قد أصبحت إمبراطورية واسعة تضاهى دولة الغزنويين وتمتد من خراسان إلى حدود بورما وهضبة الدكن .

وقد فتح سلاطين الغوريين أبواب هذه البلاد الواسعة أمام الإسلام ، فوجد ميداناً فسيحاً خصباً انتشر فيه وأزال الديانات الوثنية والهندوسية فى معظم نواحى شمال الهند ، حتى أصبح الإسلام هو الديانة الغالبة فى البنغال والنواحى الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة الهندية حتى جنوبى حيدر آباد ، وعندما انتهت أيامهم تركوا الميدان ممهداً بعدهم لسلاطين دولة المغل .

ولقد حدث بعد أيام غياث الدين بن سام أن تفككت عرى دولة الغورية ، و لم تَعُدْ لدولة الإسلام تلك السيادة التى كانت لها من قبل ، وظل ذلك التفكك زمناً طويلا ، حتى أُتيح لبلاد الإسلام فى الهند وأفغانستان التجمع من جديد على يد

المغل — الذين يسمون أيضاً بالمغول — وهم خلفاء تيمورلنك المحارب التركى الطائر الصيت .

وقد حدث بعد موت تيمورلنك أن تفككت إمبراطوريته الواسعة ، وكانت إمبراطورية بدوية قليلة النظام ، قامت على أكتاف جماعات من المحاربين الأتراك والمغول والتركمان ، وهى واحدة من عدد من الإمبراطوريات البدوية التى نشأت فى قلب آسيا ، فى الفيافى المترامية شمال جبال قرقورم والهندكوش . وهى أراض واسعة ذات أعشاب ، ولهذا تسمى الإمبراطوريات التى نشأت فيها : إمبراطوريات الأعشاب ، وأهمها دولة الهون التى قادها أتيلا Atilla فى القرن الخامس الميلادى ، ودولة جنكيزخان ، ثم دولة تيمورلنك أو تيمور الأعرج . هذا ، وكان تيمور قد دخل الإسلام دخولا سطحياً . ولكن خلفاءه حالفوا إيلخانات المغول فى إيران فاشتد ساعدهم بهذا الحلف . وكانت الحرب دائرة بين أبنائه وأحفاده ، إلى أن ظهر من أولئك الأحفاد ظهير الدين محمد الذى عرف باسم بابُر .

كان بابر هذا من أولئك القلائل الذين ولدوا فى طالع السعادة ، كما يقولون ، فإن أباه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنك ، توفى وهو بعد طفل ، وكاد العرش ينتقل إلى واحد من عمَّيْه أحمد ومحمود . ولكن الموت غالهما ، فصفا له الجو ، واستطاع عندما شب أن يجمع المغول والأتراك تحت لواء واحد .

بدأ بابر حكمه أميراً على فرغانة من بلاد أفغانستان ، وحاول توسيع رقعة مملكته هناك فلم يستطع فعبر مع رجاله جبال الهندكوش وأفضى إلى سهول الهند الشمالية ، وتمكن من فتح لاهور واستولى على آكرا — أو أجرا — وجعلها عاصمة ملكه ، وتمكن بعد حروب طويلة من توحيد شمال الهند كله تحت سلطانه واتخذ لقب بادشاه ، وكان معاصراً لاثنين من كبار سلاطين المسلمين ، وهما إسماعيل الصفوى شاه الفرس وسليم الأول سلطان الأتراك العثمانيين ، وأثبت أنه أقدر منهما معاً . وقد أدى للإسلام خدمات كبرى خلال حكمه الذى امتد ثمانية وثلاثين عاماً ، وانتهى فى جمادى الأولى ٩٣٧ هـ/١٥٣٠ م ودُفن فى كابل ، وكانت أحب بلاد الدنيا إلى قلبه . وإليه يرجع الفضل فى تثبيت أركان الإسلام وتمهيد الطريق لتوسيع رقعته حتى يشمل شبه الجزيرة الهندية كلها . وكان إلى جانب حماسه للإسلام متسامحًا ، لا يرغم أحداً على اعتناق الإسلام وإنما يُعطى بنفسه المثل الطيب . وكان إلى جانب ذلك

أيضاً مولعاً بإنشاء المساجد الجميلة ، وعلى يده ولد فن العمارة الإسلامية المغولية ، وهو من أجمل طرز العمارة في الإسلام . وقد دفعه ولعه بالبناء إلى أن يستقدم المهندس العثماني المشهور « سنان » — الذي يعد من منشئي مدرسة العمارة العثمانية — ليسأله عن أسرار صنعته ، ثم طلب إليه أن يبعث له بعدد من تلاميذه . وفي أيامه أصبحت عاصمته أجرا من أجمل بلاد الإسلام .

وجاء بعد بابر سلاطين عظام أكملوا فتح الهند وتوحيدها تحت راية الإسلام ، وأهمهم نصير الدين محمد همَايون (٩٣٧ — ٩٦٣ هـ/١٥٣٠ — ١٥٥٦ م) ، وهو من عظماء الفاتحين ، وجلال الدين محمد أكبر (٩٦٣ — ١٠١١ هـ/١٥٥٦ — ١٦٠٥ م) الذي كان سلطاناً فيلسوفاً أراد أن يوحِّد الأديانَ كلَّها في دين واحد سماه « الدين الإلهي » ، وقد فشلت محاولته .

وأخيراً جاء شاه جهان (١٠٣٧ — ١٠٧٧ هـ/١٦٢٥ — ١٦٦٦ م) ، وهو أعظم سلاطين هذه الأسرة . وفي أيامه اشتد تدخل البرتغاليين والهولنديين ثم الإنجليز في الهند . وقد بذل شاه جهان غاية جهده في توسيع رقعة سلطانه ومد رواق الإسلام وحفظ المملكة من التدهور ، ولكن الدولة أخذت تتفكك بعد وفاته ، وانتهى الأمر ، بعد صراع طويل مع الإنجليز ، إلى سقوط البلاد في أيديهم سنة ١٨٥٨ م .

وقد اجتهد الإنجليز — بعد دخولهم — في إضعاف شوكة الإسلام وتقوية العناصر الهندوكية وغيرها من أصحاب الأديان الأخرى . فكانت النتيجة أن تجمعت الهندوكية وثبتت أقدامها من جديد ، وتوقف نمو الإسلام في الهند . وبدأت الحزازات بين المسلمين والهنود ، ثم اشتدت إلى حد انتهى بالمسلمين إلى تقرير إنشاء دولة خاصة بهم في الهند . وتمَّ لهم ذلك بفضل زعماء عظام من أمثال أحمد خان وتلاميذه ، وأكبرهم الشاعر محمد إقبال والزعيم السياسي محمد على جنّة صاحب اليد الطولى في قيام دولة الباكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ م .

ونعود إلى عصر الشاه جهان ، فنقول إنه خلف لنا أثراً بديعاً هو الـ « تاج محل » الذي بناه لتخليد ذكرى زوجته : ممتاز محل[1] .

---

(١) كان اسم هذه الأميرة الشهيرة في التاريخ أرْجُمند بانوبيكم . وقد تزوجها شاه جهان سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٢ م ، وكانت تمتاز بجمال باهر وخلق جميل وعقل راجح ووفاء يضرب به المثل . وقد وقفت إلى جانب زوجها خلال ما مر

وسلاطين المغل هم الذين فتحوا للإسلام أبواب برمانيا أو بورما .

دخل الإسلام بورما فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، عن طريق التجار والرحالين من الهنود ، وبورما بلاد واسعة مغطاة بالغابات الاستوائية فى معظم نواحيها ، مما كان يعد من أكبر عقبات المواصلات هناك فى العصور القديمة والوسطى . ولهذا كان اعتياد الناس فى الانتقال ونقل البضائع من مكان لمكان على مجارى الأنهار الكثيرة هناك . وهنا نلاحظ كيف امتد الإسلام مع مجارى الأنهار ، فنشأت جالياته فى القرى والبلاد على الضفاف حتى وصلت إلى رانجون وهى العاصمة الحالية ، وكان إقليمها فيما مضى يسمى بإقليم بيجو ، ومن المناظر المألوفة هناك مناظر المساجد إلى جانب المعابد البوذية . والبوذية من العقبات الصلبة فى سبيل انتشار الإسلام حيثما وُجدت ؛ لأنها — بمذاهبها المتعددة — نظام روحى وخلقى مرتبط بنظام كهنوتى ذى مراتب ودرجات محسوبة حساباً دقيقاً ومتأصلة منذ مئات السنين .

به من الغنى الكثيرة ، وكانت برغم الأثر العظيم الذى كان لها عليه غريس على أن يكون تدخلها فى أمور الدولة فى مصرة الخير دائماً ومعاونة المظلومين وتأييد الصالحين من القادة وكبار رجال الدولة ، فلم ينكر أحد منهم تدخلها أو فضلها . وكانت ممتاز محل — وهو الاسم الذى أطلقه عليها المسلمون — ومعناه سيدة التاج — شديدة التعلق بالإسلام دائمة الاهتمام بالمساجد وأهل العلم ، وكان لا يرضيها أن نرى الناس يركعون لزوجها ، فلم تزل به حتى أوقف هذه العادة غير الإسلامية ، وحذرت زوجها من نشاط الواسع الذى كان المشرون المسيحيون يقومون به فى بلاده ، فاجتهد فى الحد من ذلك النشاط ، ومن آثارها فى الدولة اتخاذ التقويم الهجرى ومنع الشيعة فى بلاد الشاه من التطاول على مقام الخلفاء الراشدين والحد من بناية معابد هندوكية جديدة فى بلاده . وكانت ممتاز محل امرأة عطوفاً على الفقراء دائمة الصدقات ، وكان حدبها عظيماً على الأرامل وضعيفات النساء حتى لقد أنفقت أموالاً طائلة فى تزويج الفتيات الفقيرات .

وقد توفيت ممتاز محل فى ريعان شبابها عام ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م وهى تضع مولودها الثالث عشر ، وحزن عليها شاه جهان حزناً شديداً . وقرر تخليد ذكراها بإنشاء روضة (أى ضريح يحيط به بستان) لتكون مثواها الأخير ، وهذا الضريح هو الأثر الباقى الذى يعرف اليوم باسم « تاج محل » ، وهو فى ضواحى مدينة أجرا . ويعد من روائع الفن المعمارى فى الدنيا . وقد بناه شاه جهان فى اثنين وعشرين عاماً وعمل فيه عشرون ألف عامل ، وبلغت نفقة إنشائه ١٧,٩٠٠,٠٠٠ روبية هندية .

وكان شاه جهان مولعاً بالإنشاء والتعمير ، وهو الذى زين أجرا ولاهور ودلهى وغيرها من عواصم الإسلام الهندية بآثار رائعة مثل مسجد أجرا الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء .

انظر د . أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، القاهرة ١٩٥٩ ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، و ٢١٠ — ٢٢١ .

وقد وصل الإسلام إلى شبه جزيرة ملقا المعروفة بالملايو مع تجار العرب الحضارمة واليمنيين والعمانيين وأهل الخليج العربي . وجدير بالذكر أن التيارات الإسلامية الكبرى التي حملت الإسلام إلى بلاد الملايو وأرخبيل إندونيسيا خرجت من موانى الهند الغربية ، من أمثال قالبقوط وكولام — مالي . فقد كان تجار العرب يخرجون من عدن إلى جزيرة سُقُطْرى فإلى جزر لكَدَيف ثم إلى قاليقوط التي كانت أكبر مراكز تجمعهم . وكانوا يخرجون كذلك من صُحار ومسقط — وهما اليوم في عُمان — ومن سيراف وهرمز — وهما اليوم في إيران — ويتجمعون في دَيْبُل ، ومنها يبحرون إلى كِمباية على ساحل الهند الغربي ومنها إلى قاليقوط . ومن موانى ساحل الهند الغربي يخرجون في مراكبهم متجهين جنوباً ثم شرقاً مارين بجزيرة سَرَنْديب وهي نسمى أيضاً : سيلان ، ومن هناك تمضي بهم السفن إلى بلاد الملايو .

ولم يجد الإسلامُ عقبة في طريقه ، فساد في شبه جزيرة ملقا ، حيث أنشأ المسلمون سلطنات مثل باهنْج وبراك وسِلَنْجُور . ولكن أهمها كلها كانت سلطنة ملقا التي اتسعت حتى شملت الجزء الجنوبي كله من شبه جزيرة الملايو . وقد بلغت تلك السلطنة أوجها خلال القرن السابع عشر الميلادي . وبرغم أنها تعرضت لاحتلال البرتغاليين ثم الهولنديين ثم الإنجليز فإن الأمر انتهى بقيام جمهورية إسلامية حديثة فيها ، وهي جمهورية ماليزيا التي أنشئت سنة ١٩٦٧ م ، وهي تضم شبه جزيرة ملقا — عدا سنغافورة — والجزء الشمالي من جزيرة بورنيو . وهي بلاد إسلامية زاهرة عاصمتها كوالا لامبور ، وهي من أجمل عواصم الإسلام في وقتنا الحاضر .

وقد وصل الإسلام إلى إندونيسيا عن طريق التجار الذين ذكرناهم من قبل ، وكان أول دخول الإسلام هناك في جزيرة سومطرة ، حيث أنشأ المسلمون مراكز صغيرة على ساحلها الغربي أول الأمر . ثم أقبلت سفنهم من ملقا فرستْ على الساحل الشرقي ، وبدأ الإسلام يتوغل في الجزيرة دون أن يجد عقبة كبيرة . وفي الوقت نفسه وصل دعاة الإسلام إلى جزيرة جاوه وأنشأوا مراكز أخرى . ومن جاوه انتشر الإسلام في جزيرة سليبيز وبورنيو وغيرهما من جزائر إندونيسيا . ولم يجد الإسلام مقاومة إلا في وسط جزيرة جاوه حيث كانت الهندوكية قد ثبتت أقدامها ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت أمام الضغط الإسلامي من كل ناحية . وخلال القرن السابع عشر كانت غالبية جزائر إندونيسيا قد أصبحت إسلامية .

وتعرضت الجزائر الإندونيسية للاستعمار الهولندى ، ومن حسن الحظ أن اهتمامات الهولنديين كانت تجارية ، فتركوا الإسلام ينتشر على مهل ، بل إن الحكومة الهولندية شجعت المسلمين على ذلك ، لكى يشتغلوا بالأمور الدينية تاركين التجارة والمال للهولنديين . غير أن أهل إندونيسيا — عندما طال بهم الاستعمار وأحسوا باستغلاله — بدأ رجالهم يفكرون فى الاستقلال ، وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الثانية ، وعندما دخل اليابانيون البلاد أثناء تلك الحرب اجتهد الزعماء المحليون فى التخلص من آثار الاحتلال الهولندى . فلما اضطر اليابانيون إلى ترك البلاد ، بعد هزيمتهم سنة ١٩٤٥ م ، تركوا ما كان معهم من سلاح للإندونيسيين ، فكان ذلك معيناً للثائرين من أهل البلاد على الظفر بالاستقلال ، وقد تم سنة ١٩٤٧ م . وإندونيسيا اليوم من أعظم بلاد الإسلام ، وهى أكبر بلاده من حيث المساحة وعدد السكان .

وتتصل بالجماعة الإسلامية الإندونيسية جماعاتُ الإسلام فى جنوب جزائر الفلبين . وكان المفروض أن تكون الفلبين بلاداً إسلامية ، ولكن الإسلام لم يكد يدخل من الجنوب ويثبت أقدامه فى أرخبيل سولو وخليج سولو جنوبى جزيرة مَنْدناو حتى وصلت سفن المستعمرين الإسبان فى فبراير ١٥٦٤ م (رجب ٩٧١ هـ) إلى الساحل الشرقى لمندناو ، وشرعت فى غزو الجزيرة . وعندما وصلت قواتهم إلى الجنوب اصطدمت بالمسلمين ، وقد سماهم الإسبان : المورو س (Los Moros) ، وهو اسم عام يطلقونه على المسلمين ، وما زال مسلمو الفلبين يسمون بهذا الاسم إلى اليوم . ولم يتغلب الإسبان على المورو س ، ولكنهم أوقفوا تقدم الإسلام فى الجزائر ، فبقى منحصراً فى جزء صغير من جنوبى مندناو ، يشمل نواحى كوتاباتو ودافاو ولاناو وأمبوانجا ومجموعة جزائر سولو التى يسميها الإسبان خولو (Jolo) الواقعة بين الساحل الشمالى الشرقى لبورنيو وجزيرة مندناو .

وقد عاد الإسلام إلى النمو من جديد فى الفلبين بعد زوال الحكم الإسبانى ومجىء الأمريكيين سنة ١٨٩٨ م ثم استقلال البلاد بعد ذلك . ولو وجدت الدعوة الإسلامية العناية الكافية لانفتحت أمامها السبل للانتشار الواسع فى تلك الجزائر وغيرها من جزائر المحيط الهادى .

سير الإسلام لا يتوقف :

والحقيقة التي لا شك فيها هي أن الإسلام منذ أنزل الله القرآن على رسوله الكريم ﷺ لم يتوقف سيره وتوسعه قط . فسواء أكانت هناك دول قوية تعمل على نشره أو لم يكن هناك إلا دول ضعيفة مفككة لا تقوى على الحفاظ على كيانها ، وسواء أكانت جماعات الإسلام آمنة أو محاطة بالأعداء مثقلة بالأزمات ، فإن الإسلام يسير في العادة في طريقه مظفراً ، لا يتأثر بأحوال المسلمين وما يجرى عليهم من صروف الزمان .

بل إننا نلاحظ أحياناً أن الإسلام يزداد انتشاره في حالات ضعف المسلمين السياسي ، كما نرى في انتشار الإسلام السريع في أفريقية في أثناء عصور الاستعمار ، سواء في أفريقية أو في آسيا . ولقد كانت عصور الاستعمار الهولندي لإندونيسيا هي السنوات التي مكن الإسلام لنفسه فيها وكسب أكبر مجموعاته على الأرض ، لأن الهولنديين — كما تقدم القول — أهل تجارة ومال ، وقد أرادوا أن ينصرف أهل البلاد عن النظر إلى المال والتجارة فشجعوهم على إنفاق جهودهم ونشاطهم في شئون الدين ، بل لوحظ أحيانًا أن الحكومة الاستعمارية الهولندية كانت تساهم في نفقات إقامة المساجد وتكاليف رجال البعوث الدينية ، فكان ذلك خيراً على الإسلام والمسلمين ، لأنه أتاح الفرصة للقضاء على الوثنية والبوذية في الجزائر ، فتحققت لأهلها الوحدة الدينية التي كانت أكبر سلاح للتحرير وتوحيد الصفوف ، عندما بدأ الإندونيسيون يطالبون باستقلالهم .

وقد كانت الوحدةُ الدينية هي التي حفظت وحدة البلاد من أن يقسمها المستعمرون — قبل خروجهم — إلى أقسام بحسب الدين ، فظلت كتلة السكان واحدةً محتفظة بقواها . وعندما تحقق الاستقلال اتجه الإندونيسيون إلى تحرير اقتصادهم ، وعوضوا في ذلك المضمار ما فقدوه أيام الاستعمار . ومن هنا كان الإسلام بركة على إندونيسيا وأهلها من كل ناحية .

وكذلك كان الأمر في الكثير من البلاد الأفريقية ، وبخاصة تلك التي كان يستعمرها الإنجليز . ففي بعضها ، وبخاصة نيجيريا ، انتشر الإسلام انتشارًا واسعاً خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبح الدين الغالب على أهل البلاد ، وكان ذلك

من الأسباب التي حفظت لها وحدتها عندما جاء وقت التحرير . وإذا كانت نيجيريا تعد اليوم من أكبر بلاد القارة الأفريقية فإن السبب يرجع إلى انتشار الإسلام فيها انتشارًا واسعاً ، لأن المسلمين هناك كتلة ضخمة تستعصى على التقسيم ، وفى هذه الكتلة الضخمة ذابت الفوارق القبلية فلم تبق إلا أجزاء صغيرة خارج النطاق الإسلامى فى نيجيريا ، كما هو الحال فى قبائل الإيبو التى يزعم البعض أن معظم أفرادها من المسيحيين .

وهنا أيضاً نرى مثالا لفضل الإسلام على الأمم فى الحفاظ على وحدتها وتمكين أهلها من تكوين قوة سياسية واجتماعية يحسب لها كل حساب . ولو نظرنا إلى بلاد الإسلام وجدنا أن الإسلام هو سبب قوتها وعنصر بقائها ومصدر حضارتها ومنبع كل خير يعرفه أهلها .

ولا يتوقف نمُوّ الإسلام إلا إذا قام أعداؤه بأعمال هدفها إيقاف ذلك التقدم ، كما لاحظنا فى حالة مصير الإسلام فى الأندلس وصقلية . وفى وقتنا الحاضر ، نجد أنه فى الكثير من بلاد أفريقية التى استقلت توضع سياساتٌ من شأنها الحد من قوة الإسلام وانتشاره واندفاعه ؛ لأن الحكومات الوطنية التى قامت فى معظم هذه البلاد مسيحية ، والسبب هو أن المستعمرين حرصوا فى أثناء استعمارهم على أن ينشروا المسيحية فى البلاد . ومع أنهم لم يكسبوا لها إلا أنصاراً قليلين نسبياً ، فإنهم وجهوا كل عنايتهم فى التعليم نحو الجماعات المسيحية ، فأتيح لأفرادها أن يظهر من بينهم ناسٌ متعلمون قادرون على القيام بأعباء الحكم ، وهؤلاء هم الذين يتولون الأمور فى معظم تلك البلاد . ومن الطبيعى ألا نجدهم حريصين على نشر الإسلام ، بل يغلب عليهم اتباع سياسات تعارض انتشاره بوضع الصعاب فى سبيل الدعاة له والحد من حركة انتقال الأفراد من مكان لمكان ، وهى حركة يرجع إليها الفضل فى انتشار الإسلام فى الكثير من نواحى أفريقية ، بل هناك عمليات عدائية صريحة يقوم بها بعض الرجال المسئولين فى تلك البلاد ، بتشجيع من مراكز المسيحية ، للإضرار بالجماعات الإسلامية . وذلك يتطلب من جماعات المسلمين فى الدنيا أن يواجهوا ذلك الخطر بما هو جدير به من الاهتمام والجد ، لأن الإسلام وإن كان قادرًا على نشر نفسه بنفسه فليس معنى ذلك أن نتركه لمصيره فى كل مكان ، وأن ندعه يتعرض لحملات شريرة قائمة على سياسات مرسومة بإحكام ، هدفها إضعاف الروح القومية فى البلاد التى استقلت حديثاً عن طريق إضعاف الإسلام فيها .

إن ذلك واجب على المسلمين ، ليس من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية الحضارية أيضاً لأن الإسلام ركن متين للحضارة البشرية وأساس لتقدم الجماعات الإنسانية . وما من بلد دخله الإسلام إلا بعث فيه روح التقدم والتحضر والنظام . ومن هنا كان العمل على إزالة العقبات من طريق الإسلام خدمة حضارية تسدى للإنسانية كلها ، وهو واجب على المسلمين ، بل هو أشرف واجباتهم كلها .

﴿ هُوَ الذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾ (الصف ــ آية ٩) .

الإسلام يخرج ظافراً من كل الأزمات الكبرى التى مرت به :

وليس أدل على قوة الإسلام الغلابة على الخير الذى يسديه لكل جماعة تدخل فيه ، من أن الجماعة الإسلامية الكبرى تعرضت طوال تاريخها لأزمات طاحنة كان بعضها كفيلا بأن يقضى على أمم وحضارات وأديان ، ولكن أمم الإسلام خرجت ظافرة من الأزمات التى مرت بها بفضل الإسلام وحده . وسنضرب لذلك مثلا واحداً يغنى عن كثير ، وهو تعرض الإسلام والأمم الإسلامية منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى إلى أواخر القرن الرابع عشر للميلادى لخطرين من أكبر ما تعرضت له الأمم والحضارات من أخطار ، وخرجت برغم ذلك ظافرة من الصراع الرهيب الذى دار بينها وبين عوامل الدمار والتخريب من ناحية وعوامل الكراهية والحقد والتعصب من ناحية أخرى ، ونقصد بذلك الخطر الصليبى والخطر المغولى اللذين اجتمعا على بلاد الإسلام فى عصر واحد تقريباً .

وقد كان الخطر الصليبى أول الخطرين ظهوراً ، فإن أمم النصرانية عدّت الإسلامَ من أول ظهوره وتوسعه فى أراضى الدولة البيزنطية عدوَّها الأكبر ، ونظرت إليه دائماً على أنه خطر يتهدد مصير المسيحية . فلم تكد أمم الغرب المسيحية تولد خلال القرن العاشر الميلادى ، وأحوالها تتحسن خلال القرن الحادى عشر ، حتى تنادت لحرب الإسلام . وبدأت الحرب فى شبه الجزيرة الأيبيرية ــ أقرب بلاد الإسلام إلى الغرب المسيحى ــ وانتهزت ممالك إسبانيا النصرانية وإماراتها فرصة انهيار خلافة بنى أمية القرطبيين سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣١ م ، فبدأت قواتها تزحف نحو الجنوب وتتحيف أطراف الأندلس الإسلامى . وانضمت إليها قوات الفرسان والمقاتلين من جنوبى فرنسا

وإيطاليا . وشجعتهم البابوية على الاتجاه نحو الأندلس للحرب التى وصفها البابوات بأنها مقدسة أو صليبية ؛ فاشتد الضغط على بلاد الإسلام وأعوزتها الوحدة والقيادة فى ذلك الظرف بسبب انقسام نواحيها بين ملوك الطوائف الذين كانوا قصار النظر ، فكانت النتيجة سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م . وكان ذلك نذيراً خطيرا بالمصير السيىء الذى أطل برأسه على الأندلس كله فى ذلك الحين . ولقد أقبل المرابطون بعد ذلك بقيادة يوسف بن تاشفين واستطاعوا فى سهل الزلاقة أن ينزلوا بقوات قشتالة وليون هزيمةً قاصمةً سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٦ م أوقفت التقدم النصرانى حيناً من الزمن . ولكن الضغط ما لبث أن تجدد ، لأن البابوية حولت الصراع فى الأندلس إلى حرب صليبية ، ودعت أمم النصرانية كلها للاشتراك فيها ، فاشتد الصراع فى الأندلس واتصلت المعركة بين الإسلام والنصرانية على أرضه .

وبينما كانت معركة الأندلس فى طريقها تزداد ضراوة يوماً بعد يوم دعت البابوية أمم المسيحية إلى القيام بحرب عامة على عالم الإسلام فى المشرق ، بقصد الاستيلاء على بيت المقدس وأرض المقدسات المسيحية ، كما زعم البابا أوربان (Urban) الثانى ورجاله . واستجاب للدعوة نفر من أمراء الغرب المسيحى ، وتجمعت معهم قوات كبيرة من الفرسان والمقاتلين ، وتفاهموا فى ذلك مع الجمهوريات الإيطالية التجارية والدولة البيزنطية . ومعنى هذا أن أوروبا الوسطى والغربية كلها أعلنت الحرب على الإسلام .

وفى خريف ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م دخلت قوات الصليبيين أراضى المسلمين من شمال الشام واستولت على أنطاكية واكتسحت أراضى الشام ، وفى شعبان ٤٩٢ هـ/يوليو ١٠٩٩ م اقتحم الصليبيون أسوار بيت المقدس وارتكبوا فيه فظائع كبرى ، حتى يقال إنهم قتلوا سبعين ألفاً . وعقب ذلك مباشرة أنشأوا أربع إمارات صليبية فى الشام وشمال غربى العراق . كل ذلك وجماعات المسلمين فى الشرق متفرقة مختلف أمرها ، لا يفكر أمير من أمرائها فى النهوض لحرب الغزاة المعتدين ، ولكن شعوب المسلمين أخذت تنادى حكوماتها بضرورة النهوض لملاقاة الأعداء واستنقاذ أراضى المسلمين ، وفى بغداد حاصرت الجماهير الخليفة العباسى وطالبته بالعمل على دعوة زعماء الإسلام للتجمع والنهوض ، وقام خطباء المساجد ورجال الدين فى عواصم الإسلام بالدعوة للنهوض ، وخرج « المطوِّعة » — وهم الذين نسميهم اليوم « بالفدائيين » — أفراداً وجماعات ، يحاربون العدو ويهاجمونه حيثما استطاعوا . وشيئاً

فشيئاً تنبه نفر من أمراء الموصل إلى ضرورة النهوض لمواجهة الأعداء . وبعد تمهيدات طويلة استطاع عماد الدين زنكى أمير الموصل وحلب النهوض لحرب الصليبيين واسترجع منهم إمارة الرها ، وهى واحدة من إماراتهم الأربع فى الشام ، سنة ٥٣٩ هـ/١٠٤٤ م وبعد ذلك النصر تحركت جماعات المسلمين للجهاد ، خصوصا بعد أن تولى زعامة المجاهدين نورُ الدين محمود بن عماد الدين زنكى الذى استطاع — بعد جهود متواصلة لتوحيد الصفوف ، وسنوات طويلة فى حرب مع قوات الصليبيين استمرت من سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م إلى ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م — أن يوحد الموصل وبلاد الشام ومصر ويجعل منها جبهة واحدة مقاتلة . وعندما توفى نور الدين فى شوال ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م ، ترك لصلاح الدين الأيوبى عامله على مصر الطريق ممهداً لكى يكمل الوحدة وييسر بها فى طريق النصر .

لقد أثبت صلاح الدين أنه أهل لهذه المهمة الكبرى ، فلم تحلّ سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م حتى كانت كل بلاد الإسلام — من العراق إلى برقة — تجمعت تحت لواء واحد . وبفضل الوحدة سار صلاح الدين فى أوائل ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م لملاقاة قوات الصليبيين فى معركة حاسمة ، وفى ربيع الثانى ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م كسبت رايات الإسلام نصرَ حِطِّين ، ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس منصوراً واسترده للإسلام . فكان ذلك إيذاناً بالنهاية الحقيقية لكل ما رمى إليه الصليبيون . فقد بدأت البلاد التى ملكوها تتحرر من أيديهم . وعندما مات صلاح الدين فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ/٤ مارس ١١٩٣ م كان الخطر الصليبى قد انتهى تقريباً ، لأن أمم الإسلام استيقظت ولم يعد من الممكن أن تنام مرة أخرى حتى يزول كل أثر للصليبيين فى الشام .

والمؤرخون لا يحدثوننا بما فيه الكفاية عن الجهد الذى قامت به جماهير المسلمين من أهل مصر والشام والعراق خلال تلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية . ولكننا رأينا أن الجماهير كانت هى التى نبَّهت أولى الأمر إلى ضرورة النهوض لمواجهة الخطر ، ولدينا أسماء الكثيرين من دعاة المسلمين الذين قضوا حياتهم متنقلين من بلد إلى بلد يخطبون فى المساجد وفى الأسواق داعين الناس إلى الجهاد ، وفى كل معركة من المعارك التى خاضها قادة التحرير العربى الإسلامى الذين ذكرناهم يحدثنا المؤرخون عن ألوف المتطوعين الذين كانوا يخرجون من بيوتهم ليجاهدوا فى سبيل

الله دون أجر بل دون نظر إلى أى مكافأة . وكان من أكبر الأسباب التى أدت إلى الحرب الصليبية الثانية جماعات الفدائيين المسلمين . وبخاصة التركمان الذين كانوا ينقضُّون على جيوش النصارى فيقتلون ويأسرون ، حتى تخلخلت صفوف الأعداء ودخل فى قلوبهم الرعب من المسلمين . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا جهود الجنود المجهولين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية ما تحقق النصر ولا استطاع القواد بقواتهم الرسمية كسرَ شوكة الصليبيين .

ويتجلى ذلك بوضوح فى أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى قادها الفارس الفرنسى جان دى برين Jean De Brienne على مصر ، ظنًّا منه أنه إذا استطاع القضاء على رأس القوة الإسلامية فى القاهرة تمكن الصليبيون بعد ذلك من احتلال الشام كله احتلالا أبديًّا . ففى هذه الحملة نجد أن السلطان العادل الأيوبى — الذى تصدى لمقاومة الخطر الصليبى هذه المرة — يفضل عدم مواجهة الأعداء ، ويتجه نحو محاولة صرفهم عن وجهتهم بالحيلة والمفاوضات ؛ وعندما نزل الصليبيون فى دمياط فى سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م بدا كأن المسلمين لن يستطيعوا الصمود . وتوفى الملك العادل فى أثناء ذلك ، فزاد الأمر اضطراباً ولكن جماهير المسلمين فى شمال مصر أسرعت للقاء العدو وبدأت معه المعركة وخلخلت صفوفه ، وتشجع الملك الكامل بن الملك العادل وسار لحربهم . ومع ذلك فقد اتجه إلى التفاوض معهم ، وكان مستعدًّا لتسليمهم بيت المقدس فى سبيل خروجهم من مصر . ولكن جماهير المصريين لجأت إلى قطع الجسور ، فغمرت المياه أرض الدلتا ، وتحرج الصليبيون ، وتشجع الملك الكامل ، فسار لحربهم ، وانتهى الأمر بانسحابهم من البلاد دون قيد أو شرط فى رجب ٦١٨ هـ/أغسطس ١٢٢١ م . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى جماهير أمة الإسلام التى لم تشأ أن تتراخى أو تتراجع .

أمام هذا الصمود لم تستطع حكومة الأيوبيين إلا الاستمرار فى الجهاد . وعندما حاول لويس التاسع ملك فرنسا تكرار محاولة جان دى برين بقيادة حملة صليبية على مصر ، هى الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م ، كان من الممكن أن يحقق ذلك الملكُ غرضَه ، لأن الملكَ الصالح الأيوبى مات أثناء القتال عند المنصورة شمال شرق مصر ، وأصبحت القوات الإسلامية بدون قيادة . ولكن جماهير المسلمين ثبتت فى الميدان وأعادت فتح الجسور لإغراق قوات الصليبيين ، فكانت النتيجة

انتصار القوات الإسلامية على الصليبيين ووقوع لويس التاسع أسيراً فى أيدى المسلمين سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م .

وقد بقيت بعد ذلك جيوب صليبية على ساحل الشام استطاع القضاء عليها سلاطين المماليك ، من أمثال الظاهر بيبرس والسلطان سيف الدين قلاوون الصالحى والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وعلى يد هذا الأخير استرجع المسلمون آخر حصن للصليبيين فى الشام ، وهو عكا التى استسلمت فى ٢٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ/مايو ١٢٩١ م ، وكانت تلك نهاية الخطر الصليبى على شرق العالم الإسلامى .

وقد حاول الصليبيون إعادة الكرَّة بالهجوم على تونس . فقاد الملك لويس التاسع حملة عليها سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م . ولكن رجال تونس وقوات الخليفة المستنصر بالله محمد الحفصى استطاعوا هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم ، وعلى أرض تونس مات الملك لويس التاسع فى المحرم ٦٦٩ هـ/أغسطس ١٢٧٠ م وانتهت الحملة الصليبية التى قادها . وبذلك حققت ألويةُ الإسلام النصرَ النهائىَّ فى معركة طويلة بدأت كما ذكرنا فى خريف ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وانتهت فى صيف ٦٦٩ هـ/١٢٧٠ م ، بعد ١٧٣ سنة من الصراع الرهيب المتصل . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى تجمع قوات المسلمين واتحاد شعوبهم لمواجهة الأعداء . حقيقةً قامت أوروبا المسيحية بتنظيم حملات صليبية أخرى ، ولكن الخطر الحقيقى كان قد زال .

وفى المراحل الأخيرة من الصراع بين المسلمين والصليبيين ظهر الخطر المغولى . وقد تعودنا أن ننظر إلى ذلك الخطر من زاوية صغيرة ، هى الخاصة بهجوم هولاكو على بغداد وإزالته الخلافةَ العباسية سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، ولكن الأمر يتطلب هنا نظراً أوسع ، لكى ندرك مدى الخطر الذى كان يتهدد الإسلام وأهله من ناحية المغول . فإن الذى عرفناه من قوة المغول وقدرتهم على التخريب لا يقاس إلى قوتهم الحقيقية وما كان لهم من أثر خطير عميق فى البلاد التى فتحوها فى آسيا وبعض نواحى شرق أوروبا . وعندما نأخذ فكرة ــ ولو تقريبية ــ عن مدى قوتهم وخطرهم نستطيع أن نتبين مقدار نعمة الله الذى كتب لجماعات المسلمين النجاة من خطر كان من الممكن أن يزيلها من الوجود . فلك جنكيزخان ــ وهو لقب معناه : سلطان المغول ، أما اسمه الحقيقى فهو : تيموجين بن باطور ــ كان أكبر

محارب مُجرَّب عرفه التاريخ . فقد اجتاح ، هو وابنه الأكبر أجداى ، فيما بين سنتى ١٢٠٦ و ١٢٤١ م ، بلاداً تبدأ عند سواحل الصين الشرقية ولا تنتهى إلا شمالى البحر الأسود فى أوروبا . وجحافل المغول هذه أزالت دولا كبرى فى الصين ووسط آسيا وشرق أوروبا . وعندما تولى ملكهم قوبلاى خان سنة ١٢٦٠ م نقل العاصمة من قرقورم إلى بكين ، وأنشأ إمبراطورية صينية جديدة هى المعروفة بدولة يوان التى امتد حكمها من ١٢٧٩ إلى ١٣٦٨ م .

هذه الدولة المغولية كانت منذ قيامها على يد جنكيز خان خطراً عظيماً يهدد بلاد الإسلام كلها . فقد كانت مطامع جنكيزخان تتجه أول الأمر نحو بلاد المسلمين طمعاً فيما كان يترامى إلى سمعه عن غناها وثراء بلادها ، ولهذا وجه نحوها معظم قواته . وفى سنة ١٢١٨ م اجتاحت جحافلة خوارزم ، وأزالت السلطنة الخوارزمية الإسلامية . وفيما بين سنتى ١٢١٩ م و ١٢٢١ م استولى المغول على بلاد التركستان ، أى ما وراء النهر ، وخربوا هواصم الإسلام هناك مثل بخارى وسمرقند وطشقند . ولولا أن جنكيزخان توفى سنة ١٢٢٧ م لاستمرت الغارة الخربة على بقية بلاد الإسلام بنفس العنف والقوة .

وقد هدأت العاصفةُ فترةً قصيرة من الوقت بعد وفاته ، إذْ وقع خلاف على وراثة العرش بين ابنه الأكبر شَغْتاى وابنه الثانى أُجْدَاى . وقد صار العرش إلى هذا الأخير — وهو الذى واصل نشاط المغول فى بلاد الروس حتى وصلت جيوشه إلى بحر البلطيق واجتاحت المجر — فى حين أن الجزء الأوسط من الإمبراطورية المغولية — وهو الذى يشمل بلاد التركستان وإيران — صار إلى شغتاى . وقد تأثر هو وأبناؤه بالإسلام ، وخفت حدة غاراتهم على بلاده . وجدير بالذكر أن دعاة المسيحية كانوا قد تسربوا إلى بلاط المغول فى بلدة قرقورم ، وعندما اجتمع زعماء المغول لاختيار خلف لأجداى بن جنكيزخان سنة ١٢٤١ م كان هناك مندوب بابوى ، وكان ذلك المندوب يجتهد فى أن يصير العرش إلى جويوك بن أجداى — وكان ذا ميول مسيحية — ولو أن ذلك تحقق لأصبح كل المغول بعد ذلك مسيحيين ، ولكنه توفى سنة ١٢٤٨ م ، قبل أن يستقر له الأمر وصار العرش إلى منجوخان بن تولوى بن جنكيزخان ، ولم يكن له ميل إلى المسيحية .

وقد اقتسم منجو إمبراطوريةَ المغول مع أخويه : قوبلاى ، الذى تولى حكم

الجناح الشرقي من الدولة ، وهولاكو الذي تولى الأمر في وسطها وغربها - وتجرد هولاكو للاستيلاء على بلاد الدولة العباسية وسار إليها في جحافله ، ودخل بغداد فدمرها تدميراً ذريعاً سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، وكان في بلاط هولاكو عدد كبير من القساوسة المسيحيين يحرضونه على القضاء على بلاد الإسلام قضاء تامًا ، تعززهم في ذلك إحدى زوجاته ، وكانت نصرانية .

وكانت جماعات المسلمين في كل مكان تهيب بسلطان المماليك سيف الدين قُطُز ، بالمسير لحرب المغول وردِّهم عن بلاد الإسلام ، بعد أن دخلوها وألحقوا بها خراباً شاملا - وقد تردد مماليك قطز ، وأدركهم الخوف ، ولكن الجماهير ظلت تضغط عليهم ، وخرج الألوفُ من المتطوعة من أهل بلاد الإسلام لحرب المغول حسبةً لله . وتحمس سيف الدين قطز ، وعندما رأى تقاعُسَ مماليكه قرر المسير بنفسه ، فلم يسع الآخرين إلا الخروج معه . وهكذا كُتب له أن يُنزل بالمغول هزيمةً قاصمة عند عين جالوت قرب بيسان في فلسطين في سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م ، وهي من المواقع الفاصلة في تاريخ البشر ، لأنها أنقذت حضارتي الإسلام والمسيحية من الدمار ، ولقد شعرت البابوية وبقايا الصليبيين بخيبة أمل لنصر المسلمين وانقطاع الرجاء في التحالف مع المغول عليهم .

ومع ذلك حاول الصليبيون الاتفاق مع أباقا الذي خلف هولاكو على عرش الدولة المغولية في إيران سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م ، لأن زوجته كانت مسيحية بيزنطية ، وحفزه القساوسة الذين كانوا في بلاطه على محاولة غزو بلاد الإسلام من جديد - فسار إلى الشام ، ودخل حلب وخرّبها . فنهض للقائه سيف الدين قلاوون سلطان مصر وأنزل بقوات المغول هزيمة ساحقة أخرى عند حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م . وفر أباقا إلى بغداد حيث توفى بعد قليل .

وخلف أباقا أخوه تكودار ، وكان مسيحياً ، ولكنه أسلم وتسمى بأحمد ورغب في إنشاء علاقات صداقة مع المسلمين ، أسوة بأبناء عمومته — مغول القبيلة الذهبية — وكانت دولتهم تشمل جنوب روسيا والقوقاز ، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام في عهد ملكهم بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان ، وكان معاصراً للسلطان بيبرس .

وقد ارتد أرغون ابن أخي تكودار أحمد عن الإسلام ، وبدأ الاستعداد لحرب بلاد المسلمين بتحريض زوجته النصرانية ، فأرسل سفيراً طاف ببلاد أوروبا لتحريض ملوكها على حرب المسلمين متحدين مع المغول ، واستمر هذا طوال حكم أرغون من ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م إلى ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م .

ولكن الإسلام عاد فانتصر ، لأن غالبية سكان دولة إيلخانات إيران كانوا مسلمين . فأسلم غازان ملكهم (٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م — ٧٠٤ هـ/١٢٠٤ م) وحسّن إسلامه ، وبذلك انقضى خطر المغول عن الإسلام .

من هنا نتبين أن الخطر المغولي كان أعظم بكثير مما نتصور عادة ، وأن الذى أوقف ذلك الخطر لم يكن انتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وحمص فحسب ، بل كان الإسلام هو الذى نصر نفسه بفضائله التى غزت قلوب المغول وبقوة شعوبه التى تمسكت به وحفزت السلاطين ورجال الدولة على الدفاع عن الإسلام الحنيف وبلاده .

وكان الذين حملوا دعوة الإسلام إلى أولئك المغول شيوخاً ودعاة نجهل أسماءهم ، لكنهم قاموا بعمل جليل عظيم لا يقل عن العمل الذى قام به أولئك الذين كسبوا انتصاريْ : عين جالوت وحمص ، بل إن المؤرخين يحدثوننا أنه فى أيام خانات المغول الكبار ، جنكيزخان وأوجوتاى ، كانت عاصمتهم قرقورم حافلةً بالمساجد إلى جانب الكنائس التى عمل على بنائها دعاةُ المسيحية المحترفون ، وكذلك معابد البوذيين الشامانيين ، وهذه المساجد — التى قامت فى قرقورم التى تقع فى وسط ما يعرف اليوم بجمهورية منغوليا الخارجية ، فى شمالى الصين على بعد آلاف الكيلومترات من دار الإسلام — إنما بناها شيوخ مخلصون للإسلام قاموا بعملهم مدفوعين بعاطفة دينية كريمة . وذلك يذكرنا بأولئك الدعاة المجهولين والصوفية المجاهدين الذين نشروا الإسلام فى أفريقية المدارية والاستوائية .

وهؤلاء الشيوخ والدعاة كانوا من أبناء أمة الإسلام ، تحركوا للقيام بذلك العمل الجليل بباعث من محبة الدين وبإخلاص يروع النفس ، لم تدفعهم إلى ذلك حكومة تقدم لهم أجراً ولا هيئات تيسّر ترعاهم وتنظمهم وتحميهم ، وإنما خرجوا محتسبين للدعوة لدين الله . وهم من صميم المجتمع الإسلامى ، مما يؤكد لك ما ذكرناه مرة بعد مرة فى هذا العرض من أن قوة الإسلام الحقيقية إنما تكمن فى قوة جماعاته .

ولدينا هنا مثالٌ يغنينا ذكره عن كثير : ففى بلاط قوبلاى خان منشىء دولة يوان الصينية التى ذكرناها ، وهى من أعاظم الدول فى تاريخ الصين الطويل ، كان يعمل عدد من الموظفين من أهل مقاطعة يون ـــ نان فى جنوب غربى الصين ، وكان حاكم هذه المقاطعة مسلما من أهل بخارى ، فمازال أولئك الموظفون يعملون مستعينين بالحاكم حتى استطاعوا أن ينشئوا فى تلك المقاطعة الواسعة جالية إسلامية ضخمة تمكنت من أن تحول المقاطعة كلها إلى بلد إسلامى ، ومنها امتد الإسلام إلى ما يجاورها من مقاطعات الصين الجنوبية والغربية . وهذا هو أصل جانب كبير من ذلك العدد العظيم من مسلمى الصين الذين لا يقل عددهم فى وقتنا الحاضر عن ستين مليوناً ، وإن كانت الإحصاءات الرسمية التى كانت تذاع تهبط بعددهم إلى عشرة ملايين ، وهو أمر لا يقبله العقل أو التصور .

وهكذا نرى كيف أن الخطرين : الصليبى والمغولى تعاصرا وحاولا أن يجتمعا على الإسلام للقضاء عليه ، ولكن الإسلام نجا من ذلك الخطر المحيط المزدوج ، وخرج بعد عشرات السنين من الكفاح المرير أقوى بنياناً وأوسع رقعة وأعز نفراً .

وهذا كله جدير بأن يذكره المسلمون ليعلموا أن الأزمات والأخطار ليست جديدة على الإسلام وأهله ، وأن انتصار الإسلام على الأعداء ، مهما كثر عددهم ، وخروجه مظفراً من الأزمات والأخطار مهما طالت ، إنما هو أمر عادى فى تاريخه ، لأن هذا الدين ـــ الذى ولد فى بيئة معادية له هى مكة ـــ لم يزل منذ ميلاده يغالب الأزمات ويقتحم المحن ويخرج مظفراً . وتلك آخر الأمر هى الحقيقة الأساسية فى وجود الإسلام ، وهى لباب تاريخه لأنه رمز على قوى الخير التى تصارع قوى الشر منذ خلق الله الخلق إلى أن يطوى الدنيا وما عليها .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (الصف ، آية ٨) .

الجماعـــات الإسلاميـــة فـى عالـــم اليـــوم :

فى ذلك الموجز ذكرنا الجماعات الإسلامية الرئيسية ، وهناك جماعات أخرى أقل عدداً لابد أن نشير إليها هنا ، وأعداد أفرادها تتراوح بين ستين مليوناً ـــ كما رأينا

فى كلامنا عن مسلمى غربى الصين — وعشرين مليوناً ، وهو العدد التقليدى للمسلمين فى روسيا ، ومليونين كما نجد فى يوغوسلافيا . ولا يخلو بلد من بلاد الدنيا من مسلمين ، فهناك عشرات الألوف فى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا . وهناك كذلك ألوف كثيرة من المسلمين فى بلاد أمريكا اللاتينية . ومع أنه من العسير علينا أن نأتى بإحصاء دقيق لأعداد المسلمين فى تلك البلاد اليوم فسنرى فيما يلى بعض الأرقام عن أعدادهم فى بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، لنعطى فكرة بسيطة عن أهمية تلك الجماعات . والأرقام التى نقدمها مأخوذة من إحصاء نشره الباحث الألمانى رولف رايخرت Rolf Reichert الأستاذ بجامعة باهيا فى شمال البرازيل ، وهو متخصص فى ذلك الموضوع وهذه الأرقام ترجع إلى إحصاء تم سنة ١٩٦٥ م وقد أسلم هذا الرجل وانتقل إلى المغرب وعاش فيه وتسمى باسم « ضياء الدين » ، ولابد أن عدد المسلمين قد زاد هناك من ذلك الحين إلى الآن :

الأرجنتين	١٤١٠٠٠	(مسلم)
بوليفيا	٩٠٠٠	(مسلم)
البرازيل	٢٤٢٠٠٠	(مسلم)
شيلى	٨٠٠٠	(مسلم)
إكوادور	٤٠٠٠	(مسلم)
كولومبيا	٥٩٠٠٠	(مسلم)
بيرو	١٩٠٠٠	(مسلم)
غيانا الهولندية	٦٨٠٠٠	(مسلم)
غيانا البريطانية	٨٠٠٠٠	(مسلم)

ويبلغ مجموع عدد المسلمين فى أمريكا اللاتينية كلها ٦٥٤٠٠٠ نسمة .

وفى بعض بلاد تلك القارة — مثل غيانا الهولندية — تزيد نسبة المسلمين على ربع السكان ، وفى غيانا البريطانية تبلغ نسبتهم ١٤,٦٪ ، وفى غيانا الفرنسية ١٢٪ ، ولم ندخل فى الحساب مسلمى جمهوريات أمريكا الوسطى وهم كثيرون .

ولم نتحدث أثناء ذلك عن مسلمى جمهوريات الاتحاد السوفييتى الإسلامية ، وهى أذربيجان وتركمانيا وأوزبكستان وقرغيز وطجيك ، وعدد سكانها لا يقل عن ستين مليوناً هم من خيرة المؤمنين ، وهذا الإحصاء تم فى سنة هذه الطبعة لكتابنا

هذا وهى سنة ١٩٨٨ م وفى بلادهم تقع عواصم الحضارة الإسلامية الكبرى المعروفة من أمثال بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها ذات الأثر البعيد فى تاريخ الإسلام ، ومن العسير جدا أن نحصل على إحصاء حقيقى لأعدادهم فى الوقت الحاضر ، ولكن الذى يمكن قوله هو أن التطور الاجتماعى والحضارى الذى يشمل بلاد الاتحاد السوفيتى منذ بداية رياسة ميخائيل جورباتشوف سنة ١٩٨٧ م لابد أن يشمل البلاد الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى كذلك . وعن قريب إن شاء الله يعود الإسلام إلى سابق قوته وازدهاره فى تلك البلاد وتتلاشى — كما ينبغى — لعنة الشيوعية الكافرة التى لم تعد بالخير إلا على الروس أنفسهم .. كان هذا الخير سياسيا عسكريا فحسب ، أما حضاريا وإنسانيا فإن الشيوعية كان لها أسوأ الأثر على الشعب الروسى الذى اشتهر دائما بخصبه الحضارى وتفوقه فى معظم ميادين الإبداع العلمى والثقافى والحضارى .

ويمكننا أن نقول — بوجه عام — إن كل الإحصائيات التى تنشر فى الغرب عن أعداد المسلمين غير صحيحة . وهناك تعمد معروف للإقلال من عدد المسلمين وتكثير عدد النصارى فى كثير من بلاد الدنيا ، وبخاصة فى بلاد أفريقية ، وذلك لأسباب سياسية معروفة لا تخفى على أحد . ولو أنك نظرت فى أية دائرة معارف كبرى وبحثت عن عدد المسلمين لوجدت أن الرقم الذى تقدمه لا يتجاوز ٤٠٠ مليون ، فى حين أعلن السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى العالمى فى أكتوبر ١٩٦٩ م أن عدد المسلمين فى الدنيا يصل إلى ٧٠٠ مليون ، وذلك تقدير معقول .

وبين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تقارب وتشابه يبرران استعمالنا لمصطلح « العالم الإسلامى » ، فالحقيقة أن المسلمين — على اختلاف أوطانهم — يكوّنون عالماً خاصاً بهم له خصائصه الاجتماعية والخلقية والمسلم إذا حل فى أى بلد إسلامى أحس فى الحال بأنه بين أهله ، ووجد نظاما اجتماعياً مألوفا لديه وقانونا أخلاقياً سائداً ليس غريبا عليه .

والسبب فى ذلك التقارب الأخلاقى والاجتماعى هو أن كل مظاهر حياة المسلمين قائمة على الإسلام ومستمدة من شريعته . فسواء كان المسلم صينياً من أهل يون — نان ، أو هندياً من أهل نيودلهى ، أو عربياً من أهل جزيرة العرب ، وسواء تكلم

بالعربية أو لم يتكلم بها ، فهو مشترك مع بقية المسلمين فى نظرته للحياة واتجاهه نحو المعنويات دون الماديات وأخذه بشريعة الإسلام واعتباره محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — مثلا أعلى للإنسان فى خلقه وتصرفه فى شئون الدنيا والدين .

أما ما تعرفه من خلاف أهل السنة والشيعة الذى يبالغ خصوم الإسلام فى توسيع شقته فهو خلاف سياسى عاطفى . فنقطة الخلاف الرئيسية بين السنة والشيعة هى مسألة مَنْ يلى الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ، وذلك الخلاف لا يدور حول ركن من أركان الإسلام أو عقيدة من عقائده ، لأن أهل السنة والشيعة جميعاً متفقون تمام الاتفاق على تلك العقائد ، أما مسألة الخلافة فقد جاءت بعد الرسول ﷺ ، ولا نجد عنها فى القرآن والسنة شيئاً يمكن التعويل عليه ، وكل تنظيمها وشروط من يليها اجتهاد من الصحابة والفقهاء . ثم إن الخلافة نفسها معطلةٌ فى وقتنا الحاضر ، ومن ثَمَّ فإن أساسَ الخلاف بين السنة والشيعة منقطع من هذه الناحية أما ما نرى الآن من خلاف بين شيعة آية الله الخمينى ومن معه من الآيات من ناحية وأهل السنة من العرب خاصة فهو خلاف تستطيع أن تصفه بأنه شخصى ، لأن آية الله الخمينى يحقد على العرب والسنة ، وهو يجتهد فى تصفية هذا الحقد بالحرب على العرب ولأهل السنة وحماس الكثيرين من أهل إيران له ، حماس وقتى لا يلبث أن يزول . فإن فى إيران نفسها أهل سنة كثيرين جدا ، وفى البلاد العربية أعداد غفيرة من الشيعة ، وقد عاش هؤلاء وهؤلاء قرونا متطاولة متواطنين متآخين ، فإذا جاء اليوم الخمينيون وتصوروا أنهم متغلبون على العرب ومذلوهم تحت ستار الشيعة فهذا وهم دون شك ، وسيرون فى النهاية أنهم مخطئون وعندما تنتهى الحرب الراهنة ، ويتأكد الخمينيون أنه لا سبيل لهم فى الحياة إلا بالأخوة مع العرب ، سينتهى كل شىء ويعود الصفاء .

هناك بطبيعة الحال فرق إسلامية بعيدة كل البعد عن أساسيات الإسلام ، لكنها فى الحقيقة فرق شاذة ، محدودة العدد غير قابلة للنمو ، ويرجع شذوذها إلى أن الذين أنشئوها لم يفهموا الإسلام ، وأرادوا أن يدخلوا فيه حاملين عقائدهم الأولى مع إعطائها ظاهرًا إسلاميًّا من القول بالشهادتين . ومادامت هذه الجماعات مقفلة على أصحابها فنحن أحرياء ألاَّ نبالغ فى تقدير خطرها . وهى قد تحولت مع الزمن إلى

روابط ومصالح اجتماعية واقتصادية بين أفرادها .

والإسلام — كما قلنا — يتمثل فى أوضح صوره فى جماعته قبل أن يتمثل فى شكل النظام السياسى الذى يحكم هذه الجماعات . والجماعة الإسلامية مركزها المسجد ، فهو فى أصله ليس مجرد مُصَلّى فحسب ، بل هو مكان اجتماع للمسلمين أيضا ومركز دراسة وعلم وإعلام ورابطة حقيقية بين الناس ، ومحكمة وملاذ للمسلمين فى أوقات الشدة ، ومن هنا فإن وجود المسجد أساسى بالنسبة للجماعة . فالجماعة الإسلامية ، التى لها مسجد أو مساجد ، جماعة متماسكة مترابطة ذات كيان وقوة ومستقبل ، والجماعة الإسلامية التى لا مسجد لها مصيرها إلى الزوال .

ومن ثَمَّ فإن واجب المسلمين الأول هو أن يكون لكل جماعة إسلامية — مهما انحل عدد أفرادها — مسجد ، ويرتبط بالمسجد الإمام ، وهو الذى يحيى الشعائر ويطبق قواعد الشرع ، ويعمل على جمع شتات الناس ويبصِّرهم بشئونهم الدينية ، ويزيدهم معرفة وإحساساً بأخلاقيات الإسلام وبأهمية العمل على حفظ الجماعة الإسلامية الكبرى وتقدمها .

ومن ثم فإن جانباً كبيراً من مستقبل الجماعة الإسلامية على الأرض يتوقف على تكوين الأئمة القادرين على القيام بهذه المهام الكبرى بين الجماعات الإسلامية ، ولابد لهذا من إعدادهم إعداداً دينيًّا وخلقيًّا وعلميًّا وإنسانيًّا ومعاصراً لأن الكثيرين من أولئك الأئمة يعدون للعمل على أسس ماضية وأساليب انقضى زمانها ، فهم يعيشون فى الماضى . فإذا خطبوا خاطبوا أجيالا ماضية ، ولم يكن لهم فى أهل الحاضر أى أثر ، وإن معظمهم لا يعرفون لغة غير العربية وهذا أمر مؤسف لأن صراعنا فى العصر الحاضر قائم مع أمم غير عربية ؛ فكيف نواجهها ونحن لا نعرف لغة أهلها ، لأننا ينبغى أن نذكر أنهم سيعملون فى القرن الحادى والعشرين بكل حضارته ولغاته وتكنولوجيته وعلومه ، وبكل خيره وشره وأخطاره كذلك .

خلاصـــــــة :

إن أهم النقط التى تناولها الكلام فيما تقدم هى أن الإسلام ولد فى مكة عندما

نزل الوحي على الرسول ﷺ بأول آيات القرآن ، وكان طبيعياً أن يعمل الرسول ﷺ على إنشاء جماعة للمسلمين التي تؤمن بمبادىء الإسلام وتسير على هدى القرآن وتعمل على نشر العقيدة بين غيرها من الجماعات . غير أن إنشاء هذه الجماعة على النحو الذى يمكنها من القيام بهذه الواجبات لم يتم إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة .

وقد عمل الرسول ﷺ على إنشاء الجماعة فى أول يوم نزل فيه المدينة معتمداً على نواة المؤمنين الذين كانوا قد سبقوه بالهجرة إلى المدينة واستقروا فيها ، ومعتمداً كذلك على النقباء الذين كان قد تم اختيارهم قبيل بيعة العقبة الثانية ، واتخذ ﷺ خطوات إيجابية نحو إعطاء الجماعة الإسلامية هيئتها وقوتها ، فاستحدث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم ابتنى مسجده ليكون المركز الدينى والاجتماعى للجماعة . ثم أنشأ حجراته فى ركن المسجد ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسى للجماعة .

وبعد ذلك مباشرة ، وضع ــ بالتفاهم مع صحابته ــ دستوراً للمدينة يتمثل فى الكتاب الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ومن أراد التعاون مع أمة الإسلام من يهود المدينة . وقد كُتب هذا الدستور على مراحل ، وسنفصل فى فصل خاص من كتابنا هذا كيف تم ذلك . وعلى طول حياته ﷺ كان إيمانه بالجماعة شديداً ، بتنظيم أمورها وتوجيهها فى الطريق السليم الذى يمكّنها من أن تكون جماعة حية قوية قادرة على تنظيم أمورها بحسب مبادىء الإسلام وشريعته وقانونه الأخلاقى ، وقادرة كذلك على الدفاع عن الإسلام ومدّ رواقه خارج حدودها ، أى على توسيع نطاق الجماعة نفسها .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وعندما تولى أبو بكر بدأت معالم الإطار السياسى والعسكرى للدولة الإسلامية فى الظهور على يديه . وجاء عمر بن الخطاب فأكمل ذلك العمل بفضل ملكاته كقائد قادر على توجيه الجماعة فى الطريق الصحيح . فأكمل الإطار الإدارى للدولة ووضع لها أول نظام مالى عرفته ، وثبّت أصول القانون الخلقى الذى يحكم الوظائف العامة ومن يتولونها ، وأحكم الروابط التى تربط الجماعة بالهيئة الحاكمة ، وسار بالمسلمين الخطوات الأولى فى ظل إمبراطورية واسعة عامة لكل البشر .

وفى أيام أبى بكر وعمر كانت الجماعة والدولة شيئاً واحداً ، بسبب سير الاثنتين — الجماعة والدولة — على قانون خلقى واحد والتزامهما مبادىء الإسلام . ولكن أيام عثمان شهدت بدء الانفصال بين الجانبين ، لأن بعض تصرفاته لم تعجب نفراً من أهل الرأى فى الجماعة فنقدوها ، ثم اتسع نطاق النقد وأصبح احتجاجاً ثم تمرداً ، وأدى ذلك إلى وقوع الحرب الأهلية التى انتهت بقيام نظام سياسى هو الدولة الأموية التى فرضت على الناس بالقوة والحيلة . فأنكر الناس الشكل الدستورى لذلك النظام الجديد ، ورفضوا طريقته فى الوصول إلى الحكم . وبدأ الانفصال بين الأمة والحكومة ، وأخذ البون بينهما يتسع ، ومن ذلك الزمان نجد أمامنا دائماً فى كل من المجتمعات الإسلامية كيانين — أحدهما متميز عن الآخر — هما : « الجماعة » و « الدولة » . فإذا كانت الدولة صالحة متبعة شريعة الإسلام وأخلاقياته تطابق الكيانان ، وإذا كانت غير صالحة ظهر الانفصال بينها وبين الجماعة .

لهذا فقد تعودت الجماعات الإسلامية أن تنظم نفسها بنفسها دون الاعتماد الكبير على الحكومة : فالمساجد والتعليم والمواصلات والعناية بالمحتاجين وإعداد الفقهاء وأهل العلم ، كل ذلك كان من اختصاصات الأمة ، أما الحكومة فاقتصر عملها على الحماية الخارجية وصيانة الأمن داخل الجماعة ، على درجات متفاوتة من التوفيق فى ذلك والتاريخ الحقيقى للأمة هو تاريخ الجماعات التى تكونت منها ، وإلى جماهير المسلمين يرجع الفضل فى بقاء الإسلام قوياً عزيزاً وفى توسيع رقعته بإدخال شعوب أخرى فيه .

لقد انتشر الإسلام عن طريق الفتوح العسكرية والدعوة السلمية . أما الفتوح فلم تنشر الإسلام بصورة مباشرة ، وإنما فتحت له الباب فقط ، وترك الفاتحون أهل البلد المفتوح أحراراً ليتعرفوا إلى الإسلام ويتبينوا فضائله ويدخلوا فيه ، لأن النظرية الإسلامية فى هذا الصدد كانت تصدر عن الآية الكريمة : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ** ﴾(البقرة ، آية ٢٥٦) .

ومن هنا نستطيع القول إن الإسلام نشر نفسه بنفسه واتسع مجاله بقوته الذاتية وفضائله . وعلى طول تاريخ المسلمين نجد أن الأمة هى أساس الوجود الإسلامى ، وأن الأمة هى العنصر الدائم الثابت فى حين أن الدولة ونظمها متغيرة وغير ثابتة .

وفى ختام هذا البيان المجمَل لتكوين الجماعات الإسلامية ونظمها السياسية ، قررنا أن الجماعة الإسلامية الحقة مجتمع رجال أحرار ، وأن قوتها تعتمد على حرية أفرادها وتمتع كل منهم بحقوقه وقيامه بواجباته .

ومن الواضح أن قيام الإنسان بواجباته نحو المجتمع الذى يعيش فيه متوقف دائماً على النصيب الذى يناله من الحقوق ، فالجماعة التى ينال أفرادها حقوقهم ويتمتعون فيها بحرياتهم المشروعة جماعة نشيطة يقوم أفرادها بأداء واجباتهم حيالها من دفاع وخدمة صادقة .

ثم تتبعنا بعد ذلك انتشار الإسلام فى الدنيا ، بادئين بانتشاره فى الشرق وفتحه إيران وأفغانستان ووصوله إلى الهند وتركستان أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية . ووقفنا وقفة قصيرة عند نتائج فتح إيران وما يليها شرقا بالنسبة لتكوين الجماعة الإسلامية ، وقلنا إنها لم تعد عربية وإنما إسلامية عامة يشترك فيها أعضاؤها من المسلمين عرباً كانوا أو غير عرب .

وتتبعنا انتشار الإسلام فى المغرب فى العصر نفسه حتى وصوله إلى ساحل الأطلسى ، ثم فتح الأندلس وجنوبى فرنسا وبداية تحول شبه الجزيرة الأيبرية إلى بلاد إسلامية .

واستطردنا بعد ذلك إلى الكلام على انتشار الإسلام فى أفريقية المدار والاستوائية ، على يد المرابطين المجاهدين أولا ، ثم على يد جماعات الصوفية والتجا والدعاة بعد ذلك .

وعُدنا إلى تتبع سير الإسلام شرقاً فى الهند وبلاد الترك حتى داخل الصين وذكرنا أهم الدول التركية التى أسهمت فى ذلك مثل الغزنويين والغوريين والمغو المعروفين بالتيموريين ، وتتبعنا انتشار الإسلام فى بلاد الملايو وإندونيسيا والفلبين

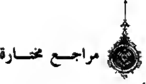
وبيّنا بعد ذلك أن سير الإسلام وتقدمه لم يتوقف منذ زمن الرسول ﷺ إلى اليوم ، فهو دائماً فى اتساع وزيادة ، سواء فى عصور القوة أو عصور الضعف ، وهو فى وقتنا الحاضر مازال يسير إلى الإمام . ولم يفقد الإسلام فى سيره الطويل إلا قطرين هما : الأندلس وصقلية ، وكان لكل منهما ظروف خاصة أدت إلى ذلك .

وقد تعرضت أمم الإسلام فى تاريخها لأزمات وأخطار كثيرة متلاحقة ، ولكنها خرجت منها منصورة بفضل قوة الإسلام نفسه وسلامة مبادئه وحيوية تشريعه وقانونه الخلقى ، ثم بفضل تمسك جماهير المسلمين بدينهم . وضربنا مثلا على مغالبة الإسلام للشدائد وخروجه منها سليماً بما حدث من أواخر القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين من اجتماع الخطر الصليبى والخطر المغولى عليه . وكان أى خطر من هذين الخطرين كفيلا بإزالة عالم الإسلام من الوجود ، ولكن الإسلام وأممه بقيت للأسباب التى ذكرناها .

وألقينا أخيراً نظرة عامة على جماعات الإسلام فى أوروبا والأمريكتين ، وذكرنا أن الإسلام ما زال ينتشر فى كل اتجاه ، برغم أن سياسات بعض الأمم الناشئة فى أفريقية تضع عراقيل فى سبيل انتشاره ، ولا بد من إزالة هذه العراقيل حتى يستمر سير الإسلام فى تلك القارة ، ولا بد — كخطوة أولى لذلك — من تقوية الجماعات الإسلامية المتناثرة فى العالم ، بتوجيهها إلى تنظيم أنفسها وتوثيق الروابط بين أفرادها ، ومعاونتها على إنشاء المساجد لها وإعداد الأئمة والقادة القادرين على حمل مسئولياتها ، وعلى حمايتها من الضعف والانكماش ، وعلى فتح طريق التوسع أمامها .







مراجـــع مختـــارة

الأصـول القديمـة :

لا يستغنى الباحث فى تاريخ الإسلام عن النظر فى التاريخ المطول الذى كتبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣ م) وعنوانه « تاريخ الرسل والملوك » (بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم) ، عدة أجزاء ابتداء من ١٩٦٠ م بالقاهرة . وأحسن المراجع فى السيرة النبوية الكريمة : « سيرة النبى » لأبى محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م) فى أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٤٥) ، و « كتاب المغازى » لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٨ هـ/٨٢٢ م) بتحقيق مارسدن جونز MARSDEN JONES ، القاهرة وكمبردج سنة ١٩٦٧ فى ثلاثة أجزاء .

أما الأقل استفاضةً من تاريخ الطبرى فهو كتاب التاريخ الذى ألفه على بن أبى الكرم أحمد بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٨ م) المسمى : « الكامل فى التاريخ » ، وهو — إلى جانب اختصاره — يستمر فى رواية الحوادث إلى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد طبع فى بولاق بالقاهرة ١٨٣١ ، وطبع بعد ذلك مراراً دون تحقيق علمى . ولهذا فما زالت أحسن طبعة له هى التى قام بها المستشرق تورنبرج TORENBERG فى مدينة أوبسالا فى السويد .

وهناك مختصرات جيدة تعد من الأصول فى تاريخ دول الإسلام أهمها : كتاب « التاريخ » لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبى (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) ، وهو معاصر للطبرى تقريباً ، ويمتاز بالدقة وتحرى الصدق . وقد نشره المستشرق الهولندى هوتسما HOUTSMA فى ليدن بهولندا سنة ١٨٨٣ محقَّقاً ، وعلى أساس هذه الطبعة طبع مراراً فى البلاد العربية ، وكتاب « المختصر فى

أخبار البشر » لأبي الفدا إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة (ت ٧٣٣ هـ/١٣٣١ م) ، القاهرة ١٨٩٧ ؛ وطبع بعد ذلك مراراً .

ويلي ذلك مختصران أصغر حجماً ولكنهما يمتازان بالدقة والمعرفة الصحيحة :

أولهما كتاب « الفخري في الآداب السلطانية » لمحمد بن علي طباطبا الذي يسمى أيضاً بابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ/١٣٠٩ م) ، وقد طبع في القاهرة طبعة جيدة سنة ١٩٢٧ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مراراً .

والثاني « تاريخ الخلفاء » لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) وطبعاته كثيرة في كل البلاد العربية .

ويدخل في زمرة هذه الأصول كتابان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) :

الأول « فتوح البلدان » ، وهو يتتبع قيام جماعة الإسلام ودولته واتساعهما حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، مع فصول أساسية مجملة عن بعض نواحي النظم الإسلامية : كالدواوين والنقود .

والثاني هو « أنساب الأشراف » ، وهو كتاب تراجم واسع ، ولكن مجلده الأول الذي نشره محمد حميد الله في القاهرة سنة ١٩٥٩ يدور كله حول السيرة النبوية الكريمة ويترجم للكثيرين ممن عاصروا النبي ﷺ ، سواء أكانوا أنصاراً أم خصوماً للإسلام . وللكتاب أجزاء أخرى لم تطبع بعد ، وهو من ذخائر المكتبة العربية التاريخية . وإذا كان كتاب « فتوح البلدان » يؤرخ للجماعة الإسلامية أفقياً — أي يتتبع امتدادها واتساع نطاقها — فإن أنساب الأشراف يؤرخ لها رأسياً بالتعمق في حياة الرجال .

وفيما يتصل بتراجم الرجال والنساء ، أي تواريخ حياتهم ، فلدينا : كتاب « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد (ت ٢٢٠ هـ/٨٧٥ م) ، وهو مجموع ممتاز من تراجم الصحابة والتابعين مصدرة بترجمة وافية مطولة للرسول ﷺ . وهو من المراجع الأساسية في تاريخ الجماعة الإسلامية ، وقد طبع الآن طبعة كاملة في بيروت سنة ١٩٥٨ . ولدينا ثلاثة مؤلفات أخرى في تراجم الصحابة وهي :

- « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » لابن الأثير الذى ذكرناه ، ط . القاهرة ١٨٦٣ .

- الإصابة فى معرفة الصحابة » لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ/١٤٤٩ م ، ط . القاهرة ١٩١٠ .

- « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى الأندلسى (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) ، وقد طبع فى حيدر آباد سنة ١٩٤٠ .

وبالنسبة لتراجم غير الصحابة والتابعين ، لدينا أربعة كتب فى التراجم يكمل بعضها بعضاً ، فتعطينا سجلا حافلا بالشخصيات الظاهرة فى تاريخ الجماعة الإسلامية إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى :

- « وفيات الأعيان » لشمس الدين أبى العباس أحمد بن خلكان (ت ٦٨١ هـ/١٢٨١ م) ، نشره محيى الدين عبد الحميد فى أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٨ .

- « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبى ، القاهرة ١٩٥٢ .

- « الوافى بالوفيات » لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، طبع أجزاء منه المستشرق هلموت ريتر H. RITTER ، الآستانة سنة ١٩٣١ .

- « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) ، طبع منه مجلد واحد فى القاهرة سنة ١٩٦٢ .

وأهم الأصول القديمة فى تاريخ النظم الإسلامية كتاب « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) ، وهو كتاب رئيسى فى نظم الدولة الإسلامية وإدارتها . ويليه فى هذا المضمار كتاب « الخراج » لأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة (ت ١٩٢ هـ/٨٠٧ - ٨٠٨ م) ، وهو كتاب صغير حافل بالمعلومات والآراء عن النظرية السياسية للدولة الإسلامية على عهد العباسيين ، وكذلك عن الشئون المالية للدولة .

ولابد للإحاطة بالنظم الإسلامية من دراسة مقدمة بن خلدون ، وهو عبد الرحمن

ابن محمد الحضرمى (ت ٨٠٨/١٤٠٦) وقد طبعت مراراً .

ولكى يأخذ القارىء فكرة عن اتساع الدولة الإسلامية فى أوجها ، وترابط جماعاتها وما امتازت به أقاليمها ، لابد من الرجوع لكتب الجغرافية العربية ، ونخص منها بالذكر هنا كتاباً واحداً هو « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن البناء البشارى المقدسى (ت ٣٨٨ هـ/٩٧٧ م) ، وقد نشره المستشرق الهولندى دى جويه De Goeje بمدينة ليدن بهولندة ، ١٩٠٦ ، وأعيد طبعه بالأوفسيت .

ويكمل هذه الصورةَ بعضُ كتب الموسوعيين الذين كتبوا كتباً شاملة هى أشبه بالموسوعات عن عالم الإسلام وما فيه من أمم وشعوب وما اختلط فيه من حضارات ، وأحسن نموذج لذلك كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وكتاب « التنبيه والإشراف » ، وكلاهما من مؤلفات أبى الحسن على المسعودى (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م) . وقد طبع الأول مع ترجمة فرنسية فى باريس بين سنتى ١٨٦١ و ١٨٧٧ . أما الثانى فقد طبعه المستشرق دى جويه فى ليدن سنة ١٨٩٣ ، وطبع فى القاهرة ١٩٣٨ .

مؤلفـــات حديثـــة :

أما الكتب العربية التى ألفت فى العصور الحديثة ، فمن أحسن ما بين أيدينا منها كتاب « محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية » للشيخ محمد الخضرى (القاهرة ١٩١٥ فى جزءين) ، وهو يؤرخ للإسلام على طريقة متوسطة بين القديم والحديث . ولهذا فإن له أهمية خاصة .

ويلى ذلك كتاب حسن إبراهيم حسن المسمى : « تاريخ الإسلام السياسى » ، ويقع فى ثلاثة أجزاء تصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى ، وهو سجل حافل بالحوادث يرويها بطريقة سهلة بسيطة ، ويضيف فى كل جزء فصولا عن الأحزاب السياسية والمذاهب والفرق الدينية ونظرات فى الأحوال الاقتصادية ، وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة مرات عديدة ابتداء من سنة ١٩٣٥ بالقاهرة .

ولدينا فى تاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية كتب ممتازةٌ لعبد العزيز الدورى

مثل : « مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام » الذى صدر أولا سنة ١٩٤٩ وأعيد طبعه فى بيروت ١٩٦٠ . و « العصر العباسى الأول » (١٩٤٥) ، و « دراسات فى العصور العباسية المتأخرة » ، بغداد ١٩٤٥ ، و « تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » (١٩٤٨) وكتاب « النظم الإسلامية » (١٩٥٠) .

وكذلك كتاب أحمد الصالح العلى فى التاريخ الإسلامى العام : « محاضرات فى تاريخ العرب » ، طبع مراراً فى بغداد .

ويضاف إلى هذه الكتب كتاب محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، وطبعاته كثيرة ، وهو سيرة نبوية تمتاز بأسلوب أدبى ونظرة شخصية دون تعمق فى دراسة أصول السيرة .

على أن كتابين لطه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان » و « على وبنوه » يمتازان بالأصالة وعمق النظرة التاريخية . وهما من أحسن ما لدينا عن الفتنة الأولى التى مهدت الطريق لنهاية عصر الخلفاء الراشدين .

ومن أكثر الكتب الحديثة توفيقاً فى هذا المجال مجموعة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » لأحمد أمين ، وهى كتب ممتازة تلقى ضوءًا ساطعاً على الحياة الاجتماعية والفكرية فى عالم الإسلام .

وفيما يتعلق باتساع دولة الإسلام شرقاً وغرباً لدينا الكتب التالية :

ـ أحمد الساداتى : « تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم » جزءان (القاهرة ١٩٥٧ — ١٩٥٩) .

ـ حسن إبراهيم حسن : « انتشار الإسلام والعروبة فى الصحراء الكبرى وشرق القارة الأفريقية وغربها » (القاهرة ١٩٥٧) .

ـ حسن أحمد محمود : « انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية » ، القاهرة ١٩٥٨ .

ـ حسين مؤنس : « فتح العرب للمغرب » (القاهرة ١٩٤٨) ، و « فجر الأندلس » (القاهرة ١٩٥٩) ، وفيهما دراسة لاتساع دولة الإسلام غرباً .

ـ شكرى فيصل : « قيام المجتمعات الإسلامية » ، طبع فى دمشق مرتين .

– عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدولة الإسلامية فى غرب أفريقية » (القاهرة ١٩٦٤) .
– عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدول الإسلامية فى شرق أفريقية » (القاهرة ١٩٦٥) .
– ف . بارتولد F. BARTOLD : « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٣) .

ومن بين الكتب الجيدة التى ترجمت إلى العربية بعد كتاب « تاريخ العرب » لفيليب حتى ، من أحسن الموجزات فى تاريخ دول الإسلام حتى نهاية عصر المماليك ، وكتاب « الدعوة الإسلامية » لتوماس أرنولد THOMAS ARNOLD ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، (القاهرة ١٩٤٧) ، وكتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » تأليف آدم ميتز ADAM METZ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهرة ١٩٤٧) ، وقد أعيد طبعه بعد ذلك ، وهو من الكتب الأساسية التى لابد أن يطلع عليها كل دارس لتاريخ الحضارة الإسلامية . وقد ترجم أبو ريدة أيضاً « تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » (القاهرة ١٩٥٨) ، وهو من تأليف المستشرق الألمانى يوليوس فلهاوزن JULIUS WELLHAUSEN ، وهو من أهم ما ألف فى تاريخ الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموى .

والمراجع عن الحروب الصليبية كثيرة نكتفى بأن نذكر منها هنا :
– حسين مؤنس : « نور الدين محمود » ، القاهرة ١٩٦٢ .
– سعيد عبد الفتاح عاشور : « الحركة الصليبية » ، فى مجلدين ، القاهرة ١٩٦٣ .
– عمر كمال توفيق : « مقدمات العدوان الصليبى » ، الإسكندرية ١٩٦٦ .
– محمد محمد العروسى المطوى : « الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب » ، تونس ١٩٥٤ .

وعن الخطر المغولى لدينا كتاب السيد الباز العرينى : « تاريخ المغول » .
ولكن أوفى الكتب عن موضوع المغول إلى الآن هو :
HOWARTH (HENRY) History Of Mongols, 3 Vols.

وقد نشر أول مرة سنة ١٨٨٨ ، وأعيد طبعه مراراً بعد ذلك .

GROUSSET (René) : Les Empires Des Steppes, Paris 1928 .

أما الكتب غير العربية التى ألفت عن قيام الإسلام وجماعته وانتشاره فى العالم فكثيرة جدًّا ، تختلف حظوظها من الجودة والإنصاف . ويندر أن يخلو كتاب منها مما لا يرضى عنه القارىء العربى أو المسلم ، بل مما قد يسوؤه . ولكن ينبغى أن نذكر أن مؤلفيها يكتبون هذه الكتب لقرائهم لا لنا ، ومن ثم فهم لا يراعون ما يرضينا ومالا يرضينا . وهم يكتبون من وجهة نظرهم أو من وجهات نظر شعوبهم ، وهذه تختلف فى الغالب عن وجهات نظرنا . ثم إن هذه هى طرائقهم فى التفكير والتأليف ، حتى عن أنفسهم وجماعاتهم وعقائدهم . فهم ينقدون كل شيء ، والكثيرون منهم لا يراعون إحساس الآخرين فيما يكتبون . وهم ليسوا عرباً حتى يكتبوا عن شعور عربى ، ولا مسلمين حتى يصدروا عن قلوب مسلمة . وليس من الحكمة أن نمسك عن قراءة ما يكتبون ، لأن واجبنا نحو الإسلام والعروبة يطالبنا بأن نقرأ كل ما يكتب عنا وأن نناقشه ونساجل أصحابه فكرة بفكرة ورأياً برأى ، ولو كانوا أشد الناس تعصباً علينا . ولا ننسَ آخرَ الأمر أن فى الكثير من هذه الكتب علمًا غزيرًا وفهمًا جديدًا ومنهجًا علميًّا سليمًا نقتبسه وأسلوبا محكمًا فى الكتابة نهتدى به .

وإليك طائفة من أحسن ما ألف فى موضوع هذا الفصل من الكتب :

ABEL, ARMAND : Le Monde Arabe et Musulman , Bruxelles 1960 .

ALLWORTH, EDWARD : Central Asia, A century Of Russian Rule, 1967

BAMMATE, HAIDAR : Visages De l'Islam, Lausanne 1958 .

BERQUE, JACQUES : Les musulmans D'hier à Demain, 1960 .

CARDET, LOUIS : La Cité Musulmane, Paris 1954 .

COLES, P. : The Ottoman Impact on Europe, 1968 .

CONTWELL SMITH, WILFRED : Islam In Modern History . New York, 1957

DANIEL, N .A . : Islam, Europe And Empire, 1966 .

MONTEIL , VINCENT : Les Arabes, Paris 1957 .

MONTEIL , VINCENT : Les Musulmans Soviétiques, Paris 1957 .

MUIR, SIR WILLIAM : The Caliphate, Its Rise, Decline And Fall, Edinburgh 1924.

NUTTING, ANTHONY : The Arabs . New York , 1966 .

PLANHOL , XAVIER DE : Le Monde Islamique , Essai De Geographie Religieuse , 1957 .

RICE , T . T : The Saljuks In Asia Minor , London 1966 .

RONDOT , P . : L'Islam Et Les Musulmans D'aujourd'hui , 1958 .

SAUNDERS , JOHN L . : The Muslim World On The Eve Of European Expantion , New York 1970 .

STEWART , D . : The Arab World , London 1968 .

SYKES , PERCY : A History Of Persia , 3d . ED . London 1948 .

VILLIERS , A . : Sons Of Sinbad , 1955 .



الفصل الثالث

الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة





توثيـــق الصحيفـــة

أورد فى هذا الفصل عن الجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة نص الصحيفة التى كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه « يهود » . وقد أوردته مع دراسة موجزة لكى يطلع القارىء على البدايات القانونية والإنسانية والشورية لأمة الإسلام . وهذه فيما أحسب كانت أول مرة تلقى فيها الوثيقة هذه العناية ، لأن أصحاب كتب الأحاديث من صحاح ومسانيد لم يوردوا النص الكامل لهذه الوثيقة . وبعضهم أهملها تماما مكتفيا بإشارة بسيطة إليها ، كنا نظن أن الوحيد الذى أورد نصها كاملا هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى ، فقد أخذ نصها مكتوباً من الإمام موسى الكاظم الذى ورثها عن جده على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وهو الذى كان قد كتب نصوص أجزائها عند كتابتها عقب الاتفاق عليها واحتفظ بها فى قراب سيفه وورثها عنه أولاده وأحفاده .

ووجود نص واحد كامل للصحيفة فتح الباب أمام بعض المؤرخين ليشككوا فى أصالة هذه الصحيفة مع وضوح أصالتها وأهميتها بالنسبة لتطور الفكر الإسلامى والجماعة الإسلامية .

وقد عثرنا بعد ذلك على نص آخر كامل للوثيقة . ونص ابن إسحاق الذى أورده ابن هشام مع بعض التعديلات مروى عن زياد بن عبد الله البكائى الذى نقل نص ابن إسحاق كاملا ، ولكننا عثرنا أخيراً على نص كامل للوثيقة يطابق النص الذى أورده البكائى وهذا النص الثانى أورده بن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد بن جناب أبو الوليد ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحـوه . وهذا النص مع ذلك الإسناد أورده فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد .

ابن سيد الناس الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ في سيرته لرسول الله ﷺ المسماة « عيون الأثر في فنون المغازى والشمايل ، والسير » (طبعة دار الجيل ببيروت) ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٨) .

وأعتقد أن وجود نصين كاملين متطابقين للصحيفة يكفي لإثبات أصالتها . وإليك إلى جانب ذلك ما أورده عن نص الوثيقة الدكتور محمد حميد الله في كتابه « الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة » الطبعة الثالثة دار الارشاد بيروت ١٩٦٩ عن نصوص كاملة أو غير كاملة للصحيفة رآها هو ، وأنا أوردها هنا على عهدته . وهو رجل أهل لكل ثقة .

مراجع النص الكامل :

ابن هشام ج ٢ ص ٣٤١ — ٣٤٢

ابن إسحاق (القطعة التي عثرنا عليها من نصه) ورقة ١٠١ أبو عبيد القاسم ابن سلام ، كتاب الأموال ص٥١٧

ابن سعد ، الطبقات (نص جزئي)

ابن زنجويه (كتاب الأموال مخطوطة بوردور في تركيا ، عن الزهرى ورقة ٧٠ ف — ٧١ ف (نص جزئي) .

عمر الموصلي ، وسيلة المتعبدين ، ج ٨ ، ورقة ٣٢ ف ، عن ابن إسحاق (نص جزئي) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٢٤/٣٠ — ٢٢٦ (نص جزئي) .

وانظر عند محمد حميد الله عن النصوص والكفايات الخاصة بالوثيقة بغير العربية ص ٣٩ — ٤١

وفي سنة ١٩٧٨ نشر Rabert Bertram Serjeant أحسن دراسة عن هذه الصحيفة إلى الآن وعنوانها : The Sunna Jãmica , Facts With The Yathrib Jews And The Tahrim Of Yathrib : Analysis and Translation Of The Documents Cmprisad In The So - Called Constatution Of Medina

وقد نشرها في : The Bullatin Of The School Of Orientad And African Utudies University of London Vol XII Part I , 1978 10 - 1 - 42

وهي دراسة مستقصاة وجيدة جدا لهذه الوثيقة وأظن أن هذا كله يكفي لإقناع القارىء بأصالة هذه الصحيفة التي تشهد كل القرائن بصحتها ، بل إن أسلوبها في رأى الدكتور طه حسين من أوائل النصوص النثرية في اللغة العربية (خارج القرآن

الكريم) ونحن معنيون بنص هذه الصحيفة لأنه يرينا الأصول التاريخية والقانونية والدستورية للأمة الإسلامية . وهذا أساس بالنسبة لمن يدرس تاريخ أمة الإسلام .

تمهيـــــد :

وصل محمد ﷺ إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة (٢٤ سبتمبر ٦٢٢)[1] . وكانت المدينة عند وصوله سهلا فسيحاً صخرى التربة ، ولكن مياه الأمطار والسيول المتوالية وعوامل التعرية الأخرى فتت تربته فى وسطه ، وخطّت فيها مجارى ووديان ضحلة ، تحمل فى الخريف والشتاء مياهاً كثيرة تفيض فى السهل ، فتحولت التربة البازلتية مع الزمن إلى أرض خصبة ، وحفل باطن الأرض بالماء . وسهل على الناس العثور على الماء فى مواضع كثيرة من السهل ، فانتشرت الزروع فى وسطه ، أما جانباه الشرقى والغربى فقد ظلا هضبتين صخريتين قليلتى الارتفاع تعرفان بالحَرَّتين أو اللابَتَيْن[2] .

وأقدمُ من نعرف ممن عمر هذا السهل بطون من شعب قُضاعة القديم ، وكانت قضاعة شعباً كبيراً سكن الجزيرة قبل الميلاد بنحو عشرة آلاف سنة . وكانت جزيرة العرب كلها إذ ذاك أرضاً كثيرة الأعشاب وافرة المياه والأشجار والزروع ، فعاشت فيها شعوب ضخمة أهمها قضاعة هذه وطيىء ولخم والأزد وغيرها . ثم أخذت الأمطار تقل والخضرة تتلاشى ، فلم يعد وسط الجزيرة وشمالها بقادرين على حمل الشعوب الكبيرة ، فبدأت هذه تتفكك ، وتحولت إلى قطع قبائلية صغيرة ، ولم يبق على تماسكه إلا قبائل جنوب الجزيرة ، حيث ظلت المياه وافرة فى حضر موت واليمن ، وتوالت هناك دول القتبانيين والسبأيين والحميريين الذين شمل سلطانهم وسط شبه الجزيرة أيضاً .

---

(١) هذا هو التاريخ التقليدى الشائع لوصول الرسول ﷺ إلى قباء ، ولكن المؤرخين غير متفقين عليه . فهناك من يقولون إن الوصول كان فى الثامن من ربيع الأول ، وهناك تواريخ أخرى . ويلاحظ أن ١٢ ربيع الأول هو أيضاً تاريخ مولد الرسول ﷺ ، وهناك اتجاه عند الكثيرين من المؤرخين إلى وضع الكثير من حوادث السيرة فى ذلك اليوم من شهر ربيع الأول تيمنا ببركته .

(٢) مفرد الحَرَّتين حَرَّة . وكانت الحرة الشرقية تسمى حرة واقم والحرة الغربية تسمى حرة الوَبَرة . أما لفظ لابة فيفهم من النصوص أن معناه الأرض الصخرية المرتفعة ، فهي والحرة شيء واحد .

ومن هذه الشعوب التى تفككت قضاعة ، فأصبحت أوزاعاً منتشرة فى نواحى شبه الجزيرة . ومن فروعها الكبار التى بقيت بنو بلى بن الحاف (الحافى) ابن قضاعة ، فهؤلاء استقر كثيرون منهم فى نواح من شمال شبه الجزيرة وغربها ، ونزل منهم فريق فى سهل المدينة وزرعوا وتمولوا . ثم نزلت حول المدينة فيما بعد قبائل مهاجرة من جنوبى فلسطين ، فيها الكثير من اليهود ، فاستقرت فى أجزاء من الجانب الشرقى من سهل المدينة ، وتكاثرت فيه وسادت بعض أجزائه بكثرة رجالها وبمهارتهم فى الصنائع والحرف والزراعة ، واشتد النزاع بينهم وبين القضاعيين المتفوقين .

ثم نازعتهم السيادة فى السهل قبائل شديدة المراس ، معظمها مهاجرة من الجنوب ، وأهمها الأوس والخزرج ، استطاعوا أن يغلبوا اليهود والقضاعيين ويسودوا معظم السهل ، ويبدو أنهم تحالفوا أول الأمر مع القضاعيين ، فلما أصبحت لهم السيادة أنكروا فضلهم واستخدموهم فى فلاحة الأرض . أما اليهود فظلوا محافظين على مواقعهم فى السهل ، فحصنوها بحصون كبيرة تسمى الآطام ، وهى عبارة عن أسوار عالية من الصخر تضم مساحة كبيرة وفيرة الماء ، فتلجأ إليها القبيلة ساعة الخطر . وفى العادة يكون للأُطُم أبواب ضخمة وتقوم بداخله بعض الأبنية للسكن ، وتقوم على السور أبراج للحراسة . وعن اليهود أخذ الأوس والخزرج الآطام ، فأصبح لكل فرع من فروعهم أطمه الخاص به فى وسط الجزء الذى سكنه من السهل .

المدينة قبل هجرة النبى ﷺ إليها :

ولم يوفق الأوس والخزرج إلى وضع نظام لحكومة السهل ، فعاشتا فيه مجموعتين قبليتين متجاورتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى ، ونشب النزاع بينهما ، فكثرت الحروب وتعددت الوقائع . وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس ، وكانوا كذلك أكثر أرضاً ومالا . ولكن الأوس كانوا ذوى شوكة وضراوة فى الحرب مكنت لهم من الاحتفاظ بمكانهم برغم قلة عددهم . وقد استعانوا باليهود فى صراعهم مع الخزرج ، وكان اليهود يرحبون بذلك ويعملون على توسيع شقة الخلاف بين الجانبين ، ويجتهدون فى تأييد الأوس ما أمكنهم ذلك . ولم يمنعهم هذا من الوقوف من الجانبين موقف العداء إذا اقتضت مصالحهم ذلك .

تلك هى عناصر السكان الأربعة (القضاعيون والخزرج والأوس واليهود) التى كانت تعمر سهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها . وينبغى أن نقرر أنها بطبيعة تكوينها كانت عاجزة عن الانتفاع بالسهل كما ينبغى ، ونتيجة لذلك عجزت عن الانتفاع برجالها وملكاتهم على نحو قريب مما كان المكيون يصنعون فى بلدهم . فكانت مساحات واسعة من السهل متروكة هملاً دون زراعة ، بل دون تمهيد . وكانت الوديان الجافة التى أشرنا إليها تشكل عقبات حقيقية فى اتصال أجزاء البلد بعضها ببعض دون أن يستطيع المدنيون إقامة قنطرة أو معبر .

وكان اتصال المدينة بطريق التجارة المار غربها عسيراً ، فلم يكن ذلك الاتصال ممكناً إلا من ناحية الشمال الغربى فحسب ، أما من الغرب فقد كان الاتصال بطريق التجارة غير ممكن بسبب مرتفعات وعرة لا يخترقها طريق ممهد يسمح بمرور القوافل . أما من ناحية الجنوب — ناحية قباء ضاحية للمدينة الجنوبية — فكانت هناك رمال سائلة لا يسهل على القوافل قطعها . فكانت هذه المدينة — التى تقع على بعد كيلومترات يسيرة شرق طريق من أكبر طرق التجارة العالمية — منقطعة تقريباً عن ذلك الطريق ، وكأنها تقع على مسافة شاسعة منه ، ومن ثَمَّ فلم تستطع أن تستفيد منه ، فى حين نجح المكيون فى أن يجعلوه مورداً رئيسيًّا لثروتهم ، يدر عليهم أرزاقاً طائلة ويجعل لمدينتهم مركزاً سياسيًّا كبيراً فى الحجاز بل فى جزيرة العرب . ومن المعروف أن مكة — بفضل حسن استغلالها لطريق التجارة — كانت قد أصبحت من أزهر مدن الدنيا وأغناها خلال القرن السادس الميلادى ، وهو القرن الذى سبق مجىء الإسلام .

والسبب الرئيسى فى قلة توفيق المدنيين فى الاستفادة من سهلهم أو من موقعه الجغرافى ، هو أن عناصرهم السكانية كانت متخالفة متدابرة . فكانت القاعدة القضاعية حاقدة على اليهود والأوس والخزرج جميعاً ، بسبب استغلالهم إياها وعجز أفرادها عن إقامة كيان قبلى مستقل لهم يستطيع الثبات فى وجه الطوائف الثلاث السائدة . وكان فريق منهم قد اختلط بالأوس ، ونشأ عن ذلك فرع منهم يعد من أقوى فروعهم ، وهم بنو سماك بن عتيك الذين منهم أُسَيْد بن حُضَيْر الصحابى الباسل المعروف ، ولكن ذلك الاختلاط بالأوس لم يرفع مكانة القضاعيين فظلوا على وضعهم الذى ذكرناه ، فى أسفل السلم الاجتماعى فى سهل المدينة .

وكان اليهود موزعين فى ثلاث مجموعات قبلية رئيسية هى : بنو قُرَيْظة وبنو قَيْنُقاع وبنو النضير . وكانت هناك مجموعات يهودية صغيرة أخرى تعيش فى حلف فروع من الأوس أو الخزرج ، فيقال : يهود بنى عوف ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جُشَم وغير ذلك . وقد أورد المؤرخون أسماء الكثير من فروع اليهود الصغيرة هذه . وسنجد عدداً منها مذكوراً فى الوثيقة التى كتبها الرسول ﷺ بين أهل المدينة ، وسنتكلم عنها . وكان بعض كبار اليهود يعيشون فى آطام خاصة بهم ، كأنهم سادة إقطاعيون : مثل كعب بن الأشرف الذى روعه انتصار المسلمين فى بدر ، فمضى يؤلب الناس عليهم ويحذرهم من امتداد الإسلام . وقد قتل هذا الرجل بعد موقعة بدر بقليل .

وكان سهلُ المدينة كله يسمى : المدينة ، وهى كلمة معربة من اللفظ السريانى « مدينتا » ويراد به البلدُ وحوزُه ، أى المساحة التى يمتد عليها سلطانة . وفى سهل المدينة هذا قامت النواحى المأهولة كأنها واحات متناثرة ، مثل قُباء ويثرب والسُّنْح وسَلْع وبُعَاث ، وكان بين المواضع العامرة مساحات من أرض خلاء مهملة لا يسكنها أو يفيد منها أحد .

وكان العداء بين الأوس والخزرج مستمرًّا وشديداً ، ولم يكن سبب الخلاف هو التنازع على السيادة ، فقد كانت لكل منهما مناطقه التى ينشر عليها سيادته ، ولم يكن من عادة القبائل العربية أن تحاول إحداها السيادة على الأخرى فى مجالها ، وإنما كان النزاع يقوم على مصادر الماء والواحات خارج منازل القبائل ، لأن الماء كان أساس الحياة والثروة . وفى حالة الأوس والخزرج كانت العداوة نتيجة للخوف : خوف كل منهما من الأخرى ، وخوفهما معاً من اليهود ، ثم خوف أهل المدينة جميعاً من الأعداء الخارجيين . وهذا الخوف ينشأ عادة من قلة التفاهم أو انعدامه بين الجماعات البشرية المتجاورة فى مكان محدود .

الظروف المباشرة التى مهدت لهجرة النبى ﷺ :

. فى مثل هذه الظروف تشتد حاجة المجتمعات إلى الأمان ، ويتمثل الأمان فى صورة نظام عادل يتراضى عليه الناس ويطمئنون إليه ، يقوم عليه شخص أو أكثر من ذوى الحكمة والعدالة والشخصية القوية ، فيكون هذا الشخص ـ أو الأشخاص ـ

ضماناً لتنفيذ ذلك النظام عن طريق سلطان منظم ، ومن الممكن أيضاً أن يتمثل الأمان فى صورة شخص قوى ذى فضيلة وقوة يفرض نفسه ويخضع له الناس ، فيتولى الحكم فيهم ويقيم النظام وينشر الأمان . وكان الأوس والخزرج يبحثون — دون وعى منهم — عن ذلك الأمان والطريق إليه .

أما اليهود فكانوا فى انتظار المسيح الذى يرون فى مذهبهم الدينى أنه قادم يوما من الأيام لينصرهم على العالمين . وكانوا يؤكدون لغيرهم أن ذلك المسيح المخلّص قادم لا محالة ، وكانت لهم فيه شروط معقدة يزعم أحبارهم أنهم يعرفونها . وعندما ظهر السيد المسيح فى فلسطين أنكروه وكذبوه ، لأنه فى رأيهم لم يستوف الشروط التى يعرفونها . وكان اليهود فى المدينة يؤكدون لغيرهم أن هذا المسيح إذا ظهر فسيعتزون به على غيرهم ويبلغون به السيادة ، وكان ذلك يثير مخاوف الأوس والخزرج وغيرهم من سكان سهل المدينة .

وعندما كانت الشدة قد بلغت بمحمد ﷺ مبلغها فى مكة بعد موت أبى طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها — مما اضطره إلى الخروج إلى الطائف سنة ٦١٩ م ، يبحث فيها عن الاستجابة التى لم يجدها فى مكة — كان الأوس والخزرج قد التقوا فى معركة دامية عند بُعاث انتصر فيها الأوس انتصاراً كبيراً ، فزادت مخاوف الخزرج ، فبعثوا فى العام التالى (٦٢٠ م) رسلا إلى مكة يلتمسون المحالفة والمساعدة من أهلها . وما إن سمع محمد ﷺ نبأ قدوم هذا الوفد حتى قصد إليه ليعرض عليه الإسلام — وكان محمد ﷺ مجتهداً أشد الاجتهاد فى أداء رسالته ، لا يدع فرصة لإبلاغ الدعوة إلا ابتدرها دون أن يعرف الملل سبيلا إلى قلبه — غير أنه لم يجد عند رجال هذا الوفد قبولا ، لأنهم كانوا مشغولين بخوفهم الشديد من الأوس .

وهذه المحاولة من جانب محمد ﷺ تضع يدنا على نقطة البداية فى اتصاله بالمدينة ، ذلك الاتصال الذى أدى إلى الهجرة ثم إلى قيام الجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة . وخطوات الاتصالات بينه وبين أهل المدينة بعد ذلك معروفة ، فبعد عام من اتصاله بوفد الخزرج اتصل (فى آخر سنة ٦٢٠ م) بوفد من الأوس ، فلقى عندهم قبولا ، ووعدوه بأن يبلّغوا قومهم وينشروا الدعوة بينهم ويلقَوْهُ فى بحر عام ليعقدوا معه اتفاقاً ثابتاً . فأرسل معهم مندوباً من طرفه هو مُصْعَب بن عمير ، لكى يعمل على نشر الإسلام بينهم ويدرس الأحوال فى المدينة عن كثب .

قلنا : « ليعقدوا معه اتفاقاً » ، والآن نسأل : ما أساس هذا الاتفاق ؟ والجواب الذى يقدمه لنا مؤرخو السيرة النبوية هو أن أساس الاتفاق كان دخول أهل المدينة فى الإسلام ، وتعهدهم بحماية الدين والرسول المبشّر به . وهذا صحيح ، ولكن هذه كانت مطالب محمد ﷺ ، فماذا كانت مطالب أهل المدينة ، والجواب أنهم كانوا يرجون الأمان ، إذ توسم فيه الفريقان — الأوس والخزرج — القدرة على أن يكون واسطة خير وتفاهم بينهم ، وأحسوا فى أثناء حديثهم معه أنه الرجل المرتجى القادر على التأليف بين قلوبهم وجمع كلمتهم على مبادىء الدين السامى الذى شرحه لهم . وأدركوا — منذ الوهلة الأولى — أن هذا الدين فى الحقيقة رسالة سماوية تشبه تلك التى كان اليهود يتحدثون عنها ويهددون بها غيرهم .

وكان من أظهر صفات الرسول ﷺ أن إخلاصه كان ظاهراً فى كلامه ، وأنه كانت له شخصية غلابة قادرة على إقناع من يكلمه بصدق ما يقول ، إلا إذا كان ذلك الغير مصراً على الإنكار متمسكاً بمصالح شخصية أو قبلية يخشى ضياعها .

والمهم لدينا الآن أن أهل المدينة الذين اتصلوا بمحمد وتفاهموا معه اقتنعوا بصدقه فيما أبلغهم به من نبوته . فمالوا إلى الدخول فى دعوته وتأييده . وكما كانت المدينة فى ذلك الحين محطًا لآمال الرسول ﷺ فى إنشاء الجماعة الإسلامية وهى الخطوة الأولى لتثبيت أقدام الإسلام على الأرض . فكذلك تمثلت رئاسة محمد ﷺ لأهل المدينة حلا لمشكلتهم الكبرى ، وهى الأمان . وكان السبيل إلى ذلك الأمان هو الاجتماع على الإسلام الذى بشرهم به الرسول ﷺ . وقد تطابق المطلبان — مطلب محمد ومطلب أهل المدينة — تطابقاً تامًا يعد من أسعد مصادفات التاريخ . ولهذا دخل أهل المدينة جميعاً — عدا غالبية اليهود — فى الدين الجديد ونظامه ، وأطاعوا محمداً ﷺ بالفعل قبل قدومه عليهم .

وقد ظهر ذلك بوضوح فى « بيعة العقبة الثانية » التى يُفهم منها أن ممثلى الأوس والخزرج اعترفوا بمحمد ﷺ رئيساً لجماعة المدينة كلها ، وإن لم ينص على ذلك صراحة ، ويؤيد هذا الفرض ما نعرفه من دخول عدد عظيم من أهل المدينة فى الإسلام ، قبل هجرة محمد ﷺ إليها . وكان خروج أهل المدينة للقائه — عندما وصل إليهم — اعترافاً منهم بقيادته لهم .

الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية فى المدينة :

إذن فقد كانت المهمة الأولى أمام محمد ﷺ عند استقراره فى المدينة وبدئه العمل هى إنشاء جماعة منظمة آمنة فى ذلك البلد . وكان الإسلام هو المدخل لقيام الجماعة ، فهو يتضمن عقيدة سماوية سامية كفيلة بأن تجمع قلوب الناس حول لواء واحد ، ويتضمن مثلاً أعلى وعروة وثقى تحفز الناس للعمل وتفيض فى قلوبهم الشعور بالأمن ، ويتضمن كذلك شريعة فاضلة متكاملة تضمن الحقوق داخل الجماعة ، وقانوناً أخلاقيا يرتفع بالناس عن فوضى المنازعات الدائمة ويحمى الجماعة من عدوان الكبار على الصغار ، والأقوياء على الضعفاء ، ويحيط أموال الناس وأشخاصهم بسياج قانونى لا غنى عنه فى مجتمع مستقر منظم . وهناك — إلى جانب ذلك كله — الرجل الكفيل بتحقيق هذه الآمال كلها وتطبيقها فى الواقع ، وهو رسول الله ﷺ ، الذى اختاره الله رسولاً إلى الناس كافة لكى ينشىء الجماعة الإسلامية فى الأرض ووهبه الملكات والخصائص الكفيلة بتمكينه من القيام بذلك العمل العظيم .

وقد بدأ محمد فى إنشاء هذه الجماعة فى الأيام الأولى لوصوله إلى قباء ، فقد خفّ إليه كبار رجال المدينة وأخذوا يجتمعون معه ليتشاوروا ، واجتمع معه المهاجرون ، وكان عدد منهم قد سكن قباء ، وتفرق الباقون فى نواحى المدينة . وكانت نواة تكوين الجماعة أولئك المهاجرين ومعهم نقباء أهل المدينة الاثنا عشر الذين انتخبوا ليلة بيعة العقبة الثانية .

ومجرد تفكير محمد ﷺ فى أن يطلب إلى أهل المدينة الذين قابلوه فى مكة فى اجتماع العقبة الثانية انتخابَ أولئك النقباء ليشتركوا معه فى تدبير أمر الجماعة المقبلة ، يعطينا فكرة عن تصوره ﷺ لتكوين الجماعة الإسلامية ، فهى جماعة رجال مؤمنين أحرار يتشاورون ويدبرون أمورهم معًا ، ومحمد ﷺ فى وسطهم يرشدهم إلى الطريق السوى ، ويوجههم إلى ما فيه خير الجماعة كلها ، وهو لا يقطع دونهم أمراً ، فيما عدا ما يتصل بالشريعة والعقيدة ، فهذه يتلقاها من الله ويبلغهم إياها ويوضحها لهم ويقوم فيها مقام القدوة التى يتبعها الناس .

وانتقل محمد ﷺ إلى وسط المدينة ، واستقر رأيه على المقام فى منازل بنى عدى ابن النجار الخزرجيين . والخزرج كانوا مغلوبين على أمرهم منذ يوم بُعاث ، فاختيار

محمد ﷺ للإقامة فى حى من أحيائهم تقوية لجانبهم وعزاء لهم عن هزيمتهم ، وكان لابد — نتيجة لهذا — من أن ينسوها . أما ما يقال من أنه نزل فيهم لأنهم كانوا أخواله ، فأمر مستبعد ، لأن أخوال محمد قرشيون ، وربما جاز ذلك القول على أساس زواج هاشم بن عبد مناف جد النبى ﷺ من سلمى بنت عمرو التى يقال إنها كانت من بنى عَدِىّ بن النجار ، وكانت من كبريات نساء المدينة . ولكن ذلك مستبعد أيضاً ، لأن محمداً عندما كان ينشىء جماعة على أساس من الإسلام ، ما كان ليقيم وزناً فى قراراته السياسية للقرابة من أى نوع كان .

نزل محمد ﷺ فى دار أبى أيوب الأنصارى ، وكان أبو أيوب من أوساط الخزرجيين ، لا هو بالغنى ذى الجاه ولا هو بالفقير المجهول ، ولو أن رجلا غير محمد ﷺ تولى رياسة المدينة منذ أيام قليلة لأقام فى دار لأحد كبار أهل المدينة ، لأن ذلك كان يضفى مظهراً من الجاه له أهميته . ولكن الجماعة التى كان يعمل على إنشائها كانت جماعة أوساط ، وفى حياة محمد ﷺ كلها كان هؤلاء مع الأوساط ، ومنهم كان معظم رجاله ومعاونيه ومستشاريه . ولقد كان أبو أيوب رجلا من عامة الناس عندما نزل محمد ﷺ فى بيته ، ولكنه — عندما توفى قرب أسوار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ/٦٧٢ م أثناء إحدى الحملات التى كان معاوية بن أبى سفيان يرسلها للجهاد فى أراضى الدولة البيزنطية — كان قد أصبح رجلا شهيراً له مكانه فى تاريخ الإسلام ، وقد أقيم على قبره جامع عظيم تعاقب خلفاء آل عثمان وأمراؤهم وكبار رجال دولتهم على تجميله والزيادة فيه ، حتى أصبح من أجمل المساجد العثمانية ، وفى هذا المسجد كانت تتم مراسم تتويج خلفاء العثمانيين بتقليدهم السيف ، بل أصبح المسجد من الآثار الطريفة فى الدنيا التى يتحدث عنها الرحالة وأهل الأدب فى كتبهم . وقد تحدث عنه بيير لوتى PIERRE LOTI الأديب الفرنسى الشهير ويحيى حقى الأديب المصرى المعروف . وهذا الذى بلغه أبو أيوب من الكرامة إنما هو مثال من آثار « لمسة الإسلام » لقلب رجل مخلص صادق من الأوساط .

إنشاء مسجد الرسول ﷺ وأهميته فى بناء الجماعة :

وكانت الخطوة الأولى لإنشاء الجماعة هى بناء المسجد ، والمساجد كما قلنا هى رموز الجماعات الإسلامية ومراكزها ،وهذا يتجلى بكل وضوح فى إنشاء مسجد

الرسول ﷺ في المدينة ، فقد أنشأه في وسطها تقريباً ، ولم يجعله مصلى فحسب ، بل جعله أيضاً مركزاً لتدبير شئون الجماعة ومكاناً لالتقاء أفرادها ، وفي ركن من صحنه الواسع أقام محمدٌ حجراته التي أقام فيها بقية حياته . وفي الطرف الشمالي للجامع أنشأ العريش الذي كان يُعيِّن ناحية القبلة ، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصُّفَّة ، وهي سقفٌ أو ظُلَّةٌ مقامة بعرض الجدار ، تحملها جذوع نخل ليجلس تحتها « أهل الصُّفَّة » وهم ، كما تذكر كتب السيرة والتاريخ ، نفر من الفقراء أحبوا أن يقضوا حياتهم قرب مسجد الرسول ﷺ للقيام بخدمته والتعبد فيه ، ولكن عندما نقرأ أسماء أهل الصفة نجد الكثيرين منهم لا ينطبق عليهم وصف الفقراء ، ويبعد أن يكونوا قد عاشوا من صدقات الناس . فقد كان فيهم أبو ذر الغفاري ، وأبو ذر لا يمكن أن يكون قد عاش على صدقات الآخرين ، وفيهم عمار بن ياسر وخَبّاب ابن الأرتّ وصُهيب الرومي ، وهم من الصحابة القدماء . وكانت لهم بيوتهم المعروفة ، ومن هنا فلابد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد ووظيفة بالنسبة للمسجد وبالنسبة للرسول ﷺ ، ولنذكر هنا أن نفرًا من أهل الصفة كانوا دائماً في خدمة الرسول ﷺ ، يقومون له وللمسجد بأعمال لا يستغنى عنها .

إذن فقد كان قيام المسجد إيذاناً لقيام الجماعة ، فإلى جانب وظيفته الرئيسية كمكان للصلاة كان مجمع المسلمين ودار ندوتهم . وهناك يسمعون أخبار جماعتهم وما تحققه من تقدم وما يحيط بها من ظروف وما كانت تقوم به من نشاط ديني وسياسي وعسكري واسع . هناك كان يقيم محمد ﷺ ، رأس الجماعة وقائدها ، وكان رجلا نشيطاً قلما يركن للراحة ، فهو دائماً في حركة : نجده إما غازيا في غزوة من مغازيه أو زائرا الناس أو طائفا بنواحي المدينة . وقليلة هي الأوقات التي يقضيها ساكناً يتحدث مع أصحابه خارج غرفه ، والأخبار التي تصوره جالساً ساعات متوالية والناس من حوله يسألونه فيجيبهم غير حقيقية ، لأنه كان ينفر من الدعة ، وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم فبالقدر المناسب فقط ، وكان من صفاته الكبرى عندما يجتمع والناس الإنصات وحسن الاستماع . وكان يستوعب المهم مما يسمع ، سواء أكان جالساً في بيته أم خارجه أم في طريقه إلى الغزوات ، وكانت عادته أن يدع الآخرين يتحدثون وأن يطيل التفكير فيما يسمع ولا يتكلم إلا عن روية .

ولم تكن إدارته لشئون الجماعة قائمة على أوامر يصدرها ، بل على القدوة الصالحة

التى كان يضربها ، فقد كان نادراً ما يصدر أمراً . ولقد حكى خادمه أنس بن مالك أنه ﷺ لم يرفع صوته فى خطابه معه قط ، ولا ترك الغضب يستولى عليه مهما أخطأ خدمه ومعاونوه ، ولم يرفع يداً على خادم أو مولى قط . ولقد كان المنافقون من خصوم الإسلام يرتكبون ما يثير ويغضب ، فلا يغضب محمد ﷺ ولا يدع العاطفة تستبد به ، وإنما كان هادئاً دائماً يتصرف فى صمت وهدوء وبعد مشاورة أصحابه فيما جل من الأمور .

عمـــران المدينـــة :

ولم يكن قيام المسجد رمزاً لقيام الجماعة فقط ، بل كان أيضاً بداية لعمران المدينة ، فامتد شارع مبلّط من غربى الجامع إلى جبل سَلْع فى الجانب الغربى من المدينة ، واتصل هذا الشارع شرقاً حتى بقيع الغَرْقد الذى أصبح مقبرة المدينة . ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال فى اتجاه السَّنح ، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين . وكان الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل المدينة يسمح له بالتصرف فى الأراضى المهملة التى لم تكن تتبع أحداً ، ولم يكن يستغلها أحد ، فأعطى المهاجرين والطارئين على المدينة من المسلمين قطعاً من الأرض بنوا فيها بيوتاً ، وسمح لمن يريد أن يعمر قطعة منها بالزرع بأن يفعل ذلك لحسابه الخاص ، فأقبل على ذلك الكثيرون من القضاعيين والأسالمة بصورة خاصة ، فأصبحت لهم أراضيهم وزروعهم ، وكان لذلك أكبر الأثر فى تحسن أحوالهم وفى عمران المدينة بصفة عامة .

وكانت بعض القطع التى وهبها الرسول ﷺ نصيبَ نفر لم تكن لهم بيوت واسعة ، فأنشأوا فيها بيوتاً لهم ولآلهم ، وسميت القطعة بما فيها من البيوت : الدار ، ومع الزمن تصرف أصحابها أو ورثتهم فيما لا يحتاجون إليه من أرضها ، فأصبح مكان بعض هذه الدور أحياء تسمى بأسماء أصحابها ، مثل دار عبد الرحمن ابن عوف ، ودار الزبير بن العوام . وشيئاً فشيئاً ، ومع زيادة الرخاء فى المدينة ، كثر إنشاء الناس للبيوت والحدائق ـــ وكانوا يسمونها : الحوائط ـــ واتصل عمران المدينة ، فارتبطت الواحات المتباعدة فى السهل بعضها ببعض ، وظهرت المدينة كبلد واحد متصل الأجزاء عامر بالبيوت والشوارع والحارات ، مترابط الأطراف ، آهل بالناس .

وعندما توقفت تجارة مكة بسبب سيطرة المدينة على طريق التجارة ، نتيجة لسياسة محمد ﷺ ، اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة ، وأخذت المساحات الواقعة بينها وبين طريق التجارة تتمهد فى اتجاه الغرب مارة بوادى العقيق ومسجد القبلتين ، وفى اتجاه الجنوب الغربى مارة غربى جبل عير . وهنا ظهرت أهمية موضع بئر عروة الذى أصبح من ذلك الحين مركزاً تجارياً هاماً ، وأنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسيراً للمواصلات . وجدير بالذكر أن محمداً ﷺ تنبه لأهمية القناطر والمعابر فشجع على إنشائها حتى تتصل الشوارع .

وكثرت فى المدينة الأسواق ، والمراد بها الشوارع التجارية ، وانصرف إلى التجارة كثيرون من أهل المدينة ، وزاد السكان زيادة كبيرة ، بل كانوا يزيدون باستمرار بسبب إقبال الناس من كل ناحية لسكنى ذلك البلد العامر الآمن . ومن خلال ما يكتبه السمهودى فى « وفاء الوفا » نتبين كيف كانت أسعار الأرض والمبانى وحاجات الحياة ترتفع فى المدينة شيئاً فشيئاً ، وهذه كانت بعض نتائج العمران الذى دبّ فى البلد والسلام الذى ساده عقب قيام الجماعة الإسلامية فيها . ويعدّد السمهودى أسماء المساجد التى بنيت فى المدينة أيام الرسول ﷺ ، فنجد عددها كبيراً حقاً ، وإذا نحن اعتمدنا على عدد المساجد كأساس لتقدير عدد السكان ، استطعنا أن نقول إن ذلك العدد تضاعف مرات خلال السنوات القليلة التى أقامها محمد ﷺ فى المدينة ، يدبر أمرها ويسوس جماعتها ويرسم الخطوط الرئيسية لتنظيم هذه الجماعة التى ستصبح نموذجاً تحتذيه كل الجماعات الإسلامية فيما بعد .

مبـــدأ المؤاخـــاة :

ثم دعا محمد ﷺ إلى مؤاخاة المهاجرين والأنصار ، ولا ندرى إن كانت المؤاخاة قد تمت قبل بناء المسجد أو أثناء بنائه ، ويبدو أن هذه الخطوات كلها تمت فى فترات متقاربة ، فصعب على المؤرخين ترتيبها زمنياً .

والمؤاخاة من أعظم ما سنّ الرسول ﷺ لتطبيق مبادئ الجماعة الجديدة . ولم يهتم مؤرخونا الاهتمام الكافى بإقامة محمد ﷺ للمؤاخاة ، لأنها ألغيت بعد واقعة بدر ، وفاتهم أنها توقفت كأساس للمواريث ، ولكنها لم تتوقف كمبدأ إنسانى اجتماعى أساسى فى حياة الجماعة الإسلامية . لأن محمداً ﷺ لم يقررها لمجرد إيجاد

وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنما هو قررها ليؤكد لجماعته مبدأ الأخوة فى العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة . ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها اثنين اثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية ومثالية ، لكان لذلك أثره البعيد فى تطور العلاقات الإنسانية فى داخل الجماعات الإسلامية ، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة على الثبات والسير إلى الأمام ، وبخاصة فى أوقات الأخطار والأزمات .

مـيـلاد دسـتـور الجماعـة الإسلاميـة :

وفى نحو ذلك الوقت ظهرت القطعة الأولى مما يسمى : « الكتاب » ـــ الذى سماه المؤرخون بـ « الصحيفة » أيضاً ـــ وقالوا إن محمداً ﷺ كتبه « بين المهاجرين والأنصار ، ووادع فيه يهودَ وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم » .

ويستلفت النظرَ هنا أيضاً أن مؤرخى السيرة والنظم الإسلامية لم يهتموا الاهتمام الكافى بهذه الوثيقة ولم يتنبهوا إلى أهميتها . أما أصحاب كتب الحديث فقد أهملوها إهمالا يستلفت النظر لأسباب « فنّية » فى علومهم ، فهى لم تصل إلينا عن طريق سلسلة إسناد وإنما وصلت إلينا نصًّا مكتوباً ، وهم لا يعترفون فى علم الحديث إلا بالأحاديث ذات السند الصحيح على منهجهم أما الأحاديث التى وصلتهم مكتوبة ـــ مثل خطابات الرسول ﷺ إلى الملوك ، ومعاهداته وكتبه إلى بعض رؤساء القبائل ومن إليهم ـــ فلم يهتموا بها الاهتمام الكافى . وبالإضافة إلى ذلك فإن النص الوحيد لهذه الوثيقة الذى وصل إلينا مكتوبًا ، أتانا به محمد بن إسحاق بن يسار ، إمام مؤرخى السيرة (ت ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م) . وكان علماء الحديث فى عصره لا يحبونه ، وكانت هناك خصومة بينه وبين مالك بن أنس ، وقد اتهمه هذا بقلة الأمانة فى بعض ما روى ، وكان لهذا أثره فى موقف بقية المحدثين من نصر الوثيقة .

وهناك أمر آخر كان له أثره فى صرف المحدثين ونفر كبير من المؤرخين عن هذه الوثيقة ، وذلك أن النص الذى أتانا به ابن إسحاق اعتمد على أصلين مكتوبين : كان أحدهما عند محمد الباقر بن جعفر الصادق من أئمة الشيعة ، وكان الآخر عند

عبد الله بن علي بن أبي طالب ، وهذا الأخير هو الذى أعطاه لابن إسحاق ، وكان ابن إسحاق شديد الاتصال به .

وفى عصر بنى أمية وأيام بنى العباس من بعدهم لم يكن أهل السلطان يرحبون بأى وثيقة تصل عن طريق أهل البيت ، لأن الغالبية العظمى من المسلمين كانت ترى أن أهل البيت أولى بالخلافة .

وأيضاً انصرف الناس عن الوثيقة لأسباب سياسية . فإن نص الوثيقة يتضمن قواعد سياسية سامية لم يكن الأمويون — والعباسيون من بعدهم — يرحبون بها ، لأنها كانت لا تناسب مصالحهم . وقد ظهرت الوثيقة فى العصر العباسى الأول ، عندما كان الاتجاه فى الدولة يؤيد السلطان المباشر غير المنازع للخليفة ، على حين تدعو الوثيقة إلى حرية واسعة فى تنظيم الجماعة ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وكان العباسيون يحاربون ذلك كله .

ولكن موازين النقد التاريخى تؤيد صحة هذه الوثيقة وأصالتها ، يدل على ذلك أسلوبها وانطباق ما فيها على الظروف التى كانت سائدة فى المدينة أيام الرسول ﷺ ، بل لقد استشهد الرسول ﷺ ببعض مبادئها أكثر من مرة ، وقد أيد صحتها كل أعلام النقد التاريخى من المؤرخين المعاصرين : شرقيين وغربيين .

وقد سميت هذه الوثيقة فى السنوات الأخيرة « بدستور المدينة » ، لأنها فى الحقيقة دستور ، أى قانون أساسى للنظام السياسى والاجتماعى للجماعة الإسلامية وعلاقتها بغيرها ، ويتبين ذلك بوضوح فى أجزائها : الأول والثانى والرابع .

وقد جرت العادة فى كتب التاريخ المعاصرة على تقسيم الوثيقة إلى مواد وتقسيم هذه المواد إلى مجموعات . ومن الواضح أن التقسيم إلى مواد يرمى إلى تسهيل الدراسة ، أما تقسيم المواد إلى مجموعات فيرجع إلى أن النص الذى بين يدينا لم يكتب فى وقت واحد أو دفعة واحدة ، وإنما كتب الجزء الأول — أو المجموعة الأولى — منه أول الأمر ، وتُرك النص بعد ذلك مفتوحاً لتضاف إليه المواد التى تدعو إليها الحاجة .

ومن الواضح أن الوثيقة تتكون من مجموعات من المواد كتب كل منها فى وقت

معين ، وهناك خلاف بين العلماء فى التقسيم والتوقيت ، وهناك كذلك خلاف فى عدد المواد عند هذا المؤرخ أو ذاك ، وذلك أمر اعتبارى .

ويمكن أن يقال — بصفة عامة — إن الوثيقة تتضمن ٧٠ مادة تقسم إلى ٤ مجموعات ، وهناك مواد مكررة : إما باللفظ أو بالمعنى . وهذه المواد المكررة تؤيد القول بأن الوثيقة كُتبت على مراحل واحتُفظ بنص كل جزء على حدة دون محاولة للتنسيق بين المواد . وقد حرص الذين كانوا يحتفظون بنصها على ألا يحذفوا شيئاً وإن كان مكرراً . ومعنى ذلك أن « الكتاب » أو « الصحيفة » كانت دستوراً مفتوحاً للمدينة يضاف إليه باستمرار ما يستجد من المواد التى يتم الاتفاق عليها .

وسر اهتمامنا بهذه الوثيقة هو أنها تبيِّن بصورة لا تدع مجالا للشك أن الجماعة الإسلامية الأولى أيام الرسول ﷺ كانت جماعة منظمة على أساس دستورى قانونى ، وأنه ﷺ حرص على أن تسير الأمور فى جماعته على أساس قانونى واضح . وربما كان من الأسباب المؤكدة فى ضعف الجماعات الإسلامية بعد أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أن القائمين على أمورها أهملوا الناحية القانونية الدستورية فى بناء دولهم . وبدون قانون أساسى ، يبين الحدود القانونية للحاكم والمحكوم ويعيّن الحقوق والواجبات ، لا يستطيع أى نظام سياسى أن يعمر طويلا ، مهما كانت قوته فى أول الأمر .

كيـــف نشـــأت الوثيقـــة؟ :

وهذا بدوره يجرنا إلى سؤال : كيف بدأ تحرير الوثيقة ولماذا ؟ والإجابة عن هذا السؤال على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لنظام الجماعة الإسلامية الأولى . والذى يتبادر إلى الذهن هو أن فكرة الوثيقة نشأت عن الأساس القانونى الذى أراد الرسول ﷺ أن يسير عليه كل عمل يتصل بتنظيم الجماعة[1] . وعندما ندقق فى الأمر نجد أن الاتفاق الذى تم بين رسول الله ﷺ وممثلى المدينة فى بيعة العقبة الثانية كان اتفاقاً عامًّا وشفويًّا وغير محدد ، ومن خلال تفاصيل اجتماع العقبة الثانية التى يوردها

---

(١) « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب ، آية ٢١) .

ابن إسحاق وابن سعد لا نفهم إلا أن ممثلى المدينة بايعوا الرسول ﷺ على « حرب الأحمر والأسود — أى جميع الناس — وأخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة » .

وقد أوجز عُبَادَةُ بن الصامت — وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين مثلوا أهل المدينة فى الاتفاق — شروطَ البيعة بقوله : « بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمْرَ أهلة ، وأن نقول الحق أينا كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » (ابن هشام : السيرة ، ط . محيى الدين ج ٣١١/١) .

وهذه ليست شروط اتفاق ولا ما يقارب ذلك ، ومن الواضح أن بيعة العقبة كانت اتفاقاً شفوياً مجملا اكتُفى فيه بالإخلاص فى النية من الجانبين ، فاقتضى الأمر تثبيت ذلك فى نص مكتوب وتفصيله وتوضيحه بعد أن استقر محمد ﷺ فى المدينة وقامت جماعة الإسلام فيها .

فإذا صح هذا التفسير ، كانت تلك الوثيقة نتيجة تفاهم ومناقشة بين أهل المدينة ومحمد ﷺ . وهذا هو الذى يعنينا هنا ، ومن أجله وقفنا هذه الوقفة الطويلة إلى حد ما . لأننا نريد أن ننص على أن أساس بناء الجماعة الإسلامية الأولى هو دستورها ، ودستورها جاء نتيجة رغبة محمد ﷺ فى أن يكون للجماعة قانون أساسى متضمن للحقوق والواجبات والحدود والقواعد التى يقوم عليها نظام الجماعة ، وقد اهتم ﷺ بأن يكون ذلك كله مكتوباً فى كتاب بين أيدى الناس ، ليعرف كل منهم حقوقه وواجباته وحدوده وقواعده .

ولابد أن هذا الدستور نتج عن مناقشات وأخذ ورد بين أفراد الجماعة ممثلين فى رئيسها ، رسول الله ﷺ ، وأصحابه من المهاجرين ونقباء أهل المدينة وأصحاب الرأى فيها . ولا يمكن أن يكون ذلك النص قد صدر على صورة أمر صادر عن جهة واحدة ، لأن مواد الدستور تتضمن حقوقاً كثيرة للناس والقبائل المكونة للجماعة . وكما حدث فى بيعة العقبة — عندما تناقش محمد ﷺ مع أهل المدينة مناقشة طويلة انتهت بالاتفاق — فلابد أن يكون الأمر قد سار كذلك فى إنشاء هذا الدستور . ومعنى ذلك أنه صدر عن أسلم الأسس التى تصدر عنها دساتير الأمم ،

وهى المناقشات وتبادل الآراء . وهو — من هذه الناحية — عقد اجتماعى وسياسى صحيح ، وليس فرضاً من جانب ولا منحة من رئيس لمرءوسيه .

ومن أسف أن مؤرخينا يجملون الحوادث فيما بين الهجرة وموقعة بدر إجمالا شديداً ، ومن هنا لم يسجل لنا واحد منهم أى تفاصيل كما دار من مناقشات أدت إلى صدور الجزء الأول من ذلك الدستور .

وقد رأينا أن النسختين اللتين بقيتا من هذه الوثيقة نُقلتا عن أصل كان عند على ابن أبى طالب . وهذا هو الطبيعى ، لأن علياً كان كاتب الرسول ﷺ أول استقراره فى المدينة ، ولم يكن كتّاب الوحى الآخرون — من أمثال زيد بن ثابت أو أُبَىّ ابن كعب أو أنس بن مالك — قد دخلوا فى العمل بعد ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن علياً هو الذى كان يكتب المواد التى يتم الاتفاق عليها ، وهو الذى قام بعمل النسخة الكاملة من النص . ولابد أنه قد نقلت منها نسخ أخرى للأطراف المتعاقدة ، واحتفظ على بن أبى طالب بنسخة الرسول ﷺ ، وهى التى بقيت لنا .

ويحدثنا محمد الطهرانى فى كتابه « الذخيرة إلى تصانيف الشيعة » أنه كانت لدى علىّ كتابات أخرى ، أى وثائق أخرى ، مما أملاه عليه الرسول ﷺ ، وأنه كان يحتفظ بهذه الكتابات فى قراب سيفه . وقد ورثها منه أبناؤه من بعده .

ويحدثنا الرحّالة أنه من عادة رؤساء البدو فى الصحراء أن يحفظوا بالوثائق المهمة فى قراب السيف ، أو فى كيس يعلق فى مقبض السيف . ويضيف الطهرانى أن نص الوثيقة التى ندرسها الآن كان مسجلا فى « كتاب مدرج عظيم » . ويُفهم من هذا أن علىّ بن أبى طالب كان حافظ سجلات الرسول ﷺ ، أو كاتب سره كما نقول اليوم ، خلال تلك الفترة الأولى ، والنص الذى لدينا بقى من السجلات التى كانت عنده .

والآن نورد نص الكتاب مقسماً إلى أجزاء ومواد ، وينبغى أن ننبه إلى أن هذا التقسيم وعناوينه من عندنا .

نـص دسـتـور المدينـة :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم .

الجـزء الأول مـن الوثيقـة :

مادة ١ – أنهم أمة واحدة من دون الناس .

مادة ٢ – المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٣ – وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٤ – وبنو الحارث على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٥ – وبنو ساعدة على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٦ – وبنو جُشَم على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٧ – وبنو النجار على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٨ – وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٩ – وبنو النَّبيت على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١٠ – وبنو الأوس على ربعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١١ – وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل[٢] .

مادة ١٢ – وأنه لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

مادة ١٣ – وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٣] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

مادة ١٤ – ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر .

---

(١) المفرح : هو المثقل بالدين .

(٢) العقل : هو التعويض الذى يدفع لإنسان عن ضرر أصابه .

(٣) الدسيعة : هى العطية ، ولكن معناها هنا : من ارتكب أى نوع من الظلم أو الإثم أو العدوان .. الخ .

مادة ١٥ ـ ولا ينصر كافراً على مؤمن .

مادة ١٦ ـ وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

مادة ١٧ ـ وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

مادة ١٨ ـ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

مادة ١٩ ـ وأن سلْم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم[1] .

مادة ٢٠ ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً[2] .

مادة ٢١ ـ وأن المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله عز وجل[3] .

مادة ٢٢ ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

مادة ٢٣ ـ وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .

مادة ٢٤ ـ وأن من اعتبط[4] مؤمناً قتلا عن بينّة فإنه قوَد به إلا أن يرضى ولى المقتول .

مادة ٢٥ ـ وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا القيام عليه .

مادة ٢٦ ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً[5] ولا يؤويه .

مادة ٢٧ ـ وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل[6] .

مادة ٢٨ ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد .

---

(١) أى إلا إذا اتفقوا على ذلك جميعاً .
(٢) أى أن أفراد الحملة يشتركون معاً فى استعمال ما معهم من دواب الحمل .
(٣) أى يشتركون معاً فى تحمل ما ينال بعضهم من الخسائر .
(٤) قتل .
(٥) المحدث : هو الذى يرتكب جرمًا .
(٦) أى لا يقابل مالًا أو اجتماعًا .

الجـــزء الثانـــي مـــن الوثيقـــة :

مادة ٢٩ ــ وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين مادامو محاربين .
مادة ٣٠ ــ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم .
مادة ٣١ ــ إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
مادة ٣٢ ــ وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٣ ــ وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٤ ــ وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٥ ــ وأن ليهود بنى جُشَمَ مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٦ ــ وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٧ ــ وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف .
مادة ٣٨ ــ إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
مادة ٣٩ ــ وأن جفنة ــ بطن من بنى ثعلبة ــ كأنفسهم .
مادة ٤٠ ــ وأن لبنى الشُطَيْبَة مثل ماليهود بنى عوف .
مادة ٤١ ــ وأن البر دون الإثم .
مادة ٤٢ ــ وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
مادة ٤٣ ــ وأن بطانة يهود كأنفسهم .
مادة ٤٤ ــ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
مادة ٤٥ ــ وأنه لا ينحجز على ثأر جرحٍ[1] .
مادة ٤٦ ــ وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظُلِم .
مادة ٤٧ ــ وأن الله على أبرِّ هذا .
مادة ٤٨ ــ وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
مادة ٤٩ ــ وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
مادة ٥٠ ــ وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
مادة ٥١ ــ وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه .

(١) أى : لابد من تصفية الثارات ، ولايجوز كبتها وانتظار فرصة إدراكها .

مادة ٥٢ ــ وأن النصر للمظلوم .
مادة ٥٣ ــ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

الجــزء الثالــث مــن الوثيقــة :

مادة ٥٤ ــ وأن يثربَ حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .
مادة ٥٥ ــ وأن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم .
مادة ٥٦ ــ وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
مادة ٥٧ ــ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .
مادة ٥٨ ــ وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرِّه .
مادة ٥٩ ــ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
مادة ٦٠ ــ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .
مادة ٦١ ــ وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه[1] .
مادة ٦٢ ــ وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين[2] إلا من حارب فى الدين .
مادة ٦٣ ــ على كل أناس حصتُهم من جانبهم الذى قبلهم .

الجــزء الرابــع مــن الوثيقــة :

مادة ٦٤ ــ وأن يهودَ الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .
مادة ٦٥ ــ وأن البر دون الإثم .
مادة ٦٦ ــ لا يكسب كاسب إلا على نفسه .
مادة ٦٧ ــ وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

---

(١) أى أن قيادة الجماعة إذا دعيت إلى أن تعقد صلحاً مع خصومها كان على أعضاء الجماعة أن يوافقوا على ذلك .
(٢) وأعداء الجماعة إذا دعوا إلى الصلح كان على جماعة المؤمنين أن تستجيب للدعوة .

مادة ٦٨ ـ لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم .
مادة ٦٩ ـ وأنه من خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة إلا من ظلم وأثم
مادة ٧٠ ـ وأن الله جارٌ لمن بَرَّ وأتقى ومحمد رسول الله .

المبادئ التى تضمنتها الوثيقة :

والآن نجمل أهم المبادئ القانونية التى يتضمنها كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة .

الجـــزء الأول :

واضح أن هذا الجزء هو أول ما كتب من الوثيقة ، وهو أساسها القانونى ، فهو يتضمن المبادىء الآتية :

١ - إن المؤمنين الذين اشتركوا فى تكوين أمة الإسلام أو جماعته يكونون وحدة اعتقادية وسياسية واجتماعية واقتصادية قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها من الجماعات .

٢ - أفراد هذه الجماعة والوحدات القبلية المكونة لها متكافلون فيما بينهم ، فهم يقومون بمعاونة بعضهم بعضاً فى تحمل الأعباء المالية الباهظة ، مثل الافتداء من الأسر للشخص أو لأحد قرابته وسداد الديون الثقيلة أو أداء ديات القتل أو قصاص الجراحات .

٣ ـ جميع أفراد الأمة متساوون فى الحقوق والواجبات ، وأساس العلاقات بينهم هو « المعروف » ، أى العرف الجارى الذى يقبله العقل والدين ويرضاه الناس ، و « القسط بين المؤمنين » ، أى المساواة والعدل بينهم .

٤ - تتكون نواة الأمة من تسع وحدات : واحدة منها اجتماعية وهم المهاجرون ، والثمانى الباقية وحدات قبلية من أهل المدينة ما بين أوس وخزرج وغيرهما . وكل وحدة من هذه تدخل الجماعة بنظامها الداخلى الخاص بها (على رَبْعتهم) . وهم يقومون بمسئولياتهم الاقتصادية متعاونين فيما بينهم ، وأساس التنظيم الداخلى لكل وحدة هو العرف الجارى والعدل والمساواة بين أفرادها .

٥ - الأمة فى مجموعها مسئولة عن الأمن الداخلى ، فلابد لها من محاسبة لكل معتد أو مفسد من بين أعضائها ، ولو كان ولد واحد منهم .

٦ – الأمة وحدة متماسكة من المؤمنين ، فلا يجوز لأحد أفرادها أن يقتل مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن .

٧ – أمة الإسلام هي أمة الله ، وهي كلها في ذمة الله أي في رعايته ، وذمة الله التي ترعاها واحدة لا تتجزأ ، ومن ثم فإن أي فرد من أفراد الجماعة يستطيع أن يمنح جواره ـــ أي حمايته ـــ لمن يستحق الجوار والحماية ، وفي هذه الحالة تلتزم الجماعة الإسلامية كلها بحماية ذلك الجار وضمان حقوقه .

٨ – وتوكيداً للأخوة والعلاقات الإنسانية بين المسلمين ، ينص ذلك القسم الأول من الدستور على أن المسلمين بعضهم موالي بعض من دون الناس ، فلا ولاء بين مسلم وغير مسلم .

٩ – ومن تبع المسلمين من اليهود فعلى المسلمين نصرهُ أسوةً بالمسلمين أنفسهم ، والجماعة تضمن أنه لا يقع عليهم ظلم ، ولا تنصر الأمة عليهم أحداً .

١٠ – وإن سِلْم الأمة كلها واحد ، فلا يعقد مسلم أو قبيلة داخلة في الأمة سلماً مفرداً في حالة حرب ، ولا يتم السلم إلا بناء على اتفاق المسلمين .

١١ – وإذا دخل المسلمون حرباً أو وقع عليهم اعتداء وأصيب بعضهم ، فإن الأمة كلها تتعاون في تحمل التبعات وتعويض الخسائر .

١٢ – ويتبع المسلمون في ذلك أحسن السبل وأقربها إلى الأخلاق الكريمة .

١٣ – وإذا اشتركت مع المسلمين جماعة من حلفائهم في غزوة من الغزوات تعاون أفراد هذه الجماعة بعضهم مع بعض ، وبخاصة في استعمال ما لديهم من الخيل والجمال والمؤن وما إلى ذلك .

١٤ – ولما كانت قريش قد اعتدت على المهاجرين فشردتهم من ديارهم واستولت على أموالهم فإن أحداً من سكان المدينة ، حتى لو كان مشركاً ، أي غير عضو في الأمة ، لا يجوز له أن يُجير لها مالاً ولا نفساً ، ولا أن يحول دون أي مسلم أصابه ضرر من الاستيلاء على ذلك المال تعويضاً له عما أصابه .

١٥ – وإذا قتل مسلم مسلماً عمداً فلابد من إعدامه ، إلا أن يتفق مع أولياء الدم على ما يرضيهم . ولابد أن يكون المسلمون جميعاً يداً واحدة عليه ، ولا يصح لهم حياله موقف غير هذا .

١٦ – وإذا آوى عضو من أعضاء الأمة مجرماً أو نصره ـــ سواء أكان من داخل الجماعة أو خارجها ـــ فإن عليه لعنة الله وغضبه ، ولابد أن تقاطعه الجماعة كلها

مقاطعة تامة ، فلا يقوم تعامل من أى نوع بينه وبين عضو من أعضاء الجماعة .

١٧ – وإذا وقع خلافٌ بين نفر من أعضاء الجماعة ولم يستطيعوا الوصول إلى حل أو اتفاق فلابد لهم من أن يعرضوا الأمر على محمد ﷺ ، ليقضى فيه بأمر الله .

١٨ – وتحديداً للمسئولية نقرر ألا يؤخذ إنسان بخطأ يرتكبه حليفٌ له .

الجـــزء الثانـــى :

يضم هذا الجزء ٢٥ مادة (٢٩ ـــ ٥٣) ، كلها خاصة بإلحاق جماعات من اليهود بأمة الإسلام على أساس الحلف والاشتراك فى الدفاع عن وطن الجماعة . ولا ذكر بين هؤلاء اليهود للقبائل اليهودية الكبرى ، أى بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة ، ولهذا رجّحنا أن يكون تحرير هذا الجزء وإضافته إلى الوثيقة قد تم بعد إجلاء بنى قريظة عن المدينة (رجب ـــ شعبان سنة ٦هـ / أواخر ٦٢٧ م) . ومفتاح هذا الجزء كله المادتان ٢٩ و ٣٠ ـــ وقد سبق إيراد نصيهما .

ومن هاتين المادتين نرى أن الأمة عَدّت اليهود الذين بقوا فى المدينة بعد انتهاء شأن القبائل اليهودية الثلاث الكبرى حلفاء لها ، وأباحت لهم الاشتراك فى الحرب معها ، دفاعاً عن المدينة وعلى شرط أن يشتركوا مع المسلمين فى نفقات الحرب .

وقد عُدت المجموعات اليهودية التى ورد ذكرها فى المواد التالية للمادتين المذكورتين أمةً مع المسلمين ، أى جزءًا من الأمة ، ولكنهم يحتفظون بدينهم . فإذا ارتكب أحد منهم خطأً وقع العقاب عليه وعلى أهل بيته دون غيرهم . ويتضمن هذا الجزء أيضاً مواد تؤكد شروط التحالف وقواعد العمل مع هذه المجموعات اليهودية ، وأهمها أن القبيلة المسلمة لا تتحمل نتائج أخطاء المجموعة اليهودية المحالفة لها ، والعكس صحيح .

الجـــزء الثالـــث :

أما الجزء الثالث من الوثيقة فيتضمن عشر مواد (٥٤ ـــ ٦٣) فيها تحديدات وتدقيقات على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للأمة ووطنها .

فالمادة ٥٤ تقول : إن جوف يثرب حرام لأهل هذه الصحيفة ، أى لا يجوز لهم

الحرب أو إراقة الدماء فى داخلها .

والمادة ٥٥ تنص على أن الجار ـــ كالنفس ـــ لا يُضار ولا يُعتدى عليه . وهنا نجد مثالا واضحاً لإقرار دستور الأمة الإسلامية أسساً قانونية مما جرى به العرف فى المجتمع العربى .

والمادة ٥٦ تقرر إنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وهذا أيضًا مأخوذ من القانون العرفى البدوى .

والمادة التالية ٦١ تقول : إنه إذا وقع بين أهل هذه الصحيفة حدث أو شجار خطير فإن الفصل فيه يكون لمحمد ، ﷺ ، أى لرئيس الجماعة . وهذه المادة خطوة بعد المادة ٢٨ الواردة فى الجزء الأول ، فهى تحدد التزام أفراد الجماعة بعرض القضايا الهامة ونقط الخلاف التى يخشى أن تؤدى إلى ضرر للجماعة كلها على رئيس الجماعة ، تحديداً دقيقاً .

ونعتقد أن هذا الجزء الثالث كُتب قبل خروج النبى ﷺ للعمرة خروجه الذى أدى إلى صلح الحديبية سنة ٦هـ/٦٢٩ م . لأن هذا الوقت شهد إقبال كثير من الناس إلى المدينة للسكنى فيها والانضمام إلى جماعتها ، فاقتضى الأمر إضافة مواد تضمن النظام داخل المدينة ، وربما خارجها أيضاً فيما حولها ، لأن كثيراً من الوافدين استقروا حول المدينة وطلبوا حق الجوار ففازوا به . ويدخل فى هذا أيضاً ما نراه فى المادة ٥٨ من النص على أن أعضاء الجماعة ينبغى أن يتحرّوا فى تطبيقهم لمواد هذا الاتفاق أو الدستور أقرب التفاسير إلى البر والخير ، أى إلى روح الدين .

ويلاحظ بوضوح أن المواد ٥٩ ـــ ٦٣ كلها تنص على أشياء خاصة بقريش وحالة الصلح التى قامت بينها وبين المدينة بعد صلح الحديبية . وتهمنا هنا المادة ٦٣ التى تقسِّم واجب الدفاع عن المدينة على سكانها ، أى على أعضاء الجماعة ، فكل مجموعة مكلفة بالدفاع عن البلد من الناحية التى يسكنون فيها . وربما انطبق هذا أيضاً على الذين نزلوا خارج المدينة وحصلوا على جوارها ، فهؤلاء أيضاً كانوا ملزمين بحماية البلد من أى خطر يأتى من ناحيتهم .

الجـــزء الرابـــع :

أما الجزء الرابع (٦٤ — ٧٠) فواضح أنه يتضمن أحكاماً شتى لا يربطها رابط ، كما رأينا في الأجزاء السابقة ، وإنما هي مبادىء قانونية كان الاتفاق يتم عليها وتقرر إضافتها إلى الصحيفة ، فتضاف . ولهذا فإننا نجد أن المادة ٦٤ تبدو كأنها تكرار للمادة ٣٦ من الجزء الثاني ، الخاصة بيهود بني الأوس . ويبدو لنا أنها ليست محض تكرار ، بل هي نتيجة لدخول مجموعة القبائل المعروفة ببني الأوس في الإسلام بعد موقعة الخندق ، فاقتضى الأمر النص من جديد على حقوق يهودهم ومواليهم ، ويلاحظ أن هذا النص يطالب أولئك اليهود بالإخلاص التام للأمة .

ولدينا ثلاث مواد : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، تتضمن قواعد خلقية وتنص على أن المعول في تطبيق القانون إنما هو على الروح والأخلاق ، ولا ننسى قبل أن ننتهي من هذا العرض السريع أن نشير إلى الأسس القانونية والخلقية التي تنص عليها المادتان ٦٩ و ٧٠ ، وهما آخر ما لدينا من المواد .

ملاحظـات علـى النظـام العـام للجماعـة :

ولا ندري إن كانت الوثيقة تنتهي هنا أم أنها كانت تتضمن أجزاء أخرى لم تصلنا . ولكننا نرى بوضوح مما سبق بيانه أنها وثيقة فريدة في بابها في حوليات الإسلام ، فليس لدينا في كل نظم الدول الإسلامية ، قبل العصور الحديثة ، تشريع دستوري يتضمن المبادىء السامية التي تتضمنها هذه الوثيقة ، بل إن أحداً من حكام المسلمين لم يحرص حرص محمد ﷺ على أن تبين الحقوق والواجبات في اتفاق حر واضح كهذا الذي رأيناه في تلك الوثيقة .

ويكفي أنها تترك للوحدات القبلية ، التي دخلت في تكوينها ، الحرية التامة في أن تنظم شئونها على النحو الذي تراه ، مادامت ترعى قواعد شريعة الإسلام ومبادئه الخلقية ، بل إن الجماعة لا تتدخل في الشئون المالية للوحدات الداخلية في تكوينها ، تاركة ذلك لمسئولية الوحدات . وذلك أساس سليم من أسس التربية السياسية التي حرص محمد ﷺ على أن يقررها في دستور جماعته .

ويمكننا أن نقول — استنتاجاً من النص — إن نظام الجماعة « اتحادى » ، أو ما يسمى فى مصطلح اليوم « فيدرالى » ، بمعنى أنه يتكون من وحدات كل وحدة منها مستقلة بنفسها فى إدارة شئونها الداخلية ، أما الاتحاد بينها فيكون فى مسائل الدين وحمايته ونشره وتطبيق شريعته ومبادئه الخلقية ، وكذلك فى شئون الدفاع والحرب والسلم ، أى العلاقات الخارجية .

رسول الله ﷺ يتصرف دائماً تصرفاً قانونياً :

وهذه الوثيقة مما يشهد لمحمد ﷺ بالعبقرية السياسية والتنظيمية والقانونية ، إلى جانب ما حباه الله به من جليل الخصال والمواهب التى أهلته للنبوة والرسالة . وجدير بالذكر أن محمداً ﷺ كان رجلا قانونياً لا يتصرف فى شئون الجماعة إلا فى حدود الاتفاق القائم بينه وبين أفرادها . وسنكتفى من أعماله الكثيرة بمثالين اثنين يؤيدان ذلك ، برغم أن كل المؤرخين تقريباً يمرون بهما عابرين ، دون أن يفطنوا إلى المعانى الدستورية المستترة وراءهما .

المثال الأول :

هو دعوة الرسول ﷺ أصحابه للتشاور ليلة موقعة بدر . وغالبية المؤرخين يقولون إن الرسول ﷺ أراد أن يستوثق من عزم الأنصار على القتال ، وهذا مستبعد ، لأن الرسول ﷺ كان أعرف بعزمات الأنصار واستعدادهم للحرب فى سبيل الإسلام من أن يحتاج إلى سؤالهم ، ولكن الحقيقة هى أنه خرج بالمسلمين من المدينة على أساس أنهم ذاهبون لمهاجمة قافلة تجارية يغنمون ما فيها ، فلما تغير الموقف وبدا أن القرشيين يريدون الحرب وأن مصلحة الجماعة الإسلامية تستدعى الاستجابة لذلك التحدى ، رأى رسول الله ﷺ أنه لابد أن يوقف أصحابه على هذا التحول ويصارحهم بأن الأمر الآن أصبح أمر حرب ، ويقول لهم إنه سيخوض المعركة مع المشركين ، ليقرروا إن كانوا مستعدين لخوض المعركة معه . ومعنى ذلك أنه أراد ، قبل أن يدخل المعركة ، أن يكون القرار صادراً عن الجماعة نفسها . فمن أراد الاستمرار معه على الحرب فعل ، ومن لم يرد فهو حر فى أن يعود إلى المدينة إذا أراد .

والمثــال الثانــي :

مثال أدل من السابق على صحة ما ذهبنا إليه ، وهو ما وقع عندما خرج الرسول ﷺ للعمرة عام الحديبية ، فإنه دعا الناس للخروج للعمرة . فخرجوا معه ، لا يحملون من السلاح إلا ما لابد منه للدفاع عن النفس فى أثناء الطريق . وعند الحديبية تصدى لهم المكّيون ، وحالوا بينهم وبين مكة ، فقامت المفاوضات بين محمد ﷺ والمكيين . وتحرج الموقف ، وسرت إشاعة بمقتل عثمان فى مكة ، فبدت فى الجو نذر الحرب ؛ وهنا رأى محمد أن الظروف تغيرت .

وذلك أن أصحابه خرجوا معه للعمرة . أما الآن فإن شبح الحرب يُظِلُّ على الموقف . ومن الممكن أن يقع اللقاء بين المسلمين والمشركين ، ولهذا رأى عليه الصلاة والسلام أنه لابد من عرض الأمر كله على أصحابه ليقرروا ما يرونه ، فقد يكون من بينهم من لا يرى الحرب ، ولهذا دعا من يوافقون على دخول الحرب إلى بيعة جديدة ، أى اتفاق جديد ، فكانت بيعة الرضوان .

ولو كان رجلا آخر غير محمد ﷺ لما حفل بعرض الأمر من جديد على أصحابه . ومادام هو القائد والرئيس فليقرر ما يشاء ، وما عليهم إلا الاتباع ، ولكن هذا لم يكن أسلوب محمد ﷺ فى العمل . فهو رجل قانونى لا يتصرف فيما يتعلق بالخطط العملية وسياسة المدينة إلا فى حدود التفويض الذى منحه إياه أصحابه . فإذا تغيرت الظروف ، فلابد من أخذ تفويض جديد بما يقتضيه الموقف .

والأمثلة على ذلك كثيرة من سيرة الرسول ﷺ وأحاديثه ، فقد كان هو الرئيس والقائد والنبى والمرشد للجماعة ، ولكنه لم يكن يسيِّر شئونها بإصدار الأوامر بل بإعطاء القدوة الحسنة والتزام القانون وطلب المشورة من الناس . وهو لم يكن يصدر قانوناً ويلزم الناس به ، بل كان القانون يصدر عن الجماعة ويبدأ هو باحترامه فيلتزمه الباقون . ولهذا فإننا مهما بحثنا فى دستور الأمة الذى عرضناه فإننا لا نجد نصاً على سلطان محمد أو مدى نفوذه ، ومهما قرأنا فى السيرة فلن نجده يصدر أمراً ليتبعه الناس من دونه ، وإنما كان إذا أراد من الجماعة أن تفعل شيئاً بدأ بأخذ الرأى للوصول إلى قرار يصدر عن الناس ويتبعونه عن طيب خاطر لأنه يمثل إرادتهم . وكان أيضاً لا يأمرهم بشىء يستثنى نفسه منه ، فإذا أراد الخروج لغزوة لم يصدر

أمراً بالخروج ، بل استعد وأعلن رغبته في الخروج ثم خرج بمن حضر ، وعسكر قرب المدينة يوماً أو ليلة ربما يتلاحق به الناس . ثم يصدر للغزو بمن تجمّع معه غير ناظر إلى من تخلف . ونادراً ما عاتب أحداً على التخلف ، لأنه كان يَكِلُ الناس في ذلك إلى ضمائرهم . وكان لذلك أبعد الأثر في نفوسهم .

إدارة الرسـول ﷺ للمدينـة :

ومن الواضح أن المدينة كانت تدار أيام الرسول ﷺ إدارة حسنة . فقد سادها الأمن ، وعمها الرخاء ، وتضاعف سكانها ، وعمرت أراضيها ، حتى تقاطر الناس إليها من كل ناحية ، وعلى الرغم من كثرة الغرباء في البلد وحداثة عهدهم بالإسلام فإن الأمور داخل المدينة كانت تسير سيراً حسناً ، فالأمن مضبوط وأموال الناس آمنة ومتاجرهم زاهرة ، وكل ذلك لا يتم من تلقاء نفسه ، بل لابد وراءه من إدارة حسنة وترتيب كامل وسلطة محترمة . ولكننا لا نلمح مظهراً لحكومة ولا جهازاً إدارياً ، بل ليس لدينا إداريون أو موظفون متخصصون ، فكيف كان يتم ذلك ؟

كان يتم على أحسن صورة ممكنة ، لأن أحسن الحكومات هي التي لا يحس لها المواطن ثقلا ولا عبئاً ، وذلك تماماً ، كما أن أحسن المواطنين هم الذين لا تحس الدولة لهم بعبء أو ثقل ، لأن الحكومة الصالحة تخدم المواطن وتسهل له أمور الحياة وتكفل له الأمن والخدمات ، فهي تزيد في راحته ، والراحة هي عدم الإحساس بالمتاعب ، أما الحكومة غير الصالحة فهي التي لا يحس المواطن منها إلا ثقل إطاراتها وعبء أجهزتها وكثرة موظفيها وتعدد ضرائبها وقلة ما تؤديه له من الخدمات ، فهو في نصب من أمرها أبداً ، وهي عبءٌ عليه دائماً .

كانت إدارة المدينة أيام الرسول قوية نافذة السياسة والنظام ، فهي ترسل الغزوات والسرايا ، وترعى أسر المجاهدين في أثناء غيبتهم ، وتعنى بهم إذا أصيبوا ، وتتولى أسر من يستشهدون منهم ، وهي تفض المنازعات التي يعجز المواطنون عن فضها ، وهي تحميهم من الغزو الخارجي ، ولها من الجاه ما يؤمنهم إذا خرجوا منها فيحترمهم الناس في أي مكان كانوا ، لأنهم يهابون سطوة بلدهم ، وهي تنشر الأمن في الداخل وتسرع بالتعمير والرخاء .

وكل ذلك كانت تقوم به فئة قليلة حول الرسول ﷺ ، تعمل فى صمت وهدوء وإنكار للذات يدعو للإعجاب ، ونحن نعرف من هذه الفئة أبا بكر وعمر وعثمان وأبا عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وسعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة وأخاه محموداً وسعد بن الربيع وكعب بن مالك وأُبىّ بن كعب والحباب بن المنذر ابن الجموح وثابت بن قيس بن الشماس وأبا أيوب خالد بن زيد الأنصارى والبراء ابن عازب وأُسَيْد بن الحُضير وغيرهم . وهؤلاء جميعاً كانوا يعملون فى صمت دون حرص على أن تنسب إليهم أعمالهم إيماناً منهم بأن خدمة جماعة المسلمين يراد بها وجه الله سبحانه ، وهو الذى يثيب عليها .

وكان الرسول ﷺ يعهد إلى من يريد — من أهل المدينة — بما يريد ، دون تفريق بين مهاجر وأنصارى ، بل كان يختار لكل مهمة من يقوم بها ، وكان الجميع يسارعون إلى تلبية ما يطلبه إليهم دون تردد ، ويشعرون بالسعادة إذا قاموا بالمهمة ، لأن الرسول ﷺ لم يكن يعهد إلى واحد منهم بعمل إلا أوصاه وزوده بنصائحه ورافقه جزءاً من الطريق ، إذا كانت المهمة خارج المدينة ، وظل يتتبع أخباره وأخبار من معه وينتظر عودتهم . ولهذا نجد أن الذين كانوا يقومون بهذه المهام كانوا يقصدون إلى رسول الله ﷺ رأساً عقب عودتهم ليقدموا إليه بياناً بما عملوا ، فكان يدعو لهم ، وكان ذلك عندهم أحسن الجزاء . وإذا كان واحد منهم قد فقد أو أصيب فى أثناء المهمة فإن أول ما كان الرسول ﷺ يفعله هو أن يرسل إلى آله يؤكد لهم أنه يرعاهم ويقوم لهم مقام عائلهم الذى أصيب ، وفى أحيان كثيرة كان يطلب إلى من حوله الإسراع بالطعام لعائلة المصاب ، لأنهم سيشغلون بحزنهم عن العناية بأنفسهم . وإذا كان فى الأسرة أطفال نجده يسرع باستقدامهم إلى بيته ، حيث يعتنى بهم ويقدم لهم الطعام ، ليظلوا بعيدين عن جو الحزن إلى أن تخف لوعة الأسرة .

وبطبيعة الحال لم يكن الرسول يقوم بكل هذه المهام وحده ، بل كان من ورائه من يقومون بذلك بتوجيه منه أو بناء على قواعد رسمها لهم . وكان الجميع يقومون بواجبهم فى سعادة مؤمنين بأمتهم وعقيدتها . ولم تكن العادة أيام الرسول ﷺ أن يختص أحد بعمل معين ، وإنما كان رسول الله ﷺ يكلف الرجل بالمهمة ، فإذا فرغ منها عاد إلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وهذا لا ينطبق على المجموعة

التى أشرنا إليها ، فهذه كانت تعمل باستمرار ، ولا يمكن أن نتصور نجاح الجماعة الإسلامية أيام الرسول ﷺ إلا على هذا الأساس .

إخلاصُ الناس لجماعتهم إخلاصٌ لأنفسهم أيضاً :

ولابد أن نضيف إلى ذلك أن إخلاص أفراد الجماعة كان يرجع أيضًا إلى أنهم كانوا مستفيدين من انتسابهم إليها معنويًّا وماديًّا . فمعظم أفرادها كانوا قبل إنشائها ، أى قبل دخولهم فى الإسلام ، يعيشون هملا دون وجهة فى الحياة أو مهمة يقومون بها ، وإنما كانوا عرباً من أهل الصحراء تنقضى أيامهم وكأنها سُحب صيف ، لا يكادون يعملون فيها شيئاً ذا بال — غير الحروب والمنازعات — وكلها شرور ومضارّ .

فما إن دخلوا الإسلام وأصبحوا أعضاء فى جماعته حتى أحسوا بأنفسهم ، وشعروا بأن لهم كياناً معنويًّا وخلقيا ، وبأن شخصياتهم محترمة ، وأن لهم رسالة جديدة فى الحياة . وقد نفثَ فيهم الإسلام روحاً من العزة والكرامة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وأيقظ فيهم الضمير الإنسانى فجعلهم يشعرون بمعنى الحياة وما فيها من خير ، وما يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا تحلى بالفضائل وارتفع بنفسه عن الشرور والآثام .

وكان الواحد منهم عضواً فى قبيلة لا تمتاز على غيرها بشىء ، بل لم يكن له وطن ولا مكان معين تحت الشمس ، ولا يشعر بأمان فى أى مكان ، فأصبح الآن عضواً فى جماعة كبرى ذات قوة وجاه وسلطان ، وأصبح له وطن آمن وبيت وأرض ومال ، وكل ذلك يؤمنه ويحرسه قانون وشرع سماوى ، وله فى هذا الوطن الجديد حقوق محترمة مرعية وأعمال واضحة تعطى حياته معنى وهدفاً . ثم هو قبل ذلك كله وبعده مسلم مؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وهذا فى ذاته كان انتقالا حاسماً فى حياة أولئك الناس .

فإذا انتقلنا إلى النطاق المادى الصرف وجدنا أن كل واحد من أعضاء الجماعة كان مستفيداً فائدة مباشرة من دخوله فيها ، فقد تحسنت الأحوال الاقتصادية فى المدينة ، وعمرت نواحيها وازدهرت تجارتها ، وأصبحت الأرض التى كانت مهملة

من قبل أرضاً مزروعة أو مبنية لها قيمتها ، وحتى الأراضى التى لم ينشأ عليها شيء ولم تزرع زادت قيمتها المالية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يقرره السمهودى فى تاريخ المدينة من ارتفاع الأسعار ووفرة الأطعمة بسبب انتشار الزراعة وتوافر ضروريات الحياة فى أسواق المدينة ، لأن التجارة الكبرى انتقلت إليها . ومعنى ذلك أن أعضاء الجماعة عندما كانوا يعملون بحماس وإخلاص إنما كانوا فى الوقت نفسه يعملون لأنفسهم ، وكان الخير الذى يحققونه للجماعة يعود عليهم منه نصيب . ولقد حدثنا المؤرخون أن الأنصار قبلوا بسرور أن يقاسمهم المهاجرون أموالهم ، ولم يكن ذلك صادراً عن مجرد الرغبة فى المعاونة ، وإنما كان الأنصار يشعرون بأن قدوم محمد ﷺ والمهاجرين إلى بلدهم وقيام الجماعة الإسلامية فيها كان بركة عليهم جميعاً ، فقد تضاعفت أموالهم وثرواتهم ، فهم إذا قاسموا المهاجرين فإنما كانوا يؤدون إلى الجماعة بعض ما جلبته إليهم من الخير .

وكان رسول الله — ﷺ — حريصاً على أن يشعر الناس بأنهم كسبوا كسباً ماديًّا حقيقيًّا باشتراكهم فى الجماعة ، فكان دائماً يحض الناس على العمل والسعى والكسب الحلال ، وما رأى رجلا زاد ماله من الطريق الحلال ، إلا دعا الله أن يبارك له فيه . وكان يسره أن يرى النعمة ظاهرة على الناس ، وما رأى رجلا مقتدراً إلا حثه على أن يُظهر النعمة ، وما رأى رجلا رث الثياب مع قدرته على اللبس الطيب إلا عاتبه ، وكان يكره من الرجل أن يحرم أهله وأولاده من التمتع بنعم الحياة فى اعتدال وكمال .

ولابد أن نذكر دائمًا أن ضمان ذلك كله كان محمداً — ﷺ — بعدله المطلق ونفانيه التام وإيمانه العميق بالإسلام وأمنه ، وحرصه على مشاورة أصحابه وقدرته على اتخاذ القرار الحاسم السليم فى كل وقت .

حريـة النـاس هى أســاس الحيـاة فى الجماعـة :

بيد أن أهم ما ميز الجماعة الإسلامية الأولى هو الحرية التى تمتع بها أفرادها ، فكلنا نعرف جماعة المنافقين الذين كانوا يعيشون فى المدينة ويتظاهرون بالإسلام أو بصداقة المسلمين ، ويدسّون فى الوقت نفسه للإسلام وأهله ويكيدون لرسوله ﷺ ويجتمعون ، والأعداء من يهود ، أى واليهود الباقون على دينهم ، ممن كانوا يناصبون

الإسلام العداء بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله ﷺ منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عَسِيّ على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنة من القتل ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود »[1] . وهؤلاء لم يكونوا معارضة جديرة بالاحترام كمعارضة صريحة ، ولكنهم كانوا منافقين كذابين يخالفون الأمة فى الظاهر ويدسون لها فى الخفاء ، ولو عاملهم محمد بالعنف لكان له عذر ، ولكنه — برغم عرفانه بشرهم وسوء نيتهم وتآمرهم على الأمة — لم يتعرض لهم بشر وتركهم يقولون ما يريدون . وكانوا يحاولون إحراجه بالأسئلة التى يحسبون أنها عويصة عليه ، فيرد عليهم فى صبر وحلم ، وما كان ذلك خوفًا من غضب قبائلهم أو من قوة أتباعهم ، فإن قبائلهم نفسها كانت تبغضهم ، بل كان أهلهم يستثقلونهم ، ولو أنزل محمد ﷺ بهم عقاباً فما كان أحد لينهض للدفاع عنهم ، ولكنه كان يطيل الحبل لهم ويستعمل الحلم معهم حتى ينكشف أمرهم ويظهر سوء نيتهم وفساد ضمائرهم فيتلاشوا ويسقطوا من أعين الناس من تلقاء أنفسهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان محمد ﷺ يرى أن هذا هو مدى تفكيرهم ، وأن عقولهم لا تستطيع أن تفهم الإسلام إلا على أنه وسيلة لجأ إليها محمد ﷺ وأتباعه للسيطرة على شئون المدينة ؛ وهذا أيضاً كان رأى أبى جهل فى مكة أيام كان رسول الله — ﷺ — يحاول اجتذاب المكيين للإسلام ، وكان الرسول ﷺ يعتقد أنه لو منحهم الله نوراً يرون به لدخلوا الإسلام وأخلصوا له ، ولهذا كان يجتهد فى إفهامهم بالحسنى وشرح الأمور لهم فى صبر . وكان وثيق الأمل فى أن هذا النور سوف يصل إلى قلوبهم يوماً ما ، وإذن فالخير كل الخير فى الصبر عليهم وإفساح الصدر لهم والإغضاء عن أفاعيلهم ، فإنهم لن يبلغوا بعدوانهم للإسلام شيئاً .

ومعنى هذا أن محمداً ﷺ كان يرى ترك الحرية للناس ليتخير كلٌّ منهم الطريق الذى يريده ، وقد رأينا أن المادة ٣٠ من دستور المدينة تقول : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » . وذلك يقرر مبدأ الحرية الدينية داخل الجماعة بأوضح

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

صورة[1] . ولنذكر هنا ما أشرنا إليه من أن الرسول ﷺ كان شديد الاحترام لشخصيات الناس ، حتى خدمه ومواليه ، فكان لا يرفع عليهم صوته ، وكان يتحرج من أن يجرح شعور أى إنسان حتى ولو كان بدويا طارئاً على المدينة لا يعرف من آداب أهل المدن شيئاً ، فكان الرسول ﷺ يستقبله فى رفق ويحدثه فى مودة ويراعى شعوره احتراماً منه للشخصية الإنسانية . وكانت معاملته لنسائه مضرب المثل فى الاحترام والتقدير ، ولا تذكر لنا صحف التاريخ أنه صدر عنه ــ ﷺ ــ ولو فى لحظة غضب ، لفظ يمس شعور إحداهن ، ولسنا بحاجة إلى أن ننص هنا على ما كان من معاملته لأصحابه معاملة الود والمحبة والاحترام لأشخاصهم مع توقيرهم البالغ له ، ومع أنه كان يعلم أنه يستطيع أن يصدر إليهم الأمر فيطيعوا دون مناقشة . إلا أنه كان يفضل دائماً أن يتباحث معهم ويبادلهم الرأى ويأخذ برأيهم إذا وجد أنهم يقولون صواباً . وكل ذلك يدل على احترام محمد ــ ﷺ ــ للشخصية الإنسانية احتراماً كاملا ، وتقديره لحريات الناس واعتبار هذه الحريات أساساً من الأسس التى لا يقوم بنيان الأمة بدونها .

ولعل ابن هشام لم يكن مصيباً عندما قال إن المنافقين « ظهروا بالإسلام واتخذوه جُنة من القتل » ، فالرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ لم يقتل أحداً لشركه ، وابن هشام نفسه يشير إلى حالة أربعة بطون من الأوس ، هم بنو خَطْمة وبنو واقف وبنو وائل وبنو أمية ، ظلوا على الشرك دون أن يمسهم محمد بأذى[2] ، حتى أسلموا من تلقاء أنفسهم بعد الخندق ، كما يقول ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » وقد سموا بعد ذلك « بأوس الله » .

وهذا الموقف تجاه المعارضين كان ــ فيما نرى ــ أساساً من أسس قوة الأمة وإيمانها العظيم بالإسلام ، فإنه لا شىء يزيد المعارض استمساكاً بمعارضته مثل محاولة إسكات صوته بالقوة ، لأن ذلك يجعله يتصور أنه على حق وأن ما يقوله له قيمة كبيرة ، ولا يلجأ أحد إلى القوة فى مسائل الرأى إلا إذا أحس بضعف فى رأيه وخوف

---

(١) هذا هو المبدأ الذى قررته الصحيفة . ولكن لما خالفه اليهود وأخذوا يكيدون للجماعة الإسلامية كان لابد للجماعة أن تحمى نفسها منهم بإخراجهم .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

من أن يغلبه خصومه بالحجة ، فهو يلجأ إلى القوة ليسكت أصواتهم ويتجنب ملاقاتهم في ميدان المناقشة ومقارعة الحجة بالحجة .

وهذا الموقف الذي اتخذه محمد حيال المعارضين والمنافقين لم يكن محض سياسة منه ، بل كان هو أيضاً موقف الإسلام من غير المسلمين ممن كان لهم دين منزل وما يشبه الكتاب ، لأن الإسلام — كما نرى في القرآن الكريم — دين تسامح وحرية فكر ، وهو نور وهدى من الله ، فهو فضل منه يمنحه لمن يشاء ، وقد بينا فيما سبق كيف كان العرب يعرضون الإسلام على الناس ويبصرونهم به ، ثم يتركونهم أحراراً بعد ذلك ليعتنقوه عندما يقتنعون به وتتفتح قلوبهم له .

أثر الحرية والتسامح في انتشار الإسلام :

وقد كان مبدأ الحرية هذا الذي قرره القرآن في أكثر من موضع ونص عليه دستور الجماعة الإسلامية نصاً صريحاً كما رأينا ، وجرى عليه محمد ﷺ في تسيير أمور المدينة ، كان لهذا المبدأ الأثر الأكبر في انتشار الإسلام فيما بعد ، لأن الإسلام ظهر في عصر اضطهادات دينية ومحاولات عنيفة من جانب الدولة البيزنطية وأصحاب المذاهب المسيحية لإرغام الناس على الدخول في دينهم أو مذهبهم .

فلما جاء العرب ودخلوا البلاد تحت راية الإسلام ، ولم يفعلوا أكثر من عرض الإسلام على الناس وتبصيرهم بفضائله ثم تركوهم بعد ذلك أحراراً في اعتناقه إذا شاءوا ، كان هذا الموقف مثار عجب ودهشة من جانب الزرادشتيين والمانويين في إيران والمسيحيين واليهود في الولايات البيزنطية التي فتحها العرب . فتاقت نفوسهم إلى معرفة الإسلام ، ووقع في نفوس الكثيرين منهم أنه ميزة كبرى ، وإلا لما ضن به العرب على غيرهم — في رأيهم . وهذه الفكرة واضحة في كتابات المسيحيين الذين رحبوا بالعرب وحكمهم مثل يوحنا النَّقيُوسي المصري ، وكذلك في كتابات المسيحيين الذين كرهوا العرب والإسلام وإن دخلوا في خدمتهم ، مثل يوحنا الدمشقي[1] . بل ذهب الغيظ من انجذاب المسيحيين للإسلام نتيجة لتسامح

(١) الذي كان هو ووالده قبله في خدمة البلاط الأموي منذ أيام معاوية بن أبي سفيان .

المسلمين أن حاول نفرٌ من مساومة قرطبة ورهبانها إرغام المسلمين على الخروج من تسامحهم ، وذلك بإهانة الإسلام ومقدساته علنا فى الشوارع ، لكى يقتادهم الشرطى إلى القضاء . وأمعن القضاة فى التسامح معهم ، فكانوا يحاولون استتابتهم حقناً لدمائهم ، فظنَّ أولئك المتعصبون أن هذه فرصة جديدة أتيحت لهم ليظهروا بمظهر الأبطال ، فتمسكوا بالعداء للإسلام وإهانة مقدساته مما كان يضطر القضاة إلى الحكم عليهم بالموت ، وقد اشتهر بذلك الراهب يولوج القرطبى Eologio De Cordoba وصاحبته فلورا Flora وكلاهما انتهى أمره إلى القتل بسيف الشرع ، وكانا وأمثالهما يحسبون أن دماءهم ستذكى غضب النصارى على الإسلام ودولته فى الأندلس فتكون ثورةٌ دامية أو تؤدى على الأقل إلى تنفير النصارى من الإسلام . ولكن الحركة أخفقت ، وأصدر مجلس طلبطلة الدينى المسيحى قراراً يسفه فيه آراء أولئك الرهبان الذين بلغ بهم التعصب الدينى مبلغ الجنون . وعقب ذلك ازداد إقبال الناس على الإسلام فى الأندلس .

الصورة العامة للجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة :

كانت الجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة إذن جماعة سليمة من كل وجه : سليمة فى تكوينها وسياستها الداخلية والخارجية ، وسليمة فى قواعد الحكم والعمل التى سارت عليها . كانت جماعة رشيدة ، كل من فيها يؤمن بها ويعرف واجبه حيالها ، لأن القرآن يفتح عيون الناس على حقوقهم وواجباتهم ويبين لهم المبادىء الخلقية التى ينبغى أن تسير عليها الجماعة الفاضلة . وكان محمد — ﷺ — يتبع طريق العدل والإحسان ، فيعطى الناس حقوقهم ويضمن حرياتهم ومصالحهم ، كما رأينا فى الدستور الذى ناقشنا أهم أبوابه ، وليس هناك ما يحفز الناس على أداء الواجب مثل حصولهم على الحق الذى يقابله ، وقد حصل الناس فى المدينة على خير كثير حال قيام جماعة الإسلام فيها ، فإن انتقال محمد ﷺ إليها وضبطه أمورها نشر الأمان فى ربوعها ، وغزواته وسراياه التى قام بها أو بعث بها أمَّنتها من كل خطر خارجى ونشرت سلطانها على مساحات شاسعة حولها ، فأمنت الطرق المؤدية إليها وتحركت تجارتها بعد طول ركود ، وأخذت المدينة تحتل مكانة مكة فى التجارة والمال . ومع الأمن الداخلى والخارجى وانتعاش التجارة تحركت الهمم للإنشاء ، وكثر المال فى

أيدى الناس ، وأحسوا بنعمة الإسلام كعقيدة ونظام سياسى واجتماعى ، وازداد حرصهم عليه وتمسكهم بالمبادىء التى يدعو إليها ، وارتفعت هممهم إلى مستوى المركز الذى وصلت إليه جماعتهم ، فظهرت بينهم شخصيات امتازت بصفات القيادة والتوجيه وحسن الرأى والتدبير ، وأضفى الإسلام عليهم نعمة التواضع وإنكار الذات والاتجاه إلى عمل الخير .

لهذا نجد أنه ينطبق على مجتمع المدينة أيام الرسول ـــ ﷺ ـــ ما يسميه الفلاسفة : « المدينة الفاضلة » أى المجتمع الخيِّر الذى تسير فيه الأمور على قواعد المحبة والتعاون ، ويرجع الناس فيه إلى صوت العقل ومصلحة الجماعة . ويندر أن نقرأ فى أخبار المدينة أيام الرسول ﷺ ـــ على كثرتها وتفصيلاتها التى تقدمها لنا كتب السيرة ـــ شيئاً يدل على فساد أو ضعف أو اختلاف شديد بين الناس ، وإنما جدهم متعاونين معاً متطلعين إلى الخير متحدين فيما بينهم متمسكين بالإسلام وناظرين إلى خيره قبل أن ينظروا إلى خير أنفسهم .

وقد كان الأنصار يشعرون بذلك شعوراً دائماً ، فما تحدث أحد منهم إلا ذكر نعْمة الله على المدينة وأهلها وما أصابهم جميعاً من الخير منذ حل بهم محمد ﷺ وأظلتهم راية الإسلام ، وعلى طول أيام الرسول ﷺ كان الأنصار أول الناس خروجاً للغزو وأشدهم بلاء فى الميدان ، وبهذا كانوا يعبرون عن شكرهم للنعمة التى حلت بهم مع الإسلام وفضل الله ورسوله ﷺ عليهم .

وهناك فريق آخر من أهل المدينة أحسوا بنعمة الإسلام إحساساً عميقاً وعبروا عن شكرهم له بالتضحية البالغة ، وهو فريق القُضاعيين ، من بطون الحاف ابن قضاعة . فلقد كانوا مستعبَدين ممتهَنين قبل الإسلام ، فلما استقر محمد ﷺ فى المدينة اجتذبهم إليه ورفع قدرهم ، وزال عنهم الضيم باعتناقهم الإسلام ، وأصبحوا مساوين لغيرهم . ولما كانوا هم معظم من يفلحون الأرض فقد أصبحت لهم الأراضى التى استطاعوا استصلاحها ـــ وكانت كبيرة جدًّا ـــ سواء داخل المدينة أو فيما حولها . وكان محمد ﷺ قد اتفق مع المدنيين على أن يتركوا له الأرض المهملة التى لا يفيدون منها ، فتصرف هو فيها بإعطاء جانب كبير منها للقضاعيين الذين كانوا بحاجة إلى أرض يملكونها ، فانتقل الكثيرون منهم من الفقر إلى يسر الحال ، وكان معظم الذين أفادوا من ذلك من قبيلة أسلم ، فأصبح الأسالمة أنصارَ الرسول

والمهاجرين خاصة ، وقد انتفع بهم عمر أحسن انتفاع ، إذ إنه كان رأس الهيئة المدبرة المنظمة وراء الرسول ﷺ ، فكان يركن إليهم فى الكثير من المهام ، وإلى عناية عمر بأمرهم يرجع الفضل فيما قرره الرسول ﷺ من اعتبار الأسالمة مهاجرين ، أى تسويتهم بقومه . وعندما خرج الرسول ﷺ لفتح مكة لقى منهم بطوناً خارج المدينة ، فقالوا له إنهم ليسوا أقل إخلاصاً للإسلام من أسالمة المدينة ، فعدّهم هم الآخرين مهاجرين ، وإن أقاموا فى مواضعهم .

أصبح الأسالمة القضاعيون إذن مواطنين كاملين فى جماعة المدينة ، وقد أشعرهم هذا بعزة وكرامة ، إذ تخلصوا من استعباد الأمس . وعندما اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة — بعد موت النبى ﷺ — كان صوت الأسالمة هو الذى رجّح كفة أبى بكر فى المناقشة حول اختيار خلف للرسول ﷺ . وقد فعل الأسالمة ذلك حذراً من أن يعود السلطان فى المدينة للأوس والخزرج ، وتعبيراً عن شكرهم لمحمد ﷺ وللإسلام على ما أتاهم به من نعمة المساواة والكرامة الإنسانية ، إلى جانب ما عاد عليهم من المكاسب المادية .

خلاصـــــة :

تبينا فى الفصل الأول قيام الجماعة الإسلامية والأسس التى ارتكز عليها بنيانها ، وعرفنا موقف الجماعة من النظم السياسية التى قامت فى بلادها بعد ذلك ، وبيّنّا كيف وقع الانفصال بين الجماعة من ناحية وبعض تلك النظم من ناحية أخرى فى بعض الأحيان ، وأثبتنا أن الجماعة ظلت محافظة — ولو من الناحية النظرية — على المبادئ الرئيسية التى يقررها الإسلام كعقيدة وشريعة وميزان خلقى ، والتى طبقها محمد ﷺ مؤسس الجماعة الإسلامية فى المدينة .

ثم تتبعنا بعد ذلك اتساع نطاق جماعة الإسلام فى كل اتجاه ، حتى نشأ ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامى .

ولما كانت الجماعة الإسلامية هى أساس الوجود الإسلامى كله ، فقد خصصنا هذا الفصل الثانى للإحاطة بالجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة ببساطة تفصيلية ، لنرى الأسس القانونية والخلقية والحضارية التى قامت عليها ، باعتبار أن هذه الجماعة

الأولى هي المثل الأعلى الذى كان ينبغي أن نقتدى به الجماعات الإسلامية كلها فيما بعد .

فبدأنا ببيان الأحوال في سهل المدينة ، قبل أن يهاجر إليها رسول الله وصحابته ، وعرفنا عناصر السكان الأربعة التي سكنت هناك ، وهم : بقايا القضاعيين القدماء والخزرج ، والأوس ، واليهود ، وتكلمنا عن أحوالهم ، وشرحنا أسباب الخلاف الذى كان قائماً بينهم ، وخرجنا من ذلك بأن أهل المدينة كانوا يبحثون عن الأمان ممثلا في صورة نظام قانونى وخلقى عادل يقوم على تنفيذه رجل أو رجال من أهل الفضل والحكمة والعدالة والمقدرة . وقلنا إن مندوبى أهل المدينة عندما التقوا والرسول في مكة في موسم الحج تبينوا أنه هو القائد الذى كانوا يبحثون عنه ، وأن الإسلام الذى بشرهم به هو ذلك النظام القانونى والخلقى السامى الذى كانوا يبحثون عنه . وكما وجد الرسول ﷺ في المدينة الفرصة لإنشاء الجماعة الإسلامية التي كان يسعى لتحقيقها على الأرض ، فكذلك وجد أهل المدينة في الرسول ﷺ أملهم الذى كانوا في أشد الحاجة إليه ليخرجوا من الفوضى والمخاوف التي كانوا يعانون منها . وإلى هذا التطابق الكامل بين مطلب الرسول ﷺ ومطلب أهل المدينة يرجع السر في ذلك الالتحام الكامل بين الإسلام وأهل المدينة الذى كان الأساس المتين لقيام الجماعة الإسلامية . وعلى أساس من ذلك الالتحام بدأت هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، فكان ذلك بدءاً لعصر جديد في تاريخها وصفحة جديدة في تاريخ الإنسانية .

وتتبعنا الخطوات التي اتخذها الرسول ﷺ لينشىء جماعة الإسلام — أو أمته — في المدينة ، ونبينا أنها كانت خطوات سليمة مقدرة بحساب وقائمة كلها على أساس الإسلام ومتجهة نحو إنشاء جماعته . فمنذ اليوم الأول لوصوله — ﷺ — بدأ بالتشاور مع أهل المدينة ممثلين في النقباء الاثنى عشر الذين اختاروهم ليلة بيعة العقبة الثانية ، ثم ذكرنا كيف رأى الرسول أن يقيم في منازل بنى عَدِى بن النجار ، وهم بطن من الخزرج . وكان الخزرج إذ ذاك مغلوبين على أمرهم ، فكان قرار الرسول ﷺ إنصافاً لهم ورفعاً لهمتهم ، وحافزاً لهم على التغاضى عن ثأرهم من الأوس .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده ، وهو ليس محض مكان للصلاة ، بل كان مركز الحياة الاجتماعية للجماعة : هناك كانوا يلتقون ويتبادلون الرأى ، وهناك كانوا يسمعون

أخبار جماعتهم ، وعندما بنى محمد — ﷺ — حجراته فى ركن من ساحة المسجد أصبح المسجدُ المركزَ الرئيسى للجماعة أيضاً . وبنشوء مركز الجماعة تكونت نواتها السياسية والاجتماعية والعمرانية .

وبينا فى فقرة خاصة كيف زاد عمران المدينة ونشأت فيها الشوارع وصفوف البيوت والمساجد والأحياء ، وكيف اتصلت أجزاء السهل بعضها ببعض وعمرت الأجزاء التى كانت متروكة مهملة ، فارتفعت أسعار الأرض والمبانى ، وكثر الناس فى المدينة ، واتصلت بطريق التجارة فتوافرت فيها حاجات الحياة ورخصت أسعار الأطعمة باتساع الزراعة ، وزاد إنتاج الناس للأقمشة وما إليها . وهذا ما يعبر عنه — بالمفهوم الحديث — بزيادة الإنتاج ، وهو من العلامات المؤكدة لنجاح الجماعات الإنسانية وصلاح نظمها ومبادئها الخلقية .

وتكلمنا عن مبدأ المؤاخاة الذى قرره الرسول ﷺ ، وبينّا أنها لم تكن مجرد مؤاخاة مهاجرين بأنصار لتحسين المركز المالى للمهاجرين ، وإنما كانت مؤاخاة إنسانية واجتماعية ، مؤاخاة فى الدين والوطن كما نقول اليوم .

بعد ذلك درسنا دستور المدينة — أى قانونها الأساسى — الذى يتمثل فى الكتاب الذى كتبه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن انضم إليهم من اليهود الذين كانوا يعيشون فى المدينة ، وبينّا كيف أن هذا الكتاب وثيقة دستورية من الطراز الأول ، حددت فيها المبادىء الأساسية للكيان السياسى والإنسانى للجماعة .

وقد أوردنا النص الكامل للوثيقة ، وذكرنا طرفاً من تاريخها وكيف تكونت وكيف وصلت إلينا ، ثم ناقشنا المبادئ التى تضمنها واحداً واحداً ، سواء أكانت سياسية أم تشريعية صرفة أم خلقية أم اقتصادية . ولا يمكن أن نوجز هنا ما قلناه هناك لأنه بطبعه موجز فى النص ، فيراجع فى موضعه .

وختمنا الكلام عن الوثيقة بإلقاء نظرة إجمالية على النظام العام للجماعة الإسلامية فى ظلها ، وفررنا فى فقرة خاصة أن نشوء هذه الوثيقة صدر عن التفكير القانونى لرسول الله ﷺ واتجاهه إلى أن يتصرف دائماً فى حدود قانون محدد معروف . وضربنا لذلك مثالين من السيرة النبوية يدلان على أنه — ﷺ — كان لا يتصرف فى الشئون السياسية إلا بعد التشاور مع أصحابه ليصدر القرار عن الجماعة نفسها ،

وإذا خرج الناس معه لمهمة معينة ثم تغيرت الظروف تغيراً يمكن أن يؤدى إلى الحرب ، فإنه — ﷺ — كان يطرح الموضوع على الناس فى مناقشة عامة ليقرروا فيه ما يرون بحسب الظروف الجديدة ، فقد يكون فيهم من لا يريد الحرب ويفضل العودة إلى المدينة . حدث هذا ليلة موقعة بدر ، وعندما اعترض القرشيون طريق المسلمين عند الحديبية وهم يريدون قضاء العمرة . ففى كلتا الحالين لم يكن الناس قد خرجوا مع الرسول للحرب ، فلما تغيرت الظروف وأصبح وقوع الحرب محتملا طرح الرسول الأمر للمناقشة العامة ، فمن أراد دخول الحرب ثبت معه ، ومن لم يشأ كان له أن يعود أدراجه .

وتحدثنا بعد ذلك عن إدارة الرسول — ﷺ — لشئون الجماعة وبينا أنها كانت إدارة سليمة حكيمة ، فساد الأمان والرخاء ، وعلا جاه المدينة وجماعتها بين الناس ، وأقبل العرب للانضمام إليها من كل ناحية ، وبينّا كيف جعل الرسول ﷺ أهل المدينة يدبرون أمر مدينتهم بأنفسهم ، وكيف أنه لم يتجه إلى خلق كيان أو جهاز إدارى متخصص ، بل كان يعهد فى المهمات إلى من يراه قادراً على ذلك من الصحابة ، فإذا قام الصحابى بما كلف به عاد إلى صفوف الصحابة وإلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وقلنا إن السر فى ذلك كان القدوة الصالحة التى كان محمد ﷺ يضربها للناس بعمله ، فهو نفسه كان يعمل باستمرار ، وكان لا يأنف حتى من العمل بيده ، فكان يخدم نفسه بنفسه ويشترك فى بناء المسجد بيده ، وفى وقعة الخندق اشترك مع الناس فى العمل ، وكان يشارك فى الحراسة الليلية ، فإذا اشتد به البرد دخل خباءه ليستدفئ بعض الشىء ثم يعود إلى الحراسة والإشراف على الخندق .

وأشرنا إلى الفئة القليلة من الصحابة الذين كانوا يعملون معه ليل نهار حسبة لله ورسوله ﷺ ، وكان على رأس هذه الجماعة عمر بن الخطاب وأبو بكر ، فكان أفرادها ينفذون ما يرسم الرسول ﷺ من الخطط فى صمت وإنكار للذات .

وبينا كيف أنه — ﷺ — كان حريصاً على العمل عارفاً بقدر العاملين مقدراً فضلهم ، فلم يكلف مرة واحداً من الصحابة بعمل إلا أوصاه وأعطاه تعليماته وربما رافقه جزءاً من الطريق ، ثم ظل ينتظره بعد ذلك . وذكرنا أمثلة من حرصه على أصحابه ومراعاته مشاعرهم ورعايته لأسرهم ، وبينا كيف أنه — فى حالات

استشهاد من يستشهد منهم — كان يستقدم الأبناء ويرعاهم بنفسه أو يوصى بهم بعض أصحابه ، وكيف كان يحرص أشد الحرص على مواساة أرامل الشهداء .

عرفنا كذلك كيف كان إخلاص الناس في الوقت نفسه إخلاصاً لأنفسهم ، لأن كل خير تناله الجماعة ينالهم منه نصيبهم العادل .

وضربنا الأمثلة على اهتمام الرسول ﷺ بأن تتحسن أحوال الناس الاقتصادية ونظهر عليهم نعمة الإسلام والانضمام إلى الجماعة .

وخصصنا فقرة للكلام على أن الحرية كانت أساس الحياة في الجماعة ، وضربنا أمثلة على حرص الرسول ﷺ على أن يتمتع كل أهل المدينة بحرية الرأى ، حتى ولو كانوا من المنافقين ، وبينا كذلك كيف أنه كان حريصاً جدًّا على احترام شخصيات الناس وكراماتهم ، فلم يصدر عنه قط ما يمس شعور الناس أو يجرح إحساسهم .

وبينا بعد ذلك أثر الحرية في بناء شخصيات أفراد الجماعة ، وكيف أصبحت جماعة الإسلام — نتيجة لذلك — مجتمعَ رجال أحرار ذوى اعتزاز بدينهم وجماعتهم وأشخاصهم ، وإلى هذا الاعتزاز نرجع الانتصارات التي كسبوها في ميادين الشرف والجهاد والحكم والإدارة .

وأضفنا إلى ذلك ملاحظة عن مبدأ التسامح — وهو مظهر من مظاهر الحرية — وكيف أدى إلى زيادة انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه .

وختمنا الفصل بصورة عامة للجماعة الإسلامية التي أنشأها الرسول — ﷺ — في المدينة مبين خصائصها وفضائلها ، وأوضحنا أنها كانت صورة واقعية طبيعية لما تخيله الفلاسفة وسموه « المدينة الفاضلة » ، وبينا كيف كان المواطنون فيها مقدرين النعمة التي أصابوها في ظلها ، وضربنا مثالين لذلك بإخلاص الأنصار للأمة التي شاركوا في إقامتها في بلدهم وعرفان الأساتذة الفصاعيين لفضل الإسلام وأمنه عليهم .







مراجــع مختــارة

أصــول قديمــة :

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علىّ بن أبى الكرم : « الكامل فى التاريخ » ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، ج ١ .

ابن حزم ، أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد : « جوامع السيرة » بتحقيق إحسان عباس . القاهرة ١٩٥٧ .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد : « كتاب الطبقات الكبرى » ، بيروت ١٩٥٧ ، الأجزاء الثلاثة الأولى .

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد البر النمرى : « الدُرر فى اختصار المغازى والسير » ، بتحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٦٦ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل : « البداية والنهاية » ، القاهرة ١٩٣١ ، الأجزاء الأربعة الأولى .

ابن هشام ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعافرى المصرى : « سيرة النبى ﷺ » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين .

الخزاعى ، أبو الحسن علىّ بن محمد : « الدلالات السمعية على ما كان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » . مخطوط بدار الكتب المصرية (التيمورية ١٩٣٨ ـــ تاريخ) .

الدياربكرى ، حسين بن محمد بن الحسن : « تاريخ الخميس فى معرفة أنفس نفيس » ، المطبعة الوهبية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

السمهودى ، نور الدين علىّ بن محمد بن جمال الدين : « وفاء الوفا بأخبار دار

المصطفى » ، مطبعة الآداب والمؤيد ، القاهرة ١٩٢١ .

السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله : « كتاب الروض الأنف » ، القاهرة ١٩١٤ .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : « تاريخ الرسل والملوك » بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦١ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي : « إمتاع الأسماع » ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤١ .

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، طبعة دار الكتب المصرية . الأجزاء ١٦ — ١٧ — ١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .

الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن واقد : « كتاب المغازي » بتحقيق مارسدن جونز ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ .

مؤلفـــات حديثـــة :

أحمد إبراهيم الشريف : « دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ .

أحمد إبراهيم الشريف : « مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول » ، القاهرة ١٩٦٥ .

الألوسي ، السيد محمود شكري البغدادي : « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » .

عباس محمود العقاد : « عبقرية محمد » . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٧ .

عباس محمود العقاد : « مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية » ، القاهرة ١٩٥٥ .

محمد حميد الله : « مجموعة الوثائق السياسية ، من عهد الرسول والخلفاء الراشدين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .

محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، القاهرة ١٩٣٥ .

محمد حسين هيكل : « فى منزل الوحى » ، القاهرة ١٩٣٧ .
محمد عزة دروزة : « عصر النبى عليه السلام » ، دمشق ١٩٤٥ .
محمد لبيب البتانونى : « الرحلة الحجازية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩١١ .

مراجــع غيــر عربيــة :

BLACHERE, Regis . Le Probleme De Mahomet Paris 1952

BUHL, FRANTS Das Leben Mohammeds , Heidelberg , 1955

DEMOMBYNES , GAUDEFROY (M) · Mahomet , Paris 1957

MONTGOMERY WATT (W) . Muhammad At Mekka , Oxford 1953 .

MONTGOMERY WATT (W) Muhammed At Medina , Oxford 1956

MONTGOMERY WATT (W) Muhammad , Prophet , And States - Man , Oxford 1965

SERJEANT (R B) The Constitution Of Medina , In The Islamic Quarterly , VOI VIII





الفصل الرابع

ملامح المجتمع الإسلامي





الطابع الغالب على المجتمع الإسلامى :

فى الفصل الأول من هذا الكتاب بينا كيف أن الجماعة — أو الأمة — هى أساس كيان الوجود الإسلامى ونظامه ، فإن عبادات الإسلام كلها ذات طابع اجتماعى ، والإسلام لا يعرف الرهبنة أو الانقطاع للعبادة ، إذ إن غاية الدين هى سعادة البشر فى الدارين ومعاونتهم فى الوصول إلى حياة أفضل . فالصلاة — مثلا — تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فهى طريق للأخلاق الكريمة ، إلى جانب كونها قربة إلى الله تعالى ، وخير الصلوات ما يؤدّى جماعةً ، والمساجد أمكنة التقاء المسلمين بعضهم مع بعض ، ليقوى فى نفوسهم الشعور بالجماعة ، والمسجد يسمى أيضاً : « الجامع » أى الذى يجمع بين الناس ليقفوا بين يدى الله صفاً واحداً فى أوقات معلومة ، يعظمونه ويسألونه . والمساجد كذلك دور دراسة ودور قضاء ، وكانت تستعمل فى بعض الأحيان مراكز لبعض الأعمال ذات الطابع العام ، مثل توزيع الأراضى على المتقبِّلين ، أى متعهدى الضرائب ، والمساجد كذلك مراكز إعلام ، فالمفروض أن أخبار الجماعة الإسلامية ينبغى أن تبلغ للمسلمين من منابر المساجد فى اجتماعات تعقد لهذا الغرض أو فى خطب الجمعة والأعياد . وهذا هو — على الأقل — ما كانت الأجيال الإسلامية الأولى تفعله . وكان هناك فى بعض المساجد ، كمسجد قرطبة الجامع ، موضع معين يحلف عنده الناس أمام الشهود على صدق ما يقولون أو على ارتباطهم بتعهداتهم ، وكان هذا الموضع يسمى : « مَقطَع الحق » .

أما بقية عبادات الإسلام — كالزكاة والصوم والحج — فجانبها الاجتماعى — أو الجماعى — واضح لا يحتاج إلى بيان .

وليس أدلّ على الطابع الاجتماعى لعبادات الإسلام من أنها تدخل فى نطاق الشريعة . والشريعة هى الطريق ، فكأن العبادات فى صميمها طريق لكمال الإنسان

وسعادته ، لا مجرد طقوس تؤدى لذاتها ، كما هو الحال مع طقوس معظم الأديان الأخرى .

ومن الواضح أنه لا دين بغير ناس يؤمنون به ، لأن الدين طريق ، ولا طريق بغير سابلة ، والإسلام — بالذات — لا يتمثل أبداً فى صورة رجل منقطع للعبادة فى البرية ، كما نرى فى غيره من الأديان ، ولقد عبر الرسول الكريم ﷺ عن ذلك أصدق تعبير ، حيث قال : « لَصَبْرُ أحدِكم على مجالس المسلمين ساعةً خير من عبادة مائة عام » .

وتلك ميزة للإسلام كبرى ، فهو دين حياة ومجتمع ولقاء وأخذ وعطاء .

ولهذا فإن محمداً — ﷺ — لما بادر إلى إنشاء الجماعة الإسلامية لأول نزوله المدينة ، لم ينشئها فى صورة نفر من الحواريين أو الدعاة يخرجون « لصيد الرجال » ، كما يحكون من قول السيد المسيح — عليه السلام — لبطرس الحوارى ، وإنما هو أنشأها فى صورة مجتمع إنسانى عادى يضم الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وملكاتهم . وبينما نجد السيد المسيح — فيما يحكى المسيحيون — يسير وسط حوارييه ، لا يكاد يتكلم إلا معهم ، فإذا تكلم مع غيرهم عُدَّ ذلك أمراً غريباً ينطوى على حكمة بالغة ، وكلامه كله رموز ومجازات وكنايات تحتمل معانى شتى ، نجد محمداً ﷺ يعيش وسط الناس جميعاً كواحد منهم ، يتحدث إلى كل من يريد أن يستفسره فى أمر ، ويتكلم كلاماً واضحاً مفهوماً ، يحل للناس مشكلاتهم . وكان يشاركهم عواطفهم ، حتى كان يداعب الأطفال بكلام يناسبهم .

ولم يكن فى حياته — ﷺ — تكلف أو مظهر مميز خاص ، فهو يأكل ما تيسر له من الأطعمة المباحة ، فيشبع من الطعام الجيد إذا صادف الطعام الجيد ، ويكتفى بتمرات إذا لم يجد إلا التمرات ، وهو يلبس كذلك ما تيسر له دون تكلف ، فإذا تيسر له ثوب غالى الثمن لبسه ، إلا إذا كان حريراً . والغالب عليه أنه كان يكتفى بثوب بسيط يغسله بيده ويجلس بجواره إلى أن يجف ، لا لكى يراه الناس يفعل ذلك أو مظاهراً بالتقلل ، وإنما لأن هذه كانت طريقته فى الحياة .

ومن الصفات المميزة له ﷺ فى هذا المجال أنه كان لا يشتهى شيئاً غير موجود ، فهو يأكل ويلبس ما حضر ، لا يراعى فى الحالين إلا النظافة . وكان — ﷺ —

من أحرص الناس على النظافة فى كل شىء . فهو يغتسل كل يوم ، حتى فى الأيام الباردة ، ويغسل ثوبه بيده ، ولا يزال طول اليوم يتوضأ وينظف أسنانه بالسواك أو الخلال ، حتى أصبح السواك — وهو « فرشة » الأسنان العربية — سنة من سننه ﷺ .

وقد رأينا فى دستور المدينة أنه كان — فى الواقع — تنظيماً للتكافل الاجتماعى الذى نحن بصدده ، وقد لاحظنا أن الناس فى هذا النظام كانوا لا يكادون يحتاجون إلى حكومة مركزية ، لأن ترابط الناس فى المجتمع الإسلامى — على أساس المبادىء الواردة فى دستوره — كان كفيلا بتسيير الأمور سيراً حسناً ، إذا راعى الناس الالتزام عبادئه .

بنـــاء المجتمـــع :

كل المجتمعات القديمة والوسيطة مجتمعات طبقية ، أى أن الناس ينتظمون فيها طبقات بعضها فوق بعض .

على قمتها يتربع رئيس الجماعة — ملكاً كان أو قائدا — هو وأهل بيته .

وتليه طبقة أهل الحكم ، يحتل كل منهم مركزاً من مراكز القوة ، وتقاس أهمية هذه المراكز بقربها أو بعدها من رئيس الجماعة ، فقد يصل إلى القوة ناس عن طريق المصاهرة لصاحب السلطان أو تقديم المال له . ويتمتع أصحاب مراكز القوة هؤلاء بمراكز ومسئوليات اجتماعية تجعل منهم طبقة ممتازة تتمتع بأكبر قدر من خيرات البلد . ويدخل فى طبقة أهل القوة كبار رجال الدين بما يتمتعون به من سيطرة روحية على الجماهير وبما يملكون — بحكم التنظيم الدينى — من أموال وعقارات أحياناً ، وطبقة أهل المال من التجار وأصحاب الأراضى والأموال وحواشى أهل القوة .

ويلى هؤلاء جميعاً جمهور الناس ، وهم كتلة شعب الجماعة من صناع وزراع وموظفى الدولة وصغار التجار وصغار رجال الدين وأهل الحرف الصغيرة غير الثابتة من الحمالين والمكارين والخدم وألوف كثيرة من السوقة ، أى الذين يقضون كل وقتهم فى الأسواق دون عمل واضح معين ، فهم جمهور سائل يدخل فى جملته المتسولون والمشعوذون واللصوص .

وهذا التنظيم الاجتماعي الطبقي ورثته المجتمعات الإنسانية المنحضرة من العصر القبلي البدائي في تاريخ التطور الاجتماعي البشري ، فقد كانت القبائل الأولى تعتمد على محارب قوي يسودها ويوجهها ، ويساعده في ذلك — وينافسه على السلطان في الوقت نفسه — نفر من المحاربين ذوي القوة والجرأة والبأس ، وهؤلاء يحيطون برئيس القبيلة الذي يحدد لهم أمكنتهم على أساس تقديره لمكانتهم أو خوفه منهم .

ثم إن هذا التنظيم البدائي كان سبب الفساد الذي استشرى في النظم السياسية والاجتماعية القديمة والوسيطة ، وأدى بها إلى الزوال ، واحداً بعد الآخر ، لأن استمراره يؤدي دائماً إلى تجمع مطّرد للسلطات في يد صاحب السلطان وحاشيته حتى يصبح كل شيء في المجتمع رهناً بأمره . وإذا استطاع بعض الملوك الأقوياء أن ينهضوا بمسئوليات هذا السلطان فإن الغالبية كانت تعجز عن ذلك ، فتتسرب القوة إلى طبقة أهل الحكم والحاشية ، وتتوزع السلطة وتضيع المسئولية ويصبح الأمر سباقاً نحو السلطان والغنى من جانب جماعة من المجهولين الأنانيين الذين يستهترون بالحقوق ، فيزداد جمهور الناس فقراً ويدب اليأس في نفوسهم وتضيع هيبة الدولة وتنعدم سلطة القانون ، وتسود الفوضى ويتمهد الطريق لدولة جديدة تحل محل الأولى .

وليس من الضروري أن تكون هناك أسباب معينة لفساد هذا النظام في هذا البلد أو ذاك ، لأن الفساد طبيعي حال مرور الزمن ، كما يشيخ الكائن الحي بمرور الزمن أيضاً ، دون أن تكون هناك أسباب خاصة للشيخوخة عند كل مخلوق على حدة . وما التشريعات الصالحة إلا وسائل لوقف التطور الطبيعي للأنظمة نحو الفساد ، كما أن الأدوية وألوان العلاج ليست إلا وسائل لوقف فعل الزمن في الكائن الحي أو تخفيف أثره .

وقد حاول الناس والمفكرون تلافي أسباب فساد ذلك النظام الطبقي العام بإيجاد ضوابط وروابط تحدد سلطة الرؤساء وأهل الحكم وتقلل من حدة التنافس الوحشي حول السلطة ومراكز القوة والمراكز الاجتماعية ، وتحمي حقوق الناس وتؤمنهم من عدوان الأقوياء . وهذه المحاولات هي التي نسميها « التشريعات » . وقد مرت الإنسانية بتجارب كثيرة في ميدان التشريع ، لكنها لم تصل إلى شيء معقول مضمون في محاربة آفات النظام الطبقي إلا في العصور الحديثة ، عندما استنار الناس وتعلموا ،

وأقدمت الجماهير على الثورة ضد طغيان أهل السلطان ، وقد بدأ ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وتمثل أول الأمر فى صورة الثورة الفرنسية التى فتحت الأبواب لإصلاح نظم الحكم وفلسفاته .

وتشذ عن ذلك المجتمعات القبلية ، لأنها وإن كانت منقسمة أيضاً إلى رؤساء متميزين وأتباع ليس لهم من الأمر إلا القليل فإنها لم تتعرض للفساد على الصورة التى جرت فى المجتمعات غير القبلية ، فإن حياة البوادى القاسية على الضعفاء والعاجزين عجزاً مطلقاً أولا بأول ، فلم يبق على قيد الحياة إلا من له حظ — ولو قليلا — من القوة والغدرة والبسالة واحتمال المتاعب ، ومن هنا قل التفاوت بين الناس من هذه النواحى وساد مبدأ المساواة والتقارب بين الناس فى المستوى الاجتماعى والإنسانى . ثم إن المجتمعات القبلية — بطبعها — مجتمعات فقيرة لا تملك من مصادر الثروة إلا عيون الماء وحقوقاً مكتسبة بالقوة على مساحات معينة من الأرض ، أما الأفراد فتقوم ثرواتهم على الخيل والماشية والجمال مما لا يدر مالا حقيقياً ولا يمكن صيانته من العدوان صيانة تامة ، وحيث لا مال يُجمع ويكدس ولا أراضى خصبة تدر الخير الوفير على أصحابها فلا سبيل إلى التنافس الشديد ، لأن المال مدار التنافس الأكبر بين البشر ، فهو أساس القوة والجاه . وحتى إذا سعى الإنسان للوصول إلى القوة والجاه فإنه يفعل ذلك للحصول على الثروة ، وذلك كله منعدم فى المجتمع الصحراوى ، إذ إن المال الكثير نفسه غير ميسور ، وكذلك لا سبيل إلى الجاه البعيد تبعاً لذلك .

ولهذا كله ظل الفرد فى المجتمع القبلى محتفظاً بكيانه الإنسانى ، فلم يتعرض لصلف أصحاب السلطان والثروة ولم يهبط إلى هباء الفقر المطلق وذُله . حتى أسرى الحروب الذين كانوا يصبحون أرقاء وعبيداً لم يظلوا فى المجتمع القبلى عبيداً إلا بالاسم ، لأنهم كانوا يمارسون صنائع ويؤدون خدمات لا يستطيع القيام بها أفراد القبيلة ، فأصبحت لهم بذلك فائدة واضحة ووظيفة رفعت مكانتهم الاجتماعية .

وفى القبائل العربية الجاهلية — كما نعرفها — كان هناك شيوخ وأهل رأى وامتياز كانت لهم الصدارة بحكم ما امتازوا به من ملكات طبيعية . ولكنهم لم يكونوا طبقة أشراف أو نبلاء ، وإنما كانوا سادة فى أنفسهم لا سادة على غيرهم ، يحترمهم إخوانهم فى القبيلة لمكانتهم وخصالهم الممتازة .

المجتمع الإسلامي مجتمع لا طبقي :

ولقد ولد الإسلام في هذا المجتمع السليم البنيان نسبياً ، الذى انعدمت فيه الطبقات ، فاحتفظ كل إنسان فيه بمكانه الاجتماعي . وهذا ولاشك كان جانباً من الحكمة الإلٰهية التي وضعت رسالتها في مجتمع سلم من الآفة الكبرى للمجتمعات ، وهي ضياع القيم الإنسانية وانتقال الفيم إلى الثروة والجاه ، مما يجر إلى الفساد والتدهور الاجتماعي وشيوع الظلم وانهيار الحكومات ، كما رأينا .

وقد قامت دعوة الإسلام — في جانبها الاجتماعي — على أساس مساواة الناس ، بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو الثروة أو الجاه أو الوضع الاجتماعي ، ولا يزال القرآن يردد هذه الدعوة حتى انقطع السبيل إلى قيام مجتمع إسلامي ذى طبقات ، وقد رأينا أن محمداً — ﷺ — والصحابة من حوله كانوا هم المثل الأعلى في ذلك ، فقد وهبه الله النبوة وصفات الامتياز التي أهلته لها وبلغ من الجاه ما لم يبلغه غيره في مجتمعه ، ومع ذلك فقد كان بين الناس كأحدهم ، والقاعدة العامة التي كان يسير عليها هي الحديث الشريف : « المسلمون سواسية كأسنان المشط ، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

وكان من نتيجة ذلك أن نمت المجتمعات الإسلامية بدون طبقات متحاجزة أو متمايزة ، حتى عندما قامت دولة الإسلام واتسع نطاقها وكبرت ثروتها وعظم خلفاؤها ، لم يصبح أولئك الخلفاء وأهل بيتهم ورجال دولتهم طبقة أعلى من الناس ، بل ظلوا — برغم اتساع نفوذهم وضخامة ثروات بعضهم — ناساً كغيرهم ، لا يتميزون بشيء في التنظيم الاجتماعي العام . بل إنه في البلاد الإسلامية التي كانت قبل الإسلام بلاد طبقات اجتماعية متحاجز بعضها عن بعض — كإيران والهند — محا الإسلام الطبقات محواً ، فلم بعد في إيران رجال يزعمون أنهم من المرازبة أو الإصْبَهْبَذين القدماء . وفي كل بلاد الإسلام في الهند زالت الفوارق بين البراهمة المتنازين ، والمنبوذين الذين كان أهل الطبقات الممتازة يحذرون الاقتراب منهم ، حتى كان أحدهم يعاقب إذا مر ظله على ثوب رجل من البراهمة .

وحتى في العصور التي سادت الدولةَ فيها طبقاتٌ المحاربين — الذين سلبوا الخلفاء كل سلطة حقيقية — نجد أن أولئك المسيطرين ملكوا السلطان وسادوا الدولة

وتصرفوا فى الأموال ، ولكنهم لم يسودوا المجتمع ، أعنى أنهم لم يصبحوا طبقة اجتماعية متميزة بذاتها عن غيرها ، ولم يعترف الناس لأفرادها بأى امتياز اجتماعى أو إنسانى ، وهذا يختلف عما نجده فى المجتمعات الإقطاعية الغربية فى نفس العصور ، من وجود طبقة نبلاء يحمل أفرادها ألقابًا مميزة لهم مثل : دوق وكونت وماركيز وبارون . وهذه الطبقة كانت تملك الأرض ومن عليها من الناس ، إذ كان هؤلاء يعدون أتباعاً أو أقصالا Vassals ملزمين بالطاعة والخضوع ، وكان أهل طبقة الأشراف أو النبلاء هذه يحيطون بالملوك ويقاسمونهم السلطان حيناً وينافسونهم فيه حيناً آخر ، ويترفعون عن الاختلاط بالشعب من صناع وزراع . ويدخل فى نطاق الأشراف طائفة رجال الدين — من الكاردينالات الذين يسمون بأمراء الكنيسة — وأساقفة ممن يدورون فى فلك سيد دينى كبير ، هو البابا الذى يعد نفسه ظلاً لله فى الأرض ومعصوماً من الخطأ .

الإســلام هـو أســاس اللاطبقيــة :

لم تعرف المجتمعات الإسلامية شيئاً من هذا ولا قريباً منه ، لأن الإسلام حارب الكبرياء والغرور والاستعلاء والارتفاع عن الناس ، وقرر مبدأ المساواة الكاملة بين الناس ، فلا يتفاضلون إلا بالتقوى . وحتى فى هذا كان التفاضل أمام الله وحده لا بين الناس .

ولهذا اتجهت همم الطامحين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى الصعود الاجتماعى عن طريق التقوى والعلم ، لأن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز : ﴿ **يرفعُ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ (المجادلة ، آية ١١) ، ولأن الرسول — ﷺ — قال : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . ولهذا تنافس الناس تنافساً شديداً فى طلب العلم ، لأنه كان الطريق الواضح المعترف به للرقى الاجتماعى . ولما كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً بغير حواجز اجتماعية فقد كان فى استطاعة أفقر الناس أن يشق طريقه صاعداً فى المجتمع عن طريق العلم والفضيلة والتقوى ، حتى يصل إلى أرقى الدرجات . وهؤلاء العلماء وأهل التقوى كانوا سادة المجتمع حقاً ، يعترف الناس بامتيازهم وفضلهم ويسلمون برياستهم دون أن يكونوا مع ذلك طبقة اجتماعية .

فى ذلك المجتمع اللاطبقى عاش الناس متساوين من الناحية الاجتماعية لا يتميز ذو جاه أو ذو مال على ضعيف أو فقير ، من حيث القيمة الإنسانية — نعم ، اختلفت مراكز الناس الاجتماعية بحسب مستواهم من العلم أو المال أو الجاه ، فهذا لا مفر منه فى أى مجتمع ، ولكن بينما كان للأشراف فى أوروبا محاكم خاصة بهم ، لكيلا يقفوا مع غيرهم أمام القضاء العادى ، لم يعرف المجتمع الإسلامى إلا قضاء واحداً يقف أمامه الجميع ، والقضاة يصدرون أحكامهم على الجميع سواء ، حتى الأئمة من كبار رجال العلم والفقهاء كانوا لا يشعرون بأنهم يمتازون على غيرهم بشىء ، برغم تسليم الناس لهم بالصدارة والتقدم .

وعلى طول العصور الإسلامية كانت أمام خيال كل مسلم سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا — برغم ما آتاهم الله من العلم والقوة والحكم — يعيشون بين الناس دون أن يشعروا أنهم يمتازون بشىء ، ودون أن يعدهم الناس ممتازين عليهم بشىء .

ومعنى هذا أن تكوين المجتمع الإسلامى كان تكوينًا سليمًا صحيحًا ، أما ما نشاهده فى بعض المجتمعات الإسلامية فى عصور الاضمحلال السياسى من اتساع الهوة بين الأقوياء وغير الأقوياء ، فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور المجتمع الإسلامى نفسه وخروجه على طبعه وتغير شخصيته ، فلا نزاع فى أن المجتمع الإسلامى فى العصور التركية والمملوكية المتأخرة كان مجتمعاً منحرفاً عن الطبيعة السليمة للمجتمعات الإسلامية كما وصفناها .

ولم يعرف المجتمع الإسلامى كذلك فوارق الجنس أو اللون ، وهذه كانت من أكبر خصائص المجتمعات التى قامت على الإسلام . وهذه حقيقة معروفة مسلم بها ، لا تحتاج منا إلى أكثر من هذه الإشارة .

جماهير الناس ونظم الحكم التى قامت فى العصور الوسطى :

رأينا كيف قام نظام الجماعة الإسلامية فى عهد الرسول — ﷺ — على أساس اشتراك الأمة كلها فى القيام بالواجبات التى يتطلبها تنظيم الجماعة وتأمينها والسير بها فى الطريق السوى ، ورأينا كذلك كيف سارت الأمور على هذا المنوال السليم أيام أبى بكر وعمر ، فكانت الجماعة الإسلامية — بالفعل — صاحبة القول فى كل ما يتصل بشئونها الكبيرة والصغيرة ، وترجع عبقرية أبى بكر وعمر إلى إنهما استطاعا

إقامة بناء الدولة وسلطانها دون أن يمسا تنظيم الجماعة أو ينتقصا من قوتها وسلطانها على نفسها .

ولكن تجربة الثورة على الخليفة عثمان ، وما وقع فيها من مقتل خليفة جليل ، وما أعقب ذلك من حرب أهلية لم ينج من شرها أحد ، هذه التجربة كانت قاسية في حوادثها وحاسمة في النتيجة التي أفضت إليها ، فقد صارت الخلافة إلى بيت كان المسلمون إذ ذاك يرونه أبعد البيوت عن استحقاق هذا الشرف العظيم ، وهو بيت بني أمية الذين طالما عارضوا الإسلام وأهله .

حقًّا لقد أثبت بنو أمية أنهم جديرون بالمسئولية الكبرى التي حملوها ، ووسعوا دولة الإسلام وأكسبوها جاهاً عظيماً ، ولكن جمهور المسلمين ظل يرى فيهم بيتاً غاصبا لسلطان ليس من حقه ، وأبغض الناس خلفاءهم بغضا شديدا فيما عدا واحدا منهم ، هو عمر بن عبد العزيز . وخاب ظنهم في السياسة وأهلها ، وبخاصة عندما اعتمد بنو أمية على القوة العسكرية القبلية اعتماداً كاملا ، وأوقعوا الخلاف بين العرب المُضَرية والكلبية ووسعوا هُوَّته[1] وصرّفوا الأمور بحسب ما تطلبته مصالح بيتهم

(١) قامت الدولة الأموية على أكتاف عرب الشام ، وكانوا عدداً عظيماً من القبائل القوية التي فتحت الشام أو هاجرت إليه بعد الفتح واشترك بعضها في الفتوح في فارس ومصر وغيرهما ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد عرف كيف يكسب ولاء أولئك العرب الأشداء ، فأيدوه ، ورفضوا أن يناقشوا صحة ما كان يدعو إليه .

وكان في ذلك الجند مضريون كثيرون ويمنيون أكثر ، وكانت معظم القبائل المضرية في الشام من قيس عيلان بن مضر ، فسموا « قيسية » . أما اليمنيون فكانت غالبية قبائلهم تسمى «الكلبية» ، وهم فروع عديدة من شعب الأزد القديم ، هاجروا إلى الشام واستقروا فيه قبل الإسلام ، وانضمت إليهم بطون كثيرة من اليمنيين الذين استقروا في الشام بعد الإسلام . ويعرف القيسيون أو المضريون بعرب الشمال ، والكلبيون أو اليمنيون بعرب الجنوب .

ولم يعرف العرب تقسيم أنفسهم إلى مضر ويمن ، أو إلى قيس وكلب ، أو إلى عرب شمال وعرب جنوب ، حتى قامت دولة بني أمية . فإن معظم قوات معاوية بن أبي سفيان كانت كلبية يمنية .

وعندما مات معاوية وقع خلاف بين بطون الكلبية اليمنية ، ولكن مروان بن الحكم نجح في جمع كلمتهم حوله في مؤتمر جمعه في « الجابية » ، في ذي القعدة ٦٤ هـ/ يونيو ٦٨٣ م وبفضلهم تم ترشيحه للخلافة ونقلها من البيت السفياني إلى البيت المرواني ، وكلهم أمويون ينتسبون إلى أمية الأكبر بن عبد شمس .

ولم يرض القيسيون المضريون عن ذلك ، فأيدوا خلافة عبد الله بن الزبير ، وقادهم زعيم من فهر يسمى : الضحاك بن قيس ، وسار مروان بن الحكم لحربهم وأوقع بهم وقتل الضحاك بن قيس في موقعة « مرج راهط » في المحرم ٦٥ هـ/ أغسطس ٦٨٤ م . وعقب ذلك طاردت الدولة القيسيين في عنف وقسوة ، ثوقعت الحروب بين القيسية المضرية والكلبية اليمنية في كل ولايات الدولة تقريبا . وكان لتلك الحرب الأهلية أسوأ الأثر على مصير العرب في إيران مثلا ، حيث أضعفتهم الحروب وأكلت قبائلهم حتى لم يبق للعرب هناك إلا نصيب قليل من القوة . وإلى هذا ترجع ظاهرة توقف استعراب الفرس بعد أن كانت قد سارت فيه سيرًا حثيثًا . وكادت هذه الفتنة تقضي أيضا على عرب الأندلس ، لولا أن تداركهم عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م فجمع صفوفهم وأنقذ العنصر العربي من التلاشي في الأندلس . =

ودولتهم فى المقام الأول ، غير مراعين — فى أحيان كثيرة — ما كان جمهور المسلمين يتمسكون به من قواعد العدالة والإنصاف وتقديم مصلحة الجماعة وإنكار الذات ، مما تعودوه فى أيام أبى بكر وعمر .

وكان أكثر ما صرف الناس عن الولاء لبنى أمية ذلك السلطان المطلق الذى تركه الخلفاء لرجال دولتهم وولاتهم : من أمثال زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وخالد ابن عبد الله القسرى والمهلب بن أبى صفرة وآله ، وكان هؤلاء ملكيين أكثر من الملك — كما يقولون — فكانوا لا يترددون فى العدوان على الناس وعلى أموالهم فى سبيل البيت الحاكم ، فيئست جماهير الناس من السياسة وأهلها يأساً شديداً ، وساء ظنهم بالحكومات والحكام عموماً .

وزاد فى نفور الناس من السياسة وأهلها عدوان بنى أمية المتكرر على أهل البيت وإقدامهم على إراقة دمائهم ، وتعد مأساة كربلاء سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م تاريخاً فاصلا فى علاقات شعوب الإسلام بحكوماتها . فإن الاعتداء فى هذه الحالة لم يقع على الحسين بن على وآله أو على أهل البيت فقط ، وإنما وقع على أمة الإسلام كلها لشدة تعلق المسلمين برسول الله — ﷺ — وأهل بيته ، ولأن العدوان وقع على الحسين دون ذنب جناه ، وتم قتله ومن معه فى صورة اغتيال بشع مجرد من كل إنسانية ودين ، فعدّ المسلمون ذلك عدواناً على الأمة كلها ، ونظروا إلى المعتدين على أنهم أعداء لجمهور المسلمين ، وزاد إيمانهم بذلك ما جاء بعد الحادث المروع من جرائم أخرى عدها المسلمون عدواناً عليهم وعلى دينهم ، مثل مهاجمة جنود بنى أمية للبيت الحرام فى مكة ، ورميهم الحرم بحجارة المجانيق والنار والنفط ، ووقوع شىء كثير منّ ذلك على الكعبة وانهدام جزء من بنائها واحتراقه (ربيع الأول ٦٤ هـ/أكتوبر ٦٨٣ م) .

ولم تعلم جماهير المسلمين فى ذلك العصر الأول أن هذه هى السياسة ومنطقها فى العصور الوسطى كلها : صراع دموى لا يعرف قانوناً خلقيًّا ولا يهتم إلا بالمصالح

— وقد مال الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ/٧٢٠ — ٧٢٤ م) إلى القيسية المضرية دون الكلبية اليمنية ، وأراد أن يحدث بذلك تغيراً جوهرياً فى السياسة الداخلية للبيت الأموى ، وانصرف عن تحيز الكلبيين واعتمد على القيسيين ، فازداد النزاع بين الجانبين حدة ، وتحطمت القاعدة القبلية التى قامت عليها قوة بنى أمية ، وكان ذلك من أكبر أسباب سقوطهم ، وبعد أيام بنى أمية تلاشى النزاع بين القيسيين والكلبيين حتى انتهى .

المباشرة للأحزاب المتناحرة على السلطان . ففي الغرب أيضاً كانت الاعتداءات متكررة على المقدسات والكنائس ، بل كانت الكنائس هي الضحية الأولى التي يقع عليها عدوان المتحاربين لنهب ما فيها من الذخائر . وقد كانت نتيجة هذه الحوادث وقوع الانفصال بين الأمة والحكومة ، وبين الأخلاق والسياسة ، وبين الدين والدولة ، فاعتبرت الأمة نفسها حامية الأخلاق وراعية الدين من عدوان الدول وأهلها ، وابتعدت عن السياسة حفاظًا على الأخلاق والدين .

وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعي للأمة الإسلامية — كما رأيناه في دستورها — كان لا يدع للحكومة مجالاً كبيراً في حياة الجماعة ، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمرافق والخدمات كان من مسئوليات جمهور الناس دون الحكومة ، ولم تكن هذه مسئولة إلا عن الحماية من الأخطار الخارجية وتأمين الداخل بالشُّرطِ ومن إليهم ، فإذا ذكرنا أن هذين الواجبين كانا في حقيقة الأمر دفاعاً عن الدولة نفسها وأصحابها تبينّا أن قيام الدولة بهما لم يكن خدمة خالصة للناس والجماعة . ولهذا قل حماس الناس للاشتراك في جيوش الدول ، وجرت عادة المجاهدين والغيورين على دينهم من جماهير المسلمين أن يشتركوا في الجيوش الغازية في دار الحرب متطوعين ، حسبة لله تعالى ، دون أن يتقاضوا من الحكومة رزقاً أو عطاءً — وهؤلاء هم المُطَّوِّعة — أو أن يرابطوا على حدود بلاد المسلمين لحمايتها ، وأولئك هم أهل الرباطات والمحارس على الثغور ، ولقد قاموا دائماً حرساً على حدود بلاد الإسلام وعاشوا مجاهدين وماتوا شهداء ، وكانوا جنوداً مجهولين في كل حال . وإلى هؤلاء المطوعة والمرابطين من أبناء أمة الإسلام يرجع الفضل في الكثير من الانتصارات التي كسبتها جيوش الإسلام في دار الحرب .

أثر ذلك في نفسيات الجماهير الإسلامية :

من هنا نتبين كيف سارت الأمور في بلاد الإسلام على هذا النحو الذي يصعب علينا اليوم تصوره : الدولة وأهلها وجندها في جانب ، والأمة وشئونها في جانب ، لا يقوم بينهما اتصال حقيقي إلا في موضوع الضرائب التي كانت تُجبى من الناس للدولة ، وفي بعض نواحي الإدارة التي لابد فيها من اتصال بين الحاكم والمحكوم كالقضاء ، فإن القضاة كانوا دائماً من أبناء الشعب ، لأن التعليم كله كان شأناً من شئون الأمة ، والقضاة كانوا خيرة المتعلمين ، ولا تستطيع الدولة أن تعين في وظائف القضاة إلا من أولئك المتعلمين ، لأنهم كانوا رجالا حاصلين على العلم والخلق

مؤهلين لهذه الولاية الخطيرة . فكانت الأمة تكوّن القضاة وترشحهم للولاية ، وتقوم الدولة بعد ذلك بتعيينهم فى وظائف القضاء . أما « الوزارة » و « الحجابة » و « الكتابة » و « ولاية الأعمال » فى المراكز والولايات فكانت الدولة تختار لها من تريد من رجالها وحواشيها المتعلقين بها . وفى أحيان كثيرة نجدهم من الأجانب ، مثلهم فى ذلك مثل الكثيرين من الحكام أنفسهم ، وما نرى من الصلات بين أهل الحكم والشعراء والأدباء لم يكن مرده إلى إعجاب أهل الحكم بالملكات الشعرية والأدبية فى ذاتها ، وإنما مقياسه ما يضفيه الشاعر أو الأديب على أهل الحكم من جلال بفضل شعره ونثره ، فإن لم يفعل فقلما يصيب من خير الحاكمين شيئاً يذكر .

وقد اكتسبت الأمة من تلك الحال روحاً من الاعتماد على النفس ، مكنت لها من السير فى طريقها فى حوالك العصور الوسطى ، وتعلم الناس كيف يدبرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون حاجة إلى عون من حكومة ، خصوصاً عندما ساءت الأحوال وتدهورت مستويات الحكم خلال العصر العباسى الثانى . ففى العراق ومصر والشام — مثلا — تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجرى وما بعده إلى أداة وظيفتها الرئيسية جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم ، ولم يعد بين رجال الحكومات فى هذه البلاد إلا قليلون جدًّا ممن ينظرون للمصلحة العامة أو يخدمون الجمهور خدمة صحيحة ، وكان على الناس أنفسهم أن يدبروا مصالحهم ويرعوا شئونهم على قدر ما استطاعوا .

أفراد الشعب يصلون إلى مراكز القوة عن طريق العلم والدين :

وقد اتجهت الظروف السياسية فى العالم الإسلامى إلى تسلط أصناف الجند على الحكم ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، نتيجة لاعتماد العباسيين على الجند المرتزقة أكثر فأكثر عاماً بعد عام : الخُراسانية الإيرانيين أولا ، ثم أصناف الترك بعد ذلك . وهذا كان له ردّ فعل بعيد المدى ، وهو اتجاه الموهوبين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى العلم لبلوغ القوة والجاه ، فأقبل أهل الطموح منهم على العلم بشغف شديد ، وقامت مراكز العلم فى كل بلاد الإسلام ، وكثر الشيوخ والطلاب . وقد كانت هناك دائماً قلة طلبت العلم لذاته ودرست القرآن والحديث بدافع التقوى والعاطفة الدينية الخالصة ، ولكن الغالبية قصدت من الدراسة فتح أبواب المستقبل وشق الطريق إلى المراكز العالية ، وأصبحت أقصى آمال أوساط الناس

وعامتهم أن يظهر من بين أبنائهم فقيه يتدرج فى الوظائف حتى يصل إلى القضاء أو الكتابة فى دور الإنشاء أو الوزارة . وكثر فى الناس المنصرفون إلى طلب علوم تدر المال كالطب والعقاقير والأعشاب ، وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو أرباب الأقلام — كما كانوا يسمون — حتى أصبحوا يناظرون الحكام والقادة والمحاربين أو أرباب السيوف .

وعن هذا الطريق — طريق العلم — وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى نصيب طيب من السلطان والجاه ، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام النواحى — وكلهم كانوا من الأجناس التى احترفت الحرب واحتكرت شئون الحكم فى العالم الإسلامى — قام « الوزير » و « الكاتب » و « كتّاب ديوان الإنشاء » و « أهل الحساب والشئون المالية » و « القضاة » و « الفقهاء » و «أهل العلم » و « الشيوخ » . وكان هؤلاء يقبضون على نصيب كبير من زمام الحكم فعلا ، وهذا النصيب هو الذى استطاعت أن تصل إليه وتحتكره الجماهير فى مختلف بلاد الإسلام .

وكان رجال الحكم جميعاً ، ما بين سلاطين وحكام وأرباب سيف وأرباب قلم ، يتعلقون — ولو بالاسم — برمز السلطان الإسلامى الأعلى ، وهو الخليفة الذى فقد كل سلطان فعلى ، ولكنه احتفظ بكل جاهه الدينى ، حتى طلب الأمراء والسلاطين من الأقطار البعيدة الدخول فى طاعته .

وبهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقاً واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن عناصر من المرتزقة ما بين أتراك ومماليك ، ممن استأثروا بالحكم فى الجناح الشرقى لعالم الإسلام كله . وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب فى تحسين الأحوال العامة فى المجتمع . فهم الذين ظلوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشريعته وعلومه ومبادئه وأخلاقياته وتراثه المعنوى ، ويذكّرون الناس بالمثل الإسلامى الأعلى الذى ينبغى السعى لإدراكه ، وقد ألفوا فى ذلك تآليف كثيرة جدًّا ، الكثير منها على أعظم جانب من القيمة العلمية ، وقضوا أعمارهم يعلمون العلم وينشئون أجيالا من الشباب المتعلم الواعى لحقائق الإسلام المتمسك بمبادئه ، واستطاعوا — إلى جانب ذلك — أن يثبّتوا مكانهم ويفرضوا إرادتهم بما كسبوا من تعلق الناس بهم ونظرهم إليهم على أنهم زعماؤهم وقادتهم ومعلموهم ، مما أجبر أهل الحكم على احترامهم ، فاستطاع الشيوخ وأهل العلم —

سواء من تقلد تلك الوظائف منهم ومن ظل بعيداً عنها — أن يردوا المظالم عن الناس ويصوِّبوا تصرفات الحكام ويقربوها إلى مفهوم الإسلام .

وعندما نقرأ الكتب الأساسية التى تؤرخ لعالم الإسلام وتطوره خلال العصور الوسطى — ابتداء من تاريخ الطبرى إلى تاريخ الجبرتى — نرى خط العلماء موازياً ومصاهياً لخط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم . وباستثناء بعض المتنازين من أهل الحكم فى العصور العباسية المتأخرة — ابتداء من القرن الرابع الهجرى — وسلاطين السلاجقة الأول ، ثم كبار الأتابكة ، مثل عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى ، وكبار المماليك من أمثال سيف الدين قُطُز وركن الدين بيبرس وسيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم — باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم ، نجد أن معظم ما نال شعوب الإسلام من خير كان الفضل راجعاً فيه إلى أهل العلم هؤلاء ، سواء من ولى منهم المناصب أو من اكتفى بجاه العلم وقنع بركن فى داره أو فى مسجد ومضى يدرس ويؤلف ويعلم الناس ويخاطب أهل الحكم فى مصالح المسلمين ويرد الأذى عنهم .

المتصوفة ووظيفتهم السياسية والاجتماعية :

وقد تعلق عامة الناس بأولئك شديداً ، وقصدوهم للاهتداء بعلمهم ولدفع الأذى والمضرة عن أنفسهم . ولكن تعلقهم كان أشد بطراز آخر من أهل العلم والدين ؛ سار أصحابه فى طريق الزهد والتصوف والبعد عن الدنيا للوصول إلى الله تعالى ولإدراك العلم الحق الذى يأتى منه ، سبحانه ، فتحاً على المجتهدين من عباده .

والمتصوفون فى تاريخنا نوعان :

نوع أصيل سار فى طريق العلم سير العلماء ، واجتهد فى الطلب حتى حصل العلم الغزير ، ومالت نفسه إلى الزهد واحتقار الدنيا ، فانخلع عنها وخلص للعبادة والمجاهدة الصوفية ، كما نرى عند الحارث بن أسد المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) وأبى نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ) وأبى طالب المكى (ت ٣٨٦ هـ) وعبد الكريم بن هوازن القشيرى (ت ٤٦٥ هـ) وأبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ومحيى الدين ابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) .

والنوع الآخر اتجه إلى العلم حتى حصّل منه زادًا يسيرًا ، ثم انصرف إلى المجاهدة الصوفية (أى إنفاق الوقت الطويل فى التعبد والتهجد ورياضة النفس ، لكسر جاهها ، كما يقولون) عن إخلاص أو بدون إخلاص ، وسعى إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه خوارق أو كرامات ، فالتف حولهم العوام وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً ، وصانعهم الحكام إما عن جهل بحقيقة الدين أو عن خبث ، للسيطرة على قلوب الجماهير . ونجد ذكر نماذج من هؤلاء فى كتب كثيرة ، مثل « تلبيس إبليس » لأبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى ، و « طبقات الصوفية » لعبد الوهاب الشعرانى . وكل من الكتابين يضم صوراً شتى مما كان يعمله هذا الطراز من الصوفية الشعبيين أو « الأولياء » كما كان الناس يسمونهم ويتصورونهم .

ولكنّ نفراً من الصوفية الصادقين اتجهوا اتجاهاً عملياً ، فكوّنوا من مريديهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً خلقيا قويماً وتتبع منهجاً محدداً فى العبادة ، فيجتمع المريدون وشيخهم فى أوقات معينة بعد الظهر والمساء للذكر والقيام بعبادات وأذكار يقومون بها معاً ، وسموا تلك العبادات التى يمارسونها والنظام الذى يحكم جماعتهم : « طريقتَهم » الخاصةَ بهم ، وشيئاً فشيئاً تحولت الطريقة إلى شىء أشبه بجمعية دينية واجتماعية ، ثم تكامل لكل منها — مع الزمن — نظام إدارى وفنى دقيق ومعقد أيضاً .

فنجد أهلَ الطريقة مرتبين كأنهم أصحاب وظائف محددة : فهناك « شيخ السجادة » و « المرشد » و « المقدّم » و « النقيب » و « الخليفة » ، و « الترجمان » و « المريد » ، وهذا الأخير هو الصوفى أو الدرويش العادى المبتدئ ، ونجد لكل من هؤلاء مكانته واختصاصاته . والانتقال من درجة إلى درجة له شروط ومراسم ، مثل حفل تقليد المريد العادى « الخرقة » ، وخرقة الورد وخرقة التبرُّك وما إلى ذلك . وقد أثبت بعض منشئى هذه الطرق أو من تولوا أمورها أنهم يتمتعون بملكات تنظيمية ومالية كبيرة ، فانتظم أمر الطريقة ورجالها وامتلكت الرباطات والزوايا والدور والعقار والمال ، وأُغدق عليها الحكام الأموال وسمحوا لشيوخهم بالشفاعة والوساطة عندهم . وتمتع الصوفيون — بصفة عامة — بجاه عظيم فى المجتمع ، وصار بعضهم أولياء ، ينسب الشعب إليهم الكرامات ، ومن هنا أصبحوا ذوى قوة سياسية

واجتماعية كبيرة ، حتى لقبهم العامة « السلاطين » ، كما نرى فى حالتى السلطان الحنفى والسلطان أبى العلاء فى القاهرة .

ودخل عامة الناس فى هذه الطرق منتسبين ، لأنها كانت تفتح لهم طريقاً لاتقاء أذى الحكام والمتصلين بهم . وكانت الطريقة توحد صفوف جماعات كبيرة منهم وتجعل لهم وزناً اجتماعياً وسياسياً ، ثم إن انتسابهم إليها كان يشبع العاطفة الدينية من ناحية ويتيح لهم وسائل للتخلص من الملل وفراغ الوقت من ناحية أخرى ، وذلك بالحصول على وجوه من التسلية مثل الاشتراك فى الأذكار والأوراد والإنشاد فى حلقات الذكر بحركاتهم المعروفة ، وإحياء الموالد وأعياد الشيوخ والأولياء ، وما يصاحب ذلك كله من مسرات ومشاغل أقل ما فيها أنها كانت تعين الناس على التخلص من ملل الوقت الطويل وتنسيهم متاعب حياتهم إلى حين .

وشيئاً فشيئاً تصبح الطرق الصوفية روابط بين أهل الحرف ، فيصبح الذين يأخذون « العهد » على شيخ الطريقة — أى المنتسبون إليها — « إخوانا » ، يحكمهم شيخهم اجتماعياً وخلقيا ، فهو يبارك اتفاقاتهم ويقوم بدور الشاهد على تنفيذها . وإذا احتاج واحد منهم إلى قرض مالى توسط له الشيخ ، بل هو يتدخل فى كل شىء حتى الزواج والطلاق والمواليد ، ونتيجة لذلك تمتع الكبار من أهل الطرق بسلطان عظيم ، وعاشوا فى رغد وخير عميمين . وحازت بعض الطرق ثراء واسعاً ، ولكنها قامت كذلك بوظيفة اجتماعية وسياسية أساسية . وفى الوقت الذى وهنت فيه إطارات الحكم وبلغ فسادها أقصاه ، ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى ، حفظت هذه الطرق بعض جوانب المجتمع من التساقط . ومكنت لجماعات كبيرة من الناس فى المدن والأرياف من أن تجد طريقها فى تلك العصور ، وبخاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين تهدمت فيهما فعلا كل إطارات الحكم القديمة التقليدية وعاش الناس تحت رحمة الأقدار .

ظهور طائفة أصحاب الكرامات ومدعى الولاية ودلالته الاجتماعية :

ونحن نتعجب اليوم عندما نقرأ أخبار طائفة من المنتسبين للصوفية ومن الذين يدعون الولاية ويظهرون كرامات فى تلك العصور ، فقد كان الناس يصدقونهم ، بل كان بعض الحكام يراعونهم ويخافونهم أحياناً . ولكن عندما ندرس الظروف العامة

لحياة الناس فى تلك العصور تتضح لنا حقيقة تلك الطائفة ، وتبدو لنا ظاهرة منسجمة مع واقع الأحوال فى تلك الأيام .

ولابد أن نؤكد أولا أن التصوف الحقيقى عبادة خالصة وتكمل روحى ، وحالُ كبار الصوفية فى الغالب مستور وبعيد عن التظاهر حتى عن الملاحظة العادية ولكنّ طائفة انتسبت إلى التصوف ظهرت وجعلت التعبد شيئاً مظهرياً يمارسه صاحبه أمام الناس أو على صورة يتناقل الناس أخباره ويصبح « شُهرة » ، كما كان الناس يقولون فى مصطلحهم إذ ذاك . وهذا شىء لم يظهر ولم ينتشر أمره إلا فى عصور التدهور السياسى والاقتصادى فى العالم الإسلامى . وهو يختلف عن تصوّف الطرق الكبرى التى كان لها أثر بعيد فى تنظيم المجتمع والمحافظة على إطاراته وربط الجماهير بقواعد دينهم وأخلاقياته ، كالطرق الشاذلية والجيلانية والرفاعية . وقد أشرنا إلى الدور الذى قامت به هذه الطرق .

أما تصوف « الشهرة » وما يرتبط به من ادعاء الولاية وحصول الكرامات فأمر يختلف عن تصوف التعبد الحق وتصوف الطرق المنظمة ، وهو من مظاهر عصور الاضمحلال ، فإلى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لا نسمع كثيراً عن هذا الطراز من الأولياء الذين يبهرون أنظار الجماهير ويستولون على إعجابهم بما يأتون من الأعمال الخارقة للمألوف .

والسبب فى ذلك أن الناس فى عصور ازدهار الدولة الإسلامية واستقرار الأمور كانوا يعيشون فى أمان : سواء من ظلم الحكام أو من تعدى اللصوص عليهم ، فإذا نزل بهم ظلم وجدوا السبيل إلى دفعه ، لأن أجهزة الدولة كانت قوية سليمة ، وكانت حالة الناس المعنوية عالية إلى ذلك الحين ، وللسبب ذاته كان الناس فى أمن من اللصوص وطُرّاق الليل وقطاع الطرق . وكانت أحوالهم الاقتصادية طيبة فى الجملة ، وأبواب العمل والكسب مفتحة ، ومن ضاقت عليه سبل الرزق فى ناحية استطاع الانتقال إلى ناحية أخرى من دولة الإسلام الواسعة . وكانت خزانة الدولة عامرة بالمال ، فلم تكن تنظر إلى ما فى أيدى الناس ، فظهرت عليهم النعمة وكثر الأوساط والمياسير من أهل المتاجر والصناعات والحرف ومن إليهم ، ممن يؤمنون بالعمل ويقوم على جهدهم رخاءُ المجتمعات .

فلما اختل ميزان الدولة نتيجة لاعتماد الخلفاء على القوى العسكرية وحدها ، ثم تحول جيش الدولة كله إلى جيش مرتزق تزداد تكاليفه ويزداد سلطان رجاله على الحكم يوماً بعد يوم ، تطرق الفساد إلى أجهزة الدولة وضعف صوت الحق والقانون ، لأن القائمين بالحكم كانوا يضطرون إلى الإغضاء عن اعتداءات الجند على الشعب وقوانينه ، وفى الوقت نفسه كان الجنود المرتزقة الذين يدخلون جيوش الدولة أجراء منكسبين ، لا يلبثون إذا كثرت أعدادهم أن يشعروا بأنهم ليسوا أداة القوة فحسب بل القوة نفسها ، وأن الخلافة التى تستخدمها هى أداتهم فى الحصول على الأموال . وشيئاً فشيئاً يفرض الجند المرتزقة وقادتهم سلطانهم على الدولة ويطالبون بالمزيد من الأموال مع قلة غنائهم فى الدفاع ، وذلك لهبوط روحهم المعنوية وانعدام القيادة الصالحة ، فتضطر الدولة إلى زيادة مبالغ الضرائب وتبتكر الجديد منها . وهذه الضرائب كلها يدفعها الأوساط ، وهم عصب الاقتصاد فى كل زمان ومكان ، لأن الفقير المدقع لا يدفع ضرائب بسبب فقره ، والغنى ذا الجاه لا يدفع ضرائب ، لأنه يدخل فى زمرة الأقوياء ذوى الامتيازات ، فيقع العبء كله على الأوساط ومساتير الناس . وشيئاً فشيئاً يعجزون عن الأداء ويحل بهم الفقر ، ومن كان منهم صاحب مال أخفاه حتى يسكت عنه جباة الضرائب ، وهنا نجد أن مقادير الجباية تهبط هبوطاً مستمرًا ، وتمتد يد أهل الحكم إلى أموال الأغنياء كذلك ، فتكثر المصادرات ، وينتهى الأمر بتحول المجتمع كله إلى مجتمع فقير يسوده الخوف وقلة الأمان على النفس والمال .

فى هذه الظروف التى سادت بلاد الجناح الشرقى كله لدولة الإسلام فى العصور المتأخرة أحست الجماهير أنها محاجة إلى حماية وسبيل للأمن ، لأن الإنسان لا يستطيع العيش فى ظل الخوف والتهديد المستمر . والأمان هو المطلوب الأول ، ولكل كائن حى . ومادام الناس قد يئسوا من المخلوق ، فإن قلوبهم كلها اتجهت إلى الخالق سبحانه : يفزعون إليه فى كل ملمة كبيرة أو صغيرة . وإذا كان المتعلمون والعلماء يجدون الطريق إلى الله فى العبادات وقراءة القرآن والحديث وقراءة كتب العلم ، فإن جماهير الناس يبحثون دائماً عن المظهر الملموس للإيمان ، من مثل ضريح رجل من أهل البيت أو رجل من أهل الصلاح . وإذا كان المسلم المستنير يجد الأمن فى قلبه بقراءة القرآن والقيام بالعبادات فإن الرجل من العوام لا يطمئن إلا إذا حمل القرآن المكتوب فى صورة حجاب أو تميمة . وإذا كان المستنير يجد الأمن فى قراءة الفاتحة

فإن الرجل من العوام فى تلك العصور يحتاج إلى أن يمسك شباك مسجد أو ضريح ، لأنه لابد أن يمس شيئاً أو يرى شيئاً .

هنا يظهر الصوفى الشعبى الذى ينتبه بذكائه إلى مطالب الناس ، ويرى حاجتهم إلى الرموز الملموسة فيجعل من نفسه رمزاً ملموساً يؤمن به الناس : يصلى بصوت مسموع جداً ، ولا يسير فى الطريق إلا وهو يتمتم ويقرأ ، ويزعم أنه صائم الدهر ، ويلجأ إلى تعذيب نفسه بمرأى من الناس فى سبيل الله ، كما يزعم ، كأن يقضى الليل كله قائماً يصلى حتى تتورم رجلاه أو يسير حافياً على الشوك طلباً للتوبة فى زعمه . وهو يمارس ذلك كله أمام الناس أو على صورة تصل إليهم أخبارها ، فيقنع فى نفوسهم أنه واصل إلى الله أو ولى من أوليائه ، يستطيع الاتصال به سبحانه والتوسط للشفاعة عنده ، وبهذا يشق لنفسه طريقاً ، ويصبح من أركان الحياة والمجتمع ، ويجبط به الأتباع والمريدون ، ويتقاطر الناس إلى داره بالهدايا ، فيأخذ ما يريد ويعطى من حوله ما يريد ، ويشتهر بأنه صاحب كرامات ، يمشى على الماء ويطير فى الهواء ويخاطب العجماوات ، مما ذكره العلماء . وكان ذلك بطبيعة الحال يجر الخير إليه وإلى أتباعه ، وبرغم ما يكون فى الكلام عن كراماته من اختراع أو مبالغة فإن ذلك يجعل الجماهير تتعلق به ، ويصبح بالنسبة لهم أملا ورمزاً على الأمن الذى يحلمون به ، فهو — فى زعمهم — يحميهم من الظالمين ومن عبث الشياطين بهم ومن نكبات الزمان .

والذى يهمنا هنا أن أدعياء الولاية هؤلاء كانوا يستطيعون — فى كثير من الأحيان — حماية الناس من ظلم الحكام وعسفهم ، لأن الحكام فى تلك العصور كانوا جهلاء ينخدعون بما يسمعون عن أدعياء الولاية ، فيسعون إلى رضاهم بالاستجابة لشفاعاتهم وإحاطتهم بمظاهر الاحترام وحضور مجالس الأوراد معهم . وكان من الحكام الأذكياء من يتظاهر بالتعظيم للولى تحبباً إلى الجماهير ، وفى بعض الأحيان كان الولى المزعوم يجامل الحاكم الظالم الجاهل ، فيحاول تهدئة الجماهير ، مجتهداً فى تقديم الخدمات لهم وفى حمايتهم من مظالم رجال الحاكم ، فيكسب لنفسه جاهاً ويعطف القلوب على الحاكم الذى يؤمن بالأولياء .

وسواء استطاع أن يقدم للناس خدمات ملموسة أم لم يستطع ، فإنه ظل فى نظرهم — فى تلك العصور — أملا وحماية من شرور الدنيا وطريقاً إلى الله سبحانه

وتعالى . وهذا كله يرفع معنوياتهم ويثبّت إيمانهم ويطرد اليأس من قلوبهم ، لأنهم لم يكونوا يطلعون على حيل صاحبهم . وهو — عندما يتوفى — تزداد مكانته ومنفعته ، لأن ضريحه يؤدى لهم نفس الوظيفة الاجتماعية دون أن يكلفهم . ولهذا فقد خلّفت لنا عصورنا الوسطى حشداً هائلا من أضرحة الأولياء والصالحين ، ما بين صادقين وغير صادقين ، وهذه الأضرحة هى الأثر الباقى من الظروف الاجتماعية المليئة بالمخاوف والمتاعب التى كان أجدادنا يعيشون فى ظلها .

وخلاصة الكلام هنا أن صوفية الجماهير هؤلاء كانت لهم فى عصورهم — برغم كل شىء — وظيفة سياسية واجتماعية ، وكانوا فى كثير من الأحيان وسطاء بين الحكام والناس ، وبخاصة إذا لم يكونوا من الذين يدعون الكرامات والخوارق .

وإذا صرفنا النظر عن الصوفية الشعبيين وجدنا جاهاً وشأناً لبعض الصوفية مثل أبى سعيد بن أبى الخير (ت ٤٤٠ هـ) الذى كان الحكام يراعونه ويخافونه إذا نزل مع أصحابه فى ناحيتهم فيكفون عن الظلم ، وربما سعوا إلى رفع المظالم ، وكان من العادى أن ينزل أبو سعيد فى ناحية ، فيستدعى حاكمها ويؤنبه على مرأى من الناس ويرغمه على رد الحقوق إلى أهلها . ومهما يكن من شىء ، فإنه — بفضل هؤلاء الصوفية — ظل إيمان الناس بالفضائل قوياً وتعلقهم بالدين عميقاً . وإنه لمن الغريب أن الكثيرين من عامة الصوفية ، بل من الأدعياء بينهم ، عملوا على تقوية إيمان الناس ، وصانوهم من كثير من المفاسد . وعندما اختفت الظروف التى أدت إلى ظهور تلك الطائفة ، وهى ظروف الجهل والخوف والفقر ، اختفوا هم أيضاً ، لأنهم كانوا نتيجة لظروف اجتماعية معينة .

ونحن إنما نتكلم هنا عن الصوفية الشعبيين ، الذين كانوا يمارسون نشاطهم بين جماهير الناس اجتذاباً لهم نحو الدين وسعياً من جانب بعضهم إلى المنافع الدنيوية . والواقع أن هذا الطراز من الصوفية كان ظاهرة اجتماعية أدت إليها ظروف سياسية واجتماعية شرحناها بتفصيل ، وقد كان لهم مكان واسع فى مجتمع العصور الوسطى .

ولكن كان هناك دائماً صوفيون مخلصون ، نبع تصوفهم عن إيمان عميق ، وقضوا أعمارهم زاهدين فى الدنيا ومتاعها زهداً حقيقياً ، مقبلين على عباداتهم ورياضاتهم ومجاهداتهم ، دون أن يحفلوا باستلفات الجماهير إلى أحوالهم مع الله ، ووصلوا عن

طريق مجاهداتهم إلى حالات رفيعة من الصفاء الروحي والإشراق النفسي بالأنوار الربانية .

وقد كان هؤلاء الصوفية الصادقون أهل علم ودرس ومعرفة واسعة بالإسلام ، عقيدته وشريعته ، مثل الإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/١١١١ م) ، الذى تقلبت حياته فى التفكير والبحث والتنقل أيما تقلب ، وكان صاحب المصنفات الكبيرة فى علوم الدين ، مثل « المستصفى » فى علم الأصول و « إحياء علوم الدين » فى كل نواحي المعرفة الدينية ، وهو الكتاب الذى أتم تصنيفه أثناء عزلة وغربة استمرت سنين كثيرة ، هذا إلى جانب مصنفاته الكثيرة فى المنطق وفى بيان آراء فلاسفة اليونان ومن تابعهم (كتابه « مقاصد الفلاسفة ») والرد عليهم (كتابه « تهافت الفلاسفة ») ، ومثل الشيخ محيى الدين بن عربى (ت ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م) الذى كان صوفياً موهوباً درس علوم الإسلام فى مسقط رأسه ، مرسية ، ثم فى المرية ثم فى غرناطة ، ثم مالت نفسه إلى الزهد والتصوف ، فبدأ يطلب العُبّاد والزهاد ليأخذ عنهم ويعيش مع مريديهم ، وقضى بقية عمره بعد ذلك صوفياً جوالاً لا يحط فى بلد إلا رحل عنه إلى آخر ، حتى لقد دخل القسطنطينية وقابل إمبراطور الروم ونال إعجابه . وقد حج مراراً وجاور فى مكة سنين طويلة ، فى أثنائها ألف كتابه الجليل المسمى « بالفتوحات المكية » وهو ديوان التصوف الأكبر . وكتب ابن عربى كتباً ورسائل كثيرة جدًّا يعد كل منها من عيون الأدب الصوفى الصادق ، وكان شاعراً وله ديوان فى الحب الإلهى يسمى « ترجمان الأشواق » .

وكان لابن عربى أثر بعيد فى الفكر الإسلامى والمسيحى ، فإن آراءه وتأملاته كانت نقطة البداية لمذاهب صوفية وفلسفية كبرى ، وفى الغرب درسه فلاسفة المسيحية الإسكولاستيون من أمثال رايموندو لوليو (Raimundo Lullio) ودانس سكوتوس Duns Scotus . وأخذ عنه مذهبَه التصوف صوفى مسيحى مشهور ، هو القديس يوحنا ذو الصليب Saint Jean De La Croix صاحب المذهب المشهور فى التصوف المسيحى باسم مذهب الإشراق أو النور .

الصوفيـــة والفقهـــاء :

وقد وقع خلاف شديد ودائم بين الصوفية ــ بصورة عامة ــ والفقهاء ، لأن

الصوفية أنكروا الرياسة الدينية للفقهاء الذين ينفقون العمر فى دراسة علم الظاهر وحفظ كتبه ، فى حين أن الصوفية — كما يقولون — يهتمون بروح العمل وبحقائق المعرفة ، وهم قد وصلوا — بالمجاهدة والإخلاص فى العبادة — إلى الله سبحانه وتعالى وأخذوا منه العلم مباشرة ، وكان بعضهم يثيرون غضب الفقهاء بقولهم : « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت » ، يريدون أن الفقهاء يدرسون العلم على الشيوخ ويأخذونه عنهم جيلا بعد جيل ، أما الصوفية فيأخذون علمهم عن الله سبحانه فتحاً منه وفضلا .

والحق أن فقهاء العصور المتأخرة فتحوا على أنفسهم أبواب النقد والتحدى ، لأنهم جمدوا فى مكانهم ، واقتصر جهدهم على حفظ المتون والشروح وتأليف الحواشى ، وتعلقوا بالتقليد الحرفى تعلقاً شديداً ، حتى أصبح الواحد منهم يفضى العمر كله دون أن تصدر عنه فكرة جديدة ، ويؤلف الكتاب الكبير فلا تخرج مادته عن أقوال مجموعة ومرصوصة بعضها إلى جانب بعض ، دون محاولة لتكوين فكرة طريفة أو رأى مبتكر ، واستمروا على ذلك فى مجالس تدريسهم حتى كادوا ينقطعون عن الواقع انقطاعاً تاماً . ومع أنهم حفظوا تراث العلم الدينى من الضياع فى تلك العصور ، فإنهم لم يتقدموا بالمعرفة تقدماً يذكر .

وفى الوقت نفسه تحول معظم الفقهاء الكبار إلى موظفين فى الدول ، وطلبوا الوظائف وولاية الأوقاف وتنافسوا فى ذلك ، واشتد حرص بعضهم على الخيرات والمكاسب ، واضطروا إلى مسايرة أهل الحكم ، محافظة على مراكزهم ، وأغضوا عما كان يقترفه بعض الحكام من المظالم ، وبذلك تخلوا عن واجباتهم الأساسية حيال المجتمع ، وتراخوا فى الحماية التى كانت جماهير الناس تنتظرها منهم — وهى دفع الظلم عنهم والتصدى للمفسدين من الحكام لوقف فسادهم — وانفصلوا عن الناس ، فخلا المكان الفسيح الذى كان ينبغى أن يحتلوه فى المجتمع . وهذه — بطبيعة الحال — أحكام عامة تنطبق على الغالبية ، ولا يمنع ذلك من أنه كان هناك دائماً شيوخ أجلاء حافظوا على سمعتهم وظلوا مخلصين للعلم منصرفين إليه متصاونين عن بذل النفس لنيل رضا الحكام ، فهؤلاء كانوا موجودين دائماً فى الجماعة الإسلامية ، وحفظوا مكانهم رؤساء لجماهير الناس ورموزاً على العلم والكمال والإخلاص والخلق الإسلامى الكريم .

والمهم لدينا أن هذا الفراغ الذى حدث عن تخلى غالبية الفقهاء عن وظيفتهم الرئيسية فى المجتمع ، هو الذى أتاح الفرصة لأولئك المتصوفين لكى يملأوا الفراغ ويقوموا بالدور الذى ذكرناه ، وبطبيعة الحال لم يكن الفقهاء محقين كل الحق فى غضبهم على أدعياء الولاية ، لأنهم ما داموا قد تخلوا عن مكانهم فقد كان لابد أن يملأه غيرهم .

حيـــــاة المـــــدن :

فى الفصل التالى ، الخاص بالنظام الاقتصادى للمجتمع الإسلامى الوسيط ، سنتحدث — فى شىء من التفصيل — عن المدن الإسلامية وأحوال الناس فيها ، لأن المدن كانت مراكز الحياة الاقتصادية . ولهذا فسنكتفى هنا بالإشارة إلى أن عالم الإسلام كان دائماً عالم مدن ، فى كل ناحية منه قامت المدن الكثيرة الغاصة بالسكان الحافلة بدوافع النشاط . وربما كان ذلك بحكم أن الإسلام يدعو بطبيعته إلى التجمع والتعاون والاشتراك فى المعايش .

وقد وُلدت جماعة الإسلام فى مدينة ، أى أنها نشأت مدنية النظام والروح ، وقد لازمها ذلك الطابع فيما بعد ، فكان العرب يسكنون المدن فى كل بلد نزلوا فيه ، وكانوا يفضلون ذلك على الانتشار فى الأرياف أو على المعيشة فى أرض الحشائش للمرعى . وفى البلاد التى لم يجدوا فيها مدناً مناسبة لهم أنشأوا مدناً تتفق مع مطالب حياتهم فى عصر امتدادهم الأول ، وهو عصر انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة ، فكانت المدن العربية الأولى تجمع بين خصائص الحياة المدنية والحياة الصحراوية ، فكانت محلات قريبة من مواطن الكلأ لمرعى الجمال والخيول ، وأمثلة ذلك نجدها فى البصرة والكوفة والقيروان .

ولكن المدائن التى اجتذبت العرب بعد ذلك أكثر من غيرها كانت هى المدن القديمة التى طاولت الأعصر ودامت على الزمان بفضل ميزاتها الطبيعية وعناية أهل العصور القديمة بها . وقد تناول ابن خلدون الكلام فى ذلك فى فصل من المقدمة عنوانه « فى أن المبانى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى ما كان قبلها من الدول »[1] .

(1) المقدمة ، ص بيروت ١٩٦٧ ص ٦٣٧ وما بعدها

أما السبب فى عناية الأمم القديمة بالمدن فهو أن حضارتها كانت حضارة مدن ، أى أن الحياة والسلطان والثروة فيها تتركز فى المدن ، فزادت عناية دول العالم القديم بشئونها ومرافقها وظلت المدن عامرة قروناً متطاولة ، كما كان الحال فى ممفيس وطيبة فى مصر ، وطيشفون — وهى « المدائن » — التى كانت عاصمة الأكاسرة الساسانيين ، وكما كان الحال فى أثينا وروما .

وقد استوقف نظر ابن خلدون إسراع الخراب إلى المدن فى العصور الإسلامية ، وعالج ذلك فى فصل آخر من المقدمة عنوانه « فى مبادىء الخراب فى الأمصار »[1] . وابن خلدون يرد السبب فى ذلك إلى نظريته الأساسية التى تذهب إلى أن حضارات البشر — بكل مظاهرها — تولد وتنمو حتى تبلغ أوجها ، ثم لابد أن تنحدر وتضمحل بعد ذلك ، طبقاً لقانون عام ينطبق على حياة البشر وكل ما يعملونه . وهذا القانون يتلخص فى أن ابن خلدون يشبّه الدول والحضارات بالأحياء ، فكما أن كل حى يمر بمراحل محددة ومحتومة تبدأ بالميلاد وتنتهى إلى الشيخوخة ثم الموت ، فكذلك الدول والحضارات وكل مظاهر العمران تولد وتنمو حتى تبلغ أوجّها ، ثم لابد أن تنحدر بعد ذلك . وهو فى دراسته لتدهور المدن لا يزيد على أن يطبق قانونه تطبيقاً حرفيًّا ، فيقول : « فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ، ففقدت الإجادة فى البناء والإحكام والمغالاة فيه بالتنميق » .

أما السبب الحقيقى فى تدهور المدن فى معظم بلاد المسلمين فى العصور الوسطى فهو أن المدن — على ضخامتها وأهميتها — منشآت ضعيفة لابد لها من عناية مستمرة وعمل دائم حتى يتصل ازدهارها . وحياة أى مدينة على الأرض رهينة بمرافقها ، وكفاية هذه المرافق لحاجات السكان ، والعناية المتصلة بها للمحافظة عليها . فلابد من نظام لتزويد المدينة بالأطعمة على صورة مستمرة وبأسعار معقولة ، ولابد من نظام لإمداد سكانها بالماء الصالح للشرب ، ومن العناية بالشوارع والمحافظة على اتساعها حتى لا يجور الناس بالأبنية عليها ، فتضيق حتى تصبح ممرات بين البيوت ، وقد تنسد فتتحول إلى أزقة . ولا بد من تنظيف الشوارع ورصفها لئلا تتحول إلى برك وحفر وأكوام من تراب ، ولا بد من جهاز منظم لنقل فضلاتها إلى أمكنة بعيدة

(١) المقدمة ص ٦٤٠ .

عنها . ولا غنى للمدينة عن تنظيم لإطفاء الحريق ولحمايتها من فيضانات الأنهار ، وما إلى ذلك . ولابد للمدينة من منشآت عامة تتناسب مع حجمها وعدد سكانها وأهميتها ، مثل دور الحكومة والإدارات البلدية والقناطر والجسور والمخازن والمساجد وغيرها ، بل لابد للمدينة الكاملة من منشآت للهو والتسلية ، لأن الجماهير بطبعها تحتاج إلى ذلك ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة فيها ، لأنها تصرف الجماهير عن البحث عن وسائل تسلية ضارة بهم وخطرة على المجتمع .

وكل ذلك لا يتم إلا إذا كان للمدينة هيئة مسئولة عنها قائمة بشئونها ، كالمجالس البلدية ، ولابد كذلك من أموال كثيرة مرصودة لصيانة البلد ومرافقه ، ومن عمال مدربين على ذلك .

وقد كانت دول العصور القديمة شديدة العناية بمجالس المدن وكل ما يلزم للمحافظة عليها زاهرة نظيفة منظمة ، وهذا واضح من الآثار الباقية منها إلى اليوم ، وقد وصلت العناية بالمدن فى تلك العصور إلى أوجها فى روما ، حيث نجد لكل مرفق من مرافق البلد نظاماً خاصاً للمحافظة عليه ولتسييره سيراً طيباً ، وبخاصة النظافة وإيصال المياه للبيوت وضمان الأقوات والحراسة النهارية والليلية ، بل العناية بالحدائق والبساتين العامة وما إلى ذلك .

فإذا انتقلنا إلى النظم التى وضعتها الدول الإسلامية لم نجد فيها أى مكان للعناية بالمدن ، غير نظام الشرطة ، فلا أنشئت لها مجالس بلدية ، ولا عين له موظفون للعناية بأمورها ، ولا رصدت أموال للإنفاق منها على مرافقها . والشىء الوحيد الذى لدينا — إلى جانب رجال الشرطة — هو وظيفة المحتسب ، وهو مراقب الأسواق والأسعار والموازين والمكاييل ، وربما راقب أمورَ الأخلاق أيضاً . ولكن المدينة — كمدينة — لا تدخل فى اختصاص « المحتسب » .

وكان من أثر ذلك أن المدن أهملت إهمالا كبيراً ، واقتصرت الخدمات فيها على ما كان الناس يقومون به من عناية صاحب كل بيت ببيته . وقد يُعنى سكانُ الحارة أو الزقاق بحارتهم أو زقاقهم ، أما الشارع الكبير فلم يكن هناك من يعنى به . حتى المساجد ، وهى المنشآت الرئيسية للعبادة ، كانت العناية بها موكولة للجمهور . وبينما كان أهل العصور القديمة يشيدون القناطر الحجرية الضخمة على الأنهار فى المدن ،

لم تنشىء الحكومات فى مدننا قناطر ، واكتفت بجسور القوارب ، فكان لابد أن تضمحل المدن شيئاً فشيئاً . فتضيق الشوارع مع الزمن وتتعالى أكوام القمامة على جوانب الشوارع ، ولا يخلو الطريق من الماء الذى يطرحه الناس فيأسن ، ونجد أنفسنا أمام الظاهرة التى يسميها ابن خلدون « وباء المدن وعفونتها » ، كأنه يظن أن المدن — بطبعها — لابد أن تكون وبيئة عفنة جالبة للأمراض ، وأن الصحة لا تكون إلا فى حياة الخلاء والأرياف .

ويستثنى من ذلك كله الأندلس ، حيث عنيت الدولة وأهل المدن بمدنهم ومرافقها ، فظلت زاهرة نظيفة . وأمثلتها كثيرة فى قرطبة وغرناطة وإشبيلية ومرسية وغيرها .

ونتيجة لذلك نجد أن حياة أهل المدن كانت تسير دائماً من سيىء إلى أسوأ ، حتى فى عصور القوة والازدهار . فالشوارع تضيق والمبانى تتهدم شيئاً فشيئاً ، ولا يوجد من يزيل المتهدم منها ، لكثرة الورثة وصعوبة الاتفاق معهم على البيع أو الإصلاح ، فيتجه الراغب فى البناء إلى ظاهر البلد . وهكذا يموت قلب البلد ويتحول إلى خرائب شيئاً فشيئاً . ومن الظواهر المعروفة أن مدناً كبرى ، كبغداد والقاهرة ، كانت — برغم اتساعها والدور المتداعية مزدحمة الأسواق بالنهار ومخوفة بالليل ، متعبة لساكنيها ، غالية أسعارها غير مأمونة لساكنيها . وكل ذلك ناتج عن عدم وجود أجهزة تعنى بالمدن وتحافظ عليها .

ثم حلّت عصور الضعف السياسى والفوضى والمظالم ، فازدادت أحوال أهل المدن سوءاً ، وكثرت عليهم المغارم والضرائب والمظالم ، فلم يعد يتمتع بالحياة فى المدن الكبيرة إلا سكان الأحياء التى يعيش فيها أهل الحل والعقد ، ممن كانوا يستطيعون اتخاذ الخدم والحرس للمحافظة على أحيائهم نظيفة مأمونة صالحة للسكنى . أما بقية الناس ، فلم يكن فى حياتهم ما يسر ، ولم يستفيدوا شيئاً من الميزة الكبرى التى تهيئها المدن لسكانها ، من توافر الحاجات ونفاق الأسواق ووفرة المال وتحقق الأمان بالأسوار العالية والقرب من أهل السلطان وكثرة الأغنياء الذين ينفقون الأموال عن سعة ووجود شتى الصناعات والحرف وما يحتاجه الناس لتيسير حياتهم وإسعاد أنفسهم وذويهم .

وقد فرق الجغرافيون والرحالون العرب بين العواصم وبقية المدن ، فسموا الأولى : « القواعد » أو « الأمصار » ، فهم يقولون مثلا إن دمشق هي قاعدة الشام أو مصره ، أما بقية المدن فتوصف الكبار منها بأنها « بلدة ذات منبر » أي يقوم فيها مسجد جامع ، فيه إمام وخطيب يتقاضيان راتبيهما في الغالب من خزانة الدولة . وخطبة الجمعة في مثل ذلك المسجد لها طابع رسمي ، لأنها لابد أن تتضمن دعاء لولي الأمر في الإقليم ، فإذا وجدت مدن صغيرة أخرى تابعة للكبيرة سميت باسم أمهاتها ، ويلي ذلك القرى ما بين كبيرة وصغيرة . وعلى أي حال فإذا استثنينا القواعد أو « العواصم » وبعض الموانى ، فقد كانت بقية البلاد قرى كبيرة أو صغيرة ، ومعظمها كانت مراكز زراعية أو مراكز مواصلات .

وكانت عادة العرب إذا اختطوا مدينة أن يبدأوا بإنشاء المسجد الجامع في الوسط وقبالته قصر الإمارة ، والمسافة الواقعة بينهما تعين بداية شارع يمتد في الجهتين فيكون محور البلد . ويقوم شارع متعامد معه ، يلتقي به عند الجامع ويتصل إلى نهاية البلد من الطرفين . ويبني الناس بيوتهم ، وتقيم الحكومة مبانيها على هذين الشارعين ، ويقوم الناس بإنشاء الدور ، فلا تلبث الصورة العامة للمدينة أن تظهر . وفي بعض الأحيان كانوا يتركون حول المسجد وقصر الإمارة مساحة واسعة مستديرة ، كأنها ميدان عظيم يبني الناس البيوت حوله ، محافظين على الشارعين اللذين أشرنا إليهما . وعندما تصل المدينة حدًّا معقولا من الامتداد يقام سور بدور حول البلد ، وتكون بواباته الرئيسية هي نهايات الشارعين الرئيسيين . وبين تلك الشوارع الرئيسية تمتد شوارع أخرى تبدأ من المركز وتنتهي عند السور .

وفي العادة كانت الأسواق تنشأ في الجانب الذي يقوم فيه الجامع ، وكانت عبارة عن شوارع ضيقة يختص كل شارع منها بحرفة من الحرف ، وكانت ملتقيات الشوارع يسمى الواحد منها : « السويقة » ، وكانت توجد بين شوارع الأسواق شوارع جميلة ذات مبان ظاهرة الغنى تسمى : « القيساريات » تخصص للمتاجر الغالية ، كالأقمشة الممتازة والجواهر وأدوات الترف وما إليها ، وحول الأسواق كانت تقوم أحياء العامة . أما في ناحية قصر الإمارة فكانت تقوم منازل رجال الدولة والأغنياء وأهل السلطان . وفي الغالب يراعى شيء من النظام في مباني البلد في أول إنشائه ، ثم يختلط الأمر بعد ذلك وتضيق الشوارع وتأخذ أحوال المدينة كلها في السوء كما ذكرنا .

وفى حالات قليلة جدًّا وضع العرب تصميماً لإنشاء البلد ، كما حدث بالنسبة لبغداد والقاهرة ، ولكن نمو البلد لم يلبث فى كلتا هاتين الحالتين أن خرج عن التصميم الأصلى ، فأخذ البلد ينمو بحسب حاجات أهله ومطالب الحياة فيه .

أما بغداد ـــ مدينة السلام أو المدينة المدوَّرة ـــ فقد اختار موضعها ووضع تصميمها أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـــ ١٥٨ هـ/٧٥٤ ـــ ٧٧٥ م) على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وأرادها أن تكون مدوَّرة ، وأنشأ حولها سوراً دائريًّا ضخماً ، ولكن البلد تخطى ذلك السور وامتد فى سرعة فى اتجاه النهر خاصة ، ثم تخطاه إلى الضفة الشرقية .

وأما القاهرة فقد بنيت فى الأصل لتكون مدينة ملوكية ومعسكراً ومقاماً للخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم وجنودهم وحواشيهم . وقد وضع خطتها جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م . وعلى ذلك ظلت مقصورة على أهل الحكم والجند أكثر من قرن ونصف ، فقد زار الإدريسى الجغرافى مصر سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م ، أى بعد إنشائها بمائة وسبع وأربعين سنة تقريباً ، فلم يذكر القاهرة إلا بالاسم ولم يدخلها . وإلى آخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، كانت العاصمة الحقيقية للبلاد هى الفسطاط ، ولم تنجح القاهرة ـــ كمدينة ـــ إلا عندما انفتحت أبوابها للناس واتصلت بالفسطاط وزحفت غرباً نحو النيل حتى ارتكزت على ضفته .

وفى أوائل القرن التاسع عشر لم يكن يسكن القاهرة أكثر من ستين ألف نفس بحسب تقدير رجال الحملة الفرنسية ، وكان هذا العدد يزيد إلى ثمانين ألفا بالنهار بسبب الوافدين من أهل القرى المجاورة للبيع والشراء ، ولم يزد سكان الإسكندرية على خمسة آلاف نفس . وهاتان ـــ القاهرة والإسكندرية ـــ كانتا من كبريات المدن . وبين هذين الرقمين تراوح سكان بقية العواصم العربية ، مثل بغداد ودمشق وحلب والقدس فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

والميزة الكبرى لهذه العواصم ، برغم ما ذكرناه من متاعب العيش فيها ، أنها كانت مدناً إسلامية عامة ، يدخلها ويسكن فيها من يشاء من المسلمين دون أن يمنعه من ذلك مانع أو ينظر إليه أحد على أنه غريب . فكثر الوافدون عليها للتجارة أو لطلب العلم فى مجالس العلماء أو فى المساجد أو فى بيوتهم أو فى المدارس ، عندما قامت المدارس ، أو لطلب الرزق أو لزيارة أضرحة الصالحين والأولياء أو لشراء السلع التى

لا توجد إلا فى المدن الكبرى أو للبحث عن طبيب ماهر أو دواء نادر . ولهذا حفلت تلك العواصم بالغرباء وكثرت فيها الخانات لنزولهم ، وكانت الخانات ــ وهى فنادق بلادنا فى العصور الماضية ــ مرتبة منظمة ، فيها الرفيع المستوى الذى يحصل النازل فيه على كل وسائل الراحة والترف ، وفيها الرخيص الذى ينام نزلاؤه جميعاً فى قاعة واحدة على حُصُر ويتغطى كل منهم بما معه من غطاء أو ملبس ، وتحيط بالخان فى العادة دكاكين كثيرة تبيع الطعام . وقد وصف لنا هذه الفنادق رحالةُ العرب ، ووصفها أيضاً رحالة الأوروبيين من أمثال إدوارد وليم لين EDWARD W. LANE ويوهان بوركهارت JOHANN L. BURCKHARDT ؛ وقد أثنى هذان الأخيران على فضائلها .

وكان مجتمع المدن غير متجانس ، يختلط أهل البلد بالغرباء من كل جنس ولون ، ويتجاور فيه أهل العلم وأرباب الحرف والتجار الصغار والكبار ، وتمتلئ مساجده بالطلاب والعلماء ، وكان فقراء الطلاب ينامون أحياناً فى أروقة المساجد ، وكان القائمون عليها لا يرفضون السماح لعابر بقضاء الليل فيها .

وقد قامت هذه المدن بدور عظيم فى تاريخ الجماعات الإسلامية ، لأنها كانت رموزاً على وحدة العالم الإسلامى ، وإذا كانت القرى وصغار المدن تصور الطابع المحلى فى كل ناحية فإن كبار المدن كانت تصور العالم الإسلامى جملة . وبرغم كل ما ذكرناه من عدم العناية بها واضمحلال أمرها بمرور السنين ، فقد قامت فيها العمائر الجميلة من مساجد وقصور وأسبلة وأضرحة وسقايات وصهاريج للماء ، أى أنها كانت مراكز للحضارة الإسلامية ومواضع لالتقاء المسلمين وفى هذه المدن قامت الحضارة الإسلامية بمظاهرها الفكرية والمادية .

أهــل الحــرف ونقاباتهــم :

لا نعرف العصور الوسطى العاملَ بمفهومه فى العصر الحديث ، فلم تكن هناك ــ إلا فى النوادر ــ مصانع كبيرة يعمل فيها مئات العمال أجراء عند صاحب عمل ، إنما كان العامل صاحب عمل فى نفس الوقت ، فهو يعمل فى بيته أو فى دكان صغير ، يساعده صبيان لا يعدون عمالا عنده ، لأنهم كانوا أشبه بالتلاميذ ، يتعلمون منه الصنعة ويخدمونه فى نفس الوقت ، ثم يستقل كل منهم بنفسه بعد ذلك . ولم يكن

انتقال العامل من صبي إلى معلم يتكلف كثيراً ، لأن أدوات العمل كانت قليلة ورخيصة . وفى أكثر الأحوال كان الصبيان هم أبناء المعلم نفسه ، يرثون منه صنعته ودكانه وعملاءه أيضاً . وكان الصانع ، أو صاحب الحرفة ، يقدر أتعابه بنفسه ، بحسب مهارته أو قدراته ، فقد كان بعض النساجين يتقاضون أجوراً لمصنوعاتهم تصل إلى مئات الدنانير فى الثوب الواحد . ومن المعروف — أو من القواعد المعروفة فيما يتصل بالأجور — أن صاحب الحرفة الماهر هو دائماً الذى يحدد أجره بنفسه . أما الذى يتحكم فيه الناس وأصحاب الأعمال فهو العامل غير المتقن والوسيلة الوحيدة لحماية العمال فى كل مكان هى رفع مستواهم الفنى والحرفى ، وهذا وحده يكفى لرفع أجورهم وتحسين مستواهم .

أما النقابات التى انتشرت فى عالم الإسلام فى العصور الوسطى المتأخرة فلم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت إطارات وتنظيمات مهنية اجتماعية تجمع طوائف من الناس ذات مصالح مشتركة ، وهى لم تكن مقصورة على العمال ، فكانت للأشراف — مثلا — نقابات (وهم جماعات ينتسبون إلى نسب إسلامى جليل) ، كالأشراف العلويين أو الأشراف البكريين (سلالة أبى بكر الصديق) وكانت وظيفة هاتين النقابتين وأمثالهما رعاية الأسرة المرتبطة بالنسب المشترك وإدارة أوقافها وما إلى ذلك .

ويتجلى الطابع الاجتماعى للنقابة من تسميتها بالعشيرة ، ولفظ العشيرة نفسه يدل على رابطة اجتماعية بين أفرادها ، فكان رئيس النقابة يلقب بشيخ العشيرة ، وهو لقب يحمل إلى الذهن معنى رب الأسرة ، وبالفعل كانت النقابات فى البلاد العربية فى العصور الوسطى أسرة واحدة تربط بين أفرادها روابط القرابة والمصاهرة منها إلى روابط المهنة والمصلحة المشتركة ، فكان النقيب والدأ لجميع أعضاء العشيرة ، وكانت كلمته مسموعة فى كل ما يقومون به من زيجات ومصاهرات ، وعندما كان عضو من أعضاء النقابة يطلق امرأته — مثلا — كانت المطلقة تلجأ إلى شيخ العشيرة ليسعى فى ردها .

وكانت النقابة أو العشيرة أيضاً رابطة دينية ، فلابد أن ينتسب أفراد النقابة جميعاً إلى نفس الطريقة الصوفية ، فيكونوا جميعاً شاذليين أو جيلانيين أو نيجانيين وما إلى ذلك ، ويندر أن يسلك عضو النقابة طريقاً آخر ، بل كان أخذ العهد على شيخ آخر يعد خطأً جسيما أشبه بخيانة العشيرة . وكان هذا الانتساب للطرق الصوفية

يلزم أفراد العشيرة بسلوك ديني واجتماعي محدد ، فلابد من أداء الصلوات في أوقاتها ، ولابد كذلك من تجنب الفواحش والتنزه عما يشين الحرمة أو يمس الدين أو يخدش المروءة . وليس معنى هذا أن أعضاء عشائر الصناع كانوا نماذج للفضيلة والسلوك الديني السليم، بل كان هذا هو المفروض . وعلى الرغم مما كان أولئك الناس يرتكبونه من خطايا — كغيرهم من الناس — إلا أن انتسابهم إلى الطريقة كان أشبه بالضمير الصامت داخل نفوسهم ، وهذا في ذاته أمر عظيم ، لأنه كان سياجا صان الكثير من دعائم المجتمع من أن تتصدع .

وكذلك كانت نقابات العمال تنظيمات وظيفتها المحافظة على مصالح العاملين في نفس الحرفة ، وتحديد مستوى العمل فيها وإلزام الراغبين في الدخول فيها بمنهج معين في الدراسة والتمرين والصنعة . فلابد أن يقضي الغلام عدداً من السنين « صبياً » دون أجر ، بل كان يظل عدداً من هذه السنين خادماً للمعلم في الدكان والبيت قبل أن يبدأ في تعلم شيء ، ثم يصبح « شغّالا » بأجر زهيد ، ولا يصبح معلماً يسمح له بفتح دكان وتقبُّل أعمال إلا بعد أن ينقضي عليه في الحرفة ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة سنة .

وكانت تربط أعضاءَ النقابات بعضهم ببعض تقاليد وقواعد سلوك يلتزمون بالسير عليها ، فللمعلم على الشغالين والصبيان عنده حقوق لا يمكن تجاهلها ، من احترامه وخدمته والأمانة في معاملته ، ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل . وكان النقيب مكلفاً بالحديث إلى السلطات باسم النقابة التي يرأسها . ونظراً لحاجته إلى قوة تؤيده كان لابد له من الانتساب إلى طريقة صوفية . وفي الغالب تتبع النقابة كلها طريقة واحدة ، فتكون شاذلية و تيجانية أو رفاعية مثلا . وكان مركز النقيب في المجتمع مرتبطاً بنوع النقابة التي يرأسها ، فنقيب التجار مثلا كان دائماً من الشخصيات الرئيسية في المجتمع ، فهو على العادة رجل غني من بيت كبير ، وهو يضمن للحكومة ورجالها حاجتهم من المتاجر بالسعر المعقول .

وكانت نقابات المهن مسئولة عن مستوى المهنة ، بحيث يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى إلى النقيب في حالة محاولة العامل خداعه أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة النقص والعيب . وقد عرفت هذه النقابات كيف تحافظ على مستوى الصناعات في البلاد من التدهور ، وإليها يرجع الفضل في المحافظة على تقاليد صناعية جميلة مازلنا

ری نماذجها فیما یسمی بالصناعات التقلیدیة ، کالنجارة الدقیقة وصناعة النحاس « المکفّت » والحدید المشغول والقماش المطرز وأشغال الصدف وما إلی ذلك .

وکان المعلمون أو « الأسطوات » (أی الأساتذة ، کما کانوا یسمون) هم الذین یحددون مستوی الصنعة وأجورها المناسبة فی حالات الخلاف . وکانت العلاقات النقابیة لها جانبها الاجتماعی ، فالمعلم له مقام الوالد علی « صبیانه » و « شغالیه » وهو یشترك فی تزویجهم ، ویتوسط فی خلافاتهم العائلیة ، وفی الغالب یکون زواج أهل الحرفة فیما بینهم .

ویدهش الإنسان عندما یری کثرة ما ألّف أهلُ الحرف المسلمون فی حرفهم ، فما من صنعة إلا ولدینا وعنها کتب کثیرة ، ولا یقتصر هذا علی الصناعات الکبیرة کالبناء والحدادة والنجارة ، بل لدینا کتب عن صناعات الجلد وعمل أدوات الموسیقی وصناعة أدوات الکتابة وصناعة الورق والزجاج والصیاغة وسك النقود حتی « فن الطبخ » ، وهذه الکتب فی العادة تتناول الحرفة من کل نواحیها ، أعنی ما یتصل بأصول الصنعة وأصنافها وموادها الخام ومستویات الجودة فیها ، وفی حالات کثیرة یتناول المؤلف الناحیة الشرعیة من موضوعه ، کما نری فی بعض الکتب المؤلفة عن المبانی والعمارة وکذلك الکتب الخاصة بسك النقود . وهذا یدل علی أن العامل المسلم فی العصور الوسطی کان رجلا متعلماً یمارس صنعته علی أصول مقررة مسطورة فی کتب ، فلو لم یکن هناك عمال یقرأون هذه الکتب المؤلفة فی فنونهم لما ألفها أحد ، لأن أسلوب معظمها یدل علی أن مؤلفیها کانوا من رجال الصنعة الممارسین لها ، یکتبون لأهل صنعة مثلهم ، فهم یستخدمون المصطلح الجاری بینهم والعبارات التی لا یفهمها إلا العمال أنفسهم . بل إننا وجدنا أن بعض کبار الصناع من أهل الصنعة الرفیعة ، الذین اضطلعوا بعمل النقوش فی قاعة کبری أو سقف خشبی مزین مزخرف ، یحرصون علی أن یکتبوا مفتاح زخرفة القاعة أو السقف فی ظهر أحد الألواح الخشبیة المستعملة ، وینص فی ذلك المفتاح علی الألوان الأصلیة ، حتی یمکن إعادتها إلی أصلها إذا حال ذلك اللون .

ولولا هذه النقابات والعمال الذین أنشأوها لاندثرت الصناعات الجمیلة التی أضفت علی مجتمعنا طابع الفن الذی لا غنی عنه لمجتمع متحضر ، ولولا هذه النقابات لضاعت تقالید هذه الصناعات خلال العصور الوسطی المتأخرة . وإن من یتأمل

بلادنا وما خلفته لنا فيها العصور الماضية من الآثار يجد أن معظمه من عمل أولئك الصناع .

فالمساجد والقصور الباقية وما نطوى عليه من روائع العمارة والهندسة وزينتها ونقوشها ومنابرها ومَشْرَبِيّاتها وسقوفها وأعمال الخشب والمعادن والرخام ، كل ذلك يدل على روح فنى أصيل وذوق شرق بديع . وتقسيمات الزخارف وبديع التصاوير التى لم تقتصر على الخشب ، بل وحدت على الخزف والزجاج والحجر والمعادن ، كلها تدل على مهارات فنية وصناعية مازالت إلى يومنا هذا جديرة بالإعجاب ، ولصناع المسلمين مهارة فى نحت الرخام والأحجار الصلبة لا تقل عما نجده عند اليونان والرومان .

وكذلك النسيج الجميل الذى اشتهر به الكثير من بلاد الإسلام ، فقد كانت بعض نماذجه ترق إلى مستويات لا تقل عما تخرجه أحسن مصانع النسيج المعاصرة .

وإن الإنسان ليرى زخارف « التاج محل » فى مدينة أجرا بالهند ويقارنها بزخارف القصور فى المغرب فى مدن تطلّ على المحيط الأطلسى ويتعجب كيف استطاع « تقليد » فنى واحد أن يسود فى مساحات شاسعة كهذه دون أن يلقى من الرعاية إلا حرص الصانع الفنان نفسه على مستوى صنعته وعناية بعض السلاطين والأمراء وسراة الناس .

ولقد استطاع الصناع فى بلاد العالم الإسلامى أن يقوموا بكل حاجات بلادهم من الأشياء المصنوعة ، برغم ما يبدو عادة على مجتمعنا فى العصور الوسطى من تواضع الصناعة وقلة المصنوعات ، فهم قدموا للناس كلَّ ما لزم لهم من المنسوجات بكل أنواعها ، سواء كانت صوفية أو كتانية أو قطنية أو حريرية ، بل أخرجت المناسج فى الهند وإيران والشام ومصر واليمن أقمشة رفيعة متقنة راحت فى العالم كله .

وقد استوردت أوروبا من بلاد الإسلام منسوجات شتى ، راجت فى أسواقها بأسمائها التى تدل على أصولها .

فعرفت أوروبا قماشاً حريريًّا رفيعاً سمى بالفُسنيان Fustian ، وأصله مصنوع فى فسطاط مصر ، ومن هنا جاء اسمه . وقد جوّدت أوروبا بعد ذلك صنعَه وصدرته

إلينا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، فكانت تصنع منه أرفع أثواب النساء ، حتى سمى ثوب المرأة نفسه فى مصر بالفستان .

وعرفت أوروبا الدِمَقْس الذى يصنع فى دمشق ، وسمى فى أوروبا بالدماسك Damask وكانت توجد منه أنواع شتى .

واستورد الإيطاليون الحرير الموصلى الرفيع ، وشاع فى أوروبا باسم الموسلين ، وصنعوه فى بلادهم ، واستوردناه نحن بهذه الصورة الأوروبية للاسم Musline سواء أكان حريريًّا خالصاً أم مخلوطاً بشىء من الصوف .

ومثل هذا حدث للحرير البغدادى ، فقد كان الإيطاليون يعرفون اسم بغداد إلى بالداكو Baldacho ، ونسبوا إلى اللفظ ذلك الحرير البغدادى الرفيع فسموه : بالداكينو Baldachino ، أى البغدادى ، واستعملوه بصورة خاصة فى الكنائس كستار يفصل بين المذبح وبقية الكنيسة . ثم ذاع استعماله ، نظراً لأنه ثقيل كالمخمَّل ، للظُّلة التى كانت ترفع على أعمدة فوق الأسِرَّة لتسدل منها الكلل ، وعلى هذه الصورة استوردناه نحن بعد ذلك من أوروبا فقلنا : سرير ببلتكان .

واستوردوا كذلك قطنيات حمراء رقيقة من غرناطة كانت تسمى بالغرناطيات Granadines ، وقد بقى الاسم يطلق على لون القماش الأحمر الداكن ، فقلنا إن لونه جريناد Grenade أى غرناطة .

وأخذوا من إيران قطيفة حمراء مما كان يصنع فى تفتازان وسموها بالتافتا Taffeta ، وما زلنا نحن نستعمل هذا اللفظ فى مصطلح النسيج فنقول ثوباً من التافتا .

وكان الناس يصنعون فى حى العتّابية فى بغداد قماشا ممتازاً — والعتّابية منسوبة إلى صحابى جليل هو عتّاب بن أُسَيْد — فوصل هذا النسيج إلى أوروبا وسمى : العتّابى Attabi ، وقلد صناعته الأندلسيون وصدروه إلى فرنسا حيث عرف باسم تابى Tabi .

هذه أمثلة قليلة تدل على الكثير ، إذ الحقيقة أن العالم الإسلامى — من أقصى شرقه إلى أقصى غربه — كان حافلا بالمناسج والنساجين الذين أخرجوا للناس كل

صنف من النسيج وسدوا حاجات مجتمعهم عن قدرة . وإذا نحن قرأنا كتاب جغرافيا عربيا مثل « أحسن التقاسيم » للمقدسي أو « نزهة المشتاق » للإدريسي ، دهشنا لكثرة البلاد التي اشتهرت بمناسجها ، وفي مصر وحدها عددنا أكثر من عشرين بلداً من أقصى الدلتا شمالا عند دمياط وتنيس وشطا ودبقو ، إلى أعلى الصعيد عند أخميم ، كلها كانت تصنع أنسجة ممتازة نشير منها هنا إلى الكتان الرفيع الممتاز الذي كان يصنع في شمال الدلتا والسُّتُر الضخمة التي كانت تصنع في أخميم وكان طول الستر منها يصل إلى عشرين متراً وعرضه إلى خمسة عشر متراً قطعة واحدة ، فتأمل المنسج الذي كان يستطيع إخراج هذه الأحجام من نسيج القطن !

وجدير بنا أن نذكر أن الأقمشة كانت معدودة من أعيان الثروة ، فكما كان الرجل يدخر المال — ما بين ذهب وفضة — فكذلك كان يدخر الأقمشة والثياب ، لأنها كانت لا تفقد قيمتها ، فكان الناس يبيعونها وينتفعون بثمنها إذا احتاجوا إلى المال ، ولهذا كان الخلفاء والسلاطين يخلعون على الناس الثياب كما يعطونهم المال ، وكان كل رجل ميسور يحرص على أن يكون لديه تخت ثياب ، أي صندوق أقمشة وثياب مصنوعة — فهذه كانت مالا مدخراً — كما يفعل بعض الناس اليوم إذ يقتنون السجاد العجمي الغالي الثمن .

واستطاع صناع المسلمين أن يسدوا حاجات مجتمعاتهم من كل المصنوعات ، سواء أكانت أدوات حرف أم آنية بيوت أم أسلحة حرب أم مصنوعات ترف ، كأدوات الزينة والعطور وأواني الذهب والفضة .

وأتقن المسلمون صناعة الورق بأنواعه والصابون والزجاج المبسوط والمفرغ والبللور والخزف والقاشاني والأثاث الخشبي ، وبرعوا في الصناعة الدقيقة ، كما سنرى في الفصل الخاص بالفنون . وحتى القرن الثالث عشر الميلادي كان تجار الشرق والغرب يفدون على بلاد الإسلام ليشتروا البضاعة الجيدة والمصنوعات الرائقة من كل صنف .

ومع أن ذلك كله اضمحل بصورة واضحة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن المستعمرين الأوروبيين الذين دخلوا بلاد الإسلام ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي (في الهند) ثم غزوا بقية بلاد الإسلام بعد ذلك ، وجدوا صناعات زاهرة في كل مكان دخلوه . وكانت مهمة الاستعمار الأولى هي القضاء على

الصناعات المحلية ، فسواء فى الهند أو إندونيسيا أو الملايو أو إيران أو العراق أو مصر أو الشام أو المغرب ، قضى الأوروبيون ــ بناء على سياسة مرسومة ــ على كل الصناعات المحلية ، لكى يحولوا تلك البلاد إلى أسواق لمصنوعات بلادهم . و لم تعد الصناعات إلى بلاد المسلمين إلا فى عصور الاستقلال .

أحــوال الــزراع والمجتمــع الريــفى :

وننتقل من هذا إلى الكلام عن أحوال الزراع ، وهم كانوا غالبية أهل البلاد الإسلامية ، بل غالبية أهل الأرض حتى اليوم . والزراعة عمل صبر وجهد واحتمال ، لأن الزارع دائماً فى خدمة الأرض وما يزرعه فيها ، وهو ــ بحكم انتظاره للمحصول وتوالى أزمنه الزراعة ــ مرتبط بالأرض ، فيقوم بينه وبينها ارتباط وثيق ، فهو لا يفارقها إلا إذا أجبره على ذلك مجبر ، وهو يحتمل فى سبيل الأرض الكثير من المتاعب والمظالم .

وقد حسب الناس أن ذلك من الفلاح ذل واحتمال للهوان ، ولكنه فى الحقيقة صبر على العمل واحتمال لمتاعبه وتضحياته ، وقد أوذى الفلاح بسبب ذلك أذى كثيراً من الحكام الذين سيطروا على الفلاحين عن طريق التسلط على المحاصيل بوجه عام ، وكذلك جباة الضرائب أساءوا إلى الفلاح إساءة كبرى ، وكانوا فى العصور الوسطى من آفات المجتمع ، لأنهم كانوا فى العادة يجمعون من الفلاح أكثر مما يؤدون إلى الخزانة ، وقد عُدّوا أحياناً فى عداد المغضوب عليهم من الدين ، ونظراً لما كانوا يقترفونه من عسف وظلم وسرقات كانت أموالهم تعد أموالا حراماً يتحرج أهل الديانة من أخذها ، وسلكتهم المسيحية ضمن الخاطئين الذين سيطول عذابهم فى جهنم ، وسواء فى الشرق أو فى الغرب كان المكّاسون والعشّارون يعدون من الأشرار .

ويهمنا هنا أن نقرر أنه برغم المتاعب الكثيرة التى كان الزراع يلقونها على أيدى الحكومات فى بلاد الإسلام جميعاً ، فإنهم واصلوا عملهم فى صبر واحتمال ، واستطاعوا أن يقدموا للمجتمعات كل حاجتها من الأغذية . و لم تقتصر الزراعة فى بلاد الإسلام على المحاصيل الاقتصادية وإنما تناولت أيضاً الشجريات بأصنافها

والفواكه والزهور والأعشاب أي النباتات الطبية . وقد مارس المسلمون زراعة هذه الأصناف عن علم دقيق ، وجرى الفلاحون على قواعد ثابتة في عملهم الزراعي . ولم يخل أي بلد إسلامي من تقويمات زراعية يسجل فيها أوان زرع كل محصول ، ومتى يقوم الزارع بكل عمل خاصٍ بهذا النبات أو ذاك ، وتتحدث هذه الكتب كذلك عن آفات الزراعة وما ينبغي أن يعمله الفلاح لحماية محاصيله منها .

ومعنى ذلك أن الزراعة لم تكن محض عمل تقليدي ورثته أجيال الزراع بعضها عن بعض ، وإنما كانت في كل بلاد الإسلام تقريباً علما وفنًّا تطبيقيًّا ، ولدينا الكثير من كتب الفلاحة العربية كالتي وضعها ابن وحشية وأبو العباس بن الرومية وأبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي — الذي عاش في الأندلس في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي — وأبو عبد الله بن بَصّال الطليطلي ، وهو أيضاً من أبناء القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد اشتهر هذا الرجل بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس ومكافحة آفات الزرع ، وقد وصل إلينا كتابه المسمى « بالفِلاحة » وهو — دون شك — من أحسن الكتب العلمية التي أُلفت في الزراعة قبل العصور الحديثة . وكان ابن العوام تلميذاً لابن بصّال ، وقد أَلف كتابه المسمى أيضاً : « الفلاحة » ، وكان من جلائل المؤلفات التي وصلت إلى أوروبا وتُرجمت إلى لغاتها ، بل تُرجم هذا الكتاب مرتين : مرة في القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية والعبرية ، ومرة في العصر الحديث ، إذ ترجم إلى الإسبانية ونشر سنة ١٨٠٢ م . وإلى آخر القرن التاسع عشر الميلادي كان كتابُ بن العوام من المراجع المعتمدة في كليات الزراعة في إسبانيا . وتتبين لنا عقليته العلمية إذا نحن قرأنا فقرة من مقدمة كتابه يقول فيها : « ومعنى فلاحة الأرض هو إصلاحها وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها ، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها ، وإصلاح ذلك وإمداده بما ينفعه ويجوده ، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه ، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والدون منها ، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع منها ، من الشجر والحبوب والخضر ، واختيار النوع الجيد من ذلك ، ومعرفة الوقت المختص بزراعة كل صنف فيها ، وكيفية العمل في الزراعة ، وفي الغراسة ، ومعرفة أنواع المياه التي تصلح للسقي ، ومعرفة الذبول وأصلحها ، وكيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غرسها » .

ونتيجة لهذا التناول العلمي للزراعة كان مستوى فلاحة الأرض في بلاد المسلمين

مستوى رفيعاً عالياً ، فقد زرعوا كل أصناف الحبوب والفواكه والحمضيات ، وجلبوا أصول النباتات الاستوائية وزرعوها فى بلادهم وجادت على إيديهم ، ومعظم الفواكه التى عرفتها أوروبا — كالبرتقال والمشمش والخوخ والبرقوق والموز — إنما عرفتها عن طريق العرب ، وعن طريقهم أيضاً عرفوا القطن والأرز والزيتون والزعفران وغير ذلك . وكثير جدًّا من الزهور الشائعة الاستعمال فى أوروبا وصلت إلى بلادهم عن طريق المسلمين . ويكفى أن نذكر هنا الورد بأنواعه والياسمين والدالية والدلبان — التى نعرف باسم نيولب Tulip — وغير ذلك كثير .

فإذا تركنا الزراعة وفنونها وانتقلنا إلى الفلاحين ومجتمع الريف وجدنا أن الفلاحين فى طول البلاد الإسلامية وعرضها عاشوا فى ظروف متماثلة تقريبًا ، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماسك الحياة العائلية فيها . ومن المعروف أن المجتمعات الوسيطة فى الشرق والغرب كانت مجتمعات زراعية مقفلة على نفسها ، ففى القرن الثالث أو الرابع الهجرى / التاسع أو العاشر الميلادى ، كانت الهند والعراق ومصر والشام وما يعرف الآن بإيطاليا وفرنسا ، كلها ، بلادًا زراعية تتكون من مزارع متصلة وألوف القرى ، أما المدن — بصورتها التى نعرفها فى العصر الحديث — فكانت المواصم ، أما بقية المدن فإنها كانت إذ ذاك قرى كبيرة لا يميزها عن غيرها إلا اتساع مساحتها ، ولم تشذ عن ذلك إلا عواصم الأقطار من مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وباريس ولندن وروما . فهذه المدن القليلة كانت تقوم فيها مظاهر العمران المدنى من قصور شامخة لأهل الحكم وأهل القوة والمال ومبان لإدارات الحكومة ومساجد أو كنائس فخمة ومعسكرات للحرس والجنود ، تدور حول ذلك كله أسوار عالية ذات أبواب ضخمة .

وهذا العدد القليل من المدن لا يمنع من القول إن المجتمعات الوسيطة كانت مجتمعات زراعية ، وإن الغالبية العظمى من الأهلين كانوا يعيشون فى قرى صغيرة منثورة فى الأرض نثرًا . وكانت هذه القرى كلها مقفلة على نفسها تماماً ، فيندر أن يدخلها غريب ، وقلما يغادرها أحد من أهلها إلا إلى قرية مجاورة ، ونادراً ما كان أهل القرى يزورون العواصم ، وكذلك كان يندر أن يزور أهل المدن تلك القرى إلا إذا كانت لهم أملاك فى زمامها أو كانوا جباة ضرائب أو من عمال الدولة . فعاشت القرى حياتها المقفلة جيلا بعد جيل ، لا يعرف الناس عن حياتها إلا فكرة عامة عن المحاصيل التى تزرع فى الأرض حولها ، ولا تعرف الدولة عنها إلا مقدار

المال الذى ينبغى أن يؤديه أهلها ، حتى أصحاب الإقطاعات فى القرية لم يكونوا يعرفون عنها إلا ما يقوله لهم عنها وكلاؤهم ، وقلما كانوا يقولون الصدق .

وقد كانت هذه الحياة المقفلة سرَّ قوة القرية وثباتها ، فقد ظل التكوين العائلى فيها قويًّا يحكم كل ناحية من نواحى الحياة فيها : يصون الأسر من التفكك ، ويحول دون الفساد ، ويعمل على تسيير الأبناء والبنات فى طريق الآباء والأمهات . وفى هذا المجتمع تمسك الناس بالدين والعادات والتقاليد تمسكاً شديداً ، فكان مجتمع القرية أقوى وأثبت من مجتمع المدينة . واحتفظت نواحى العالم الإسلامى بشخصياتها المحلية فى قراها ، ومضت القرون على القرى وكأنها لا تمضى . ومن الغريب أن عواصف الحوادث أو الغارات والمحن قد تحطم المدن الكبيرة وتقضى على معظم محاسن العمران فيها ، ولكنها تعجز عن القضاء على قرية صغيرة خافية فى بطن الريف أو مستترة فى لِحْف جبل ، لأن الغزاة لا يتوقفون عندها ، ولأن أهلها يغادرونها عند الخطر ويختفون فى الأوعار والقفار حتى تنقضى الغارة ، ثم يعودون ليواصلوا حياتهم . ودور القرى البسيطة يسهل إعادة بنائها بكلفة قليلة ، فى حين تعسر إعادة بناء المدينة . وهذه القرى الصغيرة هى التى حافظت على جماهير أمم الإسلام خلال ليل التاريخ الطويل .

والقرى هى التى تغذى المدن بالعنصر البشرى السليم ، فقد كان الطامحون من شباب القرى يارحونها إلى المدن ، طلباً للعلم أو العمل أو فراراً من السأم وبطء وقع الحياة ، وهذا التيار من الهجرة إلى المدن هو الذى يمدها بالعناصر السليمة العفية التى تجدد دم الحياة فيها .

وقد عرف أهل القرى دائماً كيف يدافعون عن كيانهم وينجون بأنفسهم من مظالم الحكام . وكان لهم فى ذلك أساليب وأخلاق شتى قد يشكو منها أهل المدن ، ولكنها فى الحقيقة وسائل النجاة من مساوىء الحكم ونوازل الزمان ، وما حيلة أهل القرى إذا كان دأبُ أهل المدن والحكام فى كل زمان ومكان الطمع فى أهل القرى واستضعافهم والنظر إلى ما فى أيديهم ؟

العالم الإسلامي عالم متعلم مثقف ...

العلم والعلماء والكتب والمكتبات :

من الحقائق المقررة أن الإسلام حث الناس حثًّا شديداً على طلب العلم ، وفى كل كتاب متداول عن فضائل الإسلام تجد المؤلفين ينصون على الآيات الأولى من سورة العلق التى تبدأ بكلمة « اقرأ » ، وتتضمن كلمات « علّم » و « يعلم » و « القلم » ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام دين علم ، وأن مجتمعه ينبغى أن يقام على العلم ، وقد أطال الناس فى الكلام على هذه الناحية مما يغنينا عن الوقوف عندها طويلا .

وهناك آية أخرى تأمر المسلمين بأن تكون معاملاتهم كلها كتابة ، وهى الآية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة ونصها : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه** ﴾ ، وهى تكمل آية سورة العلق وغيرها من الآيات التى تحض الناس على طلب العلم وترفع قدر العلماء وما يفصّلها ويبيّنها من الأحاديث النبوية الشريفة كقوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ، فإذا فتحت أى كتاب من كتب تراجم العلماء — وهى كثيرة جدًّا — وجدت صفحات طويلة من أحاديث الرسول — ﷺ — فى الحث على طلب العلم وتكريم العلماء وبيان فضلهم وما ينبغى أن يتحلوا به من صفات وفضائل ومسئوليتهم أمام الله سبحانه وتعالى .

ولكن آية الأمر بكتابة العقود والاتفاقات والمبايعات لم تظفر بما هى جديرة به من اهتمام الفقهاء ومفسرى القرآن ، مع أنها الأساس الذى قامت عليه ظاهرة من أهم ظواهر المجتمعات الإسلامية وخصائصها المميزة .

ذلك أن هذا الأمر أوجب على المسلمين تعلم الكتابة ، لأنه ما من إنسان إلا يتبايع أو يتعاقد ويعقد الاتفاقات على طول حياته مهما كان ذلك قليلا ، ولا ندرى ما السبب فى أن الفقهاء لم يستنتجوا هذا الحكم من الآية الكريمة ، والأغلب أنهم اعتبروا تعلم الكتابة فرض كفاية ، فما دام فى الأمة من يقرأ ويكتب فهو يغنى عن الباقين .

والحق أن تعلم القراءة والكتابة فى الماضى كان عسيراً كل العسر ، ثم إنه كان

قليل الفائدة إلا لمن اشتغل بالعلم أو بوظائف الدولة أو تولى الولايات أو كان تاجراً يحتاج إلى الكتابة كل يوم . أما الفلاح في أرضه فقد تنقضي الأعوام دون أن يحتاج إلى كتابة ورقة أو قراءة وثيقة ، وشبيه بذلك العامل الصغير في مصنعه والتاجر صاحب الدكان المتواضع أو الجالس في السوق بشيء من بضاعة تسد حاجاته ، أما ما نهتم نحن به اليوم من الاطلاع وقراءة الكتب فما كان يقبل عليهما إلا المشتغل بالعلم أو الميسور الحال الذي يستطيع شراء الكتب ، ثم إن الكتب كانت قليلة وغالية وما كان يستطيع اقتناءها إلا من ملك مالا زائداً على حاجته ينفقه في هذا الترف . أضف إلى ذلك أن القارئ الكاتب إذا انقطع عن القراءة والكتابة زمناً طويلا أوشك أن ينسى ما تعلم ، وهذه كانت حالة الغالبية العظمى من السكان ، فما كانت تمس حاجتهم إلى كتابة شيء أو قراءة ورقة إلا في النادر ، ولهذا لم يكن الناس يحرصون على التعلم .

ولكن الأمر بكتابة كل اتفاق أو مبايعة أو دين جعل من الضروري أن يكون في كل جماعة من المسلمين من يقرأ ويكتب ، فلم يكن يخلو بيت في مدينة من عدد من الذين يكتبون ويقرأون ، وما خلت قط قرية من عدد منهم . وفي العصر الذهبي للحضارة الإسلامية — الذي امتد من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر الخامس الهجري — تزايد إقبال الناس على العلم والعمل ، وقامت الدول المحلية الكثيرة واحتاجت إلى موظفين يعملون في إداراتها ، فكثر المتعلمون كثرة زادت على الحاجة . وفي كتابات أدباء هذا العصر تتردد الشكوى من كثرة المتعلمين العاطلين وإلحاحهم على رجال الإدارة في طلب العمل ، وفي مقامات أبي القاسم الحريري مقامة تشرح كيف لجأ واحد من أولئك المتعلمين المتعطلين إلى حيلة بالغة في التعقيد ليحصل على عمل ، وذلك بسبب زيادتهم على حاجة المجتمع زيادة كبيرة .

وعلى الرغم من تلك الزيادة فإن المتعلم كان له دائماً مركز ممتاز في المجتمع ، فسواء أكان غنياً أم فقيراً ، صاحب عمل أم متعطلا ، فإنه كان دائماً موضع احترام وتوقير ، ونتيجة لحث القرآن على التعلم وعلى إجادة القراءة والكتابة على الأقل تجد أن المتعلمين في كل مكان كانوا سادة الناس وأصحاب الرأي فيهم ، ولهذا فقلما نجد مسلماً يطمح إلى تعليم ابنه ، وبخاصة إذا كانت فرصة التعليم قد فاتته هو ، أما كبار الشيوخ والقضاة والفقهاء فكانوا بالفعل رؤساء الجماعات الإسلامية وقادتها .

فى تلك العصور كان التعليم فى أوروبا نادراً ، فبينا كان هارون الرشيد يعد من أجلاء العلماء — إلى جانب مركزه السياسى الدينى — وينظم شعراً جميلا يجعله فى عداد المجيدين من الشعراء ، وكان قصره منتدى لأهل العلم والأدب من كل مشرب ، كان معاصره شارلمان لا يعرف من القراءة والكتابة إلا رسم اسمه حيث يعينون له فيما يقدمون له من وثائق الدولة . وكان معظم رجال دولته وكبار فرسانه مثله ، وعندما تتحدث « أنشودة رولان » بفضائل رولان بطل تلك الملحمة الذائعة الصيت تذكر أنه كان يقرأ ويكتب ، كأن ذلك كان شيئاً نادراً ، وبينا كانت الكتب متداولة فى الأيدى فى كل مكان فى بلاد الإسلام لم تكن توجد فى الغرب إلا فى الأديرة .

وقد كان التعليم — كما قلنا — مسئولية الشعب لا الدولة ، فكان الناس يحرصون على أن يكون فى شارعهم أو حيهم أو قريتهم كُتاب أو أكثر يقوم بالتدريس فيه فقيه يعيش مما يتقاضى عن التعليم ، وكان الفقهاء المعلمون كثيرين جدًّا فى كل مكان ، حتى كانوا أشبه بطبقة خاصة من الناس لها خصائصها وطباعها . وقد سخر منهم الجاحظ فى كتاباته وحمل عليهم ابن حوقل فى رحلته المعروفة بصورة الأرض ، ولكنّ أبو حيان التوحيدى تصدى للدفاع عنهم وحمل على خصومهم ، وأثنى عليهم ابن حزم وقال إنه مهما بدر منهم من أخطاء فإن الله سيثيبهم عن سعة بما يعلمون الصبيان قراءة القرآن ، والكثيرون جدًّا من كبار الشعراء وأهل الأدب ورجال السياسة بدأوا حياتهم معلمين ، لأن مهنة التعليم كانت تضمن المعاش لصاحبها ولو أن هذا المعاش كان دائماً ضئيلا ، إلا إذا أسعد الحظ المعلم فقام بالتدريس لأبناء رجل من علية القوم أو أهل السلطان ، فيكون ذلك سبيله إلى الخلاص من فقر المهنة والدخول فى وظائف الدولة والصعود فيها .

وإذا كان المعلمون بهذه الكثرة فلا بد أن المتعلمين كانوا كثيرين جدًّا ، وبالفعل ندر أن يكون هناك تاجر متوسط الحال فما فوقه أو صاحب وظيفة أو رجل ذو مال إلا علّم أولاده وأرسلهم إلى الكُتاب أو أتى لهم بالمؤدبين فى البيت ، ومع أن هذا التعليم كان يقتصر على تحفيظ القرآن أو جزء منه والقراءة والكتابة والحساب إلا أنه كان يفتح الباب أمام الصبى ذى الاستعداد لكى يسير فى طريق العلم بعد ذلك ، إذا كانت له رغبة .

وكانت العادة أن الطالب الذى يأنس فى نفسه القدرة على الاستمرار فى الدرس يتجه — بعد إتقان القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومعرفة الحساب — إلى المساجد الكبرى فى أقرب مدينة إليه ، وهناك يجد الشيوخ يقرأون على تلاميذهم ، فيجلس فى حلقة من يختاره منهم ويواصل دراسته ، ثم ينتقل إلى العاصمة ويستمر فى دراسته حتى يبلغ من العلم ما يريد . ولا ندرى على وجه التأكيد هل كان الطلاب يؤدون إلى الشيوخ مالاً أولا يؤدون ، مقابل الدراسة ، ولكننا وجدنا — على أى حال — ما يدل على أن بعض الشيوخ كانوا يتقاضون أجراً عن كل كتاب يقرأه الطالب عليهم ، بل من الشيوخ من جمع مالاً له شأن من إقراء التلاميذ .

وجدير بالذكر أن هذا النظام — على بساطته وعفويته — كفى حاجة المجتمع من العلم ، فقد خرّج علماء ممتازين ما زلنا نفخر بهم ، وقد سارت بهم الحركة العلمية سيراً منتظماً قروناً طويلة ، على الرغم من أنه لم تكن هناك سلطة حكومية أو غير حكومية ترعاه وتنظم شئونه ، فما كان فى نظم الحكومات فى تلك الأيام رجال مسئولون عن العلم والتعليم ، ولا وجدت فى عالم الإسلام هيئات تشرف على العلم والتعليم كما كانت الكنيسة الكاثوليكية — مثلا — تشرف على العلم بل تموله عن طريق الأديرة وهيئات الرهبان مثل الجيزويت (اليسوعيين) والفرنشيسكان والدومينيكان ومن إليهم ، وكانت البابوية قيّمة على العلم فكان يختص به واحد من الكرادلة . وكانت البابوية والأديرة تجمع المال للتعليم ، ومع هذا كله فما وُجدت المدارس فى الغرب إلا بعد القرن العاشر الميلادى ، وما كان يلتحق بها إلا الراغب فى الانضمام إلى سلك الرهبان ، ولم يكن يتعلم إلا أبناء علية القوم من أدواق وأكناد (جمع كُند وهو الكونت) وبارونات ، أما بقية الناس فما كان أحد منهم يحرص على علم أو تعلم ، بل ما كان يحتاج إلى ذلك أصلا لأن قس كنيسته كان يقوم له بما يريد من القراءة والكتابة .

لهذا نقول إن العلم كان من خصائص الجماعات الإسلامية ، فقد حفلت بالعلم والعلماء من كل مستوى وفرع ، وعلى الرغم من أن الناس لم يكونوا يكسبون من الكتب إلا الذكر الطيب ، فقد فاض عالمنا بالكتب والمؤلفات القيمة ، وجدير بالذكر أن رجلا مثل محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ والتفسير لم يتقاض شيئاً عن كتابيه العظيمين هذين ، ومع هذا فما كان يترك يوماً يمضى دون أن يكتب عدداً

من الصفحات قرره على نفسه كأنه فريضة أو دين للمجتمع . وكذلك عز الدين ابن الأثير صاحب التاريخ الحفيل ومعجم الصحابة العظيم القيمة ، ما كسب درهما من شيء كتبه . وقل مثل ذلك فى عامة المجتهدين من المؤلفين ، بل إن أحد علماء الأندلس ألف كتاباً فى القراءات ، فأرسل إليه أمير ناحيته ألف دينار جائزة وطلب إليه أن يضيف فى فاتحة الكتاب ما يفهم منه أنه ألف هذا الكتاب للأمير مجاهد العامرى فرفض الرجل وردّ المال وقال إنه لا يستطيع أن يكذب ، فما ألف الكتاب لهذا الرجل أصلا .

ويدهش الإنسان — لهذا — من اهتمام الكثيرين جدًّا بالتأليف برغم قلة ما كان يؤتيه من كسب مادى ، ولا يعلل هذا إلا بشغف شعوب الإسلام بالعلم وإيمانهم به ، فما نزكوا ناحية إلا ألفوا فيها الكتب الكثيرة ، وإذا افترضنا أن الناس كانوا يكسبون شيئاً من المؤلفات فى العلوم التى يكثر عليها إقبال الناس — كالفقه والحديث والتفسير والشريعة واللغة والأدب — فما الذى كسبه الأزرقى مثلا من تأليفه فى « تاريخ مكة » ؟ ! ، وما الذى أفاده السمهودى من كتابه فى « تاريخ المدينة المنورة ومنشآتها » ؟ ! وماذا كسب ابن حوقل من وصف رحلته المسماة بصورة الأرض ؟ ! ، أو ابن حزم من « طوق الحمامة » — وهو كتاب فى الحب وطبيعته — أو من كتاب « جمهرة أنساب العرب » وهو كتاب ضخم وجهد فى أنساب القبائل العربية ؟ ! أو ماذا أفاد سليمان بن جلجل من كتابه فى « طبقات الحكماء » ؟ ! أو ابن صاعد الأندلسى من كتابه المسمى « طبقات الأمم » وهو كتاب فريد فى تاريخ العلوم عند أهل الأرض ؟ !

لا شيء غير العناء ، فما كانت هناك حكومة لمكة لتعوض الأزرقى عن تعبه ، ولا بلدية للمدينة تكافئ السمهودى ، وما كانت هناك جمعية جغرافية أو أكاديمية تكافئ الجغرافيين والرحالة على عملهم ، وهكذا . بل الثابت أن الكثير من هذه الكتب جلبت المتاعب لأصحابها ، لأن الناس لم يكونوا يحسنون الظن بمن يدرس شيئاً غير علوم الدين واللغة ، ويرون فى الطب والفلك والرياضيات والهندسة مروقاً عن الدين وخروجاً عن طريقه ، حتى لقد أوذى ابن رشد بسبب انصرافه إلى شرح فلسفة أرسطو ، واضطر ابن سبعين إلى الانتحار عندما تزايد الشك فى إيمانه بسبب كلامه فى الفلسفة والمنطق ، ورُمى علىّ بن يونس الفلكى الرياضى بالجنون ، وعوقب الحسن بن الهيثم لاشتغاله بعلم الطبيعة والبصريات ؛ وغير ذلك كثير . ومع ذلك

فقد ألف أولئك الرجال — وغيرهم كثيرون — فى العلوم والرياضيات غير مبالين بالعقوبة ، لأن إيمانهم بالعلم كان أقوى من إرهاب الناس .

وإذن فقد كان عالم الإسلام يحب التعليم ويقبل عليه ، ويكرّم العلماء ويوقرهم ويرفعهم إلى مراتب القادة والزعماء ، وكان عالماً يؤمن بالعلم ، يخلص الناس فيه للعلم ويطلبونه ويتحملون متاعبه وتضحياته — وأخطاره أحياناً — دون تردد . فنحن نقرأ لبعضهم كلاماً لا نجرؤ نحن على قوله اليوم ، برغم ما نقول من أننا فى عصر الحرية والنور ، وأين رجل كابن خلدون يقول فى العرب هذا الكلام الذى نجده فى مقدمته ؟ ولكن ابن خلدون قاله غير هياب ، لأنه أراد أن ينبه به قومه إلى عيوبهم ليتلافوها ، فهو يحب العرب ولهذا أهمه أمرهم ومضى يبحث فى شئونهم ويقول ما يؤمن به دون حرج ؛ ومثل هذا لا يصدر إلا عن رجل يؤمن بالعرب أولا ثم يؤمن بالعلم ثانيا ، ولو لم يكن يحب العرب لما عناه أمرهم وما كلف نفسه مشقة نقدهم وتوجيههم . ولا غرابة فى ذلك فقد كان ينحدر من أصل عربى عريق ترجع جذوره إلى حضرموت ، ثم هاجر أهله إلى الأندلس ونزلوا إشبيلية وكان لهم فيها شأن كبير ، وولد هو فى تونس سنة ١٣٣٢ م فى عصر عصيب ملىء بالأخطار ، فجاب أقطار عالم الإسلام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولقى فى المشرق تيمورلنك وفى الأندلس الملك بدرو القاسى ملك قشتالة الذى كان يجتهد فى القضاء على غرناطة ، وعمل الرجل فى غرناطة والمغرب وتعقبه خصومه فعاش فى ظلال الخوف زمناً طويلا . وفى أثناء فترة هرب فيها إلى واحة بسكرة — فى الجزائر الحالية — كتب مقدمته التى تعد من روائع الكتب فى تاريخ الفكر البشرى . ولم يأمن إلا فى السنوات الأخيرة من عمره ، حيث استقر فى مصر وتولى قضاء الجماعة للمذهب المالكى حتى توفى معززاً مكرماً سنة ١٤٠٦ م .

وابن خلدون واحد من هؤلاء الأفذاذ الذين وصلوا إلى القمة فى فروع العلم فى العصور الوسطى كلها فى الشرق والغرب على السواء ، وهو يحمل لواء التاريخ والاجتماع ، ويصاحبه فى ذلك أبو زكريا الرازى فى الطب ، وأبو على ابن سينا فى الطب والفلسفة ، والشريف الإدريسى فى الجغرافيا ، وأبو بكر الخوارزمى فى الرياضيات ، والحسن بن الهيثم فى الطبيعة والبصريات ، وأبو القاسم الزهراوى فى الجراحة ، وأبو زكريا العوام فى النبات ، وابن البنّاء فى الحساب ، وأبو الريحان

البيرونى فى التاريخ القديم والآثار ، ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومحمد بن إدريس الشافعى وأحمد بن حنبل فى الفقه ، وغيرهم كثيرون .

أضف إلى ذلك الموسوعيين الذين نهضوا وحدهم بتأليف موسوعات فى فروع شتى من العلم ، كابن سينا الذى ألف كتاب الشفاء واختصّ كل جزء منه بعلم من العلوم ، وأبى الريحان البيرونى الذى ألف وأبدع فى كل علم تقريباً ، والموسوعيين الثلاثة ابن فضل الله العمرى والنويرى والقلقشندى ؛ وأصحاب المعاجم ونكتفى بأن نذكر منهم هنا اثنين : ابن منظور الأفريقى المصرى ، محمد بن مكرم (١٢٣٢ ـــ ١٣١١) صاحب « لسان العرب » ومحمد بن محمد مرتضى الزبيدى ، صاحب « تاج العروس » (١٧٣٢ ـــ ١٧٩١) ، وكل من هذين المؤلفين معجم ضخم جامع شامل للغة العربية ، وقد قام كل من هذين الرجلين بعمل لا تنهض بمثله اليوم إلا المجامع اللغوية التى يعمل فيها عشرات العلماء .

وقد أولع المسلمون باقتناء الكتب وتنافسوا فى ذلك حتى كان أثاث البيت لا يكمل إلا بمكتبة ، وقد أنفق بعض الناس فى اقتناء الكتب ثروات طائلة . وقد ضمت المكتبات العامة فى بغداد بضعة ملايين من المجلدات أهلك معظمها هولاكو قائد المغول . وقل أن تجد مدينة فى عالم الإسلام لا توجد فيها مكتبة عامة ، وكانت المساجد تقوم بهذه الوظيفة ؛ فكان الأمراء وأفراد الشعب يشترون الكتب ويودعونها خزائن الكتب فى المساجد ويوقفونها للاستعمال العام . وعلى الرغم مما أصاب الكتب العربية من الكوارث على يد المغول من ناحية والإسبان من ناحية أخرى والحرائق من ناحية ثالثة وما لا بد أن يصيب الكتب من السرقة والتلف والفساد وافتراس الأرضَة (وهى حشرة تأكل ورق الكتب) من ناحية رابعة فقد بقى لنا من المخطوطات العربية ما يقرب من ثلاثة ملايين فى المكتبات العامة ، غير ما يحتفظ به الناس فى بيوتهم . هذا ولم تخلف العصور الوسطى الأوروبية من المخطوطات إلا ما لا يزيد فى مجموعه على خمسين ألفاً . وقارن بين هذين الرقمين تجد بين يديك دليلا شاهداً يؤيد ماقلناه من أن عالَم الإسلام كان عالَم علم ونور[1] .

---

(١) انظر ـــ إذا لاحظت الفقرة عن العلم والتعليم فى عالم الإسلام ـــ الفقرة الخاصة بالمسلمين والعالم الخارجى من هذا الفصل .

سلامة الأسرة فى المجتمع الإسلامى :

وإلى القرى وأهلها ومحافظتها يرجع جانب كبير من الفضل فى المحافظة على الأسرة الإسلامية متماسكة سليمة من الآفات . فالمحن المتوالية التى هزت كيان المدن وأهلها والغارات الكثيرة التى نزلت بالعالم الإسلامى ، وما نتج عنها من القضاء على الألوف التى لا تحصى من السكان ، وما صاحب ذلك من قتل الرجال أو أسرهم وسبى النساء لبيعهن بعد ذلك رقيقا ، كل هذه عرّضت الأسر فى المدن لزعزعة كبيرة . ويكفى أن نتصور ما أصاب المدن الإسلامية من جراء أهوال غارات المغول وما أنزلوه بالبلاد من المذابح وما أحرقوه من الدور وما شردوا من الأسر ، ويكفى كذلك أن نفكر فيما أصاب مدن الشام وشمال العراق نتيجة لتوغل الصليبيين فيها وسيطرتهم عليها وانتهاكهم للحرمات ومحاولتهم ذلك حتى تكون لدينا فكرة واضحة عما أصاب مجتمعات المدن خلال العصور الوسطى عندنا من أذى وتخريب وما حل بالأسر نتيجة لذلك .

وهنا يجدر أن نشير إلى الأوبئة والمجاعات التى اجتاحت بلاد الإسلام فى القرون الوسطى المتأخرة ، فالوباء الأسود الذى طاف ببلاد الإسلام فى القرن الخامس عشر احتمل معه من أهل الشام ومصر والعراق ثلثيهم ، وأصيبت البلاد بعد ذلك بأوبئة أقل مدى من ذلك ، هلك فيها الألوف بعد الألوف ، حتى كادت المدن تخرب . ومن المعروف أن بلاء الأوبئة أو المجاعات يكون فى المدن أكثر منه فى الأرياف ، بل كانت العادة عندما ينزل الوباء أن يهرب الناس إلى الأرياف . فلو أن مستقبل العالم الإسلامى توقف على أهل المدن لكانت حالته فى نهاية العصور الوسطى تدعو إلى البأس من بعث جديد . ولكن القرى ومزارع الريف احتفظت بكتلة السكان سليمة وحافظت على كيان الأسر . ففى أواخر القرن الثامن عشر لم يزد سكان الشام على مليون نسمة ، معظمهم كان فى القرى والأرياف ، ومثل ذلك يقال عن فلسطين التى لم يكن قد بقى من سكانها إلا مائتا ألف ، ومصر وقد هبط سكانها إلى أقل من ثلاثة ملايين .

ولقد تحطمت تحت وطأة مثل هذه المحن شعوب كثيرة فى العصور القديمة والوسيطة ، كما نرى فى انهيار المجتمعات فى الصين والهند الصينية والهند مرة بعد مرة ،

وانحلال المجتمع قروناً متطاولة حتى تتاح الفرصة لإعادة التكوين ، أما أمم الإسلام فمهما حل بها من النكبات فإن كيانها الاجتماعي يظل ثابتا ، متماسكا ولقد انهار المجتمع الروماني تحت ضربات الشعوب المتبربرة التي غزت الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع الميلادي ، أما عالم الإسلام فلم تتفكك وحدة مجتمعه تحت ضربات مغول جنكيزخان وهولاكو وما فعلوه في إيران والعراق والشام ، وهو يفوق بكثير ما فعله المتبربرون من قوط ونودال وفرنجة وغيرهم ببلاد الدولة الرومانية .

والسبب في ذلك هو أن الخلايا التي يتكون منها المجتمع الإسلامي — وهي الأسر — خلايا قوية متماسكة تستعصي على الفساد ، لأن الإسلام يحصن الأسرة بضمانات تحميها من التفكك ، وهو يقدم لها تشريعاً سليماً يحفظ حقوق كل فرد فيها ويصون حقوق الأولاد والزوجات في حالات وفاة العائل أو في حالات الطلاق . فقبل الإسلام مثلا كان بعض الناس يقتلون أولادهم خشية العجز عن القيام بشئونهم ، فنهى الإسلام عن ذلك ، وذكّر الناس بأنهم ليسوا هم الذين يرزقون أولادهم وإنما هو الله سبحانه وتعالى ، وكان الرجل قبل الإسلام إذا مات وضع أخوه أو إخوته أيديهم على تركته وأصبحت الأرملة والأولاد تحت رحمة المقادير ، فأوقف الإسلام ذلك وصان حقوق الأرملة والأولاد ، وحدَّدها بكل دقة . وكان الرجل قبل الإسلام إذا أراد فراق زوجته أرسلها إلى بيت أهلها وانتهى الأمر عند ذلك ، فنص القرآن مرة بعد مرة على علاقات المودة والوفاء بين الزوجين . وبيَّن للناس أن الزواج ليس صفقة تعقد ثم تنفض وفقاً لمزاج الرجل ، بل هو رباط مقدس ومسئولية الرجل فيه لا تنتهي عند عدم رغبته في استمرار الحياة الزوجية ، وجعل الزواج جزءاً من النظام العام للمجتمع الإسلامي ، وألزم المسلم الصالح بسلوك فاضل واضح في حياته اليومية ، ونبه الناس أشد تنبيه على ضرورة العناية بالأولاد وتهيئتهم لبناء مستقبل سعيد لهم ، حتى أصبح من المسلَّم به في كل جماعة إسلامية أن الجماعة رقيبة على الحياة الزوجية لأفرادها مسئولة عن سلامتها ، وكل من عاش في القرى الإسلامية في أي مكان يشعر بالقوة العظيمة التي تتمتع بها الأسر ، بفضل عناية المجتمع بالمحافظة على الأسرة وتسييرها وفق ما يقضي به الشرع الإسلامي وما تستلزمه المروءة الإسلامية . ولقد دخل الإسلام المغرب مثلا ، فوجد الناس مستعدين لبيع من أحبوا من أولادهم لأداء الجزية أو لسداد الدين . وكان ذلك عادة عندهم ، فتوقف ذلك بعد دخول الإسلام ، ولم نعد نسمع به بعد ذلك أبداً . وفي كل

المجتمعات الآسيوية خلال العصور الوسطى كان بيع البنات أو إهداؤهن أو المقايضة بهن أمراً مألوفاً ، إلا فى المجتمعات الإسلامية ، فحيثما أسلم الناس سلمت الأسر ونجت البنات والنساء من مهانة البيع وذل الاسترقاق .

وقد ضرب الرسول — ﷺ — بحياته الخاصة أصدق المثل على المحبة العائلية ورعاية الأقارب وذوى الرحم ، ونص القرآن الكريم على أن الفقراء من ذوى القربى يدخلون فى نطاق من يستحقون الصدقات ، وتوسع الرسول ﷺ فى ذلك ، حتى أجاز إنفاق الجانب الأكبر من الصدقات على المحتاجين من الأهل . وأصبحت حقوق أفراد الأسرة بعضهم على بعض جزءاً لا يتجزأ من الأساس الخلقى الإسلامى العام . وأصبحت رعاية الأسرة والبرّ بها جزءاً من إسلام الرجل ، ومن ثم فقد اكتسبت الأسرة فى المجتمع الإسلامى قوة لا مثيل لها فى غيره من المجتمعات ، وبلغ الأمر أن أصبحت رعاية الأسرة وتربية الأولاد والقيام بشئون الوالدين المسنين واجب الرجل الأول بل الوحيد فى أحيان كثيرة . وفى نواحى العالم الإسلامى كله يعيش الآباء لأولادهم فحسب ، ويضحى الناس بأموالهم فى سبيل أقاربهم . وهذا لا تجده فى أى مجتمع آخر . ولم تقتصر مسئولية الأب عن الأولاد على سن الطفولة أو الصبا ، بل هى امتدت حتى شملت حياة الأولاد كلها حتى بعد أن يكبروا وتصير لهم أسر .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان للأسرة الإسلامية من فضل فى المحافظة على سلامة المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى ، ونضيف أن ذلك أنقذ البلاد الإسلامية فى نواح شتى من التفكك والضياع فى العصور الحديثة . وأظهر مثال لذلك الجمهورية الجزائرية التى نزل الفرنسيون بلادها سنة ١٨٣٠ م ، ولم تحلّ سنة ١٨٥٠ م حتى كانوا قد حازوها كلها وبسطوا عليها سلطاناً سياسيًّا فرنسيًّا خالصاً ، وأحلوا قوانينهم محل شريعة الإسلام ، وحاولوا قدر ما استطاعوا اجتذاب الناس إلى القوالب الاجتماعية الفرنسية ، وبخاصة فى تنظيم الأسرة . ولكن الأسر الجزائرية رفضت أن تستجيب لهذه الدعوة ، وصانت أولادها من إطلاق العنان فى التعارف والتماشى والرقص وما إلى ذلك . ولقد زين الفرنسيون للناس التشريعات الفرنسية بكل سبيل ، وعلى الرغم من السيطرة الفرنسية السياسية الكاملة ، فإن المجتمع الجزائرى ظل إسلاميًّا سليماً متماسكاً ، لأن الخلايا الأسرية كانت سليمة ، فمرت بها عواصف الاحتلال الفرنسى ومضت غير مخلفة أثراً . وكان ذلك من أقوى الأسباب فى عجز

الفرنسيين عن الاحتفاظ بسلطانهم على الجزائر ، وفى تمكين هذه البلاد الإسلامية من استعادة استقلالها .

وقد تبين من دراسة تفاصيل ثورة التحرير الجزائرية ، التى استنقذت من براثن الاستعمار بلداً يعد اليوم من مفاخر الجماعة الإسلامية الكبرى ومن أهم دول البحر الأبيض المتوسط ، أن جانباً كبيراً من الفضل فى احتفاظ ذلك الشعب بشخصيته الإسلامية العربية ، برغم كل ما حاوله المستعمر للقضاء على هذه الشخصية ، يرجع إلى المرأة الجزائرية المسلمة التى تمسكت بالإسلام فى قوة وإيمان عميقين ، فلم يجرفها تيار المدنية الفرنسية ولا خدعها بريق الحضارة الأجنبية ، فما أسرفت فى زينة ولا ضربت بتقاليد شعبها عرض الحائط ، بل احتفظت بآداب الإسلام وأقبلت على أولادها تعلمهم الصلاة والصيام وتحفّظهم ما تيسر من القرآن الكريم وتقص عليهم ما تعرف من سيرة الرسول ﷺ ، فنشأ الأولاد جزائريين مسلمين ، يؤمنون بمجد أمتهم وبأن الإسلام الجليل يهيب بهم أن يخلّصوا وطنهم من سيطرة الأجنبى المحتل ، وعلى هذا ثبتوا حتى استقل وطنهم .

مراتب الناس فى المجتمع :

قلنا إن المجتمعات الإسلامية كانت مجتمعات تخلو من الطبقات الاجتماعية المتمايزة المتحاجزة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يكون فى الناس أغنياء وفقراء ، وموهوبون وغير موهوبين ، وأصحاب جاه وضعفاء ، ومتعلمون وغير متعلمين . فنشأ عن ذلك مالا بد منه من اختلاف الناس بعضهم عن بعض وتفاوت حظوظهم من المكانة فى المجتمع . وظهور نوع من التصنيف الاقتصادى والفكرى للناس هو الذى يعنيه مؤرخونا عندما يتحدثون عن « أقسام » الناس أو « طوائفهم » . فيقول المقريزى مثلا ، فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » : إن الناس بإقليم مصر — فى الجملة — على سبعة أقسام :

القسم الأول : أهل الدولة ،

القسم الثانى : أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ،

والقسم الثالث : الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البزّ » ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ،

والقسم الرابع : أهل الفلْح ، وهم أهل الزراعات والحرف ، سكان القرى والريف ،

والقسم الخامس : وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ،

والقسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن ،

والقسم السابع : ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

وهذا — كما هو واضح — تقسيم للناس بحسب حرفهم وصناعاتهم أو بحسب مستوياتهم الاقتصادية ، فهو ليس تقسيماً إلى طبقات اجتماعية ، فالمعروف أن المال يروح ويجيء ، وكذلك السلطان والقوة ، فقد يكون رجل غنيًّا اليوم وفقيراً غدا ، وقد يكون صاحب وظيفة وسلطان فى يوم ثم يفقد ذلك فى يوم آخر .

وأما الطبقات الاجتماعية — كما نعرفها فى المجتمعات الأوروبية والآسيوية — فتعين مستويات من الناس لا يختلطون بغيرهم مهما اختلفت ظروفهم المالية أو مراكزهم الرسمية . ففى المجتمع الأوروبى الوسيط مثلا يظل الدوق أو الكونت أو الماركيز شريفاً نبيلا ولو كان مفلساً ، وهو مهما بلغ إفلاسه لا يتنازل بمصاهرة غيره من أهل الطبقات التى يراها أدنى منه مهما بلغوا من الثروة .

وأمثال هذه التقسيمات فى المجتمعات الإسلامية نجدها عند من تعرضوا لدراسة المجتمع من كتّابنا مثل عبد الرحمن بن خلدون فى « المقدمة » وأبى الحسن الماوردى فى « الأحكام السلطانية » وعبد الوهاب السبكى فى كتاب « معيد النعم ومبيد النقم » . وخلاصة كلامهم جميعاً فى أمر تقسيم المجتمع هو أن المراتب العليا خاصة بالخلفاء والسلاطين ويليهم جماعة الوزراء وكتاب ديوان الإنشاء والقوّاد ، ثم يجيء بعد ذلك مياسير التجار ، ثم الفقهاء والقضاة والشعراء ، ثم تلى ذلك طبقات العاملين من الصناع وصغار التجار والمكارين والملاحين ومن إليهم وقد يلحق بهم صغار الجند ، وفى بعض الأحيان يضيفون إليهم المتسولين .

وإذا نحن تأملنا هذا التقسيم تبينا أن موازين الناس فى العصور الوسطى كانت تعطى الصدارة للطبقات غير المنتجة وتجعل الطبقات المنتجة فى آخر السلم ، فإن الخلفاء والسلاطين والوزراء والقوّاد وكتّاب دار الإنشاء غير منتجين من الناحية

الاقتصادية ، وإنما هم — فى أحسن حالاتهم — منظمون لإنتاج الآخرين . وقد أدخلنا فيهم القُوّاد ، لأن قُوّاد تلك العصور كانوا حُماة البيوت الحاكمة قبل أن يكونوا حُماة أوطان ، وبخاصة فى العصور المتأخرة ، ولهذا فقد كان أولئك المحاربون فى جملة أهل الطبقات الممتازة غير المنتجة والتى تعيش على عمل الطبقات المنتجة .

وهذا الكلام لا ينطبق على الدول ، فى أول نشوئها وعلى المجتمعات البدوية . فأما الدول الجديدة فسلاطينها ومحاربوها فى نشاط وعمل دائمين ، لأن الدولة كلّها فى دور التأسيس ، وأما المجتمعات البدوية فلم تعرف المراتب أو الأقسام الاجتماعية ، بل لم تعرف توزيع الأعمال ، فكل أفراد القبيلة من البدوى البسيط إلى رئيسها متساوون من حيث التصيب فى العمل أو المستوى الاجتماعى .

ومهما قرأنا فى صحف التاريخ عن امتياز بعض الناس على بعض أو تسلطهم على غيرهم فى المجتمعات الإسلامية بحكم سلطانهم السياسى أو مركزهم الاجتماعى ، فإن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال امتيازاً إنسانياً ، ولا يعنى أن الذين يعدّون أنفسهم ممتازين كانوا يمارسون على الناس أى حق من حقوق الامتياز أو السيادة ، حتى السلاطين والخلفاء لم ينظر الناس إليهم قط على أنهم أفضل منهم ، وإن كانوا يخافونهم أحياناً ويطيعونهم فى معظم الأحيان . وبدهى أن مرجع ذلك إلى الإسلام الذى سوّى بين الناس تسوية حقيقية وجعلهم فى مرتبة واحدة أمام الله سبحانه وتعالى ، وهذه ناحية واضحة كل الوضوح ، فلا تحتاج منا إلى تفصيل أكثر .

المرأة فى المجتمع الإسلامى :

عند النظر فى مركز المرأة فى المجتمعات الإسلامية ينبغى أن نفرق بين أحكام النساء فى الإسلام وتصرفات المجتمعات الإسلامية حيال المرأة . فمن الواضح أن الإسلام سوّى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية ، وإذا كانت هناك فوارق فى نصيب كل منهما فى المواريث أو فى أحكام الزواج فإن لهذه كلها أسبابها ومنطقها الواضح الذى تجده مشروحاً بجلاء فى كتب المتخصصين فى الشريعة الإسلامية . وفيما عدا ذلك لا فوارق بين الجانبين .

أما حجاب المرأة وحجزها فى البيوت ووضع القيود عليها فظواهر اجتماعية تحتاج منا إلى توضيح موجز هنا .

ففى عصر النبى — ﷺ — لم يكن هناك حجز للمرأة أو حبس لها فى البيت وقصر لها على أعمال محدودة معظمها فى خدمة الرجل نفسه أو فى خدمة البيت. فقد كانت المرأة تعمل فى الميدان إلى جانب الرجل، حتى فى حروب النبى — ﷺ — نسمع أن النساء، مثل أم عمارة الأنصارية وغيرها، كنّ يخرجن إلى الميدان لا لتضميد الجرحى فحسب بل للاشتراك — أيضاً — فى الحرب الفعلية. وفى معركة أُحُد كانت أم عمارة هى أول من ثبت إلى جانب النبى ﷺ وحارب معه حتى تجمع المسلمون حوله من جديد. وفى معركة الأحزاب أقامت صحابيات كريمات خياماً لإسعاف الجرحى، وكنّ طول الوقت غاديات رائحات فى إسعاف الناس بالماء والعلاج والدواء. ولدينا نص يثبت أن عمة النبى ﷺ صفية بنت عبد المطلب اشتركت فى القتال الفعلى بنفسها، وكانت عمات الرسول ﷺ، وبخاصة صفية التى ذكرناها وأروى وعاتكة بنات عبد المطلب يعملن بنشاط بالغ فى مكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وكان لهن نصيب عظيم فى تمهيد مكة للإسلام. وإذا كان هناك شك فيما قام به العباس بن عبد المطلب فى هذه الفترة فى خدمة الجماعة الإسلامية فإن ما قامت به هؤلاء السيدات الجليلات لا شك فيه، ولهن النصيب الأوفى فى تهيئة نفوس المكيين لقبول الإسلام. وتدل الأحاديث الكثيرة على أن النساء كن يدخلن على الرسول ﷺ ويسألنه ويأخذن مكانهن فى مجلسه، وفى أسواق المدينة كانت السيدات يرحن ويغدون فى قضاء حوائجهن فى كمال تام وحرية كاملة، حتى بعد نزول آية الحجاب[1]. ومن الواضح أن آية الحجاب نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة، فهى وما يليها كلها موجهة إليهن دون غيرهن، نظراً لمكانتهن الخاصة فى الجماعة الإسلامية.

أما الآيات الأخرى التى توجب الحجاب — فى رأى مجتمع العصور الوسطى — فليس فيها أمر واضح بتغطية الوجه: **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن ﴾**[2]، لأن الزينة ليست قطعاً الوجه، وكذلك الجيب لا يعنى الوجه أيضاً. فالأمر هنا خاص بالكمال والحشمة وعدم الترخص فى الملبس أو لبس الزينة

---

(١) الأحزاب، آية ٥٣.
(٢) النور، آية ٣١

المثيرة ، إلا في حضور من لا يخشى عدوانه من الرجال . أما قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾[1] فهو أمر خاص بالتقاليد الاجتماعية في المدينة ، لأن الجوارى والإماءكن يترخصن فيرسلن ملابسهن في الستر ، فربما انكشف بعض الجسد ، فكانت الحرائر والعقائل ونساء الأسر المحترمة وبناتها يضممن ملابسهن على أجسادهن استمساكاً بالحشمة والتزام الكمال ، فنزلت الآية تؤكد عليهن في ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾[2] فهو خاص بنساء النبي أولا ، ثم إن التاريخ الواقعي في المدينة لا يدل على أن نساءها لزمن البيوت بعد نزول هذه الآية ، وإنما هو أمر عام يراد به ألا تخرج المرأة من بيتها لمحض التمشي في الطرقات ، بل تمضي لشأنها وتقضي مصالحها وتعود في كال ، وهذا هو الذي نراه في المجتمع الإسلامي أيام الرسول ﷺ بعد تطبيق هذه الآية . ولم يقل أحد في أي جماعة محترمة إنه من المفيد أن تتسكع النساء في الطرقات دون مبرر أو ضرورة .

وأخبار الجماعة الإسلامية على عهد الرسول — ﷺ — والخلفاء الراشدين حافلة بالأخبار التي تدل على أن المرأة كانت تتحرك في حرية وتخرج لشأنها وتخاطب من تريد من الرجال في حوائجها دون حرج ، مادامت ملتزمة الحشمة والكمال . وانظر إلى عشرات الأحاديث التي تتحدث عن نساء سألن الرسول ﷺ في مسائل تهمهن فأجابهن في تفصيل كبير ، فكيف كن إذن يخرجن من بيوتهن ويقصدن الجامع ويدخلن مجلس النبي ﷺ لسؤاله ! وفي الجزء الخاص بالنساء من طبقات ابن سعد أخبار كثيرة تؤيد ما نقول من حرية النساء ، ولا نجد فيها أخباراً يفهم منها أن النساء في فجر الإسلام كن حبيسات البيوت أو أن وجوههن كانت محجوبة .

ولم يكن النساء يعشن على هذه الصورة من الحجاب طوال العصر الأموي ، أي إلى نهاية العصر العربي الخاص من تاريخ الجماعة الإسلامية . بل يعيش معظم نساء الأمة ، وهن الفلاحات ، في معظم بلاد الإسلام — وإلى يومنا هذا — سافرات

(1) الأحزاب ، آية ٥٩ .

(2) السورة نفسها ، آية ٣٣

غير محجبات ، وهن يشتركن فى العمل مع الرجال ويختلطن بهم فى الأسواق ومناكب الحياة ، هذا بالإضافة إلى ما نعلم من أن نساء القرى والأرياف أقرب إلى روح الدين من مجتمع المدن .

إذن من أين أتى الحجاب الثقيل الذى يفرض على المرأة أن تعيش عصرها خلف سُتر وقيود وسدود ، بل يجعلها تحمل سجنها معها إذا خرجت ، فتسير داخل ثوب مفرغ عليها ، كأنه القبة لا منفس فيه إلا ثقبان للعينين واستنشاق الهواء ؟ وما الذى جعل المرأة المسلمة تبدو فى المفهوم العامى وفى القصص الشعبى إنساناً شريراً لا يفكر فى غير المكائد وتدبيرات السوء ؟

أما الحجاب الثقيل وسجن الحياة فقد أتيا فى عصور الاضمحلال عندما سيطر المستبدون والظالمون على شئون الأمم وساموا أفرادها سوء العذاب . فى هذه العصور ساد الناس جهل شديد ، فلم يعد يعرف حقائق الإسلام إلا نفر يسير من أهل العلم ، فانتشرت فى الناس مفهومات كثيرة خاطئة لا عن الإسلام وحده بل عن كل شيء فى الوجود . فبينما كان الناس فى العالم الإسلامى حتى القرن الخامس الهجرى يعرفون أن الأرض كرةٌ ويعرفون التعليل المنطقى والعلمى لذلك ، نسوا هذه الحقيقة فى القرن السادس فما بعده ، فغلب على بعضهم تصور أن الأرض مسطحة ممتدة فى كل اتجاه يحيط بها جبل قاف . وكذلك أخذ عامة الناس العلم بالإسلام عن أدعياء العلم وعن قوم انتسبوا إلى الصوفية وليسوا منهم ممن يزعمون لأنفسهم خوارق الأعمال . وعن طريق ذلك الجهل شاعت بين الناس آراء غريبة عن الإسلام ، بل منافية لروحه . فى تلك العصور راح القول بأن الإسلام يفرض على المرأة حجاباً ثقيلا ويلزمها كِسْر بيتها ، لا تفارقه إلا إلى قبرها . وساعد على رواج هذه الآراء سيادةُ أصناف الترك والمغول وغيرهم من الأجناس التى تعودت أن ترى فى المرأة متاعاً يشترى ويباع ويحفظ فى البيوت حذراً من أن يعدو عليها السراق وقطاع الطرق ومن إليهم ، وبخاصة إذا كانت شابةً ذات جمال . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الأمن كان فى اضطراب مستمر ، فلم تكن الطرقات مخوفة للنساء وحدهن ، بل لكل الصغار والأطفال والضعفاء .

وبسبب انعدام الأمن فى الطرقات وشيوع الجهل اهتم الناس بالمحافظة الشديدة على نسائهم ، ومن هنا جاء الحجاب الثقيل وسجن البيوت فى المدن الخاصة خلال

العصور الوسطى المتأخرة ، فلم تعد امرأة حرة تخرج إلى الطريق إلا فى حراسة شديدة ، أما اللاتى كنّ يظهرن للناس ويسرن فى الأسواق دون حرج كبير فهن الجوارى والإماء ، لأنهن كن معدودات فى تلك العصور من جملة المتاع ، ومعظم من نسمع أخبارهن من النساء فى كتب تلك العصور لم يكنّ من الحرائر بل من الجوارى والقيان ، فيما عدا بعض نساء السلاطين والكبراء ممن يحدثنا عنهن المؤرخون والرحالة .

وفى مثل هذا الوضع السيئ — أعنى فى الظروف التى فُرض على النساء فيها حجاب ثقيل وسجن وراء الجدران — نشط ذهن النساء فى البحث عن الوسائل للتخلص من تلك القيود أو لإيجاد أنواع من التسلية يمكن ممارستها فى الخفاء وفى ظلام المقاصير ، لأن الحياة على تلك الصورة مستحيلة بالنسبة لأى إنسان ، لأن الإنسان بطبعه مفكر ولا يطيق القيود للأمد الطويل ، ولابد أن يدفعه ذكاؤه إلى البحث عن منافس ومهارب أو عن وجوه من التسلية ينسى فيها الحياة الضيقة التى يعيشها ، فابتكرت النساء أساليب كثيرة للتفريج عن أنفسهن ولإفساح المجال الضيق المتاح لهن ، وتغلبن بالحيلة والذكاء فى أحيان كثيرة على سوء ظروفهن ، وهن معذورات فى ذلك ، فانتشرت فى الناس أقوال وحكايات عن « حيل النساء ومكائدهن » وخبثهن ، كما نرى فى أقاصيص « ألف ليلة وليلة » .

وفى كثير من الأحيان توسلت النساء بالعجائز فى الوصول إلى ما طلبن من التسلية والفرار من الحياة الراتبة المملة ، بل القاتلة ، لأن العجوز تخرج وتروح وتغدو دون حرج ، فهى ليست بمطمع ، وهى تدخل البيوت وتجلس إلى النساء ، فكانت العجائز سبيلا للاتصال بين النساء والعالم الخارجى . وأتاح ذلك للنساء فرصاً للتسلية وملء الفراغ والعثور على حوافز للحياة والعمل ، ولا ينبغى أن ننسى أن الحياة كلها كانت بالنسبة للإنسان العادى فى تلك الأعصر وجوداً فاتراً مليئاً بالمخاطر والمتاعب ، وأن الإنسان — ككل كائن حى — لا يحتمل البقاء طويلا فى وجود فاتر ممل أو ملىء بالمخاطر ، فلا بد له من الهروب من الملل والمخاوف ومن إعمال الحيلة فى ذلك .

هذه هى الظروف العامة التى فرضت على المرأة الحجاب الثقيل وكبلتها بالقيود وهى ظروف — كما نرى — لا دخل للإسلام فيها ، فإن الإسلام دين حرية وحياة ، لا دين قيود وسدود . والذين ردوا ذلك كله للإسلام أخطأوا خطأ شديداً ، وينبغى

ـــ كما قلنا ـــ أن نفرق بين الإسلام ـــ كعقيدة ومبادىء وشريعة ـــ وتصرفات المسلمين ، ففى أحيان كثيرة يتصرف المسلمون عن خطأ ويحسبون ويحسب من ينظر إليهم أن تصرفهم صادر عن الإسلام .

وفيما عدا ذلك عاشت النساء فى نطاق أسرهن حياةً كريمةً يسودها الاحترام والحب سواء من الزوج أو من الأولاد أو من بقية الأقارب . ولقد عاشت المرأة فيما كان يعرف بالحريم ، وهو الجزء من البيت الذى لا يسمح للغرباء بولوجه . وليس من الضرورى ـــ كما يظن البعض ـــ أن يكون الحريم مأوى لعدد من النساء يتبعن رجلا واحداً عن طريق الزواج أو التَّسَرِّى كما تزعم التصورات الغربية للحياة فى المجتمعات الإسلامية .

ولقد وجدت نساء الأسر ـــ ما بين شابات وغير شابات ـــ وسائل شتى للتسلية والترفيه عن النفس ، فبالغن فى شكليات الزواج وأعراسه وأطلن مدتها وأكثرن من رسومها تضييعاً للوقت ، وبالغن كذلك فى شكليات الوفيات ، من المآتم الطويلة ومناسبات مرور الأسبوع الأول أو الأربعين يوماً الأولى على الوفاة ، وخرجن إلى المقابر واتخذن فيها الغرف بحجة مصاحبة الميت العزيز من وقت لآخر ، وما هى فى الحقيقة إلا وسائل تسلية وهروب من الفراغ والملل . وقل مثل ذلك فى زيارة أضرحة الأولياء والصالحين ، فكل هذه حركة فيها ذهاب ومجىء وخروج إلى الطريق ورؤية الناس والتخلص من ساعات طويلة من النهار ، وفى أحيان كثيرة تكون زيارة الضريح آخر ما يقصدن إليه . وابتكرن حفلات « الزار » ، بقصد الشفاء من الأمراض النفسية أو الكآبة وما إلى ذلك . فكن ينظمن حفلات كبرى فيها موسيقى ورقص وحركة وغناء وتصعيد لشوق النفس إلى الحركة والتسلية .

وبرغم القيود الكثيرة التى فرضتها على المرأة عادات وتقاليد وظروف لا تمت إلى الإسلام بصلة ، كان للمرأة المسلمة دائماً مكانها الكبير فى المجتمع ، فهى ربة البيت وسيدة الأسرة ، وسلطانها كبير فى كل ما يتعلق بشئون الأسرة . ومن هنا كان أثرها فى المجتمع كله ظاهراً قويا ، فما أكثر المساجد ومنشآت البر والإحسان التى أنشأتها نساء ووهبنها للمجتمع ، وما أعظم المكان الذى كانت تحتله المرأة فى الشعر والفن عامة . ولم يخلُ عصر من نساء عالمات أو عابدات متصوفات كان لهن فى المجتمع كله المكانة الكبرى .

ويكفى أن نضرب لذلك مثالين نأخذهما من أقصى العالم الإسلامى غرباً وشرقاً : فإن مسجد القرويين الذى نشأت على أساسه جامعة القرويين — أقدم جامعات العالم الإسلامى — كان من إنشاء سيدة جليلة شريفة هى فاطمة الفهرية ، من سيدات البيت الإدريسى العلوى ؛ وفى أجرا ، فى شمال الهند ، يقوم ضريح تذكارى جليل هو « التاج محل » الذى بناه السلطان شاه جهان لذكرى زوجته أرجمند بانوبيكم التى غالها الموت وهى فى شرخ الشباب على ما ذكرناه .

المسلمـــون جميعـــاً أمـــة واحـــدة :

وقد تشابهت شعوب الإسلام فى معظم الخصائص الاجتماعية فى عالمها الواسع ، لا تعرف حدوداً بين قطر وقطر . ولم يقتصر الشعور بذلك على المثقفين الذين كان لديهم تصور — دقيق أو غير دقيق — لاتساع العالم الإسلامى ووحدته ، بل ربما كان أفراد الشعب العاديون أكثر تسليماً بحقيقة وحدة العالم الإسلامى من سواهم ، فإذا نزل القاهرة أو دمشق أو بغداد أو مكة رجل من المغرب أو الأندلس عدّه الناس أخاً لهم ، ما دام مسلماً ، ولم ينظروا إليه على أنه أجنبى عنهم ، وبخاصة إذا كان من أهل العلم أو من أهل التقوى والصلاح ، وحتى فارق اللغة لم يكن يأبه له أحد ، لأن الناس كانوا يعرفون أن المسلمين أمم وشعوب شتى : فيهم الأتراك والإيرانيون والهنود ومن إليهم ممن يغلب أنهم لا يعرفون من العربية إلا القليل ، وفيهم المغاربة أو الأندلسيون الذين يتكلمون لهجات خاصة بهم من العربية ، وكذلك لون البشرة لم يكن يستلفت الاهتمام ، ففى القاهرة مثلاً كانت جاليات الغانيين والسودانيين كبيرة ، وكان للغانيين سفير يتحدث باسمهم لدى السلطان ، وقد عرف ابن خلدون أحد أولئك السفراء وتحدث عنه ووصفه بصفات التدين والفضيلة والعفة .

وكانت القاعدة عند الجماعات الإسلامية جميعاً أنه مادام النزيل الغريب يقول إنه مسلم فهو مصدق فيما يقول ، وهو أخ لهم فى الدين والوطن ، فكانوا لا يبحثون وراءه ولا يشكون فى أمره ، وقد استغل ذلك الكثيرون من رحالة الغرب الذين اندسوا بين المسلمين لكى يكشفوا أسرار حياتهم وينقلوها إلى أبناء جلدتهم ، ومن أولئك كان نفر كبير من الكارهين للإسلام الذين ألحقوا أضراراً كبيرة بالمجتمع الإسلامى وأذاعوا أخباراً وأوصافاً سيئة كاذبة عن الإسلام وشعوبه . ويزعم هذا

النفر من الواغلين فى بلاد الإسلام أنهم استطاعوا خداع من اتصلوا بهم فى بلادنا ، لأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية ويحسنون التظاهر بالإسلام . ولم يكونوا قط بحاجة إلى هذا الادعاء ، فإن المسلمين لا يشترطون إتقان اللغة العربية فى المسلم ، وهم يحسنون الظن بكل من يقرر أنه مسلم وينطق بالشهادتين ، وكل إنسان بعد ذلك موكول إلى ضميره ونيته . ومن أكبر أمثلة هؤلاء الرحالة دومنجو باديا Domingo Badia المعروف باسم « على بك العباسى » ، فهو قد زار العالم العربى وطاف بنواحيه فيما بين سنتى ١٨٠٣ م و ١٨٠٧ م ، وعاد إلى موطنه مدينة برشلونة بإسبانيا ونشر رحلة فيها من المغالطات شىء كثير .

وتتجلى ظاهرة وحدة العالم الإسلامى بأجلى صورها فى كتب الرحالة ، من أمثال أبى القاسم بن حوقل النصيبى وشمس الدين المقدسى وعلى بن سعيد المغربى وأبى الحسين بن جُبير وأبى عبد الله محمد بن بطوطة . فهؤلاء جميعاً يتحدثون عن عالمنا الإسلامى الواسع ويخبروننا كيف تنقلوا بين بلاده دون أن يشير أحد منهم إلى حدود أو اختلاف فى الأوطان أو الجنسيات . ويستثنى من ذلك ما نجده عندهم من الكلام عما كان الناس يلقونه من رجال المكوس فى داخل البلاد وعلى حدودها . ولكن الحقيقة أن وجود رجال المكوس (الجمارك) على الحدود لم يكن يعنى أن العالم الإسلامى مقسم إلى بلاد شتى ، وإنما كان وجودهم جزءًا من التنظيمات المالية العامة للدول فى العصور الوسطى ، وهى نظم كانت بغيضة إلى الناس ، لأن الموكلين بشئون المال فى دولنا الماضية كانوا يرصدون جباة الضرائب على كل خطوة من الطرق على حدود البلاد وفى داخلها بدافع الجشع وسوء التدبير .

وهذا الشعور بالوحدة الإسلامية هو الذى يملأ نفوسنا ، ونحن نقرأ كتاب الرحالة الطُلَعَة المغامر العجيب أبى عبد الله محمد بن بطوطة الذى ولد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م ، وما إن بلغ العشرين من عمره حتى بدأ سلسلة رحلات طويلة لم يسبقه إلى مثلها أحد . فقد حج أربع مرات وزار فى رحلاته تونس وليبيا ومصر والعراق وإيران والأناضول وشبه جزيرة القرم . وفى إحدى رحلاته صحب قافلة إحدى الأميرات البيزنطيات (الروميات) ودخل معها القسطنطينية ، ومن ثم انتقل شمالا فدخل روسيا ووصل إلى قرب مدينة كييف . وبدلا من أن يعود إلى بلاده بعد هذا السفر الطويل عَبَرَ بلاد القوقاز ودخل آذربيجان ثم بلاد ما وراء النهر وأطال المقام فى بخارى ، وانتقل إلى أفغانستان ، ودخل الهند عن طريق ممر خيبر ، فوصل

حوض الكنج والبراهمابوترا ووصل دهلى عاصمة سلاطين المغول ، حيث طال مقامه ونولى القضاء . ثم سئمت نفسه الاستقرار ، فسار حتى بلغ مدراس على الساحل الشرق للهند ، ومن هناك ركب البحر فنزل بجزر ملديف إلى الجنوب الغربي من جزيرة سيلان وعمل هناك قاضيا بعض الوقت . ثم انتقل إلى جزيرة سيلان ، وبعد راحة بسيرة ركب البحر ثانياً وعاد إلى بلاد البنغال ، ومنها أبحر مرة أخرى متجها نحو الجنوب الشرقي ، فزار ملقا في بلاد الملايو ، وواصل رحلته البحرية حتى دخل كانتون في جنوب الصين ، وهناك أقام في جالينها الإسلامية زمناً طويلا .

ثم عاد أدراجه فمر بسومطرة ، ومن هناك اتجهت به السفينة إلى شرق أفريقية ، فزار زنجبار ، ثم اخترق أفريقية الاستوائية والمدارية ووصل إلى تمبكتو أكبر سوق تجارية في حوض النيجر الأوسط لذلك العهد . ومن هناك عبر الصحراء الكبرى فدخل المغرب الأقصى من الجنوب ، ثم وصل إلى مراكش ، ومضى في سيره حتى وصل إلى فاس ، وهناك ألقى عصا التسيار ، وجعل يتحدث عن رحلاته العجيبة التي استغرقت ستا وعشرين سنة ، فأمر السلطانُ المريني أحدَ كُتّابه بأن يستملي ابنَ بطوطة وصفَ الرحلة ويسجله ، فكان لنا من ذلك كتاب « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهو أمتع وصف رحلة قام بها إنسان بعد ماركوبولو الرحالة البندقي الأشهر ، فقد توفي ماركوبولو سنة ١٣٢٤ م ، وتوفي ابن بطوطة سنة ١٣٧٨ م .

وقد وقفنا بابن بطوطة هذه الوقفة الطويلة بعض الشيء ، لأن وصف رحلته يقدم لنا برهاناً ناصعاً على حقيقتين تهماننا :

الحقيقة الأولى : أنه يقول إنه لم يمر في هذه الرحلة الطويلة إلا بأمم وجاليات إسلامية ، ولم يطلع عليه الفجر في يوم من أيام الرحلة إلا على أذان المؤذن ، ولم ينم مرة إلا بعد صلاة العشاء في جامع ، فرحلته ترسم لنا الإطار الواسع لعالم الإسلام الواحد في القرن الرابع عشر الميلادي .

والحقيقة الثانية : أنه يقرر أنه لم يشعر بأنه غريب في أى بلد من هذه البلاد التي نزلها ، على كثرتها وتباعد ما بينها ، بل لقد تأهّل هذا الرجل — أي تزوج — في كثير من هذه البلاد ، فكأنه أعطى برحلته تلك برهاناً عمليا على أن أمة الإسلام في العالم كله أمة واحدة .

ولا يسع الإنسان ، وهو يقرأ وصف هذه الرحلة ، إلا أن يشعر بالإكبار نحو الإسلام الذى نشأ فى بلد صغير ، هو مكة فى وسط الصحراء ، ومن هناك اتسع وعبر الرمال والفياف والسهول والجبال والبحار والمحيطات ، وأنشأ لنفسه هذا العالم الواسع الذى يسميه الرحالة الجغرافى المقدسى « مملكة الإسلام » . والمقدسى لا يكف فى صفحات كتابه عن الفخر بمملكة الإسلام هذه التى طاف بأرجائها وزار نواحيها وشعر فى كل رحلاته بأنها مملكته هو ، ومملكة كل مسلم ، ووطن كل موحد بالله شاهد برسالة محمد ﷺ .

وابن بطوطة — برحلاته تلك — إنما كان يضيف خيوطاً إلى ذلك النسيج الضخم الذى يتكون منه العالم الإسلامى ، فالحقيقة أن الذين صنعوا هذا العالم الإسلامى هم : محمد — عليه الصلاة والسلام — الذى وضع أساس الجماعة الإسلامية فى المدينة ، ثم جاء من بعده الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية ورجال بعض الدول الإسلامية الفاتحة التى تحدثنا عنها ، وأتم البناءَ ووسّع مداه وأضاف عمقاً إلى ذلك العالم الإسلامى الدعاةُ والصوفية المجاهدون وأهل الطرق والتجار ، ولكن الذين ربطوا أجزاءه بعضها إلى بعض وشدّوها برباط اللغة الواحدة والعلم الواحد وعمقوا مفهوم الوحدة لدى الناس ، كانوا هم أهل الرحلة من العلماء وطلاب العلم وأهل الرحلة من الحجاج والصالحين والأولياء ، ثم أهل الرحلة من التجار والملاحين .

فأما الحُجاج فقد كانت قوافلهم تشق أرجاء ذلك العالم الإسلامى فى مسيرة دائمة لا تتوقف ولا تبالى بالعقبات الطبيعية من جبال وصحارى وبحار ، ولا تتراخى بسبب أخطار الحروب والقلاقل والفتن ، فقد كان حجاج بيت الله الحرام ، من الأندلس والمغرب والسودان والصين والملايو ، يخرجون فى رحلة الحج قبل موعده بعام أو أكثر أو أقل ، ومعنى هذا أنه — فى كل وقت تقريباً — كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام أو تعود منه ، ألوفا بعد ألوف من الناس يخرجون من أطراف الأرض الأربعة ، ووجهتهم بيت الله الأكرم ، وهم فى مرورهم بالمدن والواحات يذكّرون الناس بوحدة الدين التى تجمع بعضهم إلى بعض . والكثيرون منهم كانوا يستقرون بعد الحج أينما شاءوا من بلاد الإسلام .

فكأن قوافل الحج كانت أسلحةً محاريث قوية تشق الأرض الإسلامية وتقلب تربتها وتأذن لشمس العقيدة فى أن تتخللها فى عمق وتبعث فيها الحياة . وهذا — ولا

شك ـــ كان فى تقدير الخالق سبحانه حينما فرض على أمة الإسلام الحج إلى بيته الحرام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وأَذِّنْ فى النّاس بالحجِّ يأتوكَ رجالاً وعلَى كُلِّ ضامرٍ يَأتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميق ، ليَشْهَدوا منافعَ لَهُم وَيَذْكُرُوا اسمَ الله فى أيّامٍ معلُومَات عَلَى ما رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمةِ الأنعام ، فكُلُوا منها وأطعِموا البائسَ الفقير ﴾ (الحج ، آيتا ٢٧ و٢٨)

أما طلاب العلم فلم يكفوا عن الرحلة قط فى طلب العلم وحضور مجالس العلماء ، وكان يكفى أن يظهر محدث جليل فى بلد مثل بخارى أو تُسْتَر حتى تجد الطلاب من الأندلس والمغرب ومصر واليمن راحلين إليه للسماع عنه ، وكان أهل العلم فى رحلة دائمة ذاهبين من بلد إلى بلد ومتنقلين من مجلس علم إلى مجلس علم ، ناسجين برحلاتهم خيوطاً جديدة فى نسيج عالمنا الإسلامى . وكان طلاب العلم هؤلاء ألوفاً كثيرة عمقوا برحلتهم شعور الناس فى العالم الإسلامى الشاسع بأنه عالم واحد فى الدين والفكر واللغة ، فهم مسلمون عرب فى مصر ، وهم مسلمون عرب فى سمرقند وفى تمبكتو ، والناس يرونهم ويتصلون بهم ويحسون ـــ وهم يتحدثون إليهم ـــ أنهم بالفعل أعضاء أسرة ضخمة واحدة هى أسرة الإسلام .

وقريب من هذا كان نصيب التجار والملاحين وبخاصة من أهل اليمن وجنوبى الجزيرة العربية وشواطىء الخليج العربى ، فهؤلاء الملاحون المهرة حملوا راية الإسلام إلى أرض بعيدة فى شرق أفريقيا وجنوب آسيا وجنوبها الشرقى . وكانت سفنهم الجميلة الصغيرة ـــ نسبيا ـــ تحمل المسلمين من شاطىء ومن ميناء لميناء ، فتؤكد بذلك وحدة « عالَم الإسلام » . وكم من ملاح حسن الإيمان أسلم على يده العشرات من أهل أفريقية وآسيا لأنه ضرب لهم مثلا صالحاً بخلقه الطيب ومعاملته الشريفة ، وكم من تاجر بسيط نزل بجزيرة نائية فى المحيط ـــ مثل جزيرة سيشل أو موريس ـــ ليبيع ويشترى ، ورآه الناس يصلى ، فاستفسروه عن دينه ، فحدثهم عنه فأسلموا على يديه ، فربح بهداية الناس أضعاف ما كسب من البيع والشراء .

أما الصالحون والأولياء فإنهم عمقوا الإيمان بالإسلام كما ذكرنا ومدوا له الجذور البعيدة فى الجماهير . ولا شك فى أن أولئك الصلحاء ـــ الذين تقوم قبورهم وأضرحتهم ما بين كبيرة وصغيرة فى نواحى العالم الإسلامى كله ـــ قد قاموا بوظيفة دينية وحضارية واجتماعية كبرى فى أزمانهم وما بعدها .

هؤلاء جميعاً نسجوا فى صبر طويل وعمل دؤوب نسيج ذلك العالم الإسلامى الواسع الذى نعيش فيه اليوم ، وهم جميعاً من صميم أمة الإسلام الواحدة .

غير أن شعور الناس فى العالم الإسلامى بسعة عالمهم وبأنه معظم المعمور (على حسب علمهم) ألهمهم ثقة بالنفس واطمئناناً إلى المصير أعانهم على الثبات أمام محن كانت جديرة بأن تزلزل قلوب البشر . وفى الغرب المسيحى وفى العالم البوذى كان القساوسة والكهنة هم الذين يثبتون قلوب الناس فى أوقات المحن ، أما فى عالم الإسلام ـــ حيث لا قساوسه ولا كهنة ـــ فكان هذا الشعور باتساع رقعة الإسلام وعظمة أمة محمد ﷺ هو الذى يثبت القلوب ويقوى الثقة بالنفوس ويؤكد للناس أنه مهما حدث فإن أمة الإسلام بخير .

على أن المسلمين أسرفوا فى هذا الشعور ، حتى إنهم لم يحفلوا بالخطر الغربى عندما ظهر وأخذ يغير على بلادهم . وكان لا بد من أن يمر وقت طويل لكى يفيق الناس من الاطمئنان المطلق الذى أسلمهم إلى النوم ، وينزلوا إلى عالم الواقع ويواجهوا التحدى الغربى بكل أخطاره .

أهــل الذمــة فى المجتمــع الإسلامــى :

أشرنا ـــ فى سياق كلامنا عن انتشار الإسلام ـــ إلى أن المسلمين لم يحاولوا إرغام أحد على اعتناق الإسلام ، بل وكلوا الناس فى ذلك إلى اقتناعهم ، وقلنا إن هذه السياسة زادت إقبال الناس عليه وحببتهم فيه ، فدخلوا فيه أفواجاً فى كل البلاد التى دخلت فى إطار مملكة الإسلام . ولكن بقيت فى كل بلد إسلامى جماعات ممن لم يصل الإيمان إلى قلوبهم أو فضلوا البقاء على أديانهم السابقة .

أما الذين أحبوا أن يظلوا على الوثنية فإن الإسلام لم يقبل منهم ذلك ، وكان لابد أن يدخلوا دين الله . وأما اليهود والنصارى فقد شملهم تسامح الإسلام ، وسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم ومواصلة حياتهم داخل الجماعة الإسلامية ، باعتبار أنهم « أهل ذمة » أى يعيشون فى رعاية الجماعة الإسلامية ، مع أداء الجزية فى مقابل ما تمتعوا به من حقوق المواطنة فى الوطن الإسلامى الكبير ، وكذلك لقاء الحماية التى أضفاها عليهم الإسلام ، والأمان الذى نعموا به فى ظله ، وفى مقابل إعفائهم من الواجبات الحربية للدفاع عن أرض الإسلام .

وقد منحهم القرآن الكريم هذا الحق وفصله فقهاء المسلمين ووضعوا القواعد الشرعية التى تنظم علاقة اليهود والنصارى بالجماعات الإسلامية ، وكذلك وضع رجال الدول نظم تطبيق هذه المعاملة عليهم . ونجد ذلك كله مفصلا فى كتب « النظم الإسلامية » ، مثل « كتاب الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام ، و « كتاب الخراج » لأبى يوسف يعقوب قاضى الرشيد ، وكتاب « الخراج » لقدامة ابن جعفر ، وكتاب « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن على الماوردى ، وغيرهم كثيرون . وأساس التسامح مع أهل الذمة هو أنهم « أهل كتاب » ، أى أهل ديانة سماوية لها كتاب منزل . ومع أن الإسلام لا يقر بصحة نصوص الكتب المقدسة التى تدولها النصارى واليهود إلا أنه عدهم « أهل كتاب » يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . وقد انضم إلى اليهود والنصارى فى تلك المعاملة جماعة « الصابئة » الذين كانوا يعيشون فى العراق وفى نواح أخرى من دولة الإسلام ، إذ طلبوا المعاملة بالمثل وقالوا إن لديهم كتاباً منزلا ، وقد سلم لهم الفقهاء بالحق فى تلك المعاملة على أساس أن « الصابئين » مذكورون فى القرآن الكريم مراراً إلى جانب اليهود والنصارى .

وفيما عدا الجزيرة العربية لم يخل بلد إسلامى من جماعات كبيرة أو صغيرة من المسيحيين وأعداد أصغر من اليهود . وفى بعض البلاد ، كمصر ، يكوّن السكان المسيحيون ـــ وهم الأقباط ـــ واحداً على أحد عشر من مجموع السكان ، وكانت نسبتهم فى الشام قريبة من ذلك قبل الحروب الصليبية ، ثم زادوا على هذه النسبة فى أثناء تلك الحروب وبعدها ، وفى الأندلس كانت نسبتهم عالية حتى إن أعدادهم كانت تعادل أعداد المسلمين فى بعض النواحى مثل طليطلة والأشبونة ، أما فى المغرب كله فقد تلاشوا تماماً بعد الفتح الإسلامى ، وفى العراق كانت هناك جماعات منهم معظمهم من « النساطرة » من بقايا نصارى الحيرة وحران . وكان هناك الأرمن فى شمالى العراق ، ومسيحيتهم بقية من سيطرة الدولة البيزنطية على تلك النواحى .

أما من يوجد من المسيحيين فى بقية بلاد المسلمين ـــ مثل السودان وإيران والهند وإندونيسيا ـــ فهم جماعاتٌ محدثة نشأت فى ظل الاستعمار الغربى فى العصور الحديثة . وفى الكثير من بلاد أفريقية اليوم يسير الإسلام والنصرانية جنباً إلى جنب ، لأنهما دخلا وانتشرا فى تواريخ متفاوتة فى العصور الحديثة ، وأمثلة ذلك نجدها فى ملاوى وزامبيا والكونغو وكينشاسا وأوغندا وغيرها . ففى هذه البلاد يرجع دخول

الإسلام فى صورة ظاهرة إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أما بلاد أفريقية المدارية وبعض بلاد أفريقية الاستوائية ، مثل الكاميرون والجابون والكونغو برازافيل ، فقد دخل الإسلام فيها قبل المسيحية بزمن طويل ، ولكنه لم يصل إلى أن يصبح دين الغالبية من السكان إلا فى نيجيريا وتشاد والنيجر وغانا وتوجو وداهومى وغينيا والسنغال . وفى أفريقية المدارية بلاد كل أهلها مسلمون ، مثل الصومال ومالى وموريتانيا . ووضع الإسلام بالنسبة للمسيحية فى هذه البلاد كلها فى حاجة إلى أن يُدرس من الوجهة العملية دراسة إحصائية واجتماعية .

وكان « أهل الذمة » يعيشون فى بلاد الإسلام فى أمان وفق نظام دينى ومالى خاص ومعروف وهو نظام « أهل الذمة » . ولا ينبغى أن ننسى أن المسيحيين من أهل البلاد الإسلامية يعدون من الناحية القانونية مواطنين أصلاء فى تلك البلاد ، إلا ما كان من هجرة بعض جماعات النساطرة من إيران أو من أراضى الدولة البيزنطية فى العراق ، فهؤلاء كانوا جالية أجنبية لمدة طويلة .

وقد اندمجت الجماعاتُ المسيحية من أهل البلاد الإسلامية فى الحياة الإسلامية العربية العامة ، فاستعربوا لساناً وفكراً ، حتى كُتبهم المقدسة تُرجمت إلى العربية . وبهذه اللغة أقيمت الصلوات فى الكنائس والمعابد . وعلى الرغم مما عرفت به الجماعات اليهودية من الانفصال عن المجتمعات التى تعيش فيها ، فقد اندمج يهود المجتمع الإسلامى فى بقية السكان واختلطوا بهم واستعربوا فى كل شىء ، وقد دلت مجموعات الوثائق اليهودية المعروفة باسم « الجنيزة » (وقد عثر عليها فى معابد اليهود ومنشآتهم الخيرية الخاصة بجماعتهم ، كالملاجىء وأمكنة الاجتماع فى مصر وفلسطين بصفة خاصة) ، دلت هذه الحقائق على أن يهود البلاد الإسلامية كانوا بالفعل قد استعربوا تماماً واندمجوا فى الحياة العامة حولهم . ولم يبدأ انفصالهم عن السكان إلا فى العصر الحديث فى ظل الاستعمار عندما شعروا بأن السيادة السياسية أصبحت فى أيدى الأوروبيين .

ونعود إلى وثائق « الجنيزة » ، فنقول إنها تؤكد ما كنا نعرفه من أن يهود البلاد العربية والإسلامية كانوا يعيشون فى تسامح تام حتى وصلوا إلى مكانة طيبة من الغنى والجاه وشغلوا الوظائف الرئيسية ، لا فى بلاد الأندلس وحدها بل فى كثير من البلاد الإسلامية الأخرى . ولم يصل اليهود إلى مثل هذا الوضع فى أى مجتمع غير المجتمع

الإسلامى فى العصور القديمة والوسطى . فبينا كانوا يُضطهدون أشد الاضطهاد فى الغرب ويرغمون على الحياة فى أحيائهم التى عرفت بالحارات أو « الجيتو » فإن اليهود فى البلاد الإسلامية عاشوا أحراراً غير مقيدين إلا بما يلزمهم به النظام العام بصفتهم « أهل ذمة » . وقد قضى الأوروبيون على معظم من كان فى بلادهم من اليهود فى العصور الوسطى ، وهبطوا بالبقية إلى مستوى الأرقاء أو أخرجوهم من المجتمع وجعلوهم سكاناً يعيشون خارج المدن ويتجمعون قرب أمكنة الأسواق وفى مواضع معينة من الموانى . ولو أن العرب المسلمين عاملوا اليهود هذه المعاملة لما بقى من اليهود أحد اليوم .

وما يزعمه كتاب اليهود من أنهم ينقسمون إلى شعبين كبيرين : الإشكنازية والسفردية ، وأن الأولين هم من بقايا اليهود القدامى الذين عاشوا فى الغرب من أيام الدولة الرومانية وانضمت إليهم بعد ذلك جماعات من يهود بلاد الخزر ، وأن الآخرين — السفرديين — هم الذين عاشوا فى بلاد الإسلام أو هاجروا منها إلى بلاد المغرب ، وما يزعمونه كذلك من أن الإشكنازيين أرقى وأكثر تقدما ، كل هذا غير صحيح ، وقد وضعته عقول الصهيونيين لأغراض سياسية ، أما الحقيقة فهى أن ٩٠٪ من يهود أوروبا أصلهم ممن عاشوا فى بلاد الإسلام — خصوصاً فى الأندلس — فنجوا فى ظل الإسلام مما أصاب غيرهم ، ثم انتشروا فى الدنيا . ومعظم اليهود الذين يزعمون أنهم من أصول صقلبية أو بولونية أو ألمانية أصلهم البعيد من بلاد المسلمين ثم ادعوا لأنفسهم هذه الأنساب ، ومملكة الخزر اليهودية — التى يُقال إنها ازدهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى — أسطورة ولا أساس لها من الصحة .

والحقيقة أن اليهود فى العصور الوسطى لم يجدوا الملجأ والأمان إلا فى بلاد المسلمين ، بفضل تسامح الإسلام ، فسعدوا وكثروا وتمولوا . واليهود الذين هربوا من الاضطهاد المسيحى فى الغرب لجأوا إلى الأندلس ، حيث عاشوا فى أمان ونظموا أنفسهم فى وحدات اجتماعية تعيش فى أحياء خاصة بها فى المدن ، وكان ذلك باختيارهم ، لأن أحداً فى بلاد الإسلام لم يرغم اليهود على أن يعيشوا فى أحياء خاصة . وفى الأندلس بلغ اليهود مركزاً ممتازاً حتى اتخذ منهم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ/٩١٢ — ٩٦١ م) وزيراً وسفيراً هو حسداى بن شبروط ، وكان منهم نفر من أهل ثقة ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ/٩٦١ —

٩٧٦ م) ، مثل إبراهيم بن يعقوب الطليطلى الذى كان يرسله فى مهام كثيرة فى أوروبا .

وقد انقلب أولئك اليهود على مسلمى الأندلس دون مبرر ، عندما بدأت كفة الإسلام تشيل هناك ، ودخلوا فى خدمة النصارى وعاونوهم على المسلمين الذين تولوا حمايتهم بالأمس ، وهذا من غرائب النفس اليهودية والسلوك اليهودى ، فبينما نجدهم فى كتبهم يذكرون فضل المسلمين عليهم وإنقاذهم من الفناء على أيدى القوط فى الأندلس ، وبينما نراهم يعدون طارق بن زياد من أبطال تاريخهم لما كان من إنقاذهم على يديه ، إذا بهم يبررون انقلاب أجيالهم الماضية على المسلمين ، بل يزعمون أنهم غربيون أو أقرب إلى المسيحيين .

وعبثاً نحاول أن نفهم السر فى عداوة اليهود المتأصلة للعرب ، وهى عداوة لا ترجع إلى ميلاد الصهيونية أو إلى ما قصدوه ورتبوا له فى أيامنا هذه من العدوان على فلسطين ، فإننا نجد فى كتبهم التى كتبت أيام عصر النهضة الأوروبية ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر ، عداء غير طبيعى للعرب والإسلام . وقد علل المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون LOUIS MASSIGNON هذه الظاهرة بأنها راجعة إلى حسد اليهود للعرب على ما بلغوه من المجد واتساع الملك بالإسلام . واليهود يعرفون أنهم أبناء عمومة العرب ، وفى كتبهم المقدسة ما يشير إلى زعم أنهم أقرب إلى الله منهم ، ولهذا فقد أنكروا على العرب أن يختار الله رسوله ﷺ منهم ، وأن يبلغوا بدينهم الإسلامى ما بلغوا من اتساع الملك ، فى حين أنهم — أى اليهود — كانوا فى الحضيض إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى . ولهذا فهم يغفرون للبشر جميعاً عدوانهم عليهم وظلمهم إياهم ، إلا العرب : لا ينسون أن العرب امتازوا عليهم وسادوهم بفضل الإسلام قروناً بعد قرون !

أما المسيحيون من أهل البلاد الإسلامية فقد عاشوا دائما مواطنين كراما وقاسموا المسلمين مر الحياة وحلوها وظهر من بينهم علماء ومفكرون فى كل ميادين الفكر العربى وكتاب وشعراء ، وإذا كانت قد نزلت بهم نوازل أو أصابهم أذى من الحكام فقد نزل بالمسلمين وأصابهم مثل ذلك ، فقد كانت العصور الوسطى المتأخرة عصور ظلم ومتاعب للجميع .

أما ما نقرأ فى بعض النصوص من أن المسيحيين واليهود كانوا يُلْزَمون بلبس

ملابس معينة يعرفون بها من غيرهم ، فلم يحدث إلا خلال فترات قصيرة على أيدى حكام لم يفهموا الإسلام فهما صحيحاً ، ولم يتشدد المسلمون ــ بصفة عامة ــ فى أن يشد المسيحيون على أوساطهم ذلك الحزام المسمى « الزنّار » ، وحتى فى الأوقات التى ألزموا فيها بذلك فإن جمهور المسلمين لم يروا غرابة أو شيئاً مخطئاً فى أن يكون الإنسان مسيحيا . أما ما يسمى بالوصية العُمَرية التى تأمر المسلمين بمعاملة أهل الذمة معاملة قاسية فوثيقة مشكوك فى أمرها ، ومن المؤكد أنها وضعت فى العصور الوسطى المتأخرة ونسبت إلى عمر ، لأن عمر لم يتخذ حيال غير المسلمين إلا إجراء واحداً ، وهو إخراجهم من الجزيرة العربية حتى لا يكون فى الجزيرة دينان يتصارعان . وكان إخراجهم بعد أن خالفوا ما اتفقوا عليه مع للمسلمين ، كما فعل مسيحيو نجران . ولقد كان عمر هو الذى أسرع ليتسلم بيت المقدس بنفسه ، صيانة لمن فيها من المسيحيين وحفاظاً على مزاراتهم وبخاصة كنيسة القيامة . وفى أيام عمر وضعت القواعد العامة لمعاملة أهل الذمة فى دولة الإسلام ، ولسنا نجد فيها ما يشبه ما فى هذه الوثيقة من الأحكام العنيفة التى يتنافى بعضها مع المعروف من رفق الإسلام وإنسانيته . ومن سوء الحظ أن مثل هذه الوثيقة تؤخذ على أنها وثيقة أصيلة تحدد معاملة الذميين فى بلاد الإسلام فى كل العصور ، والإسلام وعمر بن الخطاب منها بريئان .

وإن من يقرأ النصوص التاريخية طوال العصور الوسطى ليجد أن المسيحيين كانوا يعيشون فى إخاء تام مع المسلمين ، وكانت بين الجانبين علاقات مودة وتعاون تظهر بأجلى صورها فى أوساط أهل العلم والطب . فلو أننا تصفحنا كتاباً مثل « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة لرأينا كيف كان علماء المسلمين وأطباؤهم يتعاونون مع إخوانهم من علماء النصارى واليهود ، ويأخذون عنهم ويقبلون شبانهم تلاميذ لهم ، بل هم كانوا يتعاونون معاً فى تأليف الكتب وفى الأبحاث فى موضوعات الطب والأدوية خاصة . أما ما كان من الصداقة بين الشعراء وأهل الأدب المسلمين والمسيحيين فأظهر من أن نقف عنده ، ويكفى أن نقرأ كتاباً مثل « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى لنرى كيف نبغ من بين نصارى البلاد العربية والإسلامية عدد ضخم من الشعراء لا تقل مراتب بعضهم عن مراتب أكبر شعرائنا الإسلاميين .

خلاصـــــة :

حاولنا فى هذا الفصل أن نعطى صورة عامة للمجتمع الإسلامى وملامحه البارزة ، ووقفنا طويلا عند بعض ما بدا لنا أنه غير مشرق من تلك الملامح لنتعرف إلى حقيقته ونكشف أسبابه ، فإن الكشف عن الحقائق أو البحث عن الأسباب يظهر لنا أن تلك النواحى غير المشرقة كانت ردود فعل أو راجعة لظروف قاسية ألمّت بالمجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى ، وخصوصاً المتأخرة منها ، فإن عامة الناس فى تلك العصور غلب عليهم الفتور لتشابه الأيام خلال عصور طويلة ، ونشأ عن ذلك اهتمام الناس بصغائر الأمور أو السطحى منها ، وربما كانت تلك الظروف أيضاً هى التى مالت بالناس نحو العنف والقسوة ، بدافع الخوف على النفس والمحافظة على الكيان بكل وسيلة . ومن المعروف أن اليأس وانعدام الأمان يدفعان الإنسان — والكائن الحى عموماً — إلى التصرف بطريقة تخرج به على مألوف ما عهد منه . وعندما تتدهور الظروف حول الإنسان ينحط مستوى تفكيره وتسوء ردود الفعل التى تصدر عنه . وهذا هو تفسير مظاهر القسوة التى تقرأ أخبارها فى حوليات العالم الإسلامى فى عصور المماليك . وهذا أيضاً هو تفسير الفساد الذى شمل رجال الحكومات ومال بهم إلى إهمال الواجب وإلى الرشوة وما إلى ذلك مما ينتج عن الأنانية المطلقة ، وهى مظهر من مظاهر الخوف والشعور بعدم الأمان وقلة الثقة بالنفس وبالغير وموت الشعور الإنسانى .

درسنا فى هذا الفصل ست عشرة ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية الإسلامية فى العصور الوسطى ، رأينا أنها تُجَلِّى ملامح ذلك المجتمع وخصائصه المميزة له وبخاصة فى أواخر العصور الوسطى .

فبدأنا بالكلام على غلبة الروح الجماعية أو الاجتماعية على كل مظاهر الحياة الإسلامية ، وضربنا لذلك أمثلة من تفكير الناس فى المجتمعات الإسلامية تفكيراً جماعيا فى المسائل التى تتعلق بمصالح جماعتهم ، ورددنا ذلك إلى روح الإسلام التى تدعو الناس إلى الترابط والتساند والعمل معاً ، بل إن عبادات الإسلام نفسها عبادات جماعية أو ترمى إلى ربط الناس بعضهم ببعض وتقوية أواصر الأخوة والتعاون بين المسلمين ، وضربنا لذلك مثلا بالصلاة .

ثم ناقشنا موضوع بناء المجتمع بصفة عامة ، وبينا كيف ظهرت الطبقات فى مجتمعات البشر ، وكيف أن كل المجتمع الإنسانى فى العصور القديمة والوسطى كان مجتمعاً طبقيا ينقسم الناس فيه إلى طبقات متحاجزة متمايزة ، فيما عدا المجتمع الإسلامى الذى امتاز على غيره من المجتمعات بأنه لم يعرف الطبقات ، فكان الناس يعيشون فيه متساوين أمام الله وأمام القانون ومتساوين فيما بينهم ، أى أنهم متساوون فى كل النواحى الإنسانية ، وهذا لا يمنع من أن يكون هناك فقراء وأغنياء ، وأصحاب جاه وناس مجردون من السلطة والجاه ، وموهوبون وغير موهوبين ، فهذا شيء طبعى — لا مفر منه — فى مجتمعات البشر ، ولكن ذلك التفاوت فى الثروة وحظوظ الناس فى الحياة لم يؤد قط فى المجتمع الإسلامى إلى انقسام الناس إلى طبقات ، حتى الخلفاء والسلاطين وأهل القوة والمال لم يكونوا طبقة ممتازة على غيرهم بميزات يعترف بها المجتمع ، كما نجد مثلا فى طبقات النبلاء فى أوروبا أو طبقة الساموراى فى اليابان أو سادة الحرب War Lords فى الصين أو البراهمة فى الهند . وبينّا كيف أن الإسلام محا الطبقات تماماً فى كل جماعة آمنت به ونظمت نفسها على أساسه ، ووقفنا بعد ذلك وقفة قصيرة عند ظاهرة استقلال الجماعات الإسلامية عن النظم السياسية التى حكمتها فى العصور الوسطى ، وما أدى إليه من تقوية روح الاعتماد على النفس عن الجماعات .

وشرحنا بعد ذلك كيف أن جماهير الناس التى حيل بينها وبين الاشتراك فى السياسة اشتراكاً إيجابياً مباشراً وجدت الطريق إلى السلطان بواسطة الدين والعلم ، فوجد الفقهاء وأهلُ العلم طريقهم إلى مراكز القوة وحازوا نصيباً كبيراً من السلطان السياسى ، إذ إنه كان منهم القضاة والمفتون وأهل الشورى والوزراء والكتّاب والصوفية والشعراء وأهل الأدب ، وهؤلاء جميعاً كانوا رؤساء الناس وشيوخ المجتمع المعترف برياستهم عند الجماهير .

ووقفنا وقفة طويلة عند الصوفية والزهاد وما كان لهم من وظيفة سياسية واجتماعية ، وناقشنا ظاهرة الأولياء وأصحاب الكرامات وبينا أنها ظاهرة اجتماعية أدت إلى ظهورها ظروف سياسية واجتماعية عامة ، وبينا أنهم — برغم الرأى الشائع عند المثقفين اليوم — قد قاموا بوظيفة اجتماعية وسياسية لها أهميتها . وعندما اختفت الظروف التى أدت إلى ظهور تلك الطائفة اختفت هى أيضاً .

ونحن قد نبهنا إلى أن ذلك لا ينطبق إلا على عدد قليل من الذين ينتسبون للتصوف ، ولكنهم قصروا عن حال الصوفية المخلصين الصادقين الذين انصرفوا إلى العبادة والمجاهدة والرياضات وأعمال الخير انصرافاً تاما ، فكانوا نوراً أضاء لأهل عصورهم غياهب الظلام والتأخر أثناء العصور الوسطى والمتأخرة .

وتحدثنا حديثاً مفصلا عن قطاعي المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وهما : قطاع المدن وأهلها ، وقطاع الريف وسكانه من الزراع .

فتحدثنا عن المدينة الإسلامية وظروف الحياة فيها والأسباب التي أدت إلى اضمحلال المدن ، وتناولنا في كلامنا أحوال الصناع ونقاباتهم .

وفي كلامنا عن المجتمع الريفي تحدثنا عن الفلاحين والظروف القاسية التي عاشوا فيها ، وبينا كيف استطاعوا برغم ذلك ، أن يقوموا بمسئولياتهم كاملة حيال المجتمع الذي كانوا عماده الاقتصادي ، لأن الاقتصاد في العصور الوسطى كان يعتمد أساساً على الزراعة والزراع ، أما الصناعة فلم تصبح عماداً من عمد الاقتصاد إلا في العصور الحديثة . وأضفنا في أثناء ذلك فقرة قصيرة عن الزراعة وما بلغه المسلمون في ميدانها من علم وتقدم .

وعزونا نجاة المجتمعات الإسلامية الوسيطة من الظروف العصيبة التي مرت بها إلى سلامة الأسرة ، وهي الخلية الأساسية للمجتمع . وبينا كيف أن الإسلام أحاط الأسرة بسياجات قوية من الحماية والتأمين وجعلها بحق أساس المجتمع وصخرته الصلبة التي يقوم عليها .

وأضفنا فقرة عن مراتب الناس في المجتمع الإسلامي ، وقلنا إنها ليست طبقات اجتماعية ، وإنما هي تقسيمات على أسس وظيفية أو مالية .

ووقفنا وقفةً طويلة عند المرأة في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وشرحنا كيف أن الحجاب الكثيف والقيود الثقيلة التي فرضت على النساء لم تظهر إلا في العصور الوسطى المتأخرة ، نتيجة لسيادة الجهل وقلة الأمان واضطراب أجهزة الحكم ، وسيطرة أصناف الترك والمغول من الآسيويين الذين تعودوا معاملة المرأة في مجتمعاتهم الأولى على أساس أنها متاع يباع ويشترى .

وتحدثنا كذلك عن أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى ، وبينا كيف كانوا يعيشون متمتعين بتسامح عظيم منحهم إياه الإسلام ، وجرت على تطبيقه شعوبه وحكوماته ، وأشرنا إلى أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد فى العصور الوسطى الذى استطاعت الأقليات الدينية أن تعيش فيه بسلام . فى حين أن شعوب أوروبا لم تكن تسمح لمسلم بالمقام فيها إلا بكل مشقة . أما اليهود الذين عاشوا فى أوروبا فقد عاشوا تحت ذل بالغ واضطهاد مستمر على حين عاشوا فى سلام وعزة وكرامة فى بلاد الإسلام . وأشرنا بهذه المناسبة إلى فضل المسلمين على اليهود ، وكيف أنقذوهم من الفناء فى أثناء العصور الوسطى ، فكانت النتيجة أن انقلبوا عليهم وأصبحوا ألدّ أعدائهم منكرين كل فضل أو جميل للعرب والمسلمين ، وقد ذكرنا لبعض العلماء رأياً فى تعليل هذه الظاهرة .

وختمنا هذا الفصل بالكلام عن وحدة العالم الإسلامى ، وتحدثنا عن أولئك الذين حققوا فكرة الوحدة بين نواحيه وعمقوا مفهومها وأعطوها قوة العقيدة ، وهم الحُجاج ، وأهل العلم وطلابه ، والرحالة ، والصوفية ، والتجار . وأوضحنا الدور الحيوى الذى قامت به هذه الطوائف فى تقرير حقيقة وحدة العالم الإسلامى .



مراجـــع مختـــارة

هذا الفصل الذى كتبناه عن ملامح العالم الإسلامى يمكن اعتباره من أوائل المحاولات فى كتابة تاريخ اجتماعى للإسلام ، وقد جمعنا مادته من حشد عظيم من الكتب والمراجع ، لأنه لا توجد كتب خصصت لهذا الموضوع . ومن حسن الحظ أن لدينا فى العصر الحديث دراسات جيدة لنواح مختلفة من أحوال المجتمعات الإسلامية وتاريخ تطورها ، وسنكتفى فيما يلى بذكر أهم الكتب التى تتضمن مادة داخلة فى موضوع المجتمع الإسلامى وملامحه وتطوره .

أصـــول :

أهم مرجع فى ذلك الموضوع هو « مقدمة » ابن خلدون المشهورة وطبعاتها كثيرة ، نخص بالذكر منها الطبعة التى أعدها على عبد الواحد وافى مع شروح وتعليقات ضافية ، ونشرها فى القاهرة ابتداء من سنة ١٩٦٢ . ونشير هنا إلى فهارس طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ التى وضعها أسعد داغر ، فهى نعين القارىء على تتبع أفكار ابن خلدون والمؤلفات عن « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » كثيرة أهمها كتاب طه حسين بهذا العنوان نفسه ، وكتاب « ابن خلدون وتراثه الفكرى » لمحمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٥ .

ومن المؤلفين الذين يقدمون لنا مادة طيبة عن المجتمع الإسلامى ونظمه تقى الدين المقريزى ، فى كتابه « الخطط » و « إغاثة الأمة بكشف الغُمة » . أما « الخطط » فطبعاتها كثيرة ، وأما « إغاثة الأمة » فقد نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال فى القاهرة سنة ١٩٤٠ والكتاب الثانى ، برغم صغر حجمه ، من أحفل

ذخائر المكتبة العربية بالمعلومات عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للأمم الإسلامية ، وبخاصة مصر في العصور الوسطى .

ويجد القارىء مادة طيبة عن الأحوال الاجتماعية في كتب الأدب الرئيسية مثل : « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، « والكامل » لأبى العباس المبرد ، و « العقد الفريد » لأبى عمر أحمد بن عبد ربه ، وكتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مثل « البخلاء » ، و « البيان والتبيين » وكذلك رسائله الصغيرة مثل « فضل السودان على البيضان » و « التبصرة فى التجارة » و « مناقب الأتراك » و « ذم أخلاق الكُتاب » .

ومن المراجع التى لا يستغنى عن الإمعان فى دراستها من يريد تعرّف أحوال المجتمع الإسلامى مؤلفات أبى الحسن على المسعودى ، وبخاصة « مروج الذهب » (طبعة باريس مجلدين ١٨٦١) . و « التنبيه والإشراف » (طبع فى ليدن سنة ١٨٧٤ طبعة محققة ، وطبع بعد ذلك مراراً فى البلاد العربية) .

ولكتب الجغرافيين والرحالة أهمية كبرى فى هذا المجال ، ونشير منها إلى :

ابن بطوطة : « تحفة النظار » ، بتحقيق ديفريميرى وسانجينيتى (C. DEFREMERY & B. SANGUINETTI) ، باريس ١٩٢٦ .

ابن جبير : « الرحلة » ، بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

ابن حوقل النصيبى : « صورة الأرض » فى مجلدين ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٤٦ .

ابن رسته : كتاب « الأعلاق النفيسة » ، بتحقيق دى غوى ، ليدن ١٨٦١ .

الإصطخرى : كتاب « المسالك والممالك » ، بتحقيق دى غوى أيضاً ، ليدن ١٩٧٠ .

الشريف الإدريسى : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، ولم ينشر هذا الذخر القيم فى صورة نص متكامل إلى الآن ، ولكن معظم أجزائه نشرت متفرقة ، وترجمت إلى اللغات الأوروبية ، فليبحث القارىء فى المكتبات عن الموجود من كتب الشريف الإدريسى بالعربية وغيرها . واسم الشريف الإدريسى يكتب بالإفرنجية تارة Edrisi وتارة Idrisi .

عبد اللطيف البغدادي : كتاب « الإفادة والاعتبار » ، وهو كتاب صغير حافل بالفائدة وقد نشر مراراً في البلاد العربية وأوروبا .

المقدسي : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، بتحقيق دي غوي ، ليدن ١٨٧٧ .

ولا يستغني القارىء عن الرجوع إلى الموسوعات العربية الكبرى الثلاث وهي « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري و « صبح الأعشى » للقلقشندي و « نهاية الأرب » للنويري ، وقد نشر من كل منها أجزاء صدرت كلها عن دار الكتب المصرية في القاهرة .

ونشير هنا إلى « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول ، حققه ونشره سعد رغلول عبد الحميد في الإسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وكتاب « محاسن مصر والقاهرة » لابن ظهيرة ، بتحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ .

ومن أهم المراجع الغنية بالمادة في موضوعنا كتب الأحكام وأهمها « كتاب الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام (القاهرة بدون تاريخ) و « الاحكام السلطانية » للماوردي ، القاهرة ١٨٨٠ ، و « كتاب الخراج » لأبي يوسف يعقوب قاضي الرشيد (القاهرة ١٨٨٤) ، وكتاب « الخراج » لقدامة بن جعفر ، وقد نشرت منه قطعة على يد دي غوي في ليدن ١٨٨٩ .

وبعد كتاب أبي الريحان البيروني المسمى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » (نشره إدوارد سخاو E. SACHAU في لندن سنة ١٨٨٧ م) من عيون المؤلفات في أحوال أمم الهند خاصة ووسط آسيا عامة ، وقد قدم ملخصاً ممتازاً لأهم ما ورد فيه عن أحوال الهند ونظم أهلها نفيس أحمد في كتابه القيم « جهود المسلمين في الجغرافيا » ، وقد ترجمه إلى العربية ونشره مع شروح ضافية محمد فتحي عثمان ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ونشير هنا إلى عدد من الكتب تجمع أخباراً قصاراً أو طوالاً عن أشخاص معينين أو عن الناس عامة ، وهذه الكتب حافلة بالمعلومات عن نظم المجتمع الإسلامي وأحواله ، ومثال ذلك « نشوار المحاضرة » للقاضي المحسِّن بن علي التنوخي ، و « المستجاد من فعلات الأجواد » له أيضاً ، و « كتاب الوزراء » لأبي هلال

الصابى ، و « رسوم دار الخلافة » له أيضاً ، « وسيرة أحمد بن طولون » للبلوى ، و « مرآة الزمان » لسبط بن الجوزى ، و « تلبيس إبليس » لأبى الفرج بن الجوزى .

وهذه كلها أمثلة فحسب ، لأننا فى حاجة إلى أن نعد ببلبوغرافيا (مراجع) للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى للأمم الإسلامية ، ولذلك نكتفى بهذا القدر الآن ، ونشير إلى أننا سنذكر عدداً آخر من هذه الكتب فى مراجع الفصل عن التنظيم الاقتصادى .

أبحـــاث حديثـــــة :

أحمد مختار العبادى : « مشاهدات ابن الخطيب فى المغرب والأندلس » ، الإسكندرية ١٩٦٢ .

حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والاجتماعية بشكل خاص ، القاهرة ١٩٣٣ .

حسين مؤنس : « فجر الأندلس » ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد عبد العزيز سالم : « تاريخ مدينة ألمريّة الإسلامية » ، بيروت ١٩٦٩ .

سيدة إسماعيل الكاشف : « مصر فى فجر الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمد الطيب النجار : « الموالى فى العصر الأموى » ، القاهرة ١٩٤٩ .

صالح أحمد العلى : « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الهجرى الأول » ، بغداد ١٩٥٣ .

كتـــب بغيـــر العربيـــة :

ARNOLD (THOMAS) & GUILAUME (ALFRED) : The Legacy Of Islam . oxford 1913 .

وهذا الكتاب يضم مجموعة قيمة من الأبحاث عما وصل إليه المسلمون فى شتى نواحى الحضارة البشرية وما خلفوه لغيرهم . ويهمنا هنا الفصلان التاليان :

MYSTICISION By R.A. NICHOLSON & Sir THOMAS ADAMS .

LAW AND SOCIETY By DAVID DE SANTILANA .

GIBB , HAMILTON A . R . : Stucture Of The Religious Thought Of Islam . London , 1944 .

KHADDURY , M . : The Nature OF The Moslem State ; In Islamic Culture , 1945

LAMM : Cotton In Medieval Textiles Of The Near East . Paris , 1937 .

LeVy , Reuben : An Introduction To The Sociology Of Islam . 2 Vols . London , 1931 - 1933 .

MARCAIS WILLIAM : L'islam Et La Vie Urbaine . Paris , 1938 .

MEZ , ADAM : Die Renaissance Des Islam .

وقد أصبح هذا الكتاب من أهم مراجعنا عن الحضارة الإسلامية بفضل الترجمة الممتازة التى قام بها له محمد عبد الهادى أبو ريدة ونشرها فى القاهرة فى طبعات متوالية ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب فى بيروت سنة ١٩٦٨ .

TRITTON , S : The Caliphs And Their Non - Moslem Subjects . Oxford 1913

وهذا الكتاب أيضاً أصبح من ذخائر المكتبة التاريخية العربية بفضل الترجمة التى عملها له حسن حبشى ونشرها فى القاهرة بعنوان : « أهل الذمة فى الإسلام » .





الفصل الخامس

التنظيم الاقتصادي





تمهيد :

المصطلحات الاقتصادية — كالتجارة والبيع والشراء والقرض والكسب والخسارة والشركة — كثيرة فى القرآن الكريم ، وقد رد بعض الباحثين الغربيين ذلك إلى أن الإسلام ظهر فى بيئة تجارية هى البيئة المكية ، ولهذا تأثر بها وكثرت فيه ألفاظ التجارة ومعانيها . وهذا تخريج بعيد عن الصواب ، لأن القرآن لم ينزل للمكيين وحدهم باللغة المناسبة لهم ، ولم يتأثر بالبيئة التى نزل فيها لأنه أنزل للناس كافة باللغة التى يفهمها الناس كافة مكيين وغير مكيين ، عربا وغير عرب .

وإنما استعمل القرآن هذا المصطلح فى بعض الأحيان لأنه واضح يفهمه كل الناس ويؤدى إليهم الفكرة على أحسن صورة . خذ الآيات التالية على سبيل المثال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ (الصف : ١٠ — ١٣) فهذه آيات واضحة كل الوضوح يفهم منها الإنسان أنه بإيمانه وجهاده يشبه من يعقد صفقة هو الكاسب فيها كسباً واضحاً لا شك فيه ، وماذا يريد الإنسان أكثر من العيش خالداً فى مساكن طيبة فى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، وبالإضافة إلى ذلك يؤتيه الله النصر العزيز والفتح القريب فى هذه الدنيا .

ولا بد أن نلاحظ أن القرآن الكريم — فى مثل هذه الآيات — يأخذ اللفظ العادى ذا المعنى المادى الجارى بين الناس ، ويرتفع به إلى مدلول معنوى وقيمة روحية

وخلقية ، وهنا نرى مثالاً للسمو الذى يرتفع به مستوى الحياة الإنسانية بفضل الكتاب العزيز .

ستبعد إذن أن يكون نوارد المصطلحات والمفهومات التجارية فى القرآن صدى للبيئة التجارية المكية أو المدنية ، ولكننا لا ننسى أن كثيرين من كبار الصحابة كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، والعباس بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، وأبو سفيان بن حرب ، وغيرهم كانوا من أهل البيع والشراء والقوافل ، بل كان رسول الله ﷺ قبل البعثة تاجراً ، وكان تاجراً أميناً ناجحاً ، وعن طريق أمانته ونجاحه فى التجارة نزوج السيدة خديجة وأنشأ لنفسه مالا ومركزاً تجاريا ، فهو ﷺ لم يعتمد على مال السيدة خديجة ولا هو عاش عليه ، كما يحسب بعض الناس ، ولدينا ما يثبت أنه ﷺ عندما تزوجها كان ميسور الحال يعيش فى رغد . وعندما مالت نفسه إلى التعبد والوحدة ، لما أراد الله إكرامه به من البعثة والرسالة ، لم ينصرف عن إدارة شئونه التجارية ، فكان يقوم بذلك فيما عدا شهر رمضان ، ولم يتوقف عن المتاجرة إلا بعد البعثة ، إذ انصرف إلى رسالته بقواه كلها ووهبها وقته أجمع .

ولهذا كان ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ كثيراً ما يستخدم مصطلح التجارة ومفهوماتها فى حديثه إلى الناس وشرحه المسائل لهم ، وعندما التقى أول جماعة من أهل المدينة واستطاع أن يتفق معهم سمى الاتفاق « بيْعَة العقَبَة » ، وكذلك سمى الاتفاق الثانى بينه وبين ممثلى أهل المدينة قبل الهجرة بسنة واحدة . « والبيعة » هنا معناها الاتفاق الكامل بين الناس . ومن ذلك الحين أصبح الرجل إذا أراد دخول الإسلام « بايع » محمداً ﷺ ، أى عقد معه الاتفاق الكامل ، وشروطه واضحة بينة ، فالرجل من جانبه يتبع ما أنزل الله على محمد ﷺ ، وفى مقابل ذلك يهديه الله سواء السبيل فى هذه الدنيا ويهبه الجنة فى الآخرة ، كما هو واضح من الآيات التى أوردناها آنفا من سورة الصف .

وليس معنى ذلك أن الدخول فى الإسلام أخذ دائماً صورة صفقة مباشرة من هذا النوع ، لأن الغرض من استعمال المصطلح ، أول الأمر ، كان هو تقريب مفهوم الدخول فى الدين السماوى لناس لم تكن لديهم فكرة واضحة عن الأديان السماوية وجلال مغزاها ومبناها ، إذ إن التدين عند الجاهليين ، حتى عند الموحدين منهم ،

كان سطحيا من جهة ، وكان الكثيرون يقدسون أصناماً من جهة أخرى ، يعتقدون أنها تقربهم إلى الله . ومن هنا نرى أن الإسلام بمفهومه الرفيع وما تضمنه من قيم روحية كان شيئاً جديداً حقًّا على العربى الجاهلى ، حتى رؤساء المكيين ، من أمثال عتبة بن ربيعة والحكم بن هشام — المعروف بأبى جهل — والوليد بن المغيرة ، لم يستطيعوا إدراك تلك المعانى الروحية فى القرآن ، وظلوا يفسرون الدعوة المحمدية على طريقتهم الجاهلية ، فحسبوا أن محمداً — ﷺ — كان يريد من ورائها جاهاً ومالا أو تأييد قومه بنى عبد المطلب وبنى هاشم ، ولم يستطيعوا تخطى المستوى العقلى لأهل مجتمعهم إلى آخر حياتهم ، وكان ذلك هو السبب الأكبر فى فشلهم أمام الإسلام .

وفى غمار حروب الفتوح وأحداث قيام الدولة انصرف القرشيون — أولئك التجار الماهرون — عن التجارة والبيع والشراء ، واشتغلوا بالحرب والسياسة ، ولكن التجارة ظلت أعظم أعمال الرجال وموارد الرزق ، ومن الواضح أن الإسلام — بعد استيلائه على الشام — سيطر على أهم طرق التجارة فى العالم ، وعندما امتد بعد ذلك غرباً فضم مصر والمغرب والأندلس وصقلية ، فبض المسلمون على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان مجمع تجارة الدنيا . وقد كان للموقع الجغرافى لجزيرة العرب أعظم الأثر فى تيسير انتشار الإسلام شرقاً وغرباً ، فهى بطبيعة وضعها تسيطر على بحرين كبيرين هما : البحر الأحمر وبحر العرب ، وعلى خليج هام هو الخليج العربى ، وبامتداد الإسلام إلى الشام والعراق وإيران فى الشرق — بالإضافة إلى البحر الأبيض المتوسط فى الغرب — أصبح المسلمون يملكون قلب العالم المتمدين كله إذ ذاك ، ويشرفون على تجارة تمتد من بحر الهند إلى المحيط الأطلسى ، ودخلت فى حوزتهم وتحت مسئوليتهم معظم الطرق التجارية فى الدنيا ، وإذن فإن تجارة العالم أصبحت فى أيدى المسلمين .

التجــارة والتجــار :

ولهذا كان من الطبعى أن نجد التجارة قد أصبحت من أكبر موارد الكسب فى بلاد الإسلام ، ومن حسن الحظ أن العرب أنفسهم كانوا يتصفون بميزات وملكات تجارية . وإذا كان رؤساء المكيين والقرشيين قد انصرفوا بعد الإسلام إلى السياسة

والحرب ، فإن جمهور الناس فى الحجاز كان بطبعه جمهورَ تجار ، وعندما حدثت الهجرات الكبرى من الجزيرة إلى الأمصار انتقلت جماعات كبيرة من العرب ، من ذوى القدرات التجارية ، إلى البلاد الإسلامية ، وهناك استقرت فى المدن ، وأخذت تمارس عملها التجارى على نطاق أوسع بطبيعة الحال . وقد كان اليمنيون وأهل جنوبى جزيرة العرب أكثر اهتماما بالشئون التجارية من المكيين والحجازيين ، فلم يلبثوا أن سيطروا على قطاعات واسعة من النشاط التجارى فى نواحى الدولة الإسلامية .

وخلال القرن الثانى الهجرى نرى بوضوح كيف أن التجار اليمنيين والحضارمة والعدنيين والعُمَانيين كانوا منتشرين فى كل مكان . وعندما نتتبع العرب الذين هاجروا من الجزيرة إلى الأمصار نلاحظ أن أولئك العرب الجنوبيين كانوا يفضلون دائماً الموانى والمراكز التجارية ، ومهما قيل عن مهارة الإيرانيين أو أهل البحر الأبيض المتوسط فى الشئون التجارية ، فإننا نجد أن أولئك العرب استطاعوا منافستهم فى ميدان التجارة فى كل ناحية من نواحى الدولة الإسلامية ، من الأندلس إلى الهند ، وحيثما قلبنا فى كتب الرحالة أو الأعمال الأدبية التى تتحدث عن البيئة المحلية ، وجدنا أن أغنياء التجار وأصحاب الأموال كانوا فى كثير من نواحى الدولة الإسلامية من أصول عربية جنوبية ، بل نلاحظ أنه كانت منهم أسر كاملة تشتغل بالتجارة فى نواحٍ شتى وتتعاون فى ذلك .

وإذا كانت الصناعة قد ظلت فى أيدى أصحابها من أهل البلاد ، فإن التجارة كانت دائماً قسمة بينهم وبين العرب . ومن المعروف أن التاجر يربح من السلعة المصنوعة أضعاف ما كان يربحه الصانع نفسه ، لأن الصانع فى تلك العصور كان يعمل بيده ، وكان تحويله للمادة الخام التى تصل إليه تحويلا بسيطاً لا يمكنه من أن يبالغ فى تقدير الثمن الذى يبيع به ، فى حين أن التاجر كان يعتمد على حاجة الناس إلى السلع وصعوبة الحصول عليها فى أحيان كثيرة ، بسبب سوء الأحوال واضطراب الظروف السياسية ، فكان يستطيع أن يفرض السعر الذى يريده . ولابد أن نشير هنا إلى أن التجار كانوا درجات ، من حيث نوع العمل واتساع مداه . ومع أن التاجر الكبير صاحب المتجر الواسع كان يحقق أرباحاً أكبر ويحدد بنفسه السعر الذى يبيع به ، فإن التاجر الصغير المتسوق كان هو المسيطر الفعلى على أسواق التجارة وصاحب القول فيما يروج وما لا يروج .

كانت الأقمشة تكوّن معظم التجارة ، وكانت من كل صنف . فقد حفل العالم الإسلامي ، كما قلنا ، بالمدن التي اشتهرت بالنسيج الممتاز من الحرير أو الصوف أو القطن أو الكتان ، ولكن مدن النسيج الكبرى كانت في مصر والشام وإيران واليمن . أما النسيج العادي الذي يستعمل كل يوم فكان يصنع في كل مكان تقريباً . وكانت المواد التي تصنع منها الأنسجة ترتَّب كما يلي من حيث الأهمية التجارية : الصوف فالكتان فالقطن فالحرير ، فكان الصوف هو أكثر الأنسجة توافرا في الأسواق ، وكان يدخل في صناعة معظم الأنسجة الأخرى ، بنسب قليلة أو كثيرة ، أما الكتان فكانت زراعته ومعالجته لاستخراج خيوطه شائعة في بلاد كثيرة ، أهمها مصر ، حيث كانت تزرع منه مساحات واسعة من الأراضي ، ثم يجرى إعداد وبرنه التي تشبه الشعر وتباع خامة أو منسوجة . وكان القطن معروفاً ، ولكنه كان قطن الشجر أي الذي تنتجه أشجار كبيرة بخلاف الأعواد الحالية التي ابتكرت في العصور الحديثة . ولم يكن الناس قد مهروا في زراعة أشجار القطن أو تهجين أشجار تخرج أقطاناً ذات تيلة طويلة ، ولهذا فعلى الرغم من شهرة القطن وكثرة تواردِ ذكره في النصوص فإن أمكنة زراعته كانت محدودة ، معظمها في الهند ومصر ، ومن مصر انتقل إلى المغرب والأندلس . ويعد القطن من النباتات التي عرفها الأوروبيون وراج استعمالها عندهم عن طريق العرب ، والميزة الكبرى لنسيج القطن في تلك العصور أنه كان نسيجاً رخيصاً حيثما توافرت مادته الخام ، فكان ثوب القطن يباع بثمن أقل من ثوب الكتان ، على الرغم من توافر الأقمشة الكتانية في كل مكان تقريباً .

أما الحرير فكان استعماله قليلا ، وكان معروفاً في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وقد اشتهرت بنسجه عدن ونجران ، ولكنه كان قليل الاستعمال جدًّا في البلاد العربية قبل الإسلام ، وكان العرب يحملونه إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان يجد سوقاً نافقة . ومن الملاحظ أنه كان هناك عزوف في البلاد الإسلامية عن استعمال الحرير ، فقد أثر عن النبي — ﷺ — أنه رفض أن يلبس حِبَرَةً[1] من حرير أهديت له ، كأنه — ﷺ — كان يرى في استعمال الحرير ترفاً يخل بالرجل التقى أن يتحاشاه . ولكن استعمال النساء للحرير كان شائعاً ، وهنا لا نجد من جانب الفقهاء أي ملاحظة على استعماله . وقد استعمل

(١) الحبَرَةُ — وزان عنبة ثوب يمانيٌّ من قطن أو كتان مُخطَّط ، المصباح المنير ، ج ١ ص ١١٨ .

الحرير — برغم ذلك — الكثير من الخلفاء والأمراء وأهل السلطان وسراة الناس ، ومن هنا كانت له سوق نافقة فى كل مكان برغم ارتفاع أسعاره .

وفى أول الأمر كانت الدولة البيزنطية تحتكر تجارة الحرير ، لأن الطريق التجارية الرئيسية التى تحمله من بلاد الصين كانت تمر بهضبة إيران فشمالى العراق فآسيا الصغرى ، فلما قامت الحروب بين الدولتين البيزنطية والفارسية قبل الإسلام انقطع طريق هذه التجارة ، وقل الحرير فى أسواق أوروبا . وعندما قامت دولة الإسلام ، وبسطت سلطانها على قلب العالم القديم والوسيط ، أصبح طريق البر الذى يمر بإيران مأمونا ، فعاد وصول الحرير بانتظام إلى الدولة البيزنطية وأوروبا ، ولكن الطريق الأهم للحرير كان طريق جزيرة العرب الذى يبدأ عند عدن فى الجنوب ويمر باليمن فتهامة فالحجاز ويستمر حتى فلسطين والشام ، وقد عرف المكيون قبل الإسلام كيف يحافظون على طريق التجارة هذا ، ويجعلونه من أعظم طرق التجارة العالمية ، وجنوا من وراء ذلك ثروات واسعة . وقد استمر ذلك بعد الإسلام ، فظل طريق الحجاز طريقاً تجاريًّا رئيسيًّا ينافس طريق إيران فيما يتصل بالحرير ومصنوعات الصين .

أما تربية دودة القز خارج بلاد الصين فلم تحدث إلا فى القرن السادس الميلادى على بعض الأقوال ، والتاسع على أقوال أخرى . فقد تمكن راهبان من إخراج دود القز من الصين ، ومن ثم عمل الناس على تربيته فى نواح شتى من البلاد الإسلامية وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اشتهرت بذلك إيران فكانت مراكز نسيجه الكبرى فى مدائنها مثل تُستَر ، ومَرْو ، والرى ، وهمذان ، وكرمان شاه ، وتبريز ، وشيراز ، وغيرها كثير .

ونشير هنا إلى ما ذكرناه فى فصل سابق من أن النسيج كان يعد من عيون الثروة ، وكان الناس يستعملونه كوسيلة فى البيع والشراء ، لأن أثمان الأصناف الجيدة منه كانت ثابتة لا تتغير بمرور الوقت ، فكان الناس يدخرون الثياب والأقمشة لوقت الحاجة ، ومن هنا فقد كان إقبال الناس على شراء النسيج بأنواعه مستمرًّا ، سواء احتاجوا إليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد نقداً مدخراً ، وبخاصة إذا كان من الأصناف الغالية ذات القيمة الدائمة وكما كان الناس يدخرون الذهب والفضة والجواهر فكذلك كانوا يدخرون الثياب الغالية ، وكانوا يثقون بقيمة النسيج الجيد أكثر من ثقتهم بالعملة ، لأن العملة قد تغش أو تقص أو تبرد ، أما الثوب فظاهر

يستطيع الإنسان فحصه باليد والعين ، وإذا كان يدخل فى نسيجه خيوط ذهب وفضة لم تصعب رؤية ذلك ، لأن المعادن غير الفضة والذهب لم يكن قد تقدم فن صياغة الخيوط منها ، إنما كانت الخيوط تصنع منهما فقط .

النشاط التجارى فى العالم الإسلامى :

وكان العالم الإسلامى عالماً منتجاً وافر النشاط ، ولو أن النظم الإدارية فيه كانت أصلح مما كانت لتضاعف إنتاجه واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيه ، وقد أنتج صناع العرب فى كل ميدان تقريباً ، ولم يقصر التجار ما بين صغار وكبار فى توسيع مدى معاملاتهم التجارية . وعرفوا كيف ينظمون أمورهم المالية فيما بينهم دون حاجة إلى تدخل السلطات ، فتعاملوا بالبيع نقداً ومؤجلاً ومنجّماً على أقساط يتفق عليها ، وعرفوا « السفاتج » وهى التى نسميها اليوم « الكمبيالات » ، و « الصكوك » التى نعرفها اليوم باسم « الشيكات » ، بل إن لفظ Check الإفرنجى محرف عن لفظ « صك » العربى ، وعرفوا خطابات الضمان والحسابات المفتوحة وغير ذلك من صور التعامل المالى ، وإن لم يعرفوا المصارف أى البنوك ، لأن المصارف لا يمكن أن تقوم إلا برعاية الدولة وضمانها . وكانت ثقة التجار بدولهم قليلة ، لأن رجال الدول كانوا طامعين فى أموال التجار دائماً . وجدير بالذكر أن المصارف فى البلاد الأوروبية كانت مؤسسات فردية ، ولم تكن تقوم بعمليات واسعة النطاق ، وإنما كان يقام فى كل سوق منضدة كبيرة يجلس حولها الصرافون للقيام بالعمليات المالية ، وهذه المنضدة هى أصل البنوك الحالية ، لأن الراغب فى المعاملة مع الصرافين كان يجلس على كرسى طويل أمام المنضدة عرف باسم Bank ، وهذا هو أصل البنوك والمصارف . ولم تكن عمليات الصرف فى الأسواق الإسلامية تختلف كثيراً عن ذلك ، ولكنها تطورت فى الغرب تبعاً لتطور الظروف السياسية العامة ، فى حين أنها لم تتطور فى بلاد المسلمين لتوقف الأنظمة السياسية عن التطور .

وكان التجار ينظمون أمور التعامل فيما بينهم ، فيضمن بعضهم بعضاً فى بضاعة أو قرض أو دفع مؤجل وما إلى ذلك ، وتتولى النقابات تقديم الضمان اللازم إذا كان التاجر من ذوى الأمانة المعروفة . وفى أحيان كثيرة كان التجار يعقدون معاملات مالية ذات حجم كبير ، وكل منهم يعيش فى بلده بعيداً عن الآخر . وقد ذكر

ابن حوقل الرحالة أنه رأى عند تاجر فى أودغشت ، فى أقصى جنوبى المغرب ، صكًّا على تاجر آخر فى سجلماسة بمبلغ ٤٢ ألف دينار ، ومع أن ابن حوقل يذكر ذلك كأنه أمر غير عادى ، فإنه فى الحقيقة كان شيئاً عاديًّا بين كبار التجار ، فإنهم كانوا يرسلون البضائع الكثيرة لتباع على ذمة التجار فى البلاد البعيدة ، ويحتفظ لهم بالثمن عند أصحابهم من التجار حتى يستطيعوا التصرف فيه . وعن طريق التعاون والائتمان هذين استطاع تجار المسلمين أن يقوموا بعمليات واسعة النطاق دون حاجة إلى نقل الذهب والفضة من مكان لمكان .

وجدير بالذكر أن جزءاً كبيراً من العمليات التجارية فى العالم الإسلامى كان يتم عن طريق الحجاج وطلبة العلم والرحالة ، لأن الحاج الذى لا يملك كل تكاليف الرحلة كان يحمل معه من بلده ما يستطيع حمله من البضائع ، فإذا وصل إلى بلد آخر باع بعض ما معه واشترى بجزء من الثمن صنفاً أو أصنافاً من التى يشتهر بها ذلك الموضع وينفق على نفسه فرق الثمن ، فإذا وصل بلداً آخر قام بعملية أخرى من هذا النوع وهكذا . وإذا تصورنا أن أعضاء القافلة كانوا مئات ، وفى بعض الأحيان ألوفاً ، استطعنا أن نكوّن فكرة عن ضخامة العمليات التى كانت تقوم بها القافلة الواحدة عن طريق العمليات الصغيرة التى ذكرناها . وبهذه الطريقة استطاع الكثيرون جدًّا القيام برحلة الحج وتحمل نفقاتها ، واستطاع كثيرون آخرون القيام برحلات لطلب العلم والسماع على الشيوخ ، فأفادوا غيرهم بذلك واستفادوا . ولا ننسى هنا المثل الشائع الذى يقول : إن الحج زيارة وتجارة .

وكانت البضائع — كما ذكرنا آنفاً — تباع فى أسواق مخصصة ، فلكل بضاعة السوق الخاص بها ، يقصده من يريد من الناس ، ولكل طائفة من التجار تعمل فى صنف معين — كالجلود أو التوابل أو الأقمشة — نقابة ، وتجمع النقابات كلها نقابة كبيرة تسمى « نقابة التجار » ، يرأسها تاجر عظيم ذو مال كثير يعرف باسم « الشاهبندر » ، وهذا الرجل كان دائماً ذا مكانة مرموقة عند أهل الحكم والناس ، فقد كان يتولى تزويد أهل الحكم بما يحتاجون إليه من البضائع وبخاصة الغالية منها ، وكان فى الوقت نفسه يقوم بخدمة النقابة بالوساطة عند أهل الحكم لرفع الظلم وتخفيف وطأة رجال الإدارة . وكان يساعد « الشاهبندر » عدد من التجار يتولون معه تصريف الأمور الخاصة بطائفة التجار ، وهؤلاء هم الذين كان الناس يلجأون

إليهم للسؤال عن التجار الأجانب ومراكزهم وقدراتهم المالية ومستواهم الخلقي في المعاملة وما إلى ذلك . وكان هذا النظام موجوداً في العالم الإسلامي ، وبفضله نشطت التجارة ونشجع التجار على البيع والشراء . وكذلك كفّ الحكام أيديهم عن التجار ، نظراً للفوائد التي كانت تعود عليهم من وراء اكتساب ثقة التجار وحسن ظنهم ، ولم يكن يمد يده إلى أموال التجار إلا حاكم قصير النظر .

وكانت نقابات التجار هذه تبدو على أوضح صورها في الموانى ، حيث كانت النقابة تقوم بإنشاء المخازن للبضائع وإقامة الحراس عليها ، وفي أحيان كثيرة جدًّا كان التجار في الميناء يتعاونون على بناء السفن .

طــرق التجــارة ومراكــزها :

كانت طرق التجارة تشق العالم الإسلامي كله في كل اتجاه ، ولكن الطرق لم تكن معبدة أو مرصوفة ، وإنما هي طرق قديمة تعارف الناس سلوكها في الانتقال من بلد لبلد ، فقامت عليها المحلات الخاصة بإيواء المسافرين وتقديم الطعام لهم وما إلى ذلك ، وكل شيء كان بثمنه بالطبع .

وفي البلاد الوفيرة المياه كانت الطرق تسلك مسافات معينة تمر بمدن معروفة . أما في البلاد الصحراوية فإن طرق التجارة كانت تتبع خطوطاً تعينها آبار المياه ، وفي البلاد المأهولة العامرة كان أهل القرى ورجال الدولة يضمنون سلامة القوافل مادامت في مناطقهم ، لقاء مبالغ كانت تؤدَّى للحراس أو لشيوخ القرى . أما في الطرق الصحراوية فكانت القوافل تسير في أمان القبائل الضاربة على مراحل الطريق ، وكل قبيلة تستقبل القافلة عند حدود منازلها ويرافقها دليل من رجالها حتى تخرج من منازل القبيلة ، لقاء جُعْل يسمى « الخِفَارة » . وفي العادة كانت القوافل تقوم بالعمليات التجارية الخاصة بالقبائل النازلة على الطريق ، فتشترى منها الأصناف المنتجة محليًّا كالصوف أو النيلج أو الملح أو الجمال أو التمر ، وتحضر لها البضائع التي تحتاجها من الخارج كالأسلحة والآنية . وكانت هناك جماعات معروفة من الأدلاء يعرفون الطرق وما فيها في كل ناحية . وكانت القافلة إذا خرجت من ناحية استأجرت دليلا يسير بها مسافة معينة ، ثم يتولاها دليل آخر وهكذا . وكان الأدلاء معروفين ومضمونين ، إما من ناحية شيوخ القرى وتجارها أو من ناحية شيوخ القبائل .

وفى بعض الأحيان كانت القوافل تسير فى طرق تحرسها الدولة لأنها طرق البريد ، تقوم على مسافاتها « البُردُ » ، وهى محطات يقيم فيها موظفون تابعون للدولة موكلون باستقبال خيل البريد والعناية بها وحراسة حاملى البريد . وفى بعض الأحيان كانت ترصد فيها خيل لكى يستبدل حامل البريد بالخيل المتعبة أخرى مستريحة . ولكن ذلك كان قليلا . وجدير بالذكر أن البريد كان مخصصاً لحمل بريد الدولة فقط وبعض رجالها ، أما ما كان الناس يبعثون به من رسائل فكان الغالب أن يحمله الأفراد ويقوموا به خدمةً من بعضهم لبعض .

وكذلك كانت للملاحة البحرية الإسلامية طرقها المعروفة فى بحار العالم ، وكانت موانيهم على سواحل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وعلى سواحل بحر العرب (جنوبى الجزيرة العربية) من أعمر موانى الدنيا بالنشاط حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وكانت سفن المسلمين تصل إلى الهند والملايو وإندونيسيا والصين والفيلبين عن طريق خطوط ملاحية منتظمة معروفة ، فكانت السفن تخرج من عبادان قرب البصرة إلى سيراف إلى هرمز إلى دَيْبُل على الساحل الشمالى الغربى للهند ، ثم إلى قاليقوط (كلكتا) ، وهنا كان الميناء الكبير الذى تلتقى فيه سفن العرب المقبلة من البصرة ومن عدن . ومن عدن كانت تخرج السفن إلى سواحل شرق أفريقية فتصل إلى سفالة (موزمبيق الحالية) ومدغشقر وزنجبار (تنزانيا اليوم) وإلى بر العجم (الصومال الآن) . وكانت تخرج أيضاً إلى الهند وتلتقى وسفن المسلمين الأخرى فى قاليقوط . ومن هناك كانت تبدأ الرحلات إلى بلاد الملايو وجزيرتى جاوة وسومطرة ثم بلاد الصين ، حيث كانت للمسلمين جالية كبيرة فى خانفو (كانتون) بل وصل تجارهم إلى بكين (خان بالق) .

وقد أخرجت بلاد الخليج العربى وبلاد العرب الجنوبية — من عدن إلى حضرموت إلى عمان — أخرجت أعظم ملاحين فى تاريخ الإسلام من أمثال سليمان المهرى وشهاب الدين أحمد بن ماجد ، ولم يكن هؤلاء ربابنة بحر مهرة فحسب ، بل كانوا علماء لهم المؤلفات والدراسات الكثيرة فى علوم البحار وفنون الملاحة البحرية ، ولدينا الآن ثروة طائلة من مخطوطات ابن ماجد يعدها علماء الغرب أنفسهم من أحسن ما أُلف فى علوم البحار حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادى .

وأحمد بن ماجد هو الذى دّل الملاحّ البرتغالى فاسكو داجاما على الطريق البحرى

من مالندى على شاطىء أفريقية الشرقى إلى قاليقوط ، وقاد بنفسه السفن البرتغالية إلى هناك . و لم يكن أحمد بن ماجد يدرى أنه فتح بذلك أبواب بحار آسيا للبرتغاليين ، فجلب بذلك شرًّا بعيد المدى على تجارة المسلمين وبلادهم فى بحار آسيا .

ومن مؤلفات ابن ماجد وغيره من مؤلفينا عرفنا أن العرب هم الذين ابتكروا الإبرة المغناطيسية واستعملوها فى الاستدلال على الجهات فى البحار . لقد أخذ العرب حجر المغناطيس عن أهل الصين ، ولكنهم تنبهوا إلى أنه إذا أخذت قطعة رقيقة مستطيلة من الحديد الممغنط وعلِّقت من وسطها بخيط اتجه أحد طرفيها نحو الشمال . فكانوا يصنعون صفيحة رقيقة من ذلك الحديد على هيئة سمكة ويلقونها فى الماء فيتجه رأس السمكة نحو الشمال ، وقد قرأنا هذا الوصف عند أبى الحسن على المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » ، وحدثنا مؤلف عربى آخر هو شمس الدين أحمد بن محمد المقدسى بأن ملاحى المسلمين فى بحار آسيا كانوا يستعينون بخرائط بحرية تعرف عندهم باسم « الدفاتر » ، وكانوا يحملون معها كراسات تفسر ما فى الخرائط تسمى « راهماجانات » أى المرشدات البحرية .

المعامـــلات الماليـــة :

لا يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام عن النقود الإسلامية ونظم المعاملات المالية ، فهما بابان واسعان من الأبواب التى أبدت فيها أمم الإسلام والعروبة كفاية ممتازة ، وسنكتفى هنا بذكر بعض النقط الأساسية فى هذا الميدان الواسع ، ولا بد أن ننبه إلى أن الكثير من تفاصيله مازالت قيد البحث والدراسة .

كان أساسُ المعاملات المالية الدينار الذهبى والدرهم الفضى . والوزن الأساسى للدينار مثقال من الذهب الخالص ، أى أربعة جرامات وربع الجرام ، وكان وزن الدرهم مثقالا أيضاً ولكن من الفضة ، والنسبة بين قيمة الدينار وقيمة الدرهم هى النسبة بين قيمتى الذهب والفضة ، وكان من الطبعى أن تختلف هذه النسبة بحسب ما كان فى كل من الدرهم والدينار من الفضة والذهب الخالصين . فأما الدنانير فما كان الناس يقبلون فى عيارها الذهبى أى نقص ، فإذا نقص وزن الدينار حبة واحدة عدوه زيفاً وأخذه الصيارفة بنسبة ما فيه من الذهب و لم يقبلوه على أنه دينار أصلا . وكان أولئك الصيارفة يعرفون الذهب وعياره بنظرة واحدة أو بحكه بمبرد دقيق .

ولم يكن الناس يشترون الدنانير للتعامل بل للادخار ، فيما عدا الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة . ولهذا فلم تكن الدنانير جارية فى الأسواق للتعامل ، وإن كانت أساس النظام النقدى .

أما المعاملة الجارية فكانت بدراهم الفضة ، والفضة لا تحمل التداول فى الأبدى إذا خلط بها معدن آخر كالنحاس أو البرونز ، ولهذا فقد كان المفروض أن الدراهم — حتى أعلاها عياراً — ليست صافية ، وكان العرف أن الفضة لابد أن تمثل ٧/١٠ من الوزن الصافى للدرهم ، ولهذا فلم تكن نسبة قيمة الدرهم إلى الدينار هى نسبة قيمة المعدنين النفيسين أحدهما إلى الآخر ، بل اختلفت بحسب ما فى الدرهم من الفضة . وفى أول الأمر قدروا الدينار الصحيح بأربعة عشر درهما صحيحة ، ثم نقصت قيمة الدراهم الجارية فى المعاملات حتى وصلت نسبة الدرهم إلى الدينار إلى ١ : ٢٤ ، وكان هذا هو العرف الجارى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ثم انفرط العقد وهبطت النسبة إلى ١ : ٤٠ ، وربما أكثر ، وأخذت الفضة الصحيحة تختفى من التعامل ، ولم تبق إلا الزيوف .

وعلى أى الأحوال فقد مرت بالعالم كله أزمة فى الذهب والفضة بلغت ذروتها فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . فقد نضبت المناجم المعروفة وأخفى الناس ما لديهم من الذهب والفضة ، ثم انفرجت الأزمة فى القرن الحادى عشر بالعثور على مناجم فى وسط أوروبا وشمالها ، ونتيجة لفتح المرابطين للطريق إلى أفريقية المدارية من ناحية الغرب ، وكانت مياه أنهار أفريقية المدارية تحمل كمية لها قدرها من التبر ، فاعتمد الناس على ذلك المنبع الجديد فى بلاد الإسلام ، ولهذا استطاع « المرابطون » و « الموحدون » من بعدهم إصلاح العملة وتصحيح عيارها ، وأصبح الدينار المرابطى من أكثر العملات احتراماً فى الشرق والغرب ، وقد عُرف هناك باسم Maraveda أى « مُرابطى » ، وجرى به التعامل فى العالم كله ، بل لقد عثرنا على دنانير مرابطية فى العالم الجديد .

أما « الفلوس » — وهى العملة النحاسية — فلم تظهر فى العالم الإسلامى إلا أيام السلطان الأيوبى الكامل ابن العادل (١٢١٨ م — ١٢٣٨ م) ، فقد كانت نتيجةُ النفقات الباهظة التى تحملتها مصر والشام للقيام بما احتاج إليه صلاح الدين للقضاء على قوة الصليبيين أنْ شح الذهب والفضة فى الأسواق بصورة عامة ،

واختفت الدراهم من الأسواق ، وسكّت حكومةُ الكامل عملةً نحاسية عرفت بالفلوس — واحدها فَلْس — وطرحتها فى الأسواق ، فاختفى المعدنان النفيسان من مجال التعامل تماماً . وباختفائهما اختفى الأساس القانونى لقيمة الفلوس نفسها ، فبينما كان السعر القانونى ٤٨ فلساً للدرهم ، هبطت قيمة الفلوس وسعرها حتى وصل الدرهم إلى ١٥٠ فلساً فى العصر المملوكى الأول ، أى أن العملة الجارية هبط سعرها إلى الثلث ، ولم بعد من الممكن أن تهبط أكثر من ذلك ، لأن وزن النحاس فى مائة وخمسين فلساً كان يساوى أكثر من درهم . ومن حسن الحظ أن قيمة النحاس كمعدن لم تكن قد تكشفت بعد ، وكان أقصى ما يصنعه الناس منه الأوانى وبعض أدوات البيوت ، فظلت الفلوس فى التداول ، وهى مع هبوط قيمتها وثقل وزنها وسيلة تعامل على أى حال .

ونتيجة لهذا عاد الناس إلى التعامل على أساس المقايضة ، فالفلاحون مثلا لم يكونوا يحرصون على الحصول على الفلوس ، وإنما كانوا يبادلون محصولاتهم الزراعية بما يحتاجون إليه ، فيأخذون القماش وبدفعون ثمنه قمحاً أو فولا أو شعيراً أو بيضاً . وأخذت الدولة معظم ضرائبها من الفلاحين محصولات عينية ، ودفعت جانباً كبيراً من الرواتب محاصيل ، وفى بعض الأحيان اتخذت أرغفة الخبز أساساً لتقدير جانب كبير من راتب الموظف ، وقد عرف هذا الجانب بـ « الجراية » ، فكان كل موظف يتقاضى جراية يومية من الخبز إلى جانب راتب من الفلوس .

والميزة الاقتصادية الوحيدة فى تلك العصور الوسطى المتأخرة ، أى ابتداء من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، هى أن مقادير الذهب والفضة الموجودة فى البلاد كانت تظل فيها ، فقد كانت البلاد لا تستورد من الخارج إلا قليلا من الأشياء ، ولم يحدث الاستيراد على نطاق زاد على الإيراد إلا فى أواخر الدولة المملوكية الثانية ، عندما توقفت تجارة الهند فانقطع عن البلاد أكبر مورد للذهب والفضة ، وفى الوقت نفسه استمر المماليك يشترون مماليك وسلعاً أخرى من بلاد الغرب ، كالحديد والنحاس والأخشاب والأسلحة لاستعمالها فى حاجاتهم الخاصة ، فتسرب مخزون الذهب والفضة عند المماليك وفى خزائن الدولة بسرعة ، وكانت نتيجة ذلك إفلاس مصر والدولة المملوكية عامة من أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . وعندما استولى الأتراك العثمانيون على مصر لم يكن فى خزائن المماليك مدخرات من هذين المعدنين النفيسين .

وقد عرف المسلمون كلّ صور التعامل المالي التي ظهرت في العصور الحديثة ، ولكن في صورة بدائية وغير منظمة تنظيماً تامًّا ، فكان الصراف في السوق يقوم بالكثير من أعمال البنوك الحالية ، فكان يقوم بتغيير العملة سواء أكانت محلية أو أجنبية ، ذهبية أو فضية . وكانت العادة أن التاجر المعروف إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدله رقاعاً أو أوراقاً عليها طابع (ختم) الصراف يسجل فيها الحد الأقصى الذي يستطيع التاجر أن يتعامل به ، وبهذه الرقاع يشترى ما يريد ويعطى البائع منها ما يساوى قيمتها . ويذهب الناس بهذه الرقاع إلى الصراف ليأخذوا قيمتها النقدية ، وكان الناس يفعلون ذلك تفادياً لحمل مقادير كبيرة من العملة معهم أثناء وجودهم في السوق وتعرضهم للصوص في الزحمة ، وكذلك ليوفروا الوقت الذي يضيع في فحص العملة للتأكد من سلامتها في كل حالة شراء . وفي آخر مدة السوق يعمل التاجر حسابه مع الصراف ويأخذ المتبقى له أو يدفع الزائد عليه ، وهذه أشبه بعمليات « خطابات الضمان » .

وكان « الجهابذة » — جمع جهبذ — أوسع ثروة وأقدر من الصرافين على القيام بالعمليات المالية الكبيرة المعقدة . وكان بعض التجار يودعون عند الجهبذ عشرات الألوف من الدنانير ويأخذون عنها رقاعاً يتعاملون بها على مدى طويل ، وفي بلاد شتى . وكان الجهبذ يقوم بعملياته في بيته أو دكانه ، حيث يعمل في خدمته كتبة وحاسبون ، وتوجد عنده خزائن . أما الصراف فكان يجلس على منضدة في السوق . ومعنى ذلك أن « الصراف » كان أدنى مرتبة من « الجهبذ » . ومن الممكن اعتبار الجهبذ مؤسسة مالية تقوم بعمليات واسعة المدى وترتبط بمؤسسات مماثلة في بلاد أخرى ، ويقوم بين هذه المؤسسات نظام متعارف في الصرف والدفع ، فكان التاجر يشترى في البصرة مثلا ويدفع الثمن في صنعاء أو القاهرة عن طريق « الجهابذة » .

وكان الجهابذة يقومون في بعض الأحيان بالعمليات المالية للأمراء وكبار الحكام والأغنياء ، ممن كان من العسير عليهم أن ينقلوا مبالغ مالية كبيرة من مكان لمكان أو يحتفظوا بأموالهم في بيوتهم خوفاً من اللصوص أو رجال السلطة ، فكانوا يكتبون « رقاعاً » — أي أوامر صرف — بأي مبلغ ، فيقبض الناس قيمتها من « الجهبذ » في المكان الذي يحدَّد في الرقعة ، ثم يسوّى الرجل حسابه مع الجهبذ فيما بعد ، وكان الجهابذة يقومون بمهمة الوكلاء الماليين لكبار التجار والولاة ، فكان التاجر إذا أراد السفر أخذ معه « سَفْتَجَةً » — أي خطاب ضمان — يبين فيها المبلغ الذي

يستطيع التاجر التعامل فى حدوده . وبهذه « السفتجة » وفى حدود مبلغها ، يستطيع التاجر أن يشترى ما يشاء ويوقع أوراقا بقيمة ما يشترى ، ويتولى التجار تسوية الحساب مع الجهبذ فيما بعد ، وكان ذلك كله يتم بضمان من نقباء التجار فى كل بلد .

وكان لمحمد بن طغج الإخشيد والى مصر « جهابذة » فى بغداد ، فكان يكتب للناس سفاتج فى الفسطاط ، فيقبضون مبالغها فى بغداد ، وقد اعتمد الرحالة الفارسى ناصر خسرو (ت حوالى ٤٥٢ هـ) فى بعض رحلاته على خطابات ضمان كتبها تجار من أصدقائه إلى وكلائهم فى بلاد بعيدة ليدفعوا له ما يحتاج إليه من المال .

وفى بعض البلاد ذات النشاط التجارى الواسع ، كالبصرة وأصفهان وحلب ، كان للصرافين سوق خاصة تتم فيها كل العمليات المالية التى يحتاج إليها التجار .

وهناك رأى سائد عند مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب يقول إن معظم الجهابذة والصرافين فى بلاد الجناح الشرقى لدولة الإسلام كانوا من اليهود . وهذا غير صحيح ، لأن أعاظم الماليين فى العالم الإسلامى كانوا — فى الغالب — من اليمنيين والحضارمة والبصريين والفرس . فقد اشتهرت هذه الشعوب بالكفاية المالية الممتازة عند تجارها ورجال المال فيها ، وهذا لا يمنع القول بأن بعض الصيارفة والجهابذة فى بلاد الإسلام كانوا يهوداً ، ولكنهم لم يكونوا أمهر من غيرهم ولا كان لهم احتكار لشئون المال .

وقد كان من المنتظر أن نتركز العمليات المالية فى بلاد الإسلام فى أيدى النصارى واليهود ، بسبب القيود الكثيرة التى وضعها الفقهاء على الصرف — وهو التعامل المالى — ليسدوا أصغر الثغرات على الربا والمرابين ، ولكن الذى حدث أن تجار المسلمين استطاعوا أن يقوموا بكل العمليات المالية دون أن يتعدوا الحدود التى وضعتها كتب الفقه . أما فى أوروبا فقد سيطر اليهود على أكبر جانب من النشاط التجارى خلال العصور الوسطى ، لأن الكنيسة الكاثوليكية حرمت الربا الفاحش ، وعدّت الاشتغال بالتجارة والتعامل المالى من الأمور التى تمس سلامة الإيمان وتشوب إخلاص المؤمن لدينه ، وضيقت الخناق على التجار ، حتى وُضِعَ التجار — فى بعض الأحيان — فى زمرة اللصوص والخارجين على الدين . وكانت نتيجة ذلك أن تُرِكَ ميدانُ التجارة والمال لليهود زمناً طويلاً ، وكان معظم اليهود الذين تولوا هذه الأعمال

فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى من أصول أندلسية ، لأن يهود الأندلس كانوا يعيشون بين المسلمين ، فكانوا متعلمين ؛ فى حين أن القليلين من اليهود الذين بقوا فى أوروبا من أيام الدولة الرومانية كانوا جهلة غير متعلمين .

وكما تمتع اليمنيون والحضارمة والعمانيون وأهل الخليج وأهل البصرة والإيرانيون بسمعة مالية عظيمة فى شرق المملكة الإسلامية ، فقد امتازت بعض الجامعات الإسلامية فى هذا الباب فى غربها ، وأهم هؤلاء هم أهل الأندلس ، وبخاصة أهل السواحل الشرقية والجنوبية ، فكان أهل موانى مُرْسِيَة والْمَرِيَّة ومالِقَة وبَلَنْسِيةَ وبَجَّانة يسيطرون على أكبر جانب من النشاط التجارى فى غرب البحر الأبيض المتوسط كله ، وكانت جالياتهم منتشرة فى كل الموانى الإسلامية حتى طرابلس والإسكندرية ، بل قامت هذه الجاليات بإنشاء موانىء كثيرة فى المغرب مثل الجزائر ووهران وتِلِمسّان ومرسى الدجاج . ومن هنا كانت العملة الأندلسية هى العملة السائدة فى نواح كثيرة من غرب البحر الأبيض المتوسط لسلامتها وصحة وزنها .

وفى بلاد المغرب اشتهر القيروانيون بمهارتهم فى تنظيم القوافل التجارية الضخمة التى تعبر الصحراء إلى أفريقية المدارية . أما أهل السوس — وهو الجزء الجنوبى من المغرب الأقصى — فقد اشتهروا بالمهارة التجارية فى كل مكان ، وإليهم يرجع الفضل فى نشاط التبادل التجارى بين العالم الإسلامى وشمال الصحراء الكبرى وجنوبها . وما زال السوسيون يتمتعون بهذه السمعة الطيبة إلى الآن فى كل نواحى المغرب .

غير أننا ينبغى أن نذكر أن أحجام المعاملات المالية فى بلاد الدولة الإسلامية ارتبطت بدرجة الأمان التى استطاعت النظم السياسية السائدة أن توفرها لرعاياها ، ولم تكن تلك الدرجة عالية فى معظم الأحيان ، لأن تلك النظم لم تكن عاجزة عن تأمين الأموال والمتاجر فحسب ، بل كان رجالها خطراً على التجارة والأموال ، لا يتورعون عن مدّ أيديهم إلى أموال الناس — وبخاصة التجار — ظلماً وعدواناً . وما حققه التجار بالنسبة إلى أحوال الدول التى عاشوا فى ظلها كان كثيراً جدًّا ، فقد قاموا — برغم كل شىء — بأكبر نصيب من النشاط الاقتصادى العالمى من منتصف القرن السابع إلى نهاية العصور الوسطى .

وقد خيّم على العالم الإسلامى فى أواخر العصور الوسطى ركود اقتصادى عام ، يرجع إلى أن مستوى النظم السياسية التى تولت الحكم كان دائماً فى هبوط . وإذا

أخذنا الجناح الشرقي للعالم العربي مثلا ، وهو الجزء الذي حكمته دولة واحدة ابتداء من العصر الفاطمي ، أي منذ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، وجدنا أن الأحوال المالية لمصر والشام والحجاز واليمن كانت أحسن في العصر الفاطمي مما كانت عليه في العصر الأيوبي الذي تلاه . وهذا بدوره أحسن من العصر المملوكي الأول ، والحال في هذا الأخير أحسن من أحوال العصر المملوكي الثاني ، فإذا تقدمنا في العصر التركي وصلنا إلى حضيض الانهيار الاقتصادي والسياسي .

وقد انتهى عصرُ المماليك البحرية نهايةً هزيلة بموت آخرهم زين الدين أمير حاج سنة ١٣٨٢ م ، وحل محلهم عبيدهم المماليك البرجية الذين لم ينته حكمهم إلا بالغزو العثماني سنة ١٥١٧ م . وكان عصرهم عصر اضمحلال سياسي وخلقي أيضاً . وقد قدّر خراج مصر — أي إيراداتها — سنة ١٢٩٨ م (بعد بدء حكمهم بست عشرة سنة) بمبلغ ١٠,٨١٦,٥٨٤ ديناراً ، وحوالي سنة ١٥٢٠ م ، أي بعد انتهاء حكمهم بثلاث سنوات فقط ، كان الإيراد ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار فقط ، أي أن المستوى الاقتصادي للبلاد التي ابتليت بهم هبط إلى العشر ، وهم المسئولون عن ضياع تجارة الهند من أيدي المسلمين واتجاه الغربيين إلى البحث عن طرق أخرى يصلون عن طريقها إلى آسيا ويحصلون على تجارتها ، وهذا البحث أدى بهم إلى الكشوف الكبرى التي قفزت بالغرب الأوروبي إلى الأمام قفزات لا تصدَّق ، في حين سارت بلادنا في طريق تأخرٍ لم يكن منه بد .

الـدول الإسـلاميـة والاقتصـاد :

في الشرق والغرب على السواء كانت الدول في أوائل العصور الوسطى حرباً على الاقتصاد ، وفيما يتعلق بنا نحن المسلمين — نقول إن كل الدول — دون استثناء — ابتداء من العصر الأموي كانت وظيفتها نهب شعوبها وإفقارها وحرمان الناس من وسائل العمل والإنتاج ، وقد كانت سياسة الأمويين رفيقة بالناس بعض الشيء في بلاد الشام التي اعتبروها — بصورة عامة — ملكاً للبيت الأموي وتقاسموا خير أراضيها ضياعاً وإقطاعات ، واعتبروا أهلها موالي ومقطعين ، ولكن في مصر مثلا كان مجموع الخراج الذي تأخذه الدولة أربعة ملايين أو أربعة ملايين ونصف المليون من الدنانير في السنة ، وهذا هو الحد الذي وقف عنده الفلاح المصري الذي عرف

بتجارب السنين أن يقرر ماذا يدفع للدولة وكيف يمنع الدولة من أن تأخذ أكثر ومن زمن بعيد جدا قال مؤرخ رومانى لرجال دولته : « لا تحاولوا أن تأخذوا من الفلاح المصرى أكثر مما يريد هو أن يدفع ، فهو ماهر جدا هنا ، فلتأخذوا منه ما يدفع » .

والحقيقة أن الفلاح المصرى كان يعرف دائماً كيف يتفق مع جابى الضرائب على أن يتخلص من أى زيادة فى الضرائب ، فإذا كان يدفع خمسة قروش عن النخلة فى السنة ، ثم زاد الحاكم ضريبة النخل إلى عشرة عرف الفلاح كيف يتفق مع جابى الضرائب على إنقاص عدد النخل إلى النصف لكيلا يدفع فى النهاية إلا ما كان يدفعه قبلا . ولكن هذا لا يمنع من القول بأنه كان يدفع فى العادة ضعف المقرر ، فإذا كنا نقرأ أن مصر كانت تؤدى أربعة ملايين دينار فى السنة لدولة الخلافة فمعنى ذلك أنها كانت تدفع ثمانية ملايين أربعة تذهب لخزانة الدولة وأربعة كانت تضيع فى الطريق ما بين رشا وهدايا وسرقات شتى . وكانت مصر هنا أحسن من غيرها . فقد كانت العادة أن يدفع الناس ما بين خمسة وستة أضعاف المقرر ، ومعنى ذلك أن الدولة ورجالها كانوا ينهبون الناس نهباً .

وفى أوروبا تغير الحال مع الزمن ، فقد أدرك الملوك هناك أنه من مصلحتهم أن يدعوا أموالا فى أيدى الناس ليعملوا ويربحوا وتزداد أموالهم فيدفعوا أكثر ، ومعنى ذلك أنهم أدركوا الحقيقة التى أدركها آدم سميث وأثبتها فى كتابه « ثروة الأمم » The Wealth Of Nations من أن ثروات الأمم لا تقاس بما يملكه الملوك أو الحكام ، وإنما بما يملكه الحكام والناس ، بل إن ما يملكه الناس أهم ، لأن الملوك لا يستطيعون الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، ومن ثم فهم عاجزون عن تنمية الثروة أما الشعوب فهى قادرة على ذلك ، ومن ثم فإنه كلما زادت الثروة فى أيدى الناس زادت إمكانيات النمو الاقتصادى للبلد ، فإذا نما اقتصاد البلد نمت تبعاً لذلك ثروات الملوك ، لأن تلك الثروات تأتى من الضرائب التى يدفعها الناس . وكلما كان الناس أغنى كانت ضرائبهم أكثر .

هذه الحقيقة لم يتبينها حكام المسلمين قط ، وكل حكومات المسلمين فى العصور الماضية قامت على أساس استنزاف أموال الرعية ونهب أقصى ما تستطيع من أموال الناس تحت أسماء ضرائب معظمها غير شرعية وغير إنسانية فى أحيان كثيرة ، وأحيانا

كان يتم الاستيلاء على أموال الناس عن طريق المصادرة والنهب السافر دون حياء . ومن المعروف أن الذين يستطيعون إقامة الأعمال وإنشاء المتاجر والأموال يكونون دائماً من أصحاب الذكاء والقدرة على تنظيم العمل وسياسة الناس والحساب والتقدير ، فكان هؤلاء إلى جانب أصحاب الفكر والعلم والاطلاع هدف الحكام يصادرونهم ويستحلون أموالهم ويسجنونهم ويقتلونهم خوفا على عروشهم أو طمعا فى أموالهم ، ومن ثم فقد حرمت أمم الإسلام فى الغالب من خيرة مواهبها ولم يعش إلى جانب الملوك إلا الصغار والمسالمون والسلبيون .

ولا ننسى كذلك أن الزراع والعمال كانوا يحملون عبء ضرائب باهظة جعلتهم يكتفون بالعمل الضرورى لسد الرمق دون نظر إلى ما سوى ذلك لأن أى ربح زائد على الحاجة يعرضهم للمتاعب والمطالبات . وأصدق مثال لذلك الفلاح المصرى الذى كان يستطيع أن يستخرج من أرضه خيراً كثيراً ويعيش فى مستوى طيب ويؤدى للدولة إلى جانب ذلك حقها ، ولكنّ طمع الحكام والجباة اضطره إلى القنوع ببيت تعيس من الطين ليس فيه إلا الضرورى جدا من مطالب الحياة حتى ينجو من أذى الحكام ، لأنه ليس فى بيته شىء يمكن أن يكون محلاً لطمع أحد . وفى هذا الشكل الحزين من الفقر وجد الفلاح أمانه .

ولم تكن أحوال العمال والفلاحين فى غير مصر أحسن حالاً ، وكل ذلك نشأ عن ظلم الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك ووزراء ورجال خراج أو جباة ضرائب بينما كان عالم الغرب قد تخلص من نكبة الفقر منذ انتهى أهله إلى حقيقة أن « الثروة الحقيقية للأمة هى ما يملكه الناس لا ما يملكه الحكام فحسب ، وتحالف الملوك مع التجار والعمال والزراع على أمراء الإقطاع فنشأت المدن ، وهى مراكز العمل والتجارة وحصل أهلها من التجار والصناع على امتيازات وحقوق من الملوك ، بل أنشأت المدن لها قوات عسكرية لحماية أهلها وأموالهم من العدوان . وفى هذه المدن التى بدأت تظهر من القرن السادس عشر الميلادى نشأت الحضارة الأوروبية الحديثة التى قامت على عقلية عملية وتجارية وصناعية ، ووضعت تشريعات خاصة بها كانت هى أساس القوانين المدنية الحديثة . وفى هذه الظروف أثرى أهلها وكثرت أموالهم وأزهرت أحوالهم .

وفى هذه الظروف زادت رؤوس الأموال فى الغرب ونشأت الصناعات وتطورت

العلوم وأخذت وجهة عملية ، بمعنى أن العلوم فيها اتخذت وجهة عملية وخرجت من نطاق الفكر النظرى المحدود فاتجهت الجامعات إلى دراسة العلوم والطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والتجارة وخلال القرن الثامن عشر الميلادى دخلوا فى عصر الانقلاب الصناعى الذى نشأت معه الصناعات الضخمة فى الحديد والنحاس والمعادن وظهرت الآلات وتضاعف الإنتاج وكثرت رؤوس الأموال ونشأت جماعات العمال ، وفى القرن التاسع عشر الميلادى دخل العصر الصناعى فى دور النضج وتطورت الحكومات إلى النظام الجديد . ومن بين الصناعات التى أزهرت كانت صناعة الآلات الحربية والأسلحة النارية بشتى مقاييسها من المسدسات والبنادق إلى المدافع ، ونشأت الجيوش الحديثة التى تستطيع الغزو والفتك والاستعمار ، ونشأت كذلك البواخر والسفن والبوارج المسلحة بالمدافع الضخمة ، وأنشئت لذلك كله المدارس والمعاهد والأكاديميات .

هذا كله تم بينما كان العالم الإسلامى نائماً فى ظلمات العصور الوسطى ، لأن الحكومات أفقرت الشعوب ثم افتقرت هى بدورها وأصبح الملوك لا يجدون الأموال الكافية لجندهم المرتزقة . وخير مثال لذلك الدولة العثمانية التى كبرت وتضخمت على غير أساس شعبى أو قاعدة علمية . فأصبحت فى النهاية طبلاً أجوف ضعيفاً يتهاوى أمام ضربات الروس والمجر والانجليز والفرنسيين .

لقد فوجىء العالم الإسلامى بهذه القوة الهائلة تواجهه وتنزل به الضربات وهو عاجز حتى عن الدفاع عن نفسه . وكان ما سنحكيه فى فصل عصور الركود من تدهور محزن وبشع فى أحواله وانهيار حكوماته وضياع دوله ثم تعرضه للاستعمار .

وذلك كله نشأ عن السياسة المالية المخربة التى سارت عليها دول الإسلام منذ البداية ، فهذه السياسة انتهت بإفقار الشعوب من ناحية وأدت إلى وقوعها فى مهاوى الجهل والعلم النظرى الذى لا ينفع من ناحية أخرى . وذلك كله أتى من أن المشرعين غاب عنهم — عندما قامت دولة الخلافة — أن يحددوا مدة حكم الحاكم ومجال نفوذه . فانتهى الأمر إلى الاستبداديات التى رأيناها ، وهذه هى سبب البلاء الأكبر كما رأينا ، وهى التى أوقعت عالم الإسلام فى عصور الركود .

خلاصة :

من البدهى أننا لا نستطيع — فى فصل واحد — أن نتناول كل المسائل المتعلقة بالأحوال الاقتصادية لعالم الإسلام خلال تاريخه الطويل ، وبخاصة أن الأبحاث

والدراسات المتعلقة بالنواحى الاقتصادية قاصرة جدًا ، بل هى ما زالت فى مهدها فيما يتعلق بماضى الشعوب الإسلامية ، ولهذا فقد اكتفينا بالحديث عما رأينا أنه يمثل الموضوعات الرئيسية لمثل ذلك البحث ، وكان الجهد متجهاً نحو إعطاء صورة عامة عن الأحوال الاقتصادية فى بلاد المسلمين ، والنشاط الذى قامت به فى ذلك المجال جماعاتُ السكان المختصة بشئون المال والاقتصاد والتجارة .

فبدأنا بالكلام عن التجارة والتجار ، فأعطينا فكرة عامة عن النشاط التجارى العام فى عالم الإسلام مع الإشارة إلى تلك الشعوب الإسلامية التى امتازت بنشاط تجارى ، سواء كان بريًّا أو بحريًّا ، وتكلمنا عن التجار فى العالم الإسلامى وكيف كانوا يكوّنون مجموعات متخصصة من الناس فى المدن والموانى ، يتعاونون فيما بينهم على تزويد الناس بما يحتاجونه من الحاصلات والمصنوعات ، ولهم فى ذلك أساليب متفق عليها وتقاليد مرعية بينهم ، مهما اختلفت بلادهم . وتحدثنا عن الأقمشة على اعتبار أنها كانت أكبر مادة من مواد التعامل التجارى ، فتكلمنا عن مراكز صناعة النسيج فى العالم الإسلامى ، سواء فى مصر أو إيران أو العراق أو اليمن ، وما اختصت بأنواعه كلُّ ناحية منها ، وركزنا الكلام على صناعة نسيج الكتان فى مصر ، والقطن فى إيران ، والحرير فى العراق واليمن . وليس معنى ذلك أن كل بلد من هذه البلاد اختص بنوع معين من النسيج لا يصنع غيره ، فالحقيقة هى أن النسيج كان يصنع فى كل بلاد الإسلام ، أما ما ذكرناه فيعين ناحية الامتياز فقط لهذه الناحية أو تلك .

وتكلمنا عن النشاط التجارى فدرسنا أحوال التجار وتنظيماتهم والأساليب التى كانوا يجرون عليها فى تسيير أمورهم ، سواء من ناحية الحصول على البضائع وتصريفها أو من ناحية إدارة الأعمال نفسها .

وأعقبنا ذلك بالكلام على المعاملات المالية ، فتحدثنا عن النقود التى كانت جارية فى التداول فى العالم الإسلامى ، وحاولنا تقدير قيمتها ، وأعطينا فكرة عن مستوى الأسعار فى تلك العصور .







مراجـــع مختـــارة

أصول :

ـ ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨ م) : « الكامل فى التاريخ » ، المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٣٣ .

ابن بعرة ، منصور بن بعرة الذهبى الكاملى : « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » بتحقيق محمد فهمى ، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى (ت ٦١٦ أو ٦١٧ هـ/١٢١٩ ـ ١٢٢٠ م) : « رحلة ابن جبير » بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .

ـ ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى : « كتاب صورة الأرض » ، جزءان ، بتحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

ـ ابن خُرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : كتاب « المسالك والممالك » بتحقيق دى جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) : « المقدمة » ، بيروت ١٩٦٧ .

ـ ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ م) : « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، جـ ٤ ، ٥ القاهرة ١٨٩١ .

ـ ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد (ت ٩٢١ هـ/١٥١٥ م) :
« كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد » ، بتحقيق فيران .
ـ « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » (مخطوطة باريس) .
وانظر عن مخطوطات مؤلفات ابن ماجد ، كتاب د . أنور عبد العليم فيما يلى .

– أبو الفدا ، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة : « المختصر في أخبار البشر » ، القاهرة ١٨٩٤ .

– أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٩٢ هـ/٨٠٧ ـــ ٨٠٨ م) : « كتاب الخراج » .

– الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٤ م) : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » مأخوذة من كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، بتحقيق رينهارت دوزي REINHARDT DOZY ودي جويه DE GOJE ، ليدن سنة ١٨٦٦ .

– أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، نشرها وحققها أدولف جروهمان ، وترجمها إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، ج ١ (القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ (١٩٥٦) ، ج ٣ (١٩٦٢) .

– بزرك بن شهريار : « عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره » ، بتحقيق فان دير ليث VAN DER LYTH ، ليدن ١٨٨٨ (أعادت طبعه مكتبة المثنى في بغداد ١٩٦٦) .

– البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر : « كتاب النقود » ، نشر هذه القطعة من كتاب « فتوح البلدان » الأب أنستاس ماري الكرملي في كتابه « النقود العربية وعلم النُّمِّيَّات » (أي قطع النقود) القاهرة ١٩٣٩ .

– الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : « كتاب التبصر بالتجارة » بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب ١٩٣٥ .

– الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : « كتاب الوزراء والكُتّاب » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٥ .

– الحكيم ، أبو الحسن علي بن يوسف (النصف الثاني من القرن ٨ هـ/القرن ١٤ م) : « الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة » ، بتحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ .

– الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ ـــ ١٤٩٥ م) :

« الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، نشر المواد الخاصة بالأندلس منه ليفى بروفنسال ، ليدن ــ القاهرة ١٩٣٦ .

ــ الخوارزمى ، محمد بن أحمد بن يوسف : « كتاب مفاتيح العلوم » القاهرة ، ١٩٢٥ .

ــ الدمشقى ، أبو الفضل جعفر بن على (ت ٧٢٦ هـ/١٣٢٥ م) : « محاسن التجارة » ، القاهرة .

« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » ، بتحقيق ميرن MEHREN ليبزج ١٩٢٣ .

ــ سلسلة التواريخ بتحقيق رينو RENAUD .

ــ سليمان التاجر (كتب حوالى ٢٣٧ هـ/٨٥١ م) : « رحلة التاجر سليمان » بتحقيق جابريل فيران GABRIEL FERRAND ، ١٩١٢ .

ــ سهراب المعروف بابن سرابيون : « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة » بتحقق هانز فون مجيك H . VON MZIK (فيينا ١٢٢٩ . أعادت طبعه مكتبة المثنى فى بغداد) .

ــ السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن : « تاريخ الخلفاء » ، القاهرة ١٩٣٢ .

ــ الشابشتى ، أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨ هـ/٦٩٦ م) : « كتاب الديارات » ، بيروت ١٩٦١ .

ــ قدامة بن جعفر ، أبو الفرج الكاتب البغدادى (ت ٣٢٧ هـ/ ٩٤٨ م) : نبذة من « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » بتحقيق دى جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

ــ القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) : « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣ .

ــ الماوردى ، أبو الحسن على بن حبيب البغدادى البصرى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) : « الأحكام السلطانية » ، القاهرة ١٨٨١ .

ــ المسعودى ، أبو الحسن على (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م) : « كتاب مروج الذهب » ، طبعة باريس (١٨٦١/١٨٧٧) . و « كتاب التنبيه والإشراف » ، (القاهرة ١٨٣٨) .

ــ المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت حوالى ٣٨٨ هـ/٩٧٧ م) :

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٠٦ (أعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد) .

– المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ، القاهرة ، ١٨٥٤ ، وأعيد طبعه بعد ذلك .

« إغاثة الأمة بكشف الغمة » بتحقيق زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .

« كتاب شذور العقود فى ذكر النقود » ، نشره أنستاس الكرملى فى كتابه الآنف الذكر ، ١٩٢٦ .

– ياقوت الحموى : « معجم البلدان » ، طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦ .

– اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) : « كتاب البلدان » .

مؤلفات حديثة ومترجمات إلى العربية :

– آدم ميتز A. MEZ « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، فى جزءين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ .

– أنور عبد العليم : « ابن ماجد الملاّح » (سلسلة أعلام العرب رقم ٦٣) ، القاهرة ١٩٦١ .

– بلاشير ، ريجيس R. Blachère : « منتخبات من آثار الجغرافيين العرب » ، باريس ١٩٣٦ .

– جورج فضلو حورانى : « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٦٧ .

– حافظ وهبة : « جزيرة العرب فى القرن العشرين » ، القاهرة ١٩٣٠ .

– حسين فوزى : « حديث السندباد القديم » ، القاهرة ١٩٤٣ .

– حسين مؤنس : « تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس » ، مدريد ١٩٦٧ .

– كراتشكوفسكى (إغناطيوس يوليا نوفتش) KRACHKOVSKI : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، فى جزءين ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٩ .

– نفيس أحمد : « جهود المسلمين فى الجغرافيا » ، تعريب فتحى عثمان ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

– نقولا زيادة : « الجغرافيا والرحلات عند العرب » ، بيروت ١٩٥٠ .
– يسرى عبد الرازق الجوهرى : « دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية » ، القاهرة ١٩٦٠ .

مراجـع غيـر عربيـة :

AHMAD ZAKI PASHA : Une Seconde Tentative Des Musulmans Pour Découvrir , L'Amérique , Dans 'Bulletin De L'Institut D'Egypt' , 1921 .

AHMAD ZAKI WALIDI : Der Islam Und Die Geographische. Wis - Senschaft , Geographische Zeitschrift . 1934 .

DE La RONCIERE , CHARLES : La Découverte De L'Afrique Au Moyen - Age Cartographes Et Explorateurs , Le Caire 1924 - 1925 .

DUBLER . CESARE . : Abu Hamid El Granadino yu Relacion De Viaje For Tierras EURO - Asiaticas . Madrid 1953 .

REINAUD , M . : La Géographie D'Abul - Fida , 2 Vol . Paris , 1922 .

FERRAND , GABRIEL : Le Tuhfat Al - Albab De Abu Hamid Al And - Alusi , Paris , 1925 .

HEYD , W . Histoire Du Commerce Au Moyen - âge , Paris , 1885 - 86 ; Reprint 1967 .

JWAIDEH , WADIE : The Introductory Chapters Of Rakut's Mudjam Al - Buldan , Leiden , Brill , 1959 .

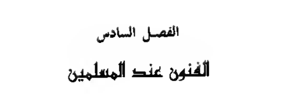
KRAMERS , J . H . : Geography And Commerce , a Chapter In : The Legacy Of Islam , Oxford Un . Press , 1931 .

LEVI - Provençal , E .:Las Ciudades y Las Instiucions Urbanas Del Occidente Musulman En La Edad Media , Tetuan , 1945 .

MAQBUL AHMAD : India And The Neighbovining Territories In Nuzhat Al - Mushtaq , Leiden , Brill . 1961 .

MIELI , ALDO : La Science Arabe Et Son Role Dans L'évolution Scien - Téfique Mondiale . Leiden , 1939 .





الفصل السادس

الفنون عند المسلمين





الفنون تعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمعانى :

للفنون فى تاريخ الأمم دور كبير جدير بأن يقف عنده مؤرخ المجتمع الإسلامى ويعطيه ما هو جدير به من عناية ، لأن الفنون — دون سائر وجوه النشاط البشرى — إنتاج إنسانى خالص يصور روح الشعب الذى صدر عنه وإحساسه وذوقه ومستواه الثقافى والاقتصادى فى أحيان كثيرة ، وسواء أكان الفنان مبدعاً موهوباً يبتكر أسلوباً جديداً فى التعبير الفنى ، أو كان صانعاً فناناً يحتذى فى عمله قواعد وتقاليد موروثة لا يتعداها ، فإن هذه الحقيقة لا تتغير . لأن الفنان المبتكر يعطى التعبير الفنى عن الإحساس الشعبى طابعاً مميزاً شخصيا أو قد يوجهه وجهة جديدة ، والفنان الصانع يحافظ بعمله على تقليد فنى متوارث نابع أيضاً من طبيعة الشعب الذى ينتسب إليه ، ولابد من الإخلاص والإتقان فى كل حالة ، لأن الفن — فى صميمه — يقوم على الصدق والإخلاص كما يقوم على الإتقان .

وقد ظن أهل المحافظة على الموروثات أن الإنتاج الفنى شر ينبغى تجنبه ، أو تعبير عن غرائز فاسدة ينبغى محاربتها أو سترها على الأقل ؛ ومن عباراتهم المأثورة فى ذلك المجال : « إن الإنسان لا ينبغى أن يشتغل بما لا ينفع أو بما يشغله عن العبادة والتفكير فى الله » . وقد فاتهم أن التعبير الفنى جزء من طبيعة الإنسان بل الكائن الحى نفسه ، فإن الإنسان إذا غنَّى فليس من الضرورى أنه يفعل ذلك لأنه خليع أو قليل الرزانة أو خارج على الحشمة ، بل هو يغنى لأنه إنسان .

وكذلك الحال فى التصوير والنحت وغير ذلك من ضروب التعبير الفنى ، فكلها تصدر عن الطبع البشرى الذى يميل إلى الجمال وتصوير الجمال ومشاهدة الجمال ومحاكاته . والإنسان البدائى الذى خلف لنا رسومه على جدران الكهوف وعلى الصخور فى البرية لم يكن خليعاً ولا قليل الحشمة ، وإنما كان محض إنسان أحس

بالجمال فشعر بإنسانيته ، ودفعه هذا الشعور إلى التعبير عما يحس فأمسك بما تيسر له من مادة يخط بها ، ورسم ما جادت به قريحته ، وكان ذلك من أوائل خطواته نحو الرقى .

ومن المعروف أن الغناء والرقص عنصران أساسيان من حياة الشعوب البدائية التى لا تزال تعيش فى عالمنا الراهن ، وهى كذلك جزء هام من حضارة أرقى الأمم ؛ لأنه حيثما وجد إنسان فهناك تعبير فنى ، أياً كان مستوى ذلك الإنسان من الرقى والحضارة وأياً كان مستوى ذلك التعبير .

ولهذا كان من الطبيعى أن تكون للمجتمعات الإسلامية فنونها من كل نوع . وقد اتسعت ميادين هذه الفنون بقدر اتساع عالم الإسلام ، واختلفت أشكالها بقدر اختلاف طبائع شعوبه ، فنحن هنا أمام ميدان واسع متشعب الأطراف متعدد الصور والأشكال ، فهو يشمل المنشآت العمارية والرسم والتصوير والزخرفة والموسيقى والغناء وأشكالا كثيرة تصنع بها أدوات منزلية أساسية كالسجاجيد والمشكاوات والصناديق ، وأدوات أخرى مما يستعمل للزينة الصرفة كالعلب أو الأطباق التى تصنع من الخشب المخرم أو المزين بالصدف والعاج أو من الفخار والخزف والزجاج . ويتجلى الإنتاج الفنى الإسلامى كذلك فى طرز معينة يزين بها النسيج الغالى ، وغلافات الكتب وكتابة خطوطها وزخرفة صفحاتها أو تحليتها برسوم كبيرة أو صغيرة مما يعرف بالمنمنمات . ويشمل ذلك الميدان صناعة الآلات الموسيقية وأشكالها ، وكذلك جانباً كبيراً من الإنتاج الأدبى ، وبخاصة ما يستعمل منه فى الغناء الجماعى أو الفردى وغير ذلك كثير .

وهذا المجال الواسع للإنتاج الفنى يشمل جميع نواحى حياة الشعوب الإسلامية على وجه التقريب . وهو مع اختلاف أشكاله وصوره له وحدة فنية وشخصية واضحة تميزه عن غيره ، فيكفى أن نرى قطعة صغيرة من عمل جرت فيه يد الفنان المسلم حتى نعرف أننا نتأمل شيئاً صاغته يد فنان مسلم ، وسواء أكان ذلك الشىء نافذة مسجد فى سلطنة بروناى فى شمال جزيرة بُرنيُو ، أو قطعة جلد مشغول من عمل صانع فنان مغربى من أهل مدينة مراكش ، أو نغمة من بَشْرف أبدعه موسيقىٌّ تركى ، أو صورة بستان رسمه مصوِّر إيرانى ، أو منبراً خشبيا صنعه نجار فنان مصرى ، فإن هذه الأشياء كلها يجمعها طابع واحد ، ولا يمكن أبداً أن تخفى علينا

صفتها الفنية الإسلامية . وهذه هي الحقيقة الرئيسية التي يجب أن ننبه إليها في مستهل كلامنا الموجز عن فنون الشعوب الإسلامية ، وهي أنها فنون ذات شخصية فنية متميزة تنطق بحقيقتها ولا يمكن أن تلتبس بغيرها .

ميلاد الفنون الإسلامية :

وقد نشأ الفن الإسلامي كله عن فيض العاطفة الدينية عند المسلمين ، فقد كان في بدايته تعبيراً عن الإحساس الديني . وقارئ القرآن الكريم لا يزال يصادف في آياته ما ينبهه إلى الإحساس بجمال الكون ، ويدعوه إلى تأمل بديع صنع الله . وفي كثير من الآيات القرآنية نشعر بأن الخلق كله إبداع فني عظيم فياض بالجمال[1] ، ولا غرابة — لهذا — أن يكون القرآن نفسه منبعاً من منابع الإلهام الفني عند المسلمين .

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الفن والدين ، فإن عمارة المساجد هي أصل فن العمارة الإسلامي كله ، وقد نشأت الزخارف الإسلامية لزينة النوافذ وملء فراغ الجدران وتجميل السقوف ، وقد روعي فيها أن تكون أشكالا هندسية

---

(١) جاء في كتاب مبادئ الفلسفة والأخلاق (د . محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٢٤٧ ، ٢٤٨) : « تكلم القرآن عن جمال السماء ، عن زينتها بما فيها من كواكب ، وعبر عنها أحياناً بأنها مصابيح . وتكلم عن الشمس والقمر ، وبالجملة تكلم عن السماء على نحو يبعث في نفس المتأمل شعوراً بعظمتها وبنائها الهائل وامتدادها الكبير ، وهذا ما يسمى بالجليل الرياضي عند بعض علماء تقدير الجمال (إمانويل كانت) .

وتكلم القرآن عن زينة الأرض بعد أن تهتز بالحياة فتنبت فيها كل زوج بهيج ، وتظهر فيها الثمار المختلفة الألوان ، وأشار إلى ما يكون هناك من حدائق ذات بهجة ، وتكلم عن زينة الأرض بالجبال على اختلاف ألوانها ، وتكاد بعض آيات القرآن توحي للفنان بأن يرسم لوحة للمناظر التي يتكلم عنها

وتكلم القرآن عن زينة الحياة الدنيا وأن الدنيا محبوبة لجمالها وزينتها ، بل هو يشير إلى البشر وماله من زينة خادعة .

ولم يخل القرآن من إشارة إلى التجربة الجمالية المدهشة التي يحس فيها المتأمل للجمال عن نفسه (س ٣١/١٢) . وقد نبه بعض العلماء (الغزالي) لهذه التجربة واعتبرها حالة فناء في إدراك الجمال .

ويؤخذ من القرآن أن كل شيء في العالم له جماله ، لأنه صنع الله « أحسن الخالقين » الذي « أتقن كل شيء » و « أحسن كل شيء خلقه » . وقد رسم القرآن مناظر جمال وحسن في الحياة الأخرى .

هذا إلى أن طريقة التعبير القرآني تشعرنا بالجمال المعنوي . فالأعمال الخيرة توصف بالحسن وهي « حسنات » ، والله تعالى له « الأسماء الحسنى » .

أو نباتية حتى تبتعد ابتعاداً حاسماً عن تصوير الشخوص ، واستعمل المسلمون الكتابة كوسيلة زخرفية حتى يستطيعوا التفنن فى كتابة آى القرآن والأحاديث النبوية وأسماء الخلفاء الراشدين والصحابة . حتى الألوان التى استعملها المسلمون تحروا أن تكون قد وردت فى القرآن الكريم كالأخضر والأحمر والأصفر والذهب والفضة ولون السماء وهو الأزرق . وقد بلغ من براعة المسلمين فى صناعة الأصبغة التى عملوا بها رسومهم أو لوّنوها بها أننا نجد اليوم ألواناً معروفة بنسبتها العربية ، فيقال مثلا : اللون الأزرق العربى bleu d'arabic والأخضر العربى الزمردى Emerald Arab green والأصفر الصحراوى Sahare yellow .

وفى بعض الأحيان نجد أن الفنان المسلم يستعمل الزخارف والأشكال ليصور ما يخطر بباله وهو يقرأ آى القرآن الكريم ، كما نرى فى زخارف قاعة السفراء فى قصور الحمراء فى غرناطة بالاندلس (جنوب إسبانيا) ، فهى تصوير زخرفى للايات ٣ — ٦ من سورة تبارك التى تسمى أيضاً سورة الملك وهى السابعة والستون من سور الكتاب الأكرم .

ومثل هذا يقال عن موسيقى الشعوب الإسلامية التى تسمى أحياناً بالموسيقى العربية ، فقد نشأت فى الأصل ترتيلا وإنشاداً دينيا ومحاولة لتجويد القرآن الكريم ، ثم اتسع مجالها بعد ذلك . وليس معنى هذا أن الأصول الفنية للموسيقى العربية كلها دينية إسلامية ، فإن تلك الأصول نبعت من مناهل شتى ترجع إلى أصول حضارات الشعوب التى تكون منها عالم الإسلام ، ففيها عناصر مصرية وإيرانية وهندية وبيزنطية وأفريقية وعربية جاهلية سابقة على مجىء الإسلام ، ولكن العاطفة الإسلامية احتوتها وسيطرت عليها وأعطتها طابعاً دينيا لازمها بعد ذلك برغم تشعب ميادينها ، وإلى يومنا هذا ما زال الغناء العربى لوناً من الترتيل والترجيع والتجويد ، فيما عدا بعض الحديث من الأنغام التى غلب عليها الطابع الأوروبى .

وهذه الصلة الوثيقة بين الروح الإسلامية والإنتاج الفنى فى الشعوب التى آمنت بالإسلام صلة طبيعية منطقية نجد ما يشبهها فى العالم المسيحى ، فهناك أيضاً ولد الفن الغربى فى مهد الدين ، فكانت الكنائس والأديرة ميدان الابتكار فى العمارة ، وفيها — قبل غيرها — ظهرت طرز العمارة الرومانية والقوطية والنورمانية

والموريسكية المُدَجَّنِيَّة وما إليها ، وعلى جدران الكنائس أو فى لوحات علقت عليها وُلِد التصويرُ الغربى ، وكان فى أول أمره تصويراً لمشاهد من الكتاب المقدس ، وفى الصلوات والإنشاد الكنائسيين ولد جانبٌ كبير من الموسيقى الغربية .

وذلك كله طبعى ، لأن الفن تعبير عن الإحساس وتصوير له ، وليس فى أحاسيس البشر ما هو أعمق وأشمل من الإحساس الدينى ، ولقد قال الموسيقى الأشهر سباستيان باخ : « إن شعورى بجلال الخالق يصل إلى أقصى عمقه عندما أجلس إلى الأرغن فى الكنيسة وأعزف مقطعاتى أو متتابعاتى » .

الفنـون الشعبيـة والفنـون المصقولـة :

وعند دراستنا لتاريخ أى فن من الفنون عند أى أمة من الأمم ، ينبغى أن نلاحظ أنه وجد دائماً نوعان من التعبير الفنى : نوع شعبى ساذج ، ونوع مصقول مهذب .

فالشعبى ما يصدر عن جمهور الناس بالفطرة ، من إنشاد جماعى أو فردى ، وعزف بهم قبل كل شيء بالإيقاع ، لأنه يصاحب الرقص ، وغناء بسيط يتماشى مع بعض وجوه العمل ، كالحداء أثناء السفر ، وإنشاد العمال أثناء العمل ، وغناء الفلاحين فى الحقول ، وعزف الراعى لاستدعاء الغنم أو الجمال ، وقرع الطبول لحشد الناس إلى الحرب ، أو الرجز أو الزجل اللذين يصدران عفو الخاطر عن أبناء الشعب دون تكلف أو تصنع ، وتصاوير الحوائط التى لا تخلو منها تقاليد أى شعب من الشعوب ، والتماثيل التى يصنعها الناس ما بين بدائيين ومتقدمين ؛ وهذه — فى مجموعها — تسمى بالفنون الشعبية folks arts وقد تسمى بالفولكلور folklore (المأثور الشعبى) .

أما النوع المصقول فهو فى الأصل ضرب من الفن الشعبى ، يصوغه أفراد بلغوا مستويات متفاوتة من الثقافة والعلم ، ويتجه اهتمامهم إلى أن ينشئوا إنتاجاً فنيا رفيعاً مصقولا ، وتتفتح أمام أهله أبواب الإنتاج الفنى المنهجى المنظم ، كما نرى فى الشعر الموزون المقفى على البحور ، والنثر الفنى ، والموسيقى المنهجية التى تقوم على علم بالنغم ودراسة للأصوات وأشكالها ودرجاتها .

وقد عرفت شعوب المسلمين هذين الضربين من الفن ، فنجدهما دائماً جنباً إلى جنب . فعاش الرجز ثم الزجل والموشح إلى جانب القصيدة ، وعاشت أغانى الشعوب الجماعية إلى جانب مقطعات المغنين المحترفين ، وعاشت رسوم مناظر الحياة الشعبية على جدران البيوت ، إلى جانب روائع الأعمال الفنية فى زينة المساجد والقصور ولوحات بهزاد وسلطان محمد وتماثيل محمود مختار .

وسنضمن هنا كلامنا النوعين معاً ، لضيق المجال أولا ، ثم إن الاتجاه الثقافى العالمى اليوم يتجه إلى صياغة طراز واحد من الفن ، شعبى ومصقول فى آن واحد .

وجدير بالذكر أن أهل الفكر فى العصور الوسطى كانوا يضعون حدًّا فاصلاً بين ما يعتقدون أنه الشعر والنثر الحقيقيان الجديران بالدراسة والتقدير ، والإنتاج الأدبى الشعبى من قصص شعبى وزجل وموشح ؛ ولهذا فقد كانوا يرفضون أن يدخلوا فى مؤلفاتهم كلاماً عن « ألف ليلة وليلة » أو عن قصة « الظاهر بيبرس » أو « الأميرة ذات الهمة » أو « تغريبة بنى هلال » . وكانوا يحرصون كذلك على ألا يوردوا شيئاً من أزجال ابن قزمان أو عبادة بن ماء السماء ، ظنا منهم أن ذلك إنتاج فنى وضيع غير جدير بأن يحفظ به . ولكن الأمر تغير تغيراً حاسما فى أيامنا هذه ، وتبين أن حكايات « ألف ليلة وليلة » مثلا هى أذيع الآثار الأدبية العربية فى العالم وأكثرها أثراً فى الفكر العالمى ، وكذلك الموشحات الأندلسية كانت ذات أثر بعيد فى نشوء الشعر الفرنسى فى جنوب فرنسا . والحقيقة أن الإنتاج الفنى الشعبى قد يبدو ساذجاً وغير مصقول ، وربما بدا لنا جافياً أحياناً ، ولكنه فى الحقيقة صادق ونابع من طبيعة الحياة نفسها دون تكلف أو تصنع ، ومن ثم فإن أثره فى النفوس أوسع مدى من أثر الإنتاج الأدبى المصقول الذى لا يخلو — فى الغالب — من تكلف وتصنع ولا يتذوقه إلا عدد قليل من الخاصة .

ميلاد فن العمارة عند المسلمين — المساجد الأولى :

وقد ولد فن العمارة الإسلامى فى المدينة المنورة بمولد مسجد النبى — ﷺ — فى العام الأول للهجرة ، فهو وإن كان إنشاء بالغ البساطة يتضمن الحد الأدنى الضرورى لإقامة شعائر الدين ، إلا أن تصميمه جمع معظم العناصر التى ستتكون منها المساجد فيما بعد ، والتى ستكون ميدان الابتكار والتجويد للعماريين

المسلمين ؛ ففيه بيت الصلاة ، والصحن ، والقبلة ، والمحراب ، والمنبر ؛ وهذه هي الأجزاء التي لا يستغنى عنها جامع إسلامي . أما الأجزاء الأخرى — مثل المئذنة والقبة والميضأة والمقصورة — فمحسنات ابتكرت فيما بعد ، وهي لا تكون عناصر أساسية في الجامع ، ومن هنا فإنه يبدو غريباً أن ذلك المسجد النبوي البسيط قد حدد هيئات المساجد العامة فيما بعد .

بُني مسجد الرسول ﷺ بالمدينة أول مرة في السنة الأولى للهجرة (٦٢٢ م) ، وقد أُعيد بناؤه بعد ذلك مراراً ، لأن ذلك المسجد تطور مع تطور الدولة الإسلامية . ومن هنا فإن المراحل التي تم بناؤه عليها تعد أجزاء أو مظاهر من التطور العام للحضارة الإسلامية .

وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لأن كبار مساجدنا تعد أجزاء من تاريخنا الحضاري والسياسي ، ونلاحظ أنها مرت في سلسلة من التطور موازية لسلسلة التطور السياسي والحضاري . ولنأخذ مثلا مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، فقد بنى أول الأمر على هيئة مستطيل طوله ٧٠ ذراعاً وعرضه ٦٣ ذراعاً ، وجعل جداره الشمالي (طوله ٦٣ ذراعاً) ناحية القبلة ، وكانت إذ ذاك بيت المقدس أي إلى الشمال ، وبمحاذاة ذلك الجدار أنشئت ظلة أو عريش مغطى بسعف النخل ومرفوع على جذوع نخل ، وكانت هذه الظلة لا تزيد في الاتساع على ست أذرع ، أي أنه كان يحملها حوالي ستين جذع نخلة . وفي العادة يسمى الجزء المغطى من المساجد ببيت الصلاة ، ويلي ذلك جزء واسع غير مغطى يسمى بالصحن . وفي أيام الرسول ﷺ كان الناس يتجمعون ويتلاقون في الصحن ، أما الصلاة فكانت تقام في بيت الصلاة ، إلا في أيام الجمع فقد كان بيت الصلاة والصحن يستعملان للصلاة . وقد أنشئت في الجدار المقابل لجدار القبلة ظلة أخرى أقل عمقًا من الأولى ، وتلك هي الصُّفة التي كان يأوي إليها أهل الصفة . وإلى شرق تلك الظلة ابتنى الرسول — ﷺ — حجراته التي عاش فيها بقية عمره ، وقد بنيت في صف واحد وأبوابها كلها تفتح على صحن الجامع ، ولم يكن لها كلها أبواب بل كان بعضها مغطى بستارة تحل محل الباب . وفي جوف بيت الصلاة وضعت حربة تعين اتجاه القبلة ، وسمي موضع هذه الحربة بالمحراب . وإلى يمين المحراب بنى شيء أشبه بسلم من بضع درجات ، ينتهي بموضع صغير كان الرسول ﷺ يلقى خطبه من عليه ، وهذا هو المنبر . وقد بنيت جدران الجامع

باللبن . أما الأذان فكان ينشد من أعلى غرفة حفصة أم المؤمنين ، وهذه هي الصورة الأولى للمئذنة . وعلى هذه الصورة كان المسجد يمثل الحالة الحضارية في المدينة أول ما أنشئ المسجد ، وقد وسع المسجد أيام الرسول ﷺ نظراً لنمو الجماعة الإسلامية .

وفي عهد أبي بكر جدد بناء المسجد على نفس الخطوط التي كان عليها أيام الرسول ﷺ ، ولكنه استبدل بجذوع النخل والجريد غيرها .

وفي أيام عمر أعيد بناء المسجد ، فاستبدلت بجذوع النخل أساطين من لبن ، وجعل سقف بيت الصلاة من الخشب بدلا من الجريد . وحافظ عمر على بساطة المسجد ، فأمر البنّاء « ألا يُحمِّر ويصفِّر حتى لا يفتن الناس » . وزاد عمر في طول المسجد وعرضه ، فأصبح الطول ١٣٠ ذراعاً والعرض ١٢٠ ذراعاً (الذراع = نصف متر تقريباً) .

وقام عثمان بن عفان بتجديد المسجد سنة ٢٧ هـ/٦٤٩ م ، فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والجص ، وجعل عمده من الحجارة المنحوتة وسقّفه بخشب الساج . وأشرف زيد بن ثابت على البناء ، وفتح نوافذ مرتفعة في الجدارين الشرقي والغربي قريباً من السقف .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك ، قام واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وإعادة بنائه فيما بين سنتي ٨٨ و ٩١ هـ/٧٠٦ — ٧٠٩ م ، فبنى المسجد كله بالحجارة المنحوتة ، وزيد في عرضه ، وجعلت له أبواب خشبية جميلة . ومعنى ذلك أن المسجد تمشّى مع نمو الجماعة الإسلامية وتطورها إلى إمبراطورية ، وقد استدعى ذلك زيادة مجنبتين على الجانبين الشرقي والغربي للمسجد ، تتكون المجنبة الشرقية من أربعة أروقة تحملها أربعة صفوف من الأعمدة ، أما المجنبة الغربية فكانت من ثلاثة أروقة تحملها ثلاثة صفوف من الأعمدة . وفي الناحية الجنوبية أضيفت مجنبة ثالثة يزيد عمقها على جوف بيت الصلاة ، ومعنى ذلك أن المسجد أخذ بالفعل صورة قريبة من صور المساجد الإسلامية الكبرى مع المحافظة على شكله العام وشخصيته .

وفي أيام الخليفة العباسي المهدي أعيد بناء المسجد على هيئة جديدة ، فأصبح

مستطيلا مساحته ٢٢٥×١٦٥ ذراعاً ، يتوسطه صحن ، يحيط به من الشمال بيت صلاة عميق ، ومجنبتان : شرقية وغربية ، ومجنبة ثالثة جنوبية .

وقد احترق هذا المسجد سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م ، وأعيد بناؤه على نفس الهيكل ولكن بحجارة مصقولة ، وأدخلت فيه أعمدة من الرخام بلغ عددها ٢٩٠ عموداً ، ووضعت له أبواب خشبية جميلة ، وأضيفت له مئذنة عالية . ومعنى ذلك أن هذا الجامع تطور خطوة خطوة مع تطور الجماعة الإسلامية ودولتها ، ولا يزال يتطور إلى يومنا هذا .

والمسجد النبوى الشريف الحالى أنشئ فى أيامنا هذه ، وهو يصور أعلى مستوى بلغته الهندسة العربية ، وهو أيضاً مثال من مساجد أخرى كثيرة تطورت بتطور الجماعة الإسلامية بحيث يعد تاريخها رمزاً على تطور الجماعة الإسلامية من حولها . وهذا يصدق على مسجد البصرة الذى اختطه عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ/٦٣٥ م ، ولم يجعل له جداراً بل أحاطه بخندق ، وجعل سقف بيت الصلاة فيه القصب والجريد مرفوعاً على جذوع النخل : وينطبق أيضاً على ثالث المساجد الجامعة فى تاريخ الإسلام ، وهو مسجد الكوفة الذى اختطه سعد بن أبى وقاص سنة ١٥ هـ/٦٣٦ م وأعاد بناءه زياد بن أبيه سنة ٥١ هـ/٦٧٠ م ، وعلى مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وهو رابع المساجد الجامعة فى تاريخ الإسلام ، وقد بنى أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وعلى المسجد الجامع فى القيروان الذى بنى أول مرة على يد عقبة ابن نافع فيما بين سنتى ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ — ٦٧٥ م .

فهذه المساجد الجامعة وغيرها مما أنشئ فى عواصم الإسلام بعد ذلك تطور بناؤها مرة بعد مرة وسار موازيا لتطور الجماعة الإسلامية نفسها .

وقد اكتملت العناصر الفنية للمساجد قبل نهاية القرن السابع الميلادى ، فقد أنشئت المحاريب المجوفة وظهرت المآذن وأمكنة الوضوء والمقصورات ، بل ولدت القباب الإسلامية بإنشاء قبة الصخرة ، وكذلك أدخلت المحاريب المزخرفة فى نفس الوقت . ومن ذلك الحين لم يدخل على المساجد الإسلامية عنصر أساسى جديد ، وإن كان كل واحد من العناصر التى ذكرناها قد تطور على حدة فى كل ناحية من بلاد الإسلام تقريباً .

المساجد تجمع بين عنصرين متناقضين (البساطة والجلال) :

ولم يعرف تاريخ فن العمارة الإسلامى طُرُزاً عامة يسود كل منها عالم الإسلام كله فى فترة معينة ثم يحل محله طراز آخر ، كما نرى فى طرز العمارة الأوروبية الرومانية والقوطية وطراز النهضة والركوكو وما إلى ذلك ، ولكن لدينا طرزًا إقليمية يحمل كل منها طابعا محليًا متماشيًا مع التقاليد العمارية لإقليمه ، فهناك الطراز الأموى والعباسى والمساجد المصرية والمغربية والأندلسية والإيرانية والهندية والتركية والمملوكية ، وقد يتطور كل واحد من هذه الطرز فى ناحيته التى نشأ فيها ، ولكنه يظل محتفظا بطابعه الخاص . وقد تشيع عناصر عمارية من هذا الطراز أو ذاك فى عالم الإسلام كله ، ولكن ذلك لا يغير شخصية الأثر العمارى نفسه ، فيظل المسجد المملوكى مملوكيًا — مثلاً — برغم اقتباسه المئذنة التركية .

وبرغم هذا الاختلاف فى أشكال المساجد فإن الروح العامة لها تظل واحدة . والمسجد الإسلامى فى كانو فى شمال نيجيريا هو المسجد نفسه فى طشقند ، والسبب فى ذلك أن نقطة البداية واحدة ، والمقاصد الرئيسية من بناء المساجد واحدة كذلك . وقد رأينا ميلاد المساجد فى المدينة المنورة وكيف أنها كانت محض أمكنة مخصصة للصلاة ، ورأينا كذلك كيف تطورت المساجد بما يلائم الطفرة الواسعة التى حققتها الدولة الإسلامية ، فانتقلت من البساطة إلى الفخامة والجلال ، مما استدعى هدمها وبناءها مرة بعد مرة ، مع المحافظة على طابع البساطة الأول .

وتلك هى المشكلة الرئيسية التى واجهت — وما زالت تواجه — المعماريين فى إنشاء المساجد ، لأن المسجد — كفكرة — لا يقبل التغيير ، فلا بد أن يظل مكاناً للصلاة فحسب ، دون أن نضاف إليه أجزاء أساسية كالتى نجدها فى الكنائس المسيحية مثلا ، كالمذبح وغرف القساوسة والشمامسة ومكتب القس المشرف على الكنيسة وأمكنة لحفظ سجلات الكنيسة وأخرى لحفظ ذخائرها ، ومكان لكى يغير فيه رجال الدين ملابسهم ليتخذوا ثياب الصلوات والقدّاس المختلفة الألوان والأشكال مما اقتضى أن تكون الكنائس أمكنة للصلاة ومكاتب إدارية ودور محفوظات ، وربما أضيفت إليها مساكن للقس ومساعديه ، ولهذا نجد الكنائس كثيرة الأبنية متعددة الغرف والأجنحة .

ومع أن المساجد استعملت على طول العصور الإسلامية لأغراض أخرى إلى جانب الصلاة ، فكانت دوراً للقضاء ومجالس لأهل العلم ، إلا أن ذلك لم يقتض إدخال أي تعديل جوهري على المبنى ، فكان القاضي يجلس في ركن من أركان الجامع يخصص للقضاء ، وكان الشيوخ يجلسون للإقراء وحولهم تلاميذهم مفرقين في نواحي بيت الصلاة أو الصحن ، وهكذا ، ومن هنا ظل المسجد محافظاً على طبيعته وشخصيته الرئيسية .

وقد أراد المعماريون أن يضفوا على ذلك المبنى البسيط الذي لا يحتمل الزيادة جلالاً وفخامة يتناسبان مع نمو الجماعة الإسلامية ودولتها ، وقد توصلوا إلى التوفيق بين هذين المتناقضين بطرق شتى ، مثل تعلية السقوف وتضخيم الجدران والتأنق في أوضاع الأعمدة وأشكال أقواسها والابتكار في أشكال المحاريب والمنابر والتفنن في هيئات القباب والمآذن ، ولجئوا كذلك إلى استخدام مواد نبيلة بدلاً من المواد العادية ، فاستبدلوا بالطوب اللبن الطوب المحروق أو الحجارة المنحوتة ، واستبدلوا بهذه الحجارة المنقوشة ، واستعملوا أعمدة الرخام وتفننوا في قواعدها وأبدانها وتيجانها وطبناتها ، واستعملوا الأخشاب الغالية كالساج (وهو الماهوجاني) والصنوبر والسنديان بدلا من خشب الأشجار العادية ، وزخرفوا الخشب ، واستعملوا الألوان ، وجعلوا حنايا المحاريب من الرخام الملون ، وزينوا الجدران بالنوافذ ذات الزجاج الملون . وابتكروا أشكالا من الأقواس الصماء تزين الجدران ، وفي بعض الأحيان نجدهم تعمدوا استخدام قطع ضخمة من الحجر الجيري المصقول في بناء جدران عالية بحيث يرتفع السقف عشرات الأمتار ، مما يجعل المصلي يشعر وكأنه يصلي في فراغ واسع يملأ القلب خشوعاً ورهبة .

هذا إلى التفنن في إنشاء القباب وتزيينها من الداخل بالزخارف ومن الخارج بزخارف القاشاني ، وتفننوا كذلك في أشكال المآذن . وهكذا عرف العماري والفنان المسلمان كيف يفسحان لفنهما المجال للابتكار والتخليق مع المحافظة على طابع البساطة الذي لا بد منه للمساجد ، وفي هذه الناحية نستطيع القول بأن العماريين المسلمين عرفوا كيف يبتكرون أشكالا هي الغاية في الفخامة والروعة دون أن يمسوا جوهر المساجد .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تطور فن العمارة الدينية في الإسلام ، فإن المسلمين

أنشأوا عشرات الألوف من المساجد ، ومن هذا الحشد الحافل من بيوت الله تبرز بضع مئات تعد بالفعل أعمالا فنية جديرة بالتسجيل والتأريخ . وما زلنا ننتظر أن ينشر أطلس عام يسجل لنا هذه المساجد ويصورها ويبين نواحي امتيازها الفني ، فهذا عمل لا بد أن يتم . وقد ألف الناس كتباً كثيرة عن المساجد الإقليمية ، ولكن الذي ينقصنا هو كتاب عام عن المساجد الإسلامية .

وسنكتفي هنا بالكلام عن الخصائص الفنية المميزة لمدارس العمارة والفن الرئيسية ، ولا بد قبل ذلك من أن نقول كلمة يسيرة عن أثر عماري يحتل مكانة ممتازة في تاريخ العمارة الإسلامية ويعين خطوة انتقال حاسمة في تاريخها برغم أنه بني في عصر مبكر ، وهو قبة الصخرة في مدينة القدس .

تم بناء قبة الصخرة — التي تسمى أحياناً بمسجد الصخرة — في عهد عبد الملك بن مروان ، الذي يعد من أكبر المنشئين في تاريخ الإسلام ، ويقال إنه أنفق في بنائه خراج مصر لمدة سبع سنوات ، أي حوالي ٣١ مليوناً ونصف المليون من الدنانير ، وهو مبلغ مُبالَغ فيه حتى عندما نعرف أن الدينار العربي في عصر عبد الملك يساوي نصف الدينار الكويتي أو العراقي ونصف الجنيه الإنجليزي .

وقد أنشئت هذه القبة لكي تحمي الصخرة ، وهذه الصخرة هي عبارة عن قمة جبل موريا ، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٢٧,٧٠ متر وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٣,٥٠ متر ، وهي صخرة كانت مقدسة قبل الإسلام ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن رسول الله — ﷺ — عندما أسرى به ليلا من مكة نزل عند قبة الصخرة ، وهناك صلى لله سبحانه وتعالى قبل أن يعرج به إلى السماء من جوارها ، ولهذا فعندما فتح المسلمون مدينة القدس حرص عمر على أن ينشئ بناء فوق الصخرة ليحميها من الشمس والمطر .

والغالب أن هذا البناء كان ظلة من الخشب ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك قرر أن يبني حول الصخرة وفوقها بناء عظيماً ، وبطبيعة الحال استخدم في إنشائه عمالا وصناعاً من أهل الشام ممن تعلموا في مدرسة الفن البيزنطي . ولما كان القصد من البناء إقامة قبة فوق الصخرة ، فقد كان لا بد أن يستخدم المعماريون أعظم ما لديهم من الخبرة الفنية لكي يقيموا ذلك البناء ، فأقاموا بناء معقداً ذا ثمانية أضلاع يحيط بالصخرة على مسافة منها من كل ناحية ، وفي داخل هذا البناء أقاموا جداراً

آخر موازياً له ، ولكنه يرتفع على أعمدة وأساطين لا على جدران ، وما بين الجدار الخارجي وهذا البناء الداخلي مساحة واسعة تستعمل مطافاً يمر فيه الناس حول الصخرة ويقيمون فيه صلواتهم ، ولذلك تسمى قبة الصخرة بمسجد الصخرة أيضاً ، وفوق أعمدة ذلك البناء الداخلي أقيمت قبة عظيمة مرتفعة هي التي أعطت البناء اسمه .

وقد زخرفت جدران مبنى القبة الداخلية والخارجية بالنقوش الملونة على أحسن صورة ، ويزيد في قيمة هذه النقوش أنها صنعت في الغطاء الرخامي الذي بطنت به الجدران في كل ناحية . فأما الزخارف الموجودة خارج المبنى فكلها عربية ، وهذه أول مرة نرى فيها الزخارف العربية الجميلة وما تتضمنه من أشكال هندسية ونباتية متداخلة هي الغاية في الجمال ، وفي أعلى الجدران — قبل القبة — أضاف العماريون نوافذ تقوم على بوالك زخرفية صغيرة زينت بالزجاج الملون .

ويعد اقتدار العماريين المسلمين على إنشاء هذا الأثر الجميل من دلائل العبقرية الفنية العربية ، وهذا المبنى — بما فيه من الزخارف والألوان وما استعمل فيه من المواد — كان عملا فنيًّا فتح أمام العمارة الإسلامية أبواباً واسعة من التطور فيما بعد ؛ وقد تم بناء هذا المسجد فيما بين سنتي ٦٦ — ٧٢ هـ/٦٨٥ — ٦٩١ م .

الفن الأموي في المشرق :

نقطة البداية في هذا الفن العماري هو مبنى قبة الصخرة الذي ذكرناه والمسجد الأقصى في صورته الأولى . وجدير بالذكر أن المسجد الأقصى يقوم على المساحة نفسها التي يقوم فيها مسجد الصخرة ، وكان أول من أنشأه عمر بن الخطاب ، ولكنّ بناءه الحالي يعود إلى عصر الوليد بن عبد الملك ، فقد أعاد بناءه سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م وإن كان هناك من يقولون بأن الذي بناه كان عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م . وقد أعيد بناؤه بعد ذلك مراراً عديدة ، ولكن هيئته — التي تعد نموذجاً للعمارة الأموية المشرقية — هي التي كانت له أيام الوليد بن عبد الملك . وكان يتكون من بيت صلاة واسع يقوم سقفه على تسعين عموداً من الرخام ، ويتألف من عشرة أروقة متوازية كلها تسير في اتجاه القبلة ، ويقوم السقف فوق الأعمدة مرفوعاً على أقواس نصف دائرية ، وتربط الأقواس بعضها إلى بعض أربطة

خشبية ، وقبل السقف صف من النوافذ الصغيرة ينفذ منها الضوء إلى داخل الصحن .

أما المسجد الذى يعد — إلى الآن — نموذجاً حياً للعمارة الأموية المشرقية ، فهو المسجد الأموى بدمشق ، وما زال باقياً إلى اليوم محتفظاً بهيئته العامة ، وهو دون شك من أعظم ما أنشأ المسلمون من مساجد وأكثرها فخامة ، وقد بدىء فى إنشائه أيام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م ولم يتم إلا سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م . وكانت مقاييسه على عهد الوليد ١٦٠ × ١٠٠ متر ، وبيت الصلاة فيه عمقه ٣٦ متراً ، ويتكون من ثلاثة أساكيب ، والأسكوب هو صف الأعمدة الذى يوازى جدار المحراب ، أما صفوف الأعمدة الرأسية على جدار المحراب فتسمى بالبلاطات ، والممرات بينها فتسمى بالأروقة . وبيت الصلاة يبدو فى هذا المسجد قليل العمق بالنسبة إلى عرض المسجد ، فهو لا يكون إلا الثلث تقريبا ، ونتيجة لذلك فإن الإنسان إذا دخل المسجد وواجه جدار القبلة يشعر بأنه فى إيوان مستطيل لا يتناسب طوله مع عرضه .

ويحتل هذا المسجد مكانة بارزة فى تاريخ العمارة الإسلامية ، نظراً لما يمتاز به بيت الصلاة من فخامة ورواء وارتفاع فى السقف وتناسق فى الأعمدة والأقواس ، وكذلك بسبب القبة الصغيرة التى يزدان بها سقفه . وربما كان صحنه من أجمل صحون المساجد الإسلامية ، فإن طوله ١٢٥ متراً وعرضه ٦٠ متراً ، ويحيط به من جوانبه الشرقية والغربية والشمالية مجنبات من رواق واحد ، وتقوم على أعمدة رخامية تحمل أقواساً دائرية تزينها من أعلى نوافذ صغيرة ، يفصل بين كل اثنتين منها عمود رخام أو سارية ، وأرضية الصحن كلها مفروشة بالحجر المصقول ، ويمتاز هذا المسجد بزخارف وكتابات هى الغاية فى الجمال والرواء ، ويعد نموذجاً للفن الإسلامى فى دوره الأول ، عندما كان متأثراً تأثراً واضحاً بالعمارة البيزنطية .

وتمتاز المساجد الأموية كلها بالرصانة والجلال والأصالة والمتانة ، فإن السنين تعبر بهذه العمائر فلا تتأثر ، وتحتفظ برواتها الأول مهما مر بها الزمان أو تعاقبت عليها الأحداث ، حتى الفسيفساء التى تزين جدرانها تظل باقية على حالها ومحتفظة بألوانها . ولا نعرف هذه المساجد الإسراف فى الزينة والزخارف والألوان ، وإنما يعتمد جمالها

كله على التناسق بين خطوطها وعلى ما تمتاز به من مهابة ، وكذلك على المواد النبيلة التى تبنى بها .

ويدخل فى نطاق العمارة الأموية القصور التى كان الخلفاء والأمراء يتخذونها فى الصحراء ، ليتعموا فيها بمظاهر من الحياة البدوية البسيطة من ناحية ، وليطلقوا لملذاتهم العنان بعيدا عن أعين الناس من ناحية أخرى .

ولدينا من هذه القصور نوعان : البوادى وهى قصور ريفية بسيطة فى تكوينها ، يتألف الواحد منهامن بهو كبير للجلوس ، وغرفتين جانبيتين الغالب أنهما للنوم ، ومجموعة من الغرف الصغيرة الأخرى ، وأكبر ما يميزها هى الحمامات . ومثال هذه القصور قُصَيْر عَمْرة الذى اكتشفه البحاثة ألويس موسيل سنة ١٧٩٨ م ، وهو من بناء الوليد بن عبد الملك ، وهيئته العامة كما وصفنا ، وكان فيه حمامان على الأقل ، وقاعات الحمامات واسعة عالية السقوف مبطنة بالرخام إلى ارتفاع مترين ، وتلى ذلك أحزمة من التصاوير الزخرفية من الفسيفساء ، وغالبها يمثل مناظر اللهو والمتاع . وكان الماء يجلب لذلك القصر من بئر عميقة ، ويساق فى أنابيب ترفعه إلى أعلى البناء ، وهناك يصب فى الأحواض ، وكانت هناك أنابيب للماء الساخن وأخرى للماء البارد .

أما النوع الثانى من القصور الأموية فهو نوع الحيرة ، ونموذجه الذى عثرنا عليه هو قصر المشتى ، وهو قصر كبير عالى الجدران والأسوار ، واسع الأبهاء ، وقد أقيم داخل أسوار حصن من الحصون الرومانية ولم يكن قصر الحيرة يستعمل دار لهو وراحة فى أثناء نزهات الصيف كما كان الحال مع البادية ، وإنما هو قصر ملكى كبير يقضى فيه الخليفة وقتاً يدبر الأمور بعيداً عن زحمة الناس فى دمشق .

وقد ورث الأمويون فى الأندلس الاتجاه نحو بناء هذه القصور ، فأنشأ عبد الرحمن الداخل قصر الرصافة شمالى قرطبة واتخذ الأمراء ورجال الدولة الحيرات فى ضواحى العاصمة .

وكلا نوعى البوادى والحيرات يصور لنا العمارة المدينيّة خلال العصر الأموى ، وهى عمارة تمتاز بجلال المظهر وفخامة الهيئة ، والزخرفة المعتدلة واستعمال

الفسيفساء ، والاقتباس دون حرج من الفن البيزنطي ، وإطلاق الحرية للفنان ليؤلف من هذه المقتبسات ومن مبتكراته طرازاً خاصاً .

العمارة فى العصر العباسى :

لم يبق من آثار العمارة العباسية فى بغداد والرقة وواسط وغيرها من مدن العراق إلا نزريسمر ، لأن المبانى كانت تقام باللبن فى معظم الأحيان وبالطوب المحروق فى أقلها . وكانوا يستعيضون بضخامة الجدران عن صلابة الحجر ، فقد يبلغ سمك الجدار بضعة أمتار أحياناً ، فأسوار مدينة بغداد كانت تبلغ ستة أمتار فى العرض فى أسفلها وأربعة فى أعلاها ، بحيث كان فارسان يستطيعان السير على السور جنباً إلى جنب ، وكانوا يطلون البناء من الداخل بالجص ويقيمون سقوف المساجد والأبهاء الواسعة على أعمدة من الخشب ، وكذلك كانت السقوف خشبية ، وهذه كلها مواد لا تحتمل البقاء طويلا . ومعظم مبانى بغداد كانت مبنية على هذا الشكل ، ولهذا وعلى الرغم مما كان للبلد من ضخامة وفخامة إلا أن منشآته قد زال معظمها من الوجود ، فلم نعثر من آثار العباسيين فيها إلا على أطلال لا تعيننا على تكوين صورة عن تخطيطها الواقعى ، ولهذا فإن ما نجده فى الكتب من وصف عماراتها قائم على النقل أو التخيل .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن أبا جعفر المنصور وعماريه وضعوا خطة المدينة على أن تكون مدوَّرة ، يقوم فى وسطها ميدان فسيح فى مركزه المسجد الجامع وقصر الإمارة ، ويشق البلد شارعان رئيسيان هما عبارة عن محورين (أفقى ورأسى) يتلاقيان فى الوسط ، وينتهى كل من الشارعين ببوابتين عند السور ، وبين كل نصفى قطرين تمتد شوارع أخرى من الميدان الداخلى إلى السور دون أن تكون لها أبواب فيه . وكان السور نفسه دائرياً عريضاً كما قلنا ، وقد حصن بأبراج مدورة يقوم فيها الحراس ، وكانت الأسوار مزدوجة يفصل بينها فصيل أو خندق . وقد خصص الجزء الجنوبى الشرقى من البلد للأسواق وسمى بالكرخ ، ولكنه لم يلبث أن تخطى السور وامتد حتى بلغ نهر دجلة وعبره إلى ضفته الشرقية ، وقبل نهاية حكم المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ/٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) نجده يأمر بإخراج الأسواق كلها من البلد حتى لا تطغى على هيئته الملوكية ، ولم يلبث الكرخ أن زاد فى الحجم على المدينة نفسها .

وكان للعباسيين غرام بهذه المدن ذات الأشكال الهندسية ، فقد ابتنى المنصور نفسه مدينة على هيئة حدوة الحصان جنوبي الرقة ، ولم تعمر هذه المدينة طويلا برغم أن هارون الرشيد اتخذها مقاماً فيما بين سنتي ١٧٠ ــ ١٩٣ هـ/٧٨٦ ــ ٨٠٩ م .

وبلغ من ضيق بغداد بسكانها أن البلد في عصر المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ/٨٣٣ ــ ٨٤٢ م) ثامن خلفاء بني العباس لم يعد يحتمل جند الخليفة الأتراك الذين كان عددهم يتزايد ، وقد نفر منهم أهل بغداد نفوراً شديداً وكثر الاحتكاك بينهم وبين الناس ، فرأى المعتصم أن يبتني لنفسه وجنده مدينة ملكية على ضفة الدجلة غير بعيد من بغداد ، وتلك هي سامراء ــ أو سر من رأى ــ التي ظلت عاصمة الخلافة نصف قرن تقريباً من سنة ٢٢٤ إلى ٢٧٠ هـ/٨٣٨ إلى ٨٨٣ م ، ولم يغادرها الخلفاء عائدين إلى بغداد إلا عندما شعروا بأنهم أصبحوا فيها أسرى جندهم الأتراك . وقد بنيت سامراء بالطوب الأحمر ، ولهذا بقيت معالمها ، وقد كشف الأثريون عن جزء كبير من آثارها ما بين مساجد وقصور وحمامات ومعسكرات وشوارع فخمة واسعة ، مما يدل على أن فن عمارة المدن تقدم تقدماً بعيداً فيما بين إنشاء بغداد وإنشاء سامراء ، وهي مدة أقل من القرن .

ولدينا فكرة واضحة عن مسجد بغداد الجامع ، وبخاصة بعد أن جدد الرشيد بناءه بالطوب الأحمر ، فنلاحظ أنه ــ مع المحافظة على الهيئة العامة للمساجد الإسلامية حتى ذلك الحين ــ جدّت فكرة إحاطة الصحن بأقواس مستديرة أو مدببة تقوم على دعامات من الطوب ويطلى ذلك كله بالجص ، أما المئذنة فكانت في هيئة برج مستقل عن المسجد . وتحدثنا المراجع أنه كانت تقوم فوق قصر المنصور قبة هائلة مطلية باللون الأخضر من الخارج ، ولكننا لا نعرف كيف كانت هذه القبة على الحقيقة .

وقد بقيت لنا آثار مسجد المتوكل في سامراء ، وقد بنى فيما بين سنتي ٢٣٢ و ٢٣٨ هـ/٨٤٦ ــ ٨٥٢ م . وهو دون شك أكبر مسجد بني في الإسلام ، فإن مقاييسه ٢٤٠×١٥٦ متراً مما يجعل مساحته ٤٠ فداناً ، وعمق جوف بيت الصلاة ٦٢ متراً يتكون من تسعة أساكيب تقوم على تسعة صفوف من الدعامات موازية لجدار القبلة ، وبكل صف منها ٢٤ دعامة . أما بلاطات بيت الصلاة فعددها ٢٥ بلاطة ، وكانت الدعامات مربعة القاعدة طول كل ضلع منها متر . وارتفاعها ١٠

أمتار ونصف المتر . وعدد دعامات بيت الصلاة ٢١٦ دعامة . وكان يحيط بصحن المسجد الفسيح مجنبات فى جهاته الثلاث تفتح كلها ببوائك مدببة على صحن الجامع الواسع ، وكان للجامع ستة عشر باباً . ومما يمتاز به هذا الجامع منارته — أى مئذنته — الحلزونية وتسمى بالملوية ، وهى تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٣ متراً وترتفع فى الجو ٥٠ متراً فوق سطح القاعدة ، وكان الصعود إليها عن طريق مصعد حلزونى يسير بانحدار خفيف حتى يصل إلى موقف الأذان .

وعلى غرار مسجد سامراء بُنى مسجد ابن طولون فى شمال الفسطاط فيما بين سنتى ٢٦٤ — ٢٦٦ هـ/٨٧٧ — ٨٧٩ م ، وهو أصغر من جامع سامراء بكثير ولكنه يتبع فى عمارته نفس الأسلوب ، فهو يتكون من بيت للصلاة عمقه ٤٠ متراً تقريباً ، وصحن واسع تحيط به مجنبات فى جهات الشرق والغرب والشمال ، يتكون كل منها من رواقين . واتساع الصحن ١٠٠×١٠٠ متر ، يتوسطه بناء صغير ذو قبة ، وهذا البناء هو الميضأة . ويطل بيت الصلاة وكذلك المجنبات على الصحن ببوائك تقوم على دعامات حجرية مزينة بنوافذ زخرفية ، أما المئذنة الملوية فتقوم خارج المسجد عند جداره الشمالى ، وما زال جامع ابن طولون باقياً إلى اليوم محتفظاً بهيئته العامة برغم ترميمه مراراً .

وقد اتبعت القصور فى العصر العباسى الأسلوب المعمارى نفسه الذى يقوم على أبهاء مكشوفة ، تحيط بها عمد تحمل أقواسا نصف دائرية أو مدببة ، وخلف الأقواس تقوم الغرف ما بين كبيرة وصغيرة ، ويربط البهو بالبهو رواق ، وبعض هذه القصور مبنّى بالحجر ، مثل قصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة المتوكل المعروف بالجوسق فى سامراء ، وكلها بنيت على هذا الطراز وفرشت أرضها بالحجر ، وقد تزين الجدران بالفسيفساء أو الجص المنقوش ، وربما زينت بكوات صماء زخرفية . وكانت حدائق تلك القصور تزين ببرك الماء ، ولدينا قصيدة للبحترى يصف فيها قصر الجوسق بعد أن خربه الجند ، ولم يستوقف انتباه الشاعر الكبير شيء مثل بركة القصر فأطال الكلام فيها .

وقد أحييت العمارة العباسية الفن الساسانى فى كل صوره ، فانتعشت الفنون الفرعية الداخلة فى فن العمارة كالفسيفساء ومربعات القاشانى والرخام المصقول والخشب المشغول . وقد اختلطت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطى التى تأصلت

من أيام بنى أمية ، وشيئاً فشيئاً نلاحظ تكون الفن الإسلامى الخالص على أساس من تلك العناصر المتنوعة التى تمازجت وتآلفت مع الذوق العربى الإسلامى ، ونشأ عن ذلك الطراز العربى العمارى العام الذى يمتاز بخصائصه المعروفة من الأعمدة الكثيرة التى تحمل أقواساً نصف دائرية أو مدببة يتوالى بعضها فى إثر بعض داخل البناء ، فيشبه أن يكون غابة من الأعمدة الرفيعة المرتفعة والأقواس الرشيقة ، ويمتاز كذلك بالجدران العالية المزينة بالأفاريز الزخرفية التى تقوم زخارفها على أشكال هندسية ونباتية ، وقد يضاف إليها أفاريز من الكتابة الزخرفية ، وتمتاز كذلك بالسقوف الخشبية المزخرفة الملونة .

أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك :

وقد تعددت مدارس العمارة الإسلامية خلال العصر العباسى وما بعده ، فنشأت طرز عمارية متباينة فى الهيئات والتكوين ، ولكنها كلها متشابهة فى الروح والجو العام الذى يسودها ، بحيث تستطيع أن تحكم بمجرد رؤيتك لمبنى عربى بأنه عربى مهما اختلف طرازه ومكانه وزمانه . ونحن نميز فى تاريخ العمارة الإسلامية عدداً من المدارس ، أهمها المدرسة المصرية التى ولدت فى جامع الفسطاط الذى بناه عمرو ابن العاص أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وقد جُدد بناؤه مرات عديدة بحيث اختفت تماماً هيئته وعمارته الأصليتان الأوليان . ولكن تاريخ ذلك الجامع وتطور بنائه يعد تاريخاً للعمارة الإسلامية فى مصر ، وآخر من جدد بناءه على الخطوط الأصلية عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . أما مسجد الفسطاط الحالى فبناء حديث بُنى فى أوائل القرن العشرين ، ولا يمثل الجامع القديم فى شىء . ولكن أثر عمارة جامع الفسطاط الأول نجده فى الكثير من المساجد الصغيرة التى بقيت محتفظة بهيئتها منذ العصر العباسى ، وهى قليلة . ومع أن جامع أحمد ابن طولون الذى تكلمنا عنه أنشىء على غرار جامع سامراء ، إلا أنه أخذ من الطراز المصرى المحلى الأقواس الدائرية ، وأعمدة الطوب ، واستقامة الخطوط ، والهيئة المربعة للمبنى العام بما فى ذلك صحن الجامع .

وقد بدأ فن العمارة المصرى يستقل بنفسه خلال العصر الفاطمى فى مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ/٩٦٩ — ١١٧١ م) فإن الدولة الفاطمية — التى ولدت

مغربية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصري أن ينضج ويأخذ صورته المعروفة التي نجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهي مساجد أفادت من كل التقاليد المعمارية التي وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من بابه إلى محرابه ، حتى وحدات الزخارف المستعملة نجدها شائعة فيه متكررة ، من الأحزمة الزخرفية المنقوشة بالحجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكررا في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده مكررا في النوافذ المفتوحة في أعلى جدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقي إلى الآن من مئذنة هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه المساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من الفسيفساء ، أما المآذن فرفيعة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقفان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفي .

وقد بلغ ذلك الطراز المصري صورته الكاملة في المساجد المملوكية المعروفة ، التي وصلت بهذه العناصر المعمارية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التي نرى نماذجها في مسجد السلطان قلاوون الذي بني سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبيمارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع جدرانه المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدرانه الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مدببة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوائك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التي تتألف من ثلاثة أدوار من النوافذ الزخرفية التي تغطيها ستر من الرخام الزخرفي . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تمتاز به المساجد المملوكية الكبرى ، مثل مسجد البرديني في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبابيك زخرفية مغطاة بستر من الرخام المنحوت . وخلال العصر المملوكي يصل ذلك

مغربية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصري أن ينضج ويأخذ صورته المعروفة التي نجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهي مساجد أفادت من كل التقاليد العمارية التي وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من بابه إلى محرابه ، حتى وحدات الزخارف المستعملة نجدها شائعة فيه متكررة ، من الأحزمة الزخرفية المنقوشة بالحجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكرراً في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده مكررا في النوافذ المفتوحة في أعلى حدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقي إلى الآن من مئذنة هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه المساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من الفسيفساء ، أما المآذن فرفيعة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقفان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفي .

وقد بلغ ذلك الطراز المصري صورته الكاملة في المساجد المملوكية المعروفة ، التي وصلت بهذه العناصر العمارية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التي نرى نماذجها في مسجد السلطان قلاوون الذي بني سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبيمارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع جدرانه المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدرانه الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مدببة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوائك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التي تتألف من ثلاثة أدوار من النوافذ الزخرفية التي تغطيها ستر من الرخام الزخرفي . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تمتاز به المساجد المملوكية الكبرى ، مثل مسجد المردبني في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبابيك زخرفية مغطاة بستر من الرخام المنحوت . وخلال العصر المملوكي يصل ذلك

الطراز إلى ذروته التى تمتاز من الخارج بالمآذن العالية والقباب السامقة التى ما زالت إلى الآن تعطى لمنظر مدينة القاهرة طابعها الإسلامى المعروف .

وهناك المدرسة المغربية التى ولدت فيما بين سنتى ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ ــ ٦٧٥ م عندما بنى عقبة بن نافع جامع القيروان ، وقد جدد بناء هذا الجامع مرات كثيرة آخرها سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م على يد إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بنى الأغلب . ويعرف هذا الجامع فى العادة باسم جامع عقبة ، ومع أنه قد أعيد ترميمه بعد ذلك مرات عديدة ، إلا أنه ما زال يحتفظ بطابعه العام الذى كان له أيام الزيادة السادسة التى أدخلت على مبناه فى أيام إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بنى الأغلب سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م . ويتكون هذا المسجد ــ كغيره من المساجد ــ من بيت صلاة وصحن ، ولكن بينما نجد فى المساجد المشرقية أن صحن الجامع المكشوف يقع فى وسط المبنى ، يحيط به بيت الصلاة من ناحية القبلة ومجنبات من بقية النواحى ، نلاحظ فى مسجد عقبة ــ ومعظم مساجد المغرب والأندلس ــ أن الصحن هو محض امتداد مكشوف لبيت الصلاة ، أى أن المبنى ينقسم قسمين : قسما مغطى هو بيت الصلاة ، وقسما مكشوفاً هو الصحن ، وسور المسجد يدور عليهما معاً . أما المآذن فى مساجد المغرب والأندلس فنجدها فى الجدار المقابل لجدار القبلة ، وهى فى الغالب تكون جزءاً من السور .

المسجد الجامع فى القيروان يعد من أجمل المساجد الإسلامية وأظهرها شخصية ، فإن بيت صلاته عميق يبلغ جوفه ٣٤ متراً ، وطول جدار القبلة ٧٢ متراً ، أى أن مساحة بيت الصلاة المغطى شاسعة تبلغ ٢٤٤٨ مترًا مربعًا . ويتكون بيت الصلاة من ١٧ رواقاً ، الرواق الأوسط عظيم الاتساع وأعلى من بقية الأروقة ، وهو يؤدى رأساً إلى المحراب ، أما بقية الأروقة فهى ثمانية على اليمين وثمانية على اليسار ، وتقوم عليها أقواس عالية نصف دائرية تعتمد فى الداخل على أزواج من الأعمدة الرخامية ، أما فى نهاية بيت الصلاة المطلة على الصحن فإن الأقواس ترتكز على أعمدة رخامية مؤيدة بدعائم من الحجر . وفوق الرواق الأوسط المؤدى إلى المحراب تقوم قبتان جميلتان صغيرتا الحجم نسبيًّا ، ولكنهما غاية فى الجمال .

ويعد مسجد عقبة أبا المساجد المغربية كلها ، فكلها تسير على نفس النظام ، وإن كانت تختلف فى أشكالها وأحجامها ودرجاتها من الفخامة والغنى . ومن ميزات

الطراز المغربي الأخرى أن المآذن — وتسمى هناك بالصوامع أو المنارات — تبنى على هيئة الأبراج . وفي العادة تكون الصومعة بناء قائماً بذاته إلى جوار المسجد ، وأبدان الصوامع تتكون من مبان من ثلاث طبقات في الغالب ، كل طبقة منها أضيق من التي تحتها ، ويزين الصومعة في أعلاها قبة صغيرة . ومن ميزاته أيضاً تزيين جدران المساجد من الخارج بزخارف تنقش في الحجر ، أو بنوافذ زخرفية تصنع من الرخام أحياناً ، وتزين جدران القبلة بالفسيفساء ، وكثيراً ما يكون المحراب من الرخام .

وقد بلغ ذلك الطراز المغربي أوجه في العمائر الموحدية السامقة ، ما بين دينية وغير دينية . والكثير منها باق إلى اليوم في مدن المغرب الكبرى ، وبخاصة في فاس وسلا ومراكش . وبعدُ جامع الكُتُبية في مراكش من مساجد الإسلام الكبرى وأعماله الفنية الخالدة ، وكذلك مسجد القرويين في فاس . وفي مراكش أيضاً تقوم مقابر السعديين ، وهي أضرحة ومساجد بلغت الغاية من الجمال وتمتاز بالفخامة والروعة . وإلى السعديين أيضاً — وهم الدولة التي حكمت المغرب من ٩٦١ هـ إلى ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — ١٦٥٩ م — يرجع الفضل في بناء أسوار مدينة مكناس وبواباتها العالية المحملة بالزينة والزخارف الملونة ، وقد أنشأ سلاطين السعديين هذه الأسوار والبوابات تخليداً لذكرى طردهم للبرتغاليين من المغرب وتحرير أرضهم منهم .

أما الطراز الأندلسي فيعتبر من أجمل الطرز العمارية الإسلامية وأظهرها شخصية . وقد مر هذا الطراز بأدوار مختلفة أثناء تطوره الطويل على طول تاريخ الأندلس ، منذ فتحه سنة ٩١ هـ/٧١١ م على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حتى سقوط غرناطة في ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ يناير ١٤٩٢ م . ويعرف الدور الأول بطراز عصر الخلافة الذي ولد سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م ، عند تمام جامع قرطبة الأول على يد عبد الرحمن الداخل . والخصائص المميزة لطراز عصر الخلافة هي الفخامة والجمال مع المحافظة على رصانة البناء ووقاره ، فالجدران حجرية عالية وحجارتها مصقولة ، وداخل المسجد — أي بيت صلاته — يتكون من ساحة واسعة تنقسم إلى أروقة تسير كلها في اتجاه القبلة ، والرواق الأوسط أوسع من الأروقة الجانبية .

وفي الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأوسط ، لدينا خمسة أروقة إلى اليمين وخمسة إلى اليسار تقوم على أعمدة تحمل أقواساً مزدوجة نصف دائرية مبنية من الطوب الأحمر والحجارة معاً على هيئة زخرفية جميلة . وقد لجأ

المعماريون إلى عمل هذه الأقواس المزدوجة لكي يرفعوا سقف الجامع ، ليتناسب الارتفاع مع مقاييس الجامع الأخرى . وقد زاد عبد الرحمن الأوسط في ذلك المسجد زيادة كبيرة تمت سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م ، ولم تكن الزيادة في العروض وإنما مدّ الجامع طولا ناحية الجنوب ، واقتضى ذلك نقل جدار المحراب مسافة عمقها ثمانية أقواس . وقد تحرى المعماريون أن تكون الزيادة مطابقة تمام المطابقة في هيئتها العامة وتفاصيلها لبناء المسجد الأول . وفي أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بنيت قنطرة تعرف بالساباط ، تؤدي من قصر الإمارة الذي يقع مقابل واجهة المسجد الغربية إلى المسجد الجامع في موازاة المحراب ، وكان الساباط فوق شارع قرطبة الرئيسي المسمى بالمحجة العظمى ، الذي يبدأ عند ضفة الوادي الكبير ويمر بين القصر والجامع ثم يتجه شمالا إلى أسوار البلد . وكان الأمراء يستعملون هذا الساباط للانتقال من القصر إلى الجامع دون أن يمروا في الطريق .

وقد زيد مسجد قرطبة الجامع مرة ثالثة أيام عبد الرحمن الناصر ، وقد تمت الزيادة سنة ٣٤٠ هـ/٩٥١ م ، واقتضت هذه الزيادة هدم جدار المحراب ومد الجامع إلى الجنوب ١٢ قوساً . وبني جدار جديد يعد محرابه آية من آيات الفن الإسلامي ، لأنه ليس مجرد حنية عادية وإنما هو مقصورة من الرخام في الغاية من الرواء ، ومدخلها أشبه بباب مسجد ، وقد زينت بالفسيفساء بزخارف وكتابات بالغة الروعة .

وقد حافظ المعماريون — الذين أنشأوا زيادة عبد الرحمن الناصر — على الوحدة الفنية للمبنى كله ، مع التفنن البعيد في أشكال الأقواس المزدوجة . وفي سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م أضاف المنصور محمد بن أبي عامر زيادة جديدة تبلغ نصف ما بناه بنو أمية قبل ذلك ، وكانت الزيادة على نفس الأسلوب الذي اتبع في بناء المسجد كله ، وبهذا أصبح بيت الصلاة في ذلك المسجد أكبر بيت صلاة لمسجد في عالم الإسلام ، إذ تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة . وللمسجد صحن مكشوف في ناحيته الشمالية تبلغ مساحته فدانين ، وتزين هذا الصحن المكشوف أشجار البرتقال ، ولهذا يسمى بهو النارنج ، وهو الصحن الرحيد في عالم الإسلام الذي زرعت فيه أشجار بموافقة الفقهاء . وسقف هذا المسجد من الخشب المزين بالنقوش من كل صنف ، وفوق البلاطة المؤدية إلى المحراب والبلاطتين المحيطتين بها من اليمين والشمال تقوم ثلاث قباب

صغيرة تعد برغم صغر حجمها من أجمل القباب الإسلامية ، وقد استعملت فيها الأقواس الحجرية المتقاطعة التى تعد أساساً من أسس الطراز المعمارى القوطى ، ومن الثابت الآن أن مسلمى الأندلس هم الذين ابتكروا ذلك الطراز .

وقد استمر العمل فى زيادات ذلك الجامع ٢٥٠ سنة ، ولهذا فهو بعد سجل البيت الأموى الأندلسى ، فيندر أن نجد أميراً أموياً فى الأندلس لم يضف إلى ذلك المسجد شيئاً ، وتبلغ مساحته كله (بيت الصلاة والصحن) ٢٢٥٠٠ متر مربع ، فهو — على هذا — أوسع المساجد الإسلامية الباقية إلى اليوم .

وخلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ولد فى الأندلس طراز العمارة المدجنى ، وهو منسوب إلى المدَّجنين ، أى المسلمين الذين أقاموا فى بلادهم بعد أن سقطت فى أيدى النصارى . وهذا الطراز يمتاز بأن مبانيه تعتمد أساساً على الطوب المحروق ، حتى زخارفها كانت تصنع من ذلك الطوب بوضع صفوفه فى أوضاع مختلفة ، وكذلك كانت الأعمدة فى داخل المبانى من الطوب المحروق ، وقد تطلى بالجص من الداخل ثم تزين بنقوش معقدة وجميلة فى آن واحد تغطى الجدران على مساحات واسعة . ويمتاز ذلك الطراز أيضاً بالأقواس المدببة ، أو أقواس حدوة الحصان التى تعتمد إما على دعامات من الطوب الأحمر أو أعمدة رفيعة مزدوجة . وقد ساد هذا الطراز الأندلس كلها بعد سقوط خلافة بنى أمية ، فبنيت به الكنائس والقليل من المساجد ، وعن هذا الطراز تطور الطراز المورسكى وهو منسوب إلى المورسكيين Los Moriscos ، وهو لفظ إسبانى معناه العرب أو المسلمون الصغار . وهو طراز يعتمد على صغر المبانى ورشاقتها دون فخامتها أو جلالها ، ونموذجه المشهور قصور الحمراء فى غرناطة التى بناها بنو الأحمر ملوك غرناطة ٦٢٩ — ٨٩٧ هـ/١٢٣٢ — ١٤٩٢ م ، وهى تتكون من مجموعات متوالية من الأبهاء والممرات والغرف الصغيرة والأبهاء المكشوفة تزينها البرك ، وكل جزء فيها مثقل بالزخارف والنقوش من كل صف ، وتمتاز بالجواسق الجميلة الأنيقة التى تقوم على عمد رقيقة من الرخام ، كما نرى فى بهو السباع وهو من أشهر الآثار المعمارية فى الدنيا .

وفى الجانب الشرقى من عالم الإسلام نجد الطراز الإيرانى . المشهور ببواباته العالية المكسوة بالرخام ذات الأقواس الزخرفية المدببة ، والقباب العالية الكبيرة القطر المزينة

من الخارج بالزخارف على القاشاني ملونة وغير ملونة . وصحون المساجد الإيرانية أيضاً مرتفعة السقوف تحمد على دعامات من الحجر وأعمدة الرخام معاً . والمنابر الإيرانية آيات من الفن الزخرفي الجميل تضارع في جمالها المنابر المغربية التي يعد بعضها أعمالا فنية خالدة كاملة ، حتى لقد كتب هنرى تراس HENRI TERASSE كتاباً عن منبر واحد منها وهو المنبر القديم لجامع الكُتُبية . ومآذن هذه المساجد الإيرانية منارات عظيمة الارتفاع ، يصل بعضها إلى ثلاثين متراً في الجو ، وتتعدد فيها مواقف الأذان .

أما العمارة الإسلامية التركستانية والهندية فتمتاز بقبابها العالية الكثيرة وبواباتها الواسعة العالية ذات الأقواس المدببة المزينة بالقاشاني المزخرف الملون ، وهي تعد من ناحية استمراراً وتطوراً للفن الإيراني وللتقاليد الفنية الهندية القديمة في قالب إسلامي . وإذا كانت المساجد الهندية لا تمتاز بالارتفاع ، فهي تمتاز بالقباب الرائعة الكثيرة وللمآذن التي تبنى على زوايا الجدران الخارجية للمسجد كأنها الأبراج ، وتزين الجدران في الداخل والخارج بالرخام وصفائح المعدن التي تغطى بها أحياناً رؤوس الأعمدة ، وفي بعض الأحيان تلون المساجد من الخارج بألوان زاهية تجذب الأنظار .

ويدخل في جملة المساجد الهندية والإيرانية الأضرحة أو الروضات ، وقد شاع إنشاؤها والتفنن فيها في إيران والهند . والروضة عبارة عن مسجد صغير يمتاز بقبابه ومآذنه ، تحيط به في العادة روضة واسعة تزينها برك الماء . ونماذج الروضات المشهورة في شرق العالم الإسلامي روضة السلطان همايون في دلهي وقد بنيت سنة ١٥٢٥ ، وروضة التاج محل في أجرا ، وقد سبق أن ذكرناها . ومن أشهر المساجد الإيرانية مسجد الشاه عباس في أصفهان ، وقد بني في القرن السابع عشر وهو من إنشاء العماري أستاذ على أكبرى أصفاهاني ، ويمتاز هذا المسجد ببوابته العالية ذات القوس المدبب المغطاة بالرخام والمزينة بالقاشاني الملون ، ويمتاز كذلك بقبته العالية تزينها مئذنتان جميلتان ، والقبة مغطاة من الخارج بالقاشاني الأخضر المزين بالزخارف .

ومن طرز العمارة الإسلامية المشهورة الطراز التركي العثماني ، الذي نشهد نماذجه الجميلة في بروسة والآستانة وأدرنة وغيرها من المدن التركية . ويمتاز هذا الطراز بكثرة القباب ما بين كبيرة وصغيرة في الجامع الواحد ، ويمتاز كذلك بمآذنه الرفيعة الطويلة التي تروق النفس برشاقتها وانطلاقها في الهواء . وداخل المساجد التركية يمتاز

بفخامة تروع النفس ، تقوم على الأقواس الضخمة العالية ، والقباب المرتفعة ، والدعامات الحجرية السميكة ، ومجموعات النوافذ تزين أعلى البناء وتفيض النور بداخله . ومن أشهر المساجد العثمانية مسجد السلطان سليمان ، وهو من بناء المعمارى التركى الأشهر سنان الذى وضع أساس فن العمارة التركى ، وقد بناه فيما بين سنتى ١٥٥٠ و ١٥٥٦ . وقد توفى سنان سنة ١٥٧٨ ، وهو يعد من كبار المعماريين فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، ومبانيه ــ التى تمت كلها خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر ــ تضارع أعظم المنشآت التى بناها المعماريون الإيطاليون فى عصر النهضة ، ومن مساجده المشهورة شاه زادة والمحمدية والسليمانية وجامع بايزيد ، وكلها تضارع مسجد آياصوفيا فى الفخامة والجلال . ومن تلاميذه محمد آغا بن عبد المؤمن ، وهو أيضاً من كبار المعماريين فى تاريخ الإسلام ، ومن أعظم مساجده مسجد السلطان أحمد فى الآستانة وقد بنى فيما بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٩ .

الفنون الصغيرة عند المسلمين :

يراد بالفنون الصغيرة الأقمشة والأنسجة المزركشة بأنواعها ، سواء أكانت ملابس أم ستراً أم مفارش أم سجاجيد أم بسطاً ، والأدوات المعدنية ما بين نحاسية وبرونزية وحديدية أحياناً ــ بشرط أن تكتسى حلة فنية وتصبح قطعاً فنية لا مجرد أدوات منزلية ــ ومصنوعات العاج المشغول والخشب المزخرف والمحلى بالعاج والصدف والآبنوس والزخارف المختلفة ومربعات القاشانى وأوانى الفخار والخزف بأنواعها ، أى أن الفنون الصغيرة تشمل كل تلك المصنوعات التى تستخدم فى الحياة اليومية أو فى الحرب أو فى زينة البيوت ، وتصلح فى الوقت نفسه لتكون من أدوات الترف وأعمال الفن ، مما يسمح للفنان بأن يضفى عليها من ابتكاره أو يعطيها صورة فنية خالصة .

وقد أبدع أهل الصناعة والفن من العرب والمسلمين قطعاً فنية فريدة من هذه الأدوات كلها ، والإبداع هنا لا يتجلى فى إتقان الزخارف وبراعة خطوطها وانسجام ألوانها فحسب ، بل فى دقة الصناعة نفسها ، فقد نبغ المسلمون فى صناعة الأنسجة حتى أخرجت مناسج مصر ثياباً كاملة لا يزن ثوب الرجل منها أكثر من خمس

قوقيات ، واقتدروا على نسج ثياب فيها خيوط من الذهب وأخرى من الفضة ، وهذه الثياب الغالية هي التي كانت تزخرف وتحلى بالرسوم .

وفي متاحف الآثار في العالم اليوم قطع بديعة من نسيج مصر الفاطمية من الكتان ، ونسيج إيران القطني مزخرف بالحرير تعد من المعالم البارزة في تاريخ النسيج في العالم . ويكفي أن نذكر هنا أن إيران كانت تصنع أحسن صنوف المخمل ، ومصر كانت تنتج أحسن نسيج كتاني في العالم في حين أخرجت مناسج اليمن والعراق أجمل حرير في الدنيا في العصور الوسطى ، وقد كانت قواعد الصنعة الإيرانية في المخمل هي التي اقتبسها الأوروبيون عندما أنشأوا صناعة نسيج المخمل في بلادهم .

ومن أمثلة البراعة في صياغة المعادن تكفيتُ أواني النحاس والفضة بخيوط من الذهب تلحم في المعدن وتعطي أشكالا وصوراً زخرفية غاية في الإبداع ، وكذلك تطعيم الخشب بالعاج والصدف ، وتزيين الآبنوس بالذهب والفضة . وفي متاحف الفن الشيء الكثير من روائع الصناديق والعلب الإسلامية التي أبدع فيها الفنانون المسلمون .

وقد بلغ المسلمون في صناعة الزجاج شأواً عظيماً ، فصنعوا الزجاج المبسوط الذي يستعمل في النوافذ والأبواب ، وصنعوه أبيض وملوناً ومنقوشا ، وأبدعوا في صناعة آنية الزجاج من كؤوس وأكواب غاية في الرقة وزينوها بالميناء ، وعرفوا كذلك كيف يصنعون البللور — أي الكريستال — الصافي الأبيض والملون ، وصنعوا منه الأكواب والأباريق ، وأتقنوا كذلك صناعة الخزف الساذج والخزف ذي البريق المعدني وكذلك مربعات القاشاني وأدواته ، وزينوا ذلك كله بالنقوش والرسوم والكتابات الزخرفية . وفي متاحف الفن العالمية مجموعات من جلود الكتب تفنن المسلمون في صناعتها وزخرفها بالذهب والألوان الزاهية وبخاصة اللونين الأزرق والأحمر . ولدينا كذلك نماذج رائعة من سجادات الصلاة من إنتاج بلاد الإسلام كلها ، أما انفراد المسلمين بإنتاج أحسن السجاجيد في العالم فأمر مشهور لا يحتاج إلى بيان ، وأشهر البلاد التي امتازت بصناعة السجاجيد والبسط إيران والتركستان والهند . وفي المغرب يصنعون فُرُشاً بسيطة من الصوف في غاية الجمال تسمى بالزرابي (المفرد زَرْبِيَّة) .

التصوير والنحت عند المسلمين :

يذهب كثيرون إلى أن الإسلام يحرم التصوير ، ومع أننا لا نجد فى القرآن الكريم شيئاً يؤيد هذا الرأى ، بل لا نجد حديثاً شريفاً موثوقاً بصحته يمنع المسلمين من التصوير والنحت ، إلا أن الكثيرين من الفقهاء نصوا على ذلك التحريم ، قفلاً لباب عبادة الأصنام بصورة نهائية فى مجتمعات المسلمين .

ولكن التصوير عند المسلمين — مع ذلك — حقيقة واقعة ، فتاريخ الشعوب الإسلامية حافل بالرسوم والتصاوير من كل نوع ، ولم تكتف جماهير المسلمين فى كثير من مواطنهم بعمل تماثيل صغيرة ، للتسلية والزينة أو لعب الأطفال وما إلى ذلك ، بل نبغ من بين المسلمين رسامون ومصورون وفنانون يعدون اليوم من أعلام تاريخ فن التصوير العالمى ، من أمثال بهزاد وسلطان محمد وأستاذ محمدى ورضا العباسى وغيرهم . ولدينا فى حمراء غرناطة لوحات ملونة تسمى بلوحات الملوك العرب ، رسمت فى القرن الرابع عشر الميلادى على نحو من الدقة والإتقان فى تصوير الأشخاص والمناظر لم تصل إليه أوروبا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى ، سواء فى إيطاليا أو هولندا ، مما يؤكد لنا أن فن التصوير الأوروبى ولد فى الحقيقة على يد مسلمى الأندلس ؛ وهذا موضوع لا بد من دراسته وإظهار فضل العرب فيه .

ويستوقف النظر أن فن التصوير نشأ عند المسلمين نتيجة لحبهم للقرآن الكريم ، ورغبة الأثرياء منهم فى الحصول على مصاحف محلاة بالزخارف والألوان ، مما جعل الخطاطين والمزخرفين يعكفون على عمل هذه المصاحف وإنفاق الوقت الطويل فى إعدادها وكتابة خطوطها بالذهب وزخرفة الصفحات بالوحدات الزخرفية الملونة . ويتجلى ذلك كله فى الصفحات الأولى من المصاحف وفى فواتح السور .

وسواء فى مصر أو الأندلس أو إيران ، نجد أن كتابة المصاحف وتزيينها بالزخارف هى نقطة البداية فى فن تصوير الكتب بالرسوم الصغيرة التى تسمى بالمنمنمات ، فقد تطرق الفنانون من إعداد المصاحف المزخرفة إلى إعداد نسخ من الكتب التى يزداد إقبال الناس عليها إذا كانت مصورة مزخرفة برسوم صغيرة لمشاهد من النص أو برسوم توضحه ، وأكثر الكتب قابلية لذلك كانت كتب الأدب القصصى مثل كتاب كليلة ودمنة ومقامات أبى القاسم الحريرى والشاهنامة وقصص ألف ليلة . ومن أطرف

الكتب المصورة لدينا سيرة نبوية كريمة صور صانعها كل المشاهد التى لا يظهر فيها رسول الله ﷺ ، وفى هذا المخطوط نرى تصاوير أبى جهل وأبى لهب والوليد ابن المغيرة وغيرهم من أعداء الإسلام وهل رأسهم إبليس ، الذى يبدو فى تلك الصور مجتمعًا مع الكفار يميزه عنهم قرنان يبرزان من جبينه .

وقد اشتهرت فى عالم الإسلام مدرستان فى عمل الكتب الفاخرة المصورة : المدرسة المملوكية وهى تعنى قبل كل شىء بالخط نفسه ، فتتأنق فى كتابة النصوص وتزيين العناوين بالزخارف الملونة ، وتقف عند ذلك الحد ؛ ثم المدرسة الإيرانية التى ولدت خلال العصر العباسى الثانى وظهرت أعمالها فى تصوير مناظر الكتب ومشاهد ما تقص من أحداث ، وعن هذه المدرسة ولدت المدرسة الإيرانية الصرفة التى ظهرت أيام الصفويين فى إيران فى بلدة هراة فى عهد الشاه إسماعيل الصفوى ، وهى فى أصلها مدرسة خطوط أى مدرسة خطاطين تطورت مع الزمن شيئاً فشيئاً . ومن المعروف أنه ظهرت فى إيران وشمال الهند مدرسة خطاطين ممتازين أيام دولة المغول تسمى مدرسة الخطاطين التيمورية .

من هراة انتقلت مدرسة التصوير الإيرانى إلى تبريز عاصمة إيران الصفوية ، وهناك اجتمع عدد عظيم من أساتذة الخط — وبخاصة النسخ والثلث — وانضم إليهم عدد كبير من المزخرفين والملونين ، وقد أبدعوا فى عمل مخطوطات مزخرفة تعد من آيات فن الكتب فى تاريخ المسلمين . وقد كان لهذه المدرسة أثر كبير فى صناعة السجاد ، إذ اشتغل الكثيرون من أساتذتها فى وضع تصميمات زخارف السجاجيد الإيرانية المشهورة .

ومدرسة تبريز كانت أساساً لمدارس الخطاطين والمزخرفين التركية والهندية ، فقد كان قيام مدرسة الآستانة للخطاطين والمزخرفين عملا من أعمال أساتذة انتقلوا إليها من تبريز وعلموا نفراً من شباب الأتراك هذا الفن . ونشأت فى دهلى مدرسة مشابهة قامت على أصول هندية قديمة ، وكان ذلك فى القرن السادس عشر الميلادى .

ونتيجة لجهود مدرستى هراة وتبريز ابتكر فن تصوير الكتب بالزخارف والمنمنمات ، وأقبل عليها جمهور المسلمين إقبالا عظيما فراجت سوقها وزادت حماسة العاملين فيها ، فتقدم فنهم تقدماً عظيما . وفى متاحف الفن ومكتبات العالم اليوم

عشرات من المخطوطات المصورة من كتاب كليلة ودمنة ومن كتب الرحلات ومن الشاهنامة للفردوسي ومن دواوين الشاعر نظامي ورباعيات الخيام .

وفى مراسم فنانى مدرسة المنمنمات ولدت مدرسة من أكبر مدارس التصوير فى تاريخ الفنون عند المسلمين . ورأس هذه المدرسة بهزاد ، وأصول تصويره كلها مغولية ، ولهذا نجد صور الأشخاص فيها ذات ملامح مغولية صينية ، وكذلك تصويره للأشجار والزهور والبساتين يسير وفق التقاليد الصينية . وقد عاش بهزاد أيام الشاه إسماعيل الصفوى وأقام فى تبريز حتى سنة ١٥٢٠ م ، وهو أول من استبعد الخطوط والكتابات من التصاوير ورسم لوحات قائمة بذاتها . والباقى لدينا من تصاوير بهزاد قليل جدًا ، ولكن تصاوير تلاميذه من أمثال محمود مذهبى وسلطان محمد ورضا عباسى كثيرة جدًا ، وهى من كبار الأعمال الفنية التى لا يخلو من نماذجها تاريخ لفن التصوير فى العالم . وقد عاش سلطان محمد أيام الشاه طهماسب خليفة إسماعيل الصفوى ، وهو أول من عمل من رسومه مجموعاً سماه المرقع ــ وهو لفظ عربى إيرانى يقابل ما نسميه اليوم بالألبوم ــ جمع فيه رسوماً ولوحات مستقلة بذاتها ، أى ليست متصلة بنص كتاب ، وهى مستقاة من الأساطير والحكايات الشعبية .

وأكبر من نبغ بعد سلطان محمد هو رضا عباسى ، وقد عاش وعمل فى أصفهان وأنشأ فيها مدرسة فنية خلال القرن السابع عشر الميلادى . وقد استوقفت لوحاته الأوروبيين عندما وصلت إلى هولندا ، وكان فن التصوير فيها فى أوجه فى ذلك الحين ، وقد بلغ من إعجاب الأوروبيين بلوحات رضا عباسى أن أصبحت طرازاً جديداً أقبل عليه الناس وقلدوه فى أوروبا كلها حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهو يركز على صور الشخوص ومناظر الطبيعة والألوان .

وإلى جانب هذه المدرسة الإيرانية ظهرت مدرسة التصوير الأندلسية ، وقد قامت فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونشأت نماذجها أولا فى تصاوير النسيج والرسوم على الأطباق والأباريق وأكواب الزجاج ، ثم تطورت إلى عمل اللوحات ، ونماذجها كثيرة جدًا فى متاحف إسبانيا وبقية العالم اليوم ، ومن أسف أن كل فنانيها مجهولون لا نذكر منهم واحداً باسمه وإن كنا نعجب بما لدينا من نماذج أعمالهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى لوحات ملوك العرب الموجودة فى بعض سقوف قصور الحمراء ، وقد كان هناك من يزعمون أن الذين قاموا برسمها كانوا رسامين إيطاليين

وفدوا على بلاط بنى الأحمر فى غرناطة ، ولكن يتضح لنا خطأ هذه النظرية عندما نعلم أننا لا نجد فى إيطاليا خلال القرن الرابع عشر الميلادى كله رسامين يصلون إلى مستوى تصاوير السقوف التى نشير إليها . وهذا يثبت بشكل قاطع أن هذه اللوحات ليست من عمل إيطاليين ، وإنما هى من عمل أندلسيين ، فنحن لا نجدها ولا نجد هذا المستوى الفنى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى إلا هناك . وقد انطمس الكثير من معالم ذلك الفن التصويرى الأندلسى لأسباب غير معروفة ، فبينما كانت لدينا تصاوير واضحة على جدران الحمراء وسقوفها حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، اختفى الكثير منها الآن ، ومن حسن الحظ أن عدداً من الرحالة المصورين احتفظوا لنا بالكثير من نماذجها .

وهذه النماذج الأندلسية تقرر بوضوح أن فنًا إسلاميًا تصويريًا أزهر فى الأندلس خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين أيام بنى نصر بن الأحمر ملوك غرناطة ، وربما كان لهذا الفن أثر فى ميلاد فن التصوير فى الغرب .

وفى كل بلاد الإسلام تقريباً تطور فن النحت فى صورة الزخارف البارزة على الخشب والعاج والرخام ، ثم استعمل فى صنع تماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والمملوكية والأندلس ابتداء من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولدينا من نماذج النحت الفاطمى تماثيل كاملة غاية فى الإتقان ، وكذلك لدينا نماذج من النحت الأندلسى لا تقل عن أرقى ما وصل إليه فن النحت الأوروبى حتى القرن السابع عشر الميلادى .

ويجدر بأهل الفن فى بلاد الإسلام اليوم أن يدرسوا هذه التقاليد الفنية التى خلفها الموهوبون من أهل أجيالهم الماضية لابتكار مدارس قومية فى التصوير والنحت تحمل الطابع القومى ، كما فعل محمود مختار عندما استلهم فنه من التقاليد المصرية القديمة وصاغ تماثيله على قواعدها ، فكان هذا سبب خلود فنه . وجدير بالذكر أن محمود مختار هو الفنان العربى الوحيد الذى أنشأ طرازاً فنياً قائماً بذاته ، يمتاز بشخصية وملامح ظاهرة تنطق بأصولها القديمة وتتماشى مع تيارات الفن المعاصر .

الموسيقى عند شعوب الإسلام :

أثارت مسألة الموسيقى والغناء والسماع جدلا شديداً بين الفقهاء ، فأجاز ذلك

نفر من أئمتهم مثل أبى حامد الغزالى الذى اختص السماع وآدابه بفصل قائم بذاته فى كتابه الأشهر « إحياء علوم الدين » ، وخلاصة رأيه قوله : « وما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس » وقوله : « لا وجه لتحريم سماع صوت طيب » . وحرمه منهم نفر آخر على رأسهم مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعى . وقد تشدد فى التحريم قوم جعلوا محض ترنم الرجل — إذا خلا بنفسه — خطيئة . وبطبيعة الحال يستند كل فريق إلى تفسيرات شتى لآيات من القرآن الكريم ، وإلى أحاديث نبوية كثيرة يختلف العلماء فى الحكم عليها من حيث الصحة وعدمها .

ولكى نفهم مواقف كبار الفقهاء من هذه المشكلة — التى تبدو لنا اليوم أبسط من أن تكون موضع نقاش وأخذ ورد طويلين — علينا أن نضع موضوع الغناء والموسيقى فى عالم المسلمين فى إطارها التاريخى فى أثناء العصور الماضية ، فإن ذلك يفسر لنا لماذا حمل نفر من أئمة الفقهاء على الموسيقى والموسيقيين والغناء والمغنين حملة كبرى .

ذلك أننا نحكم فى هذه المسألة على ضوء صورتها ووضعها الحاليين فى مجتمعنا الراهن ، فنحن اليوم نسمع الغناء والموسيقى الجديرين بهذا الاسم من مغنين ومغنيات وموسيقيين محترمين لهم سمت ووقار ، وهم يدرسون فنهم دراسة علمية وفنية شاقة حتى يصلوا إلى مستوى فنى رفيع ، وهم يعزفون أو ينشدون كلاماً أدبياً جميلا ينطوى على معان إنسانية وقومية رفيعة يقولها شعراء مجيدون . وبعضنا كذلك يستمع إلى ما يعرف بالموسيقى الكلاسيكية الغربية ، وهى قطع فنية رفيعة وضعها موسيقيون موهوبون عبروا بالنغم عن أجل وأرفع ما فى الكون والنفس البشرية . ومنا من يستمعون إلى الأوبرا فى مسارحها ، فيرون ويسمعون أعمالا فنية جليلة ، تقوم على قصص رفيع وتلحين مبدع لا يقوم به إلا رجال موهوبون على حظ كبير من العلم والخبرة بالموسيقى ، وهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد دراسات وصبر ومعاناة . ونحن نستمع إلى هذا كله ونحن جلوس فى أمكنة مخصصة للسماع على هيئة يسودها الوقار والحشمة واحترام ما يلقى إلينا من فن وتقدير لمواهب الموسيقيين والمنشدين دون أن تبدر من جمهور السامعين بوادر خفة أو طيش أو دون أن يصاحب ذلك كله مظهر من مظاهر الخلاعة أو سوء الخلق .

وهذه الصورة الحديثة عن السماع فى يومنا هذا تجعلنا نتعجب كيف يحرم ذلك إنسان أو يرى فيه شيئاً مخالفاً للدين.

ولكن الأمر فى العصور الماضية كان يخالف ذلك كل المخالفة، فإن الغناء والموسيقى كانا مقصورين فى الغالب على وسطين من أوساط الناس: الأول وسط القصور التى يعيش فيها أصحاب الجاه والمال، الذين كانوا يستطيعون شراء الجوارى والقيان ويجلسون لسماعهن جلوساً بعيداً عن الحشمة فى قصورهم، ويدعون أصحابهم إلى ذلك السماع، ويدور الشراب ويتبذل الناس تبذلا شديداً، ويطرحون الحشمة ويقع ما يتنافى مع الخلق والكرامة وكل معنى من معانى الدين.

أما الوسط الثانى فهو دُور اللهو والشراب فى الأسواق، وكان الذين يقومون بالعزف والغناء فيها أهل خلاعة وفساد وفجور واحتيال على المال وإقبال على الشراب، فكان لا يلم بهذه الأمكنة إلا المتجردون من الحشمة أو طلاب اللهو المبتذل أو البسطاء والحمقى ممن يعرضون كرامتهم للهوان وأموالهم للتلف، ولا يخلو الأمر من عراك وشجار بين أشرار يتخذون هذه الأمكنة أوكاراً ومراكز لاستغلال النساء والحمقى والهروب من طائلة القانون.

وأما عامة الناس وأوساطهم وجماعات أهل الريف من أهل الحشمة؛ فقلما كانت تتاح لهم فرص السماع أو الاستمتاع بالموسيقى، فيما عدا ما يكون من المناسبات الاجتماعية كالأعراس وما إليها، وهنا لا تغنى قيان أو مغنيات أو مغنون من أهل الاحتراف، لأن الغناء فى تلك المناسبات الاجتماعية يكون جماعيًّا ونادراً ما يخرج على الحشمة، ومن ثم فهو لا يدخل فى نطاق يعده المتشددون محرماً، بل كان يجرى أيام الرسول ـ ﷺ ـ دون أن يلقى استهجاناً.

إذن فالسماع الذى كرهه أهل الفقه هو ما كان يجرى فى قصور المترفين وفى دور اللهو والحانات، وهذا كله خليع يغلب عليه المجون والسقوط مما ينفر منه أهل الديانة والوقار والعقل والحريصون على سمعتهم، وهذه الألوان من اللهو مستهجنة مرذولة فى كل زمان ومكان، وفى كل مجتمع، بل هى فى أيامنا هذه مقصورة على أهلها يتحاشاها مساتير الناس دون تحذير من فقيه أو تحريم من رجل دين.

وهناك نوعان آخران من الغناء والرقص عرفا في العصور الوسطى ، فأما أولهما فغناء جماعات المغنين والراقصات ممن كانوا يسمون بالغجر أو الغوازى ومن يجرى مجراهم ، وهو لهو مرذول بطبعه يمارسه ناس متنقلون يسلون به العوام في الأسواق ويجمعون منهم ما تيسر لهم من المال ، وهم لا يتعففون عن السرقة والموبقات ، وهذا أيضاً يدخل تحت المستهجن الذى يتحاشاه أهل الحشمة وينفر منه أهل الفقه والدين . ومن هنا فموقف العداء الذى وقفه رجال الدين في العصور الوسطى من الموسيقى والغناء موقف معقول ، إذا تصورنا الموضوع على الصورة التى وصفناه بها . وهم لم ينفروا من الموسيقى والغناء لذاتهما ، بل للجوّ غير المحتشم الذى كان يحيط بهما ، وللكلام الذى كان يقال في الأغانى عندما تغنى على الصور التى وصفناها . أما الموسيقى والغناء في ذاتهما فلم يستنكرهما أحد ، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه من الممكن أن تعزف الموسيقى وينشد الغناء بعيدين عن كل تبذل أو انحطاط أو دعوة إلى الرذائل تبينّا أنه لا حرج على الناس ــ أيًّا كان مكانهم من الديانة والصلاح ــ في السماع للنغم الجميل النبيل الذى يعزف ليسمو بالنفس إلى المعانى العالية ، والغناء الذى يتضمن معانى العفة والكرامة والوطنية وما إلى ذلك وينشد في سمت كريم ووقار شامل .

ونعود إلى الغناء الجماعى الذى ينشده الجوالون في الأسواق ، فنقول إن هذا الطراز من الإنشاد وجد إقبالا عند جماهير الناس في كثير من بلاد المسلمين ، مثل الأندلس حيث ارتقى الناس به فلم يقتصر على الغجر والغوازى ، بل أقبل عليه عامة الناس في الأسواق وشاركوا فيه فغنوا بما أهمهم من الأمور وما شغل بالهم من الأفكار ، بل استمال هذا الفن أصحاب الملكات الشعرية المرهفة فابتكروا الزجل ، وهو شعر عامى بدأ الناس يصوغونه على أوزان الشعر الفصيح في النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، واشتهر به أول الأمر رجل من أهل مدينة قَبْرَه قرب قرطبة يسمى « مقدم بن معافى الضرير » ، وتبعه كثيرون في نظمه ، ثم ابتكر الناس له بحوراً وأوزاناً خاصة وجعلوا منه فنًّا شعريًّا أصيلا نبغ فيه رجال ممتازون من أمثال « أبى بكر عبادة بن ماء السماء » ثم « أبى بكر بن قزمان » ، وهذا الأخير عبقرية شعرية حقيقية صوّر في أزجاله مجتمعه وحياة الناس من حوله على صورة لا نجدها في أى عمل أدبى آخر .

وبينما كانت العادة أن ينظم الناس الشعر ثم يضعوا له الألحان ، نجد أن الأمر كان على العكس مع الزجل : كان الزجالون يأخذون أنغاماً شعبية سائرة وينظمون لها الكلام على نحو يتفق مع طريقة إنشاد هذه الألحان . فهناك مدخل تغنيه الجماعة معاً ، ثم يغني منشد منفرد أشطاراً قد تكون أربعة أو ستة على روى واحد ، وهذه الأشطار تسمى الغصن ، ويلي ذلك شطران على روى المدخل يسميان الخرجة ، ثم يغني الجميع المدخل ، وينفرد المنشد المفرد بعد ذلك بإنشاد غصن آخر مثل الأول ، تليه خرجة ، ثم الإنشاد الجماعي . وبعد إنشاد بضعة أغصان يغني المنشد خرجة نهائية تسمى القفل ، يعقبها الإنشاد الجماعي .

وقد شاع الزجل بعد ذلك شيوعاً عظيماً في الأندلس ثم في المغرب ، ومن هناك انتقل إلى المشرق . وكانت له سوق نافقة ، فأقبل عليه الناس وكثر الزجالون وصانعو الألحان لها ، بحيث أصبح الزجل والأغاني التي تقوم عليه أساس فن الغناء الشعبي في كل مكان في العالم العربي والإسلامي .

ومع الزجل نشأ الموشح ، وهو — إذا أردنا إعطاءه تعريفاً مبسّطاً — زجل يكون بالعربية الفصحى ، غير أن خرجته قد تكون بالدارجة أو بالعجمية ، أي بلغة غير عربية كما كان الحال بالأندلس . وقد لقيت الموشحات ، إقبالاً عظيماً وانصرف إلى صياغتها شعراء كبار امتازوا بها وتفننوا فيها ، وكما انتقل الزجل من الأندلس إلى المشرق فكذلك كان الأمر مع الموشح : انتقل هو أيضاً إلى المشرق وشاع استعماله فيه ، واستمر الناس يوشحون ويلحنون الموشحات حتى زمن قريب .

وقد انتقل الزجل والموشح إلى الغرب الأوروبي وظهر في جنوبي فرنسا حيث ظهرت أزجال وموشحات بروفانسية — والبروفانسية هي اللغة الفرنسية التي كانوا يتكلمونها في جنوبي فرنسا — وظهر شعراء زجالون ووشاحون بين أهل هذه البلاد ، وتكونت فرق من المنشدين الشعبيين تغني هذه الموشحات البروفانسية عرفوا باسم التروبادور les troubadours . وانتقل هذا الفن إلى إيطاليا ، وظهرت هناك جماعات المغنين الشعبيين التي عرفت باسم التروفاتوري gli trovatori ، وانتقلت كذلك إلى ألمانيا حيث عرفت باسم المينيسنجر die minnesinger أي منشدي المقطّعات ، وفي إنجلترا عرفوا باسم المنسترل the ministrels .

وهذه الأغانى الشعبية لم يخل منها شعب عربى أو إسلامى ، بل أى شعب على الأرض ، وهى لا تخضع لإباحة أو تحريم لأنها ليست لهوًا خالصًا ، وإنما هى جزء من حياة الشعوب ، فإن الشعوب تعمل وتحارب وتغنى ، وأغانيها هذه صورة لنفوس فعلها وتصوير لمشاعرهم وتفريج عن نفوسهم ، وهى جانب مهم من الفولكلور الذى أشرنا إليه ، وهى من هنا أصيلة فى الغالب وموسيقاها طبيعية غير متكلفة ، لأنها جزء من حياة الشعوب ، فالفلاحون ينشدون أغانى الحقول ، والملاحون ينشدون أناشيد البحر ، والرعاة ينشدون أناشيد الرعاة ، والعمال ينشدون ألحانا على وقع حركاتهم فى العمل ، وهذه الأغانى والأنغام الشعبية هى المنبع الذى تغترف منه وتستوحيه الموسيقى الأصيلة لأى شعب من الشعوب .

وبالنسبة للعرب ، كان غناؤهم الشعبى الأصيل هو الحداء أو الحدو ، وهو إنشاد قائد الجمل أو راكبه على وقع خطواته فى الرمال ، وهو غناء ساذج لطيف تستريح له الأذن وتأنس به الجمال أثناء السير ، وقد ابتكر له العرب أناشيد رقيقة جميلة تتماشى معانيها مع طبيعة الحياة الصحراوية .

وقد انتقل الحداء مع العرب إلى كل بلد ذهبوا إليه ، وصبوه فى تيار الموسيقى الشعبية فى كل مكان ، وما زال حيا إلى اليوم فى كل نواحى صحراء جزيرة العرب وفى كل النواحى الصحراوية فى العالم الإسلامى ، بل نجد صورة منه اليوم فى بلد لم يعد عربيا وهو البرتغال ، فإن الغناء القومى الأصيل هناك يسمى الفادو Fado وهو فى الحقيقة لفظ الحدو العربى .

وهناك نوع آخر من الموسيقى والغناء فى البلاد الإسلامية قام حوله جدل طويل هو إنشاد الصوفية ، وقد أنكر غالبية الفقهاء هذا الغناء وما يصاحبه من حركات يأتى بها الصوفية لضبط الإيقاع تتناقض مع الخشوع الضرورى للعبادة ، وحملوا على الصوفية حملة شديدة لهذا السبب ، ولم يقل بجواز ذلك إلا قليل من الأئمة مثل أبى حامد الغزالى فى فصل خاص من « إحياء علوم الدين » عنوانه « آداب

السماع » . وجدير بالذكر أن الغزالي خالف الفقهاء التقليديين في موقفهم من الصوفية ، لأنه هو نفسه كان ذا نزعة صوفية ظاهرة .

والحقيقة أن بعض طوائف الصوفية أسرفت في الإنشاد الجماعي أو الفردي وفي الرقص الذي يصاحبه ، فصارت أفكارهم أقرب إلى التسلية والهزل المؤديين إلى الفساد ، وبخاصة عندما أصبح ذلك الإنشاد جزءا من الاحتفالات الشعبية المصاحبة لموالد الأولياء ، فصار الإنشاد والرقص سبيلا للفساد . ولكنَّ هناك طوائف من الطرق الصوفية التركية ــ مثل المولوية والبكتاشية ــ جوّدوا الغناء والرقص حتى أصبحا فنين مستقلين عن العبادة ، وقد وصلوا بهذا التجويد إلى نوع يعد من أرقى رقصات الباليه الجماعي ، وحتى الحرب العالمية الأولى كان السائحون في مصر وتركيا يحرصون على شهود رقص الدراويش الدوّارين في خانقاواتهم ، لأن ذلك الرقص كان تسلية ومتعة . وقد احتفظ الرقص الفولكلوري التركي المعاصر بمشاهد من ذلك الرقص الطريف .

العلم الموسيقي عند المسلمين :

ولابد للباحث في الموسيقى عند المسلمين أن يدرس الناحيتين النظرية والعملية للموسيقى كلا على حدة ، لأن فلاسفة المسلمين وعلماء الموسيقى عندهم درسوا الموسيقى وألفوا فيها على أساس نظري بحت ، لا علاقة له بالموسيقى المطبقة المسموعة . فهم يدرسون النغم وماهيته وأنواعه ومطابقة هذه الأنواع للطبائع الأربع ، فقد قسموا المواد التي خلقت منها الأشياء إلى أربع مواد ، هي : الماء ، والهوا ، والتراب ، والنار . وقالوا إن الإنسان أيضا مركب من أربعة عناصر مقابلة للمواد الأربع وهي : الدم ، والنفس ، والجسد ، والروح . وقالوا إن طبائع الأجساد البشرية أربع مقابلة لهذه ، هي : الحرارة ، واليبوسة ، والرطوبة ، والصفراء .

وهذه الطبائع الأربع تسمى أيضا بالأمزجة ، فلكل إنسان مزاجه وهو الغالب

على تركيبه من هذه الأربعة . وعلى هذا الأساس قالوا إن العود هو الآلة الموسيقية الكاملة ، لأنها تتركب من أربعة أوتار تقابل الطبائع أو الأمزجة الأربعة ثم استرسلوا فى الكلام عن الأنغام والأصوات وربطوها بالكون والنجوم ، وساروا فى ذلك مدى بعيدا .

وقد أخذ العرب هذا العلم الموسيقى النظرى عن اليونان ، ثم استقلوا بأنفسهم فأنشأوا فيه المقالات والكتب ، وكلامهم يدور حول الإيقاع والصوت والنغم وقياس كل من الأصوات والأنغام . وأول من ألف فى ذلك من العرب ابن مِسْجَح الذى عاش فى الحجاز وتوفى فيما بين سنتى ٨٦ و ٩٦ هـ / ٧٠٥ و ٧١٤ م ، وقد اعتمد فى كلامه على نظريات فارسية وبيزنطية واتخذ أساسا لقياس الأنغام ، هو السلم الموسيقى الفيثاغورى ، وهو يختلف عن السلم الموسيقى المعروف اليوم فى أن أنغامه الكاملة أربع أنغام تتخللها أنصاف وأرباع أنغام . وقد تناول هذا السلم بالتعديل إسحاق الموصلى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م وأبو الفرج الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م ، وقد اتخذ المسلمون سلالم موسيقية أخرى .

وقد ألف فى النظريات الموسيقية عدد كبير من المسلمين ، وكان أول المجيدين منهم يونس الكاتب المتوفى سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م كما ذكر ابن النديم فى كتابه المعروف باسم « الفهرست » . ولكن إمام المؤلفين فى النظريات الموسيقية من العرب هو أبو يعقوب يوسف الكندى ، وهو فيلسوف العرب الأول والأكبر فى آن واحد وقد توفى فى سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م ومؤلفاته فى الفلسفة والطبيعيات والرياضيات تعد بالعشرات ، منها سبع رسائل فى العلم الموسيقى استصفى فيها خير ما عند اليونان والفرس وأضاف من عنده مادة عربية والمرة ، وواصل عمله تلميذاه السرخسى (ت ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م) ومنصور بن طلحة بن طاهر .

ثم ألف فى الموسيقى ثابت بن قرة الحرانى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م ومحمد ابن زكريا الرازى (ت ٣١١هـ/٩٢٣ م) ، ولكن العلم الموسيقى العربى بلغ ذروته عند أبى نصر الفارابى ، وكان فيلسوفا جليلا وموسيقيا ممارسا فى نفس الوقت ، ومؤلفاته فى الموسيقى تعد من الأصول الكبرى فى العالم الموسيقى فى تاريخ البشرية ، وقد أتم عمله تلميذه البوزجانى (ت ٣٨٨ هـ/٩٩٨ م) ، وهو أعظم من ألف فى الرياضيات والموسيقى من المسلمين .

وقد أفرد « إخوان الصفاء » فى رسائلهم التى ألفت فى القرن العاشر الميلادى ، فصولا لدراسة كل ما وصل إليه المسلمون فى النظريات الموسيقية ، ولم تظهر بعد ذلك إضافة جديرة بالذكر إلا رسالة « المدخل إلى صنعة الموسيقى » التى أوردها الفيلسوف الأشهر أبو على بن سينا فى موسوعته الفلسفية المسماه بـ « كتاب الشفاء » .

وعلى الرغم من ضخامة الجهد العلمى الذى قام به المؤلفون النظريون فى الموسيقى ، فإننا ينبغى أن نقرر أن عملهم كله ظل نظريا بحتًا فلم يطبق على الواقع المستعمل ، وفيما عدا مناقشاتهم الطويلة حول انتقال الأصوات عن طريق أمواج دائرية تتسع وتضعف كلما ابتعدت عن مصدر الصوت ، واهتدائهم إلى دائرة النغم التى تجعل الأنغام يتسلسل بعضها عن بعض ، فيما عدا هذين الجانبين نجد أن الكلام النظرى فى الموسيقى يدخل فى باب الرياضيات والفلك .

وقد ظهرت طبقة من علماء الموسيقى متوسطة بين النظريين والممارسين ، أى رجال مارسوا الموسيقى وصناعة آلاتها بأيديهم ودرسوا النظريات فى آن واحد ، وأشهر هؤلاء صفى الدين بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م وهو مشهور بكتابه « الرسالة الشرفية » وكتاب « طرائق الألحان » اللذين يدلان على معرفة حقيقية للموسيقى وتذوق لها ، وقد ضاعت غالبية مؤلفاته ولكن تلاميذه كثيرون ، وقد

عثرنا على قطع من كتاباته فى الكتاب المعروف بـ « شرح مولانا مبارك شاه على طرائق الألحان » الذى ينسب إلى شاه شجاع (ت ٦٨٥ هـ / ١٣٨٤ م) .

ويدخل فى زمرة أولئك العلماء الممارسين على بن نافع الملقب بزرياب (١٧٣ — ٢٤٣ هـ / ٧٨٩ — ٨٥٧ م) الذى يعد بحق من أعلام أهل الفن والتجديد فى تاريخنا الثقافى .

كان زرياب عبقريا مبتكرا فى أكثر من ميدان ، وهو لم يؤلف كتابا ولكنه مارس الموسيقى عمليا منذ تتلمذ على إسحاق الموصلى مغنى هارون الرشيد ، وقد غادر بغداد — خوفا من غضب أستاذه — إلى القيروان حيث أقام ردحا من الزمن فى بلاط الأغالبة ، ثم انتقل إلى الأندلس حيث رحب به عبد الرحمن الأوسط وأغدق عليه الصلات . وقد أنشأ زرياب فى قرطبة مدرسة موسيقية يعلم فيها الشبان والشابات الموسيقى والغناء ، وكان يتبع منهجا سليما فى تكوين الصوت وضبط الأنغام ومخارج الألحان وتنمية النطق الصحيح ، وهو الذى ابتكر الغناء الجماعى على نظام علمى فنى ، وإليه ينسب تكوين أولى الفرق الموسيقية التى يشترك فيها منشدون ومنشدات يغنون جماعات أو فرادى ، وكانت الفرقة من هذه تسمى بالستارة ، وقد تتكون من ثلاثة فما فوق . وكان زرياب يضع للفرقة لحنا موسيقيا كاملا يشتركون فيه جميعا ، وتنفرد المغنيات بصوت . والمغنون بصوت آخر ، ويتضمن اللحن غناء منفردا ، وكان زرياب مخلصا لفنه فلم يهبط إلى مستوى الندامى والحواشى ، و لم يكن يزور القصر إلا لإقامة حفل أو للاتفاق على شيء يتعلق بالموسيقى ، وكان يشترط فى تلاميذه والعاملين معه استقامة الخلق وحسن السمت واتساع الثقافة والابتعاد عن التبذل ، فارتفع شأن الموسيقى والموسيقيين على يديه وأصبحوا فنانين محترمين لا مسلّين ولا مهرجين .

لقد أصلح زرياب العود وأضاف إليه وتراً خامساً زاد من سعته الموسيقية ، وعود زرياب هو القيثارة الإسبانية أو الجيتارا La Guitarra المعروفة ، وهي من أكمل الآلات الوترية . وقد ابتكر زرياب بألحانه موسيقى رفيعة جديدة تقابل — فيما يتعلق بالموسيقى العربية — الموسيقى الكلاسيكية في الغرب ، وهذه الموسيقى تختلف عن الموسيقى الشعبية التي ذكرناها ، وهي التي يغنى بها للتسلية وإزجاء الفراغ أو لمصاحبة العمل ، في حين أن الموسيقى الزريابية كان الناس يستمعون إليها كلون من الثقافة العالية كما هو الحال أيضاً مع الموسيقى الكلاسيكية .

ووصلت هذه الموسيقى الرفيعة أوجها على يد الفيلسوف الموسيقى أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة السرقسطي (توفى سنة ١١٣٨ م) وكان يسمى في الأندلس بالإمام الأعظم في الموسيقى ، وقد قال عنه أحمد بن يوسف التيفاشي التونسي في موسوعته : « واعتكف مدة سنين مع جوار محسنات ، فهذب الاستهلال والعمل ومزج غناء النصارى بغناء المشرق ، واخترع طريقة لا توجد إلا في الأندلس مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها » . وقد ألف أبو الحسين بن الحاسب المرسي كتاباً كبيراً في الموسيقى جمع فيه معظم ألحان ابن باجة . وابن الحاسب هذا هو الذي قال إن موسيقى أهل الأندلس أول الأمر كانت إما على طريقة النصارى أو على طريقة حداة العرب ، حتى جاء زرياب فابتكر موسيقاه الرفيعة ، ثم جاء ابن باجة فمزج العناصر الثلاثة واستخرج طرازاً فريداً من التلحين ما زالت بقاياه معروفة متداولة إلى اليوم في المغرب تغنيها فرق مدربة متقنة ، إذا سمعها الإنسان اليوم عاد قروناً كثيرة إلى الوراء ، إلى أيام ابن باجة ، أي إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، بل إلى أيام زرياب في القرن التاسع الميلادي .

ممارســة الموسـيقى :

مما يؤسف له أن الموسيقيين المسلمين لم يبتكروا طريقة لكتابة موسيقاهم ، ويقال إن زرياب ابتكر طريقة كان يكتب بها ألحانه ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يثبت ذلك ، وإنما كان المسلمون يعتمدون على السماع ، وهم يسمون تعلم الألحان بالسماع تلقينا : يتلقى التلميذ من أستاذه القطعة الموسيقية سماعاً ، فيعزف الأستاذ جملة موسيقية على العود ويرددها التلميذ إما على العود أو بصوته أو على آلة موسيقية

أخرى ، ثم جملة أخرى وهكذا . وما زالت هذه الطريقة متبعة إلى يومنا هذا حتى في معاهد الموسيقى العالية ، وهي طريقة غير سليمة لأن الموسيقى لا تصبح علما إلا إذا دونت ، مثلها في ذلك مثل سائر العلوم ، ثم إن التلقين لا ينقل الألحان في إتقان تام ، إذ لابد أن يقع تحريف ولو بسيطا ، ومع الزمن تتوالى التحريفات حتى تتغير شخصية اللحن . وإذا أردت أن تأخذ فكرة عما يحدث في عملية التلقين فاستمع إلى أغنية يلقيها مغن كبير ، ثم استمع إليها من موسيقى صغير في القرن الشاسع .

ولهذا لم تصل إلينا الألحان أنغاماً مكتوبة بل محفوظة في أشعار ، مع بدايات اللحن الموسيقى لكل بيت ، أو بيان الطبقة والإصبع التي تضغط على الوتر ، فيقولون مثلا إن هذا صوت أو لحن يغني بالبنصر ، أو هو من طبقة البَمّ وعلى العراق . وهذه كلها تحديدات غير دقيقة ، والنتيجة أن الألحان تتدرج وتنسى أو تتحرف تحريفاً شديداً ، ولهذا لا نستغرب إذا رأينا أن أحمد التيفاشى يقول في موسوعته التي أشرنا إليها إن بحور التلحين والأصوات في الغناء العربى القديم قد انقرضت في القرن السابع علماً وعملاً . واستعاض الناس عنها في المشرق بطرق أخذوها عن الفرس ، ونقرأ أيضاً في الكتاب اللطيف المسمى « كناش الحائك » — وهو دفتر جمع الأغاني والألحان التي كانت تغنى في المغرب في القرن الرابع عشر الميلادى — أن الألحان كلها تغيرت وتحرفت بصورة أفسدت طبعها وغيرت شخصها نتيجة للتلقين المتوالى . ونتيجة للتلقين أيضاً يضيع الكثير من الألحان ، ومثال ذلك أن نوبات (جمع نوبة ، وهي الدور الموسيقى أو القطعة الموسيقية) الموسيقى الأندلسية كانت في الأصل أربعاً وعشرين ، ولكن عندما شرع مؤلف « كناش الحائك » في جمعها لم يجد إلا إحدى عشرة نوبة فقط .

وقد عرف العرب والمسلمون من آلات الموسيقى عدداً عظيماً ، فقد أخذوا بعضها عن غيرهم من الأمم واخترعوا بعضها الآخر بأنفسهم ، وقد بلغ من كثرة هذه الآلات أن فرر هنرى جورج فارمر (الاختصاصى المعروف في الموسيقى العربية) أننا لا نستطيع أن نحصى عُشرها ، ففي مجموعات الوتريات فقط نجد المِزْهَر — وهو العود الجاهلي — وبطنه من الجلد لا الخشب ، والعود القديم وهو آلة صغيرة تشبه ما يعرف اليوم بالماندولين ، أما العود الذي نعرفه اليوم فيسمى العود الكامل ، وكان هناك عود ضخم يسمى شاهرود .

وفى عائلة القيثارات ـــ أى الآلات الوترية التى تعزف بالقوس لا بريش الطير ـــ لدينا الربابة وهى أم ذلك الطراز من الآلات عند العرب ، ومنها تفرعت الكمنجة والمربع والنشك .

وفى الوتريات المكشوفة هناك الجَنك ـــ وهو الهارْب ـــ والقانون الذى يسمى أيضاً بالنزهة ، ثم السنطير وهو القانون الصغير .

وفى مجموعة النايات ، لدينا ناى البمّ وهو يراع من الخشب طوله متر تقريباً ، ثم الشبّابة وهى أقصر من ناى البمّ ، والجواق وطوله نحو ثلاثين سنتيمتراً ، والصفارة وهى يراع ذو منفار ينفخ فيه ، أما ما كان يصنع من القصب من النايات فكثير ، مثل الزمر والسرّناى والزّلامى والغَيطة والبوق وهو يصنع من المعدن .

وكانت أنواع الدفوف كثيرة تختلف بحسب الحجم والشكل ، وأهمها الطار والدف والدائرة والمثمنة ، ومن الطبول : الطبل والنقارة والقصعة .

وقد عرف المسلمون الأرغن وسموه الأرغانون نقلا عن اليونانية ، والأرغن المائى الذى يعمل بضغط الماء ، والدولاب وهو الأرغن الكبير ، والأرغن الصغير الذى عرف باسم الشتيرة .

أما ما يعرف الآن بموسيقى القرب فقد عرف فى بلاد إسلامية كثيرة كالملايو والهند والأندلس وقد قال عنه التيفاشى : « أشرف آلة عندهم ـــ أى عند أهل الأندلس ـــ وأكملها لذة فى الرقص والغناء والبوق ، وهو مما يختص به أهل الأندلس ، وهو شكل للزمر عظيم كالبوق ، يدخل فى رأسه قرن ، ثم يدخل فى القرن قصبة ، ثم يدخل فى القصبة جعبة صغيرة ، ولا تزال تتدرج كذلك إلى أن تنتهى إلى قصبة الحنطة تكون آخر الجميع ، ويكون الزمر بها والصناعة كلها فيها ، ويخرج عند العمل أصوات غريبة عظيمة فى غاية الإطراب والإعجاب ، وهذا عندهم من أعظم احتفال آلة الغناء والرقص فى مجلس الشراب » .

ولكننا نعود فنقول إن الموسيقى التى كتب لها أن تبقى سليمة حية فى المجتمعات الإسلامية هى الموسيقى الشعبية التى كانت جماعات المسلمين تغنيها فى اجتماعاتها وحفلاتها ، فهذه بسيطة فى نغمها طبيعية فى صياغتها ولا ينالها كبير تحريف عند الانتقال من جماعة لجماعة ، فإذا نالها كان ذلك تماشيا مع تغير الذوق نفسه أو

تطوره ، لأن موسيقى الشعوب مرآة للذوق الفنى المحلى فهى تعرضه دائماً كما هو . وهذه الموسيقى لم تعرف النظريات ولا دخل بها أصحابها فى ميدان التأمل الفلسفى أو الحساب الرياضى ، لأنها ليست بحاجة إلى ذلك ، ثم إن الفقهاء لم يستطيعوا حيالها شيئاً ، لأنها جزء من حياة الشعوب نفسها ، فهى ليست مظهراً لفساد ولا تمهيداً لارتكاب معاص وإنما هى تعبير شعبى ساذج عن مشاعر الشعوب فى شتى حالات انفعالاتها العاطفية .

لهذا عاشت هذه الموسيقى الشعبية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعوب ، ووصلت إلينا ثروة عظيمة منها . والطريف فى شأنها أن موسيقى المسلمين الشعبية وغير الشعبية كلها تتشابه فى ذوقها ونغمها ، فالموسيقى التى يعزفونها فى العراق تُصنع ويقبل الناس عليها فى المغرب ، والنوبات فى الموسيقى الأندلسية التى يغنون بها فى المغرب تجد إقبالا فى مصر وتركيا وإيران . وموسيقى المسلمين الإندونيسيين ذات طابع صينى ، ولكنها أقرب إلى المسلمين جميعاً من الموسيقى الصينية الخالصة ، فكأن شعوب الإسلام تقاربت فى عالم الإنشاد والنغم كما تقاربت فى عالم العقيدة ومبادىء الأخلاق ومادة الفكر والثقافة .

وناحية الضعف الكبرى فى موسيقى الشعوب الإسلامية أنها عاشت عمرها كله غير مكتوبة تعتمد على التلقين دون الكتابة والتسجيل . حتى كبار قارئى القرآن الكريم ، وبعضهم يبتكر أساليب مبدعة فى القراءة ، لم يفكر واحد منهم فى تسجيل قراءته بالكتابة بالنوتات حتى يحتفظ بها . والأغانى المشهورة التى نسمعها لكبار المغنين والمغنيات فى البلاد العربية لا نجد مكتوبا منها إلا النغمات الرئيسية ، أما البقية فتترك دائما للارتجال وابتكار اللحظة . حتى كبار الموسيقيين الأتراك ، الذين وضعوا الأساس الجارى لما يعرف اليوم بالموسيقى العربية — من أمثال عاشق أفندى — لم يدونوا شيئا من بشارفهم الجميلة . ومن المعروف أن البشارف هى قطع موسيقية جمع الملحن التركى فيها مجموعات من الأنغام الشائعة فى عالم الإسلام ، ما بين فارسية وعربية وتركية وغيرها ، وصاغها فى هيئة قطع موسيقية كل منها مصوغ على نغم معين من الأنغام ، فيقال إن هذه القطع من العجم أو عجم عشيران أو النهاوند وما إلى ذلك .

وما زالت الموسيقى العربية والإسلامية كذلك نغمية ، أى تعتمد على النغم المفرد (الميلودى) الذى ينشده المغنى وحده ، أو يعزفه الفريق كله دون أى اتجاه إلى

التلوين النغمي المعروف بالهارمونية التي توسع آفاق الأداء الموسيقي وتقترب بالأنغام من طبيعة الحياة التي يتأتى جمالها من اختلاف عناصرها وانسجام بعضها مع بعض في آن واحد .

فنون أخرى :

ولا بد من الإشارة هنا إلى ألوان مختلفة من الفنون نشأت ولقيت قبولا عند جماهير المسلمين ، كالتمثيل البدائي الذى كان يصاحب إنشاد القصص الشعبي في المقاهي والأسواق . فقد جرت العادة على أن تمثل بعض مشاهد من القصة ، كفقرات الحوار الفياض بالحماسة والشهامة ، أو مشاهد تحدى الظلم والثورة على الجبابرة ، كما نرى في طريقة إنشاد الناس لقصة الظاهر بيبرس ، أو قصة أبي زيد الهلالي ، وهي ملحمة أبطال جمع المؤلف الشعبي فيها مشاهد شتى من الأدب الجاهلي وبطولات الإسلام ومواقف من الحروب الصليبية وصراع بني هلال مع أعدائهم ، وساقها في نسق جميل يدل على ملكة درامية وإن كان ينقصه الصقل والتجويد . وكان الناس عندما يستمعون إلى الراوي يتلو عليهم فقرات هذا القصص الشعبي ، يظفرون بين الحين والحين بفقرات ممثَّلة وأخرى ملحنة منشَدة ، وقد يشترك جمهور السامعين مع المنشدين في إعطاء القصص صورة تمثيلية ، كما نرى في الفقرات الخاصة بزواج عنتر وعبلة عندما يقيم الجمهور بالاشتراك مع فرقة الرواة حفل زواج تمثيليا لا يخلو من طرافة ، لأن بعض المتفرجين يقوم بدور والد عبلة ويقوم بعضهم الآخر بدور الشهود ، في حين تغني النساء من شرفات المنازل المحيطة بالمقهى أو بمكان الإنشاد .

ويدخل في ذلك ما يسمى بخيال الظل ، وهو فرع مما يسمى في يومنا هذا بمسرح العرائس . وقد نشأ هذا النوع من المسرح الشعبي في الصين ، وامتد إلى الهند وإيران ، وعرفه العرب في القرن التاسع أو العاشر الميلادى ، وقد لقي من جماهير المسلمين ـــ خصوصا في الشام وفلسطين ومصر ـــ قبولا كبيراً ، وزاد الإقبال عليه أثناء العصر التركي وعرف باسم القراجوز ، وكانت العادة أن تقام حفلاته خلال شهر رمضان كنوع من أنواع التسلية التي يقبل عليها الناس في ليالي الشهر الفضيل .

وكانت الظلال تلقى على ستارة من القماش الأبيض تتدلى من السقف وتوقد خلفها المصابيح ، أما الشخوص فيتراوح طول الواحد منها ما بين ٢٥ و ٤٠ سنتيمترا ، وكانت تصنع من الجلد أو القماش وتحشى بالقطن وتحرك من أسفل بعصى مثبتة في أعضاء الشخوص . أما النصوص التي كانت تلقى فكانت نظماً مقفى وقطعاً موسيقية تغنيها جماعات تخصصت في هذا الفن . وكانت الشخوص تحرك فيها بين الستارة والضوء فتظهر عليها في صورة ظلال سوداء . أما الحكايات التي كانت تمثل بخيال الظل فتقتبس موضوعاتها من القصص الشعبي أو المشاهد الفكاهية في الحياة العامة ، وفي بعض الأحيان كانوا يكتبون النصوص بعناية تامة ويدخلون عليها فيما بعد تعديلات ومحاورات تقتبس من الأحوال الجارية ، فيكون لها وقع لطيف ويضحك منها الناس . وليس لدينا من أسماء مؤلفي هذه الروايات إلا واحد هو محمد بن دانيال ، وكان طبيباً مصريا عاش في القرن الثالث عشر ، و لم يبق لنا من أعماله إلا قطعة واحدة ، شخوصها مأخوذة من الحياة العامة ، ففيها سكير وطبيب محتال وشرير خبيث ونصاب وما إلى ذلك ، والغالب أن تكون لغة خيال الظل عنيفة ، وربما خارجة على الحشمة ، لأن القصد منها هو إضحاك الجمهور . وقطعة محمد بن دانيال ليس فيها ما يجرح الإحساس ، ومع ذلك حمل عليها الفقهاء حملة شديدة ، ولكن ابن عربى الصوفى الأكبر يمتدحها ويقول إن شخوصها ترمز إلى هباء الحياة ، وإن الأيدي الخفية التي تحركها ترمز إلى يد القدر .

وإلى آخر القرن التاسع عشر كانت قطع خيال الظل هي العنصر المسرحي الوحيد الذي عرفناه قبل العصور الحديثة ، وقد اختفى خيال الظل عندما نشأ في البلاد الإسلامية الفن المسرحي .

خلاصـــــة :

تناولنا في هذا الفصل — على وجه الاختصار الشديد — ميادين الفنون التي أبدع المسلمون فيها ، سواء أكانت فنوناً تشكيلية كالعمارة والتصوير والنحت . أم فنونا تصويرية صرفة كالموسيقى والقصص الشعبي وخيال الظل وما إلى ذلك . وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن تناول هذه الميادين الواسعة في عالم شاسع كالعالم الإسلامي إلا على سبيل الاختصار الشديد ، الذي يكتفى بالإشارة الوجيزة إلى المظاهر العامة دون تعمق أو استقصاء .

بدأنا بفقرة عامة عن مفهوم الفن ، وكيف أنه تعبير عن الإحساس والمشاعر والمعانى ، فبينا كيف أن الفنون ظاهرة إنسانية عامة ، فليس هناك مجتمع إنسانى بدون فنون ، فكما تأكل جماعات البشر وتشرب وتنام ، فهى تغنى وتعزف وترقص وتتطلب أشكالا فنية جميلة سواء كانت مرسومة أو مشكّلة . وقلنا إنه لا علاقة بين الترف والفنون ، بخلاف ما يظن الكثيرون ممن يعتقدون أن ممارسة الفنون ترف لا تتطلبه الجماعات البشرية إلا فى المراحل العليا لحضاراتها ؛ ومن هؤلاء ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف الأشهر ، وقد فاته أن أكثر الشعوب غناءً ورقصاً ورسماً ونحتاً هى الشعوب البدائية ، لأن الفن جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان ، وهو ينبع من طبيعة نفسه . وتعرضنا فى هذه المقدمة لمن هاجموا الإنتاج الفنى ورأوا فيه مظهراً للخلاعة أو انحطاط الخلق ، وقلنا إن الفن كله عند المسلمين نابع من القرآن الكريم ، الذى يضم آيات كثيرة جدًّا تستلفت نظر المؤمنين إلى ما فى الكون من جمال وتناسق ، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم فى ذاته — من حيث صياغته — يعد منظومة بيانية فنية بديعة .

وفى الفقرة الثانية عن ميلاد الفنون الإسلامية ، وسّعنا مجال هذا الرأى الخاص بنشوء التعبير الفنى الإسلامى من القرآن الكريم ، وضربنا مثلا لذلك بالألوان التى استعملها المزخرفون والمصورون المسلمون فى أعمالهم ، وهى ألوان تحروا فيها أن تكون قرآنية أى وردت فى القرآن ، وأضفنا إلى ذلك أن موسيقى الشعوب الإسلامية نبعت من ترتيل القرآن الكريم ، وبيّنا بوضوح الصلة الوثيقة بين الروح الإسلامية والإنتاج الفنى عند الشعوب التى آمنت بالإسلام .

وفى الفقرة الثالثة تكلمنا عن الفنون الشعبية والفنون المصقولة وبينا الفرق بينهما ، وقلنا إن كل شعوب الدنيا عرفت نوعى الفن الشعبى والمصقول ، وذكرنا أن مجتمعا الإسلامى شهد تطوراً واسعاً فى ميدان الفنون الشعبية ، لأن ذلك الميدان ظل بعيداً عن نقد المتشددين ، فى حين أن الفنون المصقولة كانت دائماً هدفاً لتعقبهم ، فبينا لم يعترض فقيه على إنشاد الجماهير فى الأعراس والمناسبات السعيدة ، نجد أن الكثيرين من الفقهاء أنكروا السماع ، ويراد به ممارسة الموسيقى والاستماع إليها .

وفى الفقرة التالية تكلمنا عن ميلاد فن العمارة عند المسلمين ، ووقفنا عند المساجد الأولى وبخاصة مسجد النبى — ﷺ — فى المدينة المنورة ، وتكلمنا عن هيئته

الأولى ، وتتبعنا تطوره العمارى عندما قام الخلفاء بتوسيعه أو بهدمه وإعادة بنائه . وقد وقفنا تلك الوقفة الطويلة بذلك الجامع لأنه أبو المساجد الإسلامية جميعاً ، لا من حيث تاريخ اختطاطه فحسب ، بل كذلك من حيث هيئته العامة ، فإن أجزاءه الرئيسية ظلت هي الأجزاء الرئيسية لكل مساجد الإسلام فيما بعد ، وهي : بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر . أما الأجزاء التي أضيفت إلى عمارة المساجد فيما بعد ، وأهمها المئذنة والميضأة والقبة والمقصورة فعناصر ثانوية دخلت فيما بعد . أما الأعمدة والأقواس والسقوف المزركشة والنوافذ والأبواب فكلها عناصر فنية عمارية عامة توجد في المساجد وغير المساجد ، وإن كان العرف قد جرى بألا يخلو منها مسجد إسلامي .

وتتبعنا — في فقرة خاصة بفلسفة المساجد عند المسلمين — الفكرة الرئيسية التي حاول المعماريون تحقيقها في منشآتهم ، وهي فكرة الجمع بين عنصرين متناقضين هما البساطة والجلال ، وبينا كيف تمكن المعماريون من التوفيق بين هذين العنصرين المتناقضين . وذلك عن طريق تتبع المساجد الجامعة الإسلامية وتطور سائها .

وتكلمنا بعد ذلك عن الفن الأموي في المشرق ، وقلنا إن المعماريين في العصر الأموي ابتكروا طرازاً عماريا خاصًّا أخذ من عناصر شتى غير إسلامية ثم صاغها كلها في قالب واحد . وقلنا إن بداية هذا الفن توجد في قبة الصخرة ، ووصفنا بناء القبة وصفا موجزا ، ثم تكلمنا عن المسجد الأموي في دمشق وبينا خصائصه ، وانتقلنا للكلام عن المميزات العامة للمساجد الأموية . وأشرنا بعد ذلك إلى العمارة المدنية أيام الأمويين ، وتحدثنا عن البوادي وهي القصور الريفية التي كان ينشئها خلفاء بني أمية ، والحيرات وهي أيضاً قصور صحراوية لم تكن تستعمل للمتعة فقط بل كان الخلفاء يمارسون فيها أعمال الدولة بعيداً عن صخب قصورهم ، ولذلك فقد كانت أشبه بالحصون .

وتكلمنا عن العمارة في العصر العباسي ، فذكرنا كيف أنه لم يبق لنا من معالمها إلا القليل لأن معظمها بني باللبن ، حتى أسوار مدينة بغداد العظيمة وقصر الخلافة فيها وجامع المنصور . وأشرنا هنا إلى هندسة مدينة بغداد — التي تسمى بالمدينة المدورة — وتكلمنا عن جامع سامراء الذي بناه الخليفة المتوكل ، ولم تبق لنا منه إلا جدرانه الخارجية التي تشبه الأسوار ، ومئذنته المعروفة بالملوية لأنها ذات سلم

حنزونی خارجی . وأشرنا بعد ذلك إلى عمارة القصور فى العصر العباسى ، وَكيف أنها كانت تقوم على أبهاء مكشوفة تحيط بها عمد تحمل أقواساً نصف دائرية أو مدببة ، وخلف الأقواس تقوم الغرف ما بين كبيرة وصغيرة ، وفى العادة يتكون القصر من أبهاء كثيرة تربطها بعضها ببعض أروقة ، وضربنا أمثلة لذلك بقصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة المتوكل المعروف بالجوسق فى سامراء .

وقد أحببت العمارة العباسية الفن الساسانى فى كل صوره ، فانتعشت الفنون الفرعية الداخلة فى فن العمارة ، كالفسيفساء ومربعات القاشانى والرخام المصقول والخشب المشغول . وقد اختلطت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطى التى تأصلت من أيام بنى أمية ، ومن هذه العناصر تكوّن — شيئاً فشيئاً — الفن الإسلامى الخالص ، الذى يجمع بين نماذج فنية مختلفة الأصول ، ولكنه يضفى عليها قالباً واحداً ويعطيها شخصية متميزة بنفسها .

وتكلمنا عن أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك ، وذكرنا باختصار خصائص كل منها . وقد شمل كلامنا الطرز العمارية المصرية والمغربية والأندلسية والإيرانية والتركستانية والهندية ، وذكرنا خصائص كل منها وذكرنا أهم العمائر التى نعد نماذج لكل منها ، وختمنا هذه الجولة فى ميدان المساجد الإسلامية بوقفة عند الطراز التركى العثمانى المعروف ، وذكرنا أهم نماذجه مثل مسجد السلطان سليمان فى الآستانة ، وأشرنا بهذه المناسبة إلى مهندس العمارة التركى سنان وتلميذه محمد أغا بن عبد المؤمن .

ثم وقفنا وقفة قصيرة عند الفنون الصغيرة عند المسلمين ، وقلنا إن المراد بهذه الفنون الصناعات الدقيقة ذات الطابع الفنى ، التى تتجلى فى القطع الممتازة من النسيج الصرف أو المزركش ، سواء كانت خامة أو مصنوعة ، ملابس أو ستراً أو سجاجيد بسطًا أو طنافس ، وكذلك الأدوات المعدنية ذات الهيئة الفنية ما بين نحاسية وبرونزية وحديدية ، وتشمل كذلك مصنوعات العاج المشغول والخشب المزخرف والمحلى بالعاج والصدف والآبنوس ، والزخارف ومربعات القاشانى وأوانى الخزف والخزف بأنواعها والزجاج والبلُّور ، ووقفنا عند كل واحدة من هذه وقفة قصيرة .

وتكلمنا فى إيجاز عن التصوير والنحت عند المسلمين ، فقلنا إن المسلمين مارسوا التصوير بشتى أنواعه من تصوير المناظر والأشخاص ، وأظهروا فى ذلك نبوغاً ،

وما زالت لدينا أعمال فنية قام بعملها مصورون مسلمون ، سواء من إيران أو من مسلمي الأندلس ، تدل بحق على أن التصوير كان فنًّا محترما معنيًّا به من المسلمين في نواحي العالم الإسلامي كلها . وأشرنا في أثناء ذلك إلى المصور الإيراني بهزاد ومدرسته ، وإلى المصورين الأندلسيين المجهولين الذين رسموا الوحات رائعة في الحمراء ، خلال القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين قبل أن يصل فن التصوير في الغرب الأوروبي إلى أي مستوى .

وبعد ذلك تكلمنا عن فن كتابة المصاحف والخطوط بصورة عامة ، وأشرنا إلى أن التصوير بدأ عند المسلمين كفن من فنون زخرفة الكتب برسوم صغيرة تعرف بالمنمنمات ، ثم استقل بعد ذلك فأنشئ رساموا لوحات مستقلة بذاتها ، وضربنا مثالين على ذلك بما صنعه سلطان محمد ورضا عباسي ، وهذا الأخير عاش في أصفهان فأنشأ فيها مدرسته الفنية المذكورة في القرن السابع عشر الميلادي ، أما مدرسة التصوير الأندلسية ، فقد أنشأت أيضًا فنا متفرعا من فن زخرفة الكتب بالمنمنمات ، ثم استقلت سريعا ، ومعظم أعمال فنانيها ظهرت ورسمت على جدران القصور والمباني . وأشرنا إشارة موجزة إلى فن النحت الذي عرفه المسلمون في صورة زخارف بارزة على العاج والخشب والرخام ، ثم استعملوه في صناعة تماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والمملوكية والأندلس ابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

وتكلمنا بعد ذلك عن الموسيقى عند شعوب الإسلام ، فأشرنا إلى الجدل العنيف الذي دار حول موضوع السماع ، وذكرنا كيف أن كثيرين من الفقهاء حرّموه ، أي حرموا الموسيقى والغناء ، وحاولنا أن نجد تعليلا مقبولا لموقف الفقهاء هذا ، وذلك بشرح الظروف التي كان الغناء يمارس فيها في العصور الوسطى ، وقلنا إن هذه الظروف لم تكن كريمة ولا مناسبة للحشمة ، ومن ثم فإن موقف الفقهاء من التحريم موقف معقول . وأضفنا أنه مادامت الأحوال قد تغيرت وأصبح الغناء يمارَس الآن في صورة سليمة وفي جو محتشم مناسب لفن جميل ، فإنه لا ضير في السماع لأنه لا يمهد الطريق إلى فساد ولا يصاحب أيًّا من المظاهر التي ينفر منها أهل الكمال والأدب .

وأشرنا إلى الغناء الجماعي ، وقلنا إن منه ما هو ساذج طبعي يغنيه الجمهور في مناسبات الأفراح كالأعراس ، وما يغنيه العمال والفلاحون في أثناء العمل . وهذا وذاك جزء من الحياة نفسها ، وهو ليس ترفًا ولا مظهرًا من مظاهر الفساد ، ومن ثم فإن أحدا من رجال الدين لم يعترض عليه . ومن الغناء الجماعي ما يغنيه محترفون يطوفون بالأسواق ويعرفون بالغجر أو الغوازي ، وجماعات هؤلاء المغنين دائما غريبة عن البلاد ، فهي جوالة تحترف

الغناء إلى جانب حرف أخرى تقوم بها لكسب عيشها . ومن الغريب أن غناء هؤلاء الحوالين هو الذى أصبح أصلا لفن الغناء الشعبى الجماعى فى المدن ، فإن أولئك المغنين يغنون فى الأسواق فيتجمع عليهم الناس ويشاركونهم الإنشاد ، وشيئا فشيئا نشأت عادة الغناء الجماعى فى الأسواق والطرقات .

واحتاج الناس إلى ما يتغنون به ، فظهر فن الزجل وهو شعر يصاغ فى اللغة الدارجة ، وقد صيغ أولا على بحور الشعر العربى ثم استقل ببحور خاصة به . وعن الزجل تطور الموشح ، وهو شعر عربى يصاغ على صيغة معينة تناسب الإنشاد الجماعى ، وقد نبغ فيه الأندلسيون وغنوا به فى الأسواق وفى اجتماعاتهم الشعبية وفى ليالى السمر ، وعنهم انتقل إلى المشرق وإلى أوروبا . وظهرت فى البلاد الأوروبية أشعار شعبية من طراز الموشح والزجل عرفت بأسماء شتى أشهرها غناء التروبادور فى فرنسا .

وانتقلنا إلى الكلام عن الغناء الشعبى عند الشعوب الإسلامية ، وقلنا إن الغناء الشعبى العربى هو الحداء ، وذكرنا أنه ظل فنًّا حيًّا ينشده العرب فى كل مكان عاشوا فيه ، حتى عندما استقروا فى المدن ولم يعودوا يحتاجون إلى حداء الإبل فى السير ، وأضفنا بعد ذلك إشارة يسيرة عن غناء الصوفية وإنشادهم ورقصهم .

وتكلمنا عن ممارسة الموسيقى عند الشعوب الإسلامية ، سواء كانت الموسيقى الشعبية الجماعية أو الموسيقى الخاصة التى تعزف فى الحفلات مصاحبة للغناء ، أو بدون ذلك . وقلنا إن نقطة الضعف الكبرى فى ممارسة المسلمين للموسيقى هى أنهم لم يهتموا بتدوينها التدوين الكافى ، فظلت معتمدة على السماع والتلقين . وأشرنا إلى أن الأنغام تتحرف ثم تتلاشى مع الزمن إذا اعتمدت على التلقين وحده ، لأن التحريف يتوالى مع انتقال الأنغام من إنسان لإنسان حتى يبعد النغم عن أصله تمامًا .

وقلنا إن هذا هو السبب فى تلاشى أنغام وقطع موسيقية كاملة ، بل ذكر بعض مؤرخى ذلك الفن أن الموسيقى العربية الأولى التى ظهرت أيام العباسيين العظام — أى فى القرن الثانى وأوائل الثالث الهجريين — تلاشت تماما فى القرن السابع الهجرى . وكان لابد أن يستعير المسلمون أنغامًا جديدة أخذوها عن إيران أولا وعن تركيا بعد ذلك ، وما يعرف اليوم بالموسيقى العربية ليس فيه من العناصر العربية إلا شىء ضئيل ، والباقى اقتبس من أصول شتى معظمها إيرانى وتركى .



مراجـــع مختـــارة

كتب عربية ومترجمات إلى العربية :

المراجع الأصلية فى موضوعات الفنون عند المسلمين قليلة ، وبخاصة فى ميدان المنشآت العمارية والفنون التشكيلية ، فإننا لم نعثر — إلى الآن — على كتب ألفها عماريون مسلمون فى شرح القواعد والأصول الفنية التى ساروا عليها ، فيما عدا بعض كتب بسيرة بالتركية ألفها نفر من تلاميذ المهندس العمارى سنان ، وما لدينا من مؤلفات عن المساجد تتناول فى الغالب أحكامها الفقهية ، وفى المكتبة الوطنية فى مدريد كتاب عنوانه « البيان فى أحكام البنيان » ، ولكن مادته كلها فقهية ، أما المؤلفات عن التصوير فلا توجد ، مع أننا كنا نأمل أن نعثر على شيء لبهزاد أو بعض تلاميذه ، ولهذا فإن عمادنا فى هذا الميدان مقصور على المؤلفات الحديثة التى قام بها علماء الآثار ومؤرخو الفن فى البلاد الإسلامية .

ونتيجة لذلك فإننا لم نخصص قسماً من هذه البيليوجرافيا للأصول — كما هى الخطة فى هذا الكتاب — بل أوردنا المراجع العربية والمترجمة إلى العربية من لغات أخرى فى قسم واحد .

— إبراهيم جمعة : « قصة الكتابة العربية » ، مجموعة اقرأ رقم ٥٢ ، القاهرة ١٩٤٧ .
— أحمد رشدى صالح : « الفنون الشعبية » حزءان ، القاهرة ١٩٦٣ .
— أحمد فكرى : « مساجد القاهرة ومدارسها » ، المدخل ، القاهرة ١٩٦١ .
— حسن الباشا : « التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٥٥ .
— حسن الباشا : « الفنون الإسلامية » ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥ .

ــ أبو الحسن منصور بن زيلة : « الكافى فى الموسيقى » ، تحقيق زكريا يوسف .
ــ ديماند : « الفنون الإسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٧ .
ــ الرازى ، أبو بكر محمد بن زكريا : « سر الأسرار فى الصنعة الشريفة » (الموسيقى) ، ليننجراد ١٩٥٩ .
ــ زكى محمد حسن : « فنون الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .
ــ زكى محمد حسن : « الفنون الإيرانية » ، القاهرة ١٩٥٠ .
ــ سعاد ماهر : « الحصير فى الفن الإسلامى » ، القاهرة ١٩٦٤ .
ــ سعاد ماهر : « الخزف التركى » ، القاهرة ١٩٦٥ .
ــ سعد الخادم : « الحياة الشعبية فى رسوم ناجى » ، القاهرة سنة ١٩٦١ .
ــ سعد الخادم : « الصناعات الشعبية فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٢ .
ــ السيد عبد العزيز سالم : « المآذن الإسلامية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها حتى الفتح العثمانى » ، القاهرة ١٩٥٩ .
ــ عبد الرحمن زكى : « السيف فى العالم الإسلامى » ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
ــ فارمر ، جورج هنرى : « مصادر الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
ــ فارمر : « الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
ــ فؤاد صفر : « مطبوعات مديرية الآثار القديمة » ، بغداد سنة ١٩٥٢ .
ــ الكندى : « رسالة فى اللحون والنغم » ، تحقيق زكريا يوسف ، دمشق ١٩٤٧ .
ــ مجدى العقيدى : « السماع عند العرب » ، حلب بدون تاريخ ، جزءان .
ــ مجير الدين ، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨ هـ/١٥٢٢ م) : « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ، القاهرة ١٨٦٩ (يقول أحمد فكرى إن هذا الكتاب منقول معظمه عن كتاب « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسى المتوفى ٧٦٥ هـ/١٣٦٤ م) .
ــ محمود أحمد : « جامع عمرو بن العاص » ، القاهرة ١٩٣٨ .
ــ مصطفى كامل الصواف : « تاريخ الحياة الموسيقية » ، دمشق ١٩٣٠ .
ــ يحيى المنجم : « رسالة فى الموسيقى » ، بتحقيق زكريا يوسف .

مراجـع غيـر عربيـة :

العمارة الإسلامية بصورة عامة :

BLOCHET, E. : Les Peintures des Manuscrits Orientaux de la Biblio - thèque Nationale Paris - 1920.

CRESWELL, A. : Early Muslim Architecture, 2 vols. Oxford, 1932 - 1940.

CRESWELL, A. : short account of Early Muslim Architecture. (A Pelican Book) London, 1958

HAMILTON, R. W. The Structural History of the Aqsa Mosque. Oxford, 1949

LEZINE, A. : Le Ribat de Sousse Tunis, 1956

MARCAIS, GEORGE : Coupole et plafond de la Grande Mosquée de Kairouan Tunis - Paris, 1925.

RICHMOND, E. T. . Moslem Architecture London, 1926

العمــارة فـي العصـر العباســي :

BELL, G. L. : Palace and mosque at Ukhaidir Oxford, 1914

CRESWELL, A. : Early Muslim Architecture, II Abbasids, 1940

GODARD, A. Les anciennes mosquées de l'Iran Téhéran, 1936

KUHNEL, ERNST : Islamic art and architecture (translated by Catherine Watson). London, 1966

العمارة في العصر الفاطمي :

ARATTA, G. : L'architettura arabo - Normana in Sicilia Milano, 1913

BRIGGS, M. S. : Muhammedan architecture in Egypt and Palestine Oxford, 1924.

CRESWELL, A. : Muslim architecture of Egypt, I : Ikhshids and Fatimids. Oxford, 1952

TERRASSE, NENRI : L'Art Hispano - Maurisque des origines au XIII Siècle . Paris , 1933 .

العمارة الإسلامية بصورة عامة :

GOMEZ MORENO , MANUEL : El arte arabe espanol hasta los Almohades . Arte Mozarabe (Ars Hispaniae , III) . Madrid . 1951.

MARçAIS : G . : Manuel d'art Musulman . L'architectur : Tunisie , Algérie , Maroc . Espagne , Sicile . Paris, 1626 - 1927 .

TORRES - BALBAS , LEOPOLDO . Arte almohade . Nazri , mudejir (Ars Hispaniae , IV) . Madrid , 1949 .

التصوير الإيراني :

ANTONIO GARCIA . JAÉN : Arte y Artistas Musulmanes . Madrid , 1951 .

SARRE ,F., UND MITTWOCH , E . : Zeichnungen Von Riza Abbasi . Munich , 1944 .

STECHOUKINE , I .: Les peintures des manuscrits safawis de 1502 à 1577 . Paris , 1959

الفن الهندي الإسلامي :

HAVeLL , E . B .: Indian architecture . London , 1914 .

BROWN , PERCY : Indian Painting Under the Moghals . London , 1923 .

BROWN , PERCY : Indian Architecture (Islamic Period) . Bombey , 1964 .

COMMARASWAMY . A.: Mughal paintion . Cambridge , Mass ., 1910 .

STECHEUKINE , I.,: La penture indienne à l'époque des Grands Moghols . Paris , 1929 .

الفنون التركية العثمانية :

GABRIEL A. : Les Mosquées de Constantinople . Syria , 1912 .

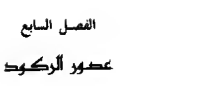
OTTO DARN , K. : Turkische Keramik . Ankara . 1960 .

WILDE , H.: Brussa . Berlin , 1909 .

الموسيقى عند المسلمين :

FARMER , H.G. : Arabian Music . London , 1950 .

: Music (a chapter in the Legacy of Islam) . Oxford , 1931 .


الفصل السابع
عصور الركود





تمهيد :

إن من يقرأ حوليات مصر والشام والجزيرة العربية من منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ليدهش من الهبوط العام الذى أصاب إطارات النظام السياسى والإدارى المملوكى بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م . ومحمد بن قلاوون هو آخر الكبار من مماليك الفترة الأولى الذين سادوا مصر والشام وغربى جزيرة العرب ، وهى فترة المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٨٢) التى تعد آخر الإمبراطوريات الكبيرة التى ظهرت فى شرق العالم العربى وسيرت أموره أكثر من قرن من الزمان . وقد تلاهم المماليك البرجية ، ودولتهم لم تكن استمراراً للمماليك البحرية — كما يظن — بل انحداراً لها واتجاهاً بها نحو التلاشى والزوال .

وسيادة المماليك نفسها على ذلك الجزء الكبير من العالم العربى أمر له دلالته ، فهى الصورة الأخيرة التى كان لا بد أن يصل إليها تطور نظم الحكم فى بلاد العالم الإسلامى ، وهى نظم قامت على حكم البلاد بواسطة قوة عسكرية أجنبية عن البلاد ، سواء كانت مكونة من جند مرتزقة يدخلون فى خدمة السلاطين لقاء أجر ، أو من مماليك يُشترون ويدربون على أعمال الحرب ليخدموا أصحاب الدولة . وبدهى أن القوة الحقيقية فى هذه الدول إنما كانت تكمن فى القوة العسكرية التى يعتمد رجالها عليها .

والذى حدث فى نهاية الدولة الأيوبية أن مماليك الأيوبيين — وهم خلفاء صلاح الدين — تنبهوا إلى أنهم هم أداة السلطان وعصب القوة ، وعندما بلغ الضعف بسلاطين الأيوبيين منتهاه حلت أداة السلطان محل صاحبها فى الحكم ، كما يضع الخادم ، المطلق الأمر ، يده على أموال سيده إذا لم يكن لهذا السيد وريث حازم

قادر على حماية تركته . والمفروض أن الأمة هي الوريثة الشرعية للسلطان في بلادها ، ولا بد أن يعود إليها الأمر كلما انتهت ولاية حاكم لكي تختار الحاكم الجديد أو تبدى رأيها على الأقل فيمن يرشحون للولاية ، ولكننا رأينا أن الأمور لم تسر في عالم الإسلام على هذا النظام الطبيعي الشرعي الكفيل باختيار الإمام الأصلح من بين أبناء الأمة . وبدلا من ذلك لجأ أصحاب السلطان منذ قيام الأمويين إلى حرمان الوريث الشرعي — وهو الأمة — من ممارسة حقه ، واختاروا بأنفسهم الحاكم معتمدين على الإدارة العسكرية التي ذكرناها .

وسواء في حالة الأمويين أو العباسيين ، فإن مبدأ الوراثة طُبِّق على أساس خاطىء يعتمد في كل حالة على قوة عسكرية ، وقد عدت أمة الإسلام انتقال الخلافة إلى الأمويين اغتصابا للسلطان ، وكذلك كان الأمر في الواقع عندما انتقل السلطان من الأمويين إلى العباسيين ، وما دامت الأمور قد بدأت بداية خاطئة فكان لا بد أن يستمر الخطأ مادام أحد لم يحاول تصحيحه ، وهكذا ظلت أمم الإسلام بعيدة عن الحكم والسياسة .

ونعود إلى دولة المماليك فنقول إن مستوى الحكم ارتفع شيئا أيام كبار سلاطينها ، ولكن الأمة العربية في مصر والشام والحجاز ظلت دائماً خارج الميدان وقد حيل بينها وبين ممارسة سلطانها . والأمة — كما ذكرنا — هي شجرة السلطان وأصل القوة ، وجذورها هي التي تغذوه ، وأي سلطان يعتمد على جذور أخرى لا بد أن يجف ويموت . وهذا هو الذي حدث خلال الحقبة الأخيرة من سيادة المماليك على قلب العالم الإسلامي في مصر والشام والحجاز : جفت شجرة الحكم وتساقطت أوراقها وآذنت بالسقوط ، وتهدم إطار الدولة ، فقد تولى الحكم خلال الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٠ — ٧٨٤ هـ/١٣٤٠ — ١٣٨٢ م) اثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده لا تجد من بينهم واحداً يستحق الذكر ، وهبط مستوى الحياة هبوطاً عامًّا حتى إنك لتقلب صفحات مطولات من تاريخ مصر في هذه الفترة — كالنجوم الزاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي — فتشعر كأن تيار الحياة قد ركد ركوداً شديداً في مصر والشام والجزيرة العربية وجزء من العراق ، فلا شيء يحدث غير منافسات مماليك لا يستحقون حتى ذكر أسمائهم على حطام من الدنيا لم تعد تساوى العناء ، و لم

بعد يشغل بال الحكام إلا التنافس على وظائف تدر المال وبعض الامتيازات ، وهنا تلمس المظهر الحقيقى للركود الذى سيسود هذه البلاد ابتداء من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وقبل أن تسترسل فى دراسة أحوال جماهير المسلمين وما أصابها من ركود ، لنقف وقفة قصيرة فى بداية المنحدر ونتأمل ما حولنا حتى نستجمع صورة العالم الإسلامى فى مطالع العصر الحديث .

خمس دول تقاسم بلاد الإسلام فى مطالع العصر الحديث :

يتفق المؤرخون الغربيون على القول بأن العصور الحديثة فى أوروبا تبدأ من منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، ففى ذلك الحين — سنة ١٤٥٣ م — سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وفى نفس وقت سقوطها بدأت النهضة الفكرية والفنية فى إيطاليا ، واشتد ساعد الدول الأوروبية وانتظمت أحوالها السياسية — وبخاصة فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا — وعظمت ثروات المدن التجارية الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية .

وقد سيطرت هاتان الجمهوريتان التجاريتان على الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، واحتكرتا التجارة فيه مشتركتين مع سلاطين المماليك ، مما دفع بالإسبان والبرتغاليين إلى البحث عن طرق أخرى للوصول بها إلى بلاد آسيا دون المرور فى الأراضى المملوكية . وقبل أن ينتهى هذا القرن كانت البرتغال قد وصلت إلى بحار جنوبى آسيا ، وبدأت الصراع مع العرب الذين كانوا يسودون هذه البحار ، لانتزاع التجارة من أيديهم . وكذلك وصلت سفن كريستوفر كولومبس إلى سواحل العالم الجديد محققة بذلك أعظم كشف فى تاريخ البشر ، فقد تضاعفت فجأة مساحة الغرب المسيحى مرات كثيرة ، وانفسحت أمام أهله بلاد واسعة عريضة حافلة بالخيرات ، وتفتحت أمامهم إمكانيات التوسع والتطور والقوة والغنى ، وتحول المحيط الأطلسى من الحد الغربى للدنيا إلى بحر داخلى تكتنفه بلاد غربية مسيحية من الجانبين ، وأخذت السفن تقطعه غادية رائحة حتى لقد سماه الإسبان — سادة ذلك المحيط حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى — بالمستنقع (الشاركو el charco) استصغاراً لشأنه .

وعقب ذلك الكشف العظيم تزايدت سرعة التطور في العرب المسيحي ، فأخذت بلاده تخرج — واحدة بعد أخرى — من عالم العصور الوسطى والجهل والفوضى إلى عالم العلم والنور والنظام .

في ذلك الحين كانت تسيطر على عالم الإسلام خمس دول : ثلاث منها شابة عفية كانت تنبئ بكل خير ، هي دول آل عثمان والصفويين والسعديين ، ودولة في أوج امتدادها وحضارتها هي دولة المغول في الهند ، ودولة في دور الانحدار والانهيار هي دولة المماليك في مصر والشام والجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى دولة الحفصيين في تونس وكانت تلفظ آخر أنفاسها .

وقد أعطينا فكرة عن دولة المماليك ، فلنمر مسرعين بالدول الأربع المتبقية :

الـدولة العثمانيـة :

ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الحوادث خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، وكانوا في أول أمرهم يعيشون قبائل ظاعنة في شرقي إيران ثم اتجهوا غرباً وانتهى بهم التجوال إلى شمالي بلاد الجزيرة ، ولم تمسهم نازلة المغول التى اجتاحت شرقى بلاد الإسلام . وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادى استنجد بهم علاء الدين سلطان الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد أنشأوا لأنفسهم سلطنة في الأناضول مقتطعين بذلك جزءاً من أرض الدولة البيزنطية . وكان غزاة المغول لا يكفون عن الإغارة على أراضى سلطنتهم ، فاستعانوا بأبناء عمومتهم النازلين شرقيهم ، فاستجابوا بشرط أن يسمح لهم بالإقامة في شرق آسيا الصغرى فوافقوا على ذلك ، واستطاعوا أن يمدوا سلطانهم حتى بلدة قونية ، ثم زحفوا غرباً واستقروا في منطقة الأناضول الحالية ، وأقاموا إمارة صغيرة إلى جانب سلطنة أبناء عمومتهم سلاجقة الروم الذين كانوا يسيطرون إذ ذاك على معظم آسيا الصغرى .

وفي سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م توفى أرطغرل أمير هذه الجماعة التركية ، وخلفه عثمان وكان أميراً شاباً فياض الحيوية والنشاط ، قاد قومه إلى الحروب والتوسع في كل ناحية ، حتى قضى خلال سنوات قلائل على ما كان قد بقى لسلاجقة الروم من قوة ، ومد نفوذه على آسيا الصغرى كلها ونقل عاصمته إلى بروسة قرب ساحل

بحر مرمرة . وعثمان هو الذى أقام دولة قومه على أساس متين من التنظيم العسكرى ، وشق لهم الطريق إلى المجد ، فأصبحوا من ذلك الحين يعرفون بآل عثمان أو الأتراك العثمانيين .

واستمر الاندفاع فى عهد من جاء بعد عثمان من الأمراء . الذين اتخذوا لقب السلاطين وابتكروا نظام الإنكشارية ، وهى فرق محاربة يكونونها من غلمان صغار يربون تربية عسكرية إسلامية فيشبون جنوداً للدولة متحمسين للإسلام . وكان الإنكشارية أول الأمر هم صفوة جند الدولة والمندوبين لكل مهمة عسكرية خطيرة ، وقد أبدوا من التفانى والإخلاص فى الجهاد ما جعل هذه الدولة تقفز إلى صدارة الأمم فى عصرها فى وقت قصير . ففى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى عبرت قوات الأتراك إلى شبه جزيرة المورة وهى اليونان الحالية ، ووصلت أعمالهم العسكرية إلى ساحل البحر الأدرياتى . وفيما هم ماضون فى أعمالهم ، طرق أتراك آخرون ــ يصاحبهم مغول ــ أبوابَ آسيا الصغرى يقودهم تيمور لنك أو « الأعرج » .

وكان تيمور الأعرج لعنة ساقها الله على البشر ، إذ كان لا يقل قسوة عن جنكيزخان وهولاكو . وكانت وجهته أول الأمر القضاء على دولة إيلخانات فارس وهم مغول من أحفاد جنكيزخان ، وتم له ذلك . ثم دخل العراق وخرب بغداد سنة ٧٩٥ هـ/١٣٩٣ م ، وفى تكريت مسقط رأس صلاح الدين أنزل بالناس مذبحة أسرف فيها بالقتل حتى أقام هرماً من جثث القتلى ، وكانت إقامة هذه الأهرامات البشعة هوايته المحببة إلى نفسه ! وبعد خمس سنوات من التخريب فى بلاد الإسلام اتجه شرقاً وهزم مغول الهند واحتل دهلى حيث قتل ثمانين ألفاً من أهلها . وسار بعد ذلك إلى روسيا حيث احتل موسكو لمدة سنة ثم عاد إلى بلاد الإسلام فاستولى على حلب وقتل من أهلها ألوفاً ، ثم دمشق حيث أحرق البيوت والمساجد ، وهناك وقع فى يده عبد الرحمن بن خلدون ضمن من وقع من علماء البلد . فتحيل ابن خلدون حتى أفلت من يده فى خبر غير طريف قصه فى رحلته . وكان تيمور يزعم أنه اعتنق الإسلام على المذهب الشيعى ، وامتلأ بلاطه بنفر من غلاة الشيعة الذين لم يقصروا فى تحريضه على السنة وأهلها ، فاشتد على أهل العراق والشام وخرب البلاد تخريباً ذريعاً .

ثم اتجه تيمور ورجاله نحو آسيا الصغرى ، فقد كان الأتراك العثمانيون أهل سنة ، وقد بذل سلطانهم بايزيد جهده فى مدافعة جيوشه ، ولكن تيارهم كان جارفا . وفى موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ/١٤٠٢ م حصدت خيرة شباب الإنكشارية ، ووقع السلطان بايزيد أسيراً ، فجعله تيمور فى قفص وسار به يعرضه على الناس ، فمات كمدا .

ومن حسن الحظ أن تيمور لنك توفى بعد سنتين فى سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م وانحلت عروة ملكه . وأما الترك فقد استجمعوا قواهم ونظموا أمرهم من جديد ، لأن هذه كانت أول صدمة يلقونها فى تاريخهم ، وكانت دولتهم ، بعد ، فتية فياضة بالحيوية . أما أهل إيران فقد تضعضعت قواهم إلا فى الشمال فى نواحى تبريز ، وكان تأييد تيمور لنك للشيعة قد بعث فى أهلها حماساً ونشاطاً فتطلعوا لسيادة إيران كلها .

وأما العرب الذين أصابهم بلاء تيمور فقد وهن أمرهم بعد ذلك التخريب المتوالى على يد جنكيزخان وهولاكو قبل مائة وستين سنة ، ثم جاءت ضربة تيمور قاصمة للظهر فتخربت البلاد ، وهلك من أهلها ألوف بعد ألوف .

واستعاد الأتراك العثمانيون قوتهم خلال سلطنة محمد الثانى المعروف بالفاتح (١٤٥١ م — ١٤٨١ م) ، إذ إنه هو الذى افتتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ونقل إليها عاصمة الدولة ، وبذلك زالت من الوجود الدولة البيزنطية بعد أن عمرت أكثر من ألف سنة ، وتحول مُلك آل عثمان إلى إمبراطورية ، إذ عرف محمد الفاتح كيف يثبت سلطان دولته على بلاد البلقان حتى ألبانيا ، وأقام مراكز الحدود على نهر الطونة ، وأدخل تتار شبه جزيرة القرم تحت سلطانه .

وأتم بايزيد الثانى (١٤٨١ م — ١٥١٢ م) عمل أبيه فى شرق آسيا الصغرى ، وبخاصة على حدودها الشرقية الجنوبية ، وهنا بدأ الاحتكاك بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية صاحبة السيادة على مناطق الحدود بين شمال الشام والجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح أيام سلطنة سليم . فى هذه المناطق الجبلية الوعرة التى تفصل بين مواطن العرب والترك والإيرانيين وقع الصراع الحاسم بين الإمبراطوريات الثلاث الكبرى التى تقاسمت شرق العالم الإسلامى فى أوائل العصر الحديث ، وكان المماليك — دون أن يدروا — أضعف القوى المتنازعة ، وقد عرضنا لبعض أسباب ضعفهم فيما مضى ، ولهذا كانت دولة المماليك أول من سقط فى

الصراع ، فقد قضى الأتراك العثمانيون على قواتهم فى موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ، وعقب ذلك دخلت كل البلاد التى كانت خاضعة لهم تحت سلطان الدولة العثمانية التى تحولت بذلك إلى إمبراطورية كبرى .

دولــة الصفويــين :

وفى ذلك العصر أيضاً ظهرت إلى الوجود دولة الصفويين فى إيران ، وكان منشئها الشاه إسماعيل سليلا للشيخ صفى الدين الأردبيلى (١٢٥٢ م — ١٣٣٤ م) ، وكان — فيما يقول مؤرخوه — من أحفاد موسى الكاظم سابع الأئمة فى نظام الشيعة ، وكان صفى الدين وابنه صدر الدين — من بعده — سنيين ، وكذلك كانت الجماعة الدينية التى أنشأها فى الأردبيل سنية .

ولكن حفيده الخواجا علي — الذى تولى رياسة الجماعة من سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م — كان شيعياً معتدلا ، وجاء بعده ابنه الشيخ إبراهيم شيعياً متعصباً للإثنى عشرية ، فقاد جماعته فى صراع مع السنيين فى الداغستان . وخلفه فى نفس الطريق ابنه الشيخ حيدر الذى تولى رياسة الجماعة سنة ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٥ م ، ولم يكن أتباعه إيرانيين بل من التركمان ، وقد ابتكر لهم أشياء زيد من عصبيتهم الشيعية منها قلنسوة حمراء ذات اثنتى عشرة ذؤابة ، رمزاً إلى الأئمة لاثنى عشر ، ولهذا سموا « قزلباشية » أى أصحاب الرؤوس الحمراء . وقد تزوج شيخ حيدر مارثا ابنة أوزون حسن رئيس طائفة الشياه البيضاء التى كانت تحكم شمال غربى إيران ، وكانت أمها مسيحية اسمها دسبينا كاترينا Despina Katrina ابنة كالو يوحنا Kaloo Johannes ملك مملكة طرابزون المسيحية على ساحل البحر الأسود الشرق . وكان حيدر أميراً متعصباً لشيعته مقاتلا فى سبيلها ، وقد لقى الموت فى صراعه مع أهل السنة ، وخلفه ثلاثة من أولاده أصغرهم إسماعيل ، وكانت سنه عاماً واحداً عندما توفى أبوه .

فى ذلك الوقت كان الأتراك العثمانيون يمدون سلطانهم على آسيا الصغرى وشمال شرق إيران ، فتصدى لهم إسماعيل عندما كبرت سنه وتزعم التركمان الشيعيين فى الحرب ، وقد تمكن بفضل شجاعتهم من الاستيلاء على تبريز ، وهناك أعلن نفسه شاهاً لإيران فى المحرم ٨٩٨ هـ/يوليو ١٥٠١ م . والشاه إسماعيل هو الذى صبغ

الحركة الصفوية كلها بصبغة شيعية ، وكان الكثيرون جدًا من أتباعه سنيين أول الأمر ، ولكنه اجتهد فى تحويلهم إلى الشيعية الاثنى عشرية ، وتصدى معهم لحرب السلطان سليم العثمانى الذى كان سنياً شديد الحماس لمذهبه . وقد وقع اللقاء الدموى الأول بين الفريقين فى تشالديران فى شمال غربى إيران فى رجب ٩٢٠ هـ/أغسطس ١٥١٤ م ، وانتهى بنصر حاسم للأتراك العثمانيين الذين احتلوا تبريز عقب ذلك . ولكنّ سليماً اضطر إلى إخلائها والعودة إلى تركيا بسبب فتنة وقعت بين صفوف جنده ، وهذه الفتنة هى التى أنقذت الصفويين من الأزمة الخطيرة التى أحاطت بدولتهم وهى بعد فى طور النشوء .

هنا بدأت أوروبا تفكر فى الاستعانة بالصفويين الشيعيين على الأتراك العثمانيين السنيين الذين كانوا إذ ذاك يتقدمون بخطى ثابتة فى قلب أوروبا ، وأرسلت إليزابيث ملكة انجلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب خليفة إسماعيل فى بلدة قزوين عاصمته ، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه نصرانى يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين . ولكن دولة الصفويين ضعفت ضعفاً شديداً فى أيام طهماسب ، لأن رؤساء الجند من التركمان تقاسموا السلطان فى إماراتهم وتركوا الشاه وعرشه لمصيرهما فى أثناء الصراع الحاسم مع الأتراك .

وعادت دولة الصفويين فانتعشت من جديد فى عصر الشاه عباس (٩٩٦ — ١٠٣٨ هـ/١٥٨٧ — ١٦٢٩) وكان ملكاً عظيماً دون شك ، فهو الذى جدد قوة الدولة العسكرية وسمح لمدربين من الإنجليز بإنشاء فرق محاربة على النظام الحديث تتكون من الطوفانجية أى الفرسان الذين يستعملون السلاح الحديث ، والطبجية أى المدفعية ، والقُلار أى الفرق الخاصة التى تضاهى الإنكشارية قوة ونظاماً . وبفضل هذه الفرق الجديدة استطاع الشاه عباس الثبات أمام الأتراك العثمانيين وتثبيت دعائم دولته وتحويلها إلى قوة يحسب لها حساب ، وقد استعان فى ذلك بالسير أنطونى شيرلى Sir Anthony Sherely وأخيه السير روبرت وبعثة بريطانية من الاختصاصيين فى شئون الحروب . وبطبيعة الحال لم يكن للإنجليز من غرض من وراء ذلك إلا تمكين الفرس من الثبات فى وجه الأتراك العثمانيين ، حتى تشتد الحرب بين المسلمين ويخلص الأوروبيون من الخطر الذى كان يتهددهم ..

المهم أن الشاه عباساً أقام دولة قوية عاصمتها أصفهان ، واجتهد دعاة الغرب فى تأجيج نار العداوة والكراهية بين المسلمين ، وكانت أذن الشاه عباس مصغية إليهم ، ويقال إنهم هم الذين أوحوا إليه فكرة تحويل قبر على الرضا فى « مشهد » وقبر أخته فاطمة فى « قم » إلى موضعين لحج الشيعة ، بدلاً من الكعبة المكرمة الواقعة فى بلاد سنية . ومن الثابت — على أى حال — أن هذه الفكرة دارت فى ذهن الشاه عباس ، وفى الوقت نفسه سمح للمبشرين المسيحيين بالعمل فى بلاده ، وفتح ذراعيه للأوروبيين كأنهم طوق النجاة لإيران من جيرانها المسلمين ..

وفى سنة ١٠١١ هـ/١٦٠٢ م وبمعاونة الإنجليز استطاع الشاه عباس أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، التى كانوا قد احتلوها واستعملوها مركزاً للسيطرة على بحار آسيا . وعنا أيضاً كانت المعاونة الإنجليزية تهدف إلى القضاء على قوة البرتغاليين فى تلك البحار حتى تنفرد بريطانيا وشركة الهند الشرقية بتجارة آسيا . وهذا هو الذى حدث . وعندما توفى الشاه عباس فى جمادى الثانية ١٠٣٨ هـ/يناير ١٦٢٩ م بعد حكم ٤٢ سنة كانت إيران قد أصبحت قوة ضخمة فى الشرق الأوسط .

وقد وصل الشاه عباس إلى تحقيق أهدافه بذكائه ووطنيته وشجاعته وغير ذلك من ملكات ، ولكنه لجأ أيضاً إلى أساليب دموية بالغة العنف مع منافسيه وكل من خشى منهم خطراً من أبنائه . وعندما اختفت شخصيته الغلابة لم يرث خلفاؤه منه إلا القسوة والعسف ، وذلك التقليد البغيض الذى جرى عليه الكثيرون من خلفاء آل عثمان أيضاً ، وهو وضع كل الرجال — أو كل الذكور — من الأسرة الحاكمة الذين يمكن أن يطمعوا فى العرش فى سجون حياة لا يخرجون منها أبداً ، فكانوا يحبسون مع نسائهم وجواريهم فى بيوتهم من يوم يتولى العرش سلطان جديد إلى أن يموت . والنتيجة أنه عندما كان الشاه يموت لا يبقى حول العرش غير الخدم والحشم ، وهؤلاء هم الذين كانوا يختارون الشاه الجديد على هواهم وبما يناسب مصالحهم .

وأسرع التدهور إلى البيت الصفوى فاسترد مراد الرابع — آخر الفاتحين من آل عثمان — العراق وبغداد واحتل تبريز وأوقع مذبحة بأهل همذان . ووصل تدهور أحوال إيران إلى أقصاه سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م ، عندما اتفق الأتراك العثمانيون

أن تركوا هذا الجزء للإيرانيين ، إذ إن آبار البترول وثرواته الطائلة اكتشفت فيه فيما بعد ، وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من ذلك الجزء يتكون من المناطق العربية من إيران . وهكذا نرى كيف أن دولتين عظيمتين من دول الإسلام فى العصر الحديث أنفقتا من الجهد فى الحرب فيما بينهما أضعاف ما أنفقتا فى حرب العدو غير المسلم ، وقد نسى رجالهما أن المنافسة بين المسلمين — مهما بلغت — فإنها لن تخرج بلاداً إسلامية إلى أيد غير إسلامية . ولقد تحارب المسلمون بعضهم مع بعض على طول العصور الوسطى ، ثم انتهت حروبهم وبقيت البلاد كلها بلاد إسلام لم يُنتقص منها إلا قدر قليل ، فلما أخذ المسلمون يصادقون غير المسلمين على حساب أبناء دينهم ويأمنون لهم ، بدأت بلادهم تضيع ونفذ الخطر إلى قلب الكيان الإسلامى نفسه ، ولم ينج من ذلك الشر بلد من بلاد المسلمين .

العـــرب والأتـــراك :

تكلمنا فيما سبق عن سوء أحوال دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام وجزيرة العرب وجزءاً من شمالى العراق ، أى معظم الجناح الشرقى للعالم الإسلامى ، وذكرنا كيف كانت أحوالها قد اضطربت اضطراباً شديداً بعد أيام السلطان قايتباى الذى يعد آخر الكبار من سلاطين المماليك . والحقيقة أنه كان من أسوأ من حكم العرب ، وإن من يقرأ حوليات النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى / النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى عند مؤرخ ذلك العصر ابن إياس الحنفى ليدهش من الهوة السحيقة من الاضطراب والفوضى التى تردت فيها البلاد فى عصر المماليك ، والحق أن الدولة كانت قد انتهت منذ أيام السلطان بارسباى ، وما تلا ذلك إنما كان احتضاراً طويلاً .

ولقد كانت دولة المماليك دولة واسعة ، وكان من الممكن أن يكون لها دور كبير فى الصراع العنيف الذى كان دائراً إذ ذاك على مصير تجارة الشرق بين البرتغال والجمهوريات الإيطالية ، وعلى مصير الشرق الأوسط بين الصفويين ومن حارب معهم من التركمان فى ناحية والأتراك العثمانيين فى ناحية أخرى ، ولكن دولة المماليك الضخمة لم تكن تعرف مما يجرى وراء حدودها شيئاً ، وكان جهل سلاطين المماليك

ورجالهم فى تلك الحقبة فادحاً ، والكثيرون منهم كانوا لا يحسنون العربية : لا كلاماً ولا كتابة ولا قراءة ، وما كانوا — طبعاً — يعرفون أى لغة أخرى غير تلك الرطانة التركية المغولية العربية التى كانوا يتكلمونها فى قلعة الجبل بعيداً عن عالم الناس . ومن ثم لم يكن لديهم فكرة واضحة عن الأتراك العثمانيين أو الصفويين أو عن الأوروبيين ، وفى جهلهم باتجاهات السياسة فى عصرهم اتجهوا نحو الشاه إسماعيل ملتمسين منه الحلف على ابن عثمان — كما كانوا يسمون سلطان الأتراك — وكان رسلهم أو سفراؤهم مماليك من المرتزقة يخونون سادتهم فيبيعون أسرارهم للتركى مرة وللإيرانى مرة ، ومن ثم فقد كانت مهاجمة الأتراك العثمانيين لدولتهم مفاجأة لهم ، لأنهم — على الحقيقة — لم يكونوا يعرفون شيئاً .

وكان ذلك هو الطبيعى ، فإن أولئك المماليك الذين عاشوا مع العرب فى بلادهم قروناً متطاولة ، لم يختلطوا خلالها بأحد ولا تعلموا العربية ولا فهموا ثقافتها ولا أفادوا من الفرصة التى أتيحت لهم ، وهى وجودهم على رأس أهم بلاد الشرق العربى وأكثرها موارد وثروات وإمكانيات . فعاشوا غرباء عن البلاد وأهلها ، لا ضربت جذورهم فى الأرض ولا ربطتهم بأهلها واشجة غير واشجة الدين ، وكان إيمان المماليك إيماناً جاهلاً متعصباً قليل الفهم للإسلام ومزاياه ، ومن ثم فقد كان الكثير من تصرفاتهم بعيداً عن روح الدين . ولم ينمُ لديهم ذلك الحس الذى ينمو عند من يفهم الإسلام ويتعمقه ، ومن هنا فقد نفرت جماهير العرب من المماليك نفوراً شديداً ، وأنكروا حكمهم ، وإن لم يستطيعوا القضاء عليهم ، لأن الدول الباغية التى توالت على هذه البلاد — منذ أيام الطولونيين — حرصت منذ زمن بعيد على تجريد الناس من السلاح وإبعادهم عن الحرب حتى تنفرد الدولة ورجالها بالقوة والسلاح ومعرفة فنون القتال .

فخلال تلك القرون كلها لم يكن أمام أى مصرى أو شامى أو عربى من الجزيرة أية وسيلة ليتدرب على فن من فنون القتال ، وكان القتال فى العصر المملوكى — أى فيما تلا الحروب الصليبية — قد أصبح كله قتال فرسان ، فلا يستطيع المحارب بسيفه على قدميه أن يفعل شيئاً أمام فيالق الفرسان ، مهما بلغ ضعف هذه الفيالق . وأمام عجز الناس عجزاً تاما عن الحصول على أية فرصة للتدريب العسكرى ، أو حتى ركوب الخيل ، خرجت الحرب من اهتمامات أمم العرب التى خضعت للمماليك ولم يعد أحد من أبنائها يفكر فيها أو يوجه أولاده نحو الخدمة العسكرية . وكان

من المستحيل أن يقبل المماليك فى صفوفهم رجلا من العرب إلا أن يكون بدويًّا يخفر لهم ناحية من النواحى أو ساكن جبال يستعصى عليهم إخضاعه فيتقون شره بتركه فى جباله فيظل محصوراً فيها .

ولنضف إلى ذلك أن هذه الدول حرصت على إفقار الناس وأخذ كل ما فى أيديهم من الأموال جرياً على تقليد سياسى قديم جرت عليه الدول الآسيوية العتيقة وورثته الدول الإسلامية السائرة على الطريق الآسيوى ، وهى أن الرعية الفقيرة رعية مأمونة ، إذ إن الفقير المدقع مهما بلغ فقره ونعاسته لا يفكر فى الثورة على الظلم ولا يستطيعها ، إنما يفكر فيها مياسير الناس الذين يتمتعون برخاء مادى ينتج عنه رخاء معنوى وتطلع إلى الحرية ونفور من الظلم وقدرة على الوقوف فى وجهه .

ولهذا كان من الطبيعى أن تزول دولة المماليك أمام أول صدمة عنيفة تواجهها ، وهى عندما زالت خلفت وراءها عالمًا عربيا فقيراً بائساً لا يملك من إطارات التكوين والتنظيم الاجتماعى إلا القليل . وما حفظ على المجتمع العربى وحدته وكيانه أيام المماليك إلا الإسلام ومبادئه الكريمة التى حفظت على الأسرة والمجتمعات الإسلامية وحدتها وسلامتها وأخلاقياتها . وكانت الأسرة الإسلامية هى التى أنقذت المجتمع العربى من الضياع خلال عصر المماليك ، ومعظم ما ينسب من المساءات ودواعى التأخر والمظالم إلى العصر التركى يرجع فى الحقيقة إلى العصر المملوكى ، فقد كانت كلها موجودة قبل أن يستولى الأتراك على بلاد العرب . حقًّا إن الأتراك لم يستطيعوا علاجها ولم يتركوا العرب أحراراً ليعالجوا أدواءهم ، ولكن هذه مسئولية أخرى .

والحق أن العرب أصيبوا بخيبة أمل كبرى عندما انتقلت بلادهم من المماليك إلى الأتراك ، لأنهم توقعوا أول الأمر أن تكون الدولة الجديدة مخرجاً من التعاسة التى سادت فى أثناء عصور المماليك . ولقد أدخل الأتراك إصلاحات كثيرة على النظم السياسية والمالية التى كانت قائمة فى البلاد العربية ، ولكن ذلك لم يكن كافياً . فإن العرب لم يكونوا فى حاجة إلى إصلاح النظم الإدارية والمالية التى كانت تحكمهم ، فهذه النظم لا تعود بالخير إلا على الحكام ، أما بالنسبة للمحكومين فهى تزيد من عبء الظلم وتجعله ظلما منظماً أو استغلالاً ماليًّا منهجيًّا يجرى على أساس الضبط والدقة فى استخراج الأموال من الناس .

لم يكن العرب فى حاجة إلى ذلك ، بل كانوا فى حاجة إلى أن يرفع عنهم العبء ويعهد إليهم فى حكم بلادهم ، ولهذا فهم لم يستفيدوا شيئاً عندما تركت الدولة العثمانية أمور الحكم فى أيدى المماليك ، فكأن العبء قد تضاعف أيام الأتراك ، لأن المملوك كان يجبى من الناس ضرائب مضاعفة بعضها له وبعضها للسلطان . والحقيقة التى لا شك فيها هى أن الأتراك الذين شادوا دولة آل عثمان امتازوا بالقدرة على ماجروا على تسميته بالضبط والربط ، أى ضبط الأمن وربط الأموال . والضبط عندهم قد يتحقق بالعدل والفهم ، وقد يتحقق كذلك بالبطش والقتل والإرهاب ، وهذا أسهل ، ولهذا فقد سلكوا سبيله واستراحوا إليه ، وعهدوا إلى الأمراء الإقطاعيين فى كل ناحية بإخماد نفس كل معارض واستخراج أكبر قدر من المال من الناس بأى طريق . وبذلك ساءت أحوال الناس وساءت ظنونهم فى آل عثمان ، وهبطت الدولة كلها — من حاكمين ومحكومين — إلى درك سحيق .

والحق أنه على الرغم من أن العرب والعثمانيين عاشوا جميعا فى إمبراطورية واحدة من النصف الأول للقرن السادس عشر الميلادى إلى النصف الأول من القرن العشرين ، فإن أحداً منهما لم يعرف الآخر معرفة صحيحة ، والسبب فى ذلك أن العربى لا يأتلف مع غيره إلا على أساس العروبة ، ومن خصائصه أنه لا يقبل على الامتزاج بجنس آخر ، إذا كان ذلك سيؤدى إلى ضياع لغته وشخصيته العربيتين . ومهما بلغ من ضعف أمم العرب فى بعض العصور فإنها لا تفرط أبداً فى عروبتها أو لغتها ، وهى عندما تشعر بأن عروبتها ولغتها مهددتان تنكمش على نفسها دفاعاً عن كيانها وترفض الامتزاج أو التعاون .

حدث هذا عندما خضع العرب للأتراك ، وعندما دخل العرب تحت دول الاستعمار . وفيما يتصل بالأتراك نقول إن كلا من الشعب العربى والتركى أراد أن يحتفظ بكيانه ويذيب الآخر فى نفس الكيان فلم يتم لأحد منهما توفيق فيما قصد إليه ، ولهذا شقى العرب بالأتراك بقدر ما شقى الأتراك بالعرب . ولكن الذى لا يعرف هو أن جماهير الأمة التركية قاست من حكامها ومظالمهم أكثر مما قاست منهم جماهير العرب ، وعليهما معاً ينطبق قول شوقى : « ولكن كلنا فى الهم شرق » .

ولقد أحجم العرب عن دراسة لغة الترك وأحجم الترك عن دراسة لغة العرب . فأما العرب فقد تعودوا أن يروا المسلمين من غير العرب يقبلون على دراسة اللغة

العربية ، لغة القرآن والدين ، ولذلك قلّ أن أقبلوا على دراسة لغة من لغات إخوانهم في المجموعة الإسلامية ، وكأنهم قدروا أن الإسلام بدون عربية أو بدون عروبة لا يكتمل . وأما الترك فقد دخلوا أرض العرب غالبين ، وتوقعوا — لهذا — أن يسارع الآخرون لدراسة اللغة التركية ، وكان فيهم — لأول فتحهم للبلاد العربية — غرور عظيم ساعد عليه أن العرب كانوا في حالة ضعف وتفكك خطيرين ، فلم يجتذبوا غيرهم إلى دراسة لغتهم . ولقد درس الأتراك العثمانيون الإسلام بلغتهم التركية ، وحفظوا من القرآن ما يقيمون به صلواتهم ، وقام بعض علمائهم بترجمة آيات من القرآن إلى التركية ، وفي أولى الأمر تحمس كثيرون من أهل العلم فيهم للغة العربية فدرسوها وتفوقوا فيها ، وظهر فيهم علماء يؤلفون باللغة العربية تأليفاً ممتازاً ، من أمثال أبي الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى طاش كبرى زادة المتوفى سنة ٩٦٨ هـ/١٥٦١ م ، وعلى دده بن مصطفى علاء الدين البوسنوى المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ ، ومصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٨ هـ/١٦٥٨ م) وغير هؤلاء كثيرون ، ولكن هذه الحركة لم تستمر ، وانصرف الأتراك عن دراسة اللغة العربية والتبحر فيها .

وهناك سبب آخر لجهل الأتراك حقيقة العرب وجهل العرب حقيقة الأتراك ، وهو أنه كانت هناك دائماً جماعات وسيطة بينهما حالت دون أن يتعرف أحدهما إلى الآخر بصورة مباشرة . ففي مصر والشام مثلا حالت بين الأتراك والعرب بقايا المماليك ومن تربى معهم وخدمهم من العاملين في جمع الأموال ، وهؤلاء كانوا أعداء لأهل مصر والشام وأعداء للأتراك في نفس الوقت ، وكانوا هم الذين يتوسطون بين الجانبين ويعطون لكل منهما صورة غير صادقة عن الآخر . وفي العراق تولى الحكم باشوات الأتراك ثم مماليك العثمانيين ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك عثمانيين خالصين ، وقد أساءوا إلى الترك بقدر ما أساءوا إلى أهل العراق وفي الحرمين واليمن تولت الحكم باسم الأتراك أسر محلية من العفاة والطغاة وطلاب الكسب بأي طريق .

ثم إن أسوأ فرق الإنكشارية كانت ترسل إلى الولايات العربية لأنها ليست مناطق حرب عنيفة ، إذ إن الأتراك كانوا يرسلون أحسن طبقات جندهم إلى ولاياتهم الأوروبية وبخاصة على جبهة نهر الطونة وبلاد القرم وجنوبي روسيا والقوقاز وجبهة الحرب مع إيران ، ومن هنا فإن العرب لم يروا إلا أسوأ الأتراك ، ونتيجة لهذا لم

يعرفوهم على حقيقتهم قط ولا عرف الأتراك العرب على سجيتهم ، فلا عجب أن جهل كل منهما الآخر ولم يصل أحد منهما إلى فهم الآخر .

ولنضف إلى ذلك أن الدولة العثمانية كانت — منذ فتحها القسطنطينية وتوغلها في أوروبا — في حالة حرب دائمة ، وبخاصة على الجبهات الرئيسية الثلاث : الجبهة الغربية في وسط أوروبا والبلقان ، والجبهة الشمالية في روسيا وبلاد القرم ، والجبهة الشرقية في مواجهة الإيرانيين . وهذه الحروب المستمرة فرضت على الأتراك تضحيات مستمرة وكلفتهم ثمناً غالياً من الدماء والأرواح ، وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كان عليهم أن يخوضوا حرباً بحرية ضروساً في البحر الأبيض المتوسط أمام الأسبان والجمهوريات الإيطالية ، وقد استطاعوا بهذه الحروب إنقاذ المغرب العربي من الوقوع في أيدى الإسبان ، ولكن الثمن كان باهظاً ، فقد تحطمت أساطيل الأتراك مرة بعد مرة ، ومات الألوف من خيرة رجالهم في مياه البحر ، وكانت آخر المعارك الكبرى التي خاضوها هناك هي معركة ليبانتو في أكتوبر ١٥٧١ م .

وكل هذه الحروب جعلت الأتراك تحت ضغط متزايد وفي حاجة ملحة للمال دائماً ، ولهذا اتجهوا إلى عسف رعاياهم سواء في الأناضول أو في الولايات العربية أو الأوروبية ، مما بغضهم إلى الناس وجعل حكمهم مرادفاً للظلم والاستبداد . وغير خاف أن المشاكل التي فرضتها الإمبراطورية على الأتراك كانت أكبر من أن يحلوها وحدهم ، فقد كانوا قوماً عسكريين في المكان الأول ، ولم يكن لهم باع طويل في مطاولة المشاكل والبحث عن حلول لها ، وإذا كان العرب يشكون من أن حكام الأتراك لم يوفقوا إلى حل أية مشكلة من المشاكل العويصة التي كانوا يعانونها ، فإن الأتراك كانت شكواهم من حكامهم أشد ، وتبعاً لذلك كان العبء الذي حملوه أثقل بكثير .

ويطيل الأتراك الحديث عن النظم الإدارية التي وضعها سليم الأول وسليمان القانوني (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) ، وربما كان حقاً أن تنظيمات سليمان أنقذت الإطار العام للإدارة والمجتمع في الولايات العربية أثناء حكمه من التفكك الكامل ، ولكن معظم هذه النظم جمد جموداً تاما ، وأصبحت قواعده في الواقع قيوداً شديدة الوطأة على الناس ، وقد قام بتطبيقها موظفون أتراك أو محليون لا يمتازون بقدرة

أو ذكاء كبير أو أمانة ، أو إحساس بالمسئولية العامة أو القومية ، ومن هنا كان عبء هذه الأنظمة التركية ثقيلا على الناس .

وإذا ذكرنا أن الدولة العثمانية — بمجموعها — كانت دولة إقطاعية تعهد في الإدارة إلى ناس محليين في كل مكان وتتقاضى منهم مبالغ ضخمة سنويا وتترك لهم نسباً عالية من الأموال لينفقوا منها على جندهم ، وفي الوقت نفسه كانوا أحراراً في أن يجمعوا من الناس ما يريدون من الضرائب ، إذا ذكرنا ذلك تبينا مقدار ما عاناه الناس من المتاعب على أيدي أولئك الحكام الإقطاعيين الذين كانوا في الحقيقة ملتزمين بالضرائب فحسب ، أما الباشا الذي كانت تعينه الدولة إلى جانب الحاكم الإقطاعي فلم يكن يحكم إلا بالاسم ، وكان الدفتردار — وهو الموظف التركي الموكل بتحصيل مال الإقليم — يشترك في الغالب مع الحكام الإقطاعيين في ابتزاز أموال الناس .

ومن الملاحظ — بصورة عامة — أن الحكام المحليين في البلاد العربية لم يتقدموا قط لحماية مصالح رعاياهم إذا وقع عليهم ظلم من رجال الدولة العثمانية ، في حين أن أمثالهم من حكام الولايات المسيحية — مثل الروملي وملدافيا وولاشيا وترانسلفانيا — وكانوا مسيحيين ، لم يكونوا يتأخرون عن الدفاع عن بني جلدتهم والثورة على الدولة باسمهم . وكان فساد أولئك الحكام الإقطاعيين المحليين وتعاونهم مع رجال الدولة في العدوان على رعاياهم هو الذي أسرع بالنظم العثمانية إلى الفساد ، وهبط بالمستوى العام للإمبراطورية العثمانية وأهلها هبوطاً شديداً .

اضمحلال الدولة العثمانية :

وقد بدأ انحدار الدولة العثمانية من سنة ١١٦٧ م ، وهي السنة التي اعتلى العرش فيها مصطفى الأول ، وقد سار الاضمحلال بعد ذلك قدماً برغم الجهود الضخمة التي بذلها آل كبريلي من الصدور العظام — أي رؤساء الوزارات — لإنقاذ الدولة ، وبخاصة أولهم محمد كوبريلي (١٥٧٥ — ١٦٦١ م) وثانيهم أحمد فاضل كبريلي (١٦٦١ — ١٦٧٦ م) وكان من عظماء الرجال ، فقد استطاع أن يوقف سير الاضمحلال ، ولكن مأساة الدولة العثمانية الرئيسية كانت تنبع من سببين رئيسيين : الأول أن سلاطينها لم ينتبهوا قط إلى تطور الدنيا من حولهم وجمدوا عند مفهوم الدنيا

كما تصوره سليم الأول ، ومفهوم الإدارة كما رسمه سليمان القانونى . والثانى أنهم لم يتنازلوا قط عن الشعور بأنهم جنس ممتاز لا بد أن يحكم ويطاع ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا ، ونتيجة لذلك عزلوا أنفسهم عن الناس فى كل ناحية عزلا تاماً جعلهم غرباء فى كل نواحى إمبراطوريتهم ، فلم يؤثروا فى الناس ولم يتأثروا بهم ، وقد ظهرت دولة آل عثمان على مسرح الأحداث فى مطالع العصر الحديث ، عندما بدأت الدنيا تفيق من سبات العصور الوسطى وتسير سيراً حثيثاً نحو التقدم ، فى حين وقف الأتراك مكانهم ، فلم تلبث تركيا أن أصبحت فى مؤخرة بلاد أوروبا من حيث التقدم العلمى والتنظيم السياسى .

ومع مرور السنوات ، نلاحظ أن الدولة العثمانية تحارب حرباً خاسرة فى ولاياتها الأوروبية ، وقد أنهكت هذه الحرب قواها وامتصت حيويتها وجعلتها آخر الأمر دولة فقيرة برغم عظمة مظهرها . ثم إن الدولة العثمانية لم تكن قط دولة أهلها من الأتراك أو العرب ، بل كانت دائما دولة الخلفاء والسلاطين والقادة والإنكشارية والحكام الإقطاعيين . وكان الكثيرون منهم غير أتراك ، ولهذا فلم يتمتع بخيرات الإمبراطورية من الأتراك الأصلاء إلا القليلون ، ولقد دفع الفلاح والصانع والتاجر — من الأتراك — خيرة أموالهم وأرسلوا إلى الميدان زهرة أبنائهم ولم يجنوا من خيرات الدولة بعد ذلك إلا القليل .

ولم يفكر رجال الدولة — بعد آل كوبريلى — فى بحث أحوال الرعايا وما آلت إليه إمبراطوريتهم ، فعلا بل ساروا فى طريق الخطأ فتضاعفت المتاعب . ولم تكن أمام السلاطين أى وسيلة لمعرفة الأحوال الحقيقية فى إمبراطوريتهم ، لأن رجال دولتهم لم يصدُقوهم الخبرَ عن شيء ، وكان الكثير من السلاطين غير صالحين للولاية أصلا .

وشيئاً فشيئاً تنحدر دولة آل عثمان خلال القرن الثامن عشر انحداراً محزناً ، حتى تصل إلى درك سحيق فى سلطنة عبد الحميد الأول (١٧٧٤ — ١٧٨٩ م) ، وكان مسكيناً ضعيف العقل قضى ٤٣ سنة سجيناً فى قصره ضحيةً لتقليد خطر جرى عليه سلاطين آل عثمان وشاهات إيران يقضى بحبس كل ذكور الأسرة الذين يمكن أن يتولوا العرش فى بيوتهم منذ اليوم الذى يتولى فيه سلطان جديد .. وعلى أية حال ، كان هذا الإجراء أهون مما كان متبعاً قبلا ، من افتتاح السلطان حكمَه بقتل كل إخوته وأبنائهم الكبار ومن يمكن أن يتولى العرش !

أقبل عبد الحميد الأول على الحكم وكأنه مقبل من العالم الأخر : لا يكاد يعرف عن هذه الدنيا شيئاً ، وفى ٢١ يوليو ١٧٧٤م — وهى السنة الأولى لحكمه — وقعت تركيا معاهدة « كُتْشُك كَيْنَارجى » ، وهى وثيقة استسلام مهين أمام روسيا تخلى فيها سلاطين آل عثمان عن سلطانهم على شعب التتر المسلمين ، الذين كانوا يسكنون مساحات شاسعة من بولندا إلى بحر قزوين ، ودخل هذا الشعب القوى تحت سلطان قياصرة روسيا . وتنازلت تركيا لروسيا عن ولايات ضخمة فى شمال البلقان ، واعترفت باستقلال ولايات أخرى ، وأخذ الروس حق الملاحة فى مضايق البحر الأسود ، وضاعت شبه جزيرة القرم ، وسلم الأتراك للروس بحق حماية المسيحيين الأرثوذكس فى بلاد الدولة نفسها . باختصار : بدأت تصفية إمبراطورية آل عثمان ، وانحدرت الدولة العلية إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبدأت روسيا وغيرها من بلاد أوروبا تتحدث فى تصفية الدولة نهائياً . هنا بدأت « المشكلة الشرقية » ، وأصبحت الدولة العثمانية فى نظر الغربيين دولة مريضة ميئوساً من شفائها .

ما الذى حدث داخل الدولة ؟ هو بالذات ما حدث داخل الدول الإسلامية السابقة : عدّ السلاطين الدولة ملكاً لهم لا ملك الشعب ، وصرفوا أمورها لمصلحة بيتهم لا لمصلحة الرعية . ولقد صدقوا فى الدفاع عن الإسلام ونصروه نصراً عزيزاً ، ولكن دوافعهم إلى ذلك لم تكن ترجع إلى إيمان بأنهم يدافعون عن كيان أمة إسلامية عامة كما كان الأمر مع العرب الأول ، وإنما كانوا يحاربون بحماس شخصى مشكور لذاته ولكنه ليس طويل الأمد ، ولهذا فلم تلبث حماستهم أن تراخت عندما توالت عليهم الانهزامات . وقد اعتمد السلاطين على قوة عسكرية وظيفتها الرئيسية حماية عروشهم ومد سلطانهم وامتهان الرعية بل احتقارها . هنا وقع الانفصال بين الشعوب المسلمة التى كانت تتكون الدولة منها — ما بين عرب وأتراك وأكراد ومن إليهم — وبين السلاطين وجندهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن الشعوب هى شجرة السلطان ومصدر حياته ، وأن انفصال الطبقة الحاكمة عنها انفصال عن الحياة ، ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من أن تموت شجرة الدولة شيئاً فشيئاً : يتدهور نوع الحكام من الزمن حتى نصل إلى الجهلاء والمعتوهين ، وتسيطر القوة العسكرية على أصحابها وتضع على العرش القاصرين والعاجزين ومن يجرى مجراهم ، وتفسد الروح العسكرية ويصبح الجنود طلاب أرزاق ويفقدون كرامة الجندى وشهامة المجاهد ، فلا تخجلهم الهزائم

ولا يستحون من الهروب والتسليم فى أراضى الوطن . وعلى هذا تستمر الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى .

والآن نلتفت إلى الدولة الرابعة من الدول التى قامت فى عالم الإسلام فى مستهل العصور الحديثة ، وهى دولة المغول فى الهند .

إمبراطورية مغول الهند بعد السلطان أكبر (١٥٥٦ م — ١٦٠٥ م) :

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ما وصلت إليه إمبراطورية مغول الهند من العظمة والاتساع فى عهد أكبر وابنه جاهنجير (١٦٠٥ — ١٦٢٧ م) ، فقد شمل سلطانه شمال الهند كله وكشمير وبلوخستان وقندهار وجزءاً كبيراً من هضبة الدكن . وقد تألقت دولة جاهنجير برواء ساطع وازدانت عواصمها بروائع المساجد والقصور ، ولكن السلطة اعتمدت على الجند المأجورين ، وقد زادت أعدادهم فى أيام أكبر وبنيه زيادة بهظت خزانة الدولة ، ثم إن جاهنجير ترك إدارة الدولة فى أيدى جماعة من الوزراء والندماء يأتمرون بأمر زوجته نورجيهان فنهبوا خزائن الدولة نهباً . وقد شهدت أيامه انحداراً سريعاً لدولة المغول وسلطانهم ، واستطاع الفرس أن يستولوا على قندهار ، وكانت ولاية جليلة فى شمال الهند ومداخل جبال الأفغان .

وجاء بعده شاه جيهان ، ولم يكن بالحاكم القادر ولكنه كان بَنَّاءً تفخر بمبانيه صفحات الفن الإسلامى ، ويقف هذا الرجل فى صف واحد مع عظماء المنشئين فى تاريخ دول المسلمين ، من أمثال عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعبد الرحمن الناصر الأندلسى وابنه الحكم المستنصر وأبى يوسف يعقوب المنصورى الموحدى ويوسف الأول الغنى بالله سلطان غرناطة وسليمان القانونى العثمانى ، فقد ابتنى هذا الرجل مدينة ملوكية سميت باسم شاه جيهاناباد ، وزيَّن دهلى وأجرا بمنشآت هى آيات فى الجمال ، من مثل مسجد مطبع وروضة التاج محل وكلاهما فى مدينة أجرا . وإلى جانب العمارة انتعش التصوير وكتابة الخطوط الجميلة ، وعلى الجملة وصل البلاط المغولى فى الهند إلى أوج فخامته فى عصره الذى امتد من ١٦٢٧ — ١٦٥٨ م . ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن عوامل الاضمحلال كانت نشيطة أيضاً ، وخلف رُواء القصور وجمال المبانى كانت أركان الدولة تنهدم وأموالها تنفد وأطرافها تنفصل

واحداً بعد آخر ، وقد تكلفت ميزانيتها مبالغ طائلة في حملات غير موفقة على قندهار ، وعندما توفى سنة ١٦٥٧ م كانت دولة مغول الهند قد آذنت بالمغيب .

وقد حاول خلفه أورانجزيب (١٦٥٨ — ١٧٠٧ م) أن يتدارك الانهيار ، وأوفقه فعلا بعد أن قام بجهود مضنية ، ولكنه كان رجلا عنيفاً قاسياً كلف رعاياه شططاً ، وكان يأمل أن يستطيع تحويل كل رعاياه إلى الإسلام ، وطارد السيخ والراجبوتيين والجاتيين والمراثيين والوثنيين في الدكن ، وهبَّ هؤلاء الأخيرون في وجهه بقيادة زعيم يسمى سيواجى وبتأييد من الإنجليز الذين عجلوا بإرسال الأسلحة النارية والمدربين إلى الثائرين . وقد أراد أورانجزيب أن يُخضع الهند كلها لسلطانه ، وبذل جهداً ضخماً في هذا السبيل حتى أوصل الدولة إلى أقصى ما وصلت إليه من امتداد الرقعة ، فشملت الأراضي الواسعة الممتدة من جبال الهندكوش إلى ساحل كروماندل ، ولكن عبء الضرائب كان ثقيلا على الفلاحين وأهل المدن . وكان نقطة الضعف الكبرى في نظام دولته هي فساد الطبقة العليا من المغول ، فقد تأثروا تأثراً عميقاً بالبيئة الهندية ومالوا إلى الراحة والملذات وأصبحوا عبئاً على الدولة وعنصر فساد فيها .

ولكن العلة التي قررت مصير الإمبراطورية هي التنافس على العرش ، ومن أسف أن دول المسلمين لم تصل قط إلى قاعدة سليمة لتلافى الأخطار من هذه الناحية ، وذلك راجع إلى أن أصحاب الدول جميعاً أهملوا رعاياهم وأخرجوهم من ميدان المسئولية السياسية واطمأنوا إلى المرتزقة والمأجورين الأجانب ، وأمنوا إلى الخدم والحواشي ، وأنفوا من أن يستشيروا في أمور دولهم كبار الناس من أبناء الشعب ، ممن كانوا جديرين بتوجيه هذه الدول الوجهة السليمة كما كان الحال في الدول الأوروبية التي أشرنا إليها .

وهذا يصدق على دول العباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم ، وهو من الأسباب الرئيسية في ضياع أمرها جميعاً وقلة ما أدته لأمة العرب من خدمات حقيقية . ولكي نوضح هذه النقطة نقول : إن دول الغرب قامت على أكتاف أسر محلية أو أسر توطنت في البلاد ، وأصبحت ترى نفسها من أهلها وتعتمد على رجالها في تثبيت أقدامها . ذلك ينطبق على بيت هيوكابيه في فرنسا ، والنورمان ومن أتى بعدهم في إنجلترا ، وعلى أسرة الهوهنشتاوفن في ألمانيا والهابسبورج في إسبانيا وبعض

بلاد أوروبا ، فهذه الأسر كلها تأصلت في البلاد ومدت جذورها في تربتها واعتمدت على أهلها في بناء جيوشها ، ومن أهلها اختار ملوكها معاونيهم ورجال دولتهم متعاونين في ذلك مع من وجدوا في البلاد من الأسر الأصيلة ذات الجاه والمكانة في البلاد .

فبينما قامت دولة العباسيين والفاطميين ومن إليهم بالقضاء على كل من وجدتهم في البلاد عند قيامها من أهل الحل والعقد والرأي واستصفاء أموالهم وتشريد أهلهم ، نجد كل أسرة من الأسر الغربية التي ذكرناها تعترف لأهل الأسر المحلية بحقوقهم بل ترفعهم إلى مصاف الأشراف وتعتمد عليهم في أعمالهم ، فتلتحم الأسرة بالشعب ويزداد طابعها القومي ظهوراً وبذلك يطول عمرها لأنها تصل نفسها بمصدر السلطة والقوة وهو الشعب ، ويصبح نجاحها نجاحه وفتوحها فتوحه . ولهذا يقال إن الأسرة النورمانية ساهمت في بناء الشعب الإنجليزي ، ولا يقال إن الفاطميين أسهموا بنصيب في بناء الأمة المصرية ، وكل ما يقال في الكتب الجارية — عندنا — خلاف ذلك إن هو إلا أوهام وتصورات لا تقوم على أساس ولا يؤيدها من الواقع التاريخي دليل .

وهذا الخطأ وقعت فيه دول أصيلة كالدولة العباسية ودولة آل عثمان ، فإن دولة بني العباس عربية قامت في الحقيقة على أكتاف عربية وغير عربية ، وكان سبيلها إلى القوة والحياة هو الاعتماد أكثر فأكثر على العرب وربط مصالحها بمصالح الجماعة العربية ، والجماعة العربية هنا لا يقصد بها الجنس العربي وحده بل كل من دخل في كيان العروبة واستعرب وأحس بالفخر بماضي العرب ومشاركة العرب آلام الحاضر وآمال المستقبل . ولو مدّ أبو جعفر المنصور يده إلى هؤلاء العرب وجعلهم عماد جيشه وأهل مشورته ورأيه لأسرع الخراسانيون وغيرهم إلى الاستعراب وأصبحوا عرباً مع الزمن ، كما أصبح الإسبان عرباً في الأندلس بفضل السياسة العربية الواضحة التي سار عليها بنو أمية الأندلسيون . ولكن أبا جعفر المنصور كان رجلا أنانياً قصير النظر كغيره من منشئي الدول التي ذكرناها ، فجرى وراء مظهر السلطان الخادع ولم ينظر إلا إلى تأييد سلطانه وتثبيت أقدام بيته بأي طريق ، وأحاط نفسه بجند غير عربي وبمظاهر مُلك كِسروي غير إسلامي ، وأصبح خليفة مسلما يتصرف تصرف ملك جاهلي ، ودفع الدولة كلها بهذا المسلك إلى طريق غير مأمون .

دولة المغول والتدخل الغربى :

طوال العصور الوسطى تمتعت الهند بصيت بعيد كبلد ذى حضارة موغلة فى القدم متعددة الجوانب ، بلد غنى حافل بالخيرات التى تفتح أمام التجار إمكانيات واسعة للعمل والكسب الوفير . والهند كانت بلداً فسيحاً تعيش فيه شعوب شتى تختلف فى المزاج والأصول واللغات والديانات . ولم يكن يجمعها رابط حقيقى أو وحدة وطنية ، ومن بين سكانها شعوب ذات ملكات تجارية تسكن السواحل الغربية والشرقية لشبه الجزيرة الهندية وتتولى الأعمال التجارية ، وقد أنشأت هذه الشعوب مراكز التجارة والأسواق وهاجرت منها جماعات إلى الشواطئ الأفريقية وبلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية وأنشأت فيها المتاجر والجاليات ، ومن أهم مراكز النشاط التجارى على الساحل الغربى قاليقوط وجُوَا ودِيُّل ، أما على الساحل الشرقى فكانت هناك سورات ومدراس وجزيرة بومباى .

وفى المراكز التى تقوم على الساحل الغربى نزل تجار البرتغاليين أول مادخلوا بحار آسيا فى أواخر القرن الخامس عشرى الميلادى ، وقد دخلوا بعنف شديد لأنهم كانوا مسلحين بالبارود ولم يكن أهل البلد يعرفونه ، ولأن سفنهم كانت كبيرة متينة البناء تحتمل الأسفار البعيدة وتحمل الناس الكثيرين والبضائع الوافرة وتتحرك فى البحر بسهولة ، فلم يصعب عليهم اجتياح أهل الملاحة والتجارة فى جنوب آسيا ما بين عرب وفرس وهنود ، ثم أقدموا على الاستيلاء على أجزاء من الساحل وإنشاء الحصون والمخازن التجارية فيها ، وفى سنوات قليلة أصبح البرتغاليون يمثلون رعباً لهذه البحار وتهديداً لسواحلها وسفنها واتبعوا أسوأ أساليب القرصنة والعدوان ، فشمل أذاهم كل السفن فى بحر العرب معتمدين على جزيرة سقطرى التى احتلوها وسيطروا على الخليج العربى من هُرمُز واحتلوا كوتشين على ساحل الهند الغربى ، وأصبحت لهم بذلك إمبراطورية تجارية ، وما لبث ملك البرتغال أن أقام لنفسه نائباً له فى الهند ومركزه كوتشين . وكان الذى أنشأ تلك الإمبراطورية التجارية البرتغالية هو بدرو ألفاريث دا كابرال Pedro Alvarez da Cabral ، ولكن أول نائب للملك كان فرانسيسكو دا ألميدا Francisco de Almeida (١٥٠٥ م ـ ١٥٠٩ م) وهو أيضاً أول أوروبى نسمع أنه حكم بلاداً شرقية ، وهذا الرجل هو الذى استطاع القضاء نهائياً على سيادة العرب على مياه جنوبى آسيا بانتصاره على الأسطول المصرى فى معركة ديو سنة ١٥٠٩ م .

وبينما كان البرتغاليون بمدون سلطانهم ، كان أمراء مماليك الهند في الدكن يحاربون أمراء دولة فيجاياناجار الهندوكية ، وقد أفاد البرتغاليون من ذلك ونزلوا شبه جزيرة الملايو وهزموا قواد سلطنة ملقا سنة ١٥١١ .

وقد بلغت سيطرة البرتغاليين على بحار آسيا أوجها في منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وكان من الممكن أن تدوم مدًى طويلا لو لم يسرف البرتغاليون في استعمال القوة وأساليب النهب والسلب في بحار آسيا ، وقد دفعتهم أنانيتهم إلى أن يحاولوا إقفال تلك البحار أمام الشعوب الأوروبية الأخرى لكى ينفردوا وحدهم بالتجارة الآسيوية ، فحرموا على الهولنديين دخول ميناء الأشبونة وغيره من موانيهم ، فكانت النتيجة أن اتجه الهولنديون إلى الوصول إلى بحار آسيا مباشرة ، ووصلت أول أساطيل هناك بقيادة كورنيلس دى هوتمان Cornelis de Houtemann سنة ١٥٩٥ م ، **وقد قطع الرحلة في سنة وثلاثة أشهر . في حين أن سفن البرتغال كانت تصل بحار آسيا في نحو عشرة أشهر . وفي سنة ١٦٠٢ أسست الشركة الهولندية المتحدة للتجارة ورأس مالها ٤٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وأيدتها حكومة هولندا وأذنت لها في أن تتخذ الأساطيل والقوات العسكرية .**

وقد وجه الهولنديون اهتمامهم إلى جزائر الهند الشرقية ، فنزلوا على شاطئ جاوه عند بانتام وعينوا بيتر بوث Pieter Both حاكماً للموقع (١٦٠٩ — ١٦١٤ م) . وأنشأ الهولنديون في أثناء ذلك مراكز تجارية في بانتام وجاكارتا التى كانت تسمى إذ ذاك جاكاترا أو بتافيا ، ولكن أعظم حكام الهولنديين في تلك الجزر كان جان بيترزون كوين Jean Pieterzon Coen (١٦١٧ — ١٦٢٢ م) وكان سياسياً محارباً من طراز ألفونسودا ألبوكِرك Afonso da Albuquerque وهو أعظم أمراء البحار البرتغاليين الذين عملوا في بحار آسيا . ومن الطريف أن بطلى البرتغال في صراعهم مع العرب في بحار آسيا كانا يحملان ألقاباً عربية ، فالأول هو ألميدا أصل اسمه البيضاء وهى قرية من أحواز شنترين في البرتغال ، والثانى « ألبوكِرك » اسمه عرف تحريفاً شديداً من الكنية العربية المعروفة « أبو بكر » .

وفي ذلك الوقت دخل الإنجليز بحار آسيا ، شركاء للهولنديين أولا ثم مستقلين بأنفسهم بعد ذلك . وقد اهتم الإنجليز بالهند وركزوا نشاطهم في ولاياتها الشرقية وأنشأوا لأنفسهم مراكز على سواحل كروماندل والكوجرات والبنغالة ، وكما قضى الهولنديون على سطوة البرتغال في بحار آسيا وورثوا أسواقها الآسيوية فقد انتهى الأمر

بقضاء الإنجليز على سطوة الهولنديين فى الهند ، وكان ذلك على يد روبرت كلايف ، ذلك الداهية الاستعمارى الذى فاق كل من سبقوه ، فقام بتحويل شركة الهند التجارية إلى إدارة إمبراطورية ، وحوّل القارة الهندية إلى مستعمرة ، فبدأ بذلك عصر الاستعماريين العتاة .

ولكن الوجود البريطانى فى الهند يرجع إلى ما قبل زمن روبرت كلايف ، فهذا الرجل كان من أهل النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ، فى حين أن وثيقة تأسيس شركة الهند التجارية البريطانية ترجع إلى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م ، وهذه الوثيقة صدرت عن الملكة إليزابيث إلى حاكم لندن ونقابة تجارها وكان رأس مالها ٣٠٣٣٣ جنيها ، وقد قدمت لها حكومة إنجلترا كل معاونة . ونحن نقف هنا عند هذه الحقائق لنلفت النظر إلى أنه بينما كان تجار الغرب يجدون المساعدة والحماية والتأييد من حكوماتهم كان تجار بلادنا ضحية حكامهم ، فما وجدوا عند أحد منهم مالا إلا صادروه ، ولا عرفوا لأحدهم متجراً إلا نهبوه ، فكيف والله كان من الممكن أن تقوم للشعوب قائمة ومن فوقهم أمثال أولئك الحكام ؟ !

وقد نشطت شركة الهند وأنشأت لها المراكز فى سُورات وأجْرا وبرونش ، وتملك الإنجليز جزيرة بومباى ، وقد كانت أولا ملكاً للبرتغال فلما تزوجت كاتالينا دى براجانثا Catalina de Braganca شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٦٦١ م قدمت الجزيرة لزوجها ضمن بائنتها ، فسلمها شارل الثانى للشركة مقابل إيجار رمزى قدره عشرة جنيهات فى السنة ، وفى سنة ١٦٨٧ م أصبحت بومباى مركز أعمال الإنجليز فى الهند وقامت فرقة من الجند الأوروبيين المرتزقة بحمايته .

ولن نستطرد هنا مع تاريخ احتلال الإنجليز للهند ، وإنما يكفى أن نقول إنه فى الوقت الذى كان الإنجليز فيه يتوغلون فى الهند يوماً بعد يوم ، دخل الفرنسيون باب المنافسة ، وأنشأوا لأنفسهم مراكز تجارية ومعاقل حصينة على السواحل ، وكان رجلهم فى ذلك القائد المشهور فرانسوا دوبليه Francois Duplaix . واشتد الصراع بين الجانبين ، وبدلا من أن يفتح رجال الدولة المغولية أعينهم على الخطر الذى يحيق بهم انصرف بعضهم إلى حرب بعض مستعينين بالإنجليز أو بالفرنسيين ، مما أدى إلى القضاء على إمبراطوريتهم وتحولت الهند كلها إلى مستعمرة بريطانية سنة ١٨٥٨ م .

ولما كان المسلمون هم الذين قاموا بأكبر نصيب فى مقاومة التدخل البريطانى فى الهند ، فإن حكام الهند من الإنجليز جعلوا محاربة الإسلام من قواعد سياستهم فى تلك البلاد .

وفى الوقت نفسه كان الهولنديون قد حولوا جزائر الهند الشرقية كلها إلى مستعمرة هولندية ، وتمكن الإنجليز من القضاء على قوة البرتغاليين فى شبه جزيرة الملايو وجعلوها مستعمرة بريطانية مركزها سنغافورة ، أما الفرنسيون فقد تمكنوا من الاستيلاء على كل شبه جزيرة الهند الصينية .

وهكذا تهدمت الإمبراطوريات الإسلامية الكبيرة التى كانت قائمة فى الجناح الشرقى لمملكة الإسلام بعد إزهار قصير أو طويل ، تهدمت وخلفت وراءها أصداء من فتوحات وحروب وأمجاد حضارية . فأما الحروب فقد ذهبت مع أمس الدابر ، وأما الأمجاد الحضارية فقد بقيت لأنها من بناء الشعوب . وقد خلفت هذه الدول وراءها كذلك شعوباً ضعيفة فقيرة حظها من الشقاء عظيم ، تركتها ضحية لأعداء أقوياء أقبلوا بعقول جديدة وأساليب جديدة وتفكير منظم يرمى إلى القضاء على عالم الشرق الإسلامى وغير الإسلامى وتحويله إلى ميادين استغلال اقتصادى لخدمة الغرب وبلاده .

وكان على هذه الشعوب أن تعمل وحدها لتحرير بلادها والخروج بها من ظلم الاستعمار والخضوع للأجنبى الذى قادتها إليه الدول .

والآن نلتفت إلى الجناح الغربى لدولة الإسلام ، لنرى ماذا جرى فيه فى تلك العصور . سندرس الدولة الإسلامية الخامسة التى قامت فى عالم الإسلام فى مطالع العصر الحديث ، وما اتصل بذلك من أحداث .

بلاد المغرب وما قام فيها من الدول :

خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى تدهورت دولة الموحدين ، وهى كبرى الدول الإسلامية التى قامت فى المغرب خلال العصور الوسطى ، وغرقت فى بحر الخلافات المحلية والتنازع على العرش ، ذلك البحر الذى غرقت فيه معظم دول المسلمين . وكانت دولة الموحدين آخر مظهر للدول الإسلامية الكبرى التى

أقامتها شعوب المغرب التى تنتسب إلى أصول صنهاجية حضرية مستقرة ، وبانتهاء أيامها سنحت الفرصة لجماعات الزناتيين للحلول محل خصومهم الصنهاجيين فى السيطرة والسلطان ، وكانت أولى هذه الجماعات الزناتية التى سعت إلى السلطان القبائل التى سميت ببنى مرين ، ومنازلهم الأولى فى أرض السهوب الممتدة بين واحتى تافللت فى جنوبى المغرب الأقصى وفحيج فى جنوبى غربى الجزائر الحالية .

وبعد محاولات طويلة استطاعوا بقيادة أول زعمائهم وسلاطينهم أبى يحيى عبد الحق (٦٤٢ — ٦٥٦ هـ/١٢٤٤ — ١٢٥٨ م) أن يزيلوا آخر خلفاء الموحدين ويسودوا المغرب الأقصى كله حتى طنجة وتطوان فى الشمال ، وسيطروا على ممر تازا مفتاح المغرب الأوسط ، وثبتوا أقدامهم فى طنجة مفتاح الأندلس . ومن ممر تازا — أو تازة — استطاع المرينيون فى عهد سلطانيهم الكبيرين أبى الحسن على (٧٣١ — ٧٥٢ هـ/١٣٣١ — ١٣٥١ م) وأبى عنان فارس (٧٥٢ — ٧٥٩ هـ/١٣٥١ — ١٣٥٨ م) أن يمدوا سلطانهم على الجزء الغربى من الجزائر الحالية ويصلوا بسلطانهم أحياناً إلى تونس . ومن طنجة عبروا إلى الأندلس حيث أخذوا بنصيب كبير فى الجهاد فى سبيل الإسلام فى شبه الجزيرة إلى جانب بنى نصر ابن الأحمر أصحاب غرناطة .

وكان لبنى مرين اهتمام كبير بالمنشآت والمبانى ، فلا تخلو مدينة فى المغرب الأقصى من آثارهم الجميلة ، وما زالت روضة بنى مرين قرب شالة أثراً جليلا من آثار الفن الإسلامى البديع برغم ما أصابها من تهدم . والروضة هى المدافن ، وروضة بنى مرين مجموعة من الأضرحة والمصليات بلغت الغاية من الجمال والرواء . وفى مدينة تازة — التى تتوسط الممر المعروف باسمها — أنشأ أبو يعقوب يوسف المرينى (٦٨٥ — ٧٠٦ هـ/١٢٨٦ — ١٣٠٧ م) مسجده الشهير بقبته الرائعة وثرياه التى تعد من أجمل الثريات التى صنعتها أيدى فنانى المسلمين .

وقد اختفى بنو مرين من الميدان بعنف كما دخلوه بعنف . أزاحهم عنه وحل محلهم فيه قبيل زناتى آخر عرف ببنى وَطّاس ، منازلهم الأولى كانت أراضى السهوب والواحات جنوبى طرابلس وأفريقية والجزائر ، ومن هناك انتقلوا خلال القرن الثالث عشر إلى جبال الريف ، ثم دخلوا فى خدمة بنى مرين وأصبحوا عماد قوتهم العسكرية ، وانتهى أمرهم بأن صاروا أصحاب السلطان فى المغرب الأقصى عندما

أعلن شيخهم محمد بن الشيخ نفسه سلطاناً في سنة ١٤٧٢ م وظل يحكم إلى سنة ١٥٠٥ م عندما توفي بعد أن خاض حروباً طويلة وأقام ملكاً قبائليا مزعزعاً ، ولقد كسب هذا الرجل وابنه أبو عبد الله الملقب بالبرتغالي (١٥٠٥ — ١٥٢٤ م) انتصارات متعددة على منافسي بيتهم في المغرب ، ولكنهما فشلا في إيقاف الخطر الأكبر الذي هدد البلاد في ذلك الحين وهو خطر التوغل البرتغالي الإسباني .

البرتغاليون والإسبان في المغرب :

في ذلك الحين كان أمر إسبانيا والبرتغال قد استوى بعد أن قامت في كل منهما دولة قوية موحدة تجمع كل عناصر القوة في يدها ، وكان من أكبر ما حفز هممهم إلى الحروب والتوسع وجود مملكة غرناطة الضعيفة في جنوبي شبه الجزيرة ، ولقد دافعت غرناطة عن نفسها دفاعاً مجيداً ولكنها خسرت المعركة آخر الأمر وانتهى عصرها في الأيام الأولى من ١٤٩٢ م ؛ واستولت على بلادها مملكة قشتالة التي تزعمت ما يسمى في التاريخ الإسباني بحركة الاسترداد (لاريكونكيستا La Reconquista) .

وتحمس الإسبان بعد ذلك النصر وتطلعوا نحو المغرب الأقصى الذي سادته الفوضى كما رأينا ، وقام سباق بين الإسبان والبرتغاليين على الاستيلاء على المواقع والمراكز على سواحل المغرب . وجدير بالذكر أن البرتغال كانت أول من استيقظ من بلاد أوروبا وتنبه إلى أهمية الأسواق التجارية الخارجية ، وشجعها على ذلك ثبات نظامها السياسي ومهارة رجالها في بناء السفن وقيادة الأساطيل ، وإيمانهم بالمسيحية ، وقد كان البرتغاليون يقومون بأعمالهم ضد بلاد المغرب الإسلامية مدفوعين في ذلك بعاطفة صليبية .

كانت أول ضحية للعدوان الإسباني البرتغالي بلدة تطوان ، وكانت قد نهضت إذ ذاك نهضة كبيرة نتيجة لاهتمام سلاطين بني مرين بأمرها ، فقد ابتنوا فيها قصبة منيعة ليستعينوا بها في أعمالهم العسكرية في الأندلس . وقد تجمعت في ذلك البلد حشود من المجاهدين قامت بتأمين السواحل المغربية ومهاجمة أي سفينة معادية تحاول الاقتراب منها ، ويصف مؤرخو إسبانيا هذا النشاط بأنه كان نشاط قراصنة ، مع أن المجاهدين المغاربة — أو غزاة البحر كما كانوا يسمون — لم يهاجموا أي ميناء

إسباني . وفي سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م دبر الإسبان هجوماً عنيفاً على تطوان اشترك فيه أسطول ضخم وألوف من الجنود ، وقد هوجم البلد على حين غرة فقتل رجاله وأسر نساؤه وأطفاله وهدمت أسواره . ولم تعمر تطوان إلا بعد ذلك بقرن تقريباً ، عندما نزلتها جماعة من المهاجرين الأندلسيين الذين غادروا بلادهم عقب سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

وبعد تخريب تطوان جاء دور سبتة ، ذلك الميناء المغربي الزاهر الذي كان يقوم بنشاط تجاري واسع مع مرسيليا وجنوا وبيزا ، وفي هذه المرة كان المهاجمون من البرتغاليين : سيروا نحو البلد أسطولاً من ٢٠٠ سفينة فيها نحو ٥٠٠٠٠ جندي حاصروا البلد حصاراً شديداً ثم اقتحموه بالمدافع سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وأنزلوا بأهله مذبحة بشعة .

وفي سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م هاجم البرتغاليون طنجة ، ولكن أهلها والقبائل المحيطة بها استطاعوا رد عاديتهم فتركوها وساروا نحو بلدة « القصر الصغير » في الداخل بين طنجة وسبتة ، ثم واصلوا سيرهم حتى شاطئ المحيط الأطلسي شمال أصيلا واستولوا عليها واستخدموها قاعدة لأعمالهم العسكرية ضد الشاطئ الأطلسي للمغرب .

وقد عجز محمد الشيخ سلطان بني وَطّاس عن إخراجهم من سبتة أو أصيلا ، فواصلوا نشاطهم وأنشأوا مركزاً عسكرياً قرب آسفي — التي نسمي أيضاً بصافي — سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨١ م ، ومن هناك مدوا سلطانهم حتى آزمور سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وأنشأوا حصناً لهم عند البريجة الجديدة سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠٢ م . وبذلك أصبح شاطئ المغرب على المحيط الأطلسي شمالي الرباط تحت سلطان أولئك الغزاة ، وفي موضع حصنهم هذا أنشأوا بلدة مازغان ، وكذلك أنشأوا مركزاً ثابتاً عند رأس غير وسموه سانتا كروز دو كابو دا جير Santa Cruz do Cabo da Guir) ١٥٠٥) ، وهذا المركز هو الذي تطور إلى أن أصبح ميناء أغادير اليوم .

وبقدر ما كانت قوات سلطان بني مرين وسلطان بني وَطّاس عاجزة عن حماية شواطئ بلادهم ، كان مهاجرة الأندلسيين الذين نزلت جموع منهم في شاون —

أو شفشاون — إلى جنوب تطوان قادرة على الصمود لكل هجمات الإسبان ، وتمكنت فئة أخرى من مهاجرة الأندلس من تعمير تطوان وإعادة بنائها سنة ٩٠٤ هـ/١٤٩٩ م والصمود للإسبان . وقبيل ذلك الوقت (٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م) سقطت مليلة فى أيدى الإسبان وما زالت تحت أيديهم إلى يومنا هذا ، وفى سنة ٩١١ هـ/١٩٠٥ م استولى الإسبان على المرسى الكبير فى الجزائر ، ولكن الأتراك العثمانيين استطاعوا إخراجهم منها بعد أن دخلت الجزائر إمبراطوريتهم وتحولت إلى إيالة — أى ولاية — عثمانية .

وفى أيام أبى عبد الله البرتقالى خليفة محمد الشيخ تمكن البرتغاليون من التوغل فى المغرب من ناحية أغادير ، واتصلوا بالكثير من قبائل السوس المعادية لبنى وَطّاس وحالفوها . وفى إحدى غاراتهم وصلوا إلى أحواز مراكش وهددوها سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥ م واسترسلوا فى توغلهم حتى وصلوا إلى وادى درعة ، وهناك اصطدموا عند بلدة زغورة الحالية بجماعات الصوفية المجاهدين من الطريقة الجزولية بتزعمهم رئيس من الأشراف — أى من سلالة الرسول ﷺ — يسمى عبد الله ابن أحمد بن سعد (أو السعدى) ، وقد استطاع الصوفية إيقاف التقدم البرتغالى . وكان نجاحهم فى ذلك إيذاناً بميلاد دولة جديدة هى الدولة السعدية ، التى أنقذت المغرب الأقصى من العدوان البرتغالى والإسبانى .

السعديون الفلاليون (٩٦١ — ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — ١٦٥٩ م) :

وأصل السعديين من الحجاز ، هاجروا إلى المغرب فى القرن الخامس عشر واستقروا فى الجنوب فى منطقة وادى درعة — آخر أنهار المغرب من ناحية الجنوب — وأصبح منشئ أسرتهم عبد الله بن سعد الملقب « بالقائم » من كبار شيوخ الصوفية الجزولية ، وكان أنصاره بسيطرون على ناحية تارودانت ومركزهم تافلالت ، ولذلك يسمون الفلاليين ، وقد أخذوا يناوشون البرتغاليين حتى ردوهم إلى الساحل ، وعندما توفى عبد الله بن أحمد سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م قام بالأمر ابنه أحمد الأعرج متعاوناً مع أخيه الشيخ المهدى وتمكن من احتلال مراكش سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٣ م مع بقائه فى طاعة سلطان بنى وطاس ، وبعد خلاف وقع بين الأخوين انتقل السلطان إلى الشيخ المهدى ، وظل أحمد الأعرج حاكماً لمراكش ، وقد استطاع الشيخ المهدى

أن يستعيد أغادير سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م وأعقب ذلك بطرد البرتغاليين من آسفي وآزمور .

وقد خاض محمد الشيخ صراعاً طويلا مع بقايا الوطاسيين وولاة الترك العثمانيين في الجزائر ، وكانوا قد حولوها إلى ولاية عثمانية ، وقد تحالف محمد الشيخ مع الإسبان حتى يأمن شر البرتغاليين ويرد مطامعهم ، واستطاع قبل وفاته سنة ٩٦٤ هـ/١٥٥٧ م أن يضع أسس سياسة السعديين حتى نهاية أيامهم ، وهذه الأسس تقوم على محالفة الإسبان ضد البرتغاليين والأتراك معاً ، ثم التخلص من سلطان جماعات الصوفية والمرابطين ، والاعتماد على قوة عسكرية خاصة من عبيد السلطان السود ، يشترونهم من بلاد أفريقية المدارية ويربيهم تربية عسكرية تزيد من كفايتهم الحربية ، ثم وُضع نظام سليم عادل للضرائب والجبايات حتى لا يثقل أمرها على القبائل وأهل المدن . وكانت قبائل المغرب تنفر نفور شديداً من الضرائب مهما قلت مبالغها ، لأنها كانت في نظرهم رمزاً على الخضوع والمذلة ، وكانوا يسمونها المغارم ويقسمون البشر إلى أعزة يأخذون المغارم وأذلة يؤدونها ، وهذا واضح من كلام ابن خلدون .

واستقر الأمر للسعديين في المغرب الأقصى حيناً — بفضل قوتهم العسكرية التي أنشأوها ، وكانت هذه القوة تسمى بالعساكر المخزنية ، (والمخزن اصطلاح مغربي يراد به الحكومة) — حتى وفاة عبد الله الغالب سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ، وقد خلفه ابنه مولاى محمد المتوكل (٩٨٢ — ٩٨٤ هـ/١٥٧٤ — ١٥٧٦ م) فقام في وجهه الصوفية والمرابطون آملين استعادة سلطانهم الذي ولى ومطالبين بإلغاء الحلف مع إسبانيا ، وفي أثناء الصراع معهم عاد من الآستانة عم له هو أبو مروان عبد الملك ومعه قوة من الجيش العثماني وعدد كبير من الفنيين في شئون القتال ، ولم يكد أبو مروان عبد الملك يدخل المغرب مطالباً بالسلطان حتى انضمت إليه جماعات من أهل الطرق الصوفية ، فتمكن من الانتصار على محمد المتوكل بظاهر فاس سنة ٩٨٤ هـ/١٥٧٦ م وأعلن نفسه سلطاناً وأقام أخاه أبا العباس أحمد حاكماً لفاس ، واتجه هو نحو مراكش لتتم له البيعة فيها .

أما محمد المتوكل فقد هرب من البلاد وقام بمغامرة تعد من أغرب ما وقع لسلطان مسلم : لجأ أولا إلى بعض قبائل الأطلس على أمل الحصول على تأييدهم ، ولم ينجح

فى ذلك فهرب إلى إسبانيا وطلب تأييد ملوكها له وعرض عليهم فى مقابل ذلك أن يكون تابعاً لهم خاضعاً لسلطانهم ، فلم يلق قبولا ، فاتجه إلى البرتغال . وهكذا نرى كيف أن التمسك بالسلطان يُخرج طلاب الملك على أخلاقهم ودينهم ، وماذا بعد هذا الترامى المشين على عتبات ملوك النصارى واحداً بعد واحد لمجرد الوصول إلى العرش والسلطان !

وتحمس للأمر ملك البرتغال الدون سِبَاسْتِيان ، وكان شابا طموحاً جريئاً فظن أنه يستطيع الاستيلاء على المغرب كله عن طريق تأييد هذا المطالب بالعرش ، واستشار فى ذلك خاله الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا فنصحه بالإقلاع عن تلك المغامرة ، ولكنه لم يستمع ، وصدّق ما قاله له محمد المهدى من أن المغاربة إذا رأوه انفضوا عن عمه عبد الملك .

نزل الملك سباستيان وحليفه محمد المهدى ميناء أصيلا فى ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م ، وتقدم أبو مروان عبد الملك نحوهم بجموع مجاهدى المغرب وجند المملكة ومن انضم إليه من الأتراك ، وكان الجيش المسيحى يتألف من ٧٠٠٠ من خيرة الفرسان والمدفعيين بينهم ٢٠٠٠ من الإسبان وعدد من الألمان والإيطاليين . وفى الرابع من أغسطس ١٥٧٨ م دارت المعركة فى سهل إلى جوار مدينة القصر الكبير يسمى وادى المخازن ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبرتغاليين ومن معهم . وقد قتل فى المعركة سباستيان وغرق محمد المهدى فى ماء نهر أراد أن يعبره سابحاً . أما أبو مروان عبد الملك فلم يعش ليرى النصر ، إذ كان مريضاً يُحمل فى محفة فى ذلك اليوم الكبير ، وعندما أقبلت بشريات النصر كان فى غمرات الموت ، ولم يلبث أن توفى فى نفس الليلة . ولهذا تسمى المعركة بمعركة الملوك الثلاثة ، وتسمى أيضاً معركة المخازن ، ومعركة القصر الكبير . وهى حاسمة فى تاريخ المغرب ، لأنها قطعت رِجْل البرتغاليين من المغرب فلم يعودوا إلى الطمع فى أراضيه ، وبعد ذلك بسنتين قام فيليب الثانى بغزو البرتغال وضمها إلى تاج إسبانيا ونودى به ملكاً عليها فى أبريل ١٥٨١ م .

وجنى ثمرات هذا النصر أبو العباس أحمد خليفة أبى مروان عبد الملك ، وقد تلقب بالمنصور ، ولقبه الناس كذلك بالمنصور الذهبى (٩٨٦ ـــ ١٠١٢ هـ/١٥٧٨ ـــ ١٦٠٣ م) . وهو من أعاظم ملوك المغرب وأجلاء أعلام الغرب والمسلمين ، وقد اجتهد فى تقوية السلطنة عسكريا ، فاتجه نظره إلى الامتداد

جنوباً ووصلت جيوشه المنصورة إلى إقليم غانة ــ أو بلد السودان كما كان يسمى ــ وهناك ضم إلى قواته ألوفاً من مقاتلي السودانيين ، وعكف رجاله على تدريبهم على فنون الحرب .

وكانت بلاد غانا إذ ذاك من أكبر موارد الذهب ، فعظم ثراء دولته واتسعت أمامه فرص الإنشاء والتعمير والتنظيم ، فتمتع المغرب فى عصره برخاء كبير ، وانتعشت كبريات مدن المغرب من أمثال فاس ومكناس ومراكش وطنجة ، وقد ابتنى المنصور أسواراً غاية فى الجمال لمدينة مكناس ما زالت باقية إلى اليوم محتفظة بكل جمالها .

وقد تخلص أحمد المنصور الذهبى من كل صور التبعية للإمبراطورية العثمانية ، ولكنه استمر محافظاً على الحلف والصداقة مع إسبانيا والابتعاد عن أى عمل لمعاونة بقايا المسلمين المضطهدين هناك ، وكان بلاؤهم قد وصل إلى ذروته فى أواخر أيام فيليب الثانى ثم خليفته فيليب الثالث ، وفى أيام هذا الأخير اشتد بلاء ديوان التحقيق وقاست جماعات المسلمين فى إسبانيا أشد أنواع الاضطهاد ، وفى سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م صدر الأمر بإخراج بقاياهم من إسبانيا فأقبلت على المغرب منهم ألوف بعد ألوف .

ومات أحمد المنصور الذهبى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م ، فإذا بالبناء الضخم الذى شاده يتحطم ، لأن أبناءه الثلاثة ــ أبا عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وأبا فارس الملقب بالواثق ، وزيدان ــ تنازعوا على العرش نزاعاً مخزناً مخرباً . وهكذا نجد دول المسلمين تتحطم على صخرة النزاع على العرش ، ودولة قائمة جليلة كهذه ينهار نظامها لأن أبناء السلطان الثلاثة لا يرضى أحد منهم إلا بأن يكون هو وحده السلطان دون أخويه . وبعد نزاع طويل دام عشر سنوات خلا الميدان لمولاى زيدان فأصبح سلطان المغرب ، وثارت الحروب بينه وبين الإسبان فى البر والبحر حتى وفاته سنة ١٠٣٧ هـ/١٦٢٧ م .

وخلال هذا الصراع وقعت فى أيدى الإسبان سفينة فرنسية كان مولاى زيدان قد اكتراها ليحمل عليها كتبه وذخائره من سلا إلى أغادير ، وغنموا ما فيها ، ومن بين ذلك مجموعة من المخطوطات العربية هى جزء من مكتبة مولاى زيدان ، وكانت تضم نحو ٣٠٠٠ مجلد تقريباً من أحسن المخطوطات العربية ، فأمر فيليب الثالث

ملك إسبانيا بإيداعها مكتبة دير سان لورنزو فى مدينة الإسكوريال San Lorenzo del Escorial الذى بناه أبوه . وهذه المخطوطات هى أساس ذخيرة المخطوطات العربية الموجودة إلى اليوم فى هذا الدير ، وكان ذلك سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٢ م .

أما عشرات الألوف من المخطوطات التى كانت تملأ إسبانيا أيام العرب فلم يبق منها إلا نزر لا يذكر ، والباقى أتت عليه نيران محاكم التحقيق . وهكذا نرى كيف ضاعت مئات الألوف من مخطوطات علوم العرب على يد طاغية المغول هولاكو عندما دخل بغداد ، ومئات ألوف أخرى على يد رجال ديوان التحقيق فى الأندلس .

والحق أن تراثنا الثقافى قد تعرض لأعمال إبادة بربرية كثيرة من هذا الطراز ، ومع ذلك فقد بقى منه ذلك الذخر العظيم الذى نجده الآن مفرقاً فى نواحى الأرض يملأ مكتباتها الكبرى ، وإنه لتراث ضخم لم تشهد الإنسانية قبل العصور الحديثة مثالا له ولا قريباً منه . ولو وعى العرب قدر تراثهم وما قام به أجدادهم من الجهاد فى سبيل الإسلام والعلم لما رضى عربى إلا بأن تكون لأمته الصدارة بين الأمم .

انتهى حكم مولاى زيدان (١٠١٢ — ١٠٣٨ هـ/ ١٦٠٣ — ١٦٢٨ م) فى ظروف حزينة ، فقد تقلص سلطان البيت السعدى حتى لم يعد يتخطى مدينة مراكش وما حولها ، وأما فاس وإقليمها فقد سيطر عليهما فرع من البيت السعدى وتوالى عليهما سلاطين استقلوا بهما ، وفى كل ناحية تقريباً قامت أسر محلية بعضها عرب من فروع بنى هلال — وبخاصة المَعْقِل — وبعضها من أهل البلاد ، واستمر هذا التفرق إلى آخر أيام السعديين فى مدينة مراكش (سنة ١٠٣٦ هـ/١٦٢٦ م) وفى ناحية فاس ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م . وقد عادت وحدة البلاد على أيدى العلويين ، وهم أيضاً أشراف علويون يرجع نسبهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب ، دخلوا جنوب المغرب الأقصى مهاجرين فى أعقاب غارة وهجرة ضخمة قام بها عرب المَعْقِل فى القرن السابع عشر الميلادى ، وجدهم منشئ دولتهم هو مولاى على الشريف ، الذى استقر مع بنيه وأتباعه فى ناحية سجلماسة ، وكان رئيساً دينيا وشيخاً من شيوخ الصوفية المرابطين ، وعندما توفى فى حدود ١٦٦٠ م خلفه ابنه محمد .

ولم يكن طريق العلويين إلى السلطان سهلا ، ولا كانت المشاكل التى واجهتهم باليسيرة ، فقد نهضوا بالحكم فى ظروف عسيرة ، ووسط فوضى شاملة . فقد توالت

الثورات والانقسامات حتى خيف على مصير الوطن المغربي نفسه ، لأن الأمر لم يقتصر على أخطار التفرق الداخلي بل كان هناك الأعداء الخارجيون : إسبانيا والبرتغال ، وبعد قليل دخلت فرنسا ذلك الميدان . ولقد كان على مولاى محمد الشريف (١٠٤٦ — ١٠٧٣ هـ/١٦٣٦ — ١٦٦٣ م) ورشيد (١٠٧٤ — ١٠٨٣ هـ/١٦٦٤ — ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٣ — ١١٣٩ هـ/١٦٧٢ — ١٧٢٧ م) أن يخوضوا صراعاً عنيفاً مع سلسلة طويلة من المنافسين فى الداخل ، وأن يردوا عن المغرب خطر العدوان الأوروبى ويعيدوا وحدة البلاد ونظامها .

ولكن الأزمان تتغير ، ومع الأزمان الجديدة تأتى مسئوليات جديدة وأخطار جديدة . وقد نهض العلويون بمسئولياتهم وواجهوا الأخطار بشجاعة ، ولكن احتلال الفرنسيين للجزائر وتوغل إسبانيا فى شمال المغرب الأقصى وضعا مشكلة المغرب كله وضعاً جديداً .

وبقية هذا التاريخ تتخطى حدود هذا الكتاب ، فقد وصلنا بتاريخ المغرب الأقصى إلى صميم القرن الثامن عشر الميلادى ، أى إلى قلب تلك العصور التى نسمى بعصور الركود . فلنقف هنا لنلقى نظرة سريعة على بقية أجزاء المغرب العربى ، استكمالا لصورة العالم الإسلامى فى مطالع العصر الحديث .

الأحوال فى أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) حتى القرن الثامن عشر الميلادى :

ونبدأ بأفريقية ، وهى اليوم تقابل جمهورية تونس ومحافظتى قسنطينة وبجاية فى الجزائر الحالية ، وفى معظم الأحيان كانت تضاف إليها ولاية طرابلس . كانت هذه المساحة دائماً وحدة سياسية ، إلى أن تدخل الأتراك العثمانيون فى المغرب وأعادوا تقسيمه السياسى خلال القرن السادس عشر الميلادى .

كانت أفريقية هذه مركز خلافة بنى حفص — أو الحفصيين — ابتداء من سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٦ م ، وأبو حفص جدهم الذى ينتسبون إليه هو عمر أنتى — أو الهنتاتى — وكان أعظم أنصار محمد بن تومرت مهدى الموحدين (ت حوالى ٥٢٤ هـ/١١٣٠ م) . وقد استقل أحد أحفاد عمر الهنتاتى هذا — وهو أبو زكريا — بأفريقية سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وأنشأ دولة قوية منظمة خلفه عليها ابنه

أبو عبد الله محمد المستنصر الذى اتخذ لقب الخليفة (٦٤٧ — ٦٧٦ هـ/١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) ، وكان ملكاً هماماً تمكن من القضاء على الحملة الصليبية الثامنة التى قادها لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م .

بعد المستنصر تعاقب على عرش الحفصيين ٢٦ خليفة كانت معظم أيامهم نكداً وشقاء وحروباً وفوضى ، حتى انتهى أمرهم سنة ٩٨٢ هـ/١٢٧٤ م . وقد عرفت البلاد فى ظلهم سنوات قليلة من الرخاء والازدهار ، خصوصا بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م ، فقد أصبحت تونس وبونة (عنابة) وبجاية مراكز تجارية كبرى تفد عليها سفن أوروبا حاملة بضائع الغرب لتستبدل بها خيرات الشرق . وهذا الرخاء اجتذب أنظار الطامعين ، وعلى الرغم من أن ملوك الحفصيين كانوا أهل علم وثقافة إلا أنهم أهملوا اتخاذ العدة العسكرية الكافية لحماية بلادهم من الأخطار .

وفى أيام أبى عبد الله محمد الخامس (٨٩٩ — ٩٣٢ هـ/١٤٩٤ — ١٥٢٦ م) وابنه الحسن (٩٣٣ — ٩٤٩ هـ/١٥٢٦ — ١٥٤٢ م) ضعفت السلطة المركزية عن السيطرة على البلاد ، فتقسمت إلى ولايات متفرقة تولت الحكم فيها أسر محلية ، واستقل شيوخ عرب المعقل — وهم فرع من الهلاليين — بمساحات واسعة من الأراضى فى الداخل . وفى هذه الأثناء أقبل الإسبان يستولون على موانى المغرب وأفريقية واحداً بعد آخر ، فأخذوا المرسى الكبير (٩١١ هـ/١٥٠٥ م) ووهران (٩١٥ هـ/١٥٠٩ م) والجزائر (١٥١٠ م) وأنشأوا فى الجزيرة المقابلة للجزائر حصناً ضخماً سموه البنون El Penon أى الصخرة ، ثم استولوا على بجاية وطرابلس وحاصروا جزيرة جربة .

فى ذلك الحين كان أمر الأخوين الملاحين المسلمين عُرُوج وأخيه خير الدين — الملقب بباربروسّا أى صاحب اللحية الحمراء — فى صعود ، وكان هذان الأخوان ربانين من ربابنة البحار أصلهما من ألبانيا ، وهالهما ما رأيا من سيطرة الإسبان على البحار وجشعهم فى بلاد المسلمين ، فأنشأ عروج أسطولا شحنه بالمجاهدين ، ومضى مع أخيه يهاجم السفن الإسبانية ، واتخذ من موانى المغرب الصغيرة مراكز لأعماله ، ورحب المسلمون بسفنه فى كل مكان ، وتطوع للعمل مع الأخوين ، عروج وخير الدين ، الكثيرون من الشبان ذوى الحمية ، فلم يلبث أسطول الأخوين أن أصبح

قوة يحسب لها كل حساب فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م استطاع عروج أن يطرد الإسبان من ميناء الجزائر ، وإن بقوا فى الصخرة . ثم توغل فى داخل البلاد وهاجم بقواته تلمسان فى البر والبحر ، وقد لقى هذا المقاتل الباسل الشهادة قرب تلمسان فنهض بالأمر أخوه خير الدين .

وتنبهت الدولة العثمانية لهذا البطل ، فأخذته تحت جناحها وخلع عليه السلطان لقب باشا ، وأرسلت له القوات والمؤن ووضعت تحت تصرفه السفن ، وهكذا تطورت الحروب بين الأخوين والإسبان إلى حرب تركية إسبانية لسيادة البحر الأبيض المتوسط .

وقد طال مدى هذه الحرب ، ولكن الأتراك لم يدخروا وسعاً فى موالاتها بما ينبغى لها من رجال ومال ، واستطاعوا آخر الأمر إنقاذ المغرب الأوسط وأفريقية من براثن الإسبان ، وهذه من أجل الخدمات التى قدمها الأتراك للجماعة الإسلامية ، إذ حفظوا لها المغرب الأوسط وأفريقية . وقد طالت الحرب بينهم وبين الإسبان فى الجزائر الحالية أولا ثم فى تونس ثانياً ، وفى أثناء هذه الحروب سقط أمراء الحفصيين إلى الحضيض ، وظهر فيهم من يرضى بأن ينصبه الإسبان سلطاناً فيحكم باسمهم وبتأييد رجالهم ، وقد انتهت أيامهم بانتهاء بنى عبد الواد ـــ الذين كانوا قد طمحوا إلى السلطان وأنشأوا لأنفسهم دولة فى غرب الجزائر ـــ وسقوط الحفصيين فى تونس .

ففى سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م استطاع خير الدين أن يستولى على عنابة وقسنطينة وصخرة الجزائر ، ثم استولى على تونس وبنزرت وتوغل فى الداخل وتمكن من القضاء على حامية إسبانية كانت تؤيد السلطان الحفصى الحسن فى القيروان ، وعهد خير الدين فى حكومة القيروان إلى رجال الطريقة الصوفية الشابية . وفى سنة ١٥٣٥ م أقبل الإمبراطور شارل الخامس ـــ المعروف بشرلكان ـــ بنفسه فنزل صقلية وغزا تونس وحلق الوادى La Goulette (والمراد به مصب وادى مَجَرْدة وهو نهر تونس) واستدعى أبا الحسن من الصحراء ونصبه سلطاناً ، وفى مقابل هذه المعاونة تنازل هذا السلطان الحقير لشرلكان عن حلق الوادى وصفاقس والمنستير ، وعن سوسة للملاح الجنوى أندريا دوريا Andrea Doria أمير البحر ، وعندما سار هذا الرجل فى حماية الإسبان لاستعادة القيروان وقع فى أسر ابنه أحمد فسمل عينيه .

وبعد موت خير الدين قام زميله وخليفته طرغود (أو ضرغوت) لمواصلة عمله فاستولى على طرابلس (٩٥٨ هـ/١٥٥١ م) ثم قفصة (٩٦٤ هـ/١٥٥٦ م) ثم القيروان (٩٨٥ هـ/١٥٥٧ م) وأنزل بالإسبان هزيمة كبرى قرب جزيرة جربة (٩٧٦ هـ/١٥٦٠ م) .

وكان أمر الأتراك قد استقر فى الجزائر ، فجعلوا منها إيالة — أى ولاية — عثمانية يحكمها قائد تركى يلقب بأمير الأمراء بَايْلَرْبيج ، فتقدم أمير الأمراء يولوج — أو على باشا — واحتل تونس ، ولكن هزيمة الأسطول التركى فى ليبانتو سنة ١٥٧١ م قلبت الميزان فعاد الإسبان إلى تونس ، واستولى خوان دِ أوسْتريَا — Juan de Austria قائد الأسطول الإسبانى المنتصر فى ليبانتو — على تونس (٩٨١ هـ/١٥٧٣ م) ، وأقاموا السلطان محمداً السادس الحفصى . ولكن الأمر لم يطل ، إذ عاد الأتراك فاستردوا هذه البلاد كلها سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م وأزالوا ملك الحفصيين وجعلوا تونس كلها ولاية عثمانية .

وكانت طرابلس وأفريقية والمغرب الأوسط كلها ولاية عثمانية واحدة ، كان يحكمها أول الأمر أمير أمراء واحد يقيم فى الجزائر حتى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧ م ، ثم قسمت سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م إلى ثلاث إيالات يحكم كلا منها وال يلقب باشا ، وفى سنة ١٦٧١ م تحولت هذه الإيالات إلى ولايات عسكرية يحكم كلا منها قائد برتبة أغا ومعه وجاق — أى فرقة — من الإنكشارية ، ثم انتقل الأمر فى كل منها إلى رئيس عسكرى يلقب داى ينتخبه الأغوات — أى القواد العسكريون — وظل ذلك سارياً إلى الغزو الفرنسى للجزائر سنة ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠ م .

التدهــور السياســى وأسبابــه :

كانت تلك هى الملامح البارزة لصورة العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) إلى أواخر الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وهى القرون التى ظهر فيها بأجلى صورة ما يعرف بركود العالم الإسلامى . وأهم مظاهره تدهور النظم السياسية القائمة . وفقدانها القدرة على ضبط الأمور فى البلاد ، وعجزها التام عن إقامة الحكم العادل أو أى صورة منه ، وفشلها فى تمكين المواطنين من العيش المادى والعمل المنتج ، ويضاف إليها — فى أحيان كثيرة — العجز عن حماية البلاد ، وفقدان

الحكام — في كثير من الحالات — الحياء والشعور بالكرامة أو القومية أو الحمية للدين ، فهم — إلى جانب ما أنزلوه بالناس من ظلم — كان بعضهم يتآمرون على أوطانهم مع الأعداء . ومن مظاهره البارزة أيضاً ذلك الفقر الشامل الذي حط على الجماعات الإسلامية كلها ، فرزحت تحت عبء باهظ من الضرائب والمغارم استنفدت أموال الناس ، فسيطر عليهم فقر مدقع نرى صوره البشعة فيما كتب الرحالة الذين زاروا عالم الإسلام في تلك العصور .

وصاحب ذلك الفقر يأسٌ تام من تحسن الأحوال ، واستسلام تعيس للمقادير وما نأتي به ، وهبط المستوى العلمي والفكري فلم نعد نظفر بهذه الشخصيات الممتازة التي عرفناها في التاريخ الفكري للإسلام منذ ظهوره حتى أواخر القرن الخامس الهجري على الأقل . وكان من نتيجة ذلك أن ساد المجتمعَ كله جهلٌ شديد نسي الناس في أثنائه ما كان عند أجدادهم من المعارف والعلوم ، وانتشر الخوف من الشياطين والأبالسة والمخلوقات الشوهاء التي يخلقها خيال الجهلاء والخائفين ، واستسلم المجتمع كله لسبات عميق امتد حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن التدهور والانحطاط شمل النظم السياسية وأهلها ، ولكنه لم يمس جماهير المسلمين . فعلى الرغم من سوء الأحوال التي وصفناها فقد ظل المجتمع الإسلامي في كل بلد من البلاد التي مررنا بها سليماً متماسكاً ، لم يفسد نظامه الاجتماعي ولم يتطرق الفساد إلى خلية المجتمع وهي الأسرة .

فنحن نلاحظ أنه عندما تدهورت الإغريقية والرومانية والإيرانية ، صاحب تدهورها تحلل أخلاقي شامل تقطعت معه أواصر العائلات وانعدمت الروابط الأسرية الأساسية ، حتى لم يعد للزواج حرمة ولا للآباء على أبنائهم حقوق ، ودخل الفساد في كل ناحية من نواحي حياة الناس ، نلاحظ أن المجتمعات الإسلامية — كما نقدم القول — ظلت سليمة متماسكة لم يتطرق إليها الفساد والخلل ، وظل الناس ، برغم فقرهم — يتمسكون بالمروءة والدين ومكارم الأخلاق فيما بينهم ، بل إنه كلما ازداد ظلم الحكام وازداد على الناس عبء الفقر ومرارة الحاجة ، ازداد تماسكهم وازداد إيمانهم بمبادئ الأخلاق ، وهذا هو الذي حفظ المجتمع الإسلامي من التفكك برغم الويلات التي مرت به ، وكانت جديرة بأن تزلزله بصورة خطرة .

وقد اهتممنا فى ذلك العرض بأن نعطى صورة موجزة — ولكن واضحة — عن التدهور السياسى ، وبيّنا كيف وصل الحكم إلى مستويات وضيعة تجعل الكثير من الحكام لا يستحون من التآمر على أوطانهم مع أعدائهم وأعداء دينهم . هذا فضلا عما كان بعض أولئك الحكام يرتكبونه من المظالم والاعتداء على الأموال والأنفس ، دون أن يردعهم ضمير أو يردهم وازع من خلق أو دين . والحق أن العروش خلال فترات التدهور هذه قد أذلت أصحابها والطامعين فيها ذلا بشعاً وهبطت بهم إلى درك سحيق ، وقاتل الله الحكم فإنه — فى أحيان كثيرة — يجرد الطامعين فيه حتى من الشعور الإنسانى !

وإلى جانب ذلك نرى أمة الإسلام فى كل مكان محافظة على سمتها وأخلاقها ومبادئها ، وهذه المحافظة كانت الدرع التى وقتْ هذه الأمة من شرور عصور الركود وما جرى فيها وما أعقبها من احتلال أجنبى . وتلك هى الحقيقة الأولى التى نريد أن ننبه إليها الأذهان ، وهى أن التدهور والانحلال شملا السياسة وأهلها دون أن ينالا من كيان الأمة الإسلامية ، من جزائر الهند الشرقية إلى المحيط الأطلسى ومن شبه جزيرة القرم ، إلى أفريقية المدارية ، فقد بقيت هذه الأمة سليمة وإن بقيت مقفلة على نفسها تعانى من الفقر والجهل آلاماً متطاولة .

وما دام هذا التدهور سياسيًّا فى حقيقته فسنحاول أن نستبين أسبابه الرئيسية :

من البدهى أن التدهور لم يطرأ على دول الإسلام فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، بل هو بدأ قبل ذلك بزمن طويل . ومن المؤرخين من يردون بداية عصور الركود الإسلامى السياسى إلى بداية العصر العباسى الثانى عند نهاية حكم الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ/٨٤٢ — ٨٤٧ م) تاسع خلفاء بنى العباس ، على اعتبار أن الواثق كان آخر الخلفاء العباسيين العظام . ولكن من الحق أن نقرر أن الضعف بدأ قبل ذلك بكثير ، ربما منذ قيام الدولة العباسية ، لأن هذه الدولة — برغم ضخامة مظهرها — لم تكن دولة فتوح أو توسع أو سير إلى الأمام بالرسالة الإسلامية الكبرى ، فهى لم تضف إلى رقعة مملكة الإسلام شيئاً ، وكان همها المحافظة على الموجود ، ومن المعروف فى التاريخ أن الدولة التى لا تنمو لا بد أن تتقهقر .

وكان العباسيون مشغولين بمصالح بيتهم إلى درجة صرفتهم عن مواصلة رسالة الإسلام فى التوسع ، ومن المعروف أن الله بعث محمداً — ﷺ — بالإسلام ، لكى

يشمل الإنسانية كلها شيئاً فشيئاً ، وفى هذا الاتجاه سار الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية . فبينا نجد الأمويين فى أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ينفقون أكبر جانب من أموال الدولة على الفتوح فى المغرب والأندلس وبلاد الأتراك وما وراء النهر ، نجد أن بنى العباس يسقطون الفتوح من حسابهم تمامًا ، فلا فتوح ولا توسع .

حتى آسيا الصغرى ــ وكانت على أبواب خلافتهم يربض فيها عدو خطر هو الدولة البيزنطية ــ لم يفكر العباسيون فى أن يزيلوا هذه الدولة البيزنطية ويفتحوا أمام الإسلام أبواب الانتشار فى شرق أوروبا . وكذلك لا نجد العباسيين ينفقون أموالا على إنشاء مبان أو منشآت كتلك التى أنشأها الأمويون وزينوا بها عواصم دولة الإسلام ، وفيما عدا العناية بقنوات العراق والطريق من بغداد إلى الحجاز وتجديد مسجد الرسول ــ ﷺ ــ فى المدينة لا نجد للعباسيين إنفاقاً يذكر فى مرفق عام . نقول هذا ونحن نعلم أنهم أنشأوا بغداد ، ورعوا حركة علمية كبرى ، ولكنهم أنشأوا بغداد ــ فى الحقيقة ــ لتكون حصناً لهم ، فهى تدخل بين الأعمال التى قاموا بها لحماية بيتهم ودولتهم ، ومجد بغداد لا يرجع إلى جهد قام به العباسيون وإنما الفضل فيه يرجع إلى حيوية أمة الإسلام وجهدها الحضارى الفكرى ، والمأمون لم يصنع الازدهار الفكرى فى عصره ، بل أمة الإسلام هى التى جعلت المأمون ما هو فى التاريخ ، وهى خالقة كل ازدهار فكرى عرفته فى تاريخها .

وكان معظم إنفاق العباسيين على قصورهم وشئون معاشهم هم ومن حولهم ، وكذلك على جندهم المرتزقة سواء كانوا عربا أو إيرانيين أو أتراك . وهذا الجيش العباسى الضخم لم تكن له عمل إلا حماية الدولة وأصحابها ، ولهذا كان العباسيون يتركون جندهم يعتدون على الناس دون أن يضربوا على أيدى أفراده فى حزم ، لأن جندهم كانوا فى حسابهم أهم من رعيتهم .

و لم تكن لهذا الجيش الكبير من وظيفة إلا تأمين الملك لبنى العباس والقضاء على منافسيهم ومن يتهددون عرشهم ، فإن جهود هذا الجيش لم تتعد هذه الوظيفة المحددة إلى حماية الحدود كما ينبغى . ففى نواحى أقصى الشرق مثلا كانت حدود الدولة فريسة لعدوان الأتراك فى كل حين تقريباً ، وفى أقصى الغرب انتهى العباسيون بأن تركوا الحكم لأسرة إقطاعية محلية هى أسرة الأغالبة ، و لم تكن للعباسيين حاميات

على الحدود فى جنوبى مصر ، أما الحدود التى اهتم العباسيون بحمايتها فهى حدودهم مع الدولة البيزنطية ، وكان هذا أقل ما ينتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة فى واقع الأمر ، وهذا هو الذى حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر فى نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قواده على شئون الدولة جعلا من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزقة ، وهو الذى شل نشاط دولة بنى العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صنائع فى أيدى الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت فى حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصا فى النواحى المالية ، فإن نظام الدولة المالى كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالعدالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يسدّ به الحكام مطامع الجنود ، ومن منتصف العصر العباسى نجد أن وظيفة النظام المالى للدولة العباسية هى دفع رواتب الجنود وتغطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفى زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة فى حالة إفلاس .

ولقد أتانا المؤرخون ببعض الأرقام عن جباية الدولة فى عصور المأمون والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المنصرف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشيارى ، أو كتاب « الوزراء » لهلال الصابى ، نتبين أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجرى — كانت تعانى إفلاساً كاملا ، وكانت مهمة الوزراء هى الاجتهاد فى موافاة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التى كانت تعانيها الدولة العباسية — وهى الأزمة التى انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية فى أساسها ، وعلى صخرة المشكلة الاقتصادية تحطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وخدمه وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أى نصيب فى الحكم معه . حقًّا كان الأمويون أيضاً مستبدين بأمور

على الحدود في جنوبي مصر ، أما الحدود التي اهتم العباسيون بحمايتها فهي حدودهم مع الدولة البيزنطية ، وكان هذا أقل ما يتتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة في واقع الأمر ، وهذا هو الذي حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر في نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قواده على شئون الدولة جعلا من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزقة ، وهو الذي شل نشاط دولة بني العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صنائع في أيدي الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت في حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصا في النواحي المالية ، فإن نظام الدولة المالي كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالعدالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يسدّ به الحكام مطامع الجنود ، ومن منتصف العصر العباسي نجد أن وظيفة النظام المالي للدولة العباسية هي دفع رواتب الجنود وتغطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفي زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة في حالة إفلاس .

ولقد أتانا المؤرخون ببعض الأرقام عن جباية الدولة في عصور المأمون والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المنصرف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشياري ، أو كتاب « الوزراء » لهلال الصابي ، نتبين أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجري — كانت تعاني إفلاساً كاملا ، وكانت مهمة الوزراء هي الاجتهاد في موافاة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التي كانت تعانيها الدولة العباسية — وهي الأزمة التي انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية في أساسها ، وعلى صخرة المشكلة الاقتصادية تحطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وخدمه وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أي نصيب في الحكم معه . حقًّا كان الأمويون أيضاً مستبدين بأمور

الحكم ، ولكن أبوابهم كانت مفتحة لمن يريد أن يتحدث إليهم أو ينتقدهم أو يوجه إليهم النصح من رجال الأمة ، وندر أن غضب الأمويون على رجل أو آذوه لأنه انتقدهم أو وجه إليهم نصيحة ، إلا إذا كان الناقد منافساً سياسيا ، فهنا كان الأمويون لا يعرفون رحمة ، مثلهم في ذلك مثل أهل الحكم جميعا في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من الطابع الإسلامى العام للدولة العباسية ، فإن الأمة لم يكن لها نصيب فى الحكم على أيامهم ، وبخاصة بعد أيام المأمون ، عندما أصبح قصر الخلافة قصراً ساسانيا ، يسيطر عليه أجانب من غير العرب ما بين فرس وأتراك وغيرهم ، هنا يتجلى لنا الانفصال التام بين الحاكم والمحكوم ، وهو الانفصال الذى أشرنا إليه فى الباب الأول من هذا البحث ، وقلنا إنه كان من أوكد أسباب تدهور الدول الإسلامية .

وقد وقفنا هذه الوقفة عند الدولة العباسية لسببين : أولهما أنها استمرت تحكم عالم الإسلام — ولو بالاسم — حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وخلال القرون الخمسة التى عمرتها لم تدخل أى إصلاح أو تعديل جوهرى على نظام الحكم الذى سارت عليه ، أما ما حدث من تغير شكل الحكم نتيجة لضعف الخلفاء وما تبع ذلك من انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدى قادتهم العسكريين ، ثم تنازلهم عن الحكم الفعلى لرجل له قوة عسكرية تمكنه من الثبات فى مركزه وفرض سلطانه على الجنود . فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور نظام الحكم ؛ ولا يمكن القول بأنه كان تطوراً أو تعديلا للنظام التقليدى القائم .

لقد حدث ذلك فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ/٩٣٤ — ٩٤٠ م) وهو الخليفة العشرون من خلفاء بنى العباس ، وقد سمى ذلك الحاكم بأمره دون الخليفة بأمير الأمراء ، ومن ذلك الحين تحولت الخلافة العباسية إلى نظام رمزى لا يملك ولا يحكم وإنما هو رمز لوحدة أراضى الخلافة ووحدة أمة الإسلام . والواقع أن الدولة العباسية كانت قد تلاشت قبل ذلك بزمن طويل كقوة سياسية فعالة ، واستبد بنواحى الدولة مستبدون عسكريون محليون ، ولكنهم كانوا يسيرون على نفس القواعد الاستبدادية التى سار عليها العباسيون فى الحكم .

أما السبب الثانى لوقوفنا هذه الوقفة الطويلة بعض الشىء عند الدولة العباسية ، فهو أنها كانت المدرسة التى تخرج فيها أولئك المستبدون المحليون فى كل ناحية من

نواحي الدولة ، وهذه المدرسة كانت بدورها امتداداً لنظام الحكم الساساني القديم الذي كان يقوم على تركيز السلطان كله في يد كسرى وإطلاق يده في دماء الناس وأموالهم دون أن يحاسبه أحد على ما يعمل ، فيعتدى على أرواح الناس وأموالهم وحرياتهم وكراماتهم باسم الدولة والنظام ، ويعتمد في الحكم على قوة عسكرية خاصة به من المرتزقين . وهذه القوة العسكرية لا تبالي بما تفعل بالناس — مواطنين وغير مواطنين — في سبيل إرادة الحاكم . وبتولى الحكم في نواحي الدولة ولاة مستبدون يحكمون على طريقة مولاهم من عسف الناس والتعدى على أموالهم وأرواحهم .

وقد ارتد العباسيون إلى هذا النظام من يوم ظهرت دولتهم ، وساروا على ذلك المنهج بحذافيره على الرغم من علمهم بما آل إليه أكاسرة الساسانيين نتيجة لاتباعهم إياه ، ومن هنا فإن النظام العباسي كان خطوة إلى الوراء في تاريخ النظم السياسية ، وهو من بعض الوجوه محاولة لبعث العصور القديمة في ثوب إسلامي ، ومن ثم فهو قد ولد ميتاً من أول أمره ، وهذا هو السبب في المشاكل والأزمات التي واجهتها الدولة العباسية ، حتى في أيام الخليفة المهدى ثالث الخلفاء العباسيين . وقد حاولت أمة العرب — بكل ما تيسر لها من وسائل — أن تبعث في هذا النظام العباسي روحاً ، فاجتهد العرب من رجال الدولة العباسية في الحفاظ على خصائص الفحولة العربية في الدولة ، وتقدم أولو الرأى والمشورة من علماء المسلمين بخير ما عندهم ، ونشط أهل العلم والفكر في العمل والبحث والإنتاج ، ونشطت الأمة كلها في ميادين العمل ، فساد بلاد العالم الإسلامي وزانها رواء وصل بها إلى إزهار القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ولكن قواعد الحكم التي سار عليها خلفاء بني العباس وطبقها وزراؤهم — وغالبيتهم من الفرس — لم تلبث أن أوقفت عجلة التقدم ، ومن أكبر أخطار نظم الحكم السيئة أن عيوبها تزداد مع الزمن ، وأعباءها على الناس تثقل يوماً بعد يوم . وإذا كانت الشعوب في النظم الاستبدادية تخضع أول الأمر لمستبد واحد ، يحتمل لأنه واحد ، فإن رجال الحاكم ومعاونيه يتحولون مع الزمن إلى مستبدين على طراز سيدهم ، كل مستبد في ناحية سلطانه وعمله . وهم يتكاثرون في سرعة تطرد مع اطراد ضعف الدولة ، فيثقل العبء على الناس ، وشيئا فشيئاً يعجزون عن حمل

العبء فتبطؤ حركة المجتمع رويداً رويداً ، ويتراخى الإنتاج حتى يقتصر على الضرورى ، ويخيم الفقر على المجتمع كله ، ومن الفقر تأتى كل المصائب .

وهذه بالضبط هى حقبة الدول الإسلامية التى نكوّن أصحابها فى مدرسة الحكم العباسى الذى ذكرناه ، وسواء كانت الدولة فى شرق مملكة الإسلام أو فى غربها ، وسواء ظهرت فى القرن الثامن الميلادى أو الثامن عشر الميلادى ، فإن هذه صورتها وذلك نظامها وهذا هو مصيرها . وقد وقفنا عند الدول الإسلامية التى ظهرت فى مطالع العصر الحديث وأعطينا بعض التفاصيل عنها ، لكى يستبين القارئ أنها — كلها — كانت من هذا الطراز : دولا استبدادية لا تحسب للشعوب أى حساب فى نظامها أو أعمالها ، ونظماً سياسية ليس لها أى أساس دستورى أو سند قانونى أو تنظيم اقتصادى ، ومن هنا فإن عوامل موتها كانت تولد معها . وقد رأينا أن الكثير من هذه الدول كانت دولا مجيدة قامت بأعمال جديدة . فلا شك فى أن دول الأتراك العثمانيين والصفويين والمماليك ومغول الهند والسعديين كانت دولا عظيمة قامت بأعمال باهرة ، ولكنها تحطمت على صخرة النظم الاستبدادية الغاشمة التى لا تعرف شعوبها ولا تقيم لحريات الناس ودمائهم وكراماتهم وأموالهم حساباً .

هذا هو الفارق الرئيسى بين الدول التى كانت تحكم فى الشرق ، والدول التى كانت تحكم فى الغرب الأوروبى فى القرن الخامس عشر الميلادى وما يليه مثلا ، فقد كانت دول الغرب كلها فى ذلك الوقت دولا استبدادية فعلا ، ولكن الاستبداد فيها لم يكن مطلقاً ولا غاشما كما كان فى الشرق . فسواء فى إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا فإنه كان إلى جانب الملوك رجال أقوياء ، سواء فى العاصمة أو الأقاليم ، يحدون من سلطانهم ويرغمونهم بالرأى أو القوة على أن يضعوا حدوداً لسلطانهم ، وقد قامت بين أولئك الرجال والملوك حروب طويلة انتهت بالفعل بتقييد سلطان الملوك ، وإفساح مجال واسع إلى جانبهم لناس لهم حق فى إبداء الرأى والاعتراض على الظلم .

وفى كثير من الأحيان انتهى النزاع بين الدول الغربية ومنافسيها إلى ظهور بيوت حكم فى النواحى تمثل مقاومة إقليمية تصر على أن يكون لها نصيب فى تسيير شئون نواحيها ، وهذه الحدود والقيود التى وضعت على السلطان هى أسس الدساتير ، وهؤلاء المنافسون لسلطان الملوك فى الغرب كانوا هم أيضاً أصحاب طموح إلى السلطان

أيضاً نشأ القانون المدنى وقامت الطبقة الوسطى ، وهى أساس التقدم وخميرة الشعوب ، وكل ذلك بحماية الملوك وتأييدهم لأهل المدن ضد منافسيهم من أمراء الإقطاع ، ولهذا فإننا نجد الملوك وراء كل نهضة فى عالم الغرب ، فى حين لا نجد أن هذه القاعدة تصدق فى الشرق إلا فى حالات قليلة ، وكلامنا هنا ينصب على الماضى دون الحاضر .

وكل ما يمتاز به الغرب على الشرق اليوم — فى مجالات العلوم والنظم العامة والوعى العام — إنما نشأ فى المدن ، ومنها امتد حتى شمل الأوطان بأسرها . وقد ظهر تفوق الغرب على الشرق أول ما ظهر فى ميادين الحرف والصناعات والثروات القومية ، وبينما كانت دول الشرق تقوم ثم تهوى وتزداد القطيعة بينها وبين شعوبها اتساعاً ، كانت دول الغرب تزداد قوة يوماً بعد يوم ، وتزداد الروابط بين ملوكها وشعوبها . أى أنه فى الوقت الذى بلغت الفوضى السياسية أقصاها فى دول الشرق ، كانت دول الغرب تخرج من تلك الفوضى شيئاً فشيئاً ، وقد تعلمت دروساً نافعة ومرت بتجارب لها قيمتها ، فى حين لم تنتفع أمم الشرق بتجاربها ، لأن هذه التجارب نفسها كانت تجارب عقيمة ، إذ هى فى مجموعها سلسلة مملة حزينة من تجارب الاستبداد والظلم وإذلال البشر .

ومن هنا نرى كيف كان لقاء نظم الغرب ونظم الشرق لقاء بين شباب وشيخوخة ، بين نظم قوية حية ونظم بالية فاسدة منهوكة القوى . وقد بينّا ذلك فيما عرضنا من الصراع الذى احتدم بين المسلمين وغير المسلمين فى البحر الأبيض المتوسط وساحل المحيط الأطلسى ، فى المغرب وفى بحار الهند .

وقد أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ظاهرة انقطاع الاتصال بين الحاكمين والمحكومين ، وقلنا — وهذا رأى مفتوح للمناقشة — إن فتنة عثمان وما أعقبها من انتقال الخلافة إلى بنى أمية ، كان صدمة عنيفة هزت وجدان المسلمين جميعاً وألقت فى روعهم أن الفتنة واختلاف الناس والتنازع والحروب بين المسلمين لا يمكن أن تؤدى إلى خير ، وأن خير ما يفعله المسلم إذا ثارت الفتن بين المتنازعين هو أن يبتعد عن الميدان و « يكسر سيفه » كما يقولون ، فلا يمد فى الفتنة يداً ولا يشارك فيها بشىء ، كما فعل سعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرهما .

ولا شك كذلك فى أن كثيراً من أتقياء المسلمين لم يصدقوا ما رأوا من استعار الحرب بين الصحابة ، واعتقدوا أن ذلك هو السبب فى انتقال الأمر إلى معاوية وآل بيته . ولهذا فقد أحجمت غالبية المسلمين عن الانضمام إلى الخوارج ، على الرغم من أن المعتدلين من هؤلاء كانوا ينادون بالحق ويدعون المسلمين فى إخلاص إلى العودة إلى القواعد التى كانت جارية أيام الرسول ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ، ولم يقعد جمهور الناس عن الانضمام إلى فرق الخوارج هذه إلا خوفاً من أن يؤدى الشر القائم إلى ما هو أسوأ منه إذا مضى المسلمون يحاربون بعضهم بعضاً . وإلى هذا يرجع تسليمهم لمعاوية بالرئاسة ، فهم لم يرضوا عن معاوية ، ولا سلموا بأن له الحق فى الخلافة ، ولكنهم رأوا أن التراضى على رجل وسكون الفتنة هو فى ذاته خير ، فاجتمعت الكلمة على معاوية وسكنت الفتنة وقام أمر بنى أمية .

ولكن أمر بنى أمية قام على يأس من المسلمين شديد ، فما سعد الناس بمعاوية ولا أحبوه ، ولا أحبوا أحداً ممن جاء بعده . ولا شك فى أنه هو كان يعرف ذلك ، فقنع بالخلافة ولم يحاول أن يستجلب رضا الناس لأنه كان يائساً من ذلك ، وكان يحس أن الناس لا يرضون به عن تسليم أو إيمان ، وإنما عن يأس وسوء ظن بالدنيا وبالسياسة .

ولطالما تحدث الناس عن « حلم » معاوية ، والحق أن الكلام عن « حلم » أمة العرب أوْلى ، فإن معاوية ما كان ليستطيع الحكم إلا إذا كان حليما محتملا وصبوراً ، ولو لم يكن كذلك لما بقى فى الخلافة شهراً ، لأن العرب كانوا فى عنفوانهم ، وكانوا قديرين على أن يطيحوا به وبآله ، ولكنهم خافوا مغبة الفتن والحروب ، فأرسلوا حبال الصبر طويلة ، واعتصموا بالإيمان والتقوى وتركوا الأمور تجرى ، والفتنة أشد من القتل قطعاً .

أما الأثر العميق الذى نتج عن ذلك فهو الشعور العام بأن الحكم غصب واستبداد ، وأن الحكام إنما هم طوائف من الطامعين فى السلطان الطامحين إلى مغانمه ، ويغلب منهم ويحوز السلطان أشدهم مكراً أو دهاء وأبعدهم عن التقوى ويقظة الضمير . ومما زاد الأمر سوءاً أن بنى أمية المشارقة [1] لم يحاولوا قط أن يكسبوا

(١) تمييزاً لهم عن بنى أمية الغربيين الذين حكموا فى الأندلس .

الشرعية لحكمهم ، ولا فتحوا مع الناس حواراً ، إنما كانت طريقتهم في علاج مشاكل السياسة هي قطعها . فإذا نافسهم في الأمر عبد الله بن الزبير فلا مجال للكلام والمناقشة أو التحكيم وإنما العلاج في رأيهم كان استئصال ابن الزبير وأتباعه جملة . وإذا ثار عليهم المختار بن عبد الله الثقفي فلا حل للمشكلة إلا بقتله . وإذا شكا عرب العراق إلى الحجاج متاعبهم التي تقعد بهم عن الخروج لقتال الخوارج ، كان رده عليهم العنف والقسوة والإهانة والسباب .

ولم يحدث في التاريخ أن أحل حاكم لنفسه سب رعيته علناً على المنابر واتهامهم إلا في أيام بني أمية هذه ، وإننا لنقرأ اليوم خطب الحجاج — وبعضنا يتخذها نماذج في البلاغة ، وهي في الواقع كذلك — ومهما افترضنا فيها من المبالغة ، فهي تصور لنا أحقر موقف وقفه حاكم من محكومين . وما كان أهل العراق إلا عرباً من أصول عربية ، وما كانوا يقلون عن أهل الشام — وهم عرب أيضاً — لا في شجاعة ولا حمية ولا عراقة نسب ، وكانوا قديرين على أن يقوموا بمثل الجهد الذي قام به جند الشام ، ولكن رجال بني أمية لم يحاولوا فهم مشاكل عرب العراق ، ولا هم كلفوا أنفسهم عناء البحث في موضوعهم والجلوس إليهم والاستماع إلى كلامهم والأخذ والرد معهم ، وإنما هم لجأوا إلى العنف حاسبين أن السيف يحل كل مشكلة ، وأن هيبة الحكم تقوم ببث الرعب في النفوس ، فصاروا لا ينهض لهم معارض إلا حاولوا القضاء عليه بالقوة ، وفي هذا الطريق أوقعوا بين العرب خلافات وحزازات ، وملأوا قلوبهم أحقاداً ، حتى تقاتل العرب في نواحي الدولة تقاتل الغرماء ذوي الحقد العميق ، وانتهى الأمر بإنهاك قوى الجميع وعندما تولى أمر الدولة مروان بن محمد الجعدي (١٢٧ — ١٣٢ هـ/٧٤٤ — ٧٤٩ م) — وكان من الموهوبين من بني أمية — لم يستطع شيئا واكتسحته قوات أبي مسلم كما يجرف السيل كل مايجده في طريقه ، وحقيقة الأمر أن دعاة بني العباس لجأوا إلى نفس طريقة بني أمية — وهي طريقة السيف والقوة — في صراعهم مع الأمويين ، وفاقوهم في ذلك السبيل فاستأصلوهم استئصالا .

وقامت دولة بني العباس وسط آمال عراض وانتظار لكثير من الخير ، واشرأبت النفوس إلى عودة الأمور إلى الشورى ، حتى تعود الأمة إلى ممارسة حقوقها الطبيعة في المشاركة في الحكم ، ولكن العباسيين صارحوا الناس في أول يوم لخلافتهم بأن السلطان لهم وحدهم لا يشركهم فيه أحد ، يسوسونه بسلطان الله الذي أعطاهم

كما قال أبو العباس السفاح ، فخابت الآمال وأيقن جمهور المسلمين ألا سبيل لهم إلى ممارسة السلطان فى دولتهم أبداً ، وتحول طموح الراغبين فى السلطان من أفراد الأمة إلى ميدان العلم يحاولون عن سبيله الوصول إلى نصيب من القوة والجاه ، وخرجت الأمة من ميدان السياسة جملة ، وأصبحت رعية نساس كما يسوس الراعى غنمه ويتصرف فيها كيف يريد . واستمر الانقطاع الواسع بين الجماعة والدولة ، وأصبحت السلطة أمراً خاصًّا بجماعات من المتنافسين ممن تؤيدهم قوة عسكرية ، وقد تكون هذه القوة من أهل البلاد ، وربما لا تكون ، إذ المهم هو أن تكون مخلصة لصاحب السلطان الذى يأجرها ، أما أفراد الأمة فهم أعداء هؤلاء الجند المرتزقة ، فهم لا يعرفون الجند ولا الجند يعرفونهم ، والعلاقة بين هؤلاء وهؤلاء هى علاقة الصيد بالصائد الذى يترصده ليرديه .

ومن المعروف أن الأحوال السيئة إذا لم تصلح فلا بد أن تزيد سوءاً مع الزمن ، فهذا النظام السياسى الأموى — ثم العباسى — سارت عليه كل الدول التى جاءت بعدهم ، وهو فى كل حالة يسوء وتتضخم عيوبه وتشتد وطأته على الشعوب ، ولا يزال الأمر يزداد سوءاً حتى نصل إلى الركود السياسى والاقتصادى . وإنما أطلنا الوقوف عند هذه النقطة حتى لا يظن ظان أن الانحدار بدأ من أوائل العصر العباسى الثانى — أى من منتصف القرن العاشر الميلادى — عندما سيطر العسكر المرتزقة على أمور الخلافة ، بل إن له أصولا أعمق وأبعد .

والركود الذى ساد مجتمعات المسلمين منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، إنما بدأ منذ انتقال الملك إلى بنى أمية ، وانتقال السلطان من جماعة المسلمين (كما هو المفروض أن يكون فى المجتمع الإسلامى) إلى فئة من الأقوياء المستبدين ، وتصرفهم فى أمور الناس دون نظر إلى رأى أولئك الناس أو احتفال بما يريدون أولا يريدون ، فإن الحكم على هذه الصورة أصبح اغتصاباً ، ومهما حاول أصحابه أن يتحروا العدل فهم غاصبون . ولم يكفّ المسلمون قط عن الشعور بأن حكامهم غاصبون ، ومظهر هذا الشعور هو هذا الحنين إلى أيام أبى بكر وعمر ، أيام كان الأمر بيد الجماعة الإسلامية ، أيام كان الحكم سائراً فى الطريق التى رسمها رسول الله — ﷺ — وسار فيها الشيخان من بعده ، أيام كانت الجماعة الإسلامية سيدة نفسها ، وليس فوق هذه الجماعة سيد إلا الله . لهذا نجد أن عبد الملك بن مروان — مثلا — كان يكره

أن يتحدث الناس عن عمر ، وكان لا يستريح لسماع ما يحكى عن عدله ، لأن عبد الملك بن مروان كان يعرف ويحس في نفسه أنه غاصب ، وأن ذكرى عمر تظهر للناس أنه غاصب ، وهذا أمر لا يريده لأنه يهدم سلطانه المغصوب .

والركود الذى نتحدث عنه إنما هو نتيجة للغصب المستمر لحقوق الجماعة ، واستبداد طوائف من العتاة بأمور الناس واستعانتهم عليهم بالجند المرتزقة الأجانب ، وليس بغريب في هذه الحالة أن نجد الخلفاء والملوك جميعاً — بعد عصر الراشدين — يستعينون علينا بالجند الأجانب المرتزقة ، لأن الحكم كان لا يدور لمصلحة الرعية بل لمصلحة أصحاب العرش ، فهم يؤمنونه بالجند الأجانب ، ومعنى ذلك أن مصالح الجماعة الإسلامية كانت تهمل في كل مكان ، وأن الحكم كان يعتسف طريقه باحثاً عما يؤمنه ويقوى قبضته ، بالاستزادة من المال تارة ومن الجند تارة أخرى ، وفي النهاية يجد نفسه بعيداً جدًّا عن الناس الذين يحكمهم . وهنا لا يكون له مفر من السقوط ، لأن الحاكم — كأى شيء في الوجود — لا بد أن تستقر قدماه على شيء حتى يشعر بالتوازن ، فإذا انعدم هذا الشيء انعدام التوازن ولم يكن من السقوط محالة .

وإذا كانت هذه هي حالة دول المسلمين عامة — وقد رأينا تفاصيل بعضها — فمعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية كانت في غالب الأمر تعيش دون حكومة ، وإذا كان الأب لا يرعى ولده فهذا الولد واليتيم سواء . والحق أن أمور الناس كانت فوضى بصورة دائمة ، وقد اجتهدت الجماعات الإسلامية في تنظيم أمورها على النحو الذى رأيت ، ولكن هذا الاجتهاد كان لا يغطى إلا مشاكل اليوم الجارية ، أما مصير الجماعة كلها فلم يكن هناك في غالب الأحوال من يفكر فيه ، ولهذا كان أمرها في تدهور مستمر ، وما نُسميه نحن بالركود معناه أن مجتمعاتنا وصلت إلى قرارة الهاوية واستقرت هناك دون حركة . وبالفعل فإنك عندما تقرأ وصف بلد إسلامي مثل مصر في نهاية عصر الركود تجد نفسك أمام صورة مفزعة حقا ، وأمامك وصف ولیام لين William Lane للمصريين في أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما بدأت محاولة النهوض الأولى . ستشعر وأنت تقرأ بأنك أمام ناس يهيمون على وجوههم في الطرقات دون أن يروا شيئاً ، أمام ناس في حالة ذهول عن الدنيا وما فيها ، نتيجة للفقر الغالب والجوع الكافر والجهل المطبق والظلم المزمن الذى قضى حتى على الإحساس بالعدالة ، وأطفأ ذبالة الأمل في نفس الأحوال .

الركود إذن كان نتيجة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإنكار الشورى ، وقيام الحكم على أساس الغصب والعنف . لأن الحكم الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى الفرد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وجوه الرخاء والرفاهية ، وخنق كل مظاهر الفكر ، وسنرى بعد قليل أن هذا الفكر ظل — برغم كل شيء — حيًّا ينتظر فرصة البعث ، وإن تحددت آفاقه وضاقت مجالاته .

ولما كانت المدن هي مظهر رخاء الجماعات وغناها ، فقد انصبت عليها مظالم الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، ومدوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عنيت بالمدن وأهلها ، واتخذت من تجارها وصناعها وأهل اليسار فيها أسلحة تحمى بها عروشها فأفادت العروش وأفادت المدن ، وزادت رخاء وزاد تجارها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدن التى ينشئها العرب ينتهى أمرها إلى الاضمحلال ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكفيلة بتهيئة وسائل الحياة لها ، وأهمها الموقع الجغرافى المناسب ، وضربنا مثالا لذلك البصرة والكوفة وما إليهما . وصاحب هذه النظرية هو ابن خلدون ، وهى نظرية خاطئة . لأن الخراب لم يشمل الكوفة والبصرة فحسب ، بل أصاب مدن البلاد الإسلامية جميعاً ، ففى العصر العباسى الثانى كانت مدننا كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى ازدهرت ازدهاراً ظاهريًّا فى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، لم تلبث أن اضمحلت وتحول الكثير من أحيائها إلى خرائب . والإسكندرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يزد سكانها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد النظم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد النظم فقد قضى على الأمان ، وبدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بينما كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جزيرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين المماليك وبكواتهم يبتزون من أهل القاهرة آخر ما يملكون . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاضمحلال المدن فى العصور الإسلامية المتأخرة .

الركود إذن كان نتيجة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإنكار الشورى ، وقيام الحكم على أساس الغصب والعسف . لأن الحكم الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى الفواد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وجوه الرخاء والرفاهية ، وخنق كل مظاهر الفكر ، وسنرى بعد قليل أن هذا الفكر ظل — برغم كل شيء — حيًّا ينتظر فرصة البعث ، وإن تحددت آفاقه وضاقت مجالاته .

ولما كانت المدن هي مظهر رخاء الجماعات وغناها ، فقد انصبت عليها مظالم الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، ومدوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عنيت بالمدن وأهلها ، واتخذت من تجارها وصناعها وأهل اليسار فيها أسلحة تحمى بها عروشها فأفادت العروش وأفادت المدن ، وزادت رخاء وزاد تجارها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدن التى بنشئها العرب ينتهى أمرها إلى الاضمحلال ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكفيلة بتهيئة وسائل الحياة لها ، وأهمها الموقع الجغرافى المناسب ، وضربنا مثالاً لذلك البصرة والكوفة وما إليهما . وصاحب هذه النظرية هو ابن خلدون ، وهى نظرية خاطئة ، لأن الخراب لم يشمل الكوفة والبصرة فحسب ، بل أصاب مدن البلاد الإسلامية جميعاً ، ففى العصر العباسى الثانى كانت مدننا كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى ازدهرت ازدهاراً ظاهريًّا فى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، لم تلبث أن اضمحلت وتحول الكثير من أحيائها إلى خرائب . والإسكندرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يزد سكانها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد النظم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد النظم فقد قضى على الأمان ، وبدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بينا كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جزيرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين المماليك وبكواتهم يبتزون من أهل القاهرة آخر ما يملكون . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاضمحلال المدن فى العصور الإسلامية المتأخرة .

مجتمع فقير تسوده أخلاق الفقر :

إنّ الآراء التى عرضناها كافية لتصوير الركود الذى استحكم فى عالم الإسلام ، وغلى بصورة خطيرة فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، واستشرى فيما تلاه . وقد مررنا — فى إجمال — بأسبابه ، وتتبعناه إلى أصوله البعيدة على قدر ما سمح به المجال .

وقد رأينا أن التدهور كان — فى الحقيقة — تدهوراً سياسيًّا ، أى أنه شمل أهل الحكم والنظم التى ساروا عليها ، وسار مع التدهور السياسى تدهورٌ اقتصادى . وقد رأينا أن نظم الحكم العباسى — وما نشأ على غرارها من الأنظمة — كانت ذات أثر سيىء على الأوضاع الاقتصادية ، فلم تلبث هذه الدولة أن أفلست واستدارت على شعوبها تعتدى على أموالها . وقد وصل الأمر إلى سرقة أموال الناس سرقة صريحة باسم المصادرات والمقاسمات ، ولقد بلغت الأموال التى صودرت من الناس أيام الخليفة الراضى ٥,٤٢٢,٣٠٠ دينار و ٦,٠٤٠,٠٠٠ درهم ، وهذه أرقام لا تصدق .

وفى ظل حكومات تعتدى على الأموال على هذه الصورة لا مفر من تردى الشعب كله بين براثن الفقر ، وقبل الغزو العثمانى لمصر والشام بلغ استصفاء المماليك لأموال الناس درجات لا توصف بشاعة ، ولم يكن هناك أضر على أموال الناس من جيوش الخلفاء والسلاطين وأدعياء العروش والثائرين على السلطان المركزى . فقد كانت هذه الجيوش تنهب البلاد نهباً ذريعاً بصورة دورية تقريباً ، ومدن البلاد الإسلامية الكبرى من دهلى إلى رباط الفتح على شاطىء المحيط الأطلسى خربتها جيوش الحكام مرة بعد مرة ، وكذلك تهدمت القرى وأحرقت الزروع فى الأرض وقطعت الأشجار ، وأهلكت الحروب البلاد والعباد .

والفقر — كما هو معروف — لا يلد إلا الفقر ، ومن مجتمع فقير لا يتأتى أى خير ، لأن الفقر يجلب معه رذائل شتى ، من سقوط الهمم وفساد الأخلاق والجهل والمرض وضياع المسئوليات وانعدام المعايير وعندنا مثل يقول : « الجوع كافر » ، وهذا حق ، لأن الجوع ليس محض الشعور بالحاجة إلى الطعام بل هو حالة نفسية تجعل الإنسان يتصرف تصرف الجائع المنهوم ، حتى ولو كان لديه ما يأكله ، وفى المجتمعات التى تسودها نفسية الفقر تجد الناس جميعاً يتخلقون بأخلاق الجياع ، حتى

الحاكم وصاحب الأمر تراه يهب ويعتدى دون حياء ، لأنه وإن لم يكن رجلا فقيراً إلا أنه تسيطر عليه روح الفقر وأخلاقه .

الركــود الفكــرى :

والآن وقد عرضنا لنواحى الانهيار السياسى والتدهور الاقتصادى ، وما نتج عنهما من نشوء أجيال فقيرة ترزح تحت كاهل نفسية الفقر وأخلاقياته ، وما ينجم عن الفقر من جهل وخوف وبعد عن الشعور الإنسانى ، نريد أن نلقى نظرة على ما نتج عن ذلك كله مما يوصف بأنه تخلف فكرى .

ونهمنا هذه الناحية لأن العادة جرت عندنا على الاقتصار فى تصوير الركود على ناحية الإنتاج الفكرى ، فالناس يقولون إننا كنا فى عصور ركود لأن مجتمعنا لم يعد يخرج رجالا مثل الجاحظ أو ابن المقفع أو أبى الحسن المسعودى أو أبى تمام أو البحترى ، وليست هناك فكرة شائعة هى أوغل فى الخطأ من هذه الفكرة .

ذلك أن الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى لم يصل أذاهما إلى عالم الفكر إلا فى العصور المتأخرة جدًّا ، وعدد عظيم جدًّا ممن نفخر بهم من أعلام الفكر فى بلاد الإسلام ظهروا فى عصور الفوضى والاضطراب والإفلاس التى مهدت الطريق للركود ، بل ظهر الكثيرون منهم فى عنفوان عصور الركود نفسه .

فالقرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مثلا كان عصر اضمحلال سياسى بالغ ، فقد بدأ هذا القرن فى أيام الخليفة المقتدر وهو الثامن عشر من خلفاء بنى العباس (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢ م) الذى يقول فى حقه ابن طباطبا فى كتاب « الفخرى » (ص ٢٣٥) : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته ، فخربت المدينة فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، فخلع ثم أعيد ثم قتل » . وانتهى ذلك القرن فى خلافة القادر (٣٨١ ــ ٤٢٢ هـ/٩٩١ ــ ١٠٣١ م) وهو الخليفة الخامس والعشرون من خلفاء بنى العباس ، وهو رجل طال عمره فى الخلافة ولكنه لم يحكم قط ، إذ كان السلطان كله قد انتقل إلى بنى بويه ، وكانوا أسرة من الطغاة المستبدين الذين تلاشى

عندهم كل مفهوم سليم للحق والعدل والأخلاق ، فسقط الحكم وأهله فى عصرهم إلى درك سحيق .

خلال ذلك القرن الحافل بأسباب الانهيار والفوضى ظهر أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ/٩١٥ — ٩٦٥ م) شاعر العربية الأكبر الذى قال فى تصوير حال قومه مع حكامهم :

وإنما الناس بالملوك ، وما	تفلح عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم	تُرعَى بعبد كأنها غنم

وفى ذلك العصر أيضاً ظهر أبو فراس الحمدانى (٣٢٠ — ٣٥٧ هـ/٩٣٢ — ٩٦٨ م) ، ذلك الفارس الضائع الذى أنفق عمره كله بين أحلام خادعة بعودة مجد ذاهب لن يعود ، وواقع أليم حزين يصوره هو بقوله :

يا حسرة ما أكاد أحملها	آخرها مزعج ، وأولها

ومحمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ/٩٧٠ — ١٠١٦ م) ذلك العاطفى الحزين الذين أوجز وصف سوء حال قومه فى بيتيه :

ولم أدر أن الدهر يخفض أهله	إذا سكنت فيهم نفوس الضراغم
فهل نافعى أن ينصر المجد عزمتى	على هذه العلياء والحال ظالم

وأبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ/٩٧٣ — ١٠٥٨ م) ذلك العقل الإنسانى الهائل الذى حرمته المقادير نعمة البصر ، ولكنه رأى بنور قلبه فوق ما رأى كل المبصرين .

هؤلاء ومن فى طبقتهم ظهروا وعاشوا فى عصور الانهيار والاضطراب التى مهدت للجمود والركود . ولم تقصر العبقرية الفكرية العربية الإسلامية خلال القرنين التاليين (الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) عندما ازداد منحدر الانهيار العباسى حدة وخطورة ، فظهر ابن الفارض (أبو حفص عمر بن على السعدى) شاعر الحب الإلهى الخالد ، وظل شعراء العربية ينشدون شعراً جميلا حتى اشتدت حلكة الظلام من حولهم ولم يعودوا يرون شيئاً يستحق أن يقال فيه شعر ،

فى هذه الظروف المضطربة التى وصفناها ظهر البوصيرى (شرف الدين محمد ابن سعيد) وابن الوردى (زين الدين عمر) وصفى الدين الحلى وأمثالهم .

ونظهر لنا حيوية الفكر العربى بصورة أوضح فى ميدان العلوم ، مثل التاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والتصوف وعلوم اللغة ، فضلا عن علوم الدين التى ظل المسلمون ينتجون فيها بغزارة حتى خلال القرن الثامن عشر الميلادى الذى وصل فيه الركود إلى أدنى درجاته . وجانب كبير من الأسماء التى يزدان بها تاريخ الفكر العربى ظهرت فى هذه العصور ، فالطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) والمسعودى (أبو الحسن على) وابن مسكويه (أبو الحسن على) وأبو نصر الفارابى ، وأبو على ابن سينا ؛ وأبو حامد الغزالى ، وأبو بكر الرازى ، وغيرهم كثيرون عاصروا انهيار الدولة العباسية وتداعى الإطارات السياسية والاقتصادية فى البلاد التى عاشوا فيها . وفى العصر المملوكى المتأخر ، والعصر التركى ظهر كبار الموسوعيين : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣ هـ) وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ) وشهاب الدين أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) . وفى علوم اللغة ظهر محمد بن عبد الله بن مالك النحوى (ت ٧٣٢ هـ/١٢٧٣ م) . وفى علوم الدين ظهر تقى الدين أحمد بن تيمية (٧٢٨ هـ/١٣٢٨ م) . وفى التاريخ ظهر عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) فيلسوف التاريخ الأكبر ، ثم تلميذه تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) ومعاصروه أبو المحاسن بن تغرى بردى وأحمد بن حجر العسقلانى وشمس الدين السخاوى .

بل إننا نجد أن الإنتاج الغزير فى ميدان العلوم التقليدية العربية استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نفسه ، فمن أبناء هذا القرن الحالك الظلام ابن مرتضى الزبيدى مؤلف « تاج العروس » وهو قاموس رائع للغة العربية لا يتصور الإنسان أن مؤلفه رجل واحد توفى سنة ١٢٠٥ هـ أى قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ثمانى سنوات فقط ، لأن هذه الحملة وصلت مصر سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م . وكان ابن مرتضى الزبيدى عالماً لغوياً حقاً ، إذ كان يتقن الفارسية والتركية .

وإذا أردت أن نأخذ فكرة عن الفرق الشاسع بين مستوى الحاكمين ومستوى شعب العروبة فى ذلك العصر ، فاذكر أن حاكم مصر والشام والحجاز فى ذلك الوقت ، هو محمد أبو الذهب ، وكان مملوكاً جهولاً غاشماً لا يعرف لا العربية ولا

التركية ولا الفارسية ، وبقية أشخاص الحكام ـــ بعده ـــ كانوا على شاكلته ، فلا نجد من بينهم واحداً بعكس ولو ظلاً باهتاً من حضارة الأمم التى كانوا يحكمونها ، ونماذجهم معروفة لنا : إبراهيم ومراد ـــ اللذان خلفاه فى الحكم ـــ ومحمد الألفى وعثمان البردسى وأمثالهم ، وهؤلاء جميعاً سيتلاشون هباء عندما تصدمهم قوات الحملة الفرنسية ، ولن يبقى فى الميدان لمواجهة الغزاة إلا الشعب ورجاله من علماء الأزهر ، من أمثال عمر مكرم ومحمد المحروقى ومن ورائهم جمهور الناس ، ثم تبين أن جمهور الناس كانوا أصلب عودًا وأحسن فهمًا لطبيعة الغزو الفرنسى من كل قادته ، علماءَ كانوا أو تجارًا .

وأصدق مثال على ذلك الجمهور المصرى الذى قام بثورة القاهرة فى ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ م ، وهى أول صدام فعلى بين أوروبا وشعب عربى ، لأن شرادم المماليك تطايرت عقب معركة الأهرام فى يوليو ١٧٩٨ م . ولقد حمل عبد الرحمن الجبرتى على ثورة القاهرة تلك ولعن من قاموا بها ، لأنه هو نفسه كان يمثل عقلية عصر المماليك برغم علمه واطلاعه الواسع . وعقلية عصر المماليك هى الصورة الأخيرة والمنحنية التى كان لا بد أن نصل إليها نظرية الحكم على طريقة العباسيين : خليفة أو ملك أو سلطان يعتمد على قوة عسكرية أجنبية خاصة به ، ليحكم بالقوة شعباً ويحرمه من كل حقوقه السياسية ، ويخرجه من ميدان السياسة والمسئولية القومية تماماً ليبتز أمواله .

وقد بلغ من تأصل هذه النظرية أنها أصبحت القاعدة الوحيدة المعترف بها للحكم ، والذى حدث فى ثورة القاهرة على الحكم الفرنسى أن جمهور الناس حطم هذه النظرية وترك أولى الأمر جانباً وتقدم لمواجهة المحتلين ، وقد تمكن الفرنسيون من القضاء على هذه الثورة ، ولكن الاحتلال الفرنسى ارتج حتى أساسه ، فقد قتل فى الثورة حاكم القاهرة الفرنسى وعدد كبير من ضباط الفرنسيين وجندهم ودخل الخوف قلوبهم . وهذا هو المهم ، فما دام العدو قد بدأ يخاف فقد انفتح الطريق لهزيمته .

لا نريد ـــ مع ذلك ـــ أن نبالغ فى تقدير ثورة القاهرة تلك ، فقد كانت أولا وآخراً مجرد انتفاضة ، ولكنها كسرت حلقة مفرغة شريرة ظلت تدور على أمم الإسلام نحو عشرة قرون ، وعندما انكسرت الحلقة وتوقف السير الدائرى الرتيب ، شعر

أولو الأمر الذين كانوا يتولون الحكم بدوار . هذا الدوار هو الذى يعبر عنه الجبرتى فى حملته العنيفة على « الرعاع » الذين قاموا بتلك « الهوجة » .

من ذلك الحين كثرت « الهوجات » فى نواحى العالم الإسلامى ، إنها الثورات والانتفاضات الشعبية التى صنعت عالم الإسلام الناهض اليوم ، كل ثورة منها — مهما كان حجمها ومداها — أحدثت فجوة فى السد الهائل الذى كانت شعوب الإسلام تعيش وراءه خارج عالم السياسة بعيداً عن المسئولية القومية .

ولقد تبين بعد ذلك أن جماهير أمم العروبة والإسلام كانت لا تزال تحتفظ بقواها وسلامة إطاراتها الاجتماعية ، برغم قرون النفى الطويلة خارج ميدان المسئولية القومية . فعلى الرغم من الفقر المدقع وما جره الفقر من جهل وخوف وركود للصفات القتالية ، ظلت المجتمعات الإسلامية سليمة فى تكوينها محتفظة بإطاراتها الاجتماعية القائمة على الإسلام وأخلاقياته فلم تنحل روابط المجتمع ولم يتهاون الناس فى قواعد الشهامة والمروءة والأخلاق . ومن دلائل تمسك الناس بمبادئ الدين وإحساسهم بأنها وسيلتهم الوحيدة للنجاة من الأخطار التى حاقت بهم ، تسليمهم قيادانهم لرجال الدين فى كل مكان إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ودخول الجماعات الكثيرة فى سلك الطرق الصوفية وتمسكهم بشيوخها ونظمها . وقد يتعجب بعضنا اليوم من تمسك الناس بهذه الطرق فى العصور الخالية والتفافهم حول الأولياء والصالحين — على الرغم مما هو واضح من أن الكثيرين منهم كانوا أدعياء مشعوذين وطلاب منافع وخيرات باسم الدين — ولكنهم بالنسبة لأهل هذه العصور كانوا أوتاداً تثبت إيمانهم وتشعرهم بقدر من الأمان لا تتيسر الحياة بدونه .

الركود إذن كان ركود النظم السياسية ، والإفلاس كان إفلاسها . ولقد أدى استمرار هذه النظم وفساد أجهزتها إلى إيقاف حركة التقدم ، فبطؤت حركة المجتمع وربما توقفت . وقد أخذت هذه النظم — حتى فى أحسن حالاتها — بالنظرية الآسيوية القديمة فى الحكم التى تقول إن الرعية الفقيرة رعية مأمونة ، فاجتهدت فى إفقار الشعوب حتى وصلت بجماهير الناس إلى درك الشظف وما هو دون الكفاف . وبدهى أن الشعب الفقير لا يفكر فى الثورة على ظالميه ، لأن وسائلها غير ميسرة له . ولقد أمنت نظم الحكم فى العصور الوسطى من سطوات شعوبها ، ولكن الحكام لم يأمنوا على أنفسهم برغم ذلك ، وقد رأيت فى العرض السريع الذى مررنا به

حالة الفزع والدفاع عن النفس والحروب المتوالية التى عاشوا فيها ، لأنه فاتهم أن الدرع الحقيقية لأى نظام من نظم الحكم ليس الجند المرتزقة ولا عتاة الجنود ، وإنما رضا الناس عن الحاكم وانفتاح أبواب التفاهم والحوار بينهم وبينه على الأقل . فإذا لم يتحقق ذلك جفت شجرة الحكم من تلقاء نفسها لانقطاع عصارة الحياة عنها ، والأشجار — كما يقولون — تموت واقفة ، ومعظم نظم الحكم فى عصور الركود كانت شجرات ميتة وإن ظلت واقفة .

* * *

إلى هنا أقف بالكلام .

وكان لابد أن يكون ختام الكتاب فصلا عن النهضة العربية الراهنة ، لأن تاريخ الجماعة الإسلامية لا يقف — بداهة — عند عصر الركود .

ولكنى تناولت موضوع يقظة العالم الإسلامى وتجدد نشاطه وشبابه فى كتاب آخر نشرته من سنوات كثيرة ، هو « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ، ولهذا رأيت أن أقف بالحديث هنا ، وأحيل القارئ بعد ذلك إلى هذا الكتاب .

وقد تقادم العهد بـ « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ، ولكن صلبه ما زال سليما وافيا بحاجة من يريد أن يعرف كيف صحا عالم المسلمين من سباته .

ولنضف إلى ذلك أن هذه النهضة الإسلامية مترامية الأطراف متعددة الجوانب ، فهى فى حقيقتها بعث جديد تناول حياة الجماعات الإسلامية تناولا شاملا عميقاً ، فإذا نحن أردنا أن نحيط بأطرافها كان لا بد لنا من كتاب كامل كهذا ، وأعتقد أن إخوانى العاملين على التاريخ الحديث ألفوا فى نواحى ذلك الموضوع وأجادوا ، فأغنانا ذلك عن الولوج فى ميدان له شيوخه ورجاله .

وهذا لا يمنع من القول بأننا نعيد النظر الآن فى كتاب « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ونجتهد فى تعديله وإكماله على النحو الذى يحفظ له مكانه فى مكتبة التاريخ الإسلامى الحديث .

خلاصة :

يطلق مصطلح « عصور الركود الإسلامية » على الفترة الطويلة الممتدة من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وهذه الحقبة الطويلة نعني — بالنسبة لمصر والشام والحجاز وجزء من العراق ، أي معظم الجناح الشرقي لعالم العرب — الجزء الأخير من عصر دولة « المماليك البحرية » وكل عصر دولة « المماليك البرجية » الذي امتد إلى سنة ١٥١٧ م ، ثم عصر سيادة الأتراك العثمانيين الذي لم ينته إلا في الحرب العالمية الأولى . وهي حقبة طويلة تزيد على سنة قرون ونصف ، شهدت في عالم الإسلام كله أحداثاً كباراً وتطورات واسعة المدى . فقد قامت في أثنائها دول كبرى كتب رجالها صفحات مجيدة من التاريخ ، مثل دولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وشرق أوروبا والعالم العربي ، ودولة الصفويين في إيران ، ودولة السعديين في المغرب الأقصى .

ولقد أدى سلاطين الأتراك العثمانيين والسعديين خدمات جليلة لعالم الإسلام ، فقاموا برد العدوان الأوروبي عن أجزاء واسعة من بلاده ، بعد أن كان خطر ذلك العدوان قد ازداد في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئ المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر الميلادي . وكذلك قام سلاطين مغول الهند بجهود كبرى لتثبيت أقدام الإسلام في شبه القارة الهندية ، ونهض ملوك الصفويين بإيران نهضة قومية بعيدة المدى .

ولكن هذه الدول لم تخلف وراءها — برغم ذلك — أثراً باقياً في إصلاح أمور شعوبها أو النهوض بمستواها الفكري والحضاري ، على غرار ما فعلت الدول الأوروبية المعاصرة لها في بلادها ، ولم تتحسن في ظلها أحوال جماهير الناس ، بل لم تخف عنها وطأة الظلم والفقر ، ولم يتقدم المستوى الحضاري في بلاد الإسلام عما كان عليه قبل قيامها . وباستثناء بعض مظاهر التقدم في فنون العمارة وما يتصل بها من الفنون الصغيرة ، فإن الصناعة والتجارة والزراعة تدهورت تدهوراً محزناً خلال هذه الفترة الطويلة ، وانكمش الفكر العربي والإسلامي على نفسه ، فلم يعد قادراً على الإنشاء والتجديد ، واقتصر جهده على الإعادة والتكرار لما فات ، وشرحه والتعليق عليه .

بل بلاحظ أن الجماعات الإسلامية جميعاً تدهور حالها وسادها الفقر ، وفترت هممها ، وانحصر هم الناس على كسب العيش ومواصلة حياة لاتحد فيها ولا لذة ولا جمال . وألف الناس الظلم حتى لم يعودوا يشعرون ببشاعته وذله وعاره ، وخيم على الناس جهل شديد أسود ، فأصبحوا يعيشون وكأنهم نباتات تطفو على الأرض ، وتظل تحت الشمس فترة من الزمان ثم تموت ؛ أما الحكومات فقد أصبحت طرازاً واحداً سيئاً من الاستبداد والظلم والإفلاس المالى والعجز العسكرى .

وهذه هى الظواهر التى جعلت المؤرخين يطلقون على هذه القرون تسمية « عصور الركود » أو الاضمحلال .

وقد حاولنا فى هذا الفصل أن نستقصى حقيقة هذا الركود ومظاهره وأسبابه ، فدرسنا أحوال عالم الإسلام خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى المرحلة الأخيرة من مراحل العصر المملوكى الطويل الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م ، بعد انتهاء دولة الأيوبيين — وهم خلفاء الناصر صلاح الدين بن نجم الدين أيوب ابن شادى — ثم عرضنا فى إيجاز قيام الدولة العثمانية وفتوحها فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، حتى استيلائها على القسطنطينية وإزالة الدولة البيزنطية على يد محمد الثانى الملقب بالفاتح سنة ١٤٥٣ م ، ثم حروبها مع الصفويين الإيرانيين ، واستيلاءها على بلاد الشرق العربى ، وتحويلها إلى خلافة إسلامية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى .

وتحدثنا بعد ذلك عن تدهور دولة الخلافة العثمانية ابتداء من حكم السلطان مصطفى الأول الذى بدأ سنة ١٦١٧ م ، وبينّا كيف استمر هذا التدهور من ذلك الحين برغم الجهود الكبيرة التى قام بها آل كبريلّى من الصدور العظام (رؤساء الوزراء) لإيقاف الاضمحلال . وأوجزنا الكلام عن الأسباب التى أدت إلى ذلك الاضمحلال وحالت دون إيقافه ، وأهمها أن الإطار العام للتنظيم السياسى لدولة آل عثمان كان هو الإطار نفسه الذى قامت عليه الدول الآسيوية القديمة واتبعته الدولة العباسية عندما أخذت بالنظم الساسانية فى الحكم ، وهى نظم تقوم على السلطان المطلق لصاحب العرش بدون أن تحسب حساباً لجماهير الناس وبدون أن تنتفع بمبدأ الشورى فى كل ما يتصل بمصالح الأمة ، وهو مبدأ قرره الإسلام .

ويعتمد السلطان في هذه النظم على قوة عسكرية من المرتزقين وعبيد البيت الحاكم ، ممن لا تربطهم بالشعوب المحكومة أي صلات إنسانية ولا تقوم بينهم وبين الأرض التي يعيشون عليها أي عواطف قومية . وفي العادة يستعين السلطان أو الخليفة بموظف كبير يسمى الوزير ، مهمته الرئيسية هي الإشراف على جباية أكبر قدر من الأموال من الرعية لكي يسد حاجة الدولة المتزايدة إلى المال .

والسبب في تزايد هذه الحاجة إلى المال هو أن أعداد الجند المرتزقة تزداد مع الزمن وتزداد في الوقت نفسه رواتبهم ، وشيئاً فشيئاً يصبح توفير المال لهؤلاء الجند شغل الدولة الشاغل ، وينتهي الأمر بسيطرتهم على الدولة إما بصورة مباشرة أو عن طريق قيام قوادهم باختيار الخلفاء أو السلاطين على هواهم .

وهذا التنظيم هو الذي أدّى إلى تدهور دول العباسيين والفاطميين ومن تربى في مدرستهم من حكام الأقاليم الذين استبدوا بنواحيهم وأنشأوا دولاً محلية ، وهو أيضاً الذي أدّى إلى تدهور دولة آل عثمان وانحدارها ذلك الانحدار المتصل الذي انتهى بزوال سلطانهم من الوجود بعد الحرب العالمية الأولى .

وفي أثناء التدهور في أسلوب الحكم خرجت الشعوب من مجالات السلطة والحكم تماماً ، لأن تلك الحكومات نسيت أن قوة الدولة الحقيقية هي في الشعوب وما تقوم به من عمل متصل هو أساس الحياة الاقتصادية وما تقدمه من رجال ذوي ملكات وإخلاص لبلادهم وجنود ذوي حمية يدافعون عن أوطانهم ، وقد تنبهت الدول الأوروبية لذلك فاعتمدت على شعوبها ، وربطت نفسها بجهود رعاياها ، فانتعشت وأخذت طريقها إلى النهوض ، في حين انحدرت دول الشرق انحداراً سريعاً مخيفاً .

وتكلمنا كذلك عن أسباب أخرى لتدهور الدولة العثمانية وغيرها من الدول التي قامت في عالم الإسلام في العصور الحديثة ، مثل التنازع على ولاية العرش مما أدى إلى حروب داخلية مخربة دفعت أحياناً ببعض الطامعين في العروش إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية . وأشرنا كذلك إلى ظاهرة بعيدة الأثر تشترك فيها هذه الدول جميعاً ، وهي حاجتها إلى المال مما دفع بها إلى الشدة في جمع الضرائب ، وكانت هذه الضرائب تجبى من الطبقات العاملة في الأمة ، وهي طبقات الزراع والصناع والتجار ، فكان العبء يزداد ثقلا عليها يوماً بعد يوم ، وترك الكثيرون من أهل هذه الطبقة العمل هرباً من مظالم الحكام ومطالباتهم المستمرة بالأموال ، مما أدى

إلى تدهور الصناعات التى كانوا يقومون بها ، لأن الصنعة تحتاج إلى مادة خامة وأدوات عمل ثم جمهور يشترى الشيء المصنوع ويدفع فيه ما يستحقه حتى يحتفظ الصانع بمستواه .

وفى العصر الذى نتحدث عنه غلت أسعار المواد الخام إلى درجة جعلت الشيء المصنوع غالى الثمن ، وقلت أدوات العمل وكاد ينعدم المشترى ، فهبطت الصناعات هبوطاً بالغاً وأخذت التقاليد الرفيعة القديمة تتلاشى . ويحدثنا السائح إدوارد لين عن انحطاط مستوى الصناعة فى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى مع وجود الصناع المهرة . وقد عادت الصناعات إلى الانتعاش أيام النهضة السياسية والعمرانية فى مصر خلال القرن التاسع عشر الميلادى .

وفيما يتصل بدول العثمانيين والصفويين والمغول (فى الهند) والسعديين (فى المغرب الأقصى) كان التصدى للتوغل الأوروبى (الإسبانى — البرتغالى فى المغرب الأقصى والسواحل المغربية فى البحر الأبيض المتوسط ، والبرتغالى — الهولندى — الإنجليزى فى بلاد الإسلام الآسيوية) يتطلب من هذه الدول قوات عسكرية ممتازة وذات روح معنوية عالية ، ثم أموالا طائلة مستمرة للإنفاق على الحروب ؛ فأما القوى العسكرية فقد وهى أمرها لأنها فى مجموعها كانت قوى مرتزقة تحارب للمال ، وكان المال كما رأينا شحيحاً ؛ وأما الأموال الطائلة فلم يعد لها وجود ، لأن ثروة الأمم — كما قال آدم سميث — تعتمد على جهد الشعوب ومقدار ما تستمتع به من عدل وأمن ، ولم يكن للعدل والأمن وجود فى تلك الدول ، ولهذا كله كانت هزيمة هذه الدول أمام قوات الدول الأوروبية الناهضة الغنية نتيجةً طبيعية للتطور التاريخى الذى ذكرناه فى الشرق والغرب على السواء .

وقد رأينا أن نقف وقفة فى هذا الفصل لنتتبع النظم السياسية فى دول الإسلام ، لكى نعرف لماذا انحدرت هذه النظم وساء حالها ، وسارت فى الطريق الخطر الذى سارت فيه ، وكان دافعنا إلى ذلك أننا رأينا أن ما يسمى بعصور الركود فى تاريخ الجماعات الإسلامية إنما كانت فى الحقيقة عصور ركود وتأخر وتدهور سياسى ، وهذا التدهور جرّ إلى الانحطاط فى غير ذلك من الميادين .

وقد استعرضنا فى هذا الفصل تطور الدول الإسلامية الخمس الكبرى التى كانت فى العالم الإسلامى فى مطالع العصر الحديث ، وهى دول الأتراك العثمانيين ،

والصفويين ، والمماليك ، ومغول الهند ، والسعديين ، وعرضنا سير الحوادث في بلادها حتى وصولها إلى الهزيمة والإفلاس السياسي والعسكري والمالي للأسباب التي ذكرناها .

وأشرنا بعد ذلك إلى نهضة العرب وطبيعتها ومقوماتها ، ووقفنا عند ظهور قيام الطبقات الوسطى من الزراع والصناع والتجار والملاحين ومن إليهم ، وما كان لقيام هذه الطبقات من أثر بعيد في رفع المستوى الاقتصادي ، ونتيجة لذلك ارتفعت القوى المعنوية ونفتحت النفوس لطلب العلم والعمل ، وقلنا إن أكبر مظهر لذلك كان انتعاش المدن في الغرب وقيام نظمها ، وقلنا إن العالم الغربي الحديث بكل مقوماته ومظاهر قوته الفكرية والاقتصادية والعسكرية إنما ولد في المدن .

وختمنا الفصل بالقول بأن الركود الذي ساد العالم الإسلامي كان في الحقيقة ركوداً سياسياً وعسكرياً ، أما من الناحية الفكرية فقد ظلت أمم الإسلام محتفظة بقواها وحيويتها وإن تغير شكل إنتاجها الفكري . وتتبعنا هذه الظاهرة في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ، وهي في غاية الاختصار ، ومن ثم فإننا نرجو القارئ أن يعود إليها في المتن .

وقد وقفنا بالكلام في هذا الكتاب عند ذلك الحد ، وكان ينبغي — منطقياً — أن نستطرد إلى نهوض العالم الإسلامي ، لأن تاريخنا لا ينتهي عند الركود . بل أعقبه نهوض واسع المدى ما زلنا نعيشه ، ولكنني استوفيت هذه الناحية في كتاب خاص متداول في أيدي الناس هو « الشرق الإسلامي في العصر الحديث » كتبت فيه تاريخ النهوض وبينت عوامله ومظاهره ، ولهذا رأيت أن أحيل القارئ إليه ، لأن النهضة العربية المعاصرة واسعة المدى متشعبة النواحي يعسر التأريخ لها في ايجاز .





مراجـــع مختـــارة

مراجع عربية أو مترجمة إلى العربية :

- أحمـد السـاداتى : تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الهندية . جزءان ، القاهرة ١٩٥٨ .
- أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت (صدر منه إلى الآن جزءان ١٩٦٧ ، ١٩٧٠) .
- أرشيبالد لويـس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة شفيق غربال ، القاهرة ١٩٥٧ .
- أرنولـد ويـلسون : الخليج العربى ، مجمل تاريخى من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ، ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت ١٩٦٩ .
- ابن إياس الحنفـى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبعة قديمة بدون تحقيق ، فى ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٨ . طبعة محققة بإشراف د . محمد مصطفى وكاله Kahle ، إستامبول والقاهرة ١٩٣٠ — ١٩٦٢ .
- ابن حَسُّوَل ، الوزير أبو العلا (ت ٤٥٠ هـ/١٠٨٥ م) : كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد . تحقيق عباس العزاوى . المجلة التركية بأنقرة ، مجلد ٤ ، عدد ١٤ ، ١٥ سنة ١٩٤٠ .

ـ ابن شاهين الظاهرى ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . تحقيق بول رافيس Paul Ravaisse ، وباريس ١٨٩٥ .

ـ ابـــن العـــبرى ، جرجس أبو الفرج : مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ .

ـ ابـــن الفُوَطِـــى ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشعبانى البغدادى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ج ١ ، بغداد ١٣٥١ هـ .

ـ أبـــو الفـــدا ، عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر فى أخبار البشر . استانبول ١٢٨٦ .

ـ جورجى زيـــدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، طبعة جديدة مراجعة بتحقيق حسين مؤنس ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ .

ـ جـــلال يحيـــى : العالم العربى الحديث ، الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . الإسكندرية ١٩٦١ .

ـ جمـــال حمـــدان : العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة ١٩٧٢ . هذا هو أحسن ما كتب فى تحليل العالم الإسلامى اليوم ودراسة طبيعة انتشار الإسلام واتجاهات هذا الانتشار ومحاوره ، وقد أفدت منه كثيراً فى هذا الكتاب .

ـ حسن أحمد محمـود : الإسلام والثقافة العربية بأفريقية . القاهرة ١٩٦٣ .

ـ الحسن بن عبدالله : (ت ٧٠٨ هـ ـ ١٣٠٨ م) : آثار الأول فى ترتيب الدول . القاهرة ١٣٠٥ هـ

ـ حسن خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، الكويت ١٩٦٥ .

ـ حســين مــؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٩ .

فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية المزيدة فى المطبعة) .
مصر ورسالتها ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ (الطبعة الثالثة المزيدة فى المطبعة) .
تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ .
« فزان ودورها فى نشر الإسلام فى أفريقية » ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية . المجلد الأول ١٩٧٠ .
— الخزرجى ، على بن حسن : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية : مجلد ٣ من مجموعة جيب التذكارية ، كيمبردج ١٩١٢ .
— دونالد والبر : إيران بين الماضى والحاضر ، تعريب عبد المنعم حسين ، ١٩٦٢ .
— روم لانداو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٦ .
— زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث : ليبيا — تونس — الجزائر — المغرب ، ١٩٦٦ .
— سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ، جزءان . القاهرة ١٩٦٣ .
— سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٦٩ .
— السلاوى ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .
— صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصور الحديثة ، ١٩٦٠ .
— صلاح العقاد : المشرق العربى (١٩٤٥ — ١٩٥٨) : العراق — سوريا — لبنان ١٩٦٥ .
— عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (تاريخ الجبرتى) ، ٤ أجزاء .
— عبد الله بن أيبك ، أبو بكر (من أهل القرن الثامن الهجرى) : كنز الدرر وجامع الغرر ، أو الدرر الزكية فى أخبار الدولة

التركية ، ٩ أجزاء ، مخطوط رقم ٢٥٧٨ تاريخ بدار الكتب المصرية .

ـ علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً بولاق ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ هـ .

ـ فؤاد عبد المعطي الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤)، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـ محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ، القاهرة ١٩٣٨ .

ـ محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـ محمد فؤاد شكري : السنوسية ، دين ودولة . القاهرة ١٩٥٠ .

ـ محمد فؤاد شكري : بناء دولة ، القاهرة ١٩٤٨ .

ـ محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس ومحمد رجب حراز : نصوص ووثائق في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٥٢ .

ـ محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ، دراسات في تاريخ الجبرتي ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ .

ـ مكي شبيكة : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى ، بيروت ١٩٧٠ .

ـ وليام لين : المصريون المحدثون ، ترجمة عدلي طاهر ، ١٩٦٣ .

مراجـع غيـر عربيـة :

ARNOLD , SIR THOMAS WALKER . The Califate : Oxford , 1924 .

ATIYA , AZIZ SURIAL : The Crusade in Later Middle Ages . London , 1938 .

BROWNE , EDWARD G : A Literary History of Persia, 4 Vols Cambridge , 1909 - 1930

CZAPLICA , M : The Turks Of Central Asia in History and the Present Days . Oxford , 1918

GAUDEFROY DEMOMBYNES , MAURICE : La Syrie à L'Epoque dés Mameiouks Paris , 1922

GROUSSET , RENE : L'Empire des Steppes . Paris , 1939 .

HANOTAUX , GABRIEL : Histoire de la Nation Egyptienne , 5 Vols . Paris , 1926

HEYD , W : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age , 2 Vols . Leipzig . 1889 .

HOLDSWORTH , MARY : Turkestan in the nineteenth century ; a brief chistorycof the Khanates of Bukhara , Khokand and Khiwa . Oxford , 1959

HOWARTH , SIR HENRY : History of the Mongols,c 3 vols . London , 1878 - 1880 .

JULIEN , CHARLES ANDRE : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie , Algerie & Maroc) de la Conquête arabe à 1830 , 2 e . éd . revue et mise à jour par Roger le Tourneau (Payot , Paris , 1969) .

هذا الكتاب مذيل ببليوجرافيا وافية عن تاريخ المغرب الإسلامى منذ الفتح الإسلامى إلى يومنا هذا ، وهى مرجعنا الأوفى اليوم فيما يتصل بمصادر تاريخ العرب الإسلامى كله سواء العربى منها وغير العربى . يجد القارئ ابتداء من ص ٣٣٥ من هذا الكتاب أهم مراجع تاريخ المغرب من قيام دولة المرابطين ، فليرجع القارئ إليها فيما يتصل بهذه الحقبة التى تعنينا هنا .

LANE POOLE , STANLEY : History of Egypt in the emiddle Ages . London , 1925 .

--- : Medieval India under Muhammedan Rule

--- : Muhammedan Dynasties . London , 1925 .

LYBYER : The Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent Cambridge , 1913 .

MUIR , SIR WILLIAM The Caliphate , its Rise , Decline and Fall , Edinburgh , 1924

SPULER , BERTOLD : Central Asia . the Last Centuries of Independence . Part 3 of The Muslim World Historical Survey , London , 1969 .



الفصل الثامن

عصر النهوض





نرتبط النهضة الإسلامية — عادة — بالحملة الفرنسية على مصر سنة (١٧٩٨) وهى حملة أجنبية قصد الفرنسيون من ورائها احتلال أرض مصر واستغلالها لمصلحتهم ، وأساءوا إلى المصريين كثيرا ، وإن كانوا قدموا لها خدمات عن غير قصد ، وأتاحوا لمصر الفرصة للخروج من التدهور الذى كانت تعانيه نتيجة للتدهور الشامل والافلاس والجهل والركود الذى كانت تعانيه . فهذه الحملة كانت (من ناحية) نهاية لعصور الركود التى وصفناها ، وكانت (من ناحية أخرى) بداية للنهوض لا لمصر وحدها بل للعالمين العربى والإسلامى جميعا .

ولكن أهل العصر روعوا لتلك الحملة ورأوا فيها بداية الشر كله ، لأنهم كانوا قد ألفوا الحال السيىء واستولى عليهم اليأس والجمود حتى صاروا يتصورون أن هذا الحال السيىء هو المصير الذى لاخروج لهم منه ولا نجاة لهم من شروره . وقبل الحملة الفرنسية على مصر لم يكن المصريون يشعرون بالحال السيىء الذى كانوا فيه لأنهم اعتادوه . ومن أسوأ ما يمكن أن يصيب الجماعات هو اعتيادهم التدهور والفساد والظلم ، لأنهم فى هذه الحالة لا يفكرون فى تغييره أو إصلاحه .

والعبارة التى افتتح بها « عبد الرحمن الجبرتى » الكلام عن الحملة الفرنسية على مصر فى مستهل الجزء الثالث من تاريخه عظيمة الدلالة على الحالتين النفسية والعقلية اللتين كانتا تشملان المثقفين المصريين فى تلك المناسبة وهى بليغة المعنى من الناحية التاريخية . قال : (سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة . والوقائع النازلة والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ،

وتواتر الأسباب ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[1] .

وكلام الجبرتى يدل على أنه لم يكن يحس بسوء الحال الذى كانت تعانيه البلاد فى تلك الحقبة الأخيرة ، ويخيل إليك وأنت تقرأ هذه السطور أن مصر كانت فى حال راضية مستقرة آمنة قبل دخول الفرنسيين ، وأن الفساد دخل مع الفرنسيين ، حقا ان الآية القرآنية التى يختم بها كلمته تلك ، وهى (الآية ١١٧ من سورة هود) تدل على أنه كان يدرك أن مسئولية هذا الغزو تقع على عاتق أولى الأمر من الأتراك والمماليك ، فما كان الله مهلكهم لو أنهم كانوا مصلحين .

وسيرد فى كلام الجبرتى فيما بعد ما يدل على أنه كان يحس سوء الحال الذى كانت مصر تعانيه خلال هذا العصر .

ولكنه فى تلك المناسبة لم يكن يحس بسوء الحال إحساسا كاملا لأنه كان واحدا من الظاهرين من الفقهاء ، والفقهاء كانوا جزءا من الطبقة الحاكمة فقد كانوا يعاونون الأتراك والمماليك — وكانت أحوالهم قد ساءت فى سنيهم الأخيرة — ويشاركونهم فى ظلم الناس من طرف شتى **أولها** : أنهم كانوا يحصلون على نصيب طيب من مغانم الظلم والفساد ، فكانت لهم جرايات منخمة من الخبز كل يوم ، وكان معظمهم يبيعون جانبا كبيرا منها ويحصلون على أموال .

وثانيها : أنهم كانوا يضعون أيديهم على أوقاف واسعة ويتولون نظارتها ويحصلون — بموافقة الأتراك والمماليك — على دخل كبير ، **وثالثها** : أنهم كانوا يسكتون عن الظلم والفساد بل يؤيدونه ، فلم يحدث خلال العصر العثمانى ان تصدى فقيه لظلم او وقف لنصرة المظلومين ، وكانوا يتغافلون عن الجرائم التى يرتكبها الحكام وأحياناً كان بعضهم يؤيدها ، لأنه كانت لهم صداقات مع كبار المماليك ، والجبرتى نفسه كان صديقا لمحمد الألفى وهو من كبار المماليك وأكثرهم ظلما وأطرفهم شخصية كذلك .

ولكن جماهير الناس فى مصر — فى القاهرة والمدن والريف — كانوا فى حال سيئة جداً ، وكان توالى عصور الظلم وعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم وغياب

---

(١) تاريخ الجبرتى : جـ٣ ص ٢ طبعه بولاق سنة ١٢١٣ هـ هى سنة ١٧٩٨ م .

المصلحين وانعدام الرجال ذوى الهمة والجرأة الذين ينهضون فى وجه الظلم وينصرون المظلوم ، كل هذا هبط بالمصرى العادى إلى مادون مستوى البشر ، وهذه حالة نجد أمثالها كثيراً داخل العالم العربى وخارجه ، ففى جزيرة العرب مثلا وقبل الحركة السلفية الوهابية السعودية كان البدو أو أهل الإبل قد هبطوا إلى دركة سحيقة ، لان توالى عصور الجوع والجهل جعل حياتهم صراعا رهيبا للبقاء ، فكل ما يأتيهم بشيء يأكلونه أو يلبسونه مقبول عندهم ، ولهم رؤساء على مثالهم يقودونهم فى الهجوم على القوافل أو القرى فينهبون ما فيها ويأسرون نساءها ويستحلونهن أو يبيعونهن دون أن يشعروا بأى تأنيب ضمير ، بل كانوا يهاجمون قوافل الحجاج وينهبونها ويقتلون الحجاج أو يسلبونهم ، لانهم كانوا فى حالة جوع دائم و (الجوع كافر) . أما شعورهم الدينى فكان دون الإسلام بمراحل . وللأمين الريحانى فى كتابه نجد وملحقاتها وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل آل سعود « ثم جاء ابن عبد الوهاب يعلمهم أن التسبيح لا يجوز لغير الله الواحد القهار . جاء يعلمهم التوحيد واستعان على ذلك بسيف ابن سعود ، فقاموا يحاربونه مع ابن الدواس وابن العريعر ، وكانوا مدعورين ، جمعهم ابن سعود تحت علم التوحيد ، فوحدوا الله وأقسموا ألا شريك له ، ولكنهم فى كل أطوارهم بدو ، والبدو مثل ذوات الأجنحة طيارون ، أو أن لهم مزية الرئبق ، فيجتمعون ويفترقون وأنت تتلو الفاتحة ، لا يحملون شيئا فى جيوبهم ولا فى قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب . رفاقك فى الطريق اليوم وأعداؤك غدا ، ولا أظنهم لولا الجنة والحور يخضعون لرب الكائنات قد أكون مخطئا بهذا ، وهم يكثرون من ذكر الله فى كل حين . ولكن النبى نفسه انهم فلم ينفعهم التأنيب . وجاء فى القرآن الكريم ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أما الدين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحا من الزمن ، فيغسلونه مرة أو مرتين ثم يلبسونه مقلوبا ، ثم يسلونه وقد تمزق ـــ نتذ البواة ـــ كيف نتوضأ ونحن نبغى الماء للشرب ؟ و لم نصوم والسنة كلها رمضان ؟ و لم الصلاة وليس لله وقت ليسمعنا ؟ ..»[1]

وقد أغاث الله أولئك البدو بالملك عبد العزيز آل سعود . وهو عربى مثلهم . فكان يعرف مساوئهم وأسبابها وعول على إنقاذهم من هذا الحال السيىء ، فبدأ عملية

(١) أمين الريحانى : نجد وملحقاتها ... ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

شاقة لتحضيرهم ، وهذه العملية تمت على مرحلتين : **الأولى** رفعهم إلى مستوى البشر **بإخراجهم من البداوة إلى الاستقرار ، والثانية تحضيرهم وتعليمهم بعد الاستقرار ،** وقد اقتفى هنا أثر رسول الله ﷺ وكان الملك عبد العزيز عبقريا شديد التمسك بالسنة النبوية حريصا على تطبيقها التطبيق الصحيح . وكان الرسول يدعو إلى الهجرة ، وهي هجرة من ضياع البداوة في رمال الصحراء إلى الاستقرار في كنف أمة الإسلام في المدينة . وهي كذلك هجرة معنوية حضارية ، ونحن نسميها هنا هجرة إلى الله ورسوله ، والهجرة إلى الله والرسول هي هجرة حضارية فانك تدخل ميدان الحضارة عندما تؤمن بالله ورسوله والكتاب واليوم الآخر ، وأمة الإسلام في العصر النبوي كانت تتكون من المؤمنين المستقرين المتمسكين بحبل الله ورسوله ، وكان معظم الذين انفصلوا عن الأمة ودخلوا في زمرة من نسميهم بالمرتدين أعرابا وقد حاربهم أبو بكر بالعرب وهم الحضر المستقرون ، ثم دفعهم إلى المغازي فحاربوا في سبيل الله ونبنوا فضل الإسلام فيما أعطاهم الله من النصر وخيراته واستقروا في الأمصار المفتوحة وأصبحوا حضرا ، وأما الذين بقوا في شبه الجزيرة أعرابا فظلوا على ما كانوا عليه ، ومنهم القرامطة ومنهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور أصحاب التغريبة المشهورة إلى مصر والمغرب .

وقد نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فيما أراد ، فصار يعطي البدو قطعا من الأرض فيها ماء وأرسل إليهم المطوعين (جمع مطوع) وهو الداعية أو الشيخ الذي يعلم الناس الدين والقراءة والكتابة ، وأعطاهم مالا وماشية وآلات الزرع ليباشروا الزرع ويستقروا ، وأخذ منهم الإبل حتى لا يعودوا يطيرون إلى الصحراء ، وهذه المزارع أو المجتمعات الزراعية هي الهجر (جمع هجرة) وهي مكان الهجرة . وأولاد أولئك الأعراب المهجرين هم أساس جانب عظيم من الشعب العربي السعودي المعاصر .

* * *

ولكن الفلاح المصري الذي هبط عن مستوى البشرية وسكن في قرى كابية فقيرة ليس فيها شيء إنساني ، فالبيت كله من لبن ، وهو في العادة لا نوافذ له ، وإذا كانت فهي من خشب قديم وسيئة الصنع ، ولا أثاث في البيت لأن الجلوس يكون على الأرض والنوم على ظهر الفرن وهو من لبن ، والماشية القليلة التي يملكها الفلاح

تنام معه فى نفس البيت ، وهو إذا أحس خطرا أحد ماشيته وما لديه من آنية قليلة وترك القرية ومضى بعيداً حتى يزول الخطر ، وهذه الصورة الحضارية المزيلة هى أيضاً صورة تاريخية ، فهى وسيلة الحماية هذا الفلاح من حكامه اللصوص . فما داموا يعرفون ألا شىء يسرق من هذا البيت فهم لا يدخلونه ، بل إن الفلاح حرص على ألا تبدو نساء بيته فى هيئة جميلة حتى لا يطمع فيها أحد .

وهذه هى الصورة التى وجد الفرنسيون عليها مصر عندما دخلوها ، وقد خاب أملهم إذ لم يجدوا فى مصر ما كانوا يقرأونه من أحاديث عن غنى مصر وثروتها وعظم المكاسب التى سيفوزون بها من غزوها ، ولدينا كتاب يسمى (نابليون فى مصر) ألفه واحد من ضباط الفرنسيين يصف فيه شقاءه بالحياة فى القاهرة وما كان الفرنسيون يعانونه من انخفاض مستوى الحياة وكثرة الهوام وانتشار الأمراض . وكان الفقر فى مصر عاماً ، حتى المماليك الذين كانوا يستولون على خير البلاد كله كانت حياتهم فقيرة باستثناء الطعام . كانت بيوتهم كبيرة ، ولكنها كانت خالية من كل ترف حقيقى . لأن الثروة تأتى من عمل الشعب وكسبه ، ومادام حكم المماليك والأتراك قد أدى بالبلاد إلى الإفلاس فمن أين للمماليك بأدوات الترف ؟!. وعندما دخل نابليون بيت « محمد الألفى » — أقوى مماليك مصر وأغناهم فى ذلك العصر — دهش لقلة ما وجد فيه من الترف أو الأشياء الغالية أو ذات القيمة الكبيرة .

ويعنينا هنا الفلاح المصرى وساكن المدن من صغار التجار وأهل الحرف ، فهؤلاء كانوا قد اعتادوا التعاسة والفقر حتى لم يعودوا يحسون بها ، وكانت الأمراض والأوبئة قد هبطت بصحتهم وأكلت معظم أولادهم ، وقد قدر مستوى طول العمر إذ ذاك بحوالى خمس وعشرين سنة . وانضاف إلى ذلك الجهل البالغ ، وكان جهلا شاملا بكل شئون الحياة ، وحتى إيمانهم بالإسلام سيطرت عليه الأوهام ، وامتلأت البلاد بمن يسمونهم الأولياء ونسب الناس إلى أولئك الأولياء كرامات ومعجزات تجعل بعضهم فوق مستوى رسول الله منزلة ، فإن رسول الله قال : « لو كنت أعرف الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ولكن أولئك الأولياء كانوا يعرفون الغيب ويتنبأون للناس بمستقبلهم ، وبعضهم كانوا يزعمون انهم يطيرون فى الهواء أو يمشون على الماء ، وسئل واحد منهم : لماذا لا تسأل الله أن يرفع عنا الوباء ، فكان رده المتواضع : لم نؤمر بذلك ، كأنه كان يرى نفسه إنسانا رفيع المنزلة عند الله : يسأل الله أشياء فيجيبه الله إليها .

وكانت سياسة المماليك التجارية سياسة فاسدة أضاعت تجارة الشرق التى تمر بمصر ففقدت البلاد عائداتها ، وصادروا أموال التجار وأفقروا الناس ، ولهذا كان مستوى جمهور الناس فى مصر خفيضا جداً ، ويكفى أن تعلم أن سكان مدينة الإسكندرية كانوا عندما نزل الفرنسيون مصر حوالى خمسة آلاف نسمة ، وسكانها أيام البطالمة كانوا حوالى نصف مليون .

وظل الفرنسيون فى مصر أكثر من ثلاث سنوات بقليل ورحلوا سنة ١٨٠١ لأن الانجليز ظلوا يناوروب حتى أخرجوهم . وعادت مصر إلى حكم الأتراك ، وحاول بكوات المماليك أن يستعيدوا سلطانهم وإذا كان الفقهاء والمماليك لم يفيدوا من الحملة الفرنسية فان أهل الأسواق فى القاهرة أفادوا ، لأن الفرنسيين بعد أن استتب لهم الأمر فى مصر أسرفوا فى فرض الضرائب وأغضبوا الناس بأعمال كثيرة تخالف الإسلام مثل شرب الخمر والرقص والفساد مع النساء ، فثار عليهم أهل الحسينية فى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) وكان ذلك عقب تحطيم الإنجليز للاسطول الفرنسى فقام المصريون على الفرنسيين فجأة . ومن عجب أن الجبرتى أنكر هذه الفورة لمجرد أن بسطاء الناس هم الذين قاموا بها ، وكان — وهو من أهل الحل والعقد — يرى أن هذه المسائل ينبغى أن تترك للكبار ، قال فى كتابه « عجائب الآثار » : « وفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) عملوا الديوان[1] وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة [2] والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الحسنة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك فى الناس لعظهم واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقضاء . فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر فى أنه فى القبضة

(١) أى أن الفرنسيين عقدوا اجتماعا للديوان الذى أنشأوه من مصريين وفرنسيين لحكم البلاد .
(٢) عملة صكها الفرنسيون فى مصر

مأمور . فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلع وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم وهول جسيم ، ويقولون بصياح في الكلام : « نصر الله الإسلام » ، فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر ، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر ، فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه ، فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب ، وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر .

وفي ذلك الوقت حضر ديبوي وهو حاكم القاهرة بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه ، فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية ، وذهب إلى بيت القاضي ، فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصر وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة ، فبادروا إليه وضربوه وأثخنوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون من كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كـ « باب الفتوح » و « باب النصر » و « البرقية » إلى « باب زويلة » و « باب الشعرية » وجهة البندقانيين وما حاذاها ، ولم يتعدوا جهة سواها ، وهدموا مصاطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس . وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع ، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر . ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة مترسين ، فظهر جماعة من الفرنساوية ، وظهروا من ناحية المناخلية ، وبندقوا على متراس الشوائين ، وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوا حتى أجلوهم ، وعن المناخلية أزالوهم . وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة في الحر وبالغوا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم إلى الخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة والقصر . وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والعثيات ، ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين . وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة . هذا والرمي متتابع من الجهتين . وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر ، فعند ذلك خرجوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وقصدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجردوا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا : « ياسلام من هذه الآلام ، ياخفي الالطاف نجنا مما نخاف » ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم وزاد الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع جنده عن الرمي المتراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير ، واتهمهم في التقصير فاعتذروا إليه ، فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم[1] » .

وإنما أثبت تفاصيل هذه الثورة لكي أدل على حيوية شعب مصر المتدفقة ، لأن الأمر لم يقتصر على القاهرة بل انتشر في الأرياف وقام الناس على الفرنسيين بالصالحية وسرياقوس . وأصاب المصريون في الفرنسيين إصابة بالغة ، فقد قتل ديبوى قائد حامية القاهرة وعدد كبير من الضباط والجند ، وقد تحير الفرنسيون في أمر من دعا إلى هذه الثورة ومن الذى أتى الناس بالسلاح ، ومن الذى علمهم استعماله ، وانتهوا إلى أن رجلا يسمى « إبراهيم أفندى » كاتب البهار هو الذى رأس عملية جمع السلاح .

ومهما يكن من أمر الذين قاموا بهذه الثورة فلاشك فى أنهم كانوا أشجع وأكثر شهامة من الشيوخ الذين استنكروها ، وقد رأينا موقف « الجبرتى » منها ، لأن أولئك

(١) تاريخ الجبرتى : ٣ / ٢٦ ـ ٢٧ .

الرؤساء والشيوخ اعتادوا الظلم والخضوع للظالمين والعيش معهم ومغامعتهم معهم حتى لم يعودوا يحسون بالظلم . وهذه مشكلة كبرى من مشاكل تاريخ مصر ، وهي أن الكبار والعلماء وأولى الأمر لم يقفوا إلا نادرا إلى جانب الشعب ، لأن معظمهم في الحقيقة لم يكونوا منه ، والكثيرون منهم تربوا على أن يعتبروا أنفسهم طبقة عليا خلقت للسيادة . ولا مانع عندها من التعاون مع الأجانب والمستعمرين ، وهذا هو الذى أطال قضية الاستقلال والنهوض فى مصر ، فى حين أننا رأينا أن عبد العزيز آل سعود وقف من أول الأمر إلى جانب شعبه لأنه منه وهو يحس به إحساساً صادقا فاجتهد فى النهوض به لأن إيمانه الإسلامى السليم غرس فى نفسه المساواة بين الناس ، فقد كان يرى نفسه واحدا من عرب الجزيرة وإن لم يتساهل فى متطلبات الرياسة ومطالب السلوك الملكى وقيادة الأمور . وخلال هذه الثورة انقلب الشوام والأروام على المصريين وأخذوا جانب الفرنسيين وكذلك فعل الكثيرون من المغاربة النازلين فى مصر ، وكان الكثيرون منهم زعرا يعملون فى خدمة المماليك . وقد اشتهر بالخيانة فى هذه المناسبة الآغا قائمقام ولم يكن مصريا ، وكان من كبار معاونى الوالى التركى . أما المشايخ فكانوا بعيدين عن المعركة ، إنما كان همهم إسكات الفتنة ومصالحة الفرنسيين .

وكان نابليون عندما رأى الأحوال فى مصر وقلة ما يمكن أن يحصل منها من الأموال ، قد فكر فى فتح الشام لهذا الغرض ولأسباب أخرى . فترك فى مصر حاميات صغيرة فى « القاهرة » و « الإسكندرية » و « رشيد » و « دمياط » وخرج إلى الشام فى أربعة آلاف جندى مزودين بالمدافع واستسلمت له حاميتها التركية ، ولم يكن لديه جند كاف لحراسة هذا العدد الكبير . فأمر بقتلهم جميعا بالرصاص . وهذه جريمة كبرى لا تنسى لنابليون ، ولو أن هذه الحامية حاربت واستشهد رجالها لكان ذلك أكرم لها .

ولكن نابليون عجز عن الاستيلاء على « عكا » ، فقد كان يتولاها القائد « أحمد الجزار » ودخل فى خدمته ضابط هندسة عسكرية فرنسى يسمى فيليبو كان زميل دراسة لنابليون ولكنه كان يغار منه ، وفى البحر وقفت أمام عكا سفينتان انجليزيتان بقودها الأميرال سيدنى سميث وكان يمد « أحمد باشا الجزار » بالمعونة والمؤن . وطال حصار نابليون دون جدوى لأنه كان قد أرسل مدافعه بالبحر فى سفينتين سقطت

حداهما فى أيدى الإنجليز ، وعجزت حامية « يافا » التركية عن مواجهة الفرنسيين . وهنا أيضاً نجد عناصر أصحاب الحكم والقوة فى البلاد من الدروز والطوائف المسيحية والقبائل العربية تميل إلى مصالحة الفرنسيين والتفاهم مع أعداء البلاد وأخيراً عاد نابليون إلى مصر فى ١٤ مايو ١٧٩٩ دون نتيجة . وأراد الأتراك انتهاز فرصة فشل نابليون فأرسلوا قوة تركية من ثلاثة عشر ألف جندى احتلت أبو قير ولكن نابليون سار إليها وأنزل بها الهزيمة وأسر مصطفى باشا . وفى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ غادر نابليون مصر عائدا إلى فرنسا وتاركا القيادة فى مصر للجنرال كليبر .

وعقب خروج نابليون من مصر أرسل الأتراك حملة بقيادة يوسف باشا فخرج للقائها كليبر ولقيها فى « عين شمس » واستولى على خزائنها وذخائرها وأسلحتها .

ولكن المصريين كانوا أشد شهامة من الأتراك . فقد انتهزوا فرصة خروج كليبر إلى « عين شمس » ، وقامت ثورتهم يشرف عليها وينظمها هذه المرة بطلان من أبطال تاريخ مصر هما « عمر مكرم » نقيب الأشراف و « أحمد المحروق » نقيب التجار ، وأنشأوا مصنعا للبارود فى « الخرنفش » ، وكان مركز الثورة « بولاق » وانضمت إلى صفوف الثوار (من مسلمين وأقباط) من أمثال جرجس الجوهرى وفلتيوس وملطى ، وشذ عن الإجماع مهووس يسمى يعقوب يدعو إلى اشتراك الفرنسيين مع المصريين فى حكم مصر وأنشأ قوة عسكرية من الشوام والأقباط بمعاونة ضابط فرنسى يسمى لاستاريس ، وسخر منه المصريون وسموه الجنرال يعقوب . ولكن الثورة لم تستطع الصمود للمدفعية الفرنسية التى دكت حى بولاق دكا ، وانتهت ثورة القاهرة الثانية فى (١٥ أبريل ١٨٠٠) ، وقبض الفرنسيون على زعمائها وصالحهم كليبر على أداء غرامة قدرها عشرة ملايين من الفرنكات .

أما المماليك فقد صالحوا الفرنسيين ، وتولى « مراد بك » فضاق المصريون ذرعا بالمماليك والأتراك ، وطردوهم من مصر إلى الشام بمعاونة الفرنسيين .

وظل الإنجليز يحاولون إخراج الفرنسيين من مصر ، وكان كليبر قد قتل وتولى بعده مينو ، وأخيراً تمكنوا من إخراجهم بمعاهدة « أميان » وغادروا مصر على سفن انجليزية فى (أول سبتمبر ١٨٠١) .

* * *

وقد وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند الحملة الفرنسية على مصر لنقول إنها حطمت الأسوار التي كانت مصر تعيش فيها وأخرجتها من ظلمات العصور الوسطى ، وعادت مصر إلى التبعية التركية إلا أن الحال قد تغير كثيراً ، وشعب مصر الذى واجه الفرنسيين وقام ضدهم — بثورتين لم يعد إلى الماضى قط ، فقد فقد المشايخ زعامتهم وتفتحت أمام المصريين آفاق جديدة ، ولكن كان ينبغى أن ينضم الأتراك وأنصارهم من الباشوات إلى الشعب وترسم خطة النهوض ، لأن الشعب نفسه كان فقيراً جداً وجاهلا إلى حد بعيد ، والأتراك كانوا بعيدين عن هذا التفكير لأنهم — وكبار رجال دولتهم خاصة — كانوا فى درك سحيق من الفساد .

وقد تعودنا أن نلوم الأتراك وننقدهم ، والحق أنهم يحملون مسئولية كبرى عن المصير السيىء الذى سار إليه العرب بعد هذه البداية التى يمكن أن توصف بأنها طيبة ، ولهذا فسنكف عن لوم الأتراك ، ونقول — جملة — إنهم قدموا للعالم العربى خدمتين جليلتين ، هما حسبهم ، الأولى : هى إخراج العراق من سلطان الإيرانيين بعد معركة تشالديران (سنة ١٥١٨) ، والثانية : هى إنقاذ المغرب العربى — عدا المملكة المغربية — من سلطان الاسبان وحلفائهم من الأوروبيين خلال القرن السادس عشر أيام السلطان سليمان القانونى ، وقد تكلمنا عن ذلك بشىء من التفصيل فى هذا الكتاب .

والدولة العثمانية مسئولة عن كثير مما أصابنا وأصاب غيرنا ممن دخل تحت سلطانها ، ولكن الأتراك أيضاً كانوا فى نفس الحالة من السوء ، لأنهم كانوا يعانون نفس المشاكل التى انحدرت بعالم الإسلام . كانوا يعانون من الحكم المستبد والجند المرتزقة ، والدولة العثمانية كانت فى أوجها فى القرن السادس عشر أيام سليم الأول وسليمان القانونى ، كانت أغنى دولة إسلامية عرفها التاريخ ، وكان دخلها أضعاف دخل دولة مثل الدولة العباسية ولكن الحكم المستبد يذهب بمال الدول ويقطع أوصال العلاقات داخل الدولة ، وجيش الانكشارية الذى قهرت به الدولة العثمانية الدنيا انتهى به الأمر إلى أن أصبح أكبر سبب من أسباب تدهورها ، لأن أفراده كانوا فى زيادة ورواتبهم فى ارتفاع وعملهم أقل ونوعهم أسوأ ، والمعلومات عن الدنيا حول الدولة كانت قليلة جدا ، ويكفى أن الدولة لم تتنبه إلى خطر الروس إلا عندما قامت الدولة الروسية الجديدة وأصبحت قوتها أضعاف قوة الأتراك لأن بطرس الأكبر عندما نهض بدولة الروس قاطع الماضى واتخذ دول الغرب نموذجا لدولته ، فأنشأ مصانع

السلاح ووضع أساس الصناعة فى روسيا فى حين أن سليمان القانونى ــ رغم ذكائه وكفايته ــ زاد الحواجز بين العثمانيين والغربيين وزاد الحواجز مع الغرب . وعندما تحطم أسطوله فى معركة « ليبانتو » أمام الاسطول الاسبانى الأوروبى كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر فى معركة « كتشك ليناريجى » سنة (١٧٧٤) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة فى طاعتها من المغرب إلى العراق .

* * *

كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامى نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها أخطأت خطأ جسيما عندما اختارت محمد على ليكون واليها . ومحمد على كان رجلا عبقريا بلاشك ، ولكنه كان رجلا مرتزقا بلا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعا ، والمصريون كانوا أحوج إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقرى بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقاتهم فى أيامه ، وحاربوا فى الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون النهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين فى « معاهدة لندن » فى مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده فى (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، وجاء ابنه عباس فأقفل المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر فى أيام عباس هذا فى نفس الحال السيئة التى كانت فيها قبل حكم محمد على .

والسبب الذى حدا بالمصريين على اختيار محمد على واليا عليهم هو سوء الحال الذى كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا ينسبون إلى أنفسهم الفضل فى إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون باتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفى » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » وقد توفى « مراد بك » (سنة ١٨٠١) وخلفه الطنبورجى بك ثم البرديسى بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركى على مصر بعد خروج

السلاح ووضع أساس الصناعة فى روسيا فى حين أن سليمان القانونى — رغم ذكائه وكفايته — زاد الحواجز بين العثمانيين والغربيين وزاد الحواجز مع الغرب . وعندما تحطم أسطوله فى معركة « ليبانتو » أمام الاسطول الاسبانى الأوروبى كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر فى معركة « كتشك قينارجى » سنة (١٧٧٤) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة فى طاعتها من المغرب إلى العراق .

* * *

كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامى نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها أخطأت خطأ جسيما عندما اختارت محمد على ليكون واليها . ومحمد على كان رجلا عبقريا بلاشك ، ولكنه كان رجلا مرتزقا بلا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعا ، والمصريون كانوا أحوج إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقرى بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقاتهم فى أيامه ، وحاربوا فى الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون النهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين فى « معاهدة لندن » فى مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده فى (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، وجاء ابنه عباس فأقفل المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر فى أيام عباس هذا فى نفس الحال السيئة التى كانت فيها قبل حكم محمد على .

والسبب الذى حدا بالمصريين على اختيار محمد على واليا عليهم هو سوء الحال الذى كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا ينسبون إلى أنفسهم الفضل فى إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون بإتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفى » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » وقد توفى « مراد بك » (سنة ١٨٠١) وخلفه الطنبورجى بك ثم البرديسى بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركى على مصر بعد خروج

الفرنسيين محمد باشا خسرو ، فأرسل جيشا إلى « بنى سويف » لمحاربة البرديسى فانهزم الجيش عند « بنى سويف » ، وانتشر المماليك فى الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالإنجليز الذين كانوا فى الإسكندرية ، فانتصر البرديسى على الأتراك انتصارا كبيرا فى (نوفمبر ١٨٠٢) . ثم غادر الإنجليز مصر بعد أن تمت معاهدتهم مع الفرنسيين (سنة ١٨٠٢) ووكلوا حماية مصالحهم لمحمد الألفى بك ودعوه إلى انجلترا حيث أكرموه ووعدوه بأن يسعوا لدى الأتراك حتى يعينوه واليا على مصر .

فى هذه الظروف وفد « محمد على » إلى مصر سنة ١٨٠١ ضابطا برتبة بمباشى فى الحامية العثمانية ، وهو ليس تركيا بل ألبانيا من « قولة » ، ومنذ استقراره فى مصر بدأ يفكر فى وسيلة يجوز بها السلطان . وأراد الوالى التركى محمد خسروا باشا محاربة المماليك فى الصعيد ، وأمر الجند بالمسير لحربهم فرفضوا حتى تدفع لهم رواتبهم ، ثم قام أحمد باشا طاهر رئيس المناوئين لخسرو باشا وتصدى لحرب خسرو باشا ، ووقع النزاع بين الانكشارية والجيش وتزعمهم أحمد باشا ، ووقع الاتفاق بين أحمد باشا ومحمد على رئيس الارناؤد وكانوا أكثر قوة فى الجيش وعددهم ٤٠٠٠ جندى .

واتجه محمد على إلى الاتفاق مع البرديسى بك زعيم المماليك وقبضا على خسرو باشا وسجناه فى « القلعة » وأقبل « محمد الألفى » من انجلترا يؤيده الإنجليز ، وطالب الجند بالرواتب فأحالهم محمد على إلى البرديسى وقلم الجند على المماليك وطردهم من القاهرة ثم أرسلت الدولة واليا جديدا هو خورشيد باشا وهنا نجد المصريين يسيرون إلى محمد على بزعامة « عمر مكرم » و « الشيخ الشرقاوى » فى مايو ١٨٠٥ وعرضوا الولاية على محمد على لأنه وعدهم بالعدل وحماية البلاد من مساوئ الأتراك فصدقوه وانتخبوه واليا وألبساه (عمر مكرم والشيخ الشرقاوى) الكرك والقفطان رمز الولاية ، ثم سار الارناؤد إلى القلعة وخلصوا خسروا باشا وكتبوا إلى السلطان العثمانى ليؤيد اختيارهم ، وتلك كانت خطيئتهم الكبرى فاستحابت الدولة ، ولو أنهم اختاروا « عمر مكرم » لكانت الدولة قد أقرت اختيارهم ، ولكنا تخلصنا من مأساة محمد على وأولاده .

المهم أن المصريين ارتكبوا هذا الخطأ الكبير ، وحرموا أنفسهم من ولاية أمورهم بأنفسهم . ولم يكن « عمر مكرم » بأقل موهبة من محمد على ، ومن يدرى فلعله كان يستطيع سياسة الأمور بطريقة أحسن . وليس فى هذا إنكار لموهبة محمد على

فقد كان الغالب أنه سيستمر على العمل فى مصر فى خدمة الوالى الجديد ، ولكن من المؤكد أننا كنا سننجو من أنانيته وإنكاره لفضلنا ، ومن الممكن كذلك أن الدولة العثمانية كانت تقر ولاية مصرى على مصر مادام يبقى فى طاعة الدولة العثمانية .

ومنذ تولى محمد على أمر مصر فى يوليو ١٨٠٥ أظهر عبقرية نادرة فى نعلية ذاته وتقوية مركزه وانشاء دولته ، ولكنه فى كل حملة لم يفكر فى المصريين ولا هو أحبهم وربما لم يحب غيرهم ، فقد كان رجلا بالغ الأنانية ، وكان له فهم نادر للظروف من حوله والقدرة على قيادتها ، وعلى الرغم من الكثير الذى عمله فقد انتهى كله قبل وفاته (سنة ١٨٤٨) ومن سوء الحظ ان ابنه إبراهيم وهو خيرة أولاده — مات قبله ، وكان رجلا خيرا وكان قريبا من المصريين يعرف قدر ما يمكن أن يقوموا به ، أما إخوة إبراهيم فقد كانوا مرتزقين وأغبياء وجهلاء ، وقد سيطر عليهم الأجانب والأتراك واستغلوهم واستغل هؤلاء جميعا المصريين استغلالا شائنا وعلى الرغم من وفرة إنتاج مصر وثراء أرضها فإن المصريين لم يغيروا شيئا من ذلك بل عمل أبناء محمد على ومعاونوهم وكلهم أجانب ما بين أوروبيين وترك وجراكسة وأرمن وأكراد ومغاربة ويونانيين وأشكال شتى على الاستئثار بكل شىء من دون المصريين ولكن المصريين أفادوا — رغم ذلك الظلم كله — من الناحية المعنوية ، فقد تعلم منهم نفر قليلون فعلا ، ولكنهم كانوا موهوبين وكلنا نعرف رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وما كان لهم من دور فى نهوض مصر والعالم العربى .

ولم يقتصر الامر على زعماء النهضة الفكرية من رفاعة رافع إلى محمد عبده بل نهض كذلك الكثيرون من المصريين من المشتغلين بالزراعة والتجارة ، ورغم الاحتلال البريطانى الذى كان إلى حد ما نتيجة لسياسات أسرة محمد على ورجالهم نهضت مصر وعوضت الكثير مما خسرته ، وتمهد الطريق لثورة (سنة ١٩١٩) التى تعتبر من مفاخر الشعب المصرى بعد ما عانى طول القرن التاسع عشر .

* * *

وكان أسوأ ما لقى محمد على من الجزاء ممن كان يظن أنهم أصدقاؤه ما وقع له فى بلاد الشام . أضافت الحكومة التركية إلى ملك محمد على بلاد الشام مكافأة له على ما قدم لها من الخدمات فى جزيرة العرب وبلاد اليونان ، فولى ابنه إبراهيم

واليا على بلاد الشام (من ١٨٣١ إلى ١٨٤١) وابراهيم كان خير أولاد محمد على فحرمت مصر من خدماته هذه المدة وانصرفت جهوده إلى بلاد الشام . وكانت بلاد الشام فى الحكم التركى قبل الحكم المصرى فى أسوأ حال من الفوضى وسوء الإدارة ، وهى ليست بلادا سهلة ولا بعضة الحكم ، ولكنها طوائف وجماعات شتى : دينية وعرقية وكلها متقاطعة متدابرة ، وكان حاكم الشام التركى قبل إبراهيم باشا لا يحفل بمصالح أهل الشام ، ويحكم على الطريقة العثمانية المعروفة : طريقة الفساد والرشوة وعدم الاكتراث ، فلما جاء إبراهيم بذل أقصى جهده فى إنشاء حكومة صالحة ، ولكن ارضاء أهل الشام جميعا فى ذلك العصر كان شبه مستحيل ، فقد كانت الطوائف كلها تعانى ، وكلها تريد أن تتخلص من متاعبها ، والعداوات بين بعضها البعض كانت متزايدة ، وقد أطمعهم عدل إبراهيم ولينه وحرصه على إرضائهم فمضوا يبالغون فى المطالب .

وفى نفس الوقت فتح إبراهيم أبواب الشام للأجانب من الأوروبيين ، فتكاثر فيها القناصل وبعضهم كان من الإنجليز والفرنسيين والايطاليين والروس ، وبعضهم الآخر كان من أهل البلاد يتولون الأعمال القنصلية للدول الأوروبية فى نواح شتى ويتمتعون بامتيازات واسعة ، يستغلونها كلها لمصلحتهم وكانت الدول الأجنبية تشعر بخوف بالغ من ناحية محمد على ، فقد كانت وراءه مصر بثرائها وكان محمد على موهوبا فى اختيار الرجال الأكفاء من أمثال الكولونيل سيف وكلوت بك ولينان دى بلفوند ممن نهضوا له بجوانب كبرى من عملية النهوض ، فقوى جيشه وازدادت ثروته ، وأقام المشروعات والمصانع الكثيرة وقوى شأنه وازدادت المخاوف منه ، واشتدت الدسائس ضد الحكم المصرى فى بلاد الشام ، ويكفى أن نشير هنا إلى موقف « بالمرستون » رئيس وزراء بريطانيا من محمد على . فقد أبغضه واحتقره وحاربه وتمنى زوال دولته ، ولا أذكر أننى قرأت شيئا يدل على أن « بالمرستون » عرف محمد على معرفة حقيقية ، وإنما هو كان رجل سياسة بريطانيا يرى أن بريطانيا لم تخرج الفرنسيين من مصر لتقوم فى مصر دولة قومية قوية ، وإنما لكى تستولى عليها هى ، ومن هنا كان بغضه لمحمد على ومعاداته إياه وعمله على اسقاطه واجتهاده فى أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية ، فهذه هى المقبرة ، وهذا أضمن سبيل لاستيلاء بريطانيا على مصر . وهكذا كان .

وعلى أى حال فإن محمد على تنازل فى (معاهدة لندن سنة ١٨٤٠) ثم فى (فرمان يونيو ١٨٤١) الذى يقرر أن مصر ولاية عثمانية تؤدى جزية سنوية قدرها (٤٠٠،٠٠٠ جنيه مجيدى) كل سنة ويحكمها محمد على وأولاده من بعده حكاما محليين ، أى أن مصر فقدت كل أمجادها العسكرية ومركزها الدولى وأصبحت محض ولاية عثمانية ، حتى امتداد مصر فى السودان — وهو أساس دولة وادى النيل — ترك دون تحديد ، ولم يكترث محمد على لذلك أدنى أكتراث ، وذهب هو بنفسه (١٨٤٦) إلى تركيا وقدم فروض الولاء للسلطان . وعاد إلى مصر وقد دب فى جسده دبيب المرض الذى مات به (سنة ١٨٤٨) فإذا كان قد قدم إلى مصر فى سن الخامسة والعشرين مثلا ، وتولى أمرها (سنة ١٨٠٦) وهو فى الثلاثين من عمره فتكون سنه عند وفاته ثلاثا وسبعين سنة . وهى ليست بالسن العالية التى تبرر الآلام المبرحة التى كان يعانيها خلال السنتين الأخيرتين من عمره خصوصا بعد موت ابنه إبراهيم (سنة ١٨٤٦) وكان إبراهيم هو الأمل الوحيد لمصر ، لأن عباس ابن محمد على عندما قدم من الحجاز وتولى مصر (سنة ١٨٤٨) اغلق المدارس والمصانع وأوقف كل عمل تقدمى فكأن مصر قد عادت بعد العناء إلى ما كانت عليه قبل محمد على فلم ينشأ فيها جيش أو تتم فتوح أو تقم مصانع ، وكل الذى بقى هو الأشياء الثابتة التى لا يمكن الغاؤها : كالقناطر الخيرية وترعة المحمودية وبعض الأعمال الزراعية المماثلة .

ونسأل الآن : ما السبب فى ذلك الفشل الذريع الذى لقيه محمد على فى أخريات أيامه مع ما نعلم من ذكائه وقدرته ومواهبه الإدارية والعسكرية والسياسية التى لا تحصى ؟

السبب — فيما يبدو لى — أن محمد على لم ينتسب إلى مصر أو شعبها . فظل طول حياته رجلا دون هوية ، فلا هو مصرى ولا هو تركى ، وإنما هو أجنبى مغامر وفد إلى مصر واستغل مصر لمصلحته دون أن يعرف المصريين أو يتصل بهم اتصالا يذكر ، فقد كانوا عنده فلاحين (يزرعون الأرض ليستولى منهم على أعلى ما يستطيع الحصول عليه) أو مشايخ وفقهاء تقليديين يعيشون فى الماضى ولابد من إبعادهم عن التشريع أو التعليم الذى يريده هو ، أو تجاراً صغاراً وأهل حرف فقراء من المدن .

مع أننا نعرف أن شعب مصر شعب موهوب ، وهو يستجيب للإسلام والتعليم . ويفهم مطالب عصره إذا هو تيسرت له أساليب العمل والنشاط ، وهو سريع الفهم

وقد اعترف محمد على بذلك عندما رأى نجابة المصريين ومهارتهم فى « مدرسة الهندسة » التى أنشأها (سنة ١٨١١) ، ولكن دواعى الخير فى قلبه كانت قليلة والجوانب الإنسانية فى كيانه كانت أقرب إلى الجفاف ، فأسرع إلى الاستعانة بمن تصور أنهم على خبرة أو قدرة بإدارة أمور الدول من أجانب على مستوى ضئيل من الإنسانية — فيما عدا نفرا من الفرنسيين من السان سيمونيين الذين وفدوا عليه وعملوا معه ، أما رجال دولته من أبناء المماليك من جراكسة وأتراك وأكراد وغز ، وقد انتفع بهم بالفعل ولكنهم أضروا بمصر والمصريين ضررا بليغا ، فقد حرموهم فرصة العمل والنهوض وأساءوا إلى الناس حيث كانوا كما حدث فى الشام والسودان ، ومعظم الآثام التى يذكرها السودانيون للحكم المصرى أيام محمد على وما بعده يرجع إلى تصرفات رجال محمد على هؤلاء ، وهم ينسون أن المصريين عانوا منهم أضعاف ما عانى السوادنيون ، بل ان الأتراك العثمانيين عانوا فى بلادهم من حكامهم أهوالا بالغة ، ولولا أن العماد الحقيقى للحياة فى الأناضول — وهو معظم تركيا — يقوم على الزراعة والرعى لتدهورت الدولة العثمانية ولتعرضت لأزمات قاتلة ، والميزة الكبرى للفلاح أو الراعى التركى على مثيله فى مصر والسودان هو أن أرض الأناضول وعرة ومسالكها عسيرة ، والوصول إلى الفلاح أو الراعى عمل شاق أيسر ما كان الواحد منهم يعمله إذا سمع باقتراب الجابى هو الصعود إلى أعلى الجبل ، وإذا كان راعيا أخذ معه ماشيته ، وزراعة الأناضول نصفها حبوب وبقيتها أشجار والحبوب تزرع وتجنى قبل أن يأتى الجابى وإذا جاء قبل الحصاد ردوه برشوة ، أما الشجريات فماذا يفعل الجابى أمام أشجار تفاح وخوخ ومشمش إذا اتفق أهل القرية على ألا يشترى أحد منهم ثمرة من محصول جاره ؟

ونعود فنسأل : ولكن ما السبب فى كراهة انجلترا وروسيا وتركيا لمحمد على وحرص هذه الدول الدائم على استصغار شأنه واعتباره مغامرا مرتزقا لا يستحق أى تأييد ؟

السبب فى ذلك هو أن محمد على منذ أن تولى أمر مصر بانتخاب من المصريين فى (يوليو ١٨٠٥) لم يعتبر نفسه قط مصريا — حتى ولو كان اقترب من المصريين — فظل دائما فى نظر الغرب واليا تركيا مطيعا تارة وثائرا أخرى ولكنه وال عثمانى ، وعندما وقع الخلاف بينه وبين الأتراك أصبح واليا ثائرا خارجا على النظام والسلطان العثمانى ، ولو أن محمد على تنبه إلى أهمية هذه النقطة لتغير وضعه

والمعاهد وهبط بالجيش إلى مستوى قوة خفر ، فكأنك — كما يقول المثل العامي — « يا أبو زيد ما غزيت » !

وليس هذا مجرد كلام حماسي أقوله لأنني مصري ، بل أنا أنظر إلى شهامة « رفاعة رافع الطهطاوي » واتساع نظره وأفقه في كلامه عن أوروبا والحضارة الأوروبية في كتاب مثل « مباهج الألباب المصرية في مناهج الأفكار العصرية » ورفاعة كان من الجيل التالي لجيل عمر مكرم ، وعمر مكرم كان رجلا شهما بليغا قوى القلب ، ومثله كان الشيخ عبد الله الشرقاوي « الذي رفض أن يضع على صدره شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان وألقاها على الأرض وخرج ، ومثلهما كان « أحمد المحروقي » حاكم الإسكندرية الذي أعدمه الفرنسيون لشهامته ونخوته ، وهذا البلد — مصر — لم يخل قط من الرجال ، ولكن الخطوة كانت فيما يبدو — واسعة على العصر وفكره ، وقلوب الناس كانت أقدر على الحقد والحسد منها على أعمال الشهامة والقيادة .

* * *

ولكن محمد علي وأسرته إذا كانوا قد هدموا بيدهم ما فعلوه وأعادوا مصر ولاية عثمانية يتصرف في أمورها الإنجليز والفرنسيون — بل الروس أحياناً — فإن المصريين أنفسهم لم ينسوا ما قاموا به خصوصا عندما خاضوا المعارك بقيادة إبراهيم باشا في الشام والأناضول ، وبقيت هذه الذكريات حية في القلوب لتنتعش في أيام سعيد باشا ، وأحمد عرابي كان ثمرة عصر سعيد الذي تميز على غيره من أفراد إبراهيم من محمد علي بميله إلى المصريين وحبه لمصر ، ومهما يكن ما صدر عن « أحمد عرابي » بعد مظاهرة (١٥ سبتمبر ١٨٨١) فإن الرجل يظل نادرة في عصره ، فقد وقف في وجه الخديو وجماعته ونادى بأن مصر للمصريين ووقف من ورائه الشعب ، وكانت ظروف عرابي سيئة ، والقليلون ممن كانوا معه لم يكونوا على مستواه ، والخونة من حوله كانوا بلا عدد ، وصدمة مواجهة الخديو والاحتلال معه كانت أقوى من أن يتحملها الكثيرون ، ورغم ما انتهى إليه أمر عرابي فإنه يظل قائد أجيال التحرير التي سارت مع « مصطفى كامل » ومحمد فريد ثم « سعد زغلول » لأن نفوس المصريين خصبة طيبة مثل أرضها ، وطوال القرن التاسع عشر ، ومنذ حطم الفرنسيون الجدار العثماني كانت نار النهوض تتلظى تحت الرماد . والمصريون الأصلاء : المصريون أبناء الفلاحين الذين كرههم محمد علي ورفض أول الأمر الاعتماد

عليهم حتى تدخل الكولونيل « سيف » وهو سليمان باشا الفرنساوى — وأفهم محمد على أن الفلاحين يمكن أن يكونوا أحسن الجنود إذا هم تعلموا وتدربوا ، وبدأ التجربة بنفسه وعمل معه فيها « إبراهيم » ابن محمد على وإبراهيم كان يقول انه ليس تركيا فقد أتى إلى مصر صبيا وفى مصر نشأ فهو عربى ، والعربى فى ذلك العصر هو المصرى والشامى والعراقى ، والحقيقة أن الأتراك كانوا يسمونهم جميعا أولاد عرب ، وكان إبراهيم بعد أن قاد المصريين وانتصر بهم قد عرف قدرهم واعتز بهم وصار يقول : أنا لست تركيا فانى جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها وغيرت فى دمى وجعلته دما عربيا[1] وكان إبراهيم يدهش لموقف أبيه من المصريين والعرب عامة ، فرغم أن انتصارات المصريين على الأتراك كانت نصرا له فقد كان يؤلمه ويرى الناس ذلك فى وجهه . و « إبراهيم » هو صاحب فكرة فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإنشاء دولة عربية ، وقد أعطى نفسه لقب « سر عسكر بلاد العرب » ولكن أباه رده عن هذه الفكرة ، ومن سوء الحظ أن ذلك اقتصر على « إبراهيم » ومات معه قبل موت محمد على . وبقى محمد على الألبانى المشترك المرتزق وكان ذلك من أضعف جوانبه ، لأن انجلترا وروسيا ظلتا تعتبرانه والبا تركيا خارجا على الطاعة ، وفى معاهدة (لندن ١٨٤١) اقتصر سلطانه على ولاية مصر داخل نظام الدولة العثمانية ، وقد أصابه من ذلك بلاء عظيم وورث خلفاؤه — عباس ومن بعده — ذلك فأصاب ذلك مصر بأسوأ الأضرار ، فقد ظل المصريون مبعدين عن إدارة بلادهم ، وظلت مصر ولاية عثمانية تنتظر تصفية الدولة العثمانية لتصير فى قسمة صاحب النصيب ، ولو كانت مصر مركز دولة عربية لما حدث لها ذلك أبدا ولاستمر النهوض على يد « إبراهيم » ولما مسها شيء من البلاء الذى أصابها كجزء من التركة التركية ، وربما كان وجه تاريخها قد تغير .

ولم يعرف محمد على قدر النعمة التى أنعم الله عليه بها عندما أراد له أن تقوم دولته فى مصر إلا عندما ذهب إلى الشام .

فان مصر والجزيرة العربية هما القطران الوحيدان فى المنطقة المتوحدان عنصريا ، فان المصريين ليست فيهم اختلافات عنصرية كالتى تمزق بلاد الشام ، حتى أقباط

---

[1] د . لطيفة محمد سالم : « الحكم المصرى فى الشام » (١٨٣١ — ١٨٤١) القاهرة ١٩٨٣ ص ١٨

مصر لابكاد الإنسان يلحظ أنهم يختلفون عن المسلمين فى الطبيعة والتفكير ، فالكل مصريون ، وحاكم مصر لا يعانى من أقليات أو عنصريات ، وتلك نعمة من الله كبرى . ولكن سوء حظه جعله يسعى حثيثا لبضم الشام إلى مصر بحجة أن الشام درع لمصر أو أمان لها وهذا وهم باطل وغير صحيح جملة أو تفصيلا ، وبلاد الشام فى ذاتها ليست درعا لشيء ولا لبلاد الشام نفسها ، فهى خليط عجيب من مناطق مختلفة فى الطبيعة والجغرافية والسكان ، فهناك فى بلاد الشام كل نوع من أنواع التكوين الجغراف من الصحراء الرملية أو الصحرية القاحلة إلى الأرض السهلية البالغة الخصوبة وبين ذلك توجد البوادى الصالحة للمرعى والجبال من كل ارتفاع والوديان والهضاب والسواحل وما إلى ذلك . وهذه الطبيعة أوجدت فى بلاد الشام خليطا من السكان والأديان لا شبيه له إلا فى الهند التى هى شبه قارة ، قالت فى ذلك د . لطيفة سالم : « وقد تباينت التقارير الرسمية فى رصد السكان ولذا فقد كان نوخى التوسط (هو) ما اتبع فى هذه الدراسة ، فبلغ المسلمون ٩٩٧٠٠٠ نسمة والبدو (وهم مسلمون) ٢٢٠٠٠ والمقاولة (وهم شيعة مسلمون) واليزيديون ١٧٠٠٠ ، والدروز ٤٨٠٠٠ والكاثوليك والموارنة ٢٦٠٠٠٠ والأرثوذكس ٣٥٠٠٠٠ واليهود ١٧٥٠٠٠ »[1] وبذلك يشكل الجميع ١,٨٦٤٠٠٠ نسمة والمسلمون السنيون كادت مذاهبهم تنحصر فى الشافعى وأبى حنيفة وانضم تحت لواء الشيعة المقاولة والعلويون والاسماعيليون ، وأما الدروز فلهم من الأسرار ما يحفظونها فى حدودهم وتجمعهم فى إطار موحد ، ويعتبرهم البعض فى عداد المسلمين بينما يرى الآخرون انهم أنصاف مسلمين ، وهناك النصيريون وهم أصحاب عقيدة مختلفة تطغى عليها الوثنية ، وتمثلت الطوائف المسيحية فى الكاثوليك والاثوذكس والموارنة ، فدخل تحت الأولى الروم والسريان والبعاقبه والأرمن واللاتوى ، وجاهدت فرنسا فى إسباغ حمايتها الدينية عليهم وضمت الثانية الروم والأرمن واليونانيين والأقباط والأحباش ، أما الثالثة (الغالب أن المراد هنا الموارنة) فاعتبرت أهم طائفة لدورها البارز فى المنطقة ، وأيضا أدخلتهم فرنسا فى كنفها وكان لهم الموقف الواضح أثناء الحروب الصليبية . وأخيراً لم يكن لليهود القدر العددى المدعم

---

(١) أظن أنه فى تقدير اليهود بهذه النسبة مبالغة واضحة .

وكان بين هذه الجماعات من العداوات ما يصل إلى الجذور ولا يمكن استئصاله ، وكانت الحروب وأعمال العداوة على قدم وساق بينها حتى كانت تقع بين الإخوة .

والحقيقة أنه ليس لمصر في بلاد الشام كلها ما يهمها إلا بيت المقدس لوجود الحرم القدسي ومسجد الصخرة بها ، وهذه كان من الممكن أن يفرض عليها محمد على سلطانه ليجمع بين المساجد الإسلامية الكبرى ويؤيد مركزه في العالم العربي .

ولكن محمد على وقع في شرك الشام ، وكان فيه حتفه بالضبط كما وقع في نفس الشرك جمال عبد الناصر وكان فيه حتفه . وتركيا زادت مخاوفها من محمد على وسعت في القضاء عليه واجتذبت إليها الدول بسبب الشام . ولواختص محمد على وادى النيل لما صعب عليه الاستقلال به ولما خافته الدولة ولكان له — أقصد لمحمد على — تاريخ آخر .

* * *

والمهم عندنا هنا هو أن فترة الحكم المصرى في بلاد الشام كانت فترة الحرية التي جعلت لبلاد الشام مكانا في النهضة الفكرية العربية وهذه الحرية التي منحها إبراهيم لبلاد الشام كانت شيئا جديدا لم يحدده أهل البلاد فأساءوا استخدامها . وكانوا قبل ذلك يعيشون في دوائر مغلقة : كل طائفة تدبر أمرها بالطريقة التي تريد ، والمهم ألا تسبب متاعب للسلطان العثماني ، فكانت الحروب وصور التطاحن دائرة فيما بينها وكل منها تحاول أن تحافظ على كيانها وسط جيرانها ، سواء كانوا من أهل جنسها وملتها أم لم يكونوا ، والدولة العثمانية أغلقت موانى الشام . فكان لا يدخلها من الأجانب إلا القليلون ، وهؤلاء القليلون كانو إما تجارا يقتصر دخولهم على الموانى ويقيمون في الفنادق فيها لا يبارحونها ، وإما حجاجا يغامرون بالمجيء إلى بلاد الشام لزيارة الأراضى المسيحية المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة وما إليها ثم يخرجون من البلاد ، وكان في الشام ناس متخصصون يعملون أدلة لأولئك الحجاج ونرى نماذج من هؤلاء الأدلة في الكتب التي كتبها بعض المغامرين من رحالة الأوروبيين من أمثال داوتى وكيحليك وبوركهارت السويسرى الأصل .

وكان جبل لبنان — كما هو في طول تاريخه — منطقة اقطاع واسع يسيطر عليه الموارنة والكاثوليك منذ أيام الحروب الصليبية ، وكان ملجأ لم يرد التخلص من حكم الدولة الإسلامية قبل الدولة العثمانية وأثناء حكمها ، وقد حاول الأمير فخر الدين

المعنى أن يستقل به مستعينا بالبندقية وقام بشيء يشبه ما قام به محمد بك أبو الذهب في مصر ، ولم يفلح في النهاية وفي أيام محمد علي كان هناك الأمير بشير ، وكان صنوا لفخر الدين المعنى في الخروج على الدولة ، ولكنه كان ذا ذهن متفتح يفكر في الإصلاح والانسلاخ عن الدولة وإنشاء دولة حديثة فأشبه محمد علي في ذلك ، ولكنه لم يفلح نظرا لطبيعة البلاد ، فظل « مفاطهجي » كما كان بقال ، وقد أراد محمد على التعاون معه ، ولكنه لم يكن خالص النية فلم ينجح التعاون ثم إن إمكاناته المادية كانت قليلة ، وكانت قوته الحقيقية في أيدي أتباعه ، ولهذا لم يستطع في النهاية شيئاً .

ثم جاء الحكم المصري واستقر « إبراهيم باشا » في دمشق ومعه قوة عسكرية منظمة تقوم على جنود مصريين مدربين وأسلحة حديثة ونظام محكم رسمه مع « إبراهيم باشا » الكولونيل « سيف » فقضى في وقت قصير على البدو الذين كانوا آفة الأمن والنظام في البلاد وألغيت الإقطاعيات وقام في المدن والعواصم حكام نظاميون من رجال الدولة المصرية وأقر « إبراهيم » النظام في النواحي ووضع نظاما ماليا قائما على ضرائب منتظمة كما كان الحال في مصر ، وكانت هذه الضرائب من أكبر أسباب المتاعب .

وكان محمد علي قد أقام سلطانه في الشام على رغم الدولة العثمانية التي كانت قد عوضته عن جهوده في جزيرة العرب والبونان باقطاعه ولاية « كريد » وعندما احتج محمد على أعطته « غزة » وصيدا فحسب دون لبنان أو دواخل البلاد فثار محمد على على الأمر وفرض سلطانه على الشام كله ودخلته جيوشه وأخرجت ولاة آل عثمان وحصنت الشام عند جبال « طوروس » واستعانت الدولة العثمانية بحماتها وبخاصة الإنجليز وتريث هؤلاء وفكروا في التوسط وإن كانوا قد كرهوا امتداد دولته كراهة شديدة ، فهي تريد أن تظل الدولة العثمانية على حالها السيء حتى تموت في مكانها ثم تأخذ من تركتها أقصى ما تستطيع ، وهذه الدولة المصرية العربية الجديدة تفسد عليها كل سياستها .

ولكن محمد على كان يأمل أن يكسب انجلترا إلى جانبه ، وكانت فرنسا تؤيده ، لا حبا فيه ، وإنما كراهة في بريطانيا ولهذا فقد أعلن « إبراهيم » حرية واسعة في بلاد الشام وفتح أبوابها للأجانب فتدافع القناصل إلى دواخل البلاد ، وأرادت انجلترا

أن تدل بسلطانها فجعلت قنصلها يدخل دمشق فى موكب حافل ، وكانت تلك أول مرة يدخل دمشق قنصل أجنبى مسيحى ، وأرسلت أمريكا قناصلها ، وكان دافعها الأساسى دينيا ، فقد دخلت لتعاون المسيحيين ، وبلغ من وقاحة وكيل القنصل الأمريكى فى القدس أنه أراد أن يرفع العلم الأمريكى ، فأنكر الناس عليه هذا فلم يكترث فقام عليه الناس وطردوه من البلد وأيدتهم الحكومة فى ذلك ترضية للأهالى وبعثت أمريكا بإرساليات دينية أنشأت مدرسة فى جبل لبنان ، وفى هذه المدرسة عمل « البستانى » و « اليازجى » مع الأمريكيين والإنجليز فى دراسة اللغة العربية ، وكان البستانى « واليازجى » رجلين ممتازين عملا فى جد مع الأمريكيين والإنجليز . وترجما مؤلفات غربية كثيرة فكانت نتيجة ذلك ما عرف بالنهضة الفكرية العربية الحديثة التى ينسبها الغربيون إلى هذا الذى ظهر فى لبنان ، وهو كما ترى نتيجة للعمل المصرى ، وثمرة من ثمرات النهضة المصرية ، ولم يعترف رؤساء الشام بفضل مصر فثاروا ووقفوا إلى جانب أعداء « إبراهيم » لتعود الحال إلى ما كانت عليه .

وبالفعل اضطر محمد على إلى سحب قواته من الشام والاكتفاء بمصر وراثية فى آل بيته بمعاهدة (لندن ١٨٤٠) كما قلنا سلفا .

* * *

وهذه المعاهدة الأمريكية اعقبتها معاهدة فرنسية فى بلاد الشام ، وخرجت من محنة العصور الوسطى وضياع الدولة العثمانية . حقا أن بلاد الشام عادت إلى الدولة العثمانية بعد خروج المصريين ولكن الباب انفتح ورياح التغيير هبت قالت د . لطيفة سالم : « ومع سياسة الانفتاح توافد الأجانب على البلاد ، ويذكر « بورنج » أنه لم يعد هناك أقل خطر على الأوروبيين الذين راحوا يتجولون فى دمشق بمفردهم وبملابسهم الخاصة بهم ويذهبون إلى أى مكان يريدونه متمتعين بالأمن التام دون أن تتجه إليهم الأنظار . وعلى هذا زادت الثقة وساد الاطمئنان وانفتح المجال أمام السياحة ، وخرجت التوصيات من محمد على إلى المسلمين بشأن الرحالة الأجانب وقد تحسنت أحوال الناس فى بلاد الشام وانتعشت التجارة وانفتحت الأسواق وتحسنت الأحوال نتيجة للسياسة المصرية المعتدلة ولم يكن يضايق الناس إلا الضرائب التى فرضها النظام المصرى ، ولم يكن منها بد ، ومع أن الناس كانوا يدفعون قبل ذلك أضعاف الضرائب المصرية فإن كبار الناس وزعماء الطوائف والجماعات كانوا

لا يدفعون بل يأخذون ، أما فى ظل النظام المصرى فكان عليهم أن يدفعوا مثل غيرهم ، ومن هنا فقد كانوا يفضلون العودة إلى الدولة العثمانية ، لأن جماهير الناس فى بلاد الشام كانت لا وزن لها فى ذلك العصر ، إنما الأهمية كلها كانت لزعماء الطوائف والجماعات ، ومع أن الولاة السابقين من أمثال « أحمد باشا الجزار » تمتعوا بمزايا كثيرة أثناء الحكم المصرى فإنهم فقدوا سلطانهم السياسى . وهذا لم يكن يرضيهم والأمير « بشير » زعيم الدروز القوى انضم إلى المصريين وكسب منهم كثيرا ولكنه ظل فى الباطن يفضل العودة إلى النظام العثمانى .

وقد نجح محمد على فى الاتفاق مع الدولة العثمانية على حكم الشام لقاء جزية قدرها (٣٢٠٠٠ كيس) ولكن الدولة لم تكف عن التآمر عليه والعمل مع بريطانيا ضده . وكانت الروسيا قد أعلنت — عندما توالت انتصارات المصريين على الأتراك — حمايتها على الدولة العثمانية ، وهذا كان يخيف بريطانيا ويدفعها إلى العمل بكل قواها لاخراج محمد على من الشام ، وأيدتها الدولة العثمانية وكل أنصار النظام القديم ، وقد حصلت بريطانيا من الدول الأوروبية — عدا فرنسا — على موافقة على التدخل العسكرى فى بلاد الشام ، وحرضت تركيا أنصارها فى الشام فقامت الثورة على المصريين فى كل مكان ، ونزل الجنود البريطانيون أرض الشام وكان يقود قواتها ضابط صغير يسمى نابيير وكان « إبراهيم » يستطيع الانتصار عليه بكل سهولة ولكن محمد على ارتعب وخانته شجاعته ، فقرر الانسحاب بمقتضى (معاهدة لندن سنة ١٨٤٠) وانتهت المغامرة المصرية فى بلاد الشام ، وعادت إلى الدولة العثمانية .

والعودة إلى الدولة العثمانية كانت تعنى إذ ذاك أمرين أساسيين :

الأول : هو العودة إلى المظالم القديمة والركود الحضارى ونظام العشائر والمقاطعجية فى بلاد مثل الشام والعراق ، بل فى مصر أيضا التى لم تسلم رغم استقلالها الشكلى تحت نظام الخديوية فقد عادت ابتداء من أيام عباس الأول إلى كل مساوئ الحكم العثمانى ، أما **الأمر الثانى** : فهو العودة إلى نظام الامتيازات الأجنبية . وهذه الامتيازات كانت فى أصلها اتفاقا تم بين السلطان « سليمان القانونى » وملك فرنسا (فرانسوا الأول) (سنة ١٥٣٥) على أن يكون لفرنسا حق رعاية المصالح الدينية للكاثوليك فى أراضى الدولة ، والاتفاق فى منشئه لم يكن سيئا جدا إذا هو اقتصر على معاونات تقدمها فرنسا للمنشآت الدينية الكاثوليكية ، ولكنه

تطور مع الزمن ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وقصر نظر رجالها وسوء نية فرنسا ، فأصبح امتيازا قضائيا ، بمعنى أن الكاثوليك لا يخضعون للشريعة الإسلامية بل لقوانين بلادهم ، وتحولت القنصليات إلى محاكم وصار الأجنبي يقترف الجناية وتعجز السلطات المحلية عن مقاومته لأن ذلك كان يد قنصل دولته ، وهنا نجد أن روسيا تطالب بنفس الامتياز للرعايا الأرثوذكس ، ثم طالبت انجلترا بنفس الحق وأصرت على أن تتولى شئون البروتستانت ، ولم تستطع الدولة العثمانية إلا الخضوع ، وامتد هذا الامتياز وتشعب حتى إذا وصلنا إلى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وجدنا الأوروبيين فى البلاد الإسلامية (الخاضعة للدولة العثمانية) يتميزون على أهل البلاد بميزات دينية وقضائية واقتصادية وسياسية . وهذه الامتيازات أصبحت كارثة كبرى على تلك البلاد ، وهى نتيجة لخضوعها للسلطان العثمانى وقد كانت لذلك آثار سياسية واجتماعية سيئة جدا ، وكانت — فى مصر مثلا — كارثة حقيقية كان على المصريين أن يتخلصوا منها ، ومع أن أى خديو لمصر كان يستطيع أن يعلن أنه غير مقيد بهذه الامتيازات ويلغيها فى مصر دون أن تعترض الدول على ذلك اعتراضا جديا لأنه غير قانونى أو منطقى ، فإن الخديوية المصرية لم تفعل ذلك لأنها كانت فى الحقيقة جزءا من التركيبة العامة العثمانية ، وكان لا بد أن تتغير الدولة العثمانية كلها لكى تتغير هذه المساوىء كلها وما أدت إليه من احتلال سياسى وتأخر واستغلال .

* * *

وما دامت السلطنة العثمانية قد تعرفت إلى هذه الصورة ، والخلافة العثمانية كانت قد ألغيت على يد الكماليين (سنة ١٩٢٥) وأخرج السلطان « عبد المجيد » آخر الخلفاء من استامبول ليعيش بقية حياته منفيا فى باريس ، فقد آن الأوان لتصفية تركتها على النحو الذى كانت بريطانيا تفكر فيه طوال القرن التاسع عشر ثم دخلت فرنسا معها فى تلك القسمة بعد أن تحالفتا معا فى حرب ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وهذه التركة تتلخص فى العراق وبلاد الشام والحجاز ، أما مصر فقد كانت بريطانيا قد احتلتها فعلا فى (سبتمبر ١٨٨٢) مع الاعتراف ببقائها ظاهريا ولاية عثمانية وقامت مصر بكفاحها الطويل للاستقلال الذى قاده زعماء أبطال نجحوا بالفعل فى إيقاظ حركة قومية منيرة ظهرت فى صورتها الرائعة فى ثورة (سنة ١٩١٩) التى سنحكيها فى فقرة خاصة .

وأما الحجاز فقد كان الشريف « الحسين بن على » قد فكر فى القيام بحركة سياسية اثبتت الأيام أنها كانت من أضر الحركات بالقضية العربية بصورة عامة ، فكر فى أن ينضم إلى بريطانيا والحلفاء وينقلب على الدولة العثمانية يعلن عليها الحرب ، وتلك هى الحركة التى عرفت فى أيامها بالثورة العربية الكبرى ، ولم تكن ثورة ولا عربية ولا كبرى ؛ لأن ذلك الرجل لم تكن لديه أدنى فكرة عن حقيقة نفسه أو عن طبيعة الدول التى أراد محالفتها ، فقد كان فى حقيقته واليا من أصغر ولاة الدولة العثمانية سياسيا وعسكريا ، ولكن وجود الحرمين الشريفين الإسلاميين فى بلاده خيل له أن ذلك يؤهله لكى يكون خليفة المسلمين ، وعندما بدأ يتفاهم مع بريطانيا على القيام بثورة على الأتراك كانت تلك هى الناحية التى أهمت بريطانيا فى الموضوع كله ، لأن قيام والى الحرمين بالثورة على العثمانيين وادعاء الخلافة من دونهم والانضمام إلى الحلفاء فى حربهم كان كفيلا بإضعاف مركز الأتراك فى بلاد الإسلام ، وكان الأتراك أيامها يحكمون الشام ولهم قوة عسكرية فيه تحاول مهاجمة بريطانيا فى مصر .

ثم ان مركز الحلفاء العسكرى كان سيئا جدا حوالى (١٩١٧) فألمانيا تنزل الهزائم المتوالية بالروس على الجبهة الشرقية وتحارب حرب خنادق مريرة ومنتصرة — إلى حد ما — على الجبهة الغربية ، فمثل هذه الحركة العربية كانت جديرة بأن ترفع القوى المعنوية للإنجليز لأنها تعتبر ضربة قاصمة لتركيا حليفة ألمانيا ونصرا كبيرا للإنجليز ، ومع علمها بأن الشريف حسين ليس له إلا وزن ضئيل جدا من الناحيتين : العسكرية والسياسية ، فقد أقدمت على التفاوض معه وإعطائه وعدا بإنشاء دولة عربية كبرى تشمل : الشام وجزيرة العرب ، وكانت تعلم أن شيئا من هذا لن يتم إذا ما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، بل إن بريطانيا كانت تتفاوض فى نفس الوقت — بصورة جديدة — مع الصهيونية العالمية على انشاء وطن قومى لليهود فى أرض فلسطين لقاء عون مالى كبير قدمه اليهود ، ونظرا لما كانت بريطانيا تعرف من سلطان اليهود فى الولايات المتحدة ، فقد فكر اللورد « بالفور » الذى أعطى اليهود هذا الوعد فى أن ذلك الوعد سيجعل يهود الولايات المتحدة يبذلون أقصى ما فى وسعهم فى إقناع أمريكا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، فإذا حدث ذلك ضمن الحلفاء النصر على الألمان الذين كانوا قد أنهكتهم الحرب وباتوا فى حالة يرثى لها من الضعف أواخر (١٩١٧) .

وقد تلخصت الثورة العربية « الكبرى » في قيام نحو ألف جندي من جنود الشريف بمهاجمة حركة الوالي التركي في جدة وإعلان الشريف « حسين » الحرب على الدولة العثمانية ، وكانت الدولة إذ ذاك في موقف سيىء جدا مع الوطنيين في بلاد الشام الذين انتصبوا يقاتلون جمال باشا الوالي العثماني ، وقد تحمس لهذه الثورة العربية نفر من أهل سوريا وفلسطين واجتمع بعضهم في دمشق وأعلنوا الخلافة العربية وكان من بين هؤلاء « رشيد رضا » تلميذ الإمام « محمد عبده » وذهب في تهور بالغ إلى دمشق لكي يشترك في مبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكا على بلاد الشام . أما الأتراك فقد تقدمت قوة منهم وحاولت عبور قناة السويس ودخول مصر فانهزمت ، ومن الغريب أن الذين هزموها كانوا بعض فرق الجيش المصري الذي أبقى عليه الإنجليز في حدود (١٧٠٠٠ رجل) ، هذا ولم تدخل مصر الحرب إلى جانب بريطانيا لأن هذا كان رأي السير الدون جورست الذي تولى أمر مصر بعد كرومر ، وقد رأى ذلك — وأيده فيه مصطفى فهمي باشا رئيس وزراء مصر أيام الحماية — حتى يحرم مصر من ثمرة أي نصر للحلفاء ومع هذا فها هم المصريون يكسبون نصرا على الأتراك لحساب بريطانيا وتظل بلادهم رغم ذلك محمية بريطانية .

وتقدمت قوة بريطانية أتت من مصر والعراق في بلاد الشام شمالا يقودها اللورد اللنبي وانتصرت على الأتراك في موقعة « مجدو » ودخل اللورد اللنبي دمشق وبدد أحلام فيصل بن الحسين والقدس وأعلن أنه انتقم لنصر « صلاح الدين » على الصليبيين وانتزاعه القدس منهم سنة (١١٨٧ — ١١٨٨) .

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب تبين أن انجلترا وفرنسا كانتا قد تقاسمتا العراق وبلاد الشام في (معاهدة) وضعها بريطاني يسمى سايكس وفرنسي يسمى بيكو (معاهدة سايكس — بيكو) وبمقتضاها توضع العراق تحت الانتداب الإنجليزي وتقسم بلاد الشام إلى أربع وحدات سياسية : سوريا ولبنان وتكونان من نصيب فرنسا وفلسطين والأردن وتكونان لبريطانيا ، وبريطانيا بعد الحرب فتحت أبواب فلسطين لليهود وأقيم السير هربرت صمويل — وهو يهودي اختاره وايزمان — المندوب السامي لإنجلترا في فلسطين لتنفيذ السياسة الصهيونية .

وأما سوريا فقد حكمتها فرنسا حكما عسكريا متعسفا منذ بداية الانتداب (سنة ١٩٢٠) فقامت الثورة السورية الكبرى التي قادها « سلطان باشا الأطرش » في

جبل الدروز فيما بين سنتى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) وقد أخمدها الفرنسيون بأعنف الأساليب العسكرية ، ولكن التذمر ضد الفرنسيين استمر فلجأت فرنسا إلى المهادنة وأعلنت سنة (١٩٣٠) أنها مستعدة لإقامة نظام نيابى تحت السيطرة الفرنسية فى البلاد ، ووضع دستور شكلى ، وقام فى البلاد برلمان ولكن الثورة عادت فقامت فى صورة شاملة سنة (١٩٣٦) ولجأ الفرنسيون إلى أشد وسائل العنف وضربوا « دمشق » بالمدافع دون جدوى واضطرت فرنسا إلى تغيير سياستها وعقد معاهدة مع السوريين فى أواخر (١٩٣٦) بعد مفاوضات قام بها « هاشم الاتاسى » وقد ظلت الأحوال فى سوريا قلقة حتى قامت الحرب العالمية الثانية وانهزمت فرنسا فتمكنت سوريا من الحصول على استقلالها فى (٢١ سبتمبر ١٩٤١) وعادت فرنسا إلى استعمال أقصى أساليب العنف مع السوريين مما اضطر انجلترا إلى التدخل ، وفى سنة (١٩٤٦) حصلت سوريا على استقلالها التام .

ومر لبنان أيضا بتجارب قاسية مع الفرنسيين أثناء الاحتلال الفرنسى حتى حصل على استقلاله التام سنة (١٩٤٦) ولكن فرنسا كانت وضعت فى لبنان ذلك النظام الأعرج الذى يعتبر سبب البلاء كله فى ذلك القطر النشيط وهو اشتراط أن يكون رئيس جمهورية لبنان مارونيا كاثوليكيا أى من أقل طوائف سكان البلاد ويليه رئيس الوزارة ويكون مسلما سنيا وهكذا تقتسم السلطات بحسب مصالح فئات دينية وعرقية ، وفى أسفل السلم وضع الشيعة اللبنانيون وهم من أكثر سكان لبنان عدداً وأشدهم فقراً ، وثبتت صورة هذا النظام الطائفى العشائرى ولكل طائفة قوتها العسكرية المسلحة ، ففى الستينيات من هذا القرن ، وهو العصر الذهبى للبنان الحديث كانت البلاد تتمتع برخاء عظيم جداً نظرا لنشاط اللبنانيين وقدرتهم على إدارة الأعمال والأموال وتدفقت أموال العرب وكثرت الأموال فى أيدى طوائف معينة من أهل لبنان معظمها من الموارنة الكاثوليك والروم الأرثوذكس . والأغنياء صاروا أغنى والفقراء صاروا أفقر ، ولم يفكر أحد فى إصلاح النظام الخطر الذى وضعه الفرنسيون للبلاد . وامتلكت بعض طوائف الموارنة قرى كاملة وما حولها من الأرض وأنشأوا فيها صناعات تقوم على عمل قليل ولكنها حسنة المنظر متقنة التعبئة لأن معظمها كانت فروع صناعات أوروبية واسعة التوزيع يشترون أذون صنعها ويصدرونها بمقادير ومكاسب هائلة إلى البلاد العربية .

وهذا الرخاء زاد فى توسيع الشقة بين طوائف لبنان وزاد عمق الأحقاد الطائفية ، وفى الستينيات أنشأ « بيير الجميل » فرق الكتائب العسكرية اللبنانية ، وجانب كبير جداً من الأموال التى انشئت بها هذه الكتائب وجرائدها ومطابعها أتى من مصر ، لأن جمال عبد الناصر فى تطلعه إلى سيادة سوريا ولبنان صار يغرف من مال مصر ويلقى به هناك خصوصا بعد أن كسر السوريون وحدة مصر وسوريا التى أنشأها عبد الناصر إنشاء هو أو هى حتى من نسيج العنكبوت .

وسوريا بعد الانفصال عن مصر سادتها طائفة عسكرية من النصيريين العلويين وهم ليسوا مسلمين ، بل إنهم اضطهدوا المسلمين فى حلب وحماة وأوقعوا بهم المذابح وأقاموا نظاما عسكريا يعتمد على سند عسكرى من روسيا وسند مالى من بعض البلاد العربية وصارت مع الزمن شوكة فى جنب الوحدة العربية وانضمت إلى طائفة نستطيع ان نسميها بطائفة المشاغبين العرب تحالف إيران على العراق وتؤيده ليبيا التى تحولت إلى إقطاعية عسكرية يحكمها العقيد معمر القذافى الذى جعل يتصرف فى ثروة البترول والغاز التى أنعم الله بها على ليبيا وأخرجها به من عالم الفقر إلى عالم الغنى والسعادة ، ولكن القذافى رد الليبيين إلى الضيق والحاجة تحت ستار ما سماه بالاشتراكية الديمقراطية . وعندما تقسم عائدات البترول والغاز الليبيين على عدد السكان نجد أن الفرد الليبى يخرج بأعلى دخل فى العالم فهو قرابة (تسعة آلاف دولار) فى السنة ، ولكن الليبى لا يجد بين يديه من هذا الدخل إلا القليل ، ثم انه لا يجد ما يشتريه لأن الحكومة تسيطر على الأسواق والعقول والأموال وكل شىء . وربما كان السوريون فى ظل الاستبداد النصيرى أحسن حالا من الليبيين لأن السورى ذكى متعلم صاحب تجربة ، وقد ترك السياسة للمستبدين وانصرف إلى حياته وصنعته وزرعه وحسنا فعل : ولماذا التعرض للمذابح كل يوم وهذا النظام كله لابد أن ينهار من أساسه لأنه غير طبيعى أو معقول ولا يخدم مصالح سوريا ؟ ، وكل نظام من هذا النوع لابد أن ينهار ، والأوطان لابد أن تعود إلى أهلها وأصحابها الشرعيين .

ومصر بعد ثورة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) واستقلالها نهائيا عن الإنجليز خاضت تجارب شتى فى ظل العسكرية الناصرية ، ووصل بها الأمر إلى حضيض الهزيمة الساحقة فى (يونيو ١٩٦٧) وضاعت منها سيناء وتعطلت قناة السويس ، ثم أفاقت إلى نفسها وأعدت جيشها وانتصرت على إسرائيل فى (أكتوبر ١٩٧٣) ثم عقدت

معاهدة صلح مع إسرائيل (سنة ١٩٧٧) واستردت سيناء وأعادت افتتاح القناة . وكان الرئيس « السادات » قد فتح باب الديمقراطية والانفتاح الاقتصادى فأكمل ذلك كله خليفته الرئيس « محمد حسنى مبارك » ، ومصر كلها تعمل اليوم لبناء نفسها من جديد بلا هروب ولا انقلابات أو استجداءات لا تؤدى فى الغالب إلا إلى خراب البيوت والبلاد ، وقد تركت وراءها « دوشة » الجامعة العربية ، وهى طاووس بلا ذيل ولكنها لم تترك العرب وبعد أن نقرأ الفقرة التالية عن نهضة بلاد العرب فى ظل الدولة السعودية وبقية بلاد الخليج سنجد أن طريق مصر السياسى الصحيح هو طريق السعودية والتركيز على البحر الأحمر الذى هو بحر العرب حقا ، وعلى ضفة هذا البحر أيضاً يقوم السودان وهو شريك مصر فى وادى النيل ، وطريقهما واحد دون وحدة سياسية ، وثالوث (السعودية ــ مصر ــ السودان) سيتحول إلى رابوع بعد استقلال آريتريا وهو أمر حتمى وهذه الوحدة (القلبية) الرباعية والعقلية تستطيع أن تقدم أجل الخدمات لنفسها ولبقية العرب إن شاء الله .

وفى (سنة ١٩٧٧) اندلعت الحرب الأهلية فى لبنان ، وهى حرب أهلية طائفية أثارها فى لبنان نفس الذين أقاموا بنيانه الواهى بعد الاستقلال (الشكلى) عن فرنسا سواء كانوا من داخل البلد أو خارجه . وأسباب الحرب الأهلية هى التناقضات التى كانت فى بناء البلد كله ، وبحسب الناس أن مسائل القناصة وخطف الناس والسوق السوداء والميليشيات أشياء جديدة والحقيقة أنها كلها قديمة ، وبعد انشاء « بيير الجميل » لكتائبه المارونية نشأت كتائب الطوائف الأخرى من دروز وشيعة ، ومدت إيران يدها بعد ثورتها فأقامت كتائب الشيعة فى جنوبى لبنان ، وقد اشتد عودها ونشأت إلى جانبها جماعات محاربة أخرى أكثر تطرفا مثل (حزب الله) ، وجعلت الطوائف تتحارب فيما بينها حتى تخربت بيروت وطرابلس وصور وصيدا ، ودخلت سوريا ثم إسرائيل الميدان ومضت النار ترعى فى الحطب حتى سقطت الليرة اللبنانية وبدأت الصحف الطائفية تتصفى .

وستستمر هذه الحرب الأهلية حتى تتصفى كل عناصر البناء القديم ويمكن إقامة لبنان جديد على أسس قومية مقبولة من أهل البلاد فليس بدعا أن تكون فى البلد طوائف ، ولكن البدع أن تستبد أقلية من السكان بالأكثرية وأن يكون واحد على عشرة من السكان غنيا إلى درجة التخمة والأعشار التسعة الباقية تتقاسم بينها الفقر والمذلة .

ولكن أعظم الحوادث فى تاريخ النهضة العربية بعد البعثة فى مصر وتصدع الحواجز بين مصر والشام من ناحية والغرب من ناحية أخرى هو قيام الدولة السعودية فى جزيرة العرب ذلك أن العرب الذين أنشأوا لمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس أوطانهم العربية الإسلامية شغلتهم تصاريف التاريخ عن أن ينشئوا لأنفسهم وطنا فى جزيرتهم . كان القرآن والإسلام ورسوله قد بهروا عقولهم وأيقظوا بصائرهم فاندفعوا خارج الجزيرة يفتحون وينشرون الإسلام والعروبة . وفى النهاية لم يبق لهم فى جزيرتهم إلا نزر يسير من القوة . وكان انتقال قاعدة الخلافة إلى دمشق ثم بغداد قد ألحق بجزيرة العرب ضررا بليغا ، فإن خلفاء بنى أمية أساءوا استعمار العرب ولم يحسنوا معاملتهم ، أما العباسيون وهم عرب هاشميون صليبة فقد أداروا ظهورهم للعرب ثم أسقطوهم من الحساب جملة وباستثناء الحجاز وهو موطن الحرمين الشريفين ومقصد الحجاج وسقط على بقية الجزيرة ستار وساد الظلام ولم يعد أحد يعرف على وجه التحقيق ماذا يجرى هناك فيما عدا أخبارا كثيرة مبهمة ومتضاربة كانت تصل إلى الخارج عن اليمن ، لأن اليمنيين عرب نشيطون جدا ، وأكثر من نصف البناء الحضارى الذى أقامه العرب خارج الجزيرة قام به أهل اليمن ، ثم إن اليمنى يحب وطنه ويتلمس أخباره مهما كان موضعه ، والعلة الكبرى التى ضيعت الكثير من جهود اليمن هى أن كل يمنى يريد اليمن كله لنفسه وحده ، فكثر التنافس والتناحر وأصبح تاريخ اليمن طويلا جدا وقصيرا جدا فى آن معا .

وفيما عدا حركة القرامطة ــ وهى حركة قبلية سياسية أرادت أن تنشىء دولة شيعية مركزها البحرين والأحساء . ولكن شركاءها فى التدبير الأول وهم الفاطميون سبقوا القرامطة وانشأوا لأنفسهم خلافة فى أفريقيا أولا ثم انتقلت إلى مصر (سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ ــ ٩٧٣ م) تصدوا للقرامطة فمضى هؤلاء يخبطون خبط عشواء ، فهم يغزون جنوبى العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز ، وفى إحدى ضرباتهم للحجاز اغتصبوا « الحجر الأسود » وأخذوه إلى البحرين ، وظل عندهم حتى استرده منهم الخليفة الفاطمى العزيز ، ثم تلاشت الأحلام القرمطية وعصفت بها رياح التاريخ وعاد الظلام . وبعد ذلك هاجر بنو هلال ابن صعصعة بن عامر وبنو سليم بن منصور إلى مصر ثم إلى المغرب حيث غيروا وجه تاريخه ، أما من بقى منهم فى الجزيرة فقد اندرجوا فى طى النسيان ، وكانت هجرة بنى هلال وبنى سليم فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ظهر محمد بن عبد الوهاب ونشر دعوته ومضى يدعو إلى التوحيد ويحرم على الناس الإيمان بأدعياء الولاية ، وقام مع أنصاره بهدم القبور لأن الناس كانوا يعتقدون أن الموتى يتوسطون لهم عند الله وتطلع الأشجار التى كان الناس يقدسونها ويعلقون عليها أقمشة وأشياء يؤمنون بها ، وجعل يعلم الناس الوضوءوالصلاة والقرآن والفقه على مذهب « ابن حنبل » فقلق عثمان بن معمر ، ثم جاءه أمر من أمير الاحساء بإخراج « محمد بن عبد الوهاب » من بلده لأنه كما زعم رجل خطر ودعوته خطرة على سلطات الأمراء ، وأظهر عثمان بن معمر الرغبة فى أن يغادر محمد عبد الوهاب بلده إذا أصر على مواصلة نشاطه فى الدعوة . فاضطر الرجل إلى ترك العيينة والهجرة إلى « الدرعية » مقر إمارة آل سعود فقد كان له هناك أنصار ومؤيدون كثيرون ، ونزل هناك على أحد تلاميذه ومحبيه وكان ذلك سنة ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨ م وكان ذلك فاتحة النصر لدعوته الإسلامية السلفية والله سبحانه وتعالى يصرف الأمور على ما فيه خير الناس .

ذلك أن الأمير « محمد بن سعود » أمير « الدرعية » التقى والشيخ « محمد بن عبد الوهاب » فى بيت تلميذه وأخذ يسأل عن الدعوة ومحتواها وأهدافها وعن آراء محمد بن عبد الوهاب وما يرمى إليه ، فلما سمع كلام الشيخ وما يدعو إليه من إصلاح أمر الناس وتطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات والأوهام لتعود عقيدة التوحيد نقية صافية من كل البدع وأعمال الكفر التى ألصقها بها أهل الجهل والعدوان وقال له إنه يدعو إلى ما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأدرك الأمير « محمد بن سعود » أهمية هذه الدعوة وسبر أغوارها وأدرك ما تؤدى إليه من خير عميم للإسلام وأهله ، فوعد « محمد بن عبد الوهاب » بالنصر والمؤازرة والعمل على نشر هذه الدعوة الكريمة بكل سبيل ، ووعده « محمد بن عبد الوهاب » بنصر من الله وعزة وتمكين ، وتم الاتفاق بين الرجلين على ذلك وكان هذا الاتفاق فاتحة خير للرجلين ، وكان بشرى بخير عميم لجزيرة العرب وأهلها ونصر من الله عميم للإسلام وأهله .

ذلك أن بيعة الأمير « محمد بن سعود » للشيخ « محمد بن عبد الوهاب » كانت بيعة صادقة قامت على نية طيبة واستعداد للعمل عظيم ، ولهذا فقد طلب « محمد ابن سعود » إلى الشيخ أن يستقر فى « الدرعية » ويتخذها مركزا لدعوته وأعلن

استعداده للجهاد فى سبيل الدعوة لنصر دين الله ورسوله وإقامة شريعة الإسلام الحنيف كما هى فى القرآن الكريم وسنة رسوله الصادق الأمين .

بدء الجهاد وازدهار « الدرعية » فى ظل الدعوة :

وأقبل « محمد بن عبد الوهاب » والأمير « محمد بن سعود » على العمل بنشاط بالغ ، فأما « محمد بن عبد الوهاب » فقد جعل بيته فى « الدرعية » مركز تعليم ومحاضرة ، فقد كان الرجل عالما واسع العلم متفقها فى الدين متمكنا من أصوله وشريعته ، وكان فصيح اللسان بليغ العبارة ، فأقبل عليه التلاميذ من كل صوب حتى أصبح البيت حقا وكأنه كلية ومركز دعوة إسلامية ، وأقبل رجال « ابن سعود » وأمراء بيته على الدراسة على يدى ذلك الرجل الذى كان يتحدث فى كل شيء بما فى ذلك السياسة وأحوال المجتمع ، وتحولت الأسرة كلها برياسة الأمير « محمد بن سعود » إلى قوة سياسية وعسكرية وإدارية من وراء الدعوة السنية . وشيئا فشيئا تحولت « الدرعية » إلى قوة علمية وسياسية كبرى وبدت فيها مظاهر نهضة عظيمة للإسلام وأهله .

وتلك هى الحقيقة التى خفيت على أهل العصر بل لا تزال تخفى على كثير من المؤرخين فهم يتحدثون عن النهضة العربية فى مصر والشام ويقصرون كلامهم على ذلك ويمضون يتتبعون الحوادث فى الدولة العثمانية ومصر ، وهذا جانب من النهضة العربية فى العصر الحديث ، ولكن الدعوة السلفية التى قادها الأمير « محمد ابن سعود » والإمام « محمد بن عبد الوهاب » كانت جانبا آخر لا يقل أهمية فقد كانت نهضة إسلامية حقيقية ، وفى تاريخ الإسلام والمسلمين نجد أن حركات النهوض والإصلاح والقوة العلمية والحضارية والسياسية ترتبط دائما بالإسلام وتنبع منه ، لأن الإسلام هو سر القوة الحقيقية فى بلاد الإسلام وبفضله يكون النهوض ومنه تنتج حركات التجمع واستعادة القوة والنهوض من الضعف (لقد بلغ من غفلة أهل العصر عن أهمية هذه الدعوة وما يمكن أن تؤدى إليه من الخير أن الدولة العثمانية عادتها دون أن تعرف حقيقتها ، وسنرى بعد قليل أن الصراع سيقوم بين الجانبين ، لأن الدولة العثمانية كانت صاحبة الخلافة ومركز الإسلام التقليدى الحكومى وأقطابه هم : المفتى والقضاة والشيوخ الذين يقوم كل علمهم على الحفظ والاستظهار

والتسميع دون فهم كثير أحيانا ، ويدخل في نطاق هذا الإسلام الرسمي التقليدي مراكز العلم في استامبول وبلاد الشام والعراق ومصر ولم يكن كل أهل العلم في هذه البلاد على المستوى الذي ذكرناه من الركود والاستسلام ، بل كان هناك علماء أجلاء ، والأزهر ظل حامل لواء العلم الإسلامي في عالم الإسلام ولكن المتفتحين من علمائه كانوا قليلين ، وهؤلاء القليلون لم يكن لهم حول ولا طول ، لأن الحول والطول في عصور الركود يكون لأهل الثقافة وأصحاب الوظائف والمتقربين من السلطان وأهله . وهؤلاء ــ بطبيعة تكوينهم الاجتماعي ــ الأخلاقي ــ وقفوا من الدعوة السلفية التي نادى بها « محمد عبد الوهاب » وقادها « محمد بن سعود » موقف العداء دون أن يعرفوها ودون أن يقرأوا شيئا مما كان الشيخ يكتبه ويبعث بنسخ منه إلى أهل العلم في عالم الإسلام ، وكتب الشيخ ومؤلفاته تنقسم إلى : كتب أصول ، أي أصول الإسلام كما هي في الكتاب والسنة ، وكتب فروع وهي كتب فقه على مذهب الإمام « أحمد بن حنبل » والإمام « ابن تيمية » بل إن الدولة العثمانية ــ في صراعها السياسي مع الدعوة السلفية وصفتها أنها حركة خارجة ورمتها بالإلحاد أو الكفر . ولكن الدعوة انتشرت بين جماهير أهل المدن في « نجد » ووصلت إلى مكة والمدينة في الحجاز ، وعرفها الكثير من أهل مصر والشام والعراق . وعندما بدأ نشاط الجهاد والفتح العسكري للدعوة ملأ الخوف قلوب أمراء « الرياض » وهم آل دهام بن دواس وعريعر بن دجين أمير الاحساء وآل الرشيد أصحاب حائل ، والبيتان الأخيران كانا من أنصار الدولة العثمانية ، وقد استجاب رجالهما إلى ما دعت إليه الدولة العثمانية من معاداة الدعوة .

وتوفى « محمد بن عبد الوهاب » في « الدرعية » سنة (١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م) بعد أن وضع أساس دعوته وثبت أركانها ، وكان آل سعود قد تبنوا الدعوة وتولوا نشرها في جزيرة العرب بالكلمة الطيبة والسيف أي الجهاد في سبيل الله . وكان لابد أن تخوض الدعوة صراعا عنيفا لكي تنشر مبادئها ، وفي ذلك الحين كانت الجزيرة مقسمة إلى إمارات وشيخات كبيرة أو صغيرة ، ولكنها كلها كانت ضعيفة وفقيرة ، وكانت الحروب بين بعضها البعض على قدم وساق ، ولكل منها قوة عسكرية من المقاتلين والبدو تعتمد على الجمال والخيل والسيوف والحراب ، وفي بعض الإمارات الساحلية مثل الكويت والاحساء وعمان عرف الناس شيئا من الأسلحة النارية . وبهذه المناسبة نقول إن العرب الذين عرفوا الأسلحة النارية واستعملوها منذ القرن

السابع عشر الميلادى كانوا عرب المغرب الأقصى ، ولكنهم لم يجتهدوا فى تعلم صنعها وتطوير هذا الصنع حتى يصبحوا على مستوى البلاد الأوروبية . لقد شغلتهم صراعات العروش ومؤامرات القصور عن ذلك الأمر الرئيسى — وعن غيره من الأمور الرئيسية — فكلفهم ذلك استغلالهم ، وهم ملومون فى ذلك لوما شديدا

* * *

ونعود إلى الدولة السعودية فنقول إن السعوديين بعد أن توفى الإمام « محمد ابن عبد الوهاب » كانوا قد تحولوا إلى قوة سياسية ومعنوية كبيرة ، واستقرت فى نفوسهم فكرة أنهم مكلفون بالقيام بنشر هذا المذهب وإصلاح العالم الإسلامى كله على أساسه وسرت فى كيانهم قوة معنوية كبرى فانطلقوا ينفذون هذه الرسالة بحماس بالغ ، وتحركوا حركة سياسية وعسكرية واسعة لتحقيق هذه الغاية ، ودخلوا — نتيجة لذلك — فى صراع مرير مع كل القوى السياسية داخل الجزيرة ، واصطدموا بالدولة العثمانية ومصر والإنجليز اصطداما عنيفا ، وكانوا بذلك أول بلد عربى يقوم بثورة إصلاحية عربية إسلامية أصيلة فى العالم الإسلامى ، وهذه حقيقة لم يتنبه إليها معظم مؤرخى العصر ، ولابد لهذا أن يعاد وضع صورة التاريخ العربى الحديث وضعا جديدا ، وأن يدخل التعديل الجديد فى الكتب المدرسية .

ولا يتسع المجال هنا لذكر تفاصيل ولكننا نقول إنه قد حكم السعودية إلى يومنا هذا ثمانية عشر ملكا وأميرا قام كل منهم بنصيب كبير أو صغير فى إقامة بناء الدولة السعودية الضخم .

وينقسم تاريخ السعودية إلى ثلاثة أدوار هى :

الـــدور الأول : ويبدأ منذ سنة (١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م) — وهى السنة التى انتقل فيها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » إلى بلدة « الدرعية » واتفق مع أميرها « محمد بن سعود » على تأييد دعوته ونشرها . ويعتبر هذا الاتفاق ميلادا للدولة السعودية وينتهى ذلك الدور الأول فى سنة (١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م) وهى السنة التى استسلم فيها الإمام « عبد الله بن سعود » أمام « إبراهيم » باشا ابن محمد على قائد الحملة الثالثة على الجزيرة العربية .

الدور الثانى ، ويسمى هذا الدور بالدولة السعودية الثانية :

يبدأ من (سنة ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ م) وهى السنة التى استولى فيها الأمير تركى بن عبد الله وهو السادس من أمراء البيت السعودى على مدينة الرياض « وحرر سائر بلاد « » نجد » من السيطرة المصرية . وينتهى باستيلاء « محمد بن عبد الله بن رشيد » أمير حائل على « الرياض » وضمها إلى إمارته .

الدور الثالث : عصر الملك « عبد العزيز آل سعود » ومازال مستمرا إلى اليوم :

ويبدأ سنة (١٣١٩ هـ/١٩٠٢ م) وهى السنة التى استولى فيها الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » على الرياض وجعلها قاعدة ملكه وشرع فى إقامة المملكة العربية السعودية . وسنتحدث الآن عن تلك المرحلة الثالثة .

* * *

الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » (١٣١٩ هـ/١٩٠٢ م) — (١٣٧٠ هـ/١٩٥٣ م)

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فى ذى الحجة (١٢٩٧ هـ/ديسمبر ١٨٨٠ م) فى ظروف عسيرة جدا للبيت السعودى ، فقد كان آل الرشيد أصحاب حائل قد استولوا على كل من نجد والرياض ، وخرج عبد العزيز مع أبيه عبد الرحمن لاجئين إلى الكويت . وكان عبد العزيز مقبلا من أول الأمر على الدراسة والقراءة والاطلاع ، وكان من حبوته معجبا بالملك فيصل (الأول) بن تركى الذى تولى عرش السعودية مرتين ، فهو السابع والعاشر من أمراء هذا البيت ، وكان أميرا ذكيا دءوبا واسع الحيلة عظيم الإيمان صانع خورشيد باشا الوالى المصرى على الحجاز وتفاهم معه ، وكان خورشيد رجلا باسلا شهما ، ثم عزل عن العرش وذهب إلى مصر مرتين وفر فى المرتين وعاد إلى عرشه فى السعودية واتفق مع الأتراك وأصبح سلطانا على السعودية اسميا واستطاع أن ينهض بشئون الإمارة السعودية ويلم شعثها ، وكانت من يوم سلادها فى صراع دائم مع جيرانهم وغيرهم فى سبيل تنفيذ مبادئها. وقد حكم فى المرتين ثلاثة وعشرين عاما كلها متاعب ، وفى النهاية ، وبعد تمكن من توحيد الصفوف ، اختلف ابناه « عبد الله » و « سعود » على العرش وعادت الحرب الأهلية .

كان عبد العزيز بن عبد الرحمن معجبا بفيصل هذا الذى جمع بين الإيمان والدأب والذكاء وسعة الحيلة . ومنذ سنوات العمر الباكرة (سنوات الخروج من الصبوة إلى الشباب) بدأت تظهر ملامح الرجل الفريد فى طرازه ، فهو غير مستريح فى ضيافة مبارك الأمير أمير الكويت ، لأن عبارات بدرت من هذا الرجل فيها ما يجرح الشعور ، والفتى « عبد العزيز » يغادر الكويت ويعيش خارجها فى العراء حياة شظف بالغ ، ولكنه كان يجد نفسه هناك حرا كريما على نفسه وعلى الفئة القليلة من الأصحاب الذين خرجوا معه . كان قد تعلم الفروسية والصيد وضرب السيف والرمى بالرمح ، ولا يخلو الأمر من صيد حلال يستمتع هو وأصحابه بلحمه ، هذا مع التفكير الدائم والقراءة المتصلة ، حتى إذا بلغ الفتى تسعة عشر عاما من عمره وتجمعت لديه أخبار صحيحة عن الرياض وحاكمها لآل الرشيد واسمه « عجلان » وحصل « عبد العزيز » على بعض المدد من أمير الكويت وفى يوم محدد كان هو وأربعون رجلا من أنصاره خارج أسوار الرياض ، وكان ذراعه الأيمن القائد الباسل « عبد الله بن جلوى » ورسم « عبد العزيز » الخطة ثم باغت الرياض واقتحمها وقتل الوالى عجلان واستقر فى القصر وفرت حامية ابن الرشيد وسيطر « عبد العزيز » على الرياض ، ونادى المنادى بعودة « آل سعود » إلى العرش ، وطرب الناس لذلك ورحبوا . وبعد أيام كان كل شىء فى يديه ، ثم نادى أباه وآله من الكويت فأقبلوا ، وتم عقد اجتماع عام فى مسجد الرياض الكبير وتنازل الأمير « عبد الرحمن » عن العرش لولده « عبد العزيز » وبايعه بالإمارة وتبعه الناس . واستقام الأمر « لعبد العزيز » فى الرياض سنة (١٩٠٢) ومن ذلك التاريخ إلى وفاته سنة (١٩٥٣) وأتم « عبد العزيز » بناء المملكة العربية السعودية على النحو الذى نراه اليوم .

* * *

وكثيرون من الناس يقولون (إلى اليوم) إن جزيرة العرب قبل « عبد العزيز » كانت مقسمة إلى أربعة أقسام : نجد ــ الحجاز ــ الإحساء ــ اليمن . ونحن نقول : لا أيها السادة لم تكن كذلك ، بل كانت مسحوقا من الرياسات والإمارات والمشيخات . وكل قرية كانت مشيخة أو إمارة ، والحرب بين هؤلاء كانت على قدم وساق . و « نجد » الذين يقولون إنها كانت موجودة كانت علما جغرافيا غير محدد المعالم أما سياسيا وتاريخيا فكانت هناك إمارات الرياض والخرج وسدير والجحفة وعيينة وبريدة وشمر (وهى حائل) وكل هذه ــ وغيرها كثير ــ

كانت إمارات مستقلا بعضها عن بعض وكانت الحرب دائرة بينها ، وبغذى البدو هذه الحروب ، وهم عرب خلصاء ولكن المحن طحنتهم وطول الفقر وتوالى عصور الظلم أخرجهم عن طبيعة البشر ، فهم مسلمون وغير مسلمين ، وهم عرب وغير عرب وبشر وغير بشر . رجال فيهم صلابة الحديد وشجاعة الأسود ولكن عقولهم خاوية وبطونهم خاوية وهم يطيرون إلى الحرب طيرانا لأول فرصة أو لقاء أو حال . وكان هذا هو الحال فى كل نواحى الجزيرة .

وكان « عبد العزيز » يرى — وهنا يكمن جانب كبير جدا من عبقريته — أن كل شعوب الدنيا قد أنشأت لأنفسها دولا إلا العرب . العرب الذين أنشأوا لغيرهم عشرات الدول الكبيرة الناجحة ليست لهم دولة . وجزيرة العرب (وهى قلب الدنيا القديمة جغرافيا ومساحتها فوق الثمانية ملايين من الكيلومترات) ليست دولة واحدة مع أن كل سكانها عرب مسلمون يتكلمون العربية . لابد إذن (لابد) من إنشاء دولة عربية وشعب عربى أى شعب يؤمن بهذه الدولة ويحمل رايتها بين رايات الأمم . هنا تنهض الجزيرة وتأخذ مكانها ويعتدل ميزان العالم العربى كله .

تلك هى الغاية التى رسمها « عبد العزيز » لنفسه منذ اللحظة التى استعاد فيها ملك آبائه فى الرياض ومضى يعمل فى تؤدة — وبناء على خطة — فى تنفيذها وإذا كانت الغاية نبيلة ورفيعة فقد كان الرجل من ورائها أنبل وأجمل : كان شجاعا ذكيا بعيد النظر حازما مستنير البصيرة ، وكان قبل ذلك كله مسلما صحيح الإسلام ، تربى فى مدرسة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ولم يكن مقيدا بكل كلمة قالها هذا المصلح العظيم بل كان مقيدا بفضائل الإسلام .

* * *

وبدأ عبد العزيز بتوسيع إمارة الرياض نحو الجنوب ففتح الخرج والافلاج والحوطة والدواسر ليؤمن ظهره ، ثم اتفق مع مبارك الكبير على الأمير بن رشيد صاحب حائل الذى كان لا يزال يمنى نفسه باستعادة الرياض فأيأسه « عبد العزيز » وأعاده إلى بلاده واضطره إلى أن يستقر فيما أعطاه الله من جبال شمر وقاعدتها حائل ، ثم فتح بلاد الوشم والمحمل وسوير . ثم وجد أن ابن رشيد لا يطمئن له جنب ، فهو يجمع القبائل والجند ويستعين بالأتراك فجمع « عبد العزيز » قوة ورسم خططه ووجه إلى ابن رشيد ثلاث ضربات قاصمات فى البكيرية والشنانة وروضة مهنا ، وكانت أوامره

اليائسة للنهوض بالخلافة العثمانية — قد فكر فى استقلال العرب ومصالحتهم ، وعندما قام رجال « الاتحاد والترقى » فى تركيا وأرغموه على إعلان الدستور ونشأ مجلس « المبعوثان » أى مجلس النواب قد اختار الأمير عبد الله أصغر أبناء الحسين بن على وجعله يعيش فى استانبول وأوسعه كرامة ، ولكن المتحمسين من عرب الشام وفلسطين صالحوا العثمانيين على دخن ، ووقعت بينهم وبين جمال باشا الوالى التركى فى دمشق مخاصمات مما اضطره — ولم يكن بالعاقل أو المخلص أو بعيد النظر — إلى إيقاع المذابح بالمعارضين من عرب الشام وفلسطين ، والأمير عبد الله غادر الآستانة مع أهله وعاد إلى الحجاز ليدبر مع أبيه خطة إنشاء خلافة عربية يكونون هم خلفاءها . ومن هناك اتصل بالمندوب السامى فى مصر اللورد كتشنر فى أمر ثورة العرب على الأتراك إذا قامت الحرب بين تركيا وانجلترا .

— وكان أيامها أكبر مسئول بريطانى فى الشرق الأوسط — لم يقل شيئا ، ولكنه أمر بأن يعاد الأمير — عبد الله بن حسين إلى الآستانة فى سفينة بريطانية خاصة ، وكان ذاهبا هناك لحضور مجلس المبعوثان .

وعندما قامت الحرب الكبرى وتحرج مركز الإنجليز أمام الألمان فى الميادين احتاجوا لأى سند . وعندما بلغ مركزهم غاية الضعف سنة (١٩١٧) فاتحوا العرب فيما كانوا قد عرضوه عليهم ، والعرب — وهم هنا الحسين بن على بن عون وآله وأنصاره من المتحمسين الشوام والفلسطينيين — استجابوا دون علم أو نظر للعواقب ، وبناء على اتفاق غير معقول بانشاء دولة عربية تشمل الشام والحجاز — وبقية الجزيرة العربية بالتالى يجلس على عرشها الحسين تحرك العرب ، وكانت الحركة هزيلة ، وأعلن الحسين الانقلاب على خلافة آل عثمان ، وهاجم ألف جندى من رجاله القنصلية التركية فى جده ، والماريشال هنرى هاينان اللنبى أقبل من جنوب العراق بجيش ليلقى العثمانيين ، وهؤلاء حاولوا عبور قناة السويس لمهاجمة مصر ، والغريب أن الذين ردوهم عن مصر لم يكونوا الانجليز ، بل قطعة من الجيش المصرى الصغير الذى سمح الإنجليز للمصريين بانشائه رد الأتراك واستشهد من الجانبين ناس ، واللنبى التقى والأتراك فى موقعة مجدو ودخل القدس وحصل على لقب اللورد أوف مجدو ، وزعم لنفسه فى عبارة رذيلة أنه استعاد القدس من صلاح الدين وتكشفت

الأمور عن أن الإنجليز أصدروا وعد « بالفور » لليهود يعدونهم فيه بالمعاونة فى إنشاء وطن قومى لليهود (٢ سبتمبر ١٩١٧) .

ولكن الحسين بن على فى مكة كان قد اعتبر نفسه خليفة المسلمين بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٢) وكان الإنجليز قد أعطوه مالا وسلاحا فاشتد عوده وقرر أن يسود شبه الجزيرة العربية . ولم يكن أمامه أقوى من « عبد العزيز آل سعود » ، وسلطنته تصل إلى تربة والخرمة غربا . وهاتان البلدتان ــ بين الطائف ومكة ــ كانتا تعينان الفاصل بين نجد والحجاز وعلى الرغم مما كان الحسين وابنه (قائد جيوشه)يبديان من الحسن نحو « ابن سعود » فإن الأمير عبد الله قائد قوات الحسين استولى على تربة واستخدموا المدافع والرشاشات و « تربة » كانت من بلاد « ابن سعود » ، وكان حاكمها خالد بن لؤى من رجال « ابن سعود » وفى سكون نام وصمت وحسم رسم « عبد العزيز آل سعود » خطته . وكانت قوة عبد الله بن الحسين سبعة آلاف جندى ، منهم ألفان من النظام . ولكن « عبد العزيز » استعد بما هو أقوى وأشد إخلاصا يقودهم خالد بن منصور بن لؤى وابن بجاد وكان هذا الأخير يقود قوة معظمها من المطغط وكان الهجوم ليلة (٢٥ شعبان ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م) وأبادوا السريتين الأوليين من حرس الأمير عبد الله ثم هجموا على السرايا المقيمة عند مخيم الأمير عبد الله ، وكان الرجل من المطغط يهجم على الجندى القائم على المدفع ويذبحه ، وأخيراً هجموا على مخيم الأمير نفسه ، ففر لا يلوى على شىء ، ولم ينج من رجاله الا بضعة ضباط . وفى الصباح قضى على بقية الجيش الحجازى وكانت قد لجأت إلى حصين . ونستطيع أن نقول إن قوة الأمير عبد الله كلها قد أبيدت . وكانت هى العمود الفقرى لقوة الحسين بن على بن عون ، فأصبح كطير قطع جناحاه فجثم فى الأرض يعانى آلام النزع وبلغ قتلى هذه المعركة من رجال الحسين خمسة آلاف رجل ، وغنمت قوات « ابن سعود » مقادير لا تحصى من السلاح والعتاد والمؤن . وسار « عبد العزيز » فدخل « الخرمة » و « تربة » وانتهى أمر شرفاء الحجاز فى هذه الوقعة ، ولم يعد فى الجزيرة كلها من يعارضه ، وطلبت إليه بريطانيا أن يرأف بالمهزوم ولا يدخل الطائف . وما كان الرجل بحاجة إلى دخول الطائف أو مكة وفتها ، فقد أصبحت كلها بلاده يدخلها حين يشاء .

فى (١٥ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م) اجتمع الناس من مختلف أنحاء الحجاز فى المسجد الحرام وبايعوا السلطان « عبد العزيز » ملكا على الحجاز ، وأصبح

لقبه ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، وأقام الملك ابنه الأمير فيصل حاكما على الحجاز وعاد هو إلى الرياض .

هكذا قامت الدولة العربية التى كان يفكر فيها « عبد العزيز » منذ اللحظة الأولى . قامت للعرب إذن دولتهم كغيرهم من شعوب الأرض . قامت على أساس إسلامي أخلاق متين ، فقد كان « عبد العزيز » مسلما صادقا وملكا عظيما ، وقد ضمت معظم الجزيرة فلم يترك إلا امارات الخليج ، فهذه كانت امارات جليلة لها أمراء ذوو شرف وبلاد عمان ، فهذه سلطنة قديمة عريقة لها شخصيتها ودورها الباهر فى تاريخ الجزيرة ، واليمن لأن الأمير يحيى حميد الدين نزامى عليه يستعطفه ، وعقدت بينهما معاهدة الطائف ، وقد دخلت فيها فى المملكة العربية السعودية نجران وجيزان .

وكان « عبد العزيز » فى أثناء ذلك كله يبنى الدولة العربية الجديدة بناء محكما . فالامارات نشأ والتعليم يسير على قدم وساق وكل شيء يجرى على تشريعة الإسلام . وبدأت عملية تحضير البدو ونقلهم من حياة البداوة التى وضحناها إلى الاستقرار . وكانت وسيلته فى ذلك انشاء « المهاجر » التى سميت « الهجر » ، هناك يستقر الناس فى الأرض ويعطون البذور وآلات الزرع ويعلمون الزراعة وتؤخذ منهم الجمال حتى لا يطيروا على ظهورها إلى الفقر ويعودوا إلى حياة الإبل وهى البداوة ، وأولاد هؤلاء الزراع هم الذين يكونون جانبا عظيما من سكان السعودية ، فهم حضر عندهم المدارس والمستشفيات ، وأبواب التجارة مفتحة أمامهم وشيئا فشيئا ينشأ الشعب العربى السعودى الجديد الذى أصبح الآن عمادا من أعمدة العروبة وفى سنة (١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م) عقد أول عقد للتنقيب عن البترول مع شركة البترول العربية الأمريكية وهى « الأرامكو » وعندما توفى الملك عبد العزيز فى (٢ ربيع الأول ١٣٧٣ هـ/ ٩ نوفمبر ١٩٥٣ م) كان عود السعودية قد استقام وبدأ البترول يتدفق وكان خيراً وبركة على العرب والمسلمين جميعا ، فان أول ما اتجهت إليه همة السعوديين للبذل والإنفاق كان الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، وقد ابدعوا فى ذلك ابداعا يشكره لهم كل مسلم حج أو اعتمر أو زار مسجد الرسول (صلوات الله عليه) .

وقد أصبح الحرم المكى بفضلهم من تحف العمارة العالمية وأخذ الحرم كله صورة باهرة من الهندسة العظيمة على أيدى مهندسين من العرب ، وابتكرت أساليب

لتخفيف حرارة الشمس عن أقدام الطائفين على الرخام ، هذا غير الميضاءات والمسعى العظيم ، ولا يزال الإنشاء مستمرا ، لأن الله سبحانه ررق عبد العزيز سلالة كريمة من الامراء المتميزين بالفضل والإيمان والخير . نذكر منهم الملك « فيصل بن عبد العزيز » الذى كان آية فى الخير والفضل والذكاء وكرم اليد .

وما نفع أحد العرب بعد نكسة (يونيو ١٩٦٧) كما نفعهم « فيصل » الفاضل الكريم . وقد أشرت فيما سبق إلى ما يدور بخلدى من أن محور القوة فى عالم العرب ينبغى أن يقوم على محور من القوة واتحاد الغاية يمتد من الرياض إلى القاهرة . فبين السعودية ومصر يجرى البحر الأحمر وهو بحر العرب الذى أمم فيه الاستعمار الحبشة دون أى مبرر ، فهذا البلد الذى كان قبل الحرب العالمية الأولى لا يملك ميناء واحدا على هذا البحر أصبح يملك — بوضع اليد الظالم على آريتريا — (١٨٠٠ كيلو متر) من ساحل هذا البحر ، وإسرائيل من سينائها الصغير فى ايلات ترسم خططا وترسم أحلاما . وهذا كله باطل . وهذا البحر لابد أن يعود بحرا عربيا كما كان فهو فى الحقيقة خندق العروبة ، وهو رابط بين مصر والسعودية لا فاصل . ولا بد من رسم سياسة محكمة للوصول إلى هذه الغاية ، وسواء دخل السودان فى هذا المحور أم لم يدخل فان مصلحته تفرض عليه أن يكتب فيه ، ولا يجوز أن ترسم سياسة وادى النيل ، أو أى جزء منه — فى لندن أو نيويورك ، فان القوة العسكرية أو المالية لا تصنع التاريخ بل تصنعه عزمات الرجال وإيمان القلوب والعلم الصحيح . والإسلام علم . والمسلمون مكانهم قيادة الأمور فى بلادهم على الأقل . هنا تأخذ النهضة العربية شكلا جديدا يغنينا نهائيا عن الجامعة العربية التى هى فعلا شىء من مخلفات الماضى ، وقبل أن يعقد رجالها قمة يبادر بعض الأعضاء إلى هدمها .

والخصومات قائمة بين دولها ، وهى فعلا منقسمة إلى معسكرات ، ومن أعضائها من يسمون أنفسهم التقدميين وهى بلاد يحكمها عسكريون حكما استبداديا سيئا ويذيقون أهلها الويلات ، وهؤلاء يعادون البلاد العربية المعتدلة التى تريد أن تسوس شعوبها بالحرية والعدالة وحكم القانون إلى المستوى المأمول رغم كل المتاعب التى لا يكف الآخرون عن تدبيرها ، وقبل أن تعقد الجامعة اجتماعا يقوم أولئك المسمون بالتقدميين بافساده ، ومن ثم فهى فى حقيقة أمرها ليست شيئا ولا تستطيع شيئا ، وهذا لايمنع القول بأن المنظمات المتفرعة من الجامعة وبخاصة هيئة العلوم والآداب والتربية مازالت تؤدى للعرب خدمات جليلة .

الجزائر وتونس وطرابلس من الفتح التركي إلى الغزو الفرنسي :

فى عبارة بالغة الشمول والعمق يبنى المؤرخ الجزائرى « ناصر الدين سعيدونى » خصائص العصر التركى فى الجزائر (١٥١٦ هـ — ١٨٣٠ م) ومميزاته يقول :[1]
تعتبر الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر الحديث فترة مهمة وذلك لعدة اعتبارات :

١ — أنها فترة تعرضت فى مطلعها البلاد الجزائرية للغزو الاسبانى الذى تركز فى المدن الساحلية ، وكاد أن يعيد بها كارثة الأندلس ومأساة انهيار الوجود الإسلامى فى تلك الديار مرة أخرى . كما شهدت الجزائر فى نهايتها الغزو الاستعمارى الفرنسى وما انجر عنه من ظلم وتعسف وإجحاف رغم ذلك دام أكثر من قرن وربع قرن (١٨٦٢ — ١٧٣٠) .

٢ — لأنها فترة عاشت أثناءها الجزائر مرحلة حاسمة ، تمثلت بالخصوص فى مواجهة اعتداءات الدول الأوروبية ، وعلى رأسها إسبانيا وفرنسا وانجلترا ، التى تكالبت أساطيلها وجيوشها على استغلال خيرات الجزائر والتحكم فى مقدراتها لمصلحة أوروبا وما تحمله من روح صليبية .

٣ — لكون هذه الفترة تعتبر بمثابة المعبر الزمنى الذى حافظ على قيم الجزائر الحضارية وتراثها ومقوماتها الإسلامية العربية التى تعمقت جذورها ورسخت دعائمها أثناء الوجود العثمانى بعد أن تبلورت واتضحت معالمها فى الفترة الإسلامية السابقة .

٤ — أنها فترة اكتمل فيها كيان الشعب الجزائرى ، وعرفت فيها البلاد الجزائرية مقومات الدولة الخاصة ، بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم أثناء انقسام دولة الموحدين (١٢٦١) وظهور الحفصيين والزيانيين والمدينيين ، وقد برز هذا الكيان بالخصوص فى اختيار عاصمة قارة (ثابتة) ورسم حدود معينة ، ووضع أجهزة ادارية وسن أنظمة اقتصادية واقرار أوضاع اجتماعية ، وانتهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك . هذا مع التأكيد على الروابط الوثيقة مع البلاد العربية ، والوفاء ضمن الوحدة الحضارية والفكرية للامبراطورية العثمانية الشاسعة .

---

(١) ناصر الدين سعيدونى : دراسات وأبحاث فى تاريخ الجزائر (العهد العثمانى) ــ المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ١٩٨٤ ص ٢٩ ـ ٣٠

وعلى هذا لا يقتصر فضل الأتراك العثمانيين على محض إنقاذ الجزائر من الوقوع فى أيدى الاسبان والفرنسيين بل انهم أتاحوا للجزائر فترة من الاستقرار النسبى فى ظل الإسلام . فاستقرت أوضاع الإسلام والعروبة فى البلاد ، وثبتت أركانها واكتمل تكوين الجزائر الإسلامى العربى ، ومن الغريب انه رغم ما هو شائع من عجز الأتراك العثمانيين عن إقامة نظم إدارية سليمة فإنهم نجحوا فى الجزائر على الأقل أكثر مما نجح من سبقوهم من الدستميين والحماديين والزيانيين فأنشأوا جهاز دولة مستكمل الشروط وأقاموا أمة عربية إسلامية مستوفاة المقومات .

وقد حاول الفرنسيون أن يطمسوا هذه الحقيقة فلم يروا فى الحكم العثمانى أى خير ولكنه على العكس من الحكم الفرنسى الذى كان استغلاليا إذلاليا يرمى إلى استخراج آخر قطرة من خير الجزائر لمصلحة الفرنسيين بالاضافة إلى اذلال الناس والإساءة إلى الإسلام فى كل مناسبة . وبين أيدينا من الكتب التى ألفها فرنسيون عن تاريخ الجزائر قبل الاحتلال وكلها فياضة بالإهانات للإسلام وأهله وللعرب والأتراك بخاصة ، وأصحابها كتبوها ليقولوا : إن الجزائر لم تعرف الاستقرار والعمران إلا فى العصر الرومانى وعصر الاحتلال الفرنسى ، أما ما بين هذين فليس هناك إلا الظلم والفوضى والتأخر ، حتى « شارل أندريه جوليان » الذى نقول انه أكثر الفرنسيين اعتدالا لم يعتدل بعض الشيء إلا عندما استقل الجزائريون وأثبتوا أنهم رجال ذوو كرامة وعزة ودين وعقيدة ولغة عظيمة وحضارة .

بعكس ذلك نجد الأتراك العثمانيين ، فقد كانوا قوما ذوى طمع فى المال ولكنهم كانوا مسلمين ، ولم يكن بينهم وبين العرب مودة كبيرة ولكنهم لم يكرهوا العرب أو يحتقروهم ، فسارت أمور العرب المسلمين الجزائريين فى حكمهم سيرا طيبا . ثم أن الأتراك العثمانيين قاموا منذ نزولهم الجزائر بوضع نظام إدرى لها لا بأس به ، فقسموها إلى أربع بيلكبات ، وقسموا كل بيلكبة إلى فحوص والفحوص إلى أوطان ، وكل وطن خاص بقبيلة ، وثبتوا هذه التقسيمات ووسعوها ولم يغيروا فيها كثيرا ، وثبتوا عاصمة الأقليم فى مدينة الجزائر وجعلوها عاصمة كبيرة حصينة ، وجعلوا لها بيلكية قائمة بذاتها هى دار السلطان ، وجعلوا لمدينة الجزائر نفسها فحصا ، ولما كان الأتراك ــ بطبعهم ــ تقليديين غير ميالين إلى التغيير فقد ثبتت هذه التقسيمات

على حالها ، وأخذ الوطن الجزائرى يظهر ويستقر ويثبت ، وهذا جانب آخر من جوانب تراث الأتراك العثمانيين فى الجزائر .

ثم إن الحكم العثمانى فى الجزائر سار سيرا طيبا إلى بداية القرن التاسع عشر ، ثم إنهم إذا كانوا يجمعون مالا بالغصب من جماعة من السكان فقد كانوا يتقاسمون الشىء المجموع مع بعض رؤساء الناس من أهل البلاد . والمال كله كان يعرف داخل البلاد فيما عدا القليل الذى كان يبعث به إلى الآستانة . وكان الحكام الأتراك يشجعون جهاد البحر ويقاسمون أهل البحر فيه ، ولم يبدأ الخراب المالى للبلاد إلا عندما تدهور جهاد البحر وقل المال الوارد منه ، ثم إن الدول الأوروبية زادت من ضغطها على الجزائر وكثر القناصل ورجال الشركات فى « عنابة » و « الجزائر » و « وهدان » وظهر منهم جشع شديد إلى أموال البلاد ، وأعانتهم فى ذلك الجماعات اليهودية الكثيرة التى كانت تعيش فى مدينة الجزائر وفى الموانى ، وهذه الجاليات اليهودية لم نشعر قط بأنها جماعات من المواطنين ، و لم تعبر قط عن شكرها للجزائريين ايواءهم فى البلاد واطلاق حرية العمل والتجارة والكسب لهم ، بل نجدهم من أول ما أخذ الإسبان والفرنسيون فى الاغارة على شواطىء الجزائر ينضمون إليهم ويعاونونهم على أهل البلاد وأولياء نعمتهم . وكان لهم دور غير محمود فى استيلاء الفرنسيين على البلاد ، وهذا ظاهر من تجنسهم بالجنسية الفرنسية ومعاونتهم الكبيرة للفرنسيين على أهل البلاد .

وقد أشار إلى هذه الحقائق كلها « ناصر الدين سعيدونى » فى دراسته القيمة عن « صالح باى » حاكم اقليم قسطنطينة وما قام به من خدمات لبلاد الجزائر ، فقد حكم هذا الرجل ذلك الإقليم إحدى وعشرين سنة (١٨٥ — ١٢٠٧ هـ — ١٧٧١ — ١٧٩٢ م) قدم فيه للبلاد خدمات جليلة . و « صالح باى » تركى من أهل الأناضول ، وقد وفد على الجزائر ودخل فى خدمة الأتراك ، ولكنه لم يكن عسكريا من أول الأمر ثم استطاع أن يسمو بفضل مواهبه حتى عينه الداى « محمد عثمان » باشا بايا لمنطقة قسطنطينة سنة (١١٨٥ هـ/١٧٧١ م) وهنا نجد هذا الرجل يرتفع بفضل مواهبه إلى درجة عالية من السلطان ، فتظهر منه صرامة وحزم عظيمان فى جمع الأموال المفروضة على العشائر والواحات واستطاع بعد جهود كبيرة اقرار النظام والهدوء فى بيلكية الشرق حتى تفردت مكانته وزاد قدره عند داى

الجزائر « محمد عثمان » باشا خصوصا عندما تمكن من تثبيت الحدود الشرقية للبيلكية وارغامه « حمودة » باشا والى تونس على الاعتراف بهذه الحدود .

وكان هذا الرجل سخيا فى الانفاق على أعمال العمران ، وإليه يرجع الفضل فى تمدين قسطنطينة وجعلها ثانية مدن الولاية بعد مدينة الجزائر ، فقد عمر حى « سيدى الكفانى » وزينه بمسجد ومدرسة سنة (١٧٧٥ م) وأقام بالقرب منه منازله الواسعة وبساتينه واسطبلاته ، وكان له مهندسون وبستانيون وطبيب من الايطاليين . وعمر كذلك ناحية الشارة وأقطعها لليهود ليقيموا فيها وينشئوا دكاكينهم فيها ، وكان غرضه من ذلك مراقبتهم والإشراف على أعمالهم وكلف كذلك مهندسا إسبانيا من أهل جزر البليار بانشاء جسر القنطرة لتيسير المواصلات بين هذا البلد الجبلى وما يحيط به من الجهات وجلب المياه إليه ولم يعش « صالح باى » حتى تمامه .

ولم نسمع نحن برجل تركى يشبه « صالح باى » فى مصر مثلا مما يجعلنا ندرك أن الفترة العثمانية فى الجزائر كانت أفضل من الفترة العثمانية فى مصر ، ففى الجزائر حفل العصر العثمانى بكبار الشخصيات النشيطة القديرة فى حين أن الأتراك فى مصر اكتفوا بترك الحكم فى أيدى المماليك ، وهؤلاء بدورهم تركوا الأمر للكشاف وجباة الضرائب ، وهؤلاء اتفقوا مع الفلاحين على مقادير الجباية وسارت الأمور بعد ذلك سيرا هادئا مما جعل الفترة العثمانية فى مصر فترة سكون وركود وتدهور مستمر .

وقد انتهت حياة « صالح باى » نهاية أسيفة إذكرهه رجال الدين وعملوا على عزله على الرغم من إحسانه الكثير اليهم . وكذلك انقلب عليه اليهود الذين كانوا يحتكرون تصدير الحبوب إلى أوروبا وكان « صالح باى » قد فرض عليهم رقابة شديدة وعلى رأس أولئك اليهود ابن زقوط بكرى ويعقوب بكرى وبو شناق . وقد عمل هؤلاء جميعا على القضاء عليه ، فتمرد على السلطان وانتهى أمره بابا على قسطنطينة وخلفه حسن أبو حنك ثم الوزناجى سنة (١٧٩٥) ومن ذلك الحين تغيرت طبيعة الحكم التركى فى الجزائر وطمع فيها الفرنسيون واستعانوا فى أمورهم باليهود .

الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٣٠ م :

وأحس الفرنسيون أن إيالة الجزائر العثمانية ضعفت ضعفا بالغا وقرروا محاولة غزوها بدأ ذلك سنة (١٨٢٧) وفيما بين هذه السنة وسنة (١٨٣٠) قام الفرنسيون

بمحاولة فاشلة لغزو البلاد بحريا ، فحاصروا مدينة الجزائر بأسطولهم من (١٦ يونيو ١٨٢٧) وكانت العلاقات بين « حسين داى » آخر دايات الجزائر الأتراك والفرنسيين سيئة ، وكان القنصل الفرنسى فى مدينة الجزائر رجلا سيئا وكاذبا ، وهو الذى اخترع حكاية قيام « حسين داى » بضربه بمروحة كانت فى يده ثلاث مرات أثناء مناقشة عنيفة بينهما فى شأن ديون كانت على القنصل من أثمان قموح كان قد استوردها من الجزائر ، وقد أبلغ القنصل دوفال ذلك إلى فرنسا وقال إن الشرف الفرنسى قد أهين ولا بد من عقاب الداى « حسين » فعهدت إلى القبطان كوليه فى أمر الحصول على ترضية مناسبة من الداى « حسين » ، وطلب هذا من الداى أن يعترف بأن فرنسا هى صاحبة احتكار التجارة بين الجزائر وفرنسا ، وكانت تلك خطوة فى نظر فرنسا لوضع يدها على البلاد منتهزة فرصة العسف البالغ الذى وصلت إليه الدولة العثمانية وعجزها عن حماية ولاياتها ، ورفض الداى « حسين » وقدمت السفينة الفرنسية لوبيتى توماس إلى الجزائر ، وطلب قائد السفينة لا بروفانس ترضية مذلة من الداى « حسين » وهذه الترضية التى طلبتها فرنسا كانت أن يرسل الداى وفدا من كبار شخصيات البلد وعلى رأسه وزير البحرية والشئون الخارجية الجزائرى المعروف بوكيل الخرج ليقدم للقنصل الفرنسى اعتذارا علنيا .

وكان من الطبيعى أن يرفض الداى « حسين » ذلك ، وأدى رفضه إلى نشوب الحرب بين الجانبين ، وقد حلل الدكتور « ناصر الدين سعيدونى » الموقف تحليلا جيدا وأرانا كيف أن الداى وأهل القوة من الجزائريين كانوا بعيدين كل البعد عن الإدراك الحقيقى للموقف المتأزم الذى وصلت إليه الأمور ، فبينما كانت فرنسا تنظر إلى الأمر نظرة استعمارية خالصة وتدبر بقيادة الملك شارل العاشر لغزو الجزائر بحريا وعسكريا وتملك أراضيها واستغلال خيراتها رغم اعتراضات بعض النواب الفرنسيين كان الداى « حسين » رغم موقفه الحازم من التهديد الفرنسى يرجو أن يصل إلى صلح مع فرنسا ليواصل الحصول على المكاسب التى تعوّد الحصول عليها من التجارة مع أوروبا أو العدوان على السفن التجارية فى حين أن طائفة الحضر ومنها كان التجار وأصحاب رؤوس الأموال المستفيدون من علاقات الحرب والتجارة مع أوروبا يظنون أن الموقف الذى حدث مع فرنسا كان موقفا مؤقتا ناتجا عن سوء تصرف الداى مع الفرنسيين مما يدل على أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك حقيقة التغير الشامل الذى صارت إليه السياسة الأوروبية وبخاصة سياسة انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تريان

أن أوان تصفية التركة العثمانية قد اقترب وتستعدان للاستيلاء على هذه التركة والسيطرة الكاملة على البحر المتوسط وظهر ذلك بشكل واضح فى غزو فرنسا لمصر سنة (١٧٩٨) وتخاذل تركيا أمام ذلك الغزو واجتهاد انجلترا فى إخراج الفرنسيين من مصر وقد تم ذلك سنة (١٨٠١) وكان من الممكن أن يقع استيلاء بريطانيا على مصر بعد ذلك بقليل لولا ظهور محمد على وإقامته دولة مصرية قوية ذات جيش وأسطول . وقد وقفت انجلترا وفرنسا معا ضد محمد على ، الأولى فى الظاهر والداخل والثانية فى الداخل وان تظاهرت بتأييده ، وكل ذلك كان كفيلا بفتح عيون الجزائريين وإعلامهم بأنهم اليوم أمام موقف جديد لا محض مظهر من مظاهر الاحتكاك مع الغرب لا يلبث أن يزول ثم تعود الأحوال سيرتها الأولى .

والغريب أن الفرنسيين الذين دخلوا مصر دون مقاومة قبل ذلك بحوالى تسعة وعشرين عاما وجدوا مقاومة لا بأس بها من البحرية الجزائرية فتحطمت بعض سفنهم وأسر البعض الآخر وذلك فى المعركة البحرية الأولى التى وقعت بين الجانبين فى (٤ أكتوبر ١٨٢٧) .

وقد كانت خسائر الجزائريين كبيرة ولكن خسائر الفرنسيين لم تكن قليلة أيضاً رغم أن الأسطول الفرنسى كان كبيرا نسبيا والأميرال كوليه الذى قاد الأسطول أولا كان قائدا ماهرا ولكن المعركة أجهدته إلى درجة أنه مات من الإجهاد فيها فى (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) وخلفه فى قيادة الأسطول القبطان قلاقل وفى نفس الوقت قام القبطان روبيرو أندريه دوناسيا بالهجوم على ميناء وهران . وبعد ذلك اكتفى الفرنسيون بحصار موانى الجزائر وإيقاف التجارة الجزائرية وقد استمر هذا الحصار حتى وقوع الغزو الفرنسى لميناء الجزائر فى (يوليو ١٨٣٠) وهى بداية الاحتلال ورغم أن الجزائريين كانوا يستطيعون إنزال خسائر أخرى بالفرنسيين ولكنهم لم يفعلوا وظلوا يأملون فى الصلح حتى كانت الواقعة وبدأ الغزو .

الغزو الفرنسى للجزائر :

أوجز مؤرخ فرنسى هو « شارل أندريه جوليان » ، فى تاريخه العام للمغرب ، المعالم الرئيسية للغزو الفرنسى للجزائر بقوله فى ص ٥٧٤ من تاريخه تحت عنوان « ديون البكرى » : عملية تجارية قام بها بعض اليهود من تجار الجزائر مشتركين فى

ذلك مع نفر سيىء من رجال السياسة الفرنسية فى باريس ثم حادث دبلوماسى (شىء) حركة وتسبب فيه رحل سياسة خارجية فرنسية مشكوك فى أمره ثم حملة فرنسية تولاها قائد فاقد لاحترام قومه ، ثم انتصار فرنسى على الجزائريين لم يحفل به الفرنسيون كثيرا ، وأعقب ذلك سقوط الأسرة الملكية الفرنسية التى رتبت لهذا الغزو (لتؤيد به مركزها المتهاوى فى بلادها) تلك كانت البداية الفريدة فى بابها للغزو الفرنسى للجزائر .

وقد سبق أن ذكرنا أولئك اليهود الذين دبروا لايقاع العداوة بين الجزائر وفرنسا وهما الأخوان بكرى وزميلهما بوشناق ، فان هؤلاء التجار اليهود الذين انتقلوا إلى ليفورنو فى ايطاليا ومن هناك سيطروا على التجارة الجزائرية وفازوا بمعظم مكاسبها وحولوا الداى « حسين » إلى لعبة بين أيديهم . وفيما بين سنتى (١٧٩٣ و ١٨٠٠) باعوا مقادير ضخمة من القمح الجزائرى لفرنسا لاستخدامها فى تموين الجيوش الفرنسية فى إيطاليا ومصر ، وتمكنا خداع الداى وايهامه بأن فرنسا لا تريد أن تدفع ثمن ذلك القمح — وكانوا هم قد استولوا عليه — وتمكنوا بذلك من الاستيلاء من الحكومة الفرنسية — بموافقة بونابرت — على أربعة ملايين من الفرنكات الذهبية المستحقة للداى دون أن يعطوه منها درهما .

والنتيجة أن الداى « حسين » صاحب هذا المال ظن أن الحكومة الفرنسية خدعته واستولت على أمواله فى حين أن الحكومة كانت قد دفعت جزءا كبيرا من ذلك المال إلى من زعموا أنهم ممثلوه فى أوروبا وهم أولئك اليهود الذين ذكرناهم .

وكان من الطبيعى أن يغضب الداى « حسين » لذلك وكان قد تولى حكومة الجزائر سنة (١٨١٨) وكان رجلا ذكيا نشيطا ولكنه لم ينتبه إلى المؤامرة التى كانت تدار حوله ، وانصب غضبه على ديفال القنصل الفرنسى الذى عين فى الجزائر سنة (١٨١٥) ودخل فى علاقات مالية غير شرعية مع اليهود ، وكان الداى « حسين » يشك فيه ويحتقره لأن تاريخ هذا الرجل فى شئون علاقات فرنسا مع الشرق والبلاد الإسلامية كان تاريخا سيئا وفى ٢٩ أبريل ١٨٢٧ وقعت بين الاثنين مشادة عنيفة فى بلاد الداى ، وزعم ديفال فيما بعد أن الداى ضربه بمروحة أو بمذبة ذباب على وجهه ثلاث مرات ، وزعم أن ذلك إهانة لفرنسا ، والمؤرخون الفرنسيون

يشكون فى صحة هذه الدعوى لأن الداى « حسين » لم يكن من الغباء بحيث يقع فى ذلك الخطأ .

وعلى أى حال فعلى أثر تجربة الحرب المريرة بين أساطيل فرنسا وقوات الجزائر البحرية قررت الحكومة الفرنسية اقامة الحصار حول سواحل الجزائر ، وهو حصار لم يرض عنه الجزائريون كما رأينا ولا الفرنسيون أيضاً .

وقررت الحكومة الفرنسية أيامه الحصار حول سواحل الجزائر سنة (١٨٢٨) حتى تحصل عى الترضية التى طلبتها من الداى وظل الداى مصرا على موقفه واحتج نائب فرنسى فى البرلمان على هذا التصرف كله وقال إن فرنسا أنفقت فوق المليون فرنك ذهبى ولم تحصل إلا على مركب جزائرى لا يزيد ثمنه على عشرين ألفا ، وكان الناس فى فرنسا قد سئموا حكومة الملك شارل العاشر وبدا بوضوح أنها ستسقط ولا ريب . وكان فييل أميرال الأسطول الفرنسى يرى غزو سواحل الجزائر ، ولكن الوزارة سقطت وحل مارتنياك محل فييل . ولم يدر هذا الرجل ما يعمل حيال داى الجزائر ، وبلغ به الأمر أنه أرسل إلى محمد على باشا والى مصر يقترح عليه أن يقوم بغزو الجزائر لحساب فرنسا ، ورفض محمد على . وأخيراً قررت فرنسا فى (يناير ١٨٣٠) أن تقوم بغزو الجزائر .

وكان غزو الجزائر مأساة عسكرية طويلة بالنسبة لفرنسا ، وقد تكلفت فى سبيل ذلك أكثر من مائة مليون فرنك ذهبى وخسرت فيه ألوف الأرواح ، ولكنها كانت أقوى من الجزائر مرارا عديدة ، ثم إن موقف الكثيرين من أهل الحل والعقد فى الجزائر من الداى « حسين » باشا جعله عاجزا عن فعل شيء خصوصا وهو نفسه لم يقدر خطورة الموقف قط . وعندما اختارت الحكومة الفرنسية الكونت بورمون قائدا للحملة أحس الفرنسيون باشمئزاز لأن هذا الرجل كان من بين القواد الفرنسيين الذين خانوا نابليون فى « ووترلو » ورحلت الحملة من ميناء طولون فى (٢٥ مايو ١٨٣٠) وكان عدد رجالها سبعا وثلاثين ألف رجل ، وكانت الخصومة بين قائد الأسطول والجنرال دوبريه شديدة وكانت الأمواج عالية ، واتجه الأسطول أولا نحو مدينة بالما عاصمة البليار .

وفى يونيو اقترب الأسطول من ساحل الجزائر ورسا عند سيدى فروج ، وكان اللقاء بين القوات الفرنسية وقوات الداى . وبعد قصف ذريع بالمدفعية تحطمت

دفاعات مدينة الجزائر ودخلها الفرنسيون فى (٥ يوليو ١٨٣٠) بعد أن حصل الداى على وعد بسلامة شخصه وآله وأمواله وحرية المكان الذى يذهب إليه . واحتل الفرنسيون مدينة الجزائر ولم يفعلوا بعد ذلك شيئا لمدة ستة شهور ، ولكن غزو فرنسا للجزائر بدأ ، لأن تركيا ــ والمفروض أنها كانت مسئولة عن سلامة الجزائر ــ لم تحرك ساكنا ــ والداى اختفى . وكان اختلاف الرأى فى فرنسا حول الموضوع عنيفا فان انجلترا اعترضت وميترنيخ لم يفهم المراد من وراء ذلك الغزو والشعب الفرنسى لم يطرب للغزو ولم ير فيه نصرا وكسبا . وبعد ستة شهور أرسلت فرنسا قائدا جديدا هو كلوزل تحرك بالجنود فى اتجاه قسطنطينة فى (فبراير ١٨٣١) وظهر من أهل الجزائر نفر لم ينظروا للأمر على أنه غزو أجنبى وانضموا إلى الفرنسيين جهلا وغباء . وكان كلوزل يرى الاستيلاء على نواحى الجزائر بالخداع واللين والحسنى الظاهرة ولكن بقية الجيش كانت تريد العنف وبعد استيلاء الفرنسيين على المدية والقليعة ظهرت أعظم شخصية جليلة فى تلك المأساة كلها ، شخصية عبد القادر الجزائرى .

الأمير عبد القادر بن محيى الدين الهاشمى :

عبد القادر كان أصغر أولاد الشيخ محيى الدين من بنى هاشم قرب مسكرة من بلاد الغرب . وكانت للرجل مكانة عظيمة فى قلوب الناس ، وكان الفرنسيون قد استولوا على وهران فى الغرب ثم توقفوا وفزع الناس إلى الشيخ محيى الدين ليقودهم فى الصراع ضد الفرنسيين ولكنه كان مسنا فنصحهم باختيار ابنه عبد القادر وكان شابا شهما ومسلما عظيما فقبل القيادة وانضم إليه أهل الغرب الجزائرى جميعا فيما عدا قبيلتين هما : الزمالة والدواير ، ولكن كانت معه قبائل قوية مثل بنى هاشم وبنى عامر وغرابة ، وقد بدأت قيادته فى (٢٥ نوفمبر ١٨٣٢) ، وقد ظهر بمظهر الزعيم القوى القادر على القيادة من أول الأمر ، وشهد له بالتميز فرنسيون كثيرون منهم الجنرال « ازان » الذى أعجب بهدوئه ورياسته وإيمانه التام بضرورة إخراج الفرنسيين من الجزائر ولينه وبعده عن العنف وأمانته فى المعاملة . والجنرال « ازان » قال إنه لا نسبة إطلاقا بين أخلاقيات عبد القادر وتدهور أخلاق القواد الفرنسيين الذين واجهوه وانتصر عليهم أول الأمر . وانتشر صيته مع فرنسا ذاتها ومال الجنرال دى ميشيل إلى التفاهم مع الأمير عبد القادر وترك غرب الجزائر له فيما عدا الميناء وهران

ومستغانم وازرو وبالفعل وقعت فرنسا مع عبد القادر الصلح المسمى بمعاهدة ديمشيل في (٢٤ فبراير ١٨٣٤) الذى اعترفت فرنسا له بالسيادة على غرب الجزائر ووثق هو بشرف الفرنسيين فمضى يحكم البلاد التى اعترف له بالسيادة عليها حكما عادلا نظاميا بعيد النظر . وكان هذا الصلح أشبه بهدنة للفريقين فكلاهما كان يريد أن يحصل على مهلة يدبر خلالها وسيلة للخلاص من الآخر . ولكن عبد القادر لم يكن يفكر فى الخيانة ، إنما هو كان يرجو أن يجمع أهل البلاد حول راية الإسلام والعروبة .

وبينما كان عبد القادر يرتب أموره فى بلاده ويمد سلطانه على جزء من بيلقبه ططرى كان الفرنسيون يرتبون أمورهم للقضاء عليه فأقاموا الجنرال تريزل قائدا لجيش الجزائر وزودوه بجيش عدته أحد عشر ألفا مسلحين بالأسلحة والمدافع الثقيلة والخفيفة . ومضى الفرنسيون بقيادة الجنرال تريزل يخضعون شرقى البلاد ويعملون على الاستيلاء على بونة وقسطنطينة ، أما عبد القادر فقد كان رجاله قد انتصروا على الفرنسيين فى موقعة المقطع وقتلوا خمسمائة من جيش عدته ألفا رجل ، وهذا النص الجزائرى زاد فى جاه عبد القادر ودفع الاستعماريين الفرنسيين إلى مضاعفة الجهود للقضاء عليه مستخدمين أعنف الوسائل .

وللوصول إلى ما كانوا يدبرونه أقاموا قائدين من أعنف الفرنسيين هما دامرمون وبوجو ولكى يستطيع الفرنسيون تنفيذ سياستهم وقعوا مع عبد القادر (معاهدة التافنا) فى (٣٠ مايو ١٨٣٧) التى اعترف له فيها بضرب الجزائر هدا وهران ومستغانم وازرو ، ودخلت تلمسان فى طاعة الأمير فيما عدا المشور الذى تمسك به جنود الأتراك القولوغلية ، وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح معظم الجزائر فعلا فى يد الأمير الجزائرى .

وفى أثناء ذلك أرسل بوجو حملة قوية للاستيلاء على قسطنطينة ، وكانت المعركة عنيفة فقتل فيها مئات الفرنسيين وبعض القادة ولكن القائد الفرنسى استطاع بفضل جماعة من جنود الزواغة الجزائريين إحداث ثغرة فى السور ودخول البلد وعلى أثر ذلك تم الاستيلاء على قسطنطينة فى (٢٣ أكتوبر ١٨٣٧) وعقب ذلك تغير الموقف تماما فقد سقطت « ميلة » و « سطيف » و « جيجل » وتمت سيطرة فرنسا .

وكان الأمير عبد القادر يرجو أن يستمر السلام بينه وبين فرنسا حتى يستطيع تقوية دولته الجزائرية ، ولكن استيلاء الفرنسيين على قسطنطينة ثم الغرب الجزائرى

كله قلب الأمور كلها رأسا على عقب ومضى الجنرال بوجو يعيث فى البلاد فسادا مستخدما أقسى الأساليب حتى كان يزيل القرى وسكانها بالنار . وقد شمل البلاد كلها ظلمه وانتشر الخوف وترك الناس قراهم هاربين إلى الجبال وعلى أثر ذلك تدهور مركز الأمير عبد القادر ووجد أن الأسلم للبلاد أن ينتقل مع طائفة صغيرة من جنده إلى أرض المغرب فى (مايو ١٨٤٣) ولكنه عاد وكسر الفرنسيين فى موقعة قرب نهر التافنا واضطر الجنرال بوجو الذى رقى إلى رتبة الماريشال إلى العودة من فرنسا ومعه قوة تعدادها (١٠٦ آلاف جندى) وهنا ضاعف عسفه وتخريبه وقاد أسوأ حرب استعمارية عرفها التاريخ إلى ذلك الحين ، وعاد عبد القادر إلى المغرب حفاظا على الباقين من أهلها ، واستقبله سلطان المغرب بالترحاب وان كان الخوف من ذلك الارهاب الفرنسى ملأ القلوب . وعزلت فرنسا الماريشال بوجو وأقامت مكانه ولى العهد الدوق دومال فسلك سياسة لين مع الجزائريين ، وعلى أثر ذلك استسلم الأمير عبد القادر للجنرال لامور سيير فترك له الامبراطور نابليون الثالث الحرية فى الانتقال إلى أى بلد يختار من بلاد المشرق الإسلامى فاختار دمشق فى (٢٧ أكتوبر ١٨٤٧) وهناك عاش بقية عمره بعد أن حلف فى التاريخ أجمل ذكرى يخلفها قائد مسلم بطل . وإذا كنا نؤرخ الآن للجزائر التى استقلت من الاستعمار الفرنسى بعد ثورة أبطال استمرت من (١٩٥٦) إلى (١٩٦٢) فلابد أن نذكر هنا أن عبد القادر يعد بحق من بناة العالم الإسلامى الحديث .

حقاً إن الأمير عبد القادر لم يستطع أن يحول بين فرنسا والاستيلاء على الجزائر واضطر إلى التسليم فى النهاية ولكنه ليس مسئولا عن ذلك فإن انهزام العالم الإسلامى كله أمام الاستعمار وقع نتيجة لتدهور سياسى واقتصادى عام للبلاد الإسلامية بدأ باختفاء حكومة الشورى من عالم الإسلام نتيجة لأن نظام الخلافة نفسه كان يحتاج إلى تحديد وتنظيم ، والفقهاء الذين بذلوا جهدا عظيما فى ضبط كل التصرفات المادية التى يقوم بها الإنسان من بيع وشراء ورهن وإرث وزواج وطلاق ونفقة وما إلى ذلك لم يتنبهوا إلى أن قيام الخلافة كان يحتاج إلى تحديد مدة الخليفة بزمن وكان يحتاج أيضا إلى تحديد سلطات الخليفة وإقامة سلطات شعبية من شأنها أن توقف الاستبداد عند حده ، وقد فعل الرومان ذلك فحددوا المدة بسنتين لابد أن يعزل الرئيس بعدها ويجيء غيره باختيار الناس ويجوز التجديد مرة واحدة ، أما نحن فقد أعجبنا بعدل أبى بكر وعمر وصلاحهما فغاب عنا التحديد ، فلما جاء عثمان ووقعت

الأزمة الأولى بين الحاكم والمحكوم لم يتنبه الفقهاء إلى أن القضية لن تحل إلا بتشريع وأنه كان لابد أن يقول الفقهاء كلمتهم ويضعوا تشريعا يقرر أن السلطة كلها في يد الأمة ، ومن حق الأمة أن تنزع السلطان عمن نرى أنه عاجز عن القيام بالحكم على وجهه الصحيح ، وكان لابد كذلك من تحديد مدة الخلافة توكيدا لسلطة الأمة بعودة القرار إليها بعد فترة محددة ، وكان لابد أن تحدد سلطات الخليفة على الأنفس والأموال ولكن أحدا لم يفعل ذلك فظللنا نحلم بأن يكون خلفاؤنا من طراز أبي بكر وعمر ، وهذا الطراز لا يتكرر فوقعت الأمة بعد استشهاد عثمان في أيدي معاوية بن أبي سفيان ، والخلافة تحولت إلى ملكية استبدادية وأي رياسة بلا حدود ولا شورى ولا سلطان للأمة تتحول إلى ملكية استبدادية وراثية ، والاستبداد شل الأذهان وعطل فكرنا وأخرجنا عن الحدود التي وضعها الله سبحانه ورسوله لأمة الإسلام التي كان ينبغي أن تظل أمة حرية وشورى حتى تظل أمة إسلام .

لهذا كان لابد أن يخسر الأمير عبد القادر المعركة كما خسرتها كل دول الإسلام أمام الاستعمار فقد خضنا المعركة مع الغرب بنظام سياسي شليل وعاجز ونظام اقتصادي أعرج وخزائن مفلسة وتقدم علمي قليل ، لأن ملوك الاستبداد لا يحبون العلم أو العلماء .

تونس من الحكم التركي إلى الغزو الفرنسي :

وكانت الدولة الحفصية قد تدهورت تدهورًا بالغا ، وفي عهد سلطانهم الثاني والعشرين « أبي عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس » (٩٣٢ — ٩٤٢ هـ/١٥٢٥ — ١٥٣٥ م) بلغ التدهور أقصاه وخرج أعراب تونس عن السلطان ، وخاف خير الدين بارباروسا من أن تقع البلاد في يد الاسبان فغزا تونس سنة (٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م) وضمها إلى دولة آل عثمان . وكان ذلك في عصر السلطان « سليمان القانوني » « وهرب » محمد الحسن بن محمد إلى الصحراء وحاول الاستنجاد بالأعراب فلم ينجده أحد ، وبلغت الخسة بهذا الرجل أن ذهب إلى شارك الخامس (شرلكان) سليل الهابسبورج وملك اسبانيا واستنجد به فأجابه وأرسل جيشا استولى على تونس سنة (٩٤٢ هـ/١٥٥٣ م) وقام الاسبان بنهب البلد واحراق المساجد واستباحة الأعراض ، وهذا « الحسن » ساكن يحكم باسم النصارى ، بل إن الاسبان نهبوا جامع « الزيتونة » وكان آية في الجمال والغنى

قصيره » خرابا ، ووقع « الحسن » معاهدة خضوع لشرلكان أجحفت بكرامة الإسلام والمسلمين فى (صفر ٩٤٢ هـ/يونيو ١٥٣٥ م) وثار الناس على الاسبان بزعامة « أبى العباس أحمد بن الحسن » فقام الناس معه واستردوا تونس وقبضوا على الحسن وسملوا عينيه ، ثم لم يلبث أن مات سنة (٩٤٢ هـ/١٥٣٥ م) .

وكان الإسبان قد استولوا على جزيرة « جربة » ومدينة « طرابلس » فأرسل السلطان العثمانى سليم الثانى القائد العثمانى الريس درغوت باشا فاستعاد « تونس » و « جربة » و « طرابلس » من أيدى الاسبان وبعد وفاة « خير الدين بارباروسا » تولى أمر الجزائر « على باشا » فأقبل وفتح تونس سنة (٩٧٧ هـ/١٥٨٩ م) وهنا نجد أبا العباس أحمد هذا بنجه إلى الاسبان ويستعين بهم على الأتراك ، فقبلوا وفرضوا على تونس حماية مذلة ، ورفض أبو العباس بن الحسن ذلك ، ولكن أخاه محمد قبل الحماية الاسبانية ونزل الاسبان حلق الوادى وأحقوا بالناس ظلما فادحا فهرب الناس إلى الصحراء ، ورأى السلطان العثمانى « سليم الثانى » أنه لابد من إخراج الاسبان من البلاد نهائيا والقضاء على كل أثر للحفصيين ، وتم ذلك على يد الصدر الأعظم « سنان باشا » فى جمادى الأولى (٩٨١ هـ/سبتمبر ١٥٧٣ م) وعلى يد « سنان باشا » تحولت تونس إلى ايالة عثمانية يحكمها باشا تركى يؤيده وجاق من الانكشارية من أربعة الاف مقاتل يرأسهم الاغا ويؤيده الأسطول وعلى رأسه القبودان رايس ، ويعاون الباشا ديوان من الأغا والقبودان ونفر من كبار الأتراك وأهل البلاد ثم صارت رياسة البلاد إلى الدايات وهم من رؤساء الجند وكان ذلك سنة (٩٩٩ هـ/١٥٩٠ م) .

وعندما تولى أمر البلاد الداى « حسين بن على » فى ربيع الأول (١١١٧ هـ يوليو ١٧٠٥ م) أنشأ أسرة ملكية وراثية أكبر أمرائها « حمودة باشا » وكان حاكما قديرا ، وأعظم أعماله غزو طرابلس وتأمينه حكامها القرامنليين على العودة إلى السلطان سنة (١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م) فى ظل الحسينيين الفونسيين .

وفى عهد مصطفى باشا (من خلفاء حمودة باشا) بدأ الفرنسيون فى غزو الجزائر فخافهم مصطفى باشا وحاول انقاذ بلاده من أيديهم ، فشرع فى إدخال إصلاحات واقترض من فرنسا أموالا ، وانتهى الأمر بفرض الحماية الفرنسية على تونس فى جمادى الثانية (١٢٩٨ هـ/ مايو ١٨٨١ م) .

المغرب الأقصى : الأشراف السعديون والأشراف العلويون والاحتلال الفرنسي :

يمكن القول بأن المغرب الأقصى كان أحسن حالا من معظم البلاد الإسلامية في العصور الحديثة وهي عصور النهوض لأن اتجاه تاريخه وطبيعة أهله أرادت له أن تحكمه أسرتان من الشرفاء القادرين المتحمسين للإسلام ، وقد سبق هاتين الأسرتين ، وبعد أيام المدينيين وفي أثناء عصر بني وطاس أن اشتد الحماس الصليبي في اسبانيا والبرتغال وأصبحت الحروب متصلة بين الاسبان والبرتغاليين من ناحية وأهل المغرب من ناحية أخرى ، لأن دول البرتغال بعد أن أقفل في وجهها باب التوسع في شبه الجزيرة الأيبيرية اتجهت مطامعها إلى شواطىء المغرب واحتلت مواضع مثل طنجة والقصر الكبير وانفا وهي الدار البيضاء وآزمور ومازغان وآسفي والعجوز وأغادير وماسة وانشأوا فيها مراكز تجارية ومستعمرات صغيرة عرفت بالفرونتيرات ولكنهم نادرا ما توغلوا داخل البلاد . وهذا التهديد النصراني دفع إلى قيام جماعة صوفية مركزها تارودانت وهي جماعة أبو حسون السملالي بمهاجمة المراكز البرتغالية وتمكنوا من استعادة أغادير وآزمور وآسفي فارتفعت همم المسلمين ونهض نفر من شرفاء الجنوب هم السعديون وانشأوا دولتهم السعدية وأعلنوا أنهم سيتجهون إلى حرب البرتغاليين وقيادة الجهاد ضدهم ، وأيدهم الناس في ذلك ، وكان شمال المغرب الأقصى قد وقع في أيدي بني وطاس ، وكانوا أول الأمر من رجال المدينيين ، فلما نهض السعديون تمكنوا من التغلب عليهم وإنهاء حكمهم وبسط سلطانهم على المغرب كله في (سبتمبر ١٥٥٤) .

وكان أول السلاطين السعديين أبا عبد الله محمد القايم بالله بن عبد الرحمن بن علي ، وقد بدأ يحكم سنة (٩٥٥ هـ / ١٥١٨ م) وكانت عاصمة حكمه فاس ، ولكن أسعدهم حظا كان أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي (٩٨٣ — ٩٨٦ هـ / ١٥٧٥ — ١٥٧٨ م) الذي وصل إلى العرش بمعاونة الأتراك العثمانيين وتمكن في (٤ أغسطس ١٥٧٨ م) من كسب نصر وادي المخازن العظيم قرب القصر الكبير في شمال المغرب الأقصى وهو نصر حاسم للمغرب على البرتغاليين وحلفائهم وقد قتل في هذه المعركة الملك سباستيان ملك البرتغال والسلطان المغربي السعدي المخلوع أبو عبد الله محمد المتوكل على الله ومات في نهاية المعركة أبو مروان نفسه إذ إنه كان مريضا قبل المعركة ، ولهذا تسمى هذه المعركة بمعركة « الملوك الثلاثة » فخلعه اخوه

أبو العباس أحمد بن محمد المهدى الذى تلقب بالمنصور ولقب بالذهبي بسبب غناه ووفرة ماله (٩٨٦ - ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣ م) وقد وضعت هذه المعركة حدا لمطامع البرتغاليين فى المغرب من ذلك الحين أخذ هؤلاء يخلون مواقعهم فيه وينجهون إلى بحار أفريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية الغربية .

وهذا هو الذى رفع السعديين إلى مراتب كبار السلاطين لافى المغرب فقط بل فى كل بلاد الغرب الأوروبى ، وكان أحمد المنصور قد كسب أموالا طائلة من مغانم المعركة أولا ثم من فديات أسراها . وبفضل الثروة والسمعة العظيمة استطاع هذا السلطان السعدى أن ينشر فى بلاد المغرب أمانا لم تعرفه من أيام الموحدين وقد استطاع أن يمد سلطانه جنوبى وادى درعة واستولى على فوات وطمع فى الاستيلاء على نغازى فى الصحراء الكبرى وكانت سوقا عظيمة للملح الذى كان يعتبر من أكبر مصادر الثروة فى أفريقيا الغربية المدارية والاستوائية وكان الناس يأتون إلى هناك بتبر الذهب فطمع فيه المنصور وأرسل حملة بحرية إلى « تمبكتو » لم يحسن اختيار رجالها اذ كانوا من العائدين إلى الإسلام من الموريسكيين الوافدين على الغرب ، وأقام فى قيادتها جوذر باشا ، وقد خربت هذه الحملة مملكة صنغاء الإسلامية وعادت على المنصور الذهبى بمال وفير أول الأمر ولكنها أصبحت بعد ذلك كارثة على أفريقيا الإسلامية .

وبعد أن أمن المنصور الذهبي تدهورت السلطنة وضاع أمرها بين الحروب الأهلية وسوء الحكم وتقاسمت السلطان على المغرب جماعات الزوايا الصوفية خصوصا زاوية أبو حسون السملالى فى الجنوب وزاوية الدبلة فى الشمال . وفى منطقة سجلماس ظهر الشرفاء العلويون وأولهم الرشيد بن محمد بن على بن يوسف بن على بن حسن (١٠٧٥ - ١٠٨٢ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧١ م) وكانت عاصمته مكناس ، وكان أعظم سلاطينها فى الإسلام وأطولهم حكما (ذو الحجة ١٨٠٢ - رجب ١١٣٩ هـ / مارس ١٦٧٣ - فبراير ١٧٢٧ م) وكان رجلا بالغ النشاط واسع الذكاء بالغ الحزم ، وقد استطاع أن ينشىء جيشين كبيرين أحدهما من بقايا العرب والبربر والثانى من السود الأفريقيين الذين جمعهم من كل نواحى المغرب وأنزلهم فى مشرع الرمل قرب مكناس عاصمته ودربهم تدريبا عظيما سماهم بالبخاربة (لأن الواحد منهم إذا انتهى تدريبه وأصبح صالحا للحرب أقسم على البخارى ودخل فى اعداد العبيد البخارية) وبفضل هذين الجيشين استطاع المنصور أن يفيد وحدة البلاد ويقيم فيها دولة بالغة

القوة . وكانت عاصمته مكناس قد أنشاها انشاء جميلا وأضاف إلى المغرب بذلك عاصمة ثالثة بالغة الحسن والبهاء وبفضل هذا الرجل ارتفع صيت المغرب فى العالم كله وصالحه الأتراك العثمانيون وبلغت البلاد مبلغا عظيما من الرخاء .

ولكن البلاد أخذت تتدهور من بعده ، وقد بذل بعض خلفائه جهودا عظيمة فى إعادتها إلى ما كانت عليه ، ولكن الزمان كان يتغير ففى سنة (١٢٤٦ هـ) المقابلة لسنة (١٨٣٠ م) وفى عهد السلطان محمد الثانى بن عبد الرحمن بدأ الفرنسيون فى غزو الجزائر ووجم سلطان المغرب لأن الخطر على بلاده صار داهما وبخاصة عندما ظهر الأمير عبدالقادر ولجأ إلى المملكة المغربية .

و لم يستطع العلويون حماية بلادهم تماما من الفرنسيين لأن عصر الاستعمار كان فى الطريق إلى بلوغ ذروته ، والصراع كان بين بلاد تملك السلاح والعلم والنظام السياسى المتقدم وبلاد أخرى وقف تقدمها فى هذه النواحى الأساسية ، وفى شوال (١٣٢٩ هـ / ١٩١٢ م) أعلنت الحماية الفرنسية على المغرب ، وبذلك أكملت فرنسا امبرطوريتها المغربية أو الأفريقية .

وقد عانت بلاد المغرب كلها من الاحتلال الفرنسى أسوأ صور الاستغلال والاذلال ، لأن الفرنسيين لم ينسوا قط أنهم كاثوليك يحاربون مسلمين ، وقد استطاع سلاطين المغرب الأقصى المحافظة على بلادهم مكتملة رغم الاستغلال الفرنسى الشائن ، أما الجزائر فقد قرر الفرنسيون أن يجعلوها جزءا من وطنهم الفرنسى وأرسلوا إليها ألوفا بعد ألوف من المستعمرين الفرنسيين وحسبوا أنهم يستطيعون القضاء على الإسلام والعروبة ليتبينوا فيما بعد أنهم يطلبون المستحيل .

والحقيقة أن عصر الاستعمار كان عصرا مريرا بالنسبة لكل بلاد الإسلام لأن أظافر أوروبا المحتلة كانت حامية وقاسية ومطامعها فى الأرض والثروة كانت بلا حدود ولكنها لم تنهب الناس أو تخترمهم فقط . وكان ذلك شرا عظيما فى أيامه ولكن يبدو أنه كان شرا لابد منه ، فقد كان لابد من تحطيم الاطارات السياسية والاجتماعية والثقافية القديمة والدخول بالبلاد فى عصور جديدة ومناخ حضارى جديد ، وبعد أن تحررت البلاد من الاستعمار بدا بالفعل أن بلاد الإسلام حين قبست ما يصلح لها من حضارة الغرب دخلت فى عصور جديدة من القوة ويكفى أن نذكر أن فرنسا التى كانت تريد أن تجعل بلاد الجزائر قطعة من الوطن الفرنسى أحست عندما ثارت

الجزائر سنة (١٩٥٦) أنها لا تستطيع مواجهة الإسلام والعروبة ، وأحس الجنرال ديجول أنه ما لم تتخل فرنسا عن الجزائر تعرضت فرنسا نفسها للسقوط فقرر التخلى عن الجزائر ، وبالفعل خرج المغرب العربى كله من الاستعمار الفرنسى سليما معافى ، وكذلك خرجت بقية بلاد الإسلام وقد دخلت بالفعل فى عصر نهوض لا شك فيه .

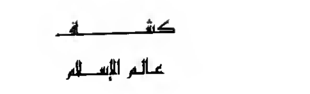
ولكن ، ما الذى كسبناه – أو نحاول كسبه فى عصر النهوض هذا ؟
إنه العلم والعمل بالعلم والعمل بإخلاص وصدق واتقان ، والايمان بالله والوطن والنفس ، والحرية والشورى واحترام الإنسان للإنسان والعدالة والمساواة والتقدم وتحسين مستوى الحياة ونشر السلام فى الأرض وأليس هذا كله فى القرآن والإسلام ؟ أليست هذه كلها موجودة فى الأمة التى أنشأها رسول الله (ﷺ) فى المدينة وسار عليها وأخذ بها عامة المسلمين ؟ ! أليست هذه هى السنة كما ينبغى أن تكون ؟

أجل كل هذا عندنا ولكننا انحرفنا عنه بل نسيناه ، وما كان ينبغى قط أن ننحرف عنه أو ننساه ، فهو فى الحق طريق السعادة والسلامة والأمن فى هذه الدنيا وسبيل الخلود فى جنة الله فى الآخرة .

بكلمة قصيرة نستطيع أن نقول إن عصر النهوض هو عصر العودة إلى الإسلام بعد طول انحراف وضلال .






كشـــــــف
عالم الإسـلام



كشــاف

[أ]

[ب]

[ت]

[ث]

[ج]

[ح]

[خ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ز]

[ش]

[ص]

[ض]

[ط]

[غ]

[ف]

[ق]

[ك]

[ل]

[ن]

[هـ]

[و]

[ى]

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع : ٨٠٩٤ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٠ – ٤٣ – ١٤٧١ / ٩٧٧

